دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أوربا العصور الوسطى

الجزء الأول

التاريخ السياسى



مكتبة الأنجلو المصرية


مكتبة
طريق العلم

أوربا

العصور الوسطى

أوربا العصور الوسطى

الجزء الأول

التاريخ السياسى

دكتور

سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية.

عاشور ، سعيد عبد الفتاح

اوربا العصور الوسطى ج١

تأليف / سعيد عبد الفتاح عاشور

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٩ .

٧١٢ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

١ـ التاريخ السياسى

أ ـ العنوان

رقم الإيداع : ٢٩٦٠

ردمك : ٨ ـ ١٥١٠ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم غلاف: ماستر جرافيك

الناشـر : مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

ظلّ اصطلاح العصور الوسطى حتى زمن قريب يطلق على القرون العشرة الواقعة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب في النصف الثاني من القرن الخامس، وظهور حركة النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، على أن ازدياد الاهتمام بالتقدم الحضاري الذي أصابته أوربا منذ القرن الحادي عشر؛ أدى إلى الاعتراف حديثًا بأن ثمة حضارة جديدة قوية شهدتها أوربا في الجزء الأخيرمن العصور الوسطى؛ مما ساعد على ظهور اتجاه بين الباحثين يرمي إلى قصر اسم العصور الوسطى على القرون الأربعة التي سبقت النهضة الإيطالية مباشرة، أو التي تمخضت عن مولد هذه النهضة، على أن نعتبر الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والحادي عشر بمثابة دور انتقال طويل من العصور القديمة إلى العصورالوسطى.

وإذا كان أبناء المدرسة القديمة من المؤرخين قد أصروا دائمًا على اتخاذ سنة ٤٧٦ ـ وهي السنة التي سقطت فيها الإمبراطورية في الغرب ـ حدا فاصلاً بين العصور القديمة والوسطى، وسنة ١٤٥٣ ـ وهي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية في أيدي العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ـ حدا فاصلا بين العصور الوسطى والحديثة إلا أننا لا نستطيع أن نسايرهم باطمئنان في هذا الاتجاه، ذلك أن اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر يبدو في نظرنا أمرا بعيدا عن الحقيقة والواقع؛ لأن التطور التاريخي يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها في بعض أشبه شيء بنمو الكائن الحي.

وكما أننا لا نستطيع اتخاذ لحظة بعينها نقول إن الفرد ينتقل فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب أو من هذه المرحلة الأخيرة إلى مرحلة الشيخوخة فكذلك من المبالغة التاريخية أن نختار سنة محددة لنقول إن العصور القديمة انتهت فيها بجميع مظاهرها لتحل محلها العصور الوسطى، أو أن العصور

الوسطى توقفت فيها عن السير تماما لتفسح الطريق للعصورالحديثة. وبعبارة أخرى فإننا نحب أن نؤكد ظاهرة تداخل العصور التاريخية بعضها فى بعض؛ بحيث لا تفصلها حدود ضيقة وسنون معينة، وإن كان من الممكن أن نلتمس العذر للمؤرخين عندما يصطلحون على اختيار بعض السنوات المهمة أو الأحداث الكبرى لتكون فواصل بين العصور التاريخية ؛ بأن الغرض من ذلك هو مجرد الرغبة فى تسهيل البحث على أساس أن هذه السنين وما تم فيها من أحداث كبرى هى أخطر الوقائع فى مرحلة الانتقال بين عصر وآخر.

وكل ما هنالك هو أننا نلمس فى القرن الرابع حدوث بعض التطورات الخطيرة التى كان لها أثر فى تغيير وجه التاريخ القديم وإن ظلت معالم هذا التاريخ القديم باقية فى أوربا إلى ما بعد القرن الرابع بكثير، من ذلك ما شهده ذلك القرن من اعتراف الإمبراطورية بالديانة المسيحية سنة ٣١٣، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠، وازدياد خطر الجرمان على كيان الإمبراطورية الرومانية عقب موقعة أدرنة سنة ٣٧٨، واتخاذ المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية سنة ٣٩٢، ثم تقسيم الإمبراطورية الرومانية الكبرى إلى قسمين شرقى وغربى سنة ٣٩٥. فالقرن الرابع إذا يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كيفت تاريخ أوربا فى العصور الوسطى وهى الكنيسة المسيحية، والجرمان، والإمبراطورية، فلا أقل من أن نبدأ دراستنا لتاريخ أوربا فى تلك العصور باستعراض أحوالها عند مستهل القرن الرابع دون أن نرتبط بسنة معينة فى بداية ذلك القرن أو نهايته. كذلك يلمس الباحث فى تاريخ القرن الخامس عشر أن ثمة تطورات مهمة أخذت تلم بالمجتمع الأوربى - وخاصة فى النصف الأخير من ذلك القرن - لتغير المألوف وتنتقل بذلك المجتمع - تدريجيًا - نحو أوضاع أخرى جديدة. ففى سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية العتيدة - فى أيدى العثمانيين؛ مما ترتب عليه حدوث انقلاب خطير فى شرق أوربا؛ نتيجة لاتساع نفوذ العثمانيين، حقيقة أن هذه لم تكن المرة الأولى التى تسقط فيها عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى أيدى الأعداء، فقد سبق أن سقطت فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤، وعندئذ تعرضت الإمبراطورية البيزنطية

وعاصمتها لأشد أنواع العبث على أيدى الصليبيين، ولكن على الرغم من العداء المذهبى الشديد بين الصليبيين الكاثوليك والبيزنطيين الأرثوذكس، إلا أننا يجب أن نذكر أن هؤلاء الصليبيين كانوا مسيحيين غربيين، أما العثمانيون الذين استولوا على القسطنطينية ١٤٥٣ فلم يكونوا مسيحيين أو غربيين؛ وإنما كانوا مسلمين شرقيين. مما يوضح خطورة الانقلاب الذى تعرضت له أوربا وحضارتها نتيجة لذلك الحدث. وإذا كانت سنة ١٤٥٣ تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ ذلك الجزء الشرقى من أوربا. فإن هذه السنة ذاتها قد تكون عديمة الأهمية بالنسبة لكثير من بقية بلاد أوربا. حقيقة أنها شهدت أيضاً هزيمة الإنجليز فى موقعة شاتيلون وبذلك وضعت نهاية فعلية لحرب المائة عام، ولكننا إذا دققنا النظر فى تاريخ إنجلترا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وجدنا أن سنة ١٤٨٥ ـ التى شهدت قيام أسرة تيودور فى الحكم ـ أكثر بروزا وأهمية بالنسبة للتاريخ الإنجليزى بالذات.

ومثل ذلك يقال عن سنة ١٤٦٦ بالنسبة لبولندا؛ لأن فيها خضع الفرسان التيتون، وانضمت بروسيا إلى بولندا، وسنة ١٤٨٠ بالنسبة لروسيا؛ لتحررها وقتئذ من نفوذ المغول. وسنة (١٤٩١ – ١٤٩٢) بالنسبة لأسبانيا؛ لسقوط دولة غرناطة الإسلامية. هذا كله عدا ما شهده النصف الأخير من القرن الخامس عشر من حركة إفاقة شاملة سرت فى المجتمع الأوربى ليترتب عليها ما يعرف باسم حركة النهضة؛ وهى الحركة التى كان أهم مظاهرها إحياء الآداب، والعلوم، والفنون، وتحرير العقل البشرى من كثير من القيود القديمة؛ والتى جاءت مصحوبة باختراع الطباعة من جهة ، واستكشاف الطرق البحرية إلى أمريكا والهند من جهة ثانية، ثم الثورة على الكنيسة وأوضاعها من جهة ثالثة؛ لذلك حاولت أن أتخذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر خاتمة لدراسة أحوال أوربا فى العصور الوسطى دون أن أرتبط بسنة معينة أو بحدث محدد؛ لأن ما يكون خطيرا بالنسبة لبلد قد يكون كذلك بالنسبة لبلد آخر.

والواقع أنه لابد لنا ـ لكى نعى تاريخ أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى

وعيا صادقا ـ من أن نحرر عقولنا تماما من نظرتنا الحديثة إلى الحياة، ونضع دائما نصب أعيننا حقيقة مهمة؛ هى أن أهالى العصورالوسطى نظروا إلى الحياة ومشاكلها الأساسية من زاوية تختلف كلية عن الزاوية التى ننظر منها نحن إلى الحياة ومشاكلها. فإذا استطعنا أن ننظر إلى العصورالوسطى بهذه النظرة الواقعية، فإننا سنرى تلك العصور على حقيقتها، وسندرك عندئذٍ أنها ليست «مظلمة» ومليئة بالعنف، والقلاقل، وسفك الدماء، كما صورها الإنسانيون من رجال النهضة الإيطالية ـ وخاصة بترارك ـ وهم الذين فتنتهم الحضارة الكلاسيكية فأجحفوا بحق العصور الوسطى ونسوا أن تلك العصور اهتمت بابتكار حضارة جديدة أكثر من اهتمامها بعبادة الحضارة القديمة وتقديسها. وسيتضح لقارئ هذا الكتاب أن أوربا العصور الوسطى لم تعدم ظهور مفكرين أفذاذ أسهموا فى بناء الحضارة البشرية وقدموا خلاصة فكرهم لتستفيد منها العصور الحديثة، وحسبنا ما أسهمت به أوربا فى العصورالوسطى من قوانين، ونظم حكومية، واجتماعية مبتكرة، فضلا عمَّا أبدعته من طرز فنية، وألحان موسيقية، ونظم تعليمية، واقتصادية، ودينية.

وقد حاولتُ أن يأتى هذا الكتاب معبراً عن جميع التطورات السياسية والحضارية التى مرت بها أوربا بين القرنين الرابع والخامس عشر، فعالجت ـ فى هذا الجزء الأول ـ تاريخ أوربا السياسى فى تلك الفترة مبتدئاً بالكلام عن الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الأخير، ثم عالجت فى الجزء الثانى تاريخ أوربا الحضارى فى العصور الوسطى حتى قيام النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر.

وليس من حقى أن أشرح للقارئ المجهود الكبير الذى استنفده منى وضع هذا الكتاب طوال سنوات عديدة، أو أن أُعدد له الصعاب الكثيرة التى يصادفها واضع كتاب باللغة العربية فى موضوع بعيد كل البعد عن العقلية العربية فى العصور الوسطى بل الحديثة. وحسبى أن أترك للقارئ وحده تقدير ما استهلكه هذا الكتاب من جهد ووقت. ولكن من حقى ـ وواجبى ـ أن أقدم شكرى خالصاً إلى كل من عاوننى بجهده وتشجيعه فى إنجاز هذا المؤلَّف، وأخص بالذكر

السادة الذين ذكرت أسماءهم فى مقدمة الطبعة الأولى.

وسيلمس القارئ فى هذه الطبعة تغييرات كثيرة، سواء فى تنقيح بعض الأجزاء، أو إضافة فقرات جديدة، وقد استجبت لما طلبه منى بعض الزملاء من كتابة فصل تمهيدى عن أصول التاريخ الأوربى، يحوى عرضا موجزا سريعا لتاريخ اليونان والرومان. أما الخرائط فقد غيرتها تغييرا شاملاً وأكثرت من عددها حتى تكتمل الفائدة من الكتاب.

ولا يسعنى إزاء الإقبال الذى لقيته الطبعات السابقة من هذا الكتاب، ورسائل التقدير العديدة التى تصلنى من زملائى وتلاميذى فى مختلف الجامعات العربية، سوى أن أرجو أن تعم الفائدة منه وأن نرى قريبا فى المكتبة العربية سلسلة من المراجع العلمية؛ لتسهيل تدريس هذا الجانب المهم من جوانب التاريخ فى جامعاتنا العربية.

والله ولى التوفيق.

المؤلف

الباب الأول
أصول التاريخ الأوربى

اعتاد كثيرمن الجغرافيين أن يصفوا أوربا بأنها لا تتعدى واحدة من أشباه الجزر البارزة من قارة آسيا؛ فهى امتداد للقارة الآسيوية فى الاتجاه الغربى، وإذا كان هذا الرأى له ما يبرره من الاعتبارات الجغرافية فإنه ينبغى أن نذكر أن هناك من الاعتبارات التاريخية - وما يرتبط بهذه الاعتبارات من نواحٍ بشرية وجنسية - ما يجعلنا ننظر دائما إلى أوربا على أنها قارة مستقلة لها كيانها الخاص وطابعها المميز.

وكان أول من فرق بين آسيا وأوربا هم أصحاب الحضارات الشرقية فى غرب آسيا. فنجد فى بعض النقوش الآشورية تعريفا لآسيا بأنها أرض الشروق، وتعريفا لأوربا بأنها أرض الظلام أو الغروب، ومع ذلك فإنه كان من الصعب دائما تحديد حدود فاصلة بين أوربا وآسيا، حتى إن الكتاب فى القرن الثالث قبل الميلاد اعتبروا السهول الشمالية فى قارة آسيا جزءاً من القارة الأوربية، وعلى الرغم من أن العوامل الطبيعية والمناخية تدخلت فى نهاية الأمر لاختيار جبال أورال فى شرق أوربا حدا فاصلا بين القارتين، إلا أننا ما زلنا نلمس أن منطقة السهول الممتدة من غرب آسيا إلى شرق أوربا تمثل دائما أبدا منطقة انتقال بين القارتين من النواحى الطبيعية والبشرية وغيرها.

وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن مساحة أوربا تبلغ ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين ألف ميل مربع تقريباً. وذلك إذا استبعدنا الجزر الصغيرة المحيطة بشواطئ القارة، وغيرها من الأقاليم الواقعة فى الجنوب الشرقى والتى تدخل فى منطقة الانتقال بين أوربا وآسيا. وتتصف شواطئ أوربا بكثرة التعاريج، ووجود عدد مهم من أشباه الجزر، وثمة ظروف معينة ساعدت على أن تحتل أوربا الحديثة مكانتها فى العالم، أهمها ملاءمة الظروف المناخية، وتنوع الموارد، وتشعب السواحل، وكثرة الخلجان، ووجود عدد كبير من الأنهار التى تصب إما فى المحيط الأطلسى غربا أو فى البحر المتوسط جنوبا أو فى البحر الأسود شرقا.

على أن عظمة أوربا ودورها الحضارى لم يرتبطا بالتاريخ الحديث فحسب؛ وإنما نهضت هذه القارة منذ العصور القديمة بدور فاعل فى الحضارة البشرية. وإذا كنا قد خصصنا هذا الكتاب ـ بجزءيه ـ للكلام عن تاريخ أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى. فإن فهم أوضاع أوربا فى العصور الوسطى يتطلب منًا الإشارة فى إيجاز إلى تاريخ أوربا فى العصور القديمة، والمستوى الحضارى الذى بلغته أوربا فى تلك العصور؛ وذلك لأن العصور الوسطى كما نعلم نبعت من العصورالقديمة، والواقع أن الحضارة الأوربية قامت فى العصور القديمة على أساس دعامتين كبيرتين هما: حضارة اليونان، وحضارة الرومان.

الحضارة اليونانية:

كانت بلاد اليونان المهد الأول للحضارة الأوربية القديمة، ومازال الأوربيون بوجه خاص يفخرون بكبار الأعلام من العلماء، والفلاسفة، والأدباء، والمؤرخين، والشعراء، والمشرعين؛ الذين أنجبتهم الحضارة اليونانية. والذين ارتبطت أسماؤهم باسمها، ثم إن تاريخ الحضارة اليونانية لم يرتبط برقعة محددة من الأرض عاش داخل حدودها شعب معين؛ وإنما اتسع نطاق هذه الحضارة ليشمل البلاد الواسعة التى انتشر فيها اليونانيون على امتداد سواحل البحر المتوسط وفى جزره.

ذلك أن جغرافية بلاد اليونان وطبيعتها تركت أثرا عميقا فى أحوال اليونانيين ومعيشتهم، وبالتالى فى حضارتهم، فهذه البلاد ضيقة الرقعة، صعبة التضاريس، معظمها جبلى، تتخلل جبالها سهول ضيقة ليست على درجة كافية من الخصوبة والثروة، وقد نتج عن هذا كله صعوبة توحيد بلاد اليونان فى كثير من عصور تاريخها فى ظل حكومة واحدة أو حتى نظم سياسية واحدة؛ وإنما نجد هذه البلاد فى العصور القديمة مستقراً لجماعات شبه مستقلة بعضها عن بعض، قد تربط بينها روابط اجتماعية وعنصرية، ولكن تسودها الروح الانفصالية من الناحية السياسية، وهكذا برزت فى كل إقليم مدينة صارت لها الزعامة على السهول المحيطة بها، وأصبحت هذه المدينة بمثابة دولة تكفى نفسها بنفسها؛ مما جعل الكُتَّاب يطلقون اسم «المدينة الدولة» على هذه الوحدات السياسة التى عرفتها بلاد اليونان فى العصور القديمة.

وإذا كانت طبيعة بلاد اليونان من الداخل قد فرضت عليها وعلى أهلها هذه الفرقة، فإن سواحل هذه البلاد اتصفت بكثرة التعاريج والخلجان، وبكثرة ما يقع بالقرب منها من الجزر، ونتج عن ذلك أن صعوبة البيئة وفقرها وعدم استطاعتها تحمل زيادة السكان. كل هذه العوامل طردت الناس نحو السواحل ووجهتهم نحو البحر، فاشتغلوا ببناء السفن، وركوب البحر للقرصنة، والصيد أو التجارة، ولم تكف هذه الوسائل لمواجهة المصاعب التى واجهها أهل اليونان فى تلك البيئة الفقيرة الطاردة، فلجأوا إلى وسيلتين: الأولى تحديد النسل وامتداح الأسرة ذات الابن الواحد، حتى لقد كان اليونانيون يعرّضون أطفالهم أحيانا للموت بتركهم عرايا فى البرد فوق الجبال للخلاص منهم، وهذا الإجراء خولته قوانين البلاد فى العصور القديمة، على أن هذا العلاج لم يكن الحل الإنسانى المعقول، فاتجهوا إلى إجراء آخر هو الهجرة فهاجروا إلى آسيا وقبرص، وشواطئ مصر، وشمال أفريقيا، وإيطاليا وغاليا، فضلا عن جزر البحر المتوسط. وفى جميع هذه البلاد التى هاجر إليها اليونانيون أسسوا مستوطنات خاصة بهم؛ فأصبحت هذه المستوطنات بدورها مراكز للحضارة اليونانية، كما حافظوا على صلاتهم بالبلاد الأم؛ مما ترك أثرا كبيرا فى التطور الحضارى لبلاد حوض البحر المتوسط.

ويرتبط تاريخ اليونان القديم بمدينتين أو دولتين هما: أسبرطة وأثينا. أمّا أسبرطة فكانت أكبر مدن أقليم لاكونيا، واتصف تاريخها الأول بالفوضى والضعف حتى ظهر فى القرن التاسع قبل الميلاد مشرع مشهور - وإن ظن البعض أنه شخصية وهمية - اسمه ليكرجوس، خلص أسبرطة من متاعبها الداخلية وبثّ فيها القوة والعزيمة. وبالتالى فقد خلقها جديدا، وقد وضع ليكرجوس دستوراً لأسبرطة حدد فيه العلاقة بين الأشراف والأحرار والملكين اللذين كانا يحكمان أسبرطة، فنظم توزيع السلطات بين هذه الجهات الثلاث، وجعل لكل من الأشراف والأحرار مجلسًا له دور معين فى النهوض بالحكم، وبذلك حقق نوعا من الاستقرار السياسى.

على أن أهمية ليكرجوس فى تاريخ أسبرطة لا تنبع من تشريعاته السياسية فحسب، بل أيضًا من نظامه الاجتماعى الذى سنّه لأسبرطة والذى عرف باسم نظام

التربية الأسبرطية؛ ذلك أن المجتمع الأسبرطى كان يعيش على الفطرة، تسوده عادات، وتقاليد نابية، مثل السماح للرجل بخطف خطيبته بالقوة من أبويها، والسماح للمرأة أن تجمع بين أكثر من زوج واحد، فحاول ليكرجوس تهذيب المجتمع الأسبرطى من هذه المفاسد، وفى الوقت نفسه وضع نظاما يقوم على أساس التطرف فى الخشونة والتقشف من ذلك أن ليكرجوس وضع نظاما يحتم على الآباء إخطار ولاة الأمور بأى مولود جديد يولد لهم، ولولاة الأمور أن يقرروا إذا كان هذا الطفل قوى البدن، سليم البنية، يتحمل أعباء الحياة، وعندئذ يسمحون له بالحياة أما إذا قرروا أنه ضعيف لاترجى منه فائدة فإنه يعرض للبرد والجوع فوق الجبل حتى يموت، ومن ناحية أخرى فإنه وضع للأطفال الصغار الذين سمح لهم بالاستمرار فى الحياة نظاما قاسيا يضمن خلق رجال أشداء منهم، فكان عليهم أن يمشوا حفاة الأقدام مسافات طويلة، وأن يرتدوا ثوبا واحدا على الجسد فى الشتاء، ويناموا على أسرة خشنة من الجريد، وأن يطعموا أنفسهم بأنفسهم، وذلك مما يسرقونه، أو يخطفونه، أو يصطادونه، فإذا ضبط الولد وهو يسرق عوقب عقابا شديدا لا لأنه سرق؛ وإنما لأنه لم يستطع أن يسرق دون أن يشعر به أحد.

وهكذا نشأ شباب أسبرطة نشأة عسكرية صارمة، فى حين قام بفلاحة الأرض وتوفير أسباب العيش عدد كبير من الرقيق الذين عاشوا عيشة حرمان ولم يتمتعوا بأية حقوق، ولم تلبث أسبرطة أن غدت قوة حربية كبيرة مما مكنها من خوض عدة حروب والانتصار فى معظمها.

أما الدولة الثانية التى نافست أسبرطة وفاقتها فى تاريخ بلاد اليونان الحضارى والفكرى. فكانت أثينا وقد ظلت أثينا حتى القرن السادس قبل الميلاد مدينة من مدن الدرجة الثانية فى الأهمية، ولكنها ازدهرت فى القرن الخامس قبل الميلاد. ويرتبط ازدهار أثينا فى هذا الدور بمشرع فذ أسمه سولون وضع دستورا شاملا لأثينا أصلح به أوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، ويعتبر المؤرخون دستور سولون الحجر الأساسى فى الحرية الآثينية، وظهر الاتجاه الديموقراطى قوياً واضحًا فى مجلس العامة أو الأكلزيا؛ وهو المجلس الذى صارت له من السلطات وقوة التمثيل الشعبى ما جعل منه رقيبًا فعليا على أجهزة الحكومة وموظفيها. كذلك سنّ سولون تشريعات

اجتماعية أخرى تتعلق بنظام الوراثة، وعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض، ووساطة الآباء على الأبناء.

وكان أن تمكنت أثينا بفضل هذه الوثبة من تزعم قوى اليونان المشتتة فى صراعهم ضد الفرس. ذلك أن ملوك الفرس أخذوا يتوسعون توسعا سريعا فى آسيا الصغرى. واصطدموا بالمستوطنات اليونانية فيها؛ مما جعل أهل هذه المستوطنات يستنجدون بالمدن اليونانية فى الوطن الأم وعلى رأسها أسبرطة وأثينا، على أن ملك الفرس دارا الأول أعدَّ قوة ضاربة عبر بها البسفور سنة ٥١٠ ق. م. وغزا تراقيا، مما اضطر ملك مقدونيا إلى إعلان ولائه للفرس.

وفى ذلك الصراع الذى نشب بين الفرس واليونان، أبلت أثينا بلاء حسنا فأحرز الآثينيون انتصارا كبيرا على الفرس فى موقعة سهول ماراثون سنة ٤٩١ – ٤٩٠ق. م.

وسرعان ما دبت الثقة فى قلوب اليونانيين بوجه عام، والآثينيين بوجه خاص بعد الانتصار الذى أحرزوه فى ماراثون، فتكونت جبهة يونانية فى مؤتمر كورنثه ضد الخطر الفارسى، وقررت الولايات المشتركة فى هذا المؤتمر الاستمرار فى محاربة الفرس حتى النهاية وطلب المعونة من جميع اليونانيين خارج شبه الجزيرة. وفى موقعة سلاميس البحرية انتصر اليونانيون انتصارا كبيرا، ثم أعقبوا هذا النصر بنصر آخر برى فى موقعة بلاتياى سنة ٤٨٠ ق. م. ونتيجة لهذه الانتصارات؛ انكمش نفوذ الفرس فى آسيا الصغرى، كما زال سلطانهم عن كثير من الجزر اليونانية فى بحر الأرخبيل، وأهم من هذا وذاك ازداد نفوذ أثينا وارتفع شأنها.

وقد ارتبطت عظمة أثينا فى القرن الرابع قبل الميلاد بعدد من المشرعين والمصلحين، أولهم كليستنيز وأهمهم بركليز. وكان بركليز هذا رجلا عظيمًا، وجه سياسته فى الداخل نحو دعم الديموقراطية، وتقليم أظافر الأرستقراطية، وفى الخارج نحو تأليف حلف من المدن اليونانية ضد أسبرطة، وهى التى غدت العدو اللدود لأثينا، ولم تلبث أثينا بفضل هذه الإصلاحات أن بلغت اقصى درجات عظمتها حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وفى سلسلة الحروب الطويلة التى خاضتها أثينا بعد ذلك ضد أسبرطة، منيت أثينا بالفشل والخراب. وقد حاولت أسبرطة فرض سيادتها

على بلاد اليونان ولكنها فشلت، وكذلك مدينة طيبة التى تصدت لأسبرطة. وبذلك غدا المسرح معدا لسيادة مقدونيا وبطلها الكبير الإسكندر الأكبر.

الإسكندر الأكبر ونشر الحضارة اليونانية:

كانت أثينا ترجو أن تتاح لها الفرصة من جديد ـ بعد فشل أسبرطة ثم طيبة ـ وذلك لتعود إلى تزعم بلاد اليونان، ولكن ظهرت قوة جديدة فى شمال البلاد ـ أى فى مقدونيا ـ قدر لها أن تكتسح جميع القوى المتنافسة فى تلك البلاد، وأن توحد اليونانيين جميعا للقيام بحركة توسعية ضخمة في الشرق الأوسط؛ وهى الحركة التى حملت لواء الحضارة اليونانية بعيدا وراء حدود بلاد اليونان الأصلية.

ويبدو أن الشعب اليونانى نفسه كان ينظر إلى المقدونيين حتى ذلك الوقت نظرة استخفاف، إذ ظل اليونانيون أمداً طويلا لا يعملون حسابا لمقدونيا، ولم يكن أحد يتصور أن مقدونيا تمثل قوة المستقبل التى ستنحنى أمامها أثينا، وأسبرطة، وطيبة.. وغيرها من كبرى مدن اليونان ذات الماضى العريق والشهرة الذائعة.

وترتبط نهضة مقدونيا إلى حد كبير بالملك فيليب الأول (٣٨٢ – ٣٣٦ ق.م.) وهو الذى بذل جهدا كبيراً فى إصلاح شئون بلاده السياسية، والحربية، والاجتماعية، وأنشأ جيشاً قويا استطاع به أن يقضى على عوامل التفكك والتفرقة التى سادت العالم اليونانى عندئذ، وقد خاض فيليب غمار عدة حروب ضد المدن اليونانية التى كونت حلفا ضده، ولكنه أنزل الهزيمة بذلك الحلف فى موقعة كيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م. ثم عقد الملك فيليب مؤتمرا عاما فى السنة السابقة بقصد تنظيم اليونانيين جميعا على شكل حلف تتولى مقدونيا زعامته، ولكن الملك فيليب توفى سنة ٣٣٦ قبل الميلاد، وعندئذ خلفه ابنه العظيم الإسكندر المقدونى أو الأكبر (٣٣٦ – ٣٢٣ ق.م.).

والواقع أنه يصعب على العقل أن يتصور كيف استطاع الإسكندر الأكبر فى مدى ثلاث عشرة سنة أن يقوم بالعمل الضخم الذى قام به فعلا ولكنه بفضل ما اتصف به من سرعة، وذكاء، وشجاعة نجح فعلا فى تأديب الولايات والمدن اليونانية، التى استغلت فرصة وفاة أبيه ورفعت رأسها فى وجهه، وبعد أن فرغ من مشاكله الداخلية، بدأ الإسكندر يتفرغ للقيام بأضخم حركة توسع خارجية عرفها التاريخ، وكان عندئذ فى الثانية والعشرين من عمره.

ولا يخفى علينا أن الفرس كانوا ألد أعداء اليونانيين منذ أمد بعيد، فاتجه الإسكندر لمحاربة دارا الثالث ملك الفرس، ونجح فى تقويض إمبراطورية الفرس بعد أن أنزل بهم عدة هزائم، فى آسيا الصغرى، والشام ومصر والعراق، بل لقد غزا الإسكندر الفرس فى عقر دارهم ودخل سوسة عاصمتهم، وبذلك محا دولتهم محوا مؤقتا سريعا من الوجود السياسى.

ومن الصعب الآن على المؤرخين أن يحددوا المدى الذى كان سيقف عنده الإسكندر الأكبر فى حركته التوسعية لو امتد به العمر؛ لأنه مات صغيرا وهو فى الثالثة والثلاثين من عمرة سنة ٣٢٣ق. م. ولكن كل الذى نستطيع أن نحدده ونؤكده هو أن سياسة الإسكندر استهدفت نشر الحضارة اليونانية فى الشرق، وتطعيم الشرق بحضارة اليونان تطعيما قوياً، يضمن نجاح فكرة قيام إمبراطورية يونانية ـ آسيوية؛ لذلك حرص الإسكندر على تشجيع التزاوج بين اليونانيين والآسيويين، واهتم بإنشاء المدن الحرة ذات الحكومات المستقلة فى مختلف أجزاء إمبراطوريته الفسيحة؛ لتكون هذه المدن مراكز إشعاع للحضارة اليونانية فى الشرق، ويقال إن الإسكندر أقام فى الشرق أكثر من عشرين مدينة نسبت إليه وعرفت بالإسكندريات، أشهرها إسكندرية مصر، وإن كانت توجد حتى اليوم فى الشام والعراق وفارس ومدن أخرى أقل أهمية تحمل الاسم نفسه.

وهكذا أدت سياسة الإسكندر إلى انتشار الحضارة اليونانية فى الشرق، وخاصة فى آسيا الصغرى ومصر والشام، إذ غدت الصبغة اليونانية قوية فى هذه البلاد الثلاثة؛ لقربها من قلب الحضارة اليونانية، فبقيت اللغة اليونانية لغة رسمية فيها أمدا طويلا، كما قامت فيها المدارس، والجامعات، والمكتبات ـ مثل مدرسة الإسكندرية المشهورة ومكتبتها ـ لتصبح مراكز ضخمة ازدهرت فيها علوم اليونانيين، وفلسفتهم وحضارتهم.

والحقيقة التى لا يختلف حولها اثنان من المفكرين، هى أن مجرى التاريخ كان حتما سيشهد تغييرات عديدة لو عاش الإسكندر عمرا أطول، ومن يدرى أن الإسكندر كان سيتحول إلى الغرب بعد أن يتم برنامجه فى الشرق، وعندئذ يخضع روما وهى فى المهد؛ مما يؤدى إلى تحويل تاريخ حوض البحر المتوسط إلى مجرى غير المجرى الذى سلكه فعلا. على أن هناك بعض انتقادات أخذها المفكرون على الإسكندر، منها

أنه لم يهتم بإنشاء الطرق فى إمبراطوريته الواسعة؛ وهذه الطرق دون شك تساعد على ربط أنحاء الدولة، فضلا عن تأمين خطوط المواصلات، وكذلك يؤخذ على الإسكندر أنه لم يضع تخطيطا دقيقا شاملا لإدارة إمبراطوريته الواسعة وخاصة بعد وفاته، وربما لم يتوقع الإسكندر أن يدهمه الموت بتلك السرعة الخاطفة.

على أنه إذا كانت دولة الإسكندر الكبيرة لم تستطع الاحتفاظ بوحدتها السياسية بعد وفاته، فإنها نجحت إلى حد كبير فى الاحتفاظ بوحدتها الحضارية وخاصة فى النواحى الفكرية والثقافية، فظلت اللغة اليونانية بالذات سائدة فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط، حتى بعد أن فرضت روما سيادتها على هذا الجزء.

ظهور روما

وإذا كانت أوربا قد استمدت تاريخها وحضارتها القديمة من منهلين رئيسيين يرتبطان باليونان والرومان، فإن ثمة ملاحظة أساسية هى أن المفكرين والكتاب المعاصرين يربطون دائما تاريخ اليونان وحضارتهم بالشرق، ويربطون تاريخ الرومان بالغرب فعندما انقسم عالم حوض البحر المتوسط إلى إمبراطوريتين فى أواخر القرن الرابع للميلاد صارت إمبراطورية القسطنطينية هى الإمبراطورية الشرقية، وإمبراطورية روما هى الإمبراطورية الغربية. وعندما انتشرت المسيحية وصارت لها السيادة فى العالم القديم، غدت كنيسة القسطنطينية هى الكنيسة الشرقية، وكنيسة روما هى الكنيسة الغربية، وطوال العصور الوسطى ظلّ أهالى غرب أوربا لايعرفون حضارة شرق أوربا إلا باسم الحضارة الشرقية تمييزا لها عن الحضارة الغربية فى غرب أوربا.

والواقع أننا لا نستطيع بأى حال الإقلال من شأن إحدى الحضارتين - الشرقية اليونانية والغربية الرومانية - فى بناء صرح الحضارة الأوربية الكبرى، وإذا كانت الحضارة الرومانية أقوى أثرا فى حضارة غرب أوربا فى العصور الوسطى، فإن عصر النهضة الذى مهد للانتقال إلى العصور الحديثة شهد حركة إحياء تراث اليونان الحضارى والعناية بهذا التراث عناية تركت أثرا بالغا فى التاريخ الحضارى للقارة الأوربية.

ولانريد هنا أن ندخل فى التفاصيل العديدة الخاصة بتأسيس روما وظهورها

(٧٥٣ ق.م.)، ولكن تكفى الإشارة إلى أن موقع روما فى سهول لاتيوم على ضفاف نهر التيبر بإيطاليا أتاح لهذه المدينة نموا آمنا سريعا؛ ذلك لأنها كانت سهلة الاتصال بالعالم الخارجى مما مكنها من الاستفادة من الحضارات الخارجية الأكثر تقدما، وفى الوقت نفسه كانت غير ملاصقة للبحر مما يعرضها لحياة قلقة غير آمنة.

وتجمع الروايات على أن روما بدأت تاريخها بالنظام الملكى، وفى ذلك العصر- عصر الملكية - استطاعت روما أن تنتصر على أعدائها المجاورين وتستولى على أملاكهم؛ وبذلك ازداد عدد سكانها، واتسعت مساحتها، وقوى نفوذها، ومن بين ملوك روما الكبار يحفظ التاريخ اسم سرفيوس تليوس، وهو الملك الذى قام بإصلاحات مهمة، منها العمل على إزالة - أو تقليل - الفوارق بين البطارقة والعامة، وكان البطارقة يعتبرون أنفسهم أرستقراطيين بوصفهم أبناء روما الحقيقيين. كذلك قام الملك سرفيوس بتوزيع الأعباء المالية على الناس وفق ما يمتلكونه من ثروة وعقار.

على أن النظام الجمهورى لم يلبث أن حلّ محل النظام الملكى فى روما، وقد استمر النظام الجمهورى من سنة ٥٠٨ ق. م. حتى سنة ٣٠ ق. م. أما عماد الدستور الجمهورى فكان اثنين من الموظفين يتجدد انتخابهما سنويا ويتوليان مباشرة السلطة التنفيذية التى كانت للملك من قبل. وهذان الموظفان أو القنصلان كانا مسئولين عن تصرفاتهما أمام الشعب الرومانى ممثلا فى مجلس السناتو. وإلى جانب القناصل وجد عدد آخر من كبار الموظفين المسئولين عن الشئون المالية وغيرها، وقد روعى فى هؤلاء الموظفين جميعا أن تكون مدد خدمتهم محددة، ومعظمهم كان يعين فى وظيفته لمدة عام واحد. والواقع أن الدستور الرومانى فى العصر الجمهورى نشأ نشأة تدريجية، وظلت المجالس والوظائف العامة تتطور وفق الأحداث الداخلية والخارجية التى تعرضت لها روما.

وفى الوقت الذى كانت روما تدعم نظامها السياسى فى الداخل أخذت تتوسع تدريجياً حتى أصبحت سيدة إيطاليا، وبعد ذلك بدأت حركة توسع خارجية ضخمة انتهت ببسط سيادتها على حوض البحر المتوسط بأكمله، وكانت أكبر عقبة فى طريق توسع روما الخارجى، هى قوة قرطاجة فى شمال أفريقية. حتى انتهى التنافس بين

القوتين بقيام حرب طويلة تعرف بالحروب البونية أو البونيقية؛ وهى الحروب التى مرت بأدوار عديدة وانتهت بهزيمة قرطاجة فى موقعة زاما سنة ٢٠٢ ق. م. ثم تدميرها ١٤٦ ق. م. وبانتصار روما على قرطاجة، غدت روما أعظم قوة فى حوض البحر المتوسط. كما صار أسطولها هو الأسطول المتحكم فى مياه ذلك البحر؛ مما أدى إلى قيام الإمبراطورية الرومانية الكبرى.

اتساع الدولة الرومانية:

اضطرت روما أثناء صراعها مع قرطاجة إلى تأمين نفسها. فاستولت على سردينيا، وصقلية، ثم فتحت أسبانيا ٢١٠ – ١٣٣ ق. م؛ لأن أسبانيا كانت قد مهدت السبيل أمام هانيبال لغزو إيطاليا أثناء الحروب البونية. أما من ناحية الشرق فقد بدأت روما حركتها التوسعية على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى - أى فى إقليم الليريا - سنة ١٢٩ ق. م.، وذلك لتضمن القضاء على القرصنة فى ذلك البحر. والمعروف أن خطة هانيبال لغزو إيطاليا اعتمدت فى فكرتها على مساعدة فيليب الخامس ملك مقدونيا، لذلك رأت روما أن تنتقم لنفسها من مقدونيا وملكها، فأنزلت بهم الهزيمة وأخضعت مقدونيا سنة ١٦٨ – ١٤٨ ق. م. ولم يلبث أن حدث احتكاك بين روما والملك أنتيوخس الثالث أو الأكبر ملك سوريا، فأنزلت روما به الهزيمة سنة ١٨٩ ق. م. وبذلك امتد نفوذها بعيدا فى آسيا الصغرى، وبانتصار روما على فيليب الخامس ملك مقدونيا ثم على أنتيوخس الثالث، استطاعت روما أن تخضع مملكتين كبيرتين من الممالك التى قامت على أنقاض إمبراطورية الإسكندر الأكبر، أما مصر فعلى الرغم من أنها كانت مستقلة تحت حكم ملوكها من البطالمة، إلا أنه فى الواقع غدت لاتعمل إلا بإيحاء من روما، وذلك منذ أواخر القرن الثانى قبل الميلاد، وبازدياد ضعف البطالمة، أخذوا يحتمون بروما ويستجدون مساعدتها، حتى انتهى الأمر بضياع استقلال مصر فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق. م.

وهكذا اتسعت إمبراطورية روما حتى شملت حوض البحر المتوسط، وأصبحت البلاد العديدة المطلة على ذلك البحر ولايات تابعة لروما، وحظر عليها أن تكون لها جيوش قائمة وفرضت على كل ولاية منها جزية معينة، كما وضعت كل ولاية تحت إشراف حاكم رومانى تؤيده حامية رومانية، وكان السناتو فى روما يضع لكل ولاية

نظاما خاصا بها يسمى قانون الولاية، هو بمثابة دستور لها، يحدد حقوق كل فرد وجماعة وواجبات كل منهم، كما يوضح الأمور المتعلقة بالقضاء، وغير ذلك من النواحى، ويلاحظ أن الرومان جروا على قاعدة ألا يعدلوا القوانين القديمة السائدة فى كل ولاية إلاّ بالقدر الذى تتطلبه الضرورة، ومن ثم فإن قانون كل ولاية Lex Provinica اختلف عن قوانين غيرها من الولايات تبعا لظروف انضمام كل ولاية إلى الإمبراطورية الرومانية من ناحية، والنظم التى كانت سائدة فى الولاية قبل ضمها من ناحية أخرى.

ومهما يكن من أمر، فقد ترتب على اتساع نطاق الفتوحات الرومانية ازدياد عدد الولايات زيادة كبيرة، فازداد عدد الحكام وكبار الموظفين المسئولين عن الجهاز التنفيذى؛ مما أدى إلى تقسيم السلطة بينهم، وبالتالى قوى نفوذ السناتو وازداد سلطانه.

ولاشك فى أن اتساع الإمبراطورية الرومانية ترتب عليه ازدياد اتصال الرومان بالحضارة اليونانية؛ ذلك أن الرومان أقبلوا على اقتباس الحضارة اليونانية وتأثروا إلى حد كبير بآداب اليونانيين وعلومهم وفنونهم بل ودياناتهم. مما ترك أثرا كبيراً فى الحضارة الرومانية من جهة، وفى وحدة الحضارة الأوربية من جهة أخرى.

وثمة ظاهرة أخرى هى أن الرومان اقتبسوا كثيرا من كماليات الحضارة اليونانية، وأخذوا يتخلون تدريجيا عن حياتهم الأولى التى عرفت بالتقشف والصلابة، وأقبلوا على حياة الترف والإسراف؛ مما أدى إلى انتشار روح الاستهتار والتهاون؛ فضلا عن انتشار الرذائل فى المجتمع . وقد أدى ذلك إلى سخط بعض شيوخ الرومان - مثل كاتو Cato كما أدى إلى سن بعض قوانين اجتماعية للحد من الاستهتار والبذخ مثل قانون أوبيا Lex Oppia الذى صدر سنة ٢١٥ ق. م. للحد من مغالاة النساء الرومانيات فى التحلى بالمجوهرات الثمينة والثياب الفاخرة.. ولكن مثل هذه القوانين كان من الصعب أن تستمر طويلا، فلم يلبث أن ألغى القانون السابق سنة ١٩٥ ق. م. أى بعد عشرين عاما من صدوره رغم معارضة كاتو الصارخة.

ومن الواضح أن اتساع الإمبراطورية الرومانية ترتب عليه ازدياد الثروة بأيدى الرومان، فالحروب الطويلة التى قامت بها روما ترتب عليها الحصول على قدر وافر من الغنائم والأسلاب، كما أن الضرائب التى فُرضت على الولايات الجديدة أنعشت خزانة روما، وخفضت العبء على المواطنين الرومان الذين تمتعوا ببعض إعفاءات

من الضرائب المباشرة التى كانت مفروضة عليهم. ولم تلبث أن امتلأت الولايات الرومانية بعدد كبير من رجال الأعمال الرومان، وخاصة أولئك الذين أطلق عليهم اسم الملتزمين؛ وهم الذين كانوا يلتزمون بجباية الضرائب من أهل الولاية؛ مما عاد عليهم بربح وفير، هذا بالإضافة إلى المشتغلين بإقراض الأموال Negotiatores؛ وهم الذين اتسعت دائرة نشاطهم فيما بعد، حتى شملت التجارة على أوسع نطاق .

وهكذا نشأت طبقة غنية جديدة فى المجتمع الرومانى؛ مما زاد من الفوارق الاجتماعية فى ذلك المجتمع ويبدو أن هؤلاء الأغنياء أقبلوا على شراء الأرض، فازداد عدد الضياع الكبيرة التى استعمل أصحابها الرقيق فى فلاحتها؛ بسبب رخصهم، ولم يلبث أن غدا هؤلاء الرقيق - بعد أن ازدادت أعدادهم - مصدر قلق واضطراب كبير فى الدولة الرومانية؛ بسبب سوء المعاملة التى كانوا يتعرضون لها.

أحوال روما فى القرن الأخير من الجمهورية:

وكان أن ظهر الخلل واضحا فى كثير من أجهزة الدولة الرومانية وذلك فى القرن الأخير من الجمهورية ويمكن أن نلخص مظاهر هذا الخلل فى فساد الجهاز الإدارى؛ وهو الفساد الذى ظهر فى صورة واضحة فى الولايات الرومانية، كما امتد إلى روما نفسها، وهى التى كانت بمثابة مركز الجهاز العصبى فى الدولة الرومانية، ثم أن هذا الفساد جاء مصحوبا بانحطاط الأخلاق العامة، وضعف الشعور بالواجب، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه نتج عن اتساع الدولة الرومانية ظهور طبقة ثرية جديدة من رجال الأعمال ، وهؤلاء كانوا يرجون أن يستبدلوا بثروتهم وأموالهم نفوذا حكوميا، ولكن الوظائف العامة كانت مغلقة فى وجوههم؛ لعدم انتمائهم إلى طبقة النبلاء، وبذلك وجدت فى المجتمع الرومانى حالة من القلق وعدم الاستقرار لم تلبث أن أدت إلى صدام بين الطبقة الغنية الجديدة من ناحية؛ وطبقة النبلاء التى احتكرت الوظائف العامة فى الدولة من ناحية أخرى. وزاد من هذا القلق الاجتماعى أن حلفاء روما كانوا متذمرين لحرمانهم من الحقوق المدنية الرومانية، وقصر هذه الحقوق على الذين كانوا يتمتعون بها من قبل. فإذا أضفنا إلى ذلك كله اضطراب أحوال الدولة الرومانية من الناحية الاقتصادية؛ بسبب هبوط سعر القمح، وانكماش طبقة صغار المزارعين، وازدياد الملكيات الزراعية الكبيرة تضخما ونفوذاً، والإكثار من الرقيق؛ للاعتماد عليهم

فى شئون الزراعة وغيرها من الأعمال الشاقة.. اتضح لنا مدى الخلل الذى كانت تشكو منه الجمهورية الرومانية فى قرنها الأخير.

وكان لابد أن تحرك هذه الأوضاع بعض الغيورين على المصلحة، فظهرت بعض الحركات الإصلاحية التى استهدف أصحابها علاج تلك الأمراض الخطيرة التى شكت منها الإمبراطورية قبل أن يستفحل الداء، وخاصة بعد أن اندلع لهيب ثورة الرقيق فى صقلية سنة ١٣٤ ق. م.، فضلا عن الثورات التى نشبت فى أسبانيا وغيرها من أجزاء الدولة الرومانية.

وعلى رأس هؤلاء المصلحين يأتى تبريوس جراكوس الذى تولى أحد المناصب الكبرى - هو منصب التريبيونية - سنة ١٣٤ ق. م. وانتهز الفرصة للتقدم بمشروع للإصلاح يتضمن الحد من ملكية الأراضى العامة بحيث تسترد الدولة الأراضى الزائدة عن الحد المقرر وتوزع على المزارعين المعدمين مقابل إيجار اسمى. وكان من الطبيعى أن يلقى هذا المشروع معارضة شديدة من كبار الملاك والنبلاء فوقع تبريوس فى صراع مع السناتو وانتهى الصراع بمقتل تبريوس نفسه.

على أن مقتل تبريوس جراكوس لم يضع حدا لمحاولات الإصلاح، وإنما استأنف أخوه جايوس جراكوس - الذى انتخب تريبيونًا سنة ١٢٣ق. م. - السياسة الإصلاحية نفسها، وتنقسم مشروعات جايوس الإصلاحية إلى قسمين كبيرين: الأول يتناول النواحى الاجتماعية، والثانى هدفه الحد من سلطة السناتو والنبلاء.

أما عن الجانب الأول فقد تقدم جايوس جراكوس بمشروع القانون الزراعى الذى يتفق فى جوهره مع مشروع القانون الذى وضعه أخوه تبريوس من قبل، وكذلك وضع مشروع قانون القمح الذى ينص على أن تقدم الدولة قمحا لكل مواطن رومانى يعيش فى روما بسعر يعادل نصف سعر السوق تقريبا. أما قانون الجيش الذى وضعه جايوس فكان يقضى بجعل سن التجنيد للخدمة العسكرية هو السابعة عشر فى حين تقوم الدولة بإمداد الجنود بالرداء دون استقطاع شيء من مرتباتهم، وبالإضافة إلى ذلك وضع جايوس قانون تأسيس المستوطنات بقصد إفساح المجال أمام الطبقة الوسطى من التجار والصناع الذين ضاقت أمامهم سبل العيش فى روما. ولما كان

الانتعاش الاقتصادى يتوقف دائما على سهولة المواصلات، فقد وضع جايوس قانون الطرق لإنشاء شبكة ضخمة من الطرق تخدم أغراض التجارة، لاسيما وأن معظم الطرق التى كانت موجودة فى الدولة فعلاً عندئذ كانت طرقا حربية وليست تجارية، هذا فضلا عن أن هذا المشروع من شأنه أن يساعد على تحقيق الوحدة السياسية؛ لأن سهولة المواصلات تمكن الناخبين فى الإقليم من الانتقال إلى روما فى سهولة؛ مما يؤدى إلى استقرار الحكم الشعبى، أما عن مشكلة الحلفاء والحقوق المدنية، فقد تقدم جايوس باقتراح يقضى بمنح جميع الحقوق المدنية الرومانية للاتين، ومنح الحقوق اللاتينية لغير اللاتين من حلفاء روما الإيطاليين.

هذا عن مشروعات جايوس الاجتماعية للإصلاح سواء ما نفذ منها أو ما لم يمكن تنفيذه، أما عن مشروعاته التى قصد بها الحد من سلطة السناتو، فكان أولها القانون الصادر ضد محاكم السناتو، بقصد مهاجمة حق السناتو فى تشكيل محاكم خاصة تصدر أحكاما تمس حياة المواطنين وحقوقهم المدنية، ومنها كذلك القانون الخاص بتحديد الولايات القنصلية قبل انتخاب القناصل حتى لايتحكم السناتو فى محاباة صديق بإعطائه ولاية مهمة، أو عقاب معارض بإعطائه ولاية فقيرة، ثم القانون الخاص بتشكيل المحاكم، وينص على عدم قصر اختيار القضاة الذين يفصلون فى القضايا الخاصة بأمن الدولة، واختلاس الأموال العامة على أعضاء السناتو، وإنما جواز اختيار هؤلاء الأعضاء من غير النبلاء وأعضاء السناتو، هذا كله بالإضافة إلى قانون جباية الضرائب من ولاية آسيا.

على أنه من الواضح أن بعض قوانين جايوس جراكوس كانت تحمل طابع الطفرة والعنف ضد السناتو، فى وقت كان النبلاء هم أصحاب القوة الحقيقية فعلا؛ لذلك تعرض جايوس لمقاومة شديدة حتى انتهى الأمر بمقتله مثل أخيه تبريوس من قبل - وذلك سنة ١٢٢ ق. م. ومع ذلك فإن هذه النهاية المؤلمة للأخوين تبريوس وجايوس ليس معناها انعدام أثرهما إذ يكفى أنهما كشفا النقاب عن عيوب حكومة السناتو، وعن الأمراض الكامنة فى نظم روما؛ وهى الأمراض التى لم تلق علاجا شافيا إلاّ على يد أوغسطس. هذا إلى أن الهجمات التى شنها الجراكيان على السناتو

زعزعت أركانه وانتقصت من هيبته بحيث أنه لم يفق مطلقا من أثر تلك الصدمة.

وهكذا استمر التدهور بعد أن فشل الإصلاح، وزادت من سوء الأوضاع الحروب الطويلة التى خاضتها روما؛ لحماية أمنها من خطر الشعوب المجاورة، ومن هذه الحروب حرب جوجورثة فى شمال أفريقية (١١٦ - ١٠٥ ق.م) وحرب الكمبرى فى جبهة الراين والدانوب (١١٣ - ١٠١ ق.م).

وقد أكدت هذه الحروب أهمية قادة الجيش. حتى إن الجنود المحاربين صاروا لا يقسمون يمين الولاء للدولة وإنما للقائد الذى خرجوا للحرب تحت لوائه، ومعنى ذلك أن الجنود صاروا لا يتطلعون إلى السناتو، وإنما إلى القائد بوصفه القوة القادرة على رعايتهم ومكافأتهم. ولعلاج هذا الخطر اقترح ماركوس ليفيوس دروسوس فى بداية القرن الأول قبل الميلاد القيام بإصلاح يستهدف دعم السناتو وتقويته على أساس الاستجابة لأهم مطالب العامة والحلفاء. ولكن أنانية النبلاء وقفت مرة أخرى فى وجه الإصلاح، وبذلك استمرت مشاكل روما الداخلية والخارجية تتفاقم دون حل، فثار الحلفاء فى أوائل سنة ٩١ ق. م.، ولم تستطع روما القضاء على هذه الثورة إلا سنة ٨٨ ق. م.، الأمر الذى أدى إلى اضطرابات اقتصادية، واجتماعية خطيرة، وكان ذلك فى الوقت الذى نشبت فيه الحرب فى آسيا، مما جعل الموقف معقدا فى الداخل والخارج. وفى وسط تلك الأحداث المتلاحقة المتداخلة ظهر قنصل قوى اسمه سلا استطاع على رأس جيشه أن يقتحم روما ويقر الأمور فيها، وبذلك كان سلا؛ هو أول من استعمل الجيش فى تحقيق أغراض سياسية، فضلا عن سحق خصومه السياسيين، وبعبارة أخرى فقد أصبح السيف هو الذى يقرر لون حكومة روما. وبعد أن قام سلا بقيادة الحرب فى آسيا وأحرز فيها انتصارات مرموقة عاد ليضع دستورا لروما استهدف إعادة الحياة الدستورية فى البلاد إلى ما كانت عليه قبل الجراكيان - تبريوس وجايوس. على أن دستور سلا لم يعش أكثر من تسع سنوات، وكان السبب فى فشله هو المغالاة فى مجاملة النبلاء، ودعم السناتو على حساب العامة، مع إغفال مطالب الحلفاء والإيطاليين.

والواقع أن أخطر نتيجة لحكم سلا هى أنه أكد فى محيط السياسة الرومانية نجاح فكرة الحكم الفردى المطلق الذى يعتمد على قوة الجيش، وهى الفكرة التى لم تفارق

خيال كل طموح من الساسة الرومان مثل: لبدوس، وبمبى، وقيصر.... فكل واحد من هؤلاء أخذ يتمنى فى قرارة نفسه أن يجعل من نفسه سلا آخر. بل إن بمبى كان كلما واجهته صعوبة يردد عبارة شهيرة «لقد استطاع سلا أن يعمل هذا العمل، ألا أستطيع أنا أن أعمله!» وهكذا غدا السيف هو مصدر السلطة فى روما. وطالما كان قادة الجيش على وفاق مع السناتو، احتفظ السناتو بنفوذه وسلطانه؛ لأن الجنود صاروا يدينون بالطاعة لقائدهم لا للسناتو، وهذا هو التطور الخطير الذى أدى إلى سقوط الجمهورية وقيام الإمبراطورية على يد أوغسطس.

سقوط الجمهورية الرومانية وقيام الإمبراطورية:

ونستطيع أن نصور الموقف فى روما منذ سنة ٧٠ ق. م. بأن زمام الأمور صار بيد كل قائد منتصر يعود من ميدان القتال على رأس جنده ليسيطر على أداة الحكم. وقد حدث سنة ٧١ ق. م. أن عاد إلى روما أربعة قادة منتصرين هم: ميتلس، وبمبى من أسبانيا ولوكولس من مقدونيا، وكراسوس من حرب الرقيق. وفى معركة التنافس للوصول إلى السلطة كان النصر لبمبى الذى يعتبر مثلا واضحا يعبر عن روح الاستخفاف المتزايد بالتقاليد الجمهورية رغم أنف السناتو، وفى تلك الأثناء كان قيصر يتقدم الصفوف بخطى سريعة؛ بفضل ما كان له من شعبية، وإزاء الانتصارات الكبيرة التى أحرزها كل من بمبى وقيصر. أخذت مكانة كل منهما تزداد فى روما وصار لكل واحد عدد كبير من الأنصار يؤيدونه، مما جعل المعركة المقبلة تتأكد بين بمبى وقيصر. وقد مرّ التنافس والصراع بين الرجلين بأدوار طويلة، وانتهى بأن زحف قيصر على روما سنة ٥٠ ق. م. وعندئذ فر من وجهه بمبى وعدد كبير من النبلاء وأعضاء السناتو واتجهوا إلى بلاد اليونان ، وفى مارس سنة ٤٩ ق. م. دخل قيصر روما وأصبح سيد إيطاليا.

وبعد أن أخضع قيصر لسلطانه ولايات الغرب - وخاصة أسبانيا - اتجه إلى الشرق لخوض المعركة الفاصلة مع بمبى الذى كان يقوى مركزه فى إبيروس. وعندما حلت الهزيمة بجيوش بمبى فرّ إلى مصر مؤملا أن يجد مساعدة من ملكها الصغير ولكنه قتل. ورغم ذلك تبعه قيصر إلى الإسكندرية سنة ٤٨ق. م.

وهكذا ظلّ قيصر ينتقل من نصر إلى آخر حتى غدت سلطته مطلقة. الأمر الذى أثار حقد السناتو، فقتل فى المجلس سنة ٤٤ ق. م. ولاشك فى أن مقتل قيصر ترك فراغا كبيرا مفاجئا فى الحياة السياسية فى روما، ولكن قريبه أوكتافيوس كان قادرا على سد ذلك الفراغ فعاد فورا إلى روما، على أن الأمن لم يتم لأوكتافيوس بهذه السهولة، إذ كان عليه أن يواجه منافسة قوية ، وخاصة من جانب أنطونيوس ولبدوس. وفى المعركة التى دارت بين المتنافسين، أخذ أوكتافيوس يحقق نصرا بعد آخر وأخيرا حقق أوكتافيوس نصره النهائى على خصمه أنطونيوس فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. وبذلك أصبح الزعيم الأول والقائد الأعلى الذى لاينافسه منافس فى الإمبراطورية الرومانية مشرقها ومغربها، وكان أن أنعم عليه السناتو بلقب «أوغسطس» سنة ٢٧ ق.م.، مما أذن بغروب شمس الجمهورية وقيام الإمبراطورية الرومانية.

الباب الثانى
الإمبراطورية الرومانية

يبدأ المدخل الطبيعى لدراسة تاريخ أوربا فى العصور الوسطى باستعراض أحوال الإمبراطورية الرومانية فى أقصى مراحل قوتها وعظمتها، وليس معنى هذا أن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى يبدأ بداية دقيقة من هذه المرحلة؛ وإنما نستهدف من هذا العرض أن يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التى كيفت التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى[١]. هذا إلى أن حضارة أوربا فى العصور الوسطى ليست فى حقيقة أمرها إلاَّ مزيجا من حضارة الرومان من جهة، وحضارة العناصر البربرية التى عبرت حدود الإمبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختلطت بأهاليها من جهة أخرى[٢].

والواقع أن الإمبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية، وسياسية عرفها التاريخ. إذ لم يقدر لإمبراطورية أخرى فى تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الإمبراطورية الرومانية من قوة واتساع؛ ذلك أن هذه الإمبراطورية ضمت بين حدودها الحضارات القديمة ـ باستثناء فارس والهند ـ وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧)[٣]، وقد امتدت الإمبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غربا حتى الفرات شرقا فشملت فى الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا، وغاليا، وأيبريا، وإيطاليا، واليريا، فضلا عن شمال أفريقية من المحيط الأطلسى حتى طرابلس، فى حين شمل الجزء الشرقى من الإمبراطورية البلقان، وآسيا الصغرى، وأعالى بلاد النهرين، فضلا عن الشام، ومصر، وبرقه[٤]. هذا مع ملاحظة أن نفوذ روما امتد إلى ما وراء حدودها السياسية، حتى بلغ فارس والهند، وتطرق إلى النوبة والسودان، ونفذ إلى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال

(1) Stephenson: Med. History. p. 5.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 3.
(3) Cary: A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine, pp. 646 - 647.
(4) Chapot: Le Monde Romain, pp. 68-71.

أطلس، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضارية فى مجاهل أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب(٥).

وترجع عظمة الإمبراطورية الرومانية إلى أن السلطة المركزية فيها استطاعت أن تحكم سيطرتها على هذه المساحات الجغرافية المترامية الأطراف، وعلى تلك الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات. الأمر الذى تطلب من الحكومة الرومانية إصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى اختلفت بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى، وحضاراتها، ولغاتها ، ودياناتها ، وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الإمبراطورية الرومانية ومثار الإعجاب بها. وإنما تبدو هذه العظمة جلية فى مقدرة إمبراطورية الرومان على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين، واليونانيين جنبا إلى جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد ومازالت متخلفة فى فجر تاريخها مثل الغاليين والجرمان. وهنا نلاحظ أن امتداد الإمبراطورية الرومانية على شواطئ البحر المتوسط جعل من هذا البحر شريانا رئيسيا يربط بين مختلف أجزائها، فى حين ساعدت الأنهار الداخلية على الربط بين أطراف الولايات(٦)، هذا فضلا عن الطرق المعبدة التى اشتهرت بها حضارة الرومان والتى أقاموا منها شبكة واسعة مترامية ليس لها نظير فى التاريخ(٧).

وكانت الإمبراطورية الرومانية فى أزهى عصورها؛ - وهى الفترة الواقعة بين قيام أوغسطس سنة ٢٧ ق.م. ووفاة ماركوس أورليوس ١٨٠ق.م.- تمثل بناء اجتماعياً سليما مترابط البنيان؛ ذلك أنها كانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن نظام إدارى امتاز بالكفاية والدقة، فى حين اعتقدت الطبقات الدنيا أن الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح فى ظل قانون عادل دون أن تحاول التدخل فى حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم، أو معتقداتهم، أو نظمهم الاجتماعية(٨).

أما عن طابع الحكومة الرومانية فى أوائل عصر الإمبراطورية - أى حتى

---

(5) Thompson: The Middle Ages, Vol. 1. p. 4.
(6) Rostovizeff: A Hist. of the Ancient World, Vol. 2 p. 286.
(7) Chapot: Le Monde Romain, p. 103 - 105.
(8) Thompson: op. cit. pp. 4-5.

الإصلاحات الكبيرة التى أدخلها دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث ـ فيلاحظ أن هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهورى السابق[٩]، أو ربما كان من الأدق القول بأنها ظلت جمهورية مع ظهور رأس للدولة وللجيش الرومانى يتمتع بمنصبه طوال حياته. وهكذا ظلّ السناتو يباشر سلطاته الواسعة، واستمرت المناصب العليا فى الدولة بأيدى الأرستقراطية من كبار ملاك الأراضى، كما بقى المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وإن فقدوا كثيرا من أهميتهم السياسية[١٠]، ولذلك يبدو من الخطأ أن ننظر إلى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة. حقيقة أنها لم تكن ملكية دستورية ولكنها امتازت ـ ولا سيما فى العصر الأول للإمبراطورية ـ بسيادة العرف، والتقاليد، والقانون، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهورى مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهرا دستوريا واضحا[١١].

والواقع أن النظام السياسى الذى وضعه أوغسطس (٢٧ ق. م. ـ ١٤م) يعتبر حلا وسطا بين النظامين الملكى الاستبدادى، والجمهورى الدستورى[١٢]؛ لذلك أنه كان أمام أوغسطس أن يختار بين نظامين للحكم الأول نظام قيصر الذى قام على أساس حكم عسكرى اعترف فيه جميع الناس ـ سواء فى إيطاليا أو الولايات ـ بالطاعة العمياء لسيدهم الأعلى. والثانى نظام الحكم الجمهورى الذى يقر أهمية المواطنين الرومان فى إيطاليا والولايات إلى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة فى الدولة، وهنا لجأ أوغسطس إلى التوفيق بين النظامين أى بين الزعامة العسكرية التى ورثها عن أسلافه والتى أضحت ضرورية للمحافظة على سلامة الإمبراطورية وأمنها وصالحها العام، وبين رغبة المواطنين الرومان فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة، على الأقل فى الميدانين الاجتماعى، والاقتصادى، إن لم يكن فى الميدان السياسى[١٣]، وهكذا نبذ أوغسطس حكم قيصر المطلق ولكنه ركز فى يد الإمبراطورية معظم السلطات التى

---

(9) Cam. Ancient Hist. Vol 10: p. 160.
(10) Stephenson: Mediaeval History, p. 6.
(11) Lot: The End of the Ancient World, pp. 6-7.
(12) Cam, Ancient Hist, Vol. 10. p. 158-168.
(13) Rostovtzeff: A Hist. of the Ancient World, Vol. 2. pp, 175 - 176.

اعتاد أن يباشرها كبار الموظفين فى العصر الجمهورى، وخاصة القيادة الحربية التى انتقلت من أيدى القناصل إلى يد الإمبراطور، وإذا كان السناتو قد ظل محتفظا بهيبته ومكانته القديمة فى ظل النظام الجديد، إلا أن سلطاته التشريعية، والقضائية، والإدارية تناقصت بصورة واضحة(١٤) . كما أصبح يتألف من أعضاء يختارهم الإمبراطور من مختلف أنحاء الإمبراطورية على الإطلاق بعد أن كان العصر الجمهورى يمثل أقلية ممتازة محدودة، مما جعل الطبقة السناتورية Senatorial Class تعتمد على أوغسطس اعتمادا تاما(١٥) .

وقد عاب بعض المؤرخين على الإمبراطورية الرومانية فى أوائل عهدها، افتقارها إلى وجود قانون وراثى ثابت ينظم وظيفة الإمبراطور. ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة فى النظم الرومانية عندئذ، ولكننا يجب أن نعترف بأن علاجها لم يكن أمرا يسيرا بالدرجة التى قد نتصورها، ذلك أن ثمة حقيقة كبرى ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا هى أن الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الأول لم تكن مجرد إمبراطورية فى قالب جمهورى فحسب بل كانت استمراراً للنظام الجمهورى السابق وامتدادا له مما تعذر معه وضع قانون وراثى ثابت للحكم دون التخلص من هذا القناع الجمهورى الذى استترت خلفه الإمبراطورية الجديدة(١٦)، وعلى هذا فقد كان من الصواب - بل من الضرورى من الناحية السياسية - أن تحتفظ الإمبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهورى فى عصرها الأول عندما كان أنصار التقاليد والمبادئ الجمهورية القديمة مازالوا يمثلون أغلبية ذات نفوذ قوى فى السناتو.

على إن ضعف الإمبراطورية الرومانية أخذ يبدو واضحاً فى القرن الثالث عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية فى عزل الأباطرة وإقامة غيرهم بعد أن كان الجيش خادما مخلصا للإمبراطور(١٧)، ولم تلبث الفرق الإمبراطورية فى مختلف

---

(14) Cam Ancient Hist. Vol. 10 pp. 161 - 165.
(15) Rostovtzeff: op. cit. p. 191.
(16) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 8.
(17) Cary: op. cit. pp. 721 - 723.

الولايات أن أخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الإمبراطور والسناتو مما جعل الأباطرة، وأعضاء السناتو ألعوبة فى أيدى رجال الجيش(١٨). ولكن لاينبغى أن يفهم من ذلك أن جميع أباطرة القرن الثالث كانوا غير أكفاء فقد أظهر أول الأباطرة العسكريين فى ذلك القرن وهو سبتميوس سفروس (١٩٣ - ٢١١) مقدرة كبيرة على الرغم من نزعته الاستبدادية حتى أن عهده يعتبر مرحلة تحول فى تاريخ الإمبراطورية والنظم الرومانية جميعا وقد استطاع هذا الإمبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت فى الحكم حتى سنة ٢٣٥، واشتهر من أباطرتها كاراكلا (٢١١ - ٢١٧) بسبب القانون الذى منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالى الإمبراطورية من الأحرار(١٩) ومهما يكن من أمر فإن الفضل يرجع إلى الإمبراطور سبتميوس سفروس فى تأجيل الكارثة التى حلت بالإمبراطورية الرومانية. ويتضح نفوذ الجيش الرومانى فى ذلك الوقت ونظرة الأباطرة إلى رجال الجيش بوصفهم الدعامة التى يعتمدون عليها فى البقاء فى الحكم، وفى النصيحة التى قدمها الإمبراطور إلى أبنائه وهوعلى فراش الموت، إذ قال: أجزلوا العطاء للجند، ولا تكترثوا لغيرهم» (٢٠).

وبتولى الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ - ٢٥١) منصب الإمبراطورية، بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عمّا تبقى من مظاهر الحكم الجمهورى، حتى جعلوا من مظاهر الجمهورية نظاما استبداديا يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الإمبراطور والضغط على أهالى الإمبراطورية وهكذا أمست الحاجة الملحة فى الداخل إلى إصلاح النظم الإدارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة. أما فى الخارج فقد أخذ يتزايد ضغط الجرمان وخاصة على جبهتى الراين والدانوب فى الوقت الذى ازداد الخطر الفارسى على الولايات الآسيوية(٢١).

وفى وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التى عمت الإمبراطورية عقب

---

(18) Rostovtzeff: op. cit. Vol. 2, p. 303.
(19) Stephenson: Med. Hist, p. 33.
(20) Lot: op. cit. p. 10.
(21) Ibid.

انتهاء حكم أسرة سفروس سنة ٢٣٥، ظهر جندى دلماشي من أصل متواضع - هو الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥) - ليتدارك الموقف، ويعالج مشاكل الإمبراطورية فى عزم وإصرار، فأحدث ثورة ضخمة فى نظم الحكومة الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الإمبراطورية؛ ذلك أن جميع المتاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الإمبراطورية فى أواخر أيامها كانت قد أخذت تتبلور لتظهر عندئذ فى صورة خطيرة واضحة. ففى الداخل تفاقمت المشاكل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والدينية، وفى الخارج اشتد خطر الجرمان، والفرس وضغطهم على حدود الإمبراطورية[٢٢] وبعبارة أخرى فإن العوامل التى أدت إلى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ثم سقوطها ظهرت واضحة فى أواخر القرن الثالث[٢٣].

ويحسن بنا قبل أن نعالج إصلاحات دقلديانوس، أن نبدأ أولاً باستعراض المشاكل الأساسية المهمة التى شكت منها الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث. وكانت أولى هذه المشاكل هى كيفية احتفاظ الإمبراطورية الرومانية بوحدتها سليمة كاملة بعد أن اتجهت بعض الولايات - فى الشرق والغرب - نحو الانفصال عن جسم الإمبراطورية، وقامت فيها فعلاً - وذلك منذ وقت مبكر إلى سنة ٢٠٠ - حركات ثورية انفصالية[٢٤]. ومن الخطأ وسوء المبالغة أن ننسب هذه الحركات كلية إلى مطامع بعض الأفراد الطموحين ونتجاهل روح الاستياء والغضب التى عمت أهالى الولايات والتى كانت العامل الأساسى فى تشجيع هؤلاء الطموحين على الظهور، فإذا دققنا النظر فى معظم الثورات التى نشبت فى مختلف ولايات الإمبراطورية منذ القرن الثالث وجدنا من ورائها جميعا عوامل مشتركة - اقتصادية، واجتماعية، وعنصرية - حركتها وساعدت على سرعة اشتعالها. وهنا نشير إلى أنه ليس من الصواب الأخذ بالرأى القائل بأن ازدياد مركزية السلطة الحكومية فى أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية هو سبب اضمحلال هذه الإمبراطورية؛ لأنه أدى إلى كبت الروح العنصرية فى الولايات فالواقع أن الحكومة الرومانية اضطرت إلى اتباع سياسة التركيز هذه فى

(22) Cary: op. cit. pp. 723 -726.
(23) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 12.
(24) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 24 - 25.

أواخر عصر الإمبراطورية؛ نتيجة للفساد الذى عمّ الولايات فعلا، ولا سيما بعد أن أصبح حكام الولايات على قسط غير كاف من المقدرة مما أفقدهم ثقة الحكومة فى الوقت الذى أصاب مجالس الولايات الانحلال والوهن(٢٥). لذلك لجأت الحكومة المركزية إلى التدخل لمحاولة إصلاح الأوضاع الإدارية فى الولايات، وكان العلاج المألوف عندئذ هو تصغير مساحة الولاية عن طريق تقسيمها أو تفتيتها، فضلا عن الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية فى الولاية(٢٦) وهكذا أخذ عدد الولايات الرومانية فى التزايد المستمر نتيجة لهذه السياسة حتى قفز هذا العدد من ست وأربعين ولاية سنة ٤١ إلى مائة وتسع عشرة ولاية سنة ٣٢٧. ولم يكن الانحلال فى الحكومات البلدية الخاصة بالمدن ذات الإدارات المستقلة عن إدارة الولاية - أقلّ وضوحا منه فى حكومات الولايات، فكثير من المدن أسرفت فى إقامة المنشآت العامة وزخرفتها كالحمامات، والمسارح، والملاعب، الأمر الذى تطلب زيادة أعباء الضرائب المحلية(٢٧) وقد دفع ذلك بعض الأباطرة إلى تعيين مراجعين ومحاسبين؛ لفحص دفاتر بلديات المدن. كما دفعهم أحيانا إلى حرمان بعض البلديات من حرياتها واستقلالها الذاتى، وجعلها تابعة لحكومة الولاية(٢٨).

أما الناحية الاقتصادية فقد ساءت فى الإمبراطورية؛ نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الدولة وجعلت طرق التجارة غير مأمونة فى البر والبحر(٢٩) وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب فى القرن الثالث، سواء تلك التى فرضتها الحكومة المركزية أو التى جمعتها السلطات المحلية. ذلك أن الإمبراطورية أصبحت مقسمة إلى دوائر جمركية عديدة، فى حين فرضت الضرائب على جميع السلع التجارية بنسبة تتراوح بين ٢ ٪، ١٢ ٪. هذا فضلا عمّا فرضته المدن من ضرائب صغيرة على المأكولات - كالخضراوات، والفواكه، والطيور، واللحوم - التى ترد إليها من الأقاليم

---

(25) Cam. Med. Hist. Vol 1 pp. 25 - 26.
(26) Chapot' op. cit. p. 127.
(27) Dill' Roman Society from Nero to Marcus pp. 245 - 250.
(28) Chapot: op. cit. pp. 113 - 125.
(29) Rostovtzeff: cit. p 317.
(30) Charlesworth: The Roman Empire, pp. 70 - 81.

المجاورة(٣٠). وكان من المتبع أحيانا أن تكون هذه الضرائب عينية، أى تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف، بعكس الحال فى الضريبة الذهبية الفاضية Chrysargyrum، وهى الضريبة الرئيسية فى الإنتاج الصناعى والتى سميت بهذا الاسم؛ لأنها كانت تدفع نقدا(٣١).

ومهما يكن من أمر فإن العبء الأكبر للضرائب وقع على الأراضى والمزارعين. وإذا كان العالم الرومانى قد اشتهر بالملكيات الزراعية الكبيرة، فإن المفروض هو أن تقوم طبقة كبار الملاك بتحمل الجزء الأكبر من أعباء الضرائب، ولكن الواقع العملى لم يطابق هذا الفرض النظرى، إذ تحرر كبار الملاك من هذا العبء الباهظ وألقوا به على كواهل المستأجرين عن طريق رفع قيمة الإيجار، أو عن طريق إثقالهم بالالتزامات والخدمات التى يتعين عليهم أداؤها للمالك(٣٢). أما المزارع الصغير فكان يلجأ إلى رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب، وعندئذ يستولى كبار الملاك المجاورون على الأرض ويصبح المزارع الحر عبداً، أو يترك مزرعته لينزح إلى إحدى المدن وينضم إلى جموع الدهماء التى أخذت تتكاثر فى المدن الرومانية(٣٣)، وبالإضافة إلى ذلك وجدت فى الإمبراطورية الرومانية ضريبة إجبارية يؤديها أهل الولاية نقدا أو سخرة لصيانة الطرق والجسور والقنوات وغيرها من المرافق العامة، هذا عدا الضرائب المستحقة على جميع الأحرار، والتى اقتصرت فى أول الأمر على المواطنين الرومان الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية حتى منح كاراكلا هذه الجنسية سنة ٢١٢ لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار للحصول على إيراد أوفر وأعم، وإن كان هذا الإجراء قد ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة للإمبراطورية ونظمها(٣٤).

---

(31) Lot.: The End of the Ancient World. p. 121.
(32) Rostovtzeff' op. cit., pp. 313 - 315.
(33) Katz: The Decline of Rome, p. 37.
(34) Rostovtzeff; op. cit., Vol. 2 p. 317.

ويلاحظ أن الهدف الأساسى الذى توخاه كاراكلا من منح الجنسية الرومانية لجميع أهالى الولايات الأحرار ما زال موضع نقاش وجدل بين المؤرخين.

وهكذا نلاحظ ازديادا مطردا فى الضرائب المباشرة وغير المباشرة داخل الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث، ذلك أن الأمر لم يقتصر على تضاعف عدد الضرائب المفروضة، بل صحب ذلك ارتفاع نسبة الضريبة الواحدة ارتفاعًا مستمرا(٣٥). وقد أثر هذا الوضع تأثيرا خطيرا فى بناء المجتمع الرومانى الذى اختل توازنه نتيجة لأن الأغنياء - وهم الطبقة الأرستقراطية المؤلفة من كبار ملاك الأراضى - ازدادوا غنى فى الوقت الذى ازداد الفقراء فقرا، أما الطبقة الوسطى فى المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص وسارت فى طريق الاضمحلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها إلى فئة من الأتباع الرقيق فى ميدان الزراعة أو الصناعة، كذلك أدى هذا الوضع إلى تدهور الإنتاج، وانخفاض قيمة العملة التى لم يتردد بعض الأباطرة فى تزييفها والإكثار من سكها، ذلك لأن الإباطرة عندما وجدوا أنفسهم لا يملكون المعادن الكافية لسك العملة، لجأوا إلى خلط الذهب بالفضة، والفضة بالنحاس، والنحاس بالرصاص، وبذلك انحطت قيمة العملة وأفلس من التجار من كان ثريًا؛ بسبب التلاعب فى النقد(٣٦). هذا إلى أن تزييف العملة أدى إلى اختفاء النقود الجيدة من السوق، وقصر التداول على النقود الرديئة - وفقا لقانون جريشام الحديث - الأمر الذى أدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا جنونيا(٣٧). وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعا يمكن تفسير الثورات العديدة التى انتشرت فى مختلف ولايات الإمبراطورية فى القرن الثالث عندما أخذ المزارعون والفلاحون يهجرون مزارعهم، ويهاجمون المدن المجاورة لنهبها، كما اتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة حتى عم الفساد البر والبحر(٣٨).

وبالإضافة إلى هذه المفاسد والمشاكل الداخلية، تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة؛ نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه

---

(35) Chapot; op. cit., pp. 106 - 111.
(36) Rostovtzeff; op. cit. Vol, 2, p. 317.
(37) Stephenson: Med. Hist. p. 38.

وينص قانون جريشام هذا على أنه إذا وجدت فى السوق عملتان إحداهما رديئة والأخرى جيدة، فإن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق.

(38) Katz: op. cit. pp. 36 - 37.

الحدود فى القرن الثالث. فالفرنجة أغاروا على أراضى الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦(٣٩)، والقوط الذين اجتاحوا إقليم داشيا غزوا مواشيا سنة ٢٥١ ولم يتم طردهم من هذا الإقليم إلاّ بعد أن انتصر عليهم كلوديوس سنة ٢٩٨(٤٠). وفى سنة ٢٧٠ اندفع الألمان خلال ممرات الألب مهددين شمال إيطاليا. وفى عهد الإمبراطور فالريان (٢٥٣ - ٢٦٠) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية أفريقية الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد أخرى لنهب مدنها ومزارعها. هذا فى الوقت الذى تطرقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان إلى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقى عبر القوقاز(٤١).

وزاد من هذه الأخطار الخارجية التى هددت الإمبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التى أخذت منذ سنة ٢٢٣ تهدد أرمينية، وبلاد ما بين النهرين، وسوريا تهديدا خطيرا مستمرا. حتى تمكن الفرس من إنزال الهزيمة بالإمبراطور فالريان وأسره سنة ٢٥٩(٤٢). وإذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك فى إحراز شىء من الانتصارات الجزئية على الفرس، إلا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسى أو حتى الإقلال منه(٤٣).

الإمبراطور دقلديانوس:

وهكذا بدت الإمبراطورية الرومانية على شفاهاوية عندما اعتلى الإمبراطور دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ ليقوم بأعظم عملية ترميم فى بناء الإمبراطورية المتداعى. ويبدو أنه ليس من الواقع فى شىء أن نعتبر دقلديانوس أول الأباطرة المصلحين الذين عملوا على إنقاذ الإمبراطورية فى القرن الثالث، إذ وجد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الإمبراطورية بين سنتى ٢٥٣، ٢٨٢ جماعة أحسوا بخطورة

(39) Cary: op. cit. p. 723.
(40) Cam, Med. Hist. Vol. 1. pp. 204 - 206.
(41) Thompson; op. cit. Vol. 1. p. 16.
(42) Cary; op. cit. p. 724.
(43) Moss; The Birth of the Middle Ages, pp. 6 - 7.

الموقف ورغبوا فى الإصلاح، ونخص بالذكر الإمبراطور أورليان Aurelien (٢٧٠ - ٢٧٥) الذى أطلقت عليه الوثائق المعاصرة لقب «مجدد الإمبراطورية»[٤٤].

ولكن المشكلة كانت أشد تعقيدا من أن تحل فى سهولة، فاكتفى هؤلاء الأباطرة المصلحون ببعض الإصلاحات الجزئية التى تناولت الضرائب الزراعية، والعملة، كما سمحوا لبضعة آلاف من العناصر الجرمانية المرابطة على حدود الدولة باجتياز هذه الحدود والإقامة داخلها؛ وذلك لتوفير الأيدى العاملة اللازمة للزراعة من جهة ولاتقاء شر هذه العناصر وخطرها من جهة أخرى[٤٥].

ولكن أحدا من أباطرة القرن الثالث لم يستطع أن يقوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) من إصلاح شامل بعيد الأثر فى مختلف مرافق الإمبراطورية ، وهنا نجد دقلديانوس يوجه جهوده نحو ثلاثة أهداف كبرى هى: تقوية نفوذ الحاكم أو الإمبراطور، وإعادة تنظيم الجهاز الحكومى، وتجديد نظام الجيش[٤٦]، ولتحقيق هذه الأهداف بدأ هذا الإمبراطور بإقرار الأمن والنظام فى مختلف الولايات الإمبراطورية فأخضع الثورات المتأججة فى غاليا، ومصر، وولاية أفريقية، وبريطانيا، كما صد البرابرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب، ولم يكد دقلديانوس يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧ واسترد منهم بلاد ما بين النهرين، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقا مرة أخرى حتى نهر دجلة ، كما عادت رقعة الإمبراطورية من جديد إلى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء إقليم أو إقليمين[٤٧] وقد فكّر دقلديانوس فى حماية العالم الرومانى من الأخطار الجسيمة التى كانت تهدده؛ وذلك بإنشاء قوة حربية متنقلة سريعة الانتشار - أى غير مرتبطة بجبهة واحدة - لتتحرك فى أى وقت إلى أية جهة حسب الظروف ووفق مشيئة الإمبراطور[٤٨].

---

(44) Vasiliev: Hist. de L'Empire Byzantin; Tome 1 : p. 77.
(45) Bloch: L' Empire Roman, pp. 188 - 194.
(46) Rostovtzeff; op. cit. Vol. 2, p. 320.
(47) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 17.
(48) Stephenson; Med. Hist. p. 38.

على أن الخدمات الحقيقية التى أداها دقلديانوس للإمبراطورية والتى تركت أثرا بالغا فى أحوالها لم تكن فى ميدان الحرب بقدر ما كانت فى ميدان الإصلاح الإدارى؛ ذلك أنه أعاد تنظيم الجهاز الإدارى فى صورة حرمت إيطاليا مما كان لها فى العصور القديمة من مكانة ممتازة، كما قضت على التفرقة بين الولايات الإمبراطورية وولايات السناتو(٤٩)، وقد أدرك دقلديانوس بثاقب بصره أن المركز الحقيقى لقوة العالم الرومانى لم يعد فى الغرب وإنما أصبح فى الشرق؛ حيث امتازت الولايات بوفرة الخبرات، وكثرة السكان، ومهارة الأيدى العاملة فى الزراعة والصناعة والتجارة؛ لذلك مهد دقلديانوس لما فعله الإمبراطور قسطنطين فيما بعد(٥٠) فاتخذ عاصمة جديدة للإمبراطورية فى الشرق، هى مدينة نيقوميديا فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على أحد خلجان بحر مرمرة(٥١)، هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة إيطاليا من روما إلى ميلان؛ وهى المدينة التى تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب مما جعل من السهل انتقال الجيوش الإمبراطورية منها إلى غاليا أو جبهة الراين؛ لصد هجوم أو إخماد فتنة(٥٢).

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الرومانى إعلان تنظيم الجهاز الإدارى تنظيما جوهريا شاملا؛ ذلك أن دقلديانوس أدرك ضرورة إيجاد علاج للخطر الناجم عن تضاعف عدد الولايات، وما ترتب على هذه الظاهرة من بروز قيادات انفصالية؛ لهذا فكر فى ربط الولايات الرومانية بعضها ببعض، فقسم الإمبراطورية إلى أربعة أقاليم أو أقسام إدارية كبرى، على رأس كل قسم منها حاكم إدارى عام يتمتع إما بلقب «أوغسطس»، أو بلقب «قيصر»، ويعتبر من الناحية العملية شريكا للإمبراطور فى حكم الإمبراطورية (٥٣). أما هذه الأقسام الإدارية الأربعة الكبرى فكانت غاليا (وتشمل بريطانيا، وغاليا، وأسبانيا، والجزء المعروف حاليا باسم المغرب)، وإيطاليا (وتشمل الأراضى الواقعة بين الدانوب والبحر الأدرياتى فضلاً عن إيطاليا والبلاد المعروفة

(49) Ostrogorsky; Hist, of the Byzantine State, p. 32.
(50) Cam. med. Hist. Vol, 1 p. 24.
(51) Cary: op. cit., p. 195.
(52) Bloch: op. cit., p. 195.
(53) Idem, pp. 194 - 195.

حاليًا بأسماء الجزائر ،وتونس، وطرابلس)، واليريا (وتشمل داشيا، ومقدونيا، وبلاد اليونان)، ثم أخيرا إقليم الشرق ويشمل بقية الإمبراطورية أى (تراقيا، وآسيا الصغرى، والشام، ومصر)(٥٤)، وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالقسم الأخير ومركزه نيقوميديا، هذا فضلا عن احتفاظه بلقب الإمبراطورية ووظيفتها.

وهكذا أصبحت الإمبراطورية من الناحية النظرية مقسمة إلى أربعة أقسام كبرى يحكمها أربعة حكام، اثنان منهم أعلى مقاما يحملان لقب «أوغسطس»، والاثنان الباقيان أقل درجة ويحملان لقب «قيصر» ويخلفان الأولين، فى حالة الوفاة أو العجز(٥٥)، أما الإمبراطور نفسه فلم يعد أن يكون أحد الحاكمين الأولين ولكن كانت بيده السلطة العليا فى الإمبراطورية، والإشراف العام على جميع شئونها، كما كان القائد الأعلى للجيش(٥٦). وهنا نلاحظ أنه إذا كانت السلطة الإدارية فى الإمبراطورية قد قسمت أو وزعت، إلا أن الإمبراطورية نفسها ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ؛ حيث إن أوغسطس كان له حق المرور فى أراضى القيصر التابع له. كذلك يلاحظ أنه إذا كانت السلطة العليا في النواحي التشريعية والإدارية قد أصبحت نظريا في أيدى الأوغسطس، إلاّ أن دقلديانوس ظلّ من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور فى الإمبراطورية(٥٧)، وبعبارة أخرى فإنه ليس معنى تقسيم السلطة أن الإمبراطورية نفسها انقسمت، إذ ظلت هذه الإمبراطورية تمثل وحدة واحدة على عهد دقلديانوس(٥٨)، ثم كان أن قسم دقلديانوس هذه الأقسام الأربعة الكبرى إلى سبع عشرة وحدة أصغر Dicceses كل وحدة منها يرأسها نائب Vicarus عن الحاكم العام، وتشمل عددا من الولايات، أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية، لكل منها ثلاث إدارات مهمة تشرف إحداها على العدالة، والثانية على المالية، والثالثة على الأملاك الخاصة بالأباطرة (٥٩)، وهكذا أصبح حكام الولايات

(54) Painter; A Hist. of the Middle Ages, 5 - 6.
(55) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 78.
(56) Rostovtzeff, op. cit. Vol, 2; pp. 321 - 323.
(57) Lot: The End of the Ancient World, p. 14.
(58) Vasiliev, op. cit. Tome, 1, p. 78.
(59) Rostovtzeff, op. cit. Vol, 2; p. 325.

مسئولين أمام نواب الحاكم العام، والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للإقليم، وهؤلاء الحكام مسئولين أمام دقلديانوس الذى كان يتمتع بسلطة تامة فى تعيينهم أو عزلهم. وعن هذا الطريق أراد دقلديانوس أن يجعل الإجراءات الإدارية تتم بصورة أسرع وأدق، وفى الوقت نفسه يقضى على عوامل الانفصال والفساد المحلية، التى طالما سببت متاعب جسيمة للإمبراطورية فى القرن الثالث. وهكذا رفض دقلديانوس التعلق بأذيال النظم الجمهورية الصورية التى لم يبق منها سوى أوهام خيالية، فتخلص من مظاهر الحكم الجمهورى حيث بدت الإمبراطورية فى عهده ـ كما كانت فعلا فى باطنها ـ ملكية استبدادية مطلقة. وهنا يحاول بعض الكتاب تفسير هذه الاتجاهات فى ضوء النفوذ الشرقى، حيث لم يقتصر أثر هذا النفوذ على تنظيمات دقلديانوس فحسب، بل امتد أيضاً إلى إعلاء كلمة الإمبراطور، وتمتعه بسلطة أشبه بسلطة الأكاسرة(٦٠).

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم إلى أكثر شعوب الإمبراطورية تخلفا فى الميدان الحضارى، وخاصة الجرمان. فبقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة، بقدرما ازدادت أهميته، ومكانته، وهكذا اعتمد دقلديانوس على الفرق المؤلفة من البرابرة المرتزقة فى حماية الإمبراطورية، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة؛ حتى يكونوا على أهبة السير إلى الحدود فى أى وقت يطلب منهم ذلك(٦١). وليس هناك شك فى أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس، كما أصبح الطريق مفتوحا أمام الجندى ليرتقى ويصبح ضابط مائة ثم يتدرج فى مختلف درجات القيادة حتى يصل إلى مرتبة القائد الأعلى للجيش. وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكون شجاعا ،خبيرا بفنه ،مخلصا للإمبراطور(٦٢).

ثم اتبع دقلديانوس هذه التنظيمات الإدارية والحربية، بإصلاح النظم المالية والضرائب فقام بعملية واسعة تستهدف حصر الأراضى الزراعية فى الإمبراطورية، وتحديدها؛ لتقرير الضرائب فى صورة عادلة، وإذا كان دقلديانوس لم ينجح فى علاج

(60) Kalz; op. cit. p. 44.
(61) Rostovtzeff, op. cit. Vol, 2; p 323.
(62) Idem, p. 324.

الأزمة الاقتصادية علاجا ناجحا، إلاَّ أنه نجح فى حماية الفقراء من جشع المستغلين والمتجرين فى أقوات الأهالى(٦٣). وكان العلاج الذى لجأ إليه دقلديانوس؛ هو سك عملة صحيحة سليمة حازت ثقة التجار والمتعاملين من جهة، ثم تحديد كميات البضائع المتداولة والتى تعرض للبيع من جهة أخرى، هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والأجور من جهة ثالثة(٦٤). على أن هذه المقاييس لم تفلح فى علاج ما كان يعانية أهالى الإمبراطورية من ضغط وفاقة بسبب كثرة الضرائب التى وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا، فى حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الإعفاءات المالية(٦٥). وهكذا يمكن القول بأن كل ما فعلة دقلديانوس لإصلاح الحالة المالية هو أنه بسط جهاز الضرائب، وحاول منع وقوع أزمة مالية، ولكنه لم يستطع بأي حال إعادة الأوضاع المالية فى الدولة إلى حالتها الطبيعية؛ نتيجة لتدهور مستوى المعيشة(٦٦). هذا إلى أن إصلاحات دقلديانوس العديدة وما تطلبته هذه الإصلاحات من نفقات طائلة، ألقت حملا ثقيلا على الأهالى فى وقت كانت مالية الإمبراطورية تعانى إجهادا شديدا منذ أوائل القرن الثالث مما زاد الحال سوءاً.

الإمبراطور قسطنطين:

ثم كان أن تنحى دقلديانوس عن عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٥ بعد أن بلغ الستين من عمره، واستبد به المرض وأحس أن الوقت قد حان ليتخلى عن الحكم لغيره بعد أن أدى واجبه فى إنقاذ الإمبراطورية ودعمها(٦٧). ولقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الإمبراطورية، قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة وبرزت خلالها شخصية قسطنطين الذى استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد الآخر. حتى تم توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣، وعندئذ أخذ هذا الإمبراطور على عاتقه مهمة إتمام الإصلاحات التى بدأها دقلديانوس(٦٨).

---

(63) Chapot: op. cit. p. 111.
(64) Lot: op. cit. pp. 18 - 19.
(65) Stephenson; Med. Hist. pp. 38 - 39.
(66) Rostovtzeff op. cit Vol, 2, p. 327.
(67) Lot: op. cit. pp. 22 - 23.
(68) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 80.

والواقع أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ؛ نظرا للأعمال المهمة التى قام بها، والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى [٦٩]. ذلك أن هذا الإمبراطور قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية: الأولى اعترافه رسمياً بالديانة المسيحية، والثانية نقله عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة على ضفاف التيبر فى إيطاليا إلى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور[٧٠]، وسوف نرجئ الكلام عن الجانب الدينى من أعمال قسطنطين إلى الباب الآتى مكتفين فى هذا الباب بالإشارة إلى الركن الدنيوى من أعماله.

ومن الواضح أن قسطنطين اقتفى فى إصلاحاته الإدارية أثر السياسة التى وضع أساسها دقلديانوس فقام بإتمام الأعمال التى بدأها هذا الإمبراطور بشكل أبعد أثرا[٧١]. حتى أننا نجد من الصعب فى كثير من الأحيان الفصل بين أعمال هذين الإمبراطورين، وهنا نلاحظ أن الإصلاحات الإدارية التى قام بها دقلديانوس وقسطنطين قامت على أساس الفصل بين السلطتين الحربية، والمدنية [٧٢]. وظهر هذا الفصل واضحا فى حكم الولايات، إذ أصبح حاكم الولاية مسئولا عن شئونها الإدارية المدنية فحسب فى حين اختص القائد (dux) بالإشراف على النواحى الحربية فى ولاية أو أكثر من ولايات الإمبراطورية [٧٣]. على أن أهم تغيير أدخله قسطنطين كان تطبيق مبدأ الحكم الوراثى، فأصبح المنصب الإمبراطورى وراثيا فى أسرته التى اعتمدت على تأييد الجيش من جهة، وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى[٧٤]. أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قسطنطين نحو إنقاص عدد أفراد الفرق العكسرية، كما استمر فى سياسة فتح الباب أمام الجرمان؛ للانخراط فى سلك الجيش الرومانى كجند نظاميين.

(69) Bynes: Constantine the Great and the Christian Church; p. 3.
(70) Vasiliev: op. cit. Vol 1. p. 54.
(71) Bury: Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 1.
(72) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 80.
(73) Ostrogosky: op. cit. p. 33.
(74) Rostovtzeff, op. cit. Vol, 2; p 332.

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان مشرعا نشيطا، إلاّ أن كفايته الإدارية مازالت موضع شك. ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية، وأنزل طبقة الصنّاع إلى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية؛ حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب(٧٥). هذا في الوقت الذى شدد فى فرض العقوبات على جامعى الضرائب فى المدن إذا عجزوا عن استيفاء الضرائب التى قررتها الحكومة. أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا يمنع أولئك الذى يغرقون فى الديون - نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار - من ترك أراضيهم والانتقال إلى ولايات أخرى، عسى أن تكون الأحوال الاقتصادية فيها أقل قسوة ، الأمر الذى عجل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار، وتحويل أبناء هذه الطبقة إلى أقنان مربوطين بالأرض(٧٦).

على أنه ليس هناك من شك فى أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية، يدل على أن قسطنطين أوتى بصيرة سياسية حكيمة. حقيقة أن الفضل فى فكرة نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الشرق لا يرجع إلى قسطنطين بقدر ما يرجع إلى دقلديانوس؛ الذى أقام فى مدينة نيقوميديا على الشاطئ الشرقى لبحر مرمرة واختصها برعايته، وأنشأ فيها كثيرا من المبانى الجميلة الرائعة(٧٧). ولكن إصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسمياً يدل على بُعد نظره، وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التى أمست فيها الإمبراطورية الرومانية، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من تنفيذ رأيه.

ومهما تكن الأسباب التى دفعت الإمبراطور قسطنطين إلى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة، وسواء كان الدافع الأساسى إليها هو أن الإمبراطور وجد أن سياسته الدينية، واعترافه بالمسيحية، لايمكن أن تستقيم فى روما حصن الوثنية ودرعها الحامى، ففكر فى نقل عاصمته إلى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين، أو كان الدافع غير ذلك من

(75) Katz: op. cit. p. 50.
(76) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 27.
(77) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 72.

الأسباب الحربية، أو السياسية، أو الشخصية، فالمهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلاً سنة ٣٣٠ فشيد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور(٧٨). وتمثل المنطقة التى أقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة، إذ تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة، ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور، ومن الشمال مياه القرن الذهبى الذى هيأ مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة الجديدة(٧٩). ومن الواضح أن موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة؛ لأنها تسيطر على المضايق التى تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة، كما أنه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى، هذا إلى أن القسطنطينية صارت مركزا تجارياً ممتازا؛ إذ غدت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التى تربط البحر الأسود ببحر إيجه، وشمال أورباوغربها بآسيا(٨٠). ولم يدخر قسطنطين نفسه وسعا فى أن يجعل هذه المدينة الجديدة التى سميت باسمه روما ثانية، فأقام بها قصرا إمبراطوريا، وسوقا، ومحاكم، وداراً للسناتو، وحمامات، وملعبا عظيما، وسرعان ما أثبتت القسطنطينية أنها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى(٨١).

والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التى اتخذها قسطنطين وأثرها فى التاريخ؛ لأن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع غير وجه التاريخ الأوربى الألف سنة التالية، فلولا قيامها وانتقال ثقل الإمبراطورية إلى الشرق لما استطاعت البابوية الوصول إلى ما وصلت إليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى، ولحرم شرق أوربا من تلك القلعة المنيعة التى صمدت فى وجه المسلمين وبالتالى حالت دون غزوهم شرق أوربا فى وقت مبكر(٨٢). هذا بالإضافة إلى أن القسطنطينية صارت حصنا للحضارة اليونانية، وللدراسات والآداب الهللينية، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد إلى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التطور الحضارى لأوربا.

---

(78) Lot: op. cit. pp. 36 - 37.
(79) Cam. Med Hist. Vol. 1, p. 17.
(80) Diehl & Marcais: Le Monde Oriental, p. 4.
(81) Stephenson: Med, Hist, p. 38.
(82) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 18 - 19.

الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين:

ثم حدث بعد وفاة قسطنطين ٣٣٧ أن قسمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، حتى استطاع أحدهم ـ وهو قسطنطيوس ـ توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذى استمر سنة ٣٦١[٨٣]. وعلى الرغم من ذلك فإن الإمبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السريع فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها، دون أن تفلح جهود الأباطرة الذين تولوا الحكم فى تلك الفترة مثل جوليان (٣٦١ – ٣٦٣)، وجوفيان (٣٦٣ – ٣٦٤)، وفالنز (٣٦٤ – ٣٧٨) فى صد ذلك الخطر أو فى وقف تيار الانحلال، ذلك أن جوليان قتل أثناء الحرب مع الفرس سنة ٣٦٣، فى حين لجأ خليفته جوفيان إلى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضى ما بين النهرين[٨٤]. أما فالنز فقد عاد مسرعا من الجبهة الفارسية؛ لمواجهة خطر القوط والتقى بهم فى موقعة أدرنة (أدريانوبل ـ أغسطس سنة ٣٧٨) حيث تمكن القوط الغربيون ـ بمساعدة إخوتهم الشرقيين ـ من محو الجيش الرومانى، وقتل الإمبراطور نفسه فى المعركة[٨٥]. ويعتبر مقتل هذا الإمبراطور نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية؛ إذ أخذت قبائل القوط الغربيين تتوغل عندئذ داخل أراضى الإمبراطورية تحت ضغط الهون الآسيويين، هذا فى الوقت الذى أخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى أصبحت المسيحية ديانة الإمبراطورية الرسمية على عهد الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥)، وبذلك أمسى مصير الإمبراطورية الرومانية معلقا بين أيدى الجرمان من جهة، ورجال الكنيسة من جهة أخرى.

وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الإمبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه إلى قسمين شرقى وغربى، فكان القسم الشرقى من نصيب ابنه أركاديوس، فى حين صار القسم الغربى من نصيب ابنه هونريوس[٨٦]. ومن الواضح

---

(83) Vasiliev: op. cit. Tome, 1 p. 82.
(84) Cam. Med. Hist, Vol. 1. p. 85.
(85) Ostrogorsky. op. cit. p. 48.
(86) Vasiliev: op. cit, Tome, 1. pp. 82 - 83.

أن هذا التقسيم جاء طبيعيا؛ لأن القسم الشرقى اليونانى يختلف اختلافا بيناً فى حضارته واتجاهه وميوله وعقليته عن القسم الغربى اللاتينى. على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا التقسيم أنه منح الإمبراطورية قوة جديدة، بل على العكس لايمكن اعتباره إلاّ مظهرا من مظاهر التفكك والانحلال الذى أصاب الإمبراطورية. والذى حاول الأباطرة المصلحون مثل دقلديانوس وقسطنطين تداركه، ولكن عوامل الانحلال كانت أقوى من جهودهم التى لم تؤد إلا إلى تأجيل الكارثة التى حلت بالإمبراطورية فيما بعد(٨٧).

ذلك أن عوامل الانحلال اشتد خطرها فى النصف الأخير من القرن الرابع؛ عندما ازداد الفساد الإدارى، وتضاعف عبء الضرائب، وتفاقم الخلل الاجتماعى، بعد أن تكاثر عدد الرقيق المشتغلين بالزراعة، وتناقص عدد الأحرار، وانحطت أحوال المدن بوجه عام(٨٨). وهكذا يسهل على دارس أحوال الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع أن يدرك أنها كانت تعانى عندئذ آلام الموت البطىء ، وبالتالى فإن العصور القديمة أمست فى طريق الزوال وباتت الأحوال ممهدة لان تنتقل أوربا إلى طور جديد من أطوار تاريخها أكثر ارتباطا بالعصور الوسطى(٨٩).

وقد أجهد المفكرون أنفسهم فى الوقوف على أسباب انحلال الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها، فمنهم من قال بأن السبب فى ذلك هو فشل هذه الإمبراطورية فى حل مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة، ومنهم من نادى بأن انهيار نظام المدينة الحرة ذات الحكم الذاتى هو مصدر اضمحلال الإمبراطورية(٩٠). فى حين قال فريق ثالث إن سبب الكارثة؛ هو الإفراط فى الاعتماد على المدن والتوسع فى منحها استقلالاً ذاتياً مما أفسد وحدة النظام الإدارى فى الولايات، وأثار البغضاء بين أهالى المدن وأهالى الريف. كما أوجد تعارضا بين الأوضاع الاقتصادية التى سادت المدن من جهة، وتلك التى سادت الريف من جهة أخرى، وأخيراً يأتى رأى

---

(87) Moss: op. cit. pp. 78 - 79.
(88) Katz: op. cit. pp. 78 - 79.
(89) Cam. Med. Hist. Vol. I. pp. 543 - 552.
(90) Idem. p. 553.

رابع يعلل الكارثة التى حلت بالإمبراطورية الرومانية؛ بازدياد نفوذ أرستقراطية كبار الملاك الإقطاعيين ونموها على حساب الطبقة الوسطى من الأحرار التى تناقص عدد أفرادها فى الريف والمدن وتحولوا إلى رقيق(٩١).

ويشبه بعض المؤرخين الإمبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتدت جذورها القوية فى مختلف الاتجاهات، مما يجعلها أقوى من أن تنهار نتيجة لعامل واحد أو سبب بعينه؛ لذلك يرجعون انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها إلى عدة أسباب تضافرت جميعها على إسقاط الإمبراطورية، وسواء كانت هذه الأسباب طبيعية أو اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو حربية، أو دينية(٩٢)، فإنه يجب أن نعترف بأنه لم توجد دولة أو حكومة فى التاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحد من الرفعة أو الحطة، وأن الدولة تتفق مع الكائنات الحية فى خضوعها لسنة الموت والبعث.

---

(91) Thompson, op. cit. Vol 1. pp. 28 - 29.
(92) Cary, op, cit. pp. 778 - 779.

الباب الثالث
الإمبراطورية والمسيحية

وُلد المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - أثناء عهد الإمبراطور أوغسطس (ت١٤ م) فى بيت لحم بفلسطين، فى وقت أخذ العالم الرومانى يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الروحى. فالرومان أنفسهم بدأوا ينظرون إلى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة، على أنها أمور شكلية(١)، مما دفع المثقفين منهم بوجه خاص إلى الاستخفاف بالعقائد الدينية - سواء كانت يونانية أو رومانية - ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التى نادى بها الرواقيون(٢). ولكن حتى هذه التعاليم الرواقية أخذت هى الأخرى تبدو تدريجيًا أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين؛ نظرا لما امتازت به من تطرف فى الجمود والمنطق، فضلا عن بعدها عن الآفاق السماوية(٣).

والواقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصارا سريعا للمسيحية فحسب؛ بل أيضًا لكثير من الديانات الأخرى الوثنية. ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفى فى نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشىء سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة، أما الآلهة ذات الأصل الأجنبى التى وجدت فى

---

(1) Cam, Med. Hist. Vol. 1. p. 89.

(2) Stephenson: Med, Hist, pp. 51 - 52.

الرواقية اسم مدرسة فلسفية أخلاقية نسبة إلى أحد الأروقة فى أثينا حيث ولدت هذه المدرسة وازدهرت بعد ذلك فى العصر الهلنستى ثم فى العصر الرومانى ، وقد انصرف الرواقيون Stoics عن الدراسات النظرية الخالصة، واتجهوا نحو الحياة العملية ممثلة فى الأخلاق، فقالوا إن الفلسفة هى فن الفضيلة ومحاولة اتخاذها محورا للحياة العملية، واهتموا بالأخلاق حتى اقتصر بعضهم على دراستها والقول بأن الفلسفة هى البحث عن الفضيلة بالفضيلة نفسها، وبذلك تتحقق السعادة على أساس الزهد فى اللذات والتقشف الذى يصل إلى حد الحرمان، انظر: (توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص ٥٠، ١١٨ - الطبعة الرابعة ١٩٦٤) الفلسفة الخلقية، ص ٧٣ - ٩٠ ، الطبعة الأولى، ١٩٦٠).

(3) Rostovizeff: op. cit. Vol. 2. p. 345 & Glover. op. cit. p. 155.

روما أو غيرها من أنحاء الإمبراطورية - مثل غاليا وبريطانيا - فكانت هي الأخرى رموزا شكلية لا تثير حماسة دينية في نفوس المعاصرين(٤). وفي وسط هذا الفراغ الديني الكبير لم يجد أهالي الإمبراطورية وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية المختلفة المستوردة من الشرق مثل ديانة سبيل (Cybele) من آسيا الصغرى، وديانة متراس Mithras من فارس، وديانة إيزيس من مصر، وأخيراً المسيحية التي نبتت في فلسطين(٥).

ومن الواضح أنه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التي عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت؛ لأن قصة المسيح وحياته فاقت في سموها وروحانياتها بقية القصص الديني المعاصر. ويكفي أن تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة، لا من فلسفة اليونان التي لايمكن أن يفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيحية جاءت دينا سماويا عاما دون أن تختص بطائفة أو تميز فريقا على آخر، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها في النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة(٦).

ولاشك في أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة في عصرها الأول، وكذلك عن انتشار المسيحية في أركان الإمبراطورية الرومانية، ضئيلة وغير كافية، وإن كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع إلى القديس بولس في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى، ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والأخرويات كالموت، والبعث، والحساب، والخلود، فضلا عن جهوده في وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية(٧)، وهكذا أخذت المسيحية تنتشر انتشاراً حثيثا بحيث لم يكد ينتهي القرن الأول إلاّ وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية، بل إن المسيحيين كانوا جالية ملحوظة في

---

(4) CARY : OP. CIT. P. 511 & 590.

(5) DILL: OP. CIT. PP. 529 - 546.

(6) GLOVER: THE Conflict of Religions in the Early Roman Empire pp. 33 - 74.

(7) Rostovtzeff: op. cit. vol. 2. p. 335.

روما نفسها منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ٦٤ مما عرضهم لنقمة الإمبراطور نيرون واضطهاده[٨]. وهنا نشير إلى أنه ليس من الواقع فى شىء ما يظنه البعض من أن انتشار المسيحية فى أوائل عهدها اتخذ اتجاها أفقيا فحسب، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة فى المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات، إذ يثبت الواقع أن هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى ، من الطبقات الدنيا إلى الطبقات الراقية العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى[٩]. ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرص، وسالونيكا، وبيثنيا وغيرها من الولايات الرومانية، فضلا عن رسائل القديس بولس[١٠]. حقيقة أن الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة، وأن الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تقبل على اعتناق المسيحية فى أعداد ضخمة إلاَّ بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣، ولكن ليس معنى ذلك أن المسيحية عدمت أنصاراً لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية خلال القرون الثلاثة الأولى من عمرها[١١].

وهنا نلاحظ أن ظروف الإمبراطورية الرومانية، والأوضاع التى أحاطت بها كانت أكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها. فهذه الإمبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها وأطرافها برباط وثيق، فضلا عن الأمن والسلام اللذين سادا ربوعها، ونشاط التبادل التجارى بين مختلف أجزائها، هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى الأجزاء الغربية من الإمبراطورية ،

---

(8) Painter : op. cit. p. 11.

(9) Thompson, op. cit Vol. 1. p. 32.

(10) Katz: op. cit., pp. 64 - 65.

ومن ذلك ما جاء فى العهد الجديد «فاقتنع قوم منهم وانحازوا إلى بولس وسيلا. ومن اليونانيين المتعبدين جمهور كثير، ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل». (سفر أعمال الرسل، والإصحاح السابع عشر ٤٠).

(11) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 95 - 96.

واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية، مما جعل من اليسير انتقال الآراء، والأفكار، والمعتقدات فى سهولة بين مختلف أنحاء الإمبراطورية، وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها إلى أقصى أطراف البلاد فى سرعة فائقة[١٢].

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة، والنظم والقواعد التى قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى، هذا إلى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانيةوالفكر الرومانى جميعا[١٣].

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية هو أن فئة واحدة من كبار الموظفين لها أن تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسية ومدنية وحربية ودينية، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بآلهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما أن عقيدته لا تهدد سلام الإمبراطورية من جهة أخرى[١٤]. وكل ما هنالك هو أنه يجب على الرعايا ـ مع اختلاف عقائدهم ـ أن يعترفوا بعبادة الإمبراطور القائم، وهذا إجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا، ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الإمبراطورية الرومانية سوى اليهود فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا القدر من الحرية الدينية[١٥].

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الدخيلة الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها، لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا أن المسيحية ليست إلا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية[١٦]، لاسيما أن المسيحيين رفضوا ـ مثل اليهود ـ تأليه الإمبراطور وعبادته. ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى اتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين؛ لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى، وأخذوا يجتمعون سراً لمباشرة طقوسهم الدينية، كما رفضوا

---

(12) Duchesne: Hist. Ancienne de l'Eglise; Tome 1, p. 9.

(13) Stephenson: Med. Hist. p. 52.

(14) Katz. op. cit. op. cit. p. 18.

(15) Stephenson: op. cit. p. 53.

(16) Hardy: Studies in Roman History, Vol. 1; p. 2.

الخدمة فى الجيش الرومانى، واتخذوا الأحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلا من السبت عند اليهود[١٧]. وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها إلى المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامة تهدد أوضاع الإمبراطورية وسلامتها[١٨]. والمعروف أن أية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التى يعقدها فريق من رعاياها أمرا يخشى منه على كيانها، لا سيما إذا كانت هذه الاجتماعات تضم الطبقات الفقيرة التى انتمى إليها معظم المسيحيين الأوائل[١٩]، وبعبارة أخرى فإن سبب حنق الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا لادينيا؛ لأن المسيحية بدت فى صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادئ من شأنها تقويض الدعائم التى قام عليها المجتمع الرومانى[٢٠]. وهنا نلاحظ أن نظرة الحكومات إلى الطوائف والجماعات الصغيرة تختلف عنها إلى الجماعات الكبيرة؛ بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية إلى المجتمعات المسيحية الصغيرة فى أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها، بعكس ما أصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية، وكثر أتباعها وعندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية إلى المسيحية إلى نوع من الخوف والشك فى أمرهم[٢١].

وكان أن بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرماً فى حق الدولة، فمنعت اجتماعات المسيحيين، وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم. ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين سوى بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذى قدم مسيحيى روما طعمة للنار العظيمة التى أشعلها سنة ٦٤ فحسب[٢٢]، بل شارك فيها أيضاً فئة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل: تراجان، وهادريان، وأنطونيوس بيوس، وماركوس

---

(17) Katz; op. cit. p. 62.
(18) Charlesworth: op. cit. p. 149.
(19) Painter: op. cit, p. 15.
(20) Hardy: op. cit. Vol. 1, p. 34.
(21) Idem, p. 37.
(22) Cary: op. cit. p. 531.

أورليوس[٢٣] ومن أولى الوثائق التى تصور لنا بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد، تلك الرسالة التى أرسلها يلينى الصغير حاكم بيثنيا إلى الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١٧) يفيده فيها بأنه عفا عن جميع المشكوك فى أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الإمبراطور فى حين أعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك، وقد أجاب الإمبراطور تراجان معبراً عن استحسانه لتصرفه[٢٤].

على أنه يبدو أن هذا الاضطهاد أتى بنتيجة عكسية؛ لأن روح الشجاعة والصبر والإيمان التى واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع إعجاب الكثيرين الذين أقبلوا هم الآخرون على اعتناق الديانة الجديدة[٢٥]. وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث إلا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة؛ نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مطردا، مما دفع الإمبراطور دقلديانوس إلى التطرف فى قمعها فى أوائل القرن الرابع، لاسيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش إلى تهديد بالقضاء على ولاء الجند للإمبراطورية[٢٦]، وقد أصدر هذا الإمبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم، وإحراق كتبهم، وحبس قساوستهم، وطردهم نهائيا من الوظائف الحكومية، إلى غير ذلك من الإجراءات المشددة التى جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه «عصر الشهداء»[٢٧]. ويبدو أن هدف دقلديانوس من هذه السياسية كان محاولة إجبار الكنيسة - عن طريق الاضطهاد - على الخضوع للدولة، شأنها شأن بقية الهيئات والمنظمات الاجتماعية فى الدولة الرومانية، ذلك أن قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة داخل الدولة ، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذى أقام عليه دقلديانوس نظامه وبنى إصلاحاته والذى يقضى بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة[٢٨] . وهنا نلاحظ أن اضطهاد الأباطرة والحكام لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد المسيحية فى ذلك الدور من تاريخها، بل كان على الديانة

(23) Duchesne,op. cit, Tome 1.pp. 110 - 115 & 159.
(24) Hardy: op. cit. Vol. 1, pp. 78 - 94.
(25) Katz: op. cit. p. 94.
(26) Rostovtzeff: op, cit. Vol. 2. p. 346 & Lot. op. cit, p. 24.
(27) Duchesne,op. cit, Tom 2.pp. 6 - 15.
(28) Rostovtzeff: op, cit. Vol. 2. p. 350.

الجديدة أن تواجه عندئذ تهديدا خطيرا من شأنه أن يفقدها طابعها الأساسى، وذلك من ناحية الأدريين (الغنوصيين) Gnostics الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية بالآراء الميتافيزيقية والأفلاطونية الحديثة، هذا فضلا عن الهجوم الذى واجهته المسيحية من جانب اليهود[٢٩].

ومهما يكن من أمر فإن المسيحية خرجت من جميع هذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس، لا سيما بعد أن أخذ الإمبراطور قسطنطين بسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ معترفا بوضع الديانة المسيحية كإحدى الشرائع المصرح باعتناقها داخل الإمبراطورية؛ بمعنى أن يتمتع المسيحيون فى الإمبراطورية بجميع الحقوق التى تمتع بها غيرهم من أتباع الديانات الأخرى[٣٠]. وهنا يصح أن نتوقف قليلا لنتدبر أهمية هذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها قسطنطين، فإذا تذكرنا أن الإمبراطورية الرومانية قامت على أساس الوثنية وفكرة تأليه الأباطرة، وإذا تذكرنا ما نزل بالمسيحية فى مختلف الولايات الرومانية من تعذيب واضطهاد، وإذا أدركنا ماترتب على اعتراف قسطنطين بالمسيحية من انتشار سريع لهذه الديانة الجديدة وازدياد نفوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة أقوى العوامل التى كيفت تاريخ أوربا العصور الوسطى، أمكننا فى النهاية أن نتحقق من أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها قسطنطين. ويمكن أن نضيف إلى هذا ما سبق أن أشرنا إليه فى الباب السابق من أن قسطنطين أتبع اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية، وأنه هجر روما الخالدة إلى عاصمته الجديدة بالشرق، مما يشير إلى أن ثمة تغييراً أساسياً أخذ يعترى وجه العالم القديم، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسطى جديدة لم تعد فيها روما مركز الإمبراطورية من جهة، وأصبحت المسيحية ورجالها بمثابة القوة الفعالة فى المجتمع الأوربى من جهة أخرى[٣١].

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الحافز الذى دفع قسطنطين إلى إصدار مرسوم ميلان السابق، وهل جاء صدور هذا المرسوم عن عقيدة صادقة وإيمان بالمسيحية أم

(29) Glover: op. cit. p. 173.

(30) Vasiliev:op. cit. Tome 2. pp. 61 - 63.

(31) Katz: op. cit. p. 52.

هو مجرد إجراء سياسى اتخذه قسطنطين لتحقيق مآرب خاصة. والواقع أنه توجد أدلة كثيرة تثبت إيمان قسطنطين بالمسيحية. كما توجد أدلة أخرى عديدة توضح استمرار اعتقاده فى الوثنية(٣٢). ذلك أن عدد المسيحيين عندئذ لم يتجاوز عشر مجموع سكان الإمبراطورية، الأمر الذى يؤيد الرأى الأول بأن قسطنطين اتخذ قراره عن شعور دينى لا بدافع المصلحة السياسية(٣٣)، على أننا إذا تأملنا الموقف قليلا وجدنا أن المسيحية كانت أوسع انتشارا وأشد تركيزا فى الشرق منها فى الغرب، بحيث إن آسيا الصغرى غدت من المراكز الرئيسية للمسيحية فى القرن الرابع(٣٤). هذا فى الوقت الذى كان قسطنطين قد انتصر على خصمه ماكسنتيوس Maxentius فى موقعة جسر ملويان Milvian بإيطاليا سنة ٣١٢ وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربى من الإمبراطورية ولم يبق أمامه سوى إخضاع جزئها الشرقى؛ حتى تتحقق له السيادة التامة على الإمبراطورية كلها، لذلك لا يستبعد أن يكون قسطنطين قد أصدر مرسوم ميلان غداة انتصاره على ماكسنتيوس فى الغرب ليفتح أمامه أبواب الشرق(٣٥)، وتتواتر فى المصادر التاريخية قصة شهيرة حكاها أيوزيب Eusebe أسقف قيصرية المعاصر نسبها إلى قسطنطين نفسه، وخلاصتها أنه حدث أثناء زحف الإمبراطور على روما لمحاربة خصمه أن رأى بعد غروب الشمس هالة من النور مضيئة فى السماء على شكل صليب وتحتها عبارة «ستنتصر بفضل هذا !» فلما نام الإمبراطور رأى فى منامه صورة المسيح ومعه الصليب نفسه وقد أتى ليأمره باتخاذ هذا الصليب شعارا له والزحف على عدوه فورا. فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من نصر حققه قسطنطين على خصمه من الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واعتناقه لها(٣٦).

ومهما يكن من أمر، فإن مرسوم ميلان ٣١٣ جعل من المسيحية ديانة مرخصة Religio licitia كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات الأخرى داخل الإمبراطورية الرومانية، وكفل حماية أرواح المسيحيين - وممتلكاتهم، أسوة ببقية رعايا

(32) Ostrogasky: op. cit. pp. 42 - 43.
(33) Vasiliev: op. op. cit. Tome 1. pp. 56 - 58.
(34) Idem. p. 57.
(35) Cam, Med, Hist. Vol. 1. pp. 5 - 6.
(36) Vasiliev: op. cit. Tome 6. p. 61.

الإمبراطورية، ومن هذا يبدو أن سياسة قسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال، كما تعبر عن تطور فكرى أكثر منها عن تحول روحى[٣٧]؛ ذلك أنه تسامح مع المسيحيين فى الوقت الذى لم يضطهد الوثنيين، وعن هذا الطريق حاول أن يمسك العصا من وسطها، ليحقق نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية[٣٨]. والواقع أن عهد الإمبراطور قسطنطين يمثل عدة تيارات دينية متضاربة، إذ لم يقتصر فيه الوضع على التطاحن بين المسيحيين والوثنيين بل انقسمت المسيحية الناشئة على نفسها بين أريوسيين وأثناسيوسيين، مما جعل كل فريق يعمل للفوز والحصول على قدر ممكن من الامتيازات على حساب الطرف الآخر. وهنا وجد قسطنطين فرصته فحاول أن يرضى الجميع دون أن يغضب فئة أو مذهبا[٣٩]. وهكذا اعترف قسطنطين بالمسيحية بمذهبيها دون أن يتنكر لديانة الدولة، أو يتخلى عن عبادة الإمبراطور التى كانت مصدرا أساسيًا لقوة الأباطرة ونفوذهم؛ وبعبارة أخرى فإن قسطنطين اختار أن يقيم قوته السياسية على ثلاث دعائم رئيسية هى العبادة الإمبراطورية، والعقيدة الأريوسية والعقيدة الأثناسيوسية، كما يتضح ذلك من سياسة الإمبراطور وتصرفاته، وذلك أنه احتفظ كأسلافه من الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم[٤٠] pontnex Maximus. أما بلاطه فقد أصبح يغص بالأساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية جنبا إلى جنب مع الكهنة، والفلاسفة، والوثنيين، هذا فى الوقت الذى صارت وظائف الدولة الكبيرة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين، كما نقشت على نقوده شارات المسيحية والوثنية[٤١]. أما عن حياته الخاصة فإن قتل قسطنطين لزوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر إطلاقا بتعاليم المسيحية وأخلاقها، وهكذا يمكن القول بأن قسطنطين ظلّ حتى أواخر حياته وثنيًا مع الوثنيين، وأثناسيوسيا مع الأثناسيوسيين، وأريوسيا مع الأريوسيين[٤٢].

---

(37) Ostrogorsky: op. cit. p. 43.
(38) Lot: op. cit. p. 29.
(39) Thompson: op. cit. Vol. 1 pp. 35 - 36.
(40) Ostrogorsky: op. cit. p. 43.
(41) Lot: op. cit. p. 26.
(42) Cam. Med. Hist. 1. p. 10.

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها أثر عظيم فى تاريخ الشرق والغرب جميعا، وربما يبدو من الأنسب فى كثير من الأحيان الابتعاد عن الخوض فى هذه الخلافات والمشاكل الدينية فى دراسة تاريخية كالتى نقوم بها، ولكننا عندما نجد الخلاف المذهبى يتحكم فى توجيه التيارات السياسية بل فى مجرى الأحداث التاريخية ـ كما حدث فعلا فى القرنين الرابع والخامس ـ نرى أنفسنا مضطرين إلى الإشارة إلى مختلف وجهات النظر الدينية حتى نستطيع فى ضوئها أن نتفهم ما ترتب عليها من أحداث سياسية[٤٣]. وهنا نلاحظ أن الخوض فى المسائل اللاهوتية لم يقتصر فى القرن الرابع على رجال الدين، وإنما كان أمرا مباحا وموضوعا مفتوحا أمام الجميع، وخير شاهد فى ذلك ما كتبه القديس جريجورى أسقف نيسا Nyssa (٣٤٠ - ٤٠٠) عن القسطنطينية ، إذ يصف العمال والرقيق فى هذه المدينة بأنهم جميعا من المشتغلين باللاهوت، فإذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك الصرّاف ليروى لك أوجه الخلاف بين المسيح الابن والإله الأب، وإذا ذهبت لشراء رغيف خبز أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب، وإذا طلبت من الحمام أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شيء[٤٤].

أما المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين وبالتالى العالم الرومانى إلى معسكرين وأثارت البغضاء الدينية، والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب؛ ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجال الكنيسة بإسكندرية حول تحديد هذه العلاقة ، فقال أريوس ـ وهو كاهن سكندرى مثقف ـ بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولمّا كان المسيح الابن مخلوقا للإله الأب فهو إذا دونه ولايمكن بأى حال أن يعادل الابن الإله الأب فى المستوى والقدرة[٤٥]. وبعبارة أخرى فإن المسيح مخلوق لا إله بمعنى هذه الكلمة المطلق، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة إلهين[٤٦]، أمّا اثناسيوس فقال

(43) Diehl & Marcais: Le Monde Oriental pp. 21 - 22.
(44) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 37.
(45) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 119.
(46) Lot: op. cit. pp. 43 - 44.

بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويا للإله الأب تماما فى كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه، هذا وإن كانا شخصين متميزين؛ ويبدو أن الأثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد فى دعوتها على مكانة المسيح، وأن أى اتجاه نحو التقليل من مركزه يؤدى إلى إضعاف الدعوة المسيحية، وهكذا كان أنصار أريوس من الموحدين. ومن الواضح أن المذهب الأريوسى كان يتفق مع منطق المثقفين؛ لأنه أراد أن يقيم العقيدة المسيحية على أساس من المنطق والتعقل، فى حين كان المذهب الأثناسيوسى يستقيم مع تفكير عامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم(٤٧). وهنا نلمس أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب، إذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسى بلاد الغرب اللاتينى فى حين غدت الغلبة فى الشرق الهللينى للمذهب الأريوسى، هذا فضلا عما نلحظه من أن معظم المفكرين، والفلاسفة، والأدباء كانوا أريوسيين موحدين، فى حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التى انتمى اليها رجال الدين من الأثناسيوسيين.

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين، خشى الإمبراطور قسطنطين أن يؤثر ذلك فى وحدة الإمبراطورية، فحاول أن يوفق بين المذهبين، وأرسل مبعوثا (هوسيوس Hosius) إلى الإسكندرية لهذا الغرض، ولكن جهود الإمبراطور لم تكلل بالنجاح(٤٨)؛ لذلك دعا قسطنطين إلى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف(٤٩). وكان هذا المجمع أول مجمع مسكونى - أى عالمى - فى تاريخ الكنيسة، إذ حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين من الشرق والغرب على رأسه الإمبراطور قسطنطين نفسه على الرغم أنه لم يكن معمدا، وقد أدان مجمع نيقية هذا أريوس، وبالتالى تقرر نفيه إلى اليريا، وإعدام كتاباته وتحريم تداولها، واضطهاد أتباعه من الأريوسيين(٥٠). ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة فى الأجزاء الشرقية من

---

(47) Painter:op. cit. p. 16.

(48) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 68.

(49) Bynes: Constantine and the Christian Church, pp. 19 - 22.

(50) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 122 - 123.

الإمبراطورية، وعن هذا الطريق انتقلت إلى الأمم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين[٥١].

ولعل بقاء المذهب الأريوسى قويًا فى الشرق كان من العوامل التى أدت بالإمبراطور قسطنطين إلى تغيير رأيه، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧. ونستطيع أن نعلل هذا التغيير الذى طرأ على مسلك قسطنطين بما كان يعتزمه الإمبراطور من نقل عاصمته إلى القسطنطينية، وهو الأمر الذى تم فعلا سنة ٣٣٠ مما استلزم استرضاء أهالى الجزء الشرقى من الإمبراطورية[٥٢]. وتؤكد هذه الخطوة من جانب قسطنطين الرأى القائل بأنه كان على استعداد تام لتغيير ميوله المذهبية - بل الدينية - وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية؛ ذلك أنه ظل يؤيد المذهب الأثناسيوسى طالما كانت عاصمته فى الغرب وطالما اعتمد على الغرب فى قوته، ولكنه عندما شرع فى نقل عاصمته إلى الشرق، وأحس بالحاجة إلى استرضاء سكان القسم الشرقى من الإمبراطورية لم يجد غضاضة فى تغيير عقيدته أو ميوله نحو المذهب الأريوسى[٥٣]. وهكذا تم عقد مجمع دينى جديد فى صور سنة ٣٣٤ ألغى قرارات مجمع نيقية السابق، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه، وبذلك دارت الدوائر على اثناسيوس الذى عزل فى العام التالى، ونفى إلى تريف فى غاليا حيث ظل حتى أطلق سراحه الإمبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣)، الذى كان بحكم وثنيته لايهتم بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين[٥٤]. على أن أريوس لم يلبث أن توفى فجأة فى القسطنطينية سنة ٣٣٦ مما جعل أتباعه يهمسون بأنه مات مسمومًا، فى حين هلل خصومه واعتبروا ذلك حكم الله العادل، ولم يلبث أن لحق به الإمبراطور قسطنطين فتوفى هو الآخر سنة ٣٣٧ بعد أن تم تعميده على فراش الموت وفق مبادئ المذهب الأريوسى.

---

(51) Stephenson. op. cit. p. 83.

(52) Bynes: op. cit. pp. 26 - 30.

(53) Vasiliev: op. cit. Tome. I. p. 70 - 71.

(54) Lot: op. cit. p. 45.

وكان قسطنطين قد قسّم الإمبراطورية قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة فأخذ قسطنطين الثانى الغرب، وأخذ قسطنطيوس الشرق، فى حين كانت اليريا والجزء الأوسط من شمال أفريقية من نصيب قنسطانز(٥٥). وهكذا نجد كل حاكم من هؤلاء الحكام الثلاثة يعمل على توطيد نفوذه عن طريق المذهب السائد فى بلاده، فاتجه قسطنطيوس نحو تشجيع الأريوسية، فى حين دأب أخواه على تأييد الأثناسيوسية، مما جعل الخلاف المذهبى يتطور إلى انقسام فى الكنيسة بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى(٥٦). وعندما توفى قسطنطين الثانى أصبحت مهمة الذود عن العقيدة الأثناسيوسية تقع على عاتق البابوية ورجال الدين فى الغرب، فصار عليهم أن يتكاتفوا لاسيما بعد مقتل قنسطانز، وتوحيد الإمبراطورية الرومانية تحت حكم قسطنطيوس (٣٥٣ – ٣٦١)(٥٧). ذلك أن الإمبراطور قسطنطيوس عرف بولائه للمذهب الأريوسى ولاء دفعه إلى العمل على فرض هذا المذهب على أجزاء الإمبراطورية الغربية، وجعل كفة الأريوسية ترجح فى الإمبراطورية الرومانية عند وفاته سنة ٣٦١. على أن هذا الرجحان كان مؤقتا، إذ لم يلبث الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٩ – ٣٩٥) أن أعلن نهائيا عدم شرعية المذهب الأريوسى فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كما فرض عقوبات مشددة على أتباع المذهب الأريوسى فى جميع أنحاء الإمبراطورية(٥٨).

صحوة الوثنية:

أما عن موقف الوثنية المتداعية فى تلك الحقبة فقد رأينا كيف ظل قسطنطين الأول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفًا وسطا بين المسيحية بمذهبيها من جهة، والوثنية من جهة أخرى، ولكن حدث أن أبناء هذا الإمبراطور خالفوا أباهم واختاروا عدم الاستمرار فى مجاملة الوثنية وأهلها، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد فصادروا معابدها من أراض وممتلكات، حتى إذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين للآلهة الوثنية، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات(٥٩).

(55) Thompson: op, cit. Vol. 1 p. 40.
(56) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 84.
(57) Katz: op,. cit. pp. 87 - 88.
(58) Bury: Hist. of the Later Roman Empire. Vol. 1. p. 349.
(59) Vasiliv: op. cit. Tome 1. p. 85.

على أن الوثنية لم تستسلم فى سهولة مطلقة، إذ أبت إلاَّ أن تصحو من جديد، وذلك عندما تولى حكم الإمبراطورية جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣) الذى كان متمسكا بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية، فتخلى عن المسيحية سرا قبل أن يتولى منصب الإمبراطورية، ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الإمبراطور قسطنطيوس الثانى ٣٦١- حتى أعلن ارتداده عن المسيحية، وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقا لمرسوم قسطنطيوس(٦٠)، ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الإمبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية، وإنما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى أنزله بهم أنصار الديانة الجديدة؛ أو بعبارة أخرى أراد جوليان أن يحقق نوعا من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقا للغرض الذى أملى إصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣(٦١). ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عدالة واتزاناً إذا علمنا أنه امتدح بعض المبادئ الكريمة التى نادت بها المسيحية مثل: الإحسان والرحمة، والعطف على الفقراء والمرضى، حتى أنه كتب إلى أحد الكهنة الوثنيين يخبره فى صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر إلى مثل هذه الأخلاق الحميدة(٦٢).

على أن هذا الشعور لم يمنع الإمبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو فى مستواها دون المسيحية، فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به فى الكنيسة، وعنى بالمعابد الوثنية وزينتها حتى لا تبدو أقل جمالا من الكنائس(٦٣)، وفى الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجانا على حساب الحكومة صحبة البريد الإمبراطورى، كما أخذ يستبعد المسيحيين تدريجيا من وظائف الجيش والإدارة ليحل الوثنيين محلهم(٦٤).

---

(60) Bury: op. cit Vol. 1. p. 367.

(61) Cam. Med. Hist. Vol. 1.p. 103.

(62) Tompson: op, cit. vol. 1. p. 44.

(63) Duchesne: op. cit. Tome 2. pp. 326 - 332.

(64) Vasiliev: op. cit. Tome 1. pp. 90 - 92.

ولكن يبدو أن هذه الصحوة التى مرت بها الوثنية على عهد الإمبراطور جوليان لم تكن إلاَّ صحوة الموت؛ إذ لم يلبث المسيحيون أن استردوا فى عهد جوفيان - الذى حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر - مكانتهم وامتيازاتهم التى حرمهم منها جوليان. ثم جاء الإمبراطور جراشيان (٣٧٥ - ٣٨٣) فتخلى عن لقب «الكاهن الأعظم» الذى تسمك به جميع الأباطرة السابقين، بل إن هذا الإمبراطور سرعان ما استأنف سنة ٣٨٢ سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية(٦٥). حقيقة أن هذه الإجراءات لاتعنى القضاء على الوثنية قضاء سريعا تاما مبرما، إذ ظلت الوثنية قوية - وبصفة خاصة فى الغرب وروما - حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى أواخر القرن الرابع، ولكن تشييد المعابد الوثنية فى تلك الفترة اللاحقة صار لايتم على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل(٦٦)، ثم كانت بداية التطرف فى استخدام القوة والعنف ضد الوثنية وأهلها على عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأول الذى نجح فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه سنة ٣٩٤. وقد استمرت الحرب التى بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الإمبراطور، أقفلت فيها معابد الوثنيين، وأعدمت كتبهم، ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم، بل إن الامبراطور أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية - لا إغلاقها فحسب - واستغلال أحجارها وموادها فى إقامة منشآت عامة(٦٧). وهكذا أدركت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والالتجاء إلى مناطق العزلة النائية فى إيطاليا، وغاليا، وظلَّ الحال على ذلك حتى القرن السادس عندما أقام القديس بندكت ديره الشهير سنة ٥٢٩ على أنقاض آخر ما تبقى من معابد أبولو فى مونت كاسينو. وفى السنة السابعة

---

(٦٥) احتفظ جراشيان لنفسه بحكم الأجزاء الغربية من الإمبراطورية - وبصفة خاصة إقليم غاليا - فى حين كان الجزء الشرقى من الإمبراطورية تحت حكم عمه فالنز، وعندما لقى فالنز حتفه على أيدى القوط الغربيين فى موقعة أدرنة سنة ٣٧٨، انتقل حكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية إلى جراشيان الذى خشى بأس القوط فتنازل عن حكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية لثيودسيوس؛ وهذا هو السبب فى تداخل سنوات حكم جراشيان وفالنز وثيودسيوس.

(66) Thompson: op. cit. Vol. 1. pp. 44 - 45.

(67) Bury: p. cit. Vol. 1. p. 371.

نفسها أغلق جستنيان مدارس الفلسفة فى أثينا بوصفها ركنا من أركان الوثنية(٦٨).

على أن انتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة، والدولة والمجتمع من جهة أخرى. ذلك أن الإمبراطورية الرومانية كان لها دين رسمي وكهنة يتمتعون بمساندة الحكومة وتأييدها، ولكن رجال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا إطلاقا التدخل فى شئون السلطة الزمنية، بعكس الكنيسة التى أخذت تكتسب شيئا فشيئا صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية؛ مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية، والروحية(٦٩). وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الإمبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة فى غرب أوربا، ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الإمبراطورية الرومانية فى تنظيماتها حتى صار الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الإدارى فى أقاليم الإمبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسى(٧٠).

والواقع أن الاعتراف بالمسيحية دينا رسميًا للإمبراطورية كانت له نتائج بعيدة الأثر بالنسبة للكنيسة ونظمها، ذلك أن التنظيم الكنسى امتاز بالبساطة المطلقة فى العصر المسيحى الأول، إذ لم يتعد الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض، لكل مجتمع منها أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة(٧١). حقيقة أن بعض هؤلاء الأساقفة امتازوا عن زملائهم بحكم مالكراسيهم من أهمية قديمة، أو ثروة عظيمة، أو مساحة واسعة، ولكن مع ذلك لم توجد هيئة كنسية تمثل سلطة دينية ذات نفوذ فعّال فى الحياة العامة. وقد ظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطاركة فى روما، والقسطنطينية، وأنطاكية، وبيت المقدس، والإسكندرية، وهؤلاء يمكن تشبيههم بكبار الرؤساء الإداريين فى الإمبراطورية

(68) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 113 - 114.
(69)Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 46.
(70) Deanesly: A Hist. of Early Med. Europe, 165.
(71) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 143.

الرومانية. وكان يتبع كل واحد من هؤلاء البطاركة مجموعة من رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شئون كرسيه الأسقفى ويتبع كل واحد منهم عدة أبرشيات، وأخيرا يأتى قس الأبرشية فى القرية، وهكذا ظهر سلم كهنوتى متدرج يشبه إلى حد كبير سلم الوظائف الإدارية فى الإمبراطورية الرومانية(٧٢).

ثم كان أن أخذت الكنيسة المسيحية تحصل - بصفتها راعية الديانة الرسمية للدولة - على امتيازات خاصة من الحكومة الإمبراطورية، وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات، والإعفاء من الضرائب، فضلا عن قيام الأساقفة بالفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين(٧٣). ولم يلبث أن ازداد نفوذ الأساقفة تدريجياً فى أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة، وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى، لا سيما وأن الصدقات التى جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه؛ مما أوجد طبقة من سواد الفقراء تدين بالولاء للأسقف ومستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين(٧٤)، وهكذا أخذت تزداد ثروة الكنيسة، حتى امتلكت الأراضى، والضياع الواسعة التى قام الرقيق والأقنان بفلاحتها، هذا فضلا عن الهبات التى أغدقها الأباطرة بسخاء من جهة، والتبرعات التى قدمها الأهالى عن طيب خاطر من جهة أخرى(٧٥).

ولكن يلاحظ أنه إذا كان هذا التطور الذى مرّت به الكنيسة فى القرن الرابع امتاز بعمقه وسرعته، حتى أدى إلى تحويلها من منظمة بسيطة ديموقراطية إلى هيئة وراثية ذات إدارة بيروقراطية مركزة، إلاّ أن الكنيسة دفعت ثمناً باهظا مقابل ما أحرزته من عظمة كلفتها التخلى عن سياسة التسامح وطابع البساطة من جهة، وانتشار الفساد - من رشوة وسرقة ومحاباة - فى جهازها من جهة أخرى؛ ذلك أن النعمة الكبيرة التى

---

(72) Idem Vol. 1. p. 147.

(73) Vasiliev: op. cit. Tome 1 p. 65.

(٧٤) برتراندرسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٣.

(75) Cam Med. Hist. Vol. 1. p. 561.

غدت فيها الكنيسة أدت إلى اتساع الفجوة بين رجالها وجمهور المسيحيين؛ وبعبارة أخرى فإن ازدياد ثروة رجال الدين؛ أدى إلى اختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة - وهى الروح التى ميزت الكنيسة فى عصرها الأول، وحلّت محلها مسحة من القسوة والتعالي والتباعد - هى النتيجة الطبيعية للغنى المفرط المفاجئ، وهكذا أخذ الأساقفة يتباعدون شيئا فشيئا عن رعاياهم، وصار الواحد منهم يجلس على عرشه أو كرسيه الأسقفى مثلما كان يفعل الحاكم الرومانى من قبل ، ولم يلبث أن تضاءل قصر حاكم الولاية أمام المبنى الأسقفى بعد أن تشبه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا أنفسهم بالحشم، والأتباع والموظفين[٧٦] .

على أن القرن الرابع لم يشهد قيام التنظيم الكهنوتى للكنيسة وازدياد نفوذها السياسى فحسب، بل شهد أيضًا تطور اللاهوت المسيحى وتقدمه، ذلك أن المسيح وضع للناس أسلوبًا جديداً للحياة، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمى منظم، وطالما كان تلاميذه والرسل يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أناس غير مثقفين فإن الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذا اللاهوت؛ لأنه كان يكفى هؤلاء البسطاء أن يستمعوا إلى قصة المسيح وحياته؛ ليتفهموا أسلوب المسيحية فى الحياة ولكن انتشار المسيحية بين المثقفين - الذين ألفوا التفكير الكلاسيكى ومرنوا طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة - أدى إلى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية[٧٧] . ذلك أن هؤلاء المتعلمين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الرب والمسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا إلى لحم المسيح ودمه. وسرعان ما غدت هذه المسائل تحتل جانبا كبيراً من تفكير المسيحيين عندما صارت المسيحية ديناً رسميًا للدولة، مما استلزم وضع دراسات لاهوتية يقنع بها المثقفون من معتنقى الديانة الجديدة، وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار مفكرى المسيحية الذين يطلق عليهم عادة لقب آباء الكنيسة، وأهمهم: القديس كلمنت السكندرى (١٥٠ – ٢١٦م)، وأوريجن (١٨٥ – ٢٥٤)، وجيروم (٣٣١ –

---

(76) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 49.

(77) Duchesne: op. cit. Tome 111; p. 18.

٤٢٠ تقريبا) وأمبروز (٣٤٠ – ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠). وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ـ لا سيما الآراء الأفلاطونية الحديثة ـ فأفادوا منها فى تبرير آرائهم والتدليل عليها، وتقديم العقائد المسيحية فى صورة عملية يتقبلها المثقفون. هذا إلى أن هؤلاء الآباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة، ومطالب الدولة والكنيسة فى عهدهما الجديد من جهة أخرى[٧٨].

نشأة البابوية:

على أن التيار الذى انساقت فيه الكنيسة، ومحاكاتها لنظم الحكومة الإمبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للإمبراطورية إمبراطور يتزعمها. وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين شطرى الإمبراطورية فى الشرق والغرب، ففى الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم فى شئون الكنيسة وخاصة فيما بين القرنين السادس، والثامن بحيث أنشأوا يتدخلون لا فى سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل فى نظمها وسياستها الداخلية أيضًا، وهكذا صار من العسير وقف تدخل الإمبراطور البيزنطى فى شئون الكنيسة الشرقية، حتى غدا إمبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القيصرية البابوية Caesaro Papism أى الجمع بين السلطتين السياسية، والدينية. ومن الواضح أن هذه السياسة وضع أسسها قسطنطين نفسه منذ اعترافه بالمسيحية وإنشائه القسطنطينية، هذا إلى أنه استنّ سنّة جديدة اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الشرقيين؛ هى قيام الإمبراطورية بدعوة المجامع الدينية العامة البحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة، والعقيدة المسيحية[٧٩]، أمّا فى الغرب فإن الوضع اختلف عن ذلك كثيراً؛ لأن الإمبراطورية الغربية أصبحت بعد تقسيم العالم الرومانى ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا مثلما حدث فى الشرق[٨٠]، وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف بلدان العالم الغربى.

---

(78) Painter: op. cit. p. 15.
(79) Bury: op. cit. Vol. 1. p. 63.
(80) Lot: op. cith. p. 53.

وليس من العسير علينا أن نكشف عن العوامل التى هيأت لأسقف روما هذه الأهمية، والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب؛ ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة مع الأهمية السياسية، والاقتصادية للمدينة التى يقوم فيها كرسيه الأسقفى. وإذا كان الشرق الرومانى غنيا بمدنه المهمة التى صارت مراكز لكراس دينية كبرى مثل: الإسكندرية، وبيت المقدس، وقيصرية، وأنطاكية، والقسطنطينية، فإن الغرب لم يوجد به فى تلك المرحلة الأولى من تاريخ المسيحية سوى روما، وقرطاجة، ومهما يبلغ أمر هذه الأخيرة، فإنها كانت لايمكن أن ترقى إلى مكانة روما ذات الماضى العريق، والشهرة الواسعة، والصيت الذائع[٨١]، لهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته، حتى استغل أساقفة روما هذه الأهمية والمكانة فى تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على بقية أسقفيات الغرب، هذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة فى سهولة؛ إذ تعرضوا لكثير من ألوان المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجة[٨٢].

أما إذا انتقلنا إلى التنافس بين روما والقسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحى، فإن القسطنطينية اعتمدت على أنها مركز الأباطرة ومحل إقامتهم، وبالتالى يحق لبطركها أن تكون له الزعامة الدينية على العالم المسيحى، مثلما كانت لإمبراطورها الزعامة السياسية. ولكن هذا الرأى صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين، وظلّ محفوظا فى الكنائس التى أسسوها وخاصة فى أنطاكية[٨٣]، والإسكندرية، وروما[٨٤]، وهنا تبدو القسطنطينية مفتقرة إلى مثل هذا التشريف؛ لأن أحداً من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها، أو الاستشهاد قربها، أو تأسيس كنيسة فى منطقتها، لأن القسطنطينية نفسها لم تؤسس

(81) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 169 - 173.

(82)Thompson: op. cit. Vol 1. pp. 51 - 52.

(٨٣) ترتبط أنطاكية ارتباطا وثيقا بتاريخ المسيحية فى أدواره الأولى وكان أول بلد أطلق فيه اسم المسيحيين على تلاميذ المسيح، «ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا» (سفر أعمال الرسل ١١، ٢٦).

(84) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 171.

إلا في القرن الرابع [٨٥]. أما روما فيكفيها فخرا أنها ارتبطت ارتباطا أبديًا بذكرى القديس بطرس الذى اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات[٨٦]. وإذا كان بطرس - بحكم هذا التشريف - يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل، فإن خلفاءه - أساقفة روما - أحق الناس بأن يرثوا زعامة العالم المسيحى[٨٧].

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والأسانيد شيء، ومحاولة فرض سيطرتهم على العالم المسيحى شيء آخر. والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما فى القرنين الأول والثانى أكثر من أسمائهم، ولم يكن ذلك إلا بعد عهد قسطنطين عندما أخذت المصادر تشير إلى بعض البابوات[٨٨]، الذين لعبوا دورا فّعالا فى توجيه سياسة الكنيسة، ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول (Damasus) (٣٦٦ - ٣٨٤) الذى كتب مؤلفًا استعرض فيه مكانة كرسى روما الأسقفى وأكّد سيادة البابوية وسموها[٨٩]، كذلك عهد هذا البابا إلى جيروم بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية. أما خليفته البابا سيركيوس (Siricius) (٣٨٤ - ٣٩٩)، فترجع إليه أولى المراسيم البابوية التى وصلتنا، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها، وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ - ٤٦١) الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على جميع الكنائس المحلية فى الغرب.

---

(85) Deanesly: op. cit. 169.

(٨٦) انجيل متى: الإصحاح السادس عشر (١٨ -١٩) والمعروف أن القديس بطرس اسمه الأصلى سمعان ،استدع سمعان الملقب بطرس، سفر أعمال الرسل إصحاح ١١ (١٣)، وأن المسيح هو الذى أطلق عليه اسم بطرس Petrus بمعنى صخرة (وأنا اقول لك أيضًا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى) إنجيل متى - الأصحاح السادس عشر ١٨ - ١٩.

(87) Stephenson: op. cit. p. 84.

(٨٨) من الواضح أن لفظ بابا Pope إنما هو تحريف للفظ اللاتينى Papa بمعنى أب ويمكن إطلاق هذا اللفظ على أى فرد من رجال الكنيسة، ولكن العرف جرى فى الغرب على أن يختص به أسقف روما وحده من باب التشريف ولإعطائه صفة الأب الأكبر.

(89) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 171 - 173.

وفي هذه الأثناء كان الشرق البيزنطي مصراً على عناده، فاستمر الأباطرة يدعون المجامع الدينية للنظر في المسائل الدينية المعلقة، كما أخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين كرسي روما، وكرسي القسطنطينية من حيث المركز الديني وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية في مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ تأكيد هذه المساواة في المكانة والامتيازات بين كرسي روما وكرسي القسطنطينية، ولكن مندوب البابا ليو الأول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسبقية كرسي روما(٩٠). وهكذا تمسك بابوات روما دائما بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس، حتى اعترفت بزعامتهم جميع أسقفيات الغرب في القرن الخامس، ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية، وفي سنة ٤٥٥ أصدر الإمبراطور فالنشيان الثالث إمبراطور الغرب مرسوما يقضي بخضوع أساقفة الغرب للبابا(٩١). وهنا نشير إلى وجود عوامل أخرى ثانوية ساعدت على تحقيق سيادة البابوية منها ازدياد الالتجاء إلى أساقفة روما لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجامع الأقليمية، أو صغار الأساقفة؛ مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الأكبر والسيد الأعلى(٩٢). ومن هذه العوامل أيضاً عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوي الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفي مثل ليو الأول وجريجوري الأول، هذا فضلا عن أن سقوط الإمبراطورية في الغرب سنة ٤٧٦ ترك البابا وحيدا لا ينافسه سيد سياسي في الغرب، في الوقت الذي كان بعيدا عن سلطان إمبراطور القسطنطينية ونفوذه في الشرق.

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية في صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) الذي دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها، وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس(٩٣). أما الشرق فقد ظلّ على عناده مستقل بإمبراطوريته وكنيسته عن الغرب، وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير المسائل الدينية كان دائما من العوامل التي زادت من اتساع الفجوة بين

(90) Idem: Vol. 1. pp. 510 - 511.
(91) Duchesne: op. cit. pp.. 631 - 632.
(92) Thomson : op. cit. Vol. 1 p 54.
(93) Deanesly: op. cit. pp. 177 - 184.

الكنيستين الشرقية والغربية. ومن أمثلة ذلك الخلاف الذى قام حول تفسير طبيعة المسيح. إذ أدان مجمع أفسوس سنة ٤٣١ الرأى القائل بفصل طبيعة المسيح الإلهية عن طبيعته البشرية[٩٤]. ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب «الطبيعة الواحدة Monophysite. وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة، وأخذ برأى البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين فهو إله من طبيعة أبيه، وبشر من طبيعة أمه - وهو المذهب الملكانى - إلاّ أن هذه المشكلة ظلت قائمة لتمثل سببا جديدا للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب[٩٥].

---

(94)Duchesne: op. cit. pp.. 459 -463.
(95) Bury: op. cit. Vol. 1 pp. 357 - 358.

الباب الرابع
البرابرة وسقوط الإمبراطورية في الغرب

رأينا كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع على أن وجه التاريخ القديم بدأ يتعرض لكثير من المسخ والتغيير، ذلك أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يعتبر خطوة خطيرة، بل إنه الحقيقة الكبرى فى تاريخ عالم البحر المتوسط فى الفترة الواقعة بين ظهور روما وتحقيق زعامتها من جهة، وبين ظهور الإسلام وانتشاره من جهة أخرى[١]. ويكفى أن هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار المسيحية انتشارا آمنًا سريعا يدل على أن دعامة كبرى من الدعائم التى قامت عليها الإمبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنهار أمام عقيدة جديدة، ومبادئ جديدة، وفكر جديد، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر، وبين الحكام ورعاياهم، وبين الناس بعضهم وبعض، على أسس تختلف كلية عمًّا عرفه العالم القديم، أما نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا فى مسخ وجه العالم القديم إذ أحسَّ المعاصرون بأن القديم المألوف أخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم فى طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل[٢]. ذلك أن الناس تلفتوا حولهم ليجدوا روما - وهى المدينة الخالدة الجبارة مهد الأباطرة العظام والتى سادت الشرق والغرب حتى غدت شعارا للمدنية والحضارة وصار كل ما عداها رمزًا للبربرية والتأخر - وهذه المدينة أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد أن هجرها الأباطرة وتركوها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السالف. فى حين أقام الأباطرة على شاطئ البسفور حيث بنوا القسطنطينية؛ ليجعلوا منها روما جديدة ترث روما القديمة فى مجدها وعظمتها[٣]. ويرتبط بهذه الأحداث ما اتصفت به حكومة

---

(1) Lot: op. cit. p. 39.

(2) Katz: op. cit. pp. 50 - 51.

(3) Charlesworth:op. cit. pp. 180 - 181.

الإمبراطور قسطنطين من طابع وراثى حيث أصبحت الإمبراطورية فى ذلك العهد الجديد تعتمد على حق الوراثة فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة. كذلك شهدت تلك المرحلة بعينها اندثار فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانية - الرومانية؛ هى فكرة المواطنة. إذ لم يعد هناك فى العصر الذى أعقب قسطنطين مجال للمواطنين الذين اكتظت بهم المدن الحرة فى العالمين اليونانى، والرومانى، وحلّت محل ذلك فكرة الرعوية؛ بمعنى أن جميع رعايا الإمبراطور أصبحوا متساوين فى تبعيتهم له(٤).

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والأحداث التى أخذت تبدو على مسرح العالم الرومانى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، تجعلنا نعتقد أن أوربا كانت تمر عندئذ بمرحلة انتقال كبرى تحملها من العصور القديمة إلى العصور الوسطى. ولعل هذا التطور هو الذى دفع مؤرخًا مثل بيورى إلى القول بأن حكم قسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطس مؤسس الإمبراطورية(٥). والمعروف أن العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاثة أصول ضخمة: أولها التراث الكلاسيكى بوجه عام والرومانى بوجه خاص، وثانيها المسيحية وكنسيتها، وثالثها الجرمان(٦). أما هؤلاء الجرمان فكانوا جزءا من العالم البربرى الواسع الذى أحاط بالإمبراطورية الرومانية من معظم نواحيها، والذين لم يلبثوا أن أثروا فى تغيير مصائر هذه الإمبراطورية عندما أخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثانى. والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الإمبراطورية الرومانية فى الغرب عمرا أطول وأن تموت موتاً أبطأ رغم الانحلال الاقتصادى والاجتماعى والسياسى التى تعرضت له لولا هجمات البرابرة التى أسرعت بالإمبراطورية نحو مصيرها المحتوم(٧).

وهنا ينبغى أن نلاحظ لفظ «بربرية» بالمعنى الذى نستعمله لا يرادف لفظ «همجية»، أو لفظ «وحشية» بأى حال؛ لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم

(4) Rostovtzeff: op. cit. Vol. 2. p. 333.
(5) Bury: op, cit, Vol, 1. p. 1.
(6) Thompson: op. cit. 1 ;. 56.
(7) Lot: op. cit. p. 187.

الاجتماعى القبلى، الذى لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار المدنى وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة. فالمجتمع البربرى يعتمد على أساس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده. ولكننا مع ذلك لايمكننا أن نتهم الشعوب البربرية التى أحاطت بالدولة الرومانية بأنها عاشت سلبية مفتقرة إلى أسس ومعالم حضارية؛ لأن هذه العناصر تمتعت فى الواقع بتقاليد حضارية خاصة تزداد وضوحا أمامنا كلما ازداد البحث فى أصول هذه العناصر التى تمتد إلى ما قبل التاريخ(٨).

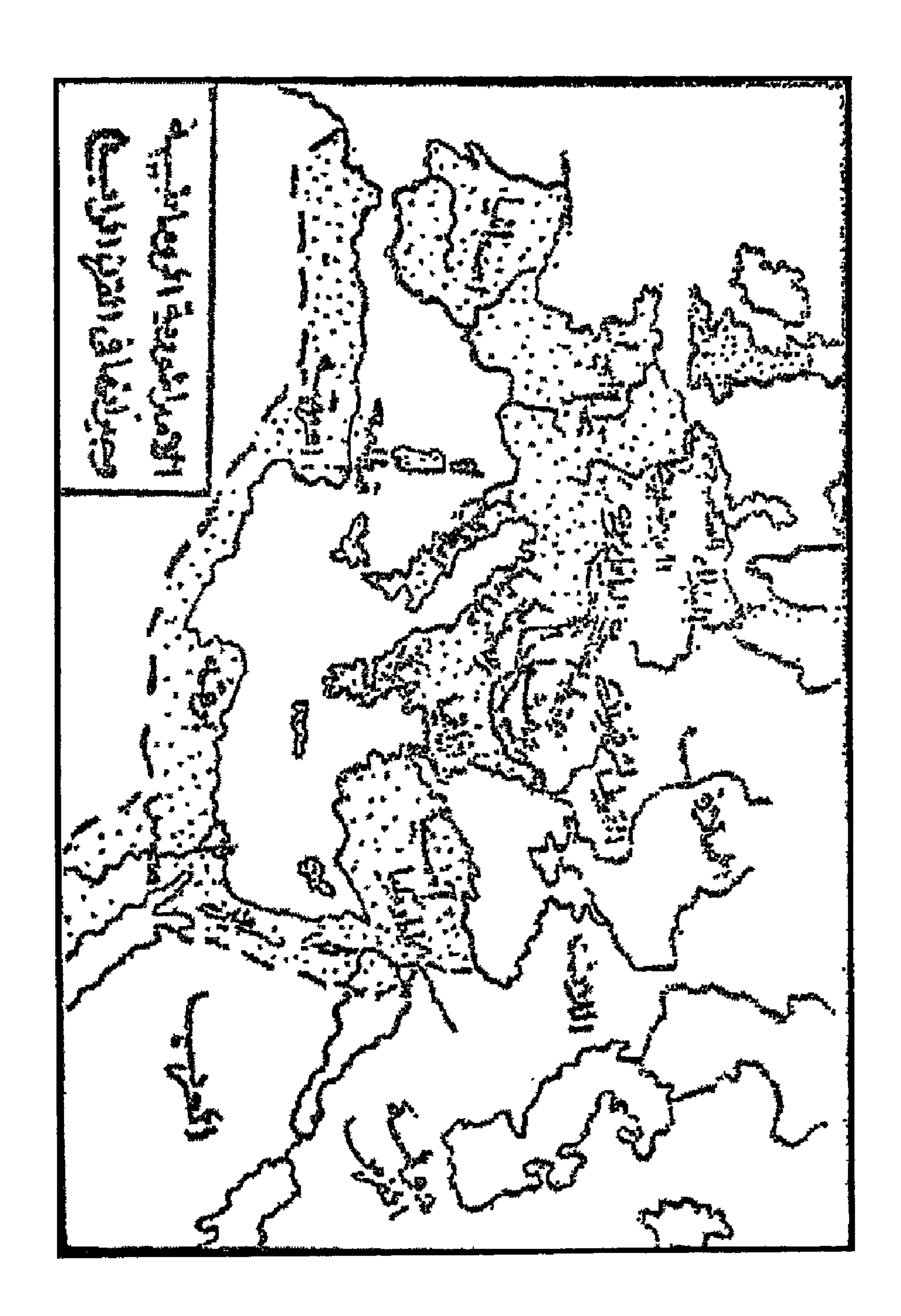
أما هذه الشعوب التى أحاطت بالعالم الرومانى فكانت كثيرة ومتباينة، ففى الجنوب كان البربر فى غرب أفريقية، وفى الجنوب الشرقى كان العرب، وفى الشرق وجد الفرس، وفى الشمال الشرقى - بين جبال أورال والمطاى - ربضت شعوب آسيوية رعوية مثل السكيثيين Scythians والساراماشيين Sarmatians والهون، والبلغار، والآفار، والمجريين، والمغول، والأتراك، وإلى الغرب من هذه الشعوب - أى داخل الحدود الأوربية - وجد السلاف، والجرمان، والكلت.

أما مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية، فكانت فى أول الأمر تبدو بعيدة جدا عن حدود الإمبراطورية الرومانية، إذ ظلت تعيش فى سهول آسيا معتمدة على قطعان الخيل والماشية، وتنتقل وراءها من مرعى إلى آخر تبعا لظروف الأمطار، والمناخ(٩)، على أن قسوة هذه الظروف اضطرت بعض الشعوب الآسيوية إلى القيام بإغارات مدمرة للسلب والنهب. ولم تك أوربا بمنجاة من هذه الإغارات؛ لأن السهول الواقعة شمالى بحر قزوين فتحت باباً أمام القبائل الرعوية الآسيوية - وخاصة قبائل الهون - نفذت منه إلى أوربا، وبالتالى أثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الرابضة على حدود الإمبراطورية الرومانية(١٠).

وكانت أولى ضحايا العناصر الآسيوية الرعوية - وخاصة الهون - هم السلاف

---

(8) Dawson: The Making of Europe, p. 68.
(9) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 323 - 330.
(10) Stephenson: op. cit. p. 59 & Deanesly. op. cit. p. 22.



الذين استقروا فى المناطق المعروفة الآن بأواسط روسيا. ويبدو أن هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب فى أوائل العصور الوسطى؛ بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق، وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال مما عرّض كثيرين منهم للاستعباد ، حتى اشتقت كلمة رق فى كثير من اللغات الأوربية Slave من اسم السلاف . ومع ذلك فقد عكف السلاّف على فلاحة الأرض وأخذوا ينتشرون تدريجيًا فى الأجزاء الشرقية من أوربا حتى حولوها إلى كتلة سلافية(١١) .

أما الكلت Celts ـ وهم الذين عرفهم الرومان باسم الغاليين Gauls ـ فكانوا يحتلون فى أول الأمر الغابات الواقعة فى شمال أوربا حتى نهر الألب شرقا ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال، إذ تدفقوا عبر جبال الألب فى إيطاليا، وعبروا نهر الراين فى الأراضى التى عرفت بعد ذلك باسمهم (غاليا) ، كما غزوا الجزر البريطانية، وبذلك صار الكلت فى القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الأطلسى(١٢) . وفى الوقت الذى غزا قيصر غاليا كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرقى الراين، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا عندئذ سوى فتح الرومان لها. ثم كان أن فتح الرومان بريطانيا فى القرن الأول الميلادى، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى أيرلندا(١٣) .

الجرمان:

والواقع أن الجرمان أو التيتون كانوا أقرب عناصر البرابرة إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية، إذ انتشروا فى القرنين الأول والثانى فى أواسط أوربا وشرقها عبر نهرى الراين والدانوب، أما الموطن الأول للعناصر الجرمانية فكان البلاد المحيطة بالبحر البلطى(١٤) . ومن هناك أخذوا يتحركون جنوبا ليحلوا محل الكلت حتى استقروا

(11) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 349- 355.
(12) Idem: Vol. 1. pp. 186 - 187.
(13) Painter: op. cit. p. 19.
(14) Deanesly: op. cit. p. 25.

فى المناطق الواقعة بين نهرى الألب والراين، حيث حالت استحكامات الإمبراطورية الرومانية دون تقدمهم بعد ذلك(١٥). ويمكن الوقوف على كثير من أحوال الجرمان فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم بالرجوع إلى كتابات قيصر وتاكيتوس Tacitus ، ومنها يتضح أنهم احتفظوا بكثير من التقاليد والنظم التى كانت تتعارض إلى حد كبير مع ما ألفته العقلية الرومانية(١٦)؛ ذلك أن الجرمان توخوا الناحية الفردية فى كل شيء، فالفرد هو محور الحياة وعلى أساس قوته الشخصية وسطوته كانت أهميته ونفوذه. وإذا كان الجرمانى قد تمسك بطاعة زعيمه فإن هذا الشعور بالطاعة انبثق عن إحساس باطنى لا تنفيذا لأمر أو قانون. أما أخلاق الجرمان الأوائل فكانت مزيجا من الفضائل والنقائص التى عرفت بها الشعوب البدائية(١٧)، ذلك أنهم جمعوا بين الشجاعة والقسوة، وبين الكرم وعدم مراعاة أصول الجيرة، هذا فضلا عمّا عرفوا به من احترام للعهد، وترابط بين أفراد الأسرة الواحدة ورعاية للمرأة، وهى الصفات التى ظلوا عليها والتى لم يفسدها سوى اختلاطهم بالرومان وتأثرهم بهم(١٨)، كذلك أولع الجرمان بالميسر والمقامرة حتى بلغ الأمر بالفرد الذى يفقد ماله أن يقامر على حريته. وكان أهم ما امتدحه تاكيتوس فى الجرمان هو كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس(١٩) والمرجح أن القاعدة السائدة بينهم هى أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة، وإن كان بعض النبلاء قد خرجوا عن هذا المبدأ بعد أن ازدادت ثروتهم. أما ديانة الجرمان فكانت خليطا من الأساطير وعبادة القوى الطبيعية مثل الشمس، والقمر، والرعد، وغيرها، ولكنهم لم يقيموا معابد أو تماثيل لآلهتهم، كما أن الكهنة لم يؤلفوا طبقة خاصة ممتازة فى مجتمعهم(٢٠).

---

(15) Hubert: Les Germains. pp. 16 - 17.

(16) Painter, op. cit. pp. 20 - 21. &

إبراهيم طرخان: تاكيتوس والشعوب الجرمانية.

(17) Katz: op. cit. pp. 100 - 101.

(18) Lavisse: Hist. de France; Tome II. Premiere Partie. p. 46.

(19) Tacitus: Germania. p. 11.

(20) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 63.

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرماني في أول الأمر؛ حيث تمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده بلغت حقه في سلبهم الحياة، ومن مجموعة الأسر التي تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر(٢١). ولم يتمتع بحق ملكية الأرض سوى الأحرار والنبلاء فقط، في حين كان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مشتركة عمّا يرتكبه أحد أفرادها من جرائم، وفي حالة القتل كان لابد لأهل القتيل من الأخذ بالثأر إلا إذا دفع القاتل أو أهله فدية مُرضية.

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعي إلى ثلاث طبقات: النبلاء والأحرار، والرقيق(٢٢). وكان النبلاء يكونون الطبقة المحاربة التي تمتعت بنوع خاص من التشريف، فلا يشتغل أفرادها بالفلاحة وإنما يقضون وقت السلم في الأكل، والنوم والصيد، والتسكع، في حين تقع بقية أعباء المجتمع - وأهمها الفلاحة وأعمال المنزل - على غير المحاربين من النساء والأولاد والرقيق، ولم يقم هؤلاء الرقيق بدور مهم في الخدمة المنزلية - مثل رقيق الرومان - وإنما اقتصر عملهم على الزراعة حيث وزعت عليهم حصص من الأرض يدفعون جزءاً من غلتها في نهاية الموسم(٢٣)، أما الأحرار - من غير النبلاء - فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من الرقيق(٢٤). وهنا نلاحظ أمرين: أولهما أن الحرية وملكية الأرض كانا أمرين متلازمين سارا جنبا إلى جنب في المجتمع الجرماني، وثانيهما أن النبالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الأرض. ولم يعرف الجرمان حياة المدن في عصورهم الأولى، وإنما عاشوا في قرى متناثرة وسط الاحراش والغابات، في حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيدة من الأغصان والطمي(٢٥). واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شعر رؤوسهم ولحاهم، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر

---

(21) Eyre: Eiropean Civilisation. Vol. III, p. 13.
(22) Lavisse: op. cit. pp. 48 - 49.
(23) Tacitus: Germania: p. 15.
(24) Stephenson: op. cit. p. 61.
(25) Katz: op. p. 99 & Tacitius: Germania; p. 10.

معقودة فوق رؤوسهم. أما طعامهم فكان بسيطا يتألف من اللبن، والفاكهة، ولحوم الصيد، والحبوب(٢٦)، ولم يعرف الجرمان النبيذ إلا عندما استقروا على الحدود الرومانية، أما شرابهم الأساسى فكانوا يصنعونه من الحنطة أو الشعير؛ أى أنه كان أقرب إلى الجعة منه إلى النبيذ، وكان لكل قرية جمعية أو مجلس moot يتكون من رجالها الأحرار، فى حين أن القرى لم تكن فى عزلة عن بعضها البعض، وإنما وجد اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التى تتخلل الغابات(٢٧). والمعروف أن الثروة عند الجرمان قومت بالخيل، والماشية، وغيرها من الحيوانات الأليفة النافعة، حقيقة أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية كما عرفوا الأوانى الذهبية والفضية، ولكن الحيوانات السابقة حلّت عندهم محل النقود فى التبادل والمعاملة(*).

أما التنظيم السياسى فكان بسيطا، وحدته القرية أو المارك Mark ومن بعدها تأتى المائة Hundred وهى وحدة تكبر القرية(٢٨)، ثم تأتى المقاطعة أو المديرية (Lau) وتتألف من عدة مئات، ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التى أطلق عليها فيما بعد مملكة أورايخ Reich عندما تقدم النظام الملكى بين الجرمان(٢٩). وكانت للدولة الجرمانية جمعية عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تنعقد إلاَّ فى حالة الحرب أو الهجرة، كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس أصغر، تتألف من النبلاء والأحرار ولكنها تجتمع فى وقت السلم أيضاً؛ لبحث المسائل المدنية. وعلى رأس كل أمة من الأمم الجرمانية وجد بعض الرؤساء أوالقادة Principes الذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء؛ وإنما كانوا زعماء منتخبين اختارهم

---

(26) Tacitus. Germania, p. 11.

(27) Thompson, op. cit. Vol. 1. p. 64.

(*) إبراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١.

(٢٨) يرجع اصطلاح المائة إلى الجرمان الأوائل الذين انتشروا فى شمال أوربا ووسطها، ويرجح أن هذا الاصطلاح كان يعنى عندئذ جماعة من المحاربين عددهم مائة فرد، وكما أن أفراد هذه الوحدة حاربوا سويا فكذلك اختاروا عند الاستقرار أن يجتمعوا سويا، ومن هنا أطلق هذا الاصطلاح على الوحدة السياسية التى تتوسط القرية والمقاطعة.

(Karsten, Les Anciens Gremains, p. 178)

(29) Moss: op. cit. pp. 40 - 41.

شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة. وفى وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف بالشجاعة والإقدام، يتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهى بانتهاء الحرب(٣٠) على أنه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة، فإن هذا القائد صار يتكرر انتخابه حينا بعد آخر، ثم تطور الأمر فصار يختار ابنه بعد وفاته، مما أدى تدريجيًا إلى قيام نظام ملكى وراثى فى الدول والجماعات الجرمانية(٣١). على أن ملوك الجرمان لم يكونوا فى تلك المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين دون أن يتمتعوا بسلطة مطلقة فى التشريع، أو فرض العقوبات، وهى المسائل التى حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان، والعرف المتوارث دون أن يمتلك فرد أو زعيم حق تغيير الأوضاع المألوفة(٣٢). وإذا كان بعض المؤرخين يميلون إلى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها كانت ديموقراطية، فإنه لا ينبغى أن يُفهم من ذلك أنها اتبعت نظاما ديموقراطيا فى الحكم؛ لأننا سبق أن رأينا أن المجتمع الجرمانى قام على أساس التفرقة الاجتماعية، بين مختلف طبقاته. وإنما المقصود من لصق هذه الصفة بالجرمان هو وجود بعض المبادئ التى تنم عن اتجاهات ديموقراطية فى المجتمع الجرمانى مثل انتخاب الزعماء، والفصل فى القضايا فى محاكمات عامة(٣٣).

هذه هى خلاصة أحوال الجرمان الذى استقروا على حدود الإمبراطورية الرومانية من جهتى الشمال والغرب. وهنا نلاحظ عدم وجود أى عداء بين الرومان والجرمان فى أول الأمر، كما أنه لم توجد مطامع للجرمان فى أراضى الإمبراطورية، وإنما كل ما أراده الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة كل فى بلاده. وعلى هذا ليست من الواقع فى شيء تلك النظرية التى تقول بأن روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش فى رعب من الخطر الجرمانى، وأن الجرمان أخذوا منذ أول أمرهم يمنون أنفسهم بغزو الإمبراطورية الرومانية والقضاء عليها(٣٤). وهناك من الدلائل ما يثبت أن السنوات

---

(30) Tacitus: Germania: p. 9.
(31) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 65.
(32) Stephenson: op. cit. p. 62.
(33) Painter, op. cit. p. 23.
(34) Katz: op. cit. p. 103.

الواقعة بين قيصر وماركوس أورليوس (٥٠ ق.م. - ١٨٠م) شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان كما أن القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الإمبراطورية عاشت حينئذ فى حالة واضحة من الهدوء والاستقرار على أن هذا الوضع أخذ يتغير فى أواخر القرن الثانى، عندما تعرض المجتمع الجرمانى لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة[٣٥]؛ ذلك أن السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية أخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق، فى الوقت الذى ازدادت أعداد الجرمان وضاقت أمامهم سبل العيش، وهنا تلفت هؤلاء الجرمان حولهم فلم يجدوا إلاً أرضا فقيرة مجدبة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات، فضلا عن تأخرهم ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة إلى قحط ومجاعات، مما جعلهم فى حالة من الشدة ونقص فى الأقوات دفعتهم إلى الحركة وهكذا أخذ الجرمان يتطلعون إلى أراضى الإمبراطورية الرومانية التى جذبتهم إليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضارتها الزاهرة[٣٦].

وقد بدأ موقف الجرمان السلبى من الإمبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦١ - ١٨٠). عندما تحالفت بعض الطوائف الجرمانية المعروفة باسم الماركومانى Marcomanni والقواضى Quadi؛ لمهاجمة جبهة أعالى الدانوب عند بانونيا[٣٧]. وعلى الرغم من أن الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم، إلاَّ أن تهديد الجرمان لحدود الإمبراطورية لم ينقطع بعد ذلك إذ لم يلبث أن ظهر خطرهم على الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث على عهد الإمبراطور كاراكالا (٢١١ - ٢١٧) عندما تقدم القوط جنوبا من شواطئ البحر البلطى فسحقوا السارماشيين وهاجموا إقليم داشيا على الدانوب، حيث ظلوا خمسين سنة يعيثون فسادا حتى هزمهم الإمبراطور كلوديوس الثانى (٢٦٨ - ٢٧٠) فى نيسوس Naissus سنة ٢٦٩[٣٨].

---

(35) Cam. Med. Vol. 1. p. 188.

(36) Katz: op. cit. pp. 101 - 102.

(37) Lot: Les Invasions Germaniques. p. 29.

(38) Thompson. op. cit. Vol. 1p. 72.

ويهمنا فى أمر هذا الدور المبكر من أدوار الحرب بين القوط والرومان أن أباطرة الرومان اختاروا أن يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان فتنازلوا عن إقليم داشيا وسحبوا منه الجيوش الرومانية والموظفين على عهد الامبراطور أورليان (٢٧٠ – ٢٧٥)، وعندئذ استقر القوط وأعرضوا عن أعمال السلب، والنهب وبدأوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية؛ مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الإمبراطورية الرومانية(٣٩). ويلاحظ أن الخطر الذى هدد الإمبراطورية الرومانية فى ذلك الدور لم يأت من جانب القوط وحدهم، وإنما قام الألمان والفرنجة والباڤاريون والسكسون، والثورنجيون، والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية سنة ٣٠٠ لتبدأ فترة أخرى جديدة من العلاقات السلمية الهادئة بين الرومان والجرمان(٤٠)، على أن توغل الجرمان داخل حدود الإمبراطورية لم يتوقف فى هذا الدور السلمى الجديد، وإنما استمر بعد أن غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة إلى الزحف البطىء والتسلل السلمى الهادئ. وهنا نجد الإمبراطورية تفتح صدرها لهؤلاء الوافدين من الجرمان، فتستخدمهم جنودا فى بعض الفرق، وتمنحهم مستوطنات وأراضى يقيمون فيها داخل الحدود الرومانية، بل أن بعض ضباط الجيش الرومانى البارزين فى تلك الفترة جرت فى عروقهم دماء جرمانية(٤١). حقيقة أن استخدام الجرمان فى الجيش الرومانى والسماح لهم بالإقامة السلمية لم يك أمرا جديدا، إذ ترجع جذور هذه الظاهرة إلى أيام الإمبراطور أوغسطس نفسه ولكنها أخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق فى القرنين الثالث والرابع، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة، والجرمان المقيمين وسطهم من جهة أخرى تمتد إلى التزاوج والتفاعل الاجتماعى، مما ترك أثرا بعيد المدى فى مستقبل الحوادث. وهكذا لايمكن القول بأن الحدود السياسية للإمبراطورية الرومانية كانت فى القرن الرابع تفصل بين العالمين الرومانى والبربرى؛ لأن كلا من الطرفين أخذ يتأثر بالآخر ويؤثر فيه(٤٢).

---

(39) Cary: op. cit. p. 728

(40) Cam, Med. Hist. Vol. 1 p. 207.

(41) Painter: op. cit. p. 19.

(42) Eyre:op. cit. p. 15.

ثم كان أن تجددت الهجمات الجرمانية على حدود الدولة الرومانية مرة أخرى منذ سنة ٣٧٥ متخذة طابعا جديدا، فحتى هذا التاريخ كانت تلك الهجمات؛ عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة ولا توجد بينها خطة جامعة. وكان يكفى أن تتعرض قبيلة لضغط قبيلة أخرى، أو تصاب منطقة من مناطق الجرمان بقحط أو نقص فى الأقوات، أو يستكشف أحد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف فى الحدود الرومانية للقيام بهجوم جزئى محلى على أراضى الإمبراطورية، ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل إغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥(٤٣). وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨ أى نحو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية مهمة، وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صورة أوربا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحا(٤٤). وهنا يحسن قبل أن نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث، ونشير إلى أن هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية، والقوة طعمت حضارة العالم القديم المتداعية بما جلبته معها من دماء جديدة ونظم جديدة، وليس من الصواب فى شىء القول بأن الجرمان كانوا معادين للحضارة الرومانية وأنهم مسئولون عن تدمير هذه الحضارة؛ لأن الحضارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية ، وأخذت تتدهور فعلا فى طريق الانحلال عندما بدأ الجرمان يتطرقون إلى جسم الإمبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجئ السريع أوعن طريق التسلل الهادى البطىء(٤٥). وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الأثر المباشر الذى أحدثته غزوات الجرمان فى جسم الإمبراطورية الرومانية وكيانها، أن نذكر دائما أهمية هؤلاء الجرمان فى بناء تاريخ غرب أوربا وحضارتها.

وثمة ملاحظة أخرى هى أن شدة التباين بين جموع البرابرة الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الرابع والسادس تجعل من الضرورى التفرقة بين الجماعات التى أخذت تجتاح البلاد لتسلب كل ما يصادفها دون أن تحاول الإقامة والاستقرار فى تلك البلاد أو تترك أثرا فى تاريخها سوى الخراب والتدمير، وبين

(43) Lot: Les Invasions Germaniques. p. 59.
(44) Thopmson: op. cit.Vol. 1. p. 79
(45) Stephenson: op. cit. p. 68.

الجماعات المترابطة التى غزت أقليماً من أقاليم الإمبراطورية لتستقر فيه وتختلط بالأهالى الأصليين اختلاطا جنسيا وحضاريا مما ترك أثرا عميقا فى تاريخها، ومن أمثلة النوع الأول اتباع راداجيسوس Radagaisus؛ وهم خليط من البرابرة الذين انتهى الأمر بتحطيمهم فى إيطاليا سنة ٤٠٥[٤٦]، وكذلك أتباع أتيلا من الهون الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضى الإمبراطورية دون ضابط. أما النوع الثانى فمن أمثلته القوط، والفرنجة، والبرجنديون، والوندال، والأنجلوسكسون، واللمبارديون[٤٧].

القوط الغربيون:

أما القوط فيبدو أنهم عبروا البحر البلطى من سكندناوة قبل حلول القرن الرابع قبل الميلاد حتى وصلوا مصب الفستولا. وقرب منتصف القرن الثانى الميلادى بدأت قبائل القوط رحلة طويلة نحو الجنوب الشرقى حيث استقروا شمالى البحر الأسود، وهناك انقسم القوط إلى قسمين شرقيين وغربيين[٤٨]، فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية، فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى تلك الجهات (٢٧٥ - ٣٧٥)[٤٩].

وكان أن ترتب على احتكاك القوط بالعالم الرومانى أن أفادوا من حضارة الرومان وتأثروا بها تأثرا ظهر بجلاء فى اعتناقهم المسيحية عن طريق مبشر منهم

---

(46) Orton: Outlines of Med. Hist. p. 33.

(47) Fliche: La Chreltente Mediévale, pp. 10 - 14.

(٤٨) يلاحظ أنه لا توجد علاقة بين الموقع الجغرافى وتقسيم القوط إلى شرقيين وغربيين، ويبدو أن هذه التسمية التى أطلقت على شعبتى القوط لا تعدو أن تكون نوعا من الخطأ التاريخى الذى اكتسب صفة الحقيقة بحكم تواتره فى المراجع التاريخية، ذلك أن المدلول الأصلى للفظ Ostrogotths ـ وهو اللفظ الذى جرى العرف على ترجمته فى المراجع إلى القوط الشرقيين ـ هو فى الحقيقة القوط الساطعون أو الزاهرون (auster) لا الشرقيون كما أن المدلول الأصلى للفظ visigoths ـ الذى تعبر عنه المراجع بالقوط الغربيين، وهو القوط الأذكياء Wise . وإذا كانت الظروف شاءت أن يتجه القوط الغربيون غربا وأن يستقر القوط الشرقيون شرقيهم، فإن هذا كان من محض المصادفات التاريخية. (Lot: The End of the Ancient world, p. 191)

(49) Moss: The Birth of the Middle Ages, p. 44.

اسمه ولفلاس Wulfilas (٣١١ – ٣٦١) تلقى تعليمه بالقسطنطينية، وعندما عُيِّن ولفلاس هذا أسقفا على القوط حوالى سنة ٣٤١ قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية، وتعتبر هذه الترجمة ـ التى مازال جزءً منها باقيا حتى اليوم ـ أقدم آثار اللغة الجرمانية(٥٠)، على أن المهم فى أمر اعتناق القوط للمسيحية هو أنهم تلقوها فى مذهبها الأريوسى؛ لأن ولفلاس نفسه كان أريوسيا، الأمر الذى أدى إلى انتشار الأريوسية بين القوط ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل: الوندال، والبرجنديين، واللمبارديين، مما كان له أبعد الأثر فى مستقبل الحوادث التاريخية فى أوربا العصور الوسطى(٥١).

ثم حدث فى النصف الثانى من القرن الرابع أن اندفع الهون الآسيويون خلال المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين نحو جنوب روسيا، وبالتالى انقضوا على القوط(٥٢)، ويبدو أن هجوم الهون جاء على درجة من العنف والشدة جعلت الرومان والجرمان يتآزرون جميعا لصد هذا الخطر المشترك . على أن ضغط الهون أحدث ردّ فعل عنيفًا بين الجرمان مما أثر بالتالى فى أوضاع الإمبراطورية الرومانية تأثيرا خطيرا، ذلك أن القوط الغربيين لم يجدوا بدا من الفرار من وجه الهون فطلبوا من الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨) السماح لهم بعبور الدانوب؛ ليسلموا من خطر الهون وإذا كان الإمبراطور قد وافق على طلبهم؛ ليتخذ منهم ستارا يحمى الحدود الرومانية من خطر الهون(٥٣)، إلاَّ أن عبور ما يقرب من مليون ومائة ألف محارب من القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ ـ حيث سمحت لهم الحكومة الرومانية بالإقامة فى مواشيا وتراقيا ـ أحدث هزة عنيفة فى جسم الإمبراطورية؛ ذلك أن هؤلاء الدخلاء لم يلبثوا أن ثاروا على الإمبراطورية، وأنزلوا الهزيمة بالإمبراطور فالنز وذبحوه فى أدرنة سنة ٣٧٨)(٥٤) مما دفع خليفته الإمبراطور ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ – ٣٩٥) إلى العمل على اتقاء شر القوط فعقد معهم اتفاقية أصبحوا بمقتضاها

(50) Bradley: The Goths, p. 61.
(51) Moss: op. cit. p. 44.
(52) Lot: Les Invasions Germaniques, pp. 56 - 57.
(53) Painter, op. cit. p. 24.
(54) Wallace - Hardrill: The Barbarian West. p. 21.

معاهدين Foederatti للإمبراطورية كما سمح للقوط الشرقيين بالإقامة فى إقليم بانونيا والقوط الغربيين بالإقامة فى شمال تراقيا، وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة فى هذه الأقاليم التى احتلوها، فأعفوا من الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التى تعهدوا بتقديمها إلى الإمبراطورية (٥٥)، وتعتبر هذه الاتفاقية التى عقدها ثيودسيوس مع القوط سنة ٣٨٢ نقطة تحول كبرى فى سياسة الإمبراطورية الرومانية تجاه الجرمان الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك لهم داخل حدود الإمبراطورية بعد أن اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالإقامة السلمية فى ظلّ الإدارة والنظم الرومانية، على أن القوط الغربيين ظلوا محتفظين بطابعهم، فضلا عن نظمهم وقوانينهم ومذهبهم الأريوسى مع التزامهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للإمبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد(٥٦).

ذلك أنه حدث عند وفاة ثيودسيوس أن قسمت الإمبراطورية بين ولديه، فكان الشرق من نصيب أركاديوس والغرب من نصيب هنريوس(٥٧)، وعندئذ أخذ نفوذ الجرمان السياسى، والحربى يزداد قوة داخل الإمبراطورية فاعتمد هنريوس فى الغرب على قائد وندالى قدير هو ستليكو ومنحه تفويضًا تاما من الناحية الحربية، فى حين اعتمد أركاديوس فى الشرق على روفينوس Rufinus وهو وزير قوطى عرف بالأنانية والقسوة وعدم الإخلاص(٥٨). ويبدو أن القوط الغربيين كانوا فى حالة استياء منذ اتفاقهم مع الإمبراطورية سنة ٣٨٢؛ لأنهم لم يلبثوا أن تبرموا بما ألقته عليهم هذه الاتفاقية مع التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للإمبراطورية، فى الوقت الذى كانوا ينشدون حياة الاستقرار والهدوء؛ لذلك ثاروا سنة ٣٩٥ تحت زعامة ملكهم ألرك فغزوا مقدونيا وتساليا واقتحموا آثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية(٥٩). وكانت حكومة الإمبراطورية الشرقية عندئذ فى حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر

---

(55) Ostrogorsky: Hist. of the Byzantine State, p. 48.
(56) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 90.
(57) Lot & Pfister & Ganshof: Les Destinees de L'Empore-En Occident, p. 24.
(58) cam Med, Hist. Vol. 1. p. 260.
(59) Bury: op. cit. Vol. 1. p. 110.

القوط الغربيين، مما جعل ستليكو قائد الإمبراطورية الغربية يقوم بهذه المهمة، فعبر البحر الأدرياتى، وحاصر القوط فى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة المورة (مقاطعة إليس Elis) وإن كان ملكهم الرك قد استطاع الفرار (سنة ٣٩٦).

وأخيراً رأى أركاديوس إمبراطور الدولة الشرقية أن يمنح ألرك إقليم البريا سنة ٣٩٨، حيث ظل القوط الغربيون قابعين أربع سنوات، فى حين عاد ستليكو إلى غاليا وجبهة الدانوب لمحاربة الوندال[٦٠]. وفى سنة ٤٠٢ حاول ألرك غزو إيطاليا لأول مرة، ولكن ستليكو رده على أعقابه، ولم تلبث إيطاليا أن تعرضت مرة أخرى سنة ٤٠٥ لغزو جماعات من الوندال، والسويفى، والبرجنديين، واللان الذين اضطروا إلى الاتجاه نحو إيطاليا أمام ضغط الهون، ولكن ستليكو أنزل بهم الهزيمة وأسر زعيمهم راداجيسوس وأعدمه سنة ٤٠٦، وبذلك نجت إيطاليا مرة أخرى من غزو البرابرة[٦١]، على أن ستليكو اضطر فى سبيل الدفاع عن إيطاليا فى هذه المرة الأخيرة إلى سحب بعض الفرق الحربية التى تقوم بحراسة جبهة الراين[٦٢] مما أتاح الفرصة لجماعات من الوندال، واللان، والسويفى لعبور الحدود الرومانية سنة ٤٠٦، ومن ثم قضوا ثلاث سنوات فى غاليا اجتاحوا فيها البلاد ونهبوها ثم اندفعوا منها إلى أسبانيا سنة ٤٠٩[٦٣]، وقد أفزعت هذه الأحداث الإمبراطور هنريوس الذى رأى فيها فرصة طيبة للتخلص من قائده ستليكو بعد أن ازداد نفوذه ازديادا خطيرا حتى أوشك أن يصبح الحاكم الفعلى فى الدولة ـ مما أثار حقد الإمبراطور ـ فوجه إليه تهمة الإهمال فى حماية حدود الإمبراطورية والتآمر ضد سلامتها وسلامة الإمبراطور نفسه، وبالتالى تم إعدامه سنة ٤٠٨[٦٤].

ويبدو أن الإمبراطور تطرف فى التخلص من أتباع ستليكو عن طريق القتل، مما جعل بعضهم يفرون نحو ألرك ملك القوط الغربيين حيث زينوا له غزو إيطاليا[٦٥]،

---

(60) Vasiliev: op. cit. Tome, i. p. 116.
(61) Lot & Pfister & Ganshof: op. cit. p. 28.
(62) Bury: op. cit. Vol. 1, p. 168.
(63) Cam. Med. hist. Vol., 1. pp. 266 - 268.
(64) Lot: The End of the Ancient World, pp. 202 - 204.
(65) Lot: Les Invasions Germaniques, pp. 74 - 75.

وقد وجد ألرك فرصته سانحة بعد مقتل ستليكو ـ الرجل الوحيد الذى استطاع إنزال الهزيمة به ـ فزحف على رأس رجاله من القوط الغربيين إلى روما التى تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيبال لحصار جيوش أجنبية معادية، وعندما فشلت المفاوضات بين ألرك والإمبراطور هنريوس ـ الذى كان عندئذ آمنا فى عاصمته الجديدة رافنا ـ اقتحم القوط الغربيون روما سنة ٤١٠[٦٦]، فنهبوا بيوت نبلائها وأحرقوها ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالى، كما احترموا الكنائس على الرغم من أريوسيتهم، أما ألرك فقد توفى قرب نهاية ٤١٠ حيث تذكر الأساطير أنه دفن فى قاع أحد الأنهار بجنوب إيطاليا[٦٧].

وأخيرا لم يجد الإمبراطور وسيلة لإخراج القوط الغربيين من إيطاليا سوى إعطائهم إقليم اكوتين من اللوار حتى البرانس[٦٨]. والواقع أنه كان على القوط الغربيين أن يبذلوا جهدا جديدا؛ لاستخلاص هذه الهبة من جموع الوندال، واللان والسويفى الذين كانوا قد تطرقوا إلى تلك الأقاليم فى جنوب غاليا كما سبق. وقد استطاع واليا ملك القوط الغربيين الجديد أن يطرد السويفى إلى الجزء الشمالى الغربى من أسبانيا وأن يزيح الوندال إلى جنوبى نهر أبرو وبذلك تمكن القوط الغربيون من الاستقرار سنة ٤١٨ فى الجزء الجنوبى، من غاليا ـ أى فى اقليم أكوتين وحول تولوز ـ بعد أن قضوا زهاء أربعين عاما فى التنقل والترحال[٦٩]، وكانت المنطقة التى انتشر فيها القوط الغربيون عندئذ تمتد من تولوز على نهر الجارون إلى أسبانيا التى طردوا الوندال منها سنة ٤٢٩.

وعندما توفى واليا خلفه ثيودريك الأول (٤١٩ – ٤٥١) الذى عمل على تثبيت أركان مملكة القوط الغربيين وتوسيع رقعتها، وكان أهم ما قام به فى سبيل تحقيق ذلك انتزاعه عدة مدن فى جنوب غاليا من الرومان سنة ٤٣٦[٧٠]، وقد حاول الرومان

---

(66) Bury: op. cit. Vol. 1. p. 180.
(67) Deanesly: op. cit. pp. 27 - 28.
(68) Bradlry: The Goths, pp. 106 - 107.
(69) Lot: The End of the Ancient World, p. 205.
(70) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 279.

الوقـوف فى وجـهـه ولكنه أنزل بهم هزيمة سنة ٤٣٩، ومن ثم سـاد السـلام بين الطرفين، وأخيرا مات ثيودريك الأول سنة ٤٥١ أثناء حربه مع الهون، فخلفه فى حكم القوط الغربيين ثيودريك الثانى (٤٥١ – ٤٦٥) الذى حارب السويفى فى شمال غرب أسبانيا وغزا ناربون قرب الحدود الغالية الأسبانية كما مدّ مملكته حتى نهر اللوار، على أن ثيودريك الثانى لم يلبث أن قتل سنة ٤٦٥ بواسطة أخيه أيورك (٤٦٥ – ٤٨٤) الذى يعتبر أقدر ملوك القوط الغربيين[٧١]؛ ذلك أنه قضى على ما تبقى من النفوذ الرومانى فى أسبانيا، وأخضع السويفى كما وضع أول مجموعة للقانون الجرمانى عرفها التاريخ (Antiqua). والحق أن مملكة القوط الغربيين ـ التى ظلت قائمة فى أسبانيا حتى الفتح الإسلامى فى أوائل القرن الثامن ـ تعتبر أقوى الممالك الجرمانية فى الفترة الواقعة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ من جهة، وقيام مملكة الفرنجة فى شمال غاليا ومملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من جهة أخرى[٧٢].

الوندال :

أما الوندال فقد ظلوا يقاومون القوط الغربيين فى أسبانيا طوال أربع عشرة سنة اضطروا بعدها إلى عبور البحر إلى شمال أفريقية سنة ٤٢٩ تحت زعامة ملكهم جزريك Gaiseric [٧٣]، وصادف عندئذ قيام حرب أهلية فى ولاية شمال أفريقية، وقيام إمبراطور قاصر هو فالنشيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥) على عرش الإمبراطورية؛ مما سهل على الوندال مهمتهم، وسرعان ما أثبت جزريك ـ ذلك الرجل القصير الأعرج ـ أنه على قدر كبير من المقدرة والكفاية[٧٤]، إذ استولى على البلاد من طنجة حتى طرابلس، كما سقطت قرطاجة ـ أهم مدينة فى الغرب بعد روما ـ فى أيدى الوندال سنة ٤٣٩، وبذلك ضاعت ولاية شمال أفريقية فخسرت الإمبراطورية

---

(71) Bury, op. cit. Vol. 1 . p. 341.
(72) Thompson; op. cit. Vol.1 p. 94.
(73) Wallace - Hadrill: op. cit. pp. 38 - 39.
(74) Oman:The Dark Ages, p. 7.

الرومانية بضياعها جزءا آخر من أهم أجزائها التى تمونها بالغلال(٧٥)، ولم يستطع أهالى شمال أفريقية سوى الامتثال لحكم القدر؛ لأن عدد الغزاة من الوندال بلغ نحو ثمانين ألفا من رجال، ونساء، وأطفال، وزاد من سوء أحوال الأهالى أن جزريك نهج فى حكم مملكته الجديدة نهجا استبداديًا عنيفا فصادر الضياع، وانتزع الأراضى من أصحابها، كما تعسف فى جمع الأموال والضرائب من الأهالى وعاملهم فى قسوة بالغة(٧٦) . هذا إلى أنه أثار حنق أهالى البلاد الأصليين بصورة بالغة عندما اتبع سياسة دينية متطرفة، فصادر ـ وهو الملك الأريورسى ـ ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال أفريقية، واضطهد رجال الدين الكاثوليك اضطهادا بالغًا أثار سخط الرأى العام، حتى أصبح لفظ الوندالية Vandalism فى اللغات الأوربية الحديثة يستخدم مرادفا للهمجية والوحشية(٧٧) .

على أن خطر الوندال لم يقف عند هذا الحد، إذ لم يلبثوا أن غدوا قوة بحرية خطيرة فى البحر المتوسط ، فأغاروا على جزر البليار، وسردينيا، وكروسيكا، وصقلية، فضلا عن إيطاليا، حتى هاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥(٧٨)، ومهما يكن من أمر، فإن عظمة دولة الوندال فى شمال أفريقية سرعان ما ولت عقب وفاة جزريك سنة ٤٧٧ . هذا على الرغم من أنه ترك بعده أسطولا قويا، وثروة طائلة، وقصرا زاخرا بالمنهوبات، وكان ذلك سنة ٥٣٤ عندما استطاع بلزاريوس قائد جيوش الإمبراطور البيزنطى جستنيان أن يسترد ولاية شمال أفريقية من الوندال، بعد أن عمرت دولتهم خمسا وتسعين سنة منذ استيلاء جزريك على قرطاجة سنة ٤٣٩(٧٩) .

الهون :

أما الهون الآسيويون فكانوا قد اجتاحوا إقليم الدانوب الأدنى بعد أن تغلغل القوط

---

(75) Lot & Pfister & Ganshof; op. cit. p. 63.
(76) Thompson: op. cit. 1. p. 95,
(77) Oman: The Dark Ages, pp. 7 - 9.
(78) Cam. Med. Hist. Vol. 1. pp. 306 - 308.
(79) Deanesly: op. cit, p. 77.

الغربيون داخل جسم الإمبراطورية سنة ٣٧٥[٨٠]. ثم ظل الهون مقيمين على شواطئ البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا إلى تراقيا وأخذوا يهددون القسطنطينية. ويبدو أنه اشتد عبث الهون - تحت زعامة أتيلا - بالولايات الرومانية الواقعة فى حوض الدانوب الأدنى بين سنتى ٤٣٠ - ٤٣٣؛ مما اضطر ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ - ٤٥٠) إلى دفع جزية مالية سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على أراضى دولته، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب، وكان أن تقدم أتيلا غربا بحذاء الدانوب سنة ٤٤٧ فخرب مواشيا، وتراقيا، واليريا، وبانونيا حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١[٨١]. وقد نهب الهون كثيرا من مدن غاليا مثل تريف وميتز، وتروى، وشالون وغيرها من المدن المهمة التى فرّ أهلها من وجه الهون طلبا للنجاة، بعد ما شاع عنهم من قصص طويل يعبر عن بطشهم وقسوتهم[٨٢]، ولم يكن منتظراً من الإمبراطور الغربي عندئذ - وهو فالنشيان الثالث - أن يقوم بعمل إيجابى ضد هذا الخطر الجاثم، ولكن قائده أيتيوس Aetius برز فى تلك الظروف ليحمل عبء الدفاع عن غاليا، وعندئذ حدثت ظاهرة جديرة بالاهتمام، وهى أن القوط الغربيين تحالفوا مع الجيوش الرومانية؛ لدفع خطر الهون المشترك، حتى أنزل الحلفاء الهزيمة بجموع أتيلا قرب شمال شالون سنة ٤٥١[٨٣]. ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ، إذ أنقذت غرب أوربا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة أتيلا بغزوة مفاجئة لإيطاليا في العام التالى(٤٥٢)[٨٤]، ولم تلبث روما أن وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد مما جعل أسقفها البابا ليو العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة أتيلا[٨٥]، وهنا تجمع الأساطير المعاصرة علي أن طيف القديس بطرس أفزع أتيلا فأسرع بالإياب، وإن كان الواقع هو أن أتيلا أحس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الرومانى الشهير أيتيوس مما

(80) Cam. Med, Hist. Vol, 1. p. 215.
(81) Lot & Pfister & Ganshof; op. cit. p. 66.
(82) Bury: op. cit. Vol. 1. pp. 291 - 293.
(83) Cam. Med Hist. Vol. 1. pp. 280 - 281.
(84) Bury: op. cit. Vol, 1. 294.
(85) Fliche: La Chretiente Medievale, p. 24.

جعله يسرع بإخلاء إيطاليا في يوليو ٤٥٢، بعد أن أخذ وعدا بالحصول على جزية سنوية، ولم يلبث أن توفى أتيلا فى العام التالى (٤٥٣) فى بانونيا وعندئذ حاول أبناؤه اقتسام إمبراطوريته الواسعة(٨٦). ولكن الشعوب الخاضعة للهون انتهزت الفرصة وثارت وأنزلت بهم هزيمة فى موقعة نديو Nedeo سنة ٤٥٤، وبذلك انهارت إمبراطورية الهون قبل أن يمضى على وفاة أتيلا عشرون عاما(٨٧).

البرجنديون:

أمّا البرجنديون فكانوا قد ذاقوا من ضغط الهون أضعاف ما ذاقته بقية قبائل الجرمان فى الغرب، كما كانوا أول من استفاد من تفكك إمبراطورية الهون، وقد ظهر البرجنديون لأول مرة على مسرح الحوادث الأوربية فى النصف الثانى من القرن الثالث عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين سنة ٢٧٧(٨٨)، وفى القرن الرابع استخدمتهم الإمبراطورية الرومانية فى جيوشها كما كان الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان. وعلى الرغم من أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة إلاّ أنهم اضطروا إلى استخدام العنف فى شق طريقهم إلى غاليا عبر الراين، وذلك تحت ضغط الهون(٨٩)،حتى سمح لهم القائد الرومانى أيتيوس بالإقامة أخيراً فى المنطقة الواقعة قرب نهر الساؤون. وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون فى موقعة شالون سنة ٤٥١، وأخذوا يتوسعون سلمياً حتى انتشروا سنة ٤٦٨فى جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون، ولم يحل دون وصولهم إلى شاطئ البحر المتوسط سوى غزو أيورك ملك القوط الغربيين لإقليم بروفانس(٩٠).

---

(86) Lot: The End of the Ancient world, pp. 209 - 215.

(87) Lot: The End of the Ancient world, 288.

(88) Thopmson: op. cit. Vol, 1. p. 98.

(89) Bury: op. cit. Vol, 1, p. 249.

(90) Deanesly: op. cit. p. 30.

سقوط الإمبراطورية الغربية:

وهكذا يبدو من العرض السابق لغزوات الجرمان أنه لم يكد ينتصف القرن الخامس حتى كانت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب قد مُزقت إرباً بضياع معظم أجزائها، ذلك أن الجيوش الرومانية انسحبت من بريطانيا سنة ٤٤٢، وفى حين انتزع الوندال ولاية أفريقية، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون إسبانيا فضلا عن جنوب غاليا والأجزاء الشرقية منها، هذا فى الوقت الذى عبر فيه الألمان الراين الأعلى واستقروا فى الألزاس، كما عبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز، وبذلك فقدت الإمبراطورية الغربية معظم أعضائها مما أذن بسقوط هذه الإمبراطورية وضياع البقية الباقية منها(٩١).

والواقع أن عوامل الاضمحلال التى أخذت تنخر ببطء فى عظام الإمبراطورية الغربية على عهد الإمبراطور هنريوس (٣٩٥ – ٤٢٣) والإمبراطور فالنشيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥) ازدادت خطورة بعذ ذلك،و لا سيما بعد أن كافأ فالنشيان الثالث قائده أيتيوس بقتله سنة ٤٥٣ وهو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع صد هجمات الوندال التى تعرضت لها روما بعد ذلك بعامين(٩٢)، ذلك أن الوندال غدوا بعد احتلالهم ولاية أفريقية قوة بحرية كبرى هددت جميع بلاد النصف الغربى من حوض البحر المتوسط، ولم يلبث أن ظهر أسطول وندالى عند مصب نهر التيبر فى صيف سنة ٤٥٥، وعندئذ حاول البابا ليو العظيم إنقاذ روما من الوندال، كما سبق أن أنقذها منذ سنوات قليلة من أيدى الهون، ولكنه فشل فى هذه المرة(٩٣). وهكذا اقتحم الوندال روما وقضوا فيها أربعة عشر يوما سلبوا خلالها المدينة كنوزها، فنهبوا ما فى القصر الإمبراطورى والمعابد، والكنائس، والبيوت من نفائس، فضلا عن عدة آلاف من الأهالى حملوهم معهم رقيقا عند انصرافهم(٩٤). ولعلنا نلمس فى هذه الإغارة دليلا واضحا على أن مجد روما السياسى والحربى أدبر وتولى، وبالتالى أضحى مستقبلها

(91) Lot & Pfister & Ganshof: op. cit., pp. 77 - 94.
(92) Cam. Mcd. Hist. Vol 1. pp. 418 - 420.
(93) Lot & Pfister & Ganshof: op. cit.p. 78.
(94) Thompson: op. cit. Vol, 1. pp. 100 - 101.

ومصيرها رهيناً بمقدرة الكنيسة والبابوية. والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتى ٤٥٥، ٤٧٦ أى بين مقتل الإمبراطور فالنشيان الثالث وسقوط الإمبراطورية فى الغرب تعتبر من أظلم عصور تاريخ الإمبراطورية الغربية، بعد أن فقدت هذه الإمبراطورية معظم أراضيها(٩٥) وصارت القوة الفعلية فى إيطاليا بأيدى فئة من قادة الفرق الجرمانية المأجورة الذين ازدادوا تطرفا وقسوة لعدم وجود قوة أخرى تقف فى طريقهم وتحد من بطشهم، أما الأباطرة فقد أصبحوا ألعوبة فى أيدى الجند، يولونهم ويعزلونهم وفق إرادتهم، حتى انتهى الأمر بأن ثار أودواكر - رغيم بعض جموع الجرمان - ودخل رافنا سنة ٤٧٦ حيث كان الإمبراطور عندئذ - وهو رومولس أوغسطولس Romulus Augustulus فى الثانية عشرة من عمره، فاكتفى أودواكر بنفيه إلى جنوب إيطاليا مع تخصيص معاش كاف له(٩٦).

وعلى هذا الوجه انتهت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وغدت إيطاليا من الوجهة القانونية تابعة للإمبراطورية الرومانية التى لم يبق غيرها على قيد الحياة وهى الإمبراطورية البيزنطية، وحتى هذه الإمبراطورية لم يكن لها عندئذ نفوذ فعلى ملموس فى إيطاليا مما ترك البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها الإيطاليون طوال القرون التالية، ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيلين بحمايتهم.

وإذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا فى أهمية الأحداث التى جرت سنة ٤٧٦، ويتخذون هذه السنة التى سقطت فيها الإمبراطورية الغربية حدا فاصلا بين عصرين، فإننا يجب ألا ننساق وراءهم فى تفكيرهم وتيارهم؛ ذلك أن الإمبراطور الغربى كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة، فى الوقت الذى سقطت فيه إمبراطوريته، هذا فضلا عن أن إيطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحا لعبث كثير من الطوائف الجرمانية التى تطرقت إليها، ومن هذا يبدو أن عزل الإمبراطور الطفل رومولس أوغسطولس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ لم يؤد إلى تغير كبير فى الحالة القائمة فعلا(٩٧). وهنا ينبغى أن نسجل أيضاً أن أودواكر نفسه لم يقصد بعمله أن يبدأ

(95) Lot: The End of the Ancient World, pp. 209 - 215.
(96) Bury: op, cit. Vol. 1. p. 406.
(97) Cam. Med. Vol. 1. pp. 430 - 433.

عهدا جديداً أو يحدث انقلابا من نوع غير معروف ، وإنما كل ما كان يطمع فيه هو أن يحظى بما حظى به فعلا غيره من زعماء الجرمان داخل حدود الإمبراطورية، كما يتضح ذلك من البعثتين اللتين أرسلهما إلى زينون إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٧٧ ، ٤٧٨(٩٨). حقيقة أن العالم الغربى ظلّ دون إمبراطور منذ ٤٧٦ ، حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠، الأمر الذى ظهر أثره واضحا فى تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة، وفى تطور البابوية من جهة أخرى، ولكن عدم وجود أباطرة فى الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعنى بأى حال زوال الفكرة الإمبراطورية، تلك الفكرة التى ظلت تصور الإمبراطورية طوال العصور الوسطى على أنها وحدة لا تتجزأ(٩٩)، هذا وإن كان بعض الكتاب - مثل أومان - يعترفون بالآراء السابقة، ولكنهم يصرون على أن سنة ٤٧٦ لها أهمية خاصة كخط فاصل بين التاريخ القديم، وتاريخ العصور الوسطى(١٠٠).

ومهما يكن من أمر فالمهم هو أن سنة ٤٧٦ لم تكد تنتهى حتى كانت هناك ست ممالك جرمانية قد قامت فى غرب أوربا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، وهذه الممالك هى مملكة أودواكر فى إيطاليا، ومملكة الوندال فى شمال أفريقية، ومملكة القوط الغربيين التى امتدت من اللوار حتى مضيق أعمدة هرقل فى إسبانيا، ومملكة البرجنديين فى وادى الرون، ووادى الساؤون، ودولة الفرنجة على الميز، والموزل والراين الأدنى فى غاليا، وأخيرا تأتى صغرى هذه الممالك الجرمانية وهى مملكة السويفى Suevi فى الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال وغاليسيا(١٠١).

الفرنجة:

كان أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام دولة الفرنجة؛ وهى الدولة الجرمانية الوحيدة التى استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود الإمبراطورية. ذلك

(98) Eyre: op. cit. p. 23.
(99) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 431.
(100) Oman: The Dark Ages, p. 3.
(101) Idem. p. 5.

أن قبائل الفرنجة المتقلبة التى كونت فيما بينها حلفا مائعا فى القرن الثالث أخذت تظهر عند بداية القرن الخامس فى هيئة كتلة متراصة أهم عناصرها الفرنجة البحريون France Saliens ، والفرنجة البريون France Ripuaires وكان كل من هذين الفرعين قد استقر فعلا فى القرن الرابع داخل حدود الإمبراطورية الرومانية فامتد الفرنجة البحريون بين الراين الأدنى، والميز، والشلد، فى حين امتد الفرنجة البريون على امتداد الموزل الأدنى[١٠٢].

ويعتبر كلوفس (٤٨٦ – ٥١١) المؤسس الحقيقى لدولة الفرنجة البحريين، إذ استطاع أن ينزل الهزيمة فى سواسون سنة ٤٨٦ بسياجريوس Syagrius وهو الذى ظلّ يمثل آخر بقايا الإدارة الرومانية فى حوض السين على الرغم من سقوط الإمبراطورية فى الغرب قبل ذلك بعشر سنوات[١٠٣]. وقد أخذ كلوفس يعمل بسرعة - بعد انتصاره فى سواسون - على مد نفوذ الفرنجة على الجهات الشمالية من غاليا. وكان من الطبيعى أن يقابل أهالى البلاد الأصليين هذا التغير بقليل من الدهشة، وكثير من الفتور بعد أن اعتادوا الخضوع لفئة جديدة من غزاة الجرمان الفينة بعد الفينة. وهكذا جاء وقت على غاليا الرومانية غدت فيه مقسمة بين القوط الغربيين والبرجنديين، والفرنجة[١٠٤].

على أن حركة الفرنجة اختلفت كثيرا فى طابعها عن الحركات التى قامت بها بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو، ومن هنا يميل بعض المؤرخين إلى عدم اعتبار كلوفس فاتحا بكل معانى الكلمة، وإلى وصف نضاله ضد سياجر بوس بأنه صدام بين زعيمين طموحين أكثر منه بين قوميتين متعاديتين[١٠٥]، ذلك أن بقية الشعوب الجرمانية كالقوط، والوندال، والبرجنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية، وأخذت تجول خلال الأقاليم الأوربية عدة سنوات، حتى استقر كل منها أخيرا، وسط جزء من المحيط

(102) Fliche : La Chretienté Mediévale, p. 30.

(103) Deanesly: op. cit. p. 58. & Gregory of Tours; The Hist. of the Franks 11 - 27.

(104) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 108

(105) Lot: The end of the Ancient World, p. 249.

اللاتينى الغربى بعيدا عن موطنها الأول، أما الفرنجة فإنهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى، وإنما أخذوا ينتشرون منه ويضيفون إليه أقليما بعد آخر دون أن يتخلوا عن مركزهم الأساسى أو يقطعوا صلتهم به(١٠٦).

وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم، وحضارتهم، وحيويتهم الجرمانية، فى الوقت الذى ذابت بقية الشعوب الجرمانية فى المحيط اللاتينى الذى استقرت وسطه بعد أن قطعت صلتها بمواطنها الأولى. كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية فى سياستهم الحكيمة التى امتازت بعدم الإفراط فى العنف والإساءة إلى أهالى البلاد الأصليين، ولا يوجد لدينا أى سند تاريخى يثبت أن الفرنجة حاكوا البرجنديين أو القوط الغربيين فى اغتصابهم الأراضى والضياع من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالى غاليا ولم يؤذوهم فى أملاكهم وأرواحهم(١٠٧)، هذا فضلا عن احتفاظهم بحسن العلاقات مع الإمبراطورية الرومانية فى معظم الحالات(١٠٨)، ولا شك فى أن هذا المسلك من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين، وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفس الديانة المسيحية سنة ٤٩٦ (١٠٩). وليس المهم فى هذه الخطوة المهمة هو ما ترتب عليها من انتشار الديانة الجديدة بين أتباع كلوفس وشعب الفرنجة، وإنما هو أن كلوفس اعتنق المسيحية على مذهبها الأثناسيوسى أو الغربى مخالفًا فى ذلك بقية الشعوب الجرمانية التى ظلت ممقوتة فى الغرب اللاتينى، بسبب آريوسيتها(١١٠)، والواقع أن رجال الكنيسة الكاثوليكية فى جنوب غاليا كانوا يرقبون توسع الفرنجة فى الشمال باهتمام بالغ من أول الأمر، لأنهم رأوا فى كلوفس وأتباعه الوثنيين مادة خاما يسهل تشكيلها وفق مبادئ الكنيسة الغربية، لاسيما أن مسلكهم تجاه أهالى البلاد الأصليين جاء مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة

---

(106) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 108.
(107) Dill:Roman Society in Gaul, p. 89.
(108) Lot; The end of the Ancient World, p. 249.
(109) Cam. Med, Hist. Vol. 1, p. 285.
(110) Dill:Roman Society in Gaul, pp. 86 - 89.

والاعتدال بعكس الحال مع البرجنديين أو القوط الآريوسيين. لذلك أخذ رجال الكنيسة فى غاليا يترقبون اليوم الذى اعتنق فيه كلوفس المسيحية فى صورتها الأثناسيوسية، لاسيما بعد أن تزوج من كلوتيدا، وهى أميرة برجندية دانت بالعقيدة الكاثوليكية(١١١). ويقال إن الظروف التى أحاطت بكلوفس أثناء حربه مع الألمان فى الألزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره ، وكان أن أوفى بعهده فتم تعميده سنة ٤٩٦(١١٢).

وهنا نستطيع أن نقول إن كلوفس استطاع بهذه الخطوة أن يحدد مصير الفرنجة ومستقبل دولتهم، لأن اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف الكاثوليك وتأييدهم، ليس فقط فى غاليا وإنما فى جميع أرجاء غرب أوربا(١١٣)، ومعنى ذلك قيام نوع من التعاون والارتباط بل التآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان، وهو أمر كان لايمكن تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين من جهة، والبرجنديين أو القوط الآريوسيين من جهة أخرى(١١٤)، ويكفى أن الملكية الفرنجية كانت الوحيدة بين الملكيات الجرمانية التى اكتسبت عطف رجال الكنيسة وتأييدهم فى غرب أوربا، حتى أصبح كلوفس قسطنطينا آخر(١١٥)، فى حين ظهر ملوك الفرنجة فى ثوب حماة المسيحية ورجالها فى الغرب مما مهد لإيجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك الفرنجة؛ وهو التحالف الذى كان له أثر بعيد فى مستقبل أوربا العصور الوسطى.

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع عقب سنة ٤٩٦، بعد أن أخذ الأهالى من الرومان الكاثوليك فى بقية أنحاء غاليا يتمنون الدخول تحت حكم كلوفس- الملك الجرمانى الذى يتفق معهم فى المذهب(١١٦) . على أنه يلاحظ أن توسع الفرنجة

---

(111) Deanesly: op. cit. p. 59.
(112) Grcgory of Tours: the Hist. of the Franks, p. 2 - 30.
(113) Flich: La Chertiente Medievale, p. 33.
(114) Lavisse: Hist. de France, Tome, 2, Premiere, Partie, p. 99.
(115) Lot: The end of the Ancient World p. 317 - 318.
(116) Deanesly: op. cit. p. 60.

فى تلك المرحلة لم يقتصر على الجهات الغربية والجنوبية وإنما امتد أيضًا فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى، وقد حدث سنة ٤٩٦ أن أخذ الألمان يباشرون ضغطهم من أعالى الراين على الفرنجة البريين الذين انتشروا إلى الجنوب منهم، فاستنجد هؤلاء الأخيرون بكلوفس الذى أسرع لنجدة أقاربه فشنَّ هجومين على الألمان أحدهما سنة ٤٩٦ والثانى ٥٠١، حتى انتهى الأمر بإنزال هزيمة ساحقة بالألمان الذين اضطروا إلى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين؛ لحماية أنفسهم من الفرنجة(١١٧). وتعتبر هذه الحرب بين الفرنجة والألمان على جانب كبير من الأهمية حيث إنها أدت إلى توسع الفرنجة فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى، كما أنه ترتب على نجاح الفرنجة فى صد الألمان عدم قطع الصلة بين الفرنجة من جهة، ووطنهم الجرمانى الأول فيما وراء الراين من جهة أخرى، فضلا عن نجاح الفرنجة فى وقف التيار التوسعى لبقية العناصر الجرمانية مثل: البافاريين، والثورنجيين والسكسون(١١٨).

على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى لم يلبث أن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين فى غاليا، مثل: البرجنديين والقوط الغربيين. أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس أن يجبرهم سنة ٥٠٠ على دفع الجزية رمزاً للتبعية(١١٩)، وأما القوط الغربيون فإن كلوفس شن الحرب عليهم سنة ٥٠٧ وقتل ملكهم ألرك الثانى بعد أن هزمه فى فوجليه Vouglé كما استولى على تولوز سنة ٥٠٨، ولم ينقذ القوط الغربيين من أيدى الفرنجة عندئذ سوى تدخل ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذى أسرع لنجدة أقربائه(١٢٠)، وأخيرا حلَّ الموقف بين الفرنجة والقوط سنة ٥١٠ بعد أن تم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين يمتد حتى نهر الجارون - بما فيه مدينة تولوز - فى حين احتفظ ثيودريك بإقليمى بروفانس، وناربونيس (سبتمانيا)(١٢١).

---

(117) Lot: The end of the Ancient World p. 317
(118) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 109.
(119) Dill:Roman Society in Gaul, p. 91.
(120) Cam. Med, Hist. Vol. 1, p. 484.
(121) Lot: The end of the Ancient World pp. 318 - 319.

وعندما توفى كلوفس سنة ٥١١ كانت دولة الفرنجة تمتد على جانبى الراين، وتشمل جميع غاليا ما عدا أرموريكا (بريتانى)، وجاسكونى، وبروفانس، على أن هناك حقيقة مهمة أثرت فى تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم تأثيرا عميقا هى أنهم ظلوا يعتبرون الملك إرثا يقسم بين سائر أبناء الملك أسوة بسائر أنواع الإرث، ووفقا لهذا المبدأ قسم كلوفس مملكته الواسعة ذات السكان المتباينين فى الأصل والجنس بين أبنائه الأربعة(١٢٢) ومع ذلك فإن توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم أو نتيجة لما قام بين أبناء كلوفس من نزاع وخلاف، ففى سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا، كما استولوا على إقليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١ وأوفرن سنة ٥٣٢، وبرجنديا سنة ٥٣٤، وبافاريا سنة ٥٥٤ – ٥٥٥، وجاسكونى سنة ٥٦٧، وساعد على هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة، أنّ لوثر الأول (كلوتير) استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٥٨ بعد وفاة إخوته الثلاثة، أى أنه حكم جميع مملكة كلوفس فضلا عن برجنديا، وثورنجيا، وبروفانس، وبفاريا(١٢٣).

على أن مملكة الفرنجة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى بين أبناء لوثر الأول عند وفاته سنة ٥٦١(١٢٤). وقد ظهرت الخلافات التاريخية والجنسية واضحة هذه المرة بين الأقسام التى انقسمت إليها مملكة الفرنجة وهى أوستراسيا، ونستريا، فى حين كان الطابع اللاتينى هو الغالب على برجنديا وأكوتين. ومهما يكن من أمر فإن العصر الأول لتاريخ الفرنجة - وهو عصر البطولة الذى اتصف بالتوسع والغزو- انتهى سنة ٥٦١(١٢٥)؛ ليبدأ عصر آخر سنعود إليه بعد قليل.

القوط الشرقيون:

رأينا ما كان من أمر سقوط الإمبراطورية الغربية فى إيطاليا سنة ٤٧٦، وهو الأمر الذى جعل لأباطرة الدولة الشرقية نوعا من السيادة الاسمية على إيطاليا بحكم

(122) Cam. Med, Hist. Vol. 1, p. 484.

(123) Deanesly: op. cit. p. 67.

(124) Lavisse: Hist, de France, Tome, 2. Premiere Partie. p. 132.

(125) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 114.

ما لأباطرة هذه الدولة من حق فى وراثة أباطرة الغرب، ولكن حدث سنة ٤٨٩ - أى بعد موقعة سواسون بثلاث سنوات - أن انتهى ما كان لأباطرة الدولة الشرقية من سلطة اسمية فى إيطاليا وذلك عندما غزاها القوط الشرقيون تحت زعامة نيودريك(١٢٦).

وكان القوط الشرقيون قد تعرضوا سنة ٣٧٥ لخطر الهون ولكنهم لم يستطيعوا الفرار عبر الدانوب مثلما فعل أقرباؤهم القوط الغربيون ومن ثمّ ظلوا تحت سيطرة الهون ما يقرب من سبع وسبعين سنة، أى حتى سنة ٤٥٢، عندما توفى أتيلا وتفككت إمبراطوريته وأخذت الشعوب الخاضعة للهون تتحرر من سيطرتهم(١٢٧)، على أن القوط الشرقيين وجدوا أنفسهم غداة تحررهم من سيطرة الهون فى حال لا يحسدون عليها نظرا لما لحق أقاليم الدانوب فى ذلك الوقت من دمار وخراب شامل حتى أصبحت الإقامة فيها أمرا متعذرا، لذلك اتجه القوط الشرقيون جنوبا داخل حدود الإمبراطورية حيث أخذوا يسببون لها مضايقات شتى(١٢٨). وعلى الرغم من أن قوات الإمبراطورية الشرقية أسرت ثيودريك - ابن ملك القوط الشرقيين - وأرسلته رهينة إلى القسطنطينية، إلاّ أن المناصب والألقاب البراقة التى خلعها عليه البيزنطيون، ومظاهر العظمة التى حفلت بها القسطنطينية، لم تنس ثيودريك أهله وعشيرته الذين كانوا يقاسون آلام الفاقة والحرمان فى بيئتهم الفقيرة، ففرّ اليهم سنة ٤٧٤ وأخذ يتجول بهم عدة سنوات فى أقاليم البلقان(١٢٩). وأخيرا رأى الإمبراطور زينون أن خير وسيلة ينقذ بها أقاليم الدولة الشرقية من عبث القوط الشرقيين هى أن يلهيهم بإيطاليا، فألقاها لهم لقمة سائغة سنة ٤٨٨. وكان أن نفذ القوط الشرقيون إلى إيطاليا سنة ٤٨٩ فأنزلوا عدة هزائم بأودواكر عند إيسونزو Isonzo وفيرونا، حتى اعتصم أودواكر برافنا فحاصره القوط الشرقيون حتى استسلم سنة ٤٩٣. ولم يلبث أن دخل ثيودريك رافنا ليقتل أودواكر ويصبح سيد إيطاليا(١٣٠). والواقع أن ثيودريك كان من الوجهة القانونية نائبا

---

(126) Oman: The Dark Ages, p. 16.
(127) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 365.
(128) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 115.
(129) Deanesly: op. cit. p. 35.
(130) Eyre: op. cit. p. 25.

عن إمبراطور الدولة الشرقية فى إيطاليا، حتى أنه نقش اسم الإمبراطور البيزنطى على العملة(١٣١)، ولكنه صار من الناحية العملية ملكا مستقلا على مملكة القوط الشرقيين التى شملت إيطاليا، وصقلية، وغيرهما من الأقاليم المجاورة مثل: بانونيا، ودلماشيا، واليريا، وبروفانس، فى حين ظلت كورسيكا وسردينيا فى أيدى الوندال.

وقد اتخذت غزوة القوط الشرقيين لإيطاليا شكل هجرة عامة، إذ اصطحبوا معهم نساءهم وماشيتهم(١٣٢). أما زعيمهم ثيودريك فكان أعظم شخصية سياسية فى عصره بل إنه يكاد يكون الشخص الوحيد المعاصر الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمة والوسطى، ذلك أنه دخل الإمبراطورية صديقا لا عدوا، كما أراد أن يعتبره المعاصرون حاكما رومانيا لا زعيما بربريا. ويكفى أن إيطاليا تمتعت فى عهده بحكومة قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية(١٣٣). من ذلك أن ثيودريك العظيم لم يدخل سوى تعديلات قليلة نسبيا على النظم القائمة بإيطاليا، وذلك فى خلال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٨٩ حتى سنة ٥٢٦، فاتخذ قصره فى رافنا مركزا لحكومة بيروقراطية تشبه فى طابعها النظام الإمبراطورى القديم(١٣٤)، كما احتفظ بالسناتو والوظائف العمومية، والنظام الإدارى، والمدارس، فضلا عن أنه أبقى ملكية الأرض الخاصة. وإذا كان القوط الشرقيون قد احتفظوا لأنفسهم من الناحية الشكلية بقوانينهم الخاصة، إلاّ أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى حتى أنها لم تلبث أن فقدت طابعها الأصلى بعد عدة أجيال(١٣٥)، أما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فإن ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الإيطاليين الأكفاء لها فحسب، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الإمبراطورية الرومانية فى سابق مجدها، ومن أمثلة أعلام الرجال الذين استعان بهم ثيودريك، كاسيدورس Cassiodorus ، أنوديوس Ennodius ، سناريوس Senarius ، أجابيتوس Agapitus ، وبيوثيوس Boethius

(131) Lot: The end of the Ancient World, P. 240.
(132) Eyre: op. cit. p. 25.
(133) Idem: pp. 25 - 57.
(134) Lot: The end of the Ancient World, P. 241
(135) Oman: The Dark Ages, pp. 22 - 24.

وغيرهم(١٣٦)، كذلك خالف ثيودريك بقية الجرمان فى أنه حافظ على المبدأ الرومانى القديم الخاص بالفصل بين الوظائف المدنية والحربية ، الأمر الذى زاد من الحقد المتبادل بين الموظفين المدنيين الرومانيين وقادة القوط العسكريين .

وعلى الرغم مما عرف عن ثيودريك العظيم من تسامح ورغبة صادقة فى التوفيق بين أهالى إيطاليا الأثناسيوسيين والقوط الآريوسيين، إلاَّ أن الخلاف المذهبى ظل يحول دون حسن التفاهم بين الطرفين. حقيقة أن ثيودريك عنى بالمحافظة على آثار الحضارة الرومانية، فضلا عن عنايته بجمع القوانين الرومانية معتمدا على مجموعة ثيودسيوس، مما جعل من ثيودريك العظيم أحد بناة الحضارة فى أوائل العصور الوسطى(١٣٧) . ولكنّنا على الرغم من كل ذلك فإن هذا البناء الكبير الذى أجهد ثيودريك نفسه فى إقامته كان لايمكن أن يدوم أو يستمر طويلا، فالقوط الشرقيون الذين لم يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا أقاموا وسط مجتمع كبير من أهالى إيطاليا الأصليين الذين زاد عددهم عندئذ على تسعة ملايين، هذا فضلا عن أن القوط الشرقيين قطعوا صلتهم بصميم الوطن الجرمانى فيما وراء الدانوب والراين - بعكس الحال مع الفرنجة - مما ترتب عليه انقطاع الشريان الرئيسى الذى يحيى فى القوط روحهم ويذكرهم بأصولهم، ومبادئهم الجرمانية (١٣٨)، لذلك نجد أنه على الرغم من نفوذ ثيودريك الواسع وعظمة بلاطه فى فيرونا أو رافنا، وتسامحه الدينى والسياسى، ورعايته للآداب والفنون، وحرصه على إقامة كثير من الجسور، والطرق، والحمامات وغيرها من المنشآت العامة، إلاَّ أن البناء الذى أقامه لم يكن قوى الأساس وبالتالى لم يقدر له البقاء طويلا(١٣٩)، ذلك أن ذكرى روما القديمة، وموقف الإمبراطورية البيزنطية التى استعادت سطوتها على عهد جستنيان، والخلافات المذهبية بين القوط الشرقيين وأهالى إيطاليا الأصليين، كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتقضى على أمل ثيودريك فى إقامة ملكية قوطية ثابتة الأركان فى إيطاليا، وقد اتضحت هذه

---

(136) Eyre: op. cit. p. 6.
(137) Idem: p. 27.
(138) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 118.
(139) Lot & Pfister, Ganshof,op, cit. pp. 113 - 116.

الحقيقة المؤلمة لثيودريك فى أواخر أيامه لا سيما عندما قام جستين الأول ـ إمبراطور الدولة البيزنطية (٥١٨ - ٥٢٧) - بحركة اضطهاد واسعة ضد الآريوسيين أدت إلى تعذيبهم ومصادرة كنائسهم، الأمر الذى جعل ثيودريك يرسل بعثة برئاسة البابا حنا الأول سنة ٥٢٥ إلى الإمبراطور البيزنطى للعدول عن سياسته(١٤٠). ويبدو أن فشل هذه البعثة فى تحقيق أغراضها جعل ثيودريك يتشكك فى جميع من حوله، حتى قام بحركة اضطهاد مماثلة ضد الكنيسة الكاثوليكية فى إيطاليا، ولم ينج من هذه الموجة الجارفة الفيلسوف بيؤثيوس الذى أُعدم بلا ذنب سنة ٥٢٥ ثم لحق به فى السجن البابا حنا الأول فى العام التالى، وأخيرا لم يلبث ثيودريك نفسه أن مات فى العام نفسه ـ ٥٢٦ ـ بعد أن سلم جميع الكنائس الكاثوليكية فى إيطاليا للآريوسيين(١٤١).

ولم تكد تمضى سنوات قليلة على وفاة ثيودريك حتى أرسل جستنيان ـ إمبراطور الدولة الشرقية ـ جيشا إلى إيطاليا سنة ٥٣٦ لاستردادها من القوط وإعادتها إلى أحضان الإمبراطورية، وعلى الرغم من مقاومة القوط الباسلة إلاّ أن قوتهم انهارت بعد سنوات قليلة ـ سنة ٥٥٢ ـ وبذلك اختفى القوط الشرقيون كأمة قائمة بذاتها من صفحة التاريخ(١٤٢).

الإنجلز وبريطانيا:

صورت لنا الحوادث السابقة الخاصة بمسلسل الغزوات الجرمانية كيف تفككت الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس بعد أن استولى الجرمان على غاليا، وإسبانيا، وأفريقية وأقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة، أما بريطانيا التى أشرنا إلى أن الفرق الرومانية انسحبت منها فى أوائل القرن الخامس(١٤٣)، فلم تلبث الأحداث التى تلاحقت عليها فى المائة والخمسين سنة التالية أن جعلتها تتوارى تماما من فوق مسرح التاريخ، حتى إذا ظهرت على المسرح مرة أخرى كانت قد اتخذت صبغة جديدة وأصبحت إنجلترا لا بريطانيا.

---

(140) Cam. Med. Hist. Vol, 1. p. 454.
(141) Deanesly: op. cit. pp. 43 - 44.
(142) Cam. Med Hist. Vol, 2. p. 18.
(143) Hodgkin: Tbe Hist. of England, pp. 72 - 73.

ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال وفى شبه جزيرة جتلاند - مثل الإنجلز، والسكسون، والجوت - أخذت تواصل إغاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع(١٤٤). وقد جددت هذه العناصر إغاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية سنة ٤٤٢، ولكنهم أغاروا فى هذه المرة على بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم بقصد الإقامة حتى تم لهم - عند نهاية القرن السادس - اجتياح معظم البلاد المعروفة حديثا باسم إنجلترا، ما عدا إقليم كورنوول فى الجنوب الغربى(١٤٥). ولكن إذا كان أمر الجرمان فى صلب القارة قد انتهى باستقرارهم نهائيا وسط الشعب الرومانى المغلوب على أمره، والتأثر بأوضاع هذا الشعب من النواحى اللغوية، والدينية، والحضارية، إلا أن الموقف اختلف فى بريطانيا حيث طرد الغزاة أمامهم أهالى البلاد الأصليين من الكلت؛ مما جعل المسيحية تختفى مؤقتا من البلاد.

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم، وإنما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع Heptarchy (١٤٦)، وهي مملكة كنت التى تألفت من الجوت، وممالك إسكس Essex، وسسكس Sussex، ووسكس Wessex؛ التى كان أهلها من السكسون ثم ممالك إنجليا الشرقية ومرسيا Mercia ونورثمبرلاند، وكان أهلها من الانجلز، وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبرت ملك كنت (٥٦٠ - ٦١٦) أن يفرض سيادته عليها جميعا وكان هذا الملك قد تزوج برتنا Bertna - وهى أميرة زنجية مسيحية - فى الوقت الذى وصل إلى انجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجورى العظيم. وكان وصول أوغسطين إلى كنت سنة ٥٩٧ واعتناق ملكها أثلبرت المسيحية بداية لازدياد عدد البعثات الكنسية من جهة، وسرعة انتشار المسيحية فى إنجلترا من جهة أخرى، الأمر الذى أدى إلى خروج أهالى بريطانيا عن عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية(١٤٧). وهنا نلاحظ أن دخول بريطانيا دائرة الكنيسة الغربية عوض جزءا من الخسارة التى أصابت هذه الكنيسة فيما بعد استيلاء المسلمين على إسبانيا،

(144) Cam. Med. hist Vol. 1. pp. 378 - 381.
(145) Hodgkin: The Hist of England. p. 108.
(146) Orton: Outlines of Med. Hist. p. 95.
(147) Idem, P. 96.

هذا إلى أن البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة فى إنجلترا ، فظلّ الأنجلوسكسون لا يعرفون شيئا عن الكنيسة الشرقية أو عن الإمبراطورية وصاروا أينما ولوا وجوههم لايجدون أمامهم سوى روما والبابوية(١٤٨).

والواقع أن القديس أوغسطين ـ الذى صار أول أساقفة كانتربورى (٥٩٧ – ٦٠٥) لم يصادف صعوبة فى نشر المسيحية فى كنت، ولكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا فى بقية أنحاء الجزيرة، وعلى الرغم من ذلك فإن المسيحية أخذت تتقدم تقدما حثيثا فى تلك البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها، حقيقة أن الكنيسة فى إنجلترا صادفت صعابا اعترضت سبيل تنظيمها وربطها بالبابوية، ولكنها استطاعت أن تتخطى هذه الصعاب فى القرن السابع مما أتاح لإنجلترا نصيباً من تراث الحضارة الكلاسيكية، ومن أبرز أساقفة كانتربورى فى هذا القرن ثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus (٦٦٩ – ٦٩٠)؛ الذى نظم الأسقفيات فى إنجلترا وزاد منها، كما جعل من يورك كرسيا لرئيس أساقفة، وعقد أول المجامع الدينية التى عرفتها الكنيسة الإنجليزية(١٤٩)، وهكذا ليست هناك مبالغة فيما يصر عليه بعض الكتاب من اعتبار ثيودور هذا مؤسس الأمة الإنجليزية التى كانت حتى ذلك الوقت مفتتة إلى قبائل صغيرة، كما اعتبروه واضع دعائم الحياة العلمية فى إنجلترا؛ وهى الحياة التى بلغت ذروتها على عصر بدى Bede (٦٧٥ – ٧٣٥)(١٥٠).

أمّا فى الجانب السياسى فقد ظلت إنجلترا تعانى الكثير بسبب الانقسامات وعدم الوحدة حتى استطاع إجبرت Egbert ملك وسكس (٨٠٢ – ٨٣٩) أن يغزو الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة سنة ٨١٥، وأن يهزم مرسيا سنة ٨١٩ وبذلك أصبح سيد إنجلترا وصارت وسكس أكبر قوة سياسية عندما بدأت تشتد إغارات الفيكنج فى القرن التاسع(١٥١).

* * *

---

(148) Lot: The End of the Ancient World, pp. 303 - 304.
(149) cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 540.
(150) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 195 - 209.
(151) Idem: pp. 263 - 265.

وبعد ، فلعله من الواضح الآن أن الغزوات التى قام بها البرابرة ـ من جرمان وغير جرمان ـ تركت أثرا واضحا فى المجتمع الرومانى. ذلك أن هذه الغزوات أدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، وضياع معظم أقاليمها غنيمة فى أيدى الغزاة. حقيقة أن جستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ – ٥٦٥) بذل جهدا كبيرا فى استرداد هذه الأقاليم التى فقدتها الإمبراطورية الرومانية فى شمال أفريقية، وإيطاليا، وإسبانيا، ولكن نجاحه كان مؤقتا سريع الزوال [١٥٢]، أما فى الناحية الاقتصادية، فقد رأينا أن الإمبراطورية الرومانية كانت تشكو أعراض التدهور الاقتصادى قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة، لأن التدمير الشامل الذى نتج عنها وما صاحبها من حرب بين الغزاة بعضهم وبعض، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية أدت إلى توقف التجارة، والزراعة، والصناعة، بل إلى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام، ولا شك فى أن الأثر النفسى الذى تركته غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية الغربية فى نفوس المعاصرين كان عظيما حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم[١٥٣] .

وإذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحى الحياة فى الإمبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار فى ظل التطورات الجديدة، فإنها كانت الكنيسة الكاثوليكية التى تركها الجرمان تباشر نشاطها حتى ازدادت فى ذلك العصر قوة ونفوذا، والواقع أن الأخطار التى ألمت بالعالم الرومانى من جهة، وسقوط الإمبراطورية الغربية من جهة أخرى، جعلت الكنيسة الغربية تبدو فى صورة القوة الوحيدة التى يمكنها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضى، كما غدا القساوسة مثل الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التى أحاطت بهم[١٥٤] .

(152) Eyre : op. cit. pp. 31 - 32.
(153) Pirenne : AHist. of Europe, p. 36.
(154) Painter: op. cit. p. 28.

الباب الخامس
الإمبراطورية البيزنطية
(٣٣٠ - ٨٠٢)

إن المتتبع لتاريخ أوربا فى العصور الوسطى تواجهه حقيقة مهمة تسترعى الانتباه ، هى أنه إذا كانت الإمبراطورية الرومانية الكبرى قد انقسمت إلى قسمين شرقى وغربى فى أواخر القرن الرابع، فإن القسم الشرقى أو البيزنطى قدر له البقاء والاستمرار فى حين لم تلبث الإمبراطورية الغربية أن سقطت قبل أن يمضى قرن على هذا التقسيم(١) . فإذا حاول الباحث تعليل هذه الظاهرة فإنه لن يجد سببا معقولا لهذا التفاوت الكبير فى العمر بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية سوى أن الأولى وخاصة جناحها الآسيوى لم تتأثر بشكل خطير بالغزوات الجرمانية فى الوقت الذى وقعت الولايات الغربية من الإمبراطورية تحت سيطرة الإنجلز، والسكسون، والفرنجة والبرجنديين، والقوط، والوندال وغيرهم. حقيقة أن ولايات الإمبراطورية الشرقية الواقعة جنوبى الدانوب قاست كثيرا من التدمير بسبب إغارات البرابرة، ولكن الجرمان لم يستقروا فى القرن الخامس فى هذه الولايات بسبب السياسة التى اتبعها الأباطرة البيزنطيون، وهى السياسة الخاصة بإغراء المغيرين على الاتجاه غربا(٢)، هذا فضلا عما حبت به الطبيعة عاصمة الإمبراطورية البيزنطية من مناعة وموقع حصين جعلها بعيدة عن منال الأعداء، وطالما كانت القسطنطينية نفسها رافعة رأسها فالإمبراطورية قائمة لم تسقط(٣) .

ومهما يكن من أمر فإن تقسيم ثيودسيوس العظيم للإمبراطورية سنة ٣٩٥ جعل هناك إمبراطوريتين إحداهما شرقية الطابع والكنيسة يونانية الحضارة، واللغة، والتراث، والثانية غربية الطابع، لاتينية اللغة والحضارة، كاثوليكية المذهب. والواقع

---

(1) Thompson: op. cit. Vol, 1, pp. 122 - 123.
(2) Painter: op. cit. p. 33.
(3) Katz: op. cit. p. 113.

أن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ظلّ تاريخ القسطنطينية بحضارتها الهللينية، فى حين أمسى تاريخ الإمبراطورية الغربية فى العصور الوسطى مزيجا من حضارة الشعب الرومانى والشعوب الجرمانية التى غزت الغرب واستقرت فيه.

وقد خلف الإمبراطور ثيودسيوس فى حكم الإمبراطورية الشرقية ابنه أركاديوس (٣٩٥ – ٤٠٨) ثم ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ – ٤٥٠)، وليست هناك أهمية خاصة لهذه الفترة سوى ما قام به ثيودسيوس الثانى من جمع القانون الرومانى وتبويبه، مما نتج عنه صدور المجموعة التى عرفت بمجموعة ثيودسيوس سنة ٤٣٩[٤]،وترجع أهمية هذا العمل إلى أن الشعوب الجرمانية ـ وخاصة القوط ـ تأثرت بمجموعة ثيودسيوس أكثر من تأثرها بأى مصدر رومانى آخر، حتى أصبحت هذه المجموعة أساس التشريع الإدارى فى كل من إسبانيا وإيطاليا.

ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية شهدت تقدما ملموساً بعد وفاة ثيودسيوس الثانى سنة ٤٥٠، لأن خلفاءه الذين تعاقبوا على عرش الإمبراطورية فى السبع وسبعين سنة التالية كانوا على درجة كافية من المهارة[٥]. ومن أشهر الأباطرة فى هذه الفترة الإمبراطور زينون Zenon (٤٧٤ – ٤٩١) الذى خلص الإمبراطورية الشرقية من خطر القوط كما ذكرنا، وكذلك الإمبراطور أنسطسيوس (٤٩١ – ٥١٨) الذى استنّ بعض تشريعات مالية لا تخلو فى طابعها العام من التعسف ولكنها نجحت على أى حال فى إشباع خزانة الدولة بالمال[٦]، هذا فضلا عن أنه حصن حدود الدولة على امتداد جبهة الشام بإقامة عدد كبير من القلاع، كما دعم تحصينات القسطنطينية وجبهة الدانوب، وحارب الفرس[٧]، ثم كان أن أدت وفاة أنسطسيوس سنة ٥١٨ دون وريث إلى شيء من عدم الاستقرار، انتهى بقيام جستين الأول فى الحكم (٥١٨ – ٥٢٧) بعد أن كان يشغل وظيفة قائد الحرس الإمبراطورى. وقد تبنى الإمبراطور جستين هذا ابن أخته ـ الذى عرف فيما بعد باسم جستنيان ـ وجعله قائداً للجيش ثمّ

---

(4) Diehl & Marcais: Le Monde Orienal, p. 10.

(5) Stephenson: op. cit. p. 67.

(6) Ostrogorsky: op. cit. p. 60.

(7) Bury : op. cit. Vol. 2. pp. 10 - 15.

شريكا له فى حكم الإمبراطورية [8]. وأخيرا تولى جستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة ٥٢٧ ليبدأ صفحة مهمة فى تاريخها.

جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) :

والواقع أن جستنيان كان من أبرز الشخصيات التى تولت عرش الإمبراطورية، كما استطاع تخليد اسمه فى التاريخ. بفضل الأعمال الواسعة التى قام بها فى الداخل والخارج. وإلى جانب جستنيان يحفظ لنا التاريخ اسم زوجته الإمبراطورة ثيودورا التى لعبت دوراً مهماً فى حياة زوجها، حتى أن الفضل يرجع إليها فى إنقاذه من السقوط عندما شبت ثورة خطيرة فى القسطنطينية سنة ٥٣٢ وهمّ الإمبراطور بالفرار، ولولا تشجيع ثيودورا وحثها له على الثبات[9].

وكانت الإمبراطورية الرومانية تمر بمحنة قاسية عندما اعتلى جستنيان عرشها، إذ انتزع الجرمان معظم ولاياتها فى الغرب فى حين أخذ خطر الفرس يتفاقم فى الشرق مرة أخرى، ولا سيما عندما تولى حكمهم كسرى الأول أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩) أعظم ملوك بنى ساسان. أما عن السياسة الحربية التى اتبعها جستنيان لدفع هذه الأخطار فيمكن تلخيصها فى أنها قامت على أساس الدفاع فى الشرق والهجوم فى الغرب؛ ذلك أن جستنيان لم يستنكف من شراء مسالمة الفرس بالمال فى سبيل محاولة استرداد أراضى الإمبراطورية التى انتزعها الجرمان فى الغرب حتى تعود الإمبراطورية الرومانية كما كانت قديماً وحدة متماسكة، ويعود البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى[10]. وهنا نلاحظ أن بعض المؤرخين انتقدوا جستنيان لأنه ضحى بكثير من الأرواح والأموال فى حروبه ضد الجرمان، فى الوقت الذى كان هؤلاء الجرمان ـ باستثناء الوندال ـ لا يؤذون الإمبراطورية أو يهددونها. ويرى هؤلاء الناقدون أنه كان أحرى بجستنيان أن يوجه كل جهوده الحربية ضد الفرس حيث كان يكمن الخطر الحقيقى على الدولة البيزنطية، ولكننا يجب أن ندرك أنه لو فعل جستنيان ذلك وتغاضى عن أمر الغرب موجها كل جهوده نحوالشرق، لأدت هذه السياسة إلى

---

(8) Cam., Med, Hist. Vol. 1. p. 2.

(9) Vasiliev:Histoire de I'Empire Byzantin, Tom 1, pp. 172 - 173.

(10) Stephenson: op. cit. p. 107.

تخليه عن تراث الإمبراطورية الرومانية وروحها[١١] . فسياسة جستنيان الحربية حافظت على العلاقات بين الدولة البيزنطية من جهة، والعالم الرومانى الغربى من جهة أخرى، وحالت دون جعل هذه الإمبراطورية قوة شرقية بحتة، الأمر الذى دفع بعض المؤرخين إلى اعتباره آخر إمبراطور «رومانى» بمعنى الكلمة أو الوحيد الذى يستحق لقب إمبراطور رومانى بعد دقلديانوس، وقسطنطين، وجوليان، وفالنشيان، وثيودسيوس[١٢] .

وقد بدأ جستنيان بحرب قصيرة ضد الفرس (٥٢٧ - ٥٣٢) انتهت بصلح سريع بين الطرفين ٥٣٢، وبذلك اطمأن الإمبراطور من جهة الجبهة الشرقية وأخذ يحول قواته ضد الغرب[١٣] . وقبل أن نعالج حروب جستنيان فى الغرب يصح أن نشير إلى أن حسن الحظ هيأ له قائدين ماهرين هما: بلزاريوس، ونارسيس، اللذين يرجع إليهما الفضل فى الانتصارات العظيمة التى أحرزتها الجيوش البيزنطية على عهد جستنيان[١٤] . وكانت القوة الحربية للإمبراطورية البيزنطية على عهد جستنيان تبلغ مائة وعشرين ألف رجل، وإن كان عدد المقاتلين الذى اشتركوا فى أية موقعة لم يتجاوز خمسة وعشرين ألفاً، على أن أفراد هذه القوة لايهمنا - من ناحية الأثر - بقدر ما يهمنا أن هذه القوة كانت مؤلفة من الخيالة الثقيلة Cataphracti المزودين بالسهام والسيوف، والحراب، فضلا عن الدروع الحديدية السميكة[١٥] . والواقع أن اتباع هذا الأسلوب فى الحرب يعتبر ثورة فى التاريخ الحربى لأوربا فى العصور الوسطى[١٦] . أما فيما يتعلق بمشروعات جستنيان الحربية بالذات، فإنه لم يكن فى استطاعة أى ملك من الجرمان فى الغرب أن يصمد فى وجه هذا النوع من الخيالة الثقيلة المدرعة، مما مكّن جستنيان من الحصول على انتصارات سريعة فى الحروب التى قام بها لاسترداد أراضى الإمبراطورية المفقودة فى الغرب.

---

(11) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 186 - 187.
(12) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 162.
(13) Lot & Pfister & Ganshof; op. cit. p. 131.
(14) Bury: op. cit. Vol, 2, pp. 79 - 88.
(15) Cam, Med. Hist, Vol. 2, p. 11.
(16) Stephenson: op. cit. pp. 107 - 108.

وكانت أولى حروب جستنيان فى الغرب ضد الوندال، الذين اغتصبوا ولاية شمال أفريقية - كما سبق أن ذكرنا - وأسسوا فيها مملكة خاصة بهم، وكان الوندال قد اعتراهم الذبول والفتور فى وطنهم الجديد نتيجة لأثر الجو الأفريقى الذى لم يعتادوه من جهة؛ ولاختلاطهم مع أهالى البلاد الأصليين من جهة أخرى[١٧]، لذلك لم يتمكن الوندال من إقامة بناء حضارى فى أفريقية، وإنما أقاموا دولة اعتمدت على السلب، والنهب، وأعمال القرصنة فى البحر المتوسط، مما جعل حملة جستنيان ضدهم تصادف توفيقاً كبيراً. وقد أتيحت الفرصة لتدخل جستنيان عندما استنجد به فريق من الوندال سنة ٥٣١ أثناء المنازعات الداخلية التى عمت دولتهم عندئذ[١٨]، لذلك لم يكد جستنيان يفرغ من الحرب الفارسية سنة ٥٣٢ حتى عهد إلى قائده بلزاريوس بغزو ولاية أفريقية بعد أن زوده بقوة لم تتجاوز ستة عشر ألفا من المحاربين حملتهم خمسمائة سفينة، وشاء حسن حظ بلزاريوس عندئذ أن جليمار Gelimar - مغتصب عرش الوندال - كان قد أرسل أسطوله وجزءا من جيشه لإخماد ثورة فى جزيرة سردينيا، مما مكن بلزاريوس من الوصول بسلام إلى شاطئ أفريقية حيث أنزل قواته إلى البحر وأخذ يزحف فورا على قرطاجة سنة ٥٣٣[١٩]، وقد تمكن بلزاريوس من تحطيم قوة الوندال بعد أن أنزل بهم الهزيمة فى موقعتين؛ وذلك بفضل مساعدة أهالى البلاد الأصليين من العنصر الرومانى الكاثوليكى، وهكذا لم يمض على وصول القوات البيزنطية إلى أراضى ولاية أفريقية ستة أشهر إلاّ وكانت دولة الوندال قد دالت واختفت إلى حيث لا رجعة من صفحة التاريخ، وسرعان ما عادت الإدارة الرومانية إلى شمال أفريقية وعاد الرومان إلى تملك الأراضى التى سبق أن اغتصبها منهم الوندال، فى حين حمل قادة الوندال وزعماؤهم إلى القسطنطينية ليصبحوا رقيقا[٢٠]، وإذا كانت حكومة جستنيان قد أخذت تعمل فى سرعة على إزالة كل أثر تركه الوندال فى شمال أفريقية، إلاّ أن البربر - الذين ظلوا فى حالة ثورة منذ الفتح الرومانى ضد أى

---

(17) Thompson: op. cit. Vol, 1, p. 127.
(18) Bury: op. cit. Vol, 2. p. 126.
(19) Lot: The end of the Ancient World, pp. 258 - 259.
(20) Cam Med, Hist. Vol. 2. p. 13.

حكم أجنبي - أثاروا عقبة قوية في سبيل الإدارة البيزنطية، بحيث لم يتم إخضاعهم إلاّ بعد سقوط دولة الوندال باثنتي عشرة سنة، وإن ظلّ مركز البيزنطيين ضعيفا بعد ذلك[٢١] .

ولم يكد الإمبراطور جستنيان يفرغ من أمر شمال أفريقية حتى بدأ يوجه نظره نحو إيطاليا التي اغتصبها القوط الشرقيون، وقد بدأ جستنيان بأن طلب من القوط عدة مطالب باهظة أهمها: دفع جزية سنوية ضخمة، وتقديم ثلاثة آلاف من الرجال القوط للعمل في جيوش الإمبراطورية، وتحرير الكنيسة الكاثوليكية من سيطرة القوط، هذا فضلا عن اعتراف القوط بحق الإمبراطورية في السيادة العليا على إيطاليا، ولم ينتظر جستنيان نتيجة المفاوضات الدائرة بينه وبين القوط الشرقيين حول المطالب السابقة، وإنما انتهز فرصة مقتل صاحب الحق الشرعي في عرشهم للتدخل في شئونهم الداخلية، فتقدم جزء من الجيوش الإمبراطورية إلى إيطاليا عن طريق دالماشيا، في حين قام جزء آخر باحتلال صقلية تحت قيادة بلزاريوس[٢٢] .

وفي سنة ٥٢٦ عبر بلزاريوس البحر من صقلية إلى إيطاليا فاستولى على نابلي ثم روما دون أن يشتبك مع القوط الشرقيين في معركة فاصلة[٢٣] . وقد ظنّ جستنيان أن أمر إيطاليا والقوط انتهى بهذه السهولة عند ذلك الحد، فاستدعى قائده بلزايوس، في الوقت الذي أعاد القوط توحيد صفوفهم تحت زعامة توتيلا Totila وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على إيطاليا بأكملها مرة أخرى، فضلا عن صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، وهكذا تطلبت الظروف أن يعود بلزاريوس إلى المسرح الإيطالي مرة أخرى. ولكن يبدو أن الجيوش البيزنطية لم تكن كافية للقيام بعمل حربي واسع، وذلك بسبب تجدد الحرب بين الإمبراطورية والفرس من جهة، ولحاجة الإمبراطورية إلى الاحتفاظ ببعض قواتها في شمال أفريقية من جهة ثانية، هذا فضلا عن انتشار الوباء في القسطنطينية نفسها من جهة ثالثة[٢٤]، وقد رفض القوط الشرقيون الاستسلام في

---

(21) Stephenson: op. cit. p. 109.
(22) Lot: The end of the Ancient world, p. 260.
(23) Hodgkin: Italy and Her Invaders, Vol, 4 . 41 - 84.
(24) Idem:p. 444.

سهولة، فاستمرت الحرب فى إيطاليا سنوات طويلة، أظهر فيها القوط عنادا شديدا، على الرغم من الهزائم المتلاحقة التى حلت بهم. وأخيرا حل نارسيس Narses محل بلزاريوس فى قيادة الجيوش الإمبراطورية فى إيطاليا، فانهارت أمامه قوة القوط الشرقيين نهائيا سنة ٥٥٢ عندما أنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة تادينوى Tadinoe وقتل آخر ملوكهم توتيلا(٢٥). وكان أن أرسلت بقايا القوط إلى نارسيس يعترفون بأن الله لم يكن فى جانبهم وأنهم مستعدون للاستسلام نهائيا على أن يسمح لهم بمغادرة إيطاليا ليعيشوا فى أى بلد آخر من بلاد البرابرة، فوافق نارسيس على هذا العرض سنة ٥٥٣. وهكذا انسحب القوط الشرقيون من إيطاليا حيث اختفوا بعد ذلك نتيجة اندماجهم فى بعض الشعوب البربرية الأخرى مثل: الجيبداى أو السلاف، وبذلك انتهى دورهم على مسرح التاريخ(٢٦). وهنا نلاحظ أن هذه الحرب لم تكد تنتهى حتى كانت إيطاليا فى حالة يرثى لها؛ بسبب الخراب المادى، والانحلال الاجتماعى، والضعف الاقتصادى، وقلة السكان نتيجة للحروب، وانتشار المجاعات، والأوبئة، حتى أخذت قطعان الذئاب تهاجم المدن بعد أن وجدت الريف أمامها مجدبا، وقد لجأ بعض أهالى المدن فى الشمال الشرقى مثل: بادوا، وأكويليا، وغيرهما إلى الفرار عندئذ نحو الأراضى الضحلة الواقعة على قمة البحر الأدرياتى؛ وهى الجهة التى غدت ملاذا للكثيرين منذ غزوات ألرك، وأتيلا، مما يعتبر نواة لنشأة مدينة البندقية(٢٧).

وبعد أن فرغ جستنيان من أمر إيطاليا، أخذ يوجه جهوده نحو استرداد إسبانيا من القوط الغربيين؛ وذلك إتماما لمشروعه الخاص بإعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية. وعلى الرغم من أن دولة القوط الغربيين أضحت فى حالة يرثى لها بعد هزيمة ملكها ألرك الثانى أمام كلوفس سنة ٥٠٨(٢٨)، إلاّ أنه يبدو أن طبيعة البلاد الإسبانية من جهة، وانشغال جستنيان بنواح أخرى من جهة ثانية، وتماسك القوط الغربيين فى وجه هذا الخطر الجديد من جهة ثالثة، كل هذه العوامل حالت دون تمكين جيوش

---

(25) Lot: The end of the Ancient world, pp. 262 - 263.

(26) Hodgkin: Italy and Her Invaders, Vol, 4. pp. 656 - 657.

(27) Thompson: op. cit. 1, p. 130.

(28) Lot & Pfister & Ganshof: op. cit. pp. 169 - 171.

الإمبراطورية من الاستيلاء على إسبانيا استيلاء تامًا، فاكتفت سنة ٥٥٤ بالسيطرة على بعض المدن المهمة فى الركن الجنوبى الشرقى مثل: إشبيلية، ومالقة، وقرطاجنة وقرطبة فضلا عن جزائر البليار(٢٩).

على أن الكوارث التى حلت بالامبرطورية البيزنطية عندئذ فى الشرق أضعفت من بريق انتصارات جستنيان فى الغرب، ذلك أن سياسة هذ الإمبراطور أدت إلى تعريض مصالح الإمبراطورية فى الشرق للخطر بل التضحية بها فى سبيل تحقيق أحلامه الغربية(٣٠). فعلى الرغم من أن بلزاريوس أحرز نصرا على الفرس عند دارا سنة ٥٣٠ إلا أن جستنيان لم يشأ أن يستغل فرصة هذا النصر لملاحقة الفرس، وإنما فضل أن يدفع جزية لكسرى سنة ٥٣٢ لشراء مسالمته وسكوته(٣١). على أن كسرى أنوشروان لم يلبث أن جدد الحرب ضد الإمبراطورية سنة ٥٤٠ واستولى فيما بين هذه السنة وسنة ٥٥٥ على دارا، كما اجتاح بلاد الشام واحتلت جيوشه أنطاكية. كل ذلك وجستنيان يطأطئ الرأس للفرس فى سبيل إتمام مشروعاته الغربية، حتى أنه عاد فاشترى الصلح منهم مرتين الأولى سنة ٥٤٥ والثانية سنة ٥٦١، وكأن المال الذى دفعه جستنيان للفرس كان الثمن الذى اشترى به انتصاراته فى الغرب(٣٢).

وفى تلك الأثناء كان على جستنيان أيضاً أن يعمل لحماية حدود إمبراطوريته فى شبه جزيرة البلقان من أخطار جماعات جديدة من البرابرة مثل: السلاف، والبلغار والآفار(٣٣). والواقع أن سلامة البلقان كانت أكثر أهمية للإمبراطورية الشرقية من استرداد أفريقية، وإيطاليا، وإسبانيا، كما كانت لا تقل أهمية عن حرب الفرس بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية وحماية حدودها، لذلك أقام جستنيان سلسلة من القلاع يبلغ عددها ثمانين، امتدت من مصب الساف حتى الدانوب، كما أقام خطا آخر من التحصينات خلال أبيروس، وتساليا، وتراقيا، ومقدونيا(٣٤). أما فى آسيا فقد حصن

(29) Bury: op. cit. Vol, 2. p. 287.
(30) Vasiliev: op cit. Tome 1, p. 187.
(31) Diehl & Marcais: op. cit. p. 69.
(32) Lot: The end of the Ancient world, p. 270.
(33) Ostrogorshy: op. cit. p. 66.
(34) Bury: op. cit. Vol. 2. pp. 308 - 310.

الحدود من طرابيزون حتى الفرات، كما وحد بعض الأقاليم الشرقية فى آسيا الصغرى توحيداً إدارياً مثل: بونطس Pontus ، وبافلاجونيا Paphlagonia، وأرمينية، وكاباوكيا، وجلاتيا Glatia فأصبحت جميعا خاضعة لحاكم واحد يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية. ومن الواضح أن الغرض من هذا الإجراء؛ كان تحقيق الترابط بين أجزاء آسيا الصغرى من جهة، وضمان الاتصال المباشر مع بلاد الشام من جهة أخرى(٣٥).

على أنه إذا كانت أعمال جستنيان الحربية لم تعش لتخلد اسمه بعد وفاته فإن أعماله السلمية كانت من العظمة والأهمية؛ حيث ضمنت لجستنيان الخلود بين عظماء التاريخ(٣٦)، وعلى رأس هذه الأعمال جميعًا تأتى مجموعة القوانين Corpus Juris التى تمت تحت إشراف جستنيان وبفضل تشجيعه، مما جعلها ترتبط باسمه على مرّ العصور، ذلك أن الإمبراطور جمع نخبة من كبار رجال القانون تحت رئاسة تريبونيان وكلفهم جمع القوانين الرومانية وتبويبها بعد أن أصبحت مهددة بالاندثار والضياع(٣٧). وبعد مرور أربعة عشر شهرا من الجهد المتواصل أصدرت هذه اللجنة سنة ٥٢٩ مجموعة الدساتير الإمبراطورية التى نسبت إلى جستنيان Codex Justinianus ، وهى تشمل جميع الدساتير والمراسيم التى أصدرها الأباطرة فضلا عن تشريعات السناتو(٣٨) . وفى سنة ٥٣٣ صدر موجز يحوى المبادئ الأساسية للتشريع الرومانى حتى يكون مرجعا لطلاب القانون، وبعد ذلك بأيام - فى السنة نفسها - صدرت الموسوعة Digesta التى تقع فى خمسين كتابا ينقسم كل منها إلى فقرات، على رأس كل فقرة بيان يتضمن اسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب والموضوع(٣٩)، أما بقية تشريعات جستنيان الخاصة فكانت تصدر بين حين وآخر تباعا، وأطلق عليها المتجددات Noveliae Constitiones وقد نشرت جميعها باليونانية سنة ٥٦٥(٤٠).

---

(35) Cam, Med. Hist. Vol, 2. pp. 38 - 39.
(36) Fliche: La Chritiente,: p. 50.
(37) Vasiliev: op. cit. Tome, 1, pp. 187 - 189.
(38) Bury: op. cit. Vol. 2. pp. 397 - 398.
(39) Cam. Med. Hist, Vol, 2, pp. 59 - 60.
(40) Eyre: op. cit. pp. 40 - 42.

أما سياسة جستنيان الدينية فقد استهدفت السيطرة على شئون الدولة والكنيسة جميعا، بحيث يصبح جستنيان بمثابة إمبراطور وبابا شرقى فى الوقت نفسه، ويبدو أن جهود جستنيان اتجهت نحو توحيد جميع رعايا العالم الرومانى فى ظل كنيسة واحدة يسيطر هو عليها، ولما كان تحقيق هذه الغاية يتطلب القضاء على الوثنيين والهراقطة قضاء تاما ، فإن جستنيان تمسك بالمراسيم التى أصدرها أسلافه فى هذا الشأن، كما أقصى عن مهنة التدريس كل من يدين بتعاليم الهللينية وفلسفتها(٤١) . وهكذا أغلقت مدارس أثينا الفلسفية ذات الماضى المجيد الذى يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، كما روعى أن يكون الأساتذة فى القسطنطينية وغيرها من أنحاء الإمبراطورية بعيدين عن الشبهات الفكرية، أما اليهود فقد أبعدوا عن جميع مناصب الدولة، ومثلهم كل ممن لم يستطع إثبات صدق عقيدته، فى حين حرم الهراطقة من جميع الحقوق المدنية فضلا عن العقوبات الرادعة التى تعرضوا لها(٤٢) .

على أن جستنيان لم يستطع أن يتخذ موقفا حازما أو سياسة ثابتة من مشكلة المونوفيزيتية؛ وهى المشكلة التى هددت باتساع فجوة الانشقاق الدينى بين روما والقسطنطينية منذ الإمبراطور زينون ثم الإمبراطور أنسطسيوس من بعده، حتى جاء الإمبراطور جستين فعمل على إزالة هذا الشقاق عن طريق العودة إلى مراسيم مجمع خلقدونيا (سنة ٤٥١) وموافقة البابوية على رأيها(٤٣)، وقد أراد جستنيان فى أول الأمر أن يتبع سياسة سلفه جستين فى النزول على رأى البابوية والقول بمذهب الطبيعتين، وبالتالى تسفيه المونوفيزيتية، واضطهاد أتباعها، لا سيما وأن هذه السياسة تتفق مع مطامع جستنيان فى إيطاليا(٤٤)، لكن جستنيان لم يستطع المضى فى هذه السياسة لأن زوجته ثيودورا ـ صاحبة الرأى المسموع لديه ـ كانت تميل إلى المذهب المونوفيزيتى؛ مما جعل الإمبراطور يتأرجح بين المذهبين، وأخيرا أدى انتصار جستنيان فى إيطاليا إلى تشجيعه على اتخاذ رأى حاسم فى الموضوع ـ هو رأى زوجته ثيودورا طبعًا ـ

---

(41) Bury: op. cit. Vol, 2, pp. 364 - 372.
(42) Vasiliev : op. cit. Tome, 1. pp. 197 - 198.
(43) Duchesne: op. cit. pp. 515 - 518.
(44) Diehl & Marcais; op. cit. p. 107.

فاستغل فرصة دخول جيوشه روما، وحاول فرض رأيه على البابوية والغرب(٤٥)، وعندما عارضت البابوية هذا الرأى، قبضت الجنود على البابا فجليوس Vigilus وسيق إلى القسطنطينية حيث عقد المجمع المسكونى الخامس سنة ٥٥٣ بحضور الإمبراطور، وانتهى بإقرار سياسته الدينية(٤٦). ولكن إذا كان جستنيان قد ظن أنه خرج منتصرا من هذه الجولة، فإن الواقع سرعان ما أثبت أنه زاد من حدة الخلاف بين المذهبين، إذ شجع موقفه المونوفيزيتيين على إقامة كنيسة منفصلة لا تزال قائمة حتى اليوم وتعرف باسم الكنيسة اليعقوبية أو كنيسة اليعاقبة نسبة إلى مؤسسها يعقوب برادايوس أسقف الرها فى القرن السادس(٤٧)، أما فى الغرب فإن سياسة جستنيان لم تؤد إلا إلى ازدياد عداء البابوية للإمبراطورية الشرقية، وبالتالى إضعاف نفوذ الأباطرة البيزنطيين فى إيطاليا، الأمر الذى شجع البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) فيما بعد على اتخاذ موقف صلب حازم من الإمبراطورية البيزنطية وسياستها الدينية(٤٨). وقد ظلّ النفور سائدا بين القسطنطينية وروما؛ بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح، حتى استولى المسلمون فى القرن السابع على الشام ومصر؛ وهى المراكز الرئيسية للمذهب المونوفيزيتى، ومن ثم لم يعد الأباطرة البيزنطيون فى حاجة إلى استرضاء أهل الشام ومصر، فعمل الإمبراطور قسطنطين الرابع على استرضاء البابا أجاثون Agathon (٦٧٨ - ٦٨١) حتى تم عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية سنة ٦٨١ أصدر قرارا بإدانة المنوفيزيتية وإعدامها(٤٩).

وقد نشطت تجارة القسطنطينية وصناعتها نشاطا كبيراً على عهد جستنيان حتى نافست الإسكندرية بل تفوقت عليها؛ ذلك أن القسطنطينية غدت فى ذلك العصر من أهم مراكز التجارة بين الشرق والغرب، فكانت ترد إليها من الصين والهند الحراير والأحجار الثمينة، والبخور، والعطور، والتوابل، ومن روسيا الرقيق، والخيل، والفراء،

---

(45) Vasiliev : op. cit. Tome, 1. p. 199.
(46) Vasiliev : op. cit. Tome, 1. pp. 190 - 198.
(47) Stephenson : op. cit. . pp. 111 - 112.
(48) Vasiliev : op. cit. Tome, 1. p. 202.
(49) Lot & Pfister & Ganshof: op. cit. 221.

والجلود، والقمح. هذا فى الوقت الذى استمرت أرض البلقان فى إنتاج خيراتها المعدنية والنباتية كما ساد الرخاء ولايات آسيا الصغرى وازداد سكانها [٥٠]، وكان جستنيان - مثل أسلافه العظام - بناء كبيرا فأكثر من شق الطرق، وبناء الجسور، والقصور، والمستشفيات، والقلاع والمسارح، والحمامات، وعلى رأس هذه المنشآت جميعا تأتى كنيسة آيا صوفيا بفنها الرائع وقبتها الفريدة، مما جعلها من أعظم التحف الفنية الخالدة التى خلفتها العصور الوسطى[٥١].

الإمبراطورية البيزنطية بعد جستنيان:

على أننا إذ تركنا المظاهر السطحية البراقة لذلك العصر، ألفينا أن شعب جستنيان قاسى الكثير من البؤس، والضغط نتيجة لسياسته، ذلك أن حروب هذا الإمبراطور الواسعة ومشروعاته الضخمة أجهدت خزانة الدولة وتطلبت زيادة الضرائب، حيث إننا لا نبالغ عندما نقرر أن جستنيان ترك الإمبراطورية أشد إنهاكا مما وجدها عليه[٥٢]، هذا فضلا عن أن البناء الإمبراطورى الذى أجهد جستنيان نفسه فى إقامته سرعان ما أخذ يتداعى، فلم تمض على وفاته ثلاث سنوات إلاّ وكان اللمبارديون قد دخلوا إيطاليا، فى حين طرد القوط الغربيون القوات الإمبراطورية من إسبانيا[٥٣] وقد ظهرت أعراض الإنهاك الشديد واضحة على الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة جستنيان مباشرة سنة ٥٦٥ إذ أخذت تتدهور تدهورا سريعا فى الوقت الذى تجددت إغارات أعدائها فى عهد جستين الثانى (٥٦٥ – ٥٧٨) وطبريوس (٥٧٨ – ٥٨٢) وموريس (٥٨٢ – ٦٠٢) وفوقاس (٦٠٢ – ٦١٠).

وأول من يستحق الذكر من هؤلاء الأباطرة هو الإمبراطور موريس الذى ركز خطته السياسية فى إقرار السلام مع الفرس وتكريس كل موارد الدولة للاحتفاظ بالبلقان، وآسيا الصغرى، حتى لو أدى به الأمر إلى التضحية بإيطاليا[٥٤]. ولهذا

(50) Ostrogorsky: op. cit. pp. 68 - 69.
(51) Fliche: LA Chretiente Med. p. 58.
(52) Diehl & Marcis: op. cit. p. 56.
(53) Painter: op. cit. p. 34.
(54) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 137.

الغرض عقد موريس اتفاقية مع الفرس سنة ٥٩٢، قضت بضم أرمينية، وجزء من أعالي بلاد النهرين، ومدينة دارا إلى الإمبراطورية التي تعهدت بدفع جزية سنوية للفرس(٥٥)، على أنه إذا كانت الإمبراطورية قد استطاعت وقف خطر الفرس مؤقتا، إلا أن تفكك إمبراطورية المغول في القرن الخامس سرعان ما فتح الطريق أمام شعب آسيوي جديد هم: الآفار الذين ظلوا حتى ذلك الوقت يرابطون فيما بين الدون، والفولجا، وفي الوقت الذي كان موريس مشغولا بحروبه المستمرة ضد الفرس التي استمرت حتى سنة ٥٩٢، إذا بالسلاف والآفار يستغلون الفرصة ويتوغلون داخل تراقيا، ومقدونيا(٥٦)، لذلك لم يكد موريس يفرغ من عقد الصلح مع الفرس في تلك السنة السابقة، حتى نقل كل قواته إلى جبهة الدانوب ضد الآفار(٥٧)، وقد أحرز موريس نجاحا كبيرا في أول الأمر، إذ سيطرت جيوشه سنة ٦٠٢ على جبهة الدانوب بل تقدمت إلى ما وراء هذا النهر. وهنا أصدر الإمبراطور أوامره بأن تقضي جيوشه فصل الشتاء على الحدود الشمالية بدلا من العودة إلى العاصمة، الأمر الذي أدى إلى ثورة الجند فزحفوا على العاصمة وأسقطوا الحكومة وقتلوا الإمبراطور موريس نفسه، في حين أعلن فوقاس - زعيم الانقلاب - نفسه إمبراطورا(٥٨).

ولكن يبدو أن هذا الانقلاب كان وخيم العواقب بالنسبة للإمبراطورية، لأن الإمبراطور الجديد أخفق في الحصول على رضاء الرأي العام، في الوقت الذي ظهر عجزه عن حماية حدود الإمبراطورية، ولم يكد فوقاس يعتلي العرش حتى عجل الفرس بشن الحرب من جديد فاستولوا على دارا واخترقوا آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى خلقدونيا على البسفور فحاصروها، هذا في الوقت الذي اشتدّ ضغط الآفار على الجبهة البلقانية(٥٩). وكان فوقاس أضعف من أن يواجه الموقف في شجاعة، فلجأ سنة ٦٠٤، إلى شراء مسالمة الآفار عن طريق رفع قيمة الجزية التي تدفعها لهم الإمبراطورية ولكن هذه المحاولة لم توقف تيار الآفار والسلاف فاجتاحوا شبه جزيرة

---

(55) Vasiliev: op. cit. Tome, 1. p. 223.
(56) Diehl & Marcais: op. cit. pp. 130 - 133.
(57) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 280.
(58) Stephenson: op. cit. pp. 115 - 116.
(59) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 285.

البلقان بأكملها حتى بدت الإمبراطورية على شفا هاوية سحيقة[٦٠]، وفى هذا الموقف أخذ فوقاس يتشكك فى كل من حوله بالقسطنطينية فبدأ موجة من الإرهاب وسفك الدماء جعلت كل أحد من أشد المقربين إليه لا يأمن عاقبة غدره. وفى وسط هذا الجو المشحون بالأخطار الخارجية، والمخاوف الداخلية، تخلى خيرة قادة الجيش البيزنطى عن العمل فى خدمة ذلك الإمبراطور الضعيف، بل إن بعضهم اتصل سراً بالفرس طالبين معونتهم للإطاحة بهذا الطاغية المتعطش للدماء، وكان أن انتهى الأمر بتدبير مؤامرة داخلية بالاتفاق مع هرقل حاكم قرطاجة الذى أرسل ابنه - المسمى هرقل أيضاً - فأتى بسفنه ورجاله إلى القسطنطينية سنة ٦١٠ حيث تم الانقلاب دون حرب، فعزل فوقاس، وقتل بأيدى وزرائه فى اليوم نفسه الذى اعتلى فيه هرقل عرش الإمبراطورية[٦١].

هرقل (٦١٠ - ٦٤١):

على أن هرقل تولى حكم الإمبراطورية فى تلك الظروف ليجد نفسه فى مركز لايحسد عليه حاكم : فالخزانة خاوية، وولايات الإمبراطورية تعانى إنهاكا شديدا وفوضى شاملة، وخطر الفرس على الإمبراطورية لايزال قائما بل ازداد وضوحا وعنفا عندما اجتاح الفرس بلاد الشام سنة ٦١٤ واستولوا على بيت المقدس ثم على مصر بعد ذلك بعامين[٦٢]. وهكذا أتى على الإمبراطورية البيزنطية حين من الدهر فقدت جميع أراضيها الآسيوية ما عدا شريطا ضيقا فى غرب آسيا الصغرى، فضلاً عن ضياع مصر؛ وهى المخزن الرئيسى الذى كان يمد الإمبراطورية بالقمح حينذاك، أما فى الجبهة الغربية فقد تقدم الآفار جنوبى الدانوب حتى وصلوا بلاد اليونان نفسها، بحيث لم يبق للإمبراطورية سوى القسطنطينية، وجزر بحر إيجة، وجنوب إيطاليا، وولاية شمال أفريقية حول قرطاجة، فضلا عن جزء محدود من آسيا الصغرى[٦٣].

ولكن هرقل لم يشأ أن يستسلم لهذه الظروف القاسية وإنما قضى اثنتى عشرة سنة

---

(60) Ostrogorsky: op. cit. p. 78.
(61) Stephenson: op. cit. p. 116.
(62) Diehi & Marcais: op. cit. pp. 143 - 144.
(63) Oman: The Dark Ages. pp. 204- 205.

فى تنظيم الأداة الحكومية، ومراقبة حركات أعدائه، وفى تلك الأثناء حصل على المال اللازم من الكنيسة التى أظهرت شعورا طيبا وتضامنا قويا، فقدمت للإمبراطور ما لديها من حلى وذهب لتصهر وتسك نقودا، وعندئذ تيسر لهرقل استئجار الجند اللازمين، كما أمن ظهره من جانب الآفار فاشترى مسالمتهم مقابل مبلغ كبير من المال(٦٤)، وأخيراً أبحر هرقل فى ربيع سنة ٦٢٢ إلى خليج آسوس - عند الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى - حيث أنزل هزيمة بالفرس واستعاد منهم كابادوكيا، وأرمينية، كما أجبرهم على الانسحاب من آسيا الصغرى(٦٥)، ولم تمض ثلاث سنوات أخرى حتى كان هرقل قد اضطر الفرس إلى الجلاء أيضًا عن بلاد الشام ومصر وإعادة هذه البلاد إلى حظيرة الدولة. ويبدو أن حروب هرقل ضد الفرس فى تلك المرحلة اتخذت طابعا دينيا صليبيا، إذ أقبل كثير من المسيحيين المخلصين على المشاركة فيها؛ من أجل استرداد الصليب الأعظم أو صليب الصلبوت الذى استولى عليه الفرس عند غزوهم بيت المقدس(٦٦)، ومهما يكن الأمر فإن هذه العوامل مكنت هرقل من إنزال ضربة قاصمة بالفرس، فتقدم سنة ٦٢٦ عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب الإمبراطورية الفارسية حيث أنزل بكسرى الثانى (٥٩٠ – ٦٢٨) هزيمة ساحقة فى ديسمبر سنة ٦٢٧ قرب أطلال نينوى، وعندما فرَّ كسرى الثانى من ميدان المعركة لحق به هرقل إلى المدائن عاصمة الفرس، حتى انتهى الأمر بقيام ثورة فى فارس أطاحت بكسرى الثانى وجعلت خليفته يعقد صلحا مع الإمبراطور البيزنطى(٦٧)، وبمقتضى هذا الصلح وافق الفرس على إخلاء جميع الأراضى التى انتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية، ورد صليب الصلبوت وإطلاق سراح الأسرى،

---

(64) Vaslilev: op. cit. Tome. 1, p. 260.

(65) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 293.

(٦٦) تروى الأساطير أن القديسة هلينا - أم قسطنطين - اكتشفت فى بيت المقدس الصليب الأعظم أو الحقيقى Vraie Croix الذى صلب عليه السيد المسيح، وعلى الرغم من أن بعض أجزاء هذا الصليب نقلت إلى روما والقسطنطينية من باب التبرك، إلا أن الجزء الرئيسى منه ظل فى بيت المقدس، وهو الذى استولى عليه الفرس واسترده هرقل.

انظر: Vasiliev: op. cit. Tome. 1. p. 66.

(67) Ostrogorsky: op. cit.p. 92 - 93.

على أن تعود الحدود بين الدولتين كما كانت فى عهد موريس[٦٨]، على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك، إذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية حتى تعاقب على عرش فارس فى التسع سنوات التالية أربعة عشر حاكما، مما مزق أوصال دولة الفرس وجعلها مسرحا للفتن الداخلية، وفى ذلك الوقت تعرضت الدولة الفارسية لخطر خارجى جديد غير خطر الروم؛ هو خطر العرب المسلمين الذين أجهزوا على بنى ساسان فى موقعة نهاوند سنة ٦٤١ وبذلك دالت دولة الفرس المستقلة لتصبح جزءاً من الدولة العربية الإسلامية[٦٩].

أما فى البلقان فقد حدث فى تلك الأثناء أنْ أوغلت جماعات من الصرب والكرواتيين فى تراقيا، ومقدونا تحت تأثير ضغط الآفار[٧٠]، ولم يقف أثر هذه الموجة عند توغل هؤلاء الأعداء فى اليريا، واليونان، والمورة، وإنما أصبح مصير الإمبراطورية البيزنطية كلها معلقا فى كفة القدر عندما حاصروا القسطنطينية سنة ٦٢٦[٧١]. وهكذا ساد الاضطراب فى الإمبراطورية البيزنطية منذ وفاة هرقل سنة ٦٤١ حتى نهاية أسرته سنة ٧١٧. وفى خلال هذه المدة بذلت الإمبراطورية جهودا يائسة لوقف الخطر الجديد الذى واجهها من جانب العرب، ولكن هذه الجهود لم تنجح فى وقف حركة التوسع الإسلامية على حساب الروم، وسرعان ما استولى العرب على الشام ومصر ثم على قبرص (٦٤٨ – ٦٤٩)، ورودس (٦٥٣) بل هاجموا القسطنطينية نفسها سنة ٦٦٧ ثم سنة ٦٧٢ – ٦٧٣، فى حين انتهوا من غزو شمال أفريقية بأكمله سنة ٧٠٩[٧٢]. وبالإضافة إلى الكوارث التى نزلت تترى على الإمبراطورية البيزنطية، نشبت اضطرابات فى أطراف البلقان أثارتها العناصر السلافية، هذا فضلا عن ظهور عنصر جديد من البرابرة الآسيويين الذين يرجعون إلى أصل فنى، وهم البلغار الذين تركوا مقرهم على الفولجا وعبروا الدانوب سنة ٦٧٩

(68) Diehi & Marcais: op. Cit. p. 150.
(69) Ostrogorsky: op. cit pp. 95 - 96.
(70) Idem: p. 94.
(71) Diehi & Marcais: op. cut. pp. 151 - 152.
(72) Painter: op. cit. p. 44 & Orton: op. cit. pp. 80 - 81.

ليتوغلوا فى أراضى الدولة البيزنطية فى البلقان(٧٣).

وإذا كان عهد هرقل يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ السياسى للإمبراطورية البيزنطية، فإن هذا العهد لا يقل أهمية فى الميدان الحضارى، فهذا العهد يمثل البداية الحقيقية للعصر البيزنطى، بعد أن تخلت الإمبراطورية عن التعلق بأهداف الحضارة الغربية، واللغة اللاتينية وأخذت تتحول تدريجيًا نحو الطابع اليونانى البحت، وقد جاء وقت على الإمبراطورية الشرقية عاشت فيه اللغتان جنبا إلى جنب، فاللاتينية استخدمت لغة رسمية فى دوائر الحكومة، واليونانية غدت لغة شعبية وأداة التفاهم بين لغة الناس والكنيسة؛ لذلك وضع هرقل حدا لهذه الأوضاع وجعل اليونانية لغة الدولة الرسمية، مما ظهر أثره فى إنعاش الحضارة الهللينية، وأمام تأثير هذا التيار تخلى هرقل عن الألقاب اللاتينية المعقدة التى تمسك بها أسلافه واستخدم لقب باسيلوس Basileus اليونانى بمعنى ملك، وهو اللقب الذى استعمله من بعده أباطرة الدولة البيزنطية، والذى حلَّ محل ألقاب الرومان مثل: إمبراطور Imperator، وقيصر Ceasar، وأوغسطس Augustus .

ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١) :

وفى وسط الفوضى والأخطار الداخلية والخارجية التى أحدقت بالدولة الشرقية عقب وفاة هرقل سنة ٦٤١، وجدت الإمبراطورية حاكما رشيدا شجاعا فى شخص الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١). ويرجع أصل هذا الإمبراطور - كما يتضح من لقبه - إلى إقليم أيسورى عند طوروس فى الطرف الشرقى لآسيا الصغرى، ثم انتقل إلى تراقيا فالتحق بالجيش البيزنطى حيث ظهرت مواهبه وشجاعته فضلا عن مقدرته على التنظيم(٧٥)، وقد حدث فى السنة نفسها التى اعتلى فيها ليو الأيسورى عرش الإمبراطورية أن أرسل الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك جيشا يبلغ ثمانين ألفا، يسانده أسطول من ألف وثمانمائة سفينة للاستيلاء على مدينة

---

(73) Ostrogorsky: op. cit. pp. 112 - 114.

هذا، وقد قيل أيضاً فى أصل البلغار إنهم حصيلة اختلاط جنسى بين الترك والسلاف أو الصقالبة.

(74) Idem, pp. 95 - 96.

(75) Diehl: Hist. of the Byzantine Empire, pp. 52 - 53.

القسطنطينية، فحاصرها المسلمون بقيادة مسلمة بن عبد الملك لمدة سنة كاملة ارتدوا بعدها سنة ٧١٨ دون أن يحققوا غرضهم بفضل مهارة ليو الأيسورى التى حالت دون إحكام الحصار الإسلامى حول القسطنطينية، فظلت العاصمة تتلقى الإمدادات من إقليم البحر الأسود(٧٦)، ويعتبر صمود ليو الثالث فى وجه المسلمين أمرا على جانب كبير من الأهمية نظرا لضخامة الحملة الإسلامية وقوتها من جهة، ولقرب القسطنطينية من قلب العالم الإسلامى من جهة أخرى، مما أنذر بتغيير وجه شرق أوربا بأكمله فى حالة استيلاء المسلمين على هذه القلعة المنيعه(٧٧) وهنا ينبغى أن نذكر أن شرق أوربا كانت تسوده فى تلك الفترة عناصر وثنية كالآفار، والسلاف، والبلغار، وهى بحكم وثنيتها كان من المحتمل جدا أن تتأثر بالديانة الإسلامية إذا سقطت القسطنطينية فى أيدى المسلمين، وفى هذه الحالة يمكن أن نتصور مدى التغيير الذى كان يعترى التطور التاريخى لشرق أوربا(٧٨).

وبعد أن فرغ ليو الثالث من أمر المسلمين أُتيحت له فرصة قصيرة لتنظيم قواته، ثم استأنف القتال من جديد لحماية الإمبراطورية فأخضع ثورة فى صقلية سنة ٧١٨، كما رد هجوما للبلغار على البلقان سنة ٧٢٠، وهجوما رابعا قام به المسلمون على القسطنطينية سنة ٧٢٦، وأخيرا اختتم ليو الثالث سلسلة انتصاراته الحربية بإنزال هزيمة برية بالجيوش الإسلامية التى حاولت غزو آسيا الصغرى سنة ٧٤١، وقد ساعدت ليو الأيسورى على تحقيق هذا الانتصار المساعدة الكبيرة التى تلقاها من مملكة الخزر، وهى المملكة التى ارتبطت حينئذ بالدولة البيزنطية لمواجهة الخطر المشترك من جانب المسلمين، الأمر الذى أثار فى وجههم عقبات جمة وخاصة فى القوقاز، وأرمينية، وليس أدلّ على قوة الارتباط بين الإمبراطورية البيزنطية ومملكة الخزر عندئذ من زواج قسطنطين ابن ليو الثالث ووريثه فى العرش من ابنة خان الخزر سنة ٧٣٣(٧٩).

---

(76) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 313 - 314.

(77) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 142.

(78) Oman: The Dark, Ages, pp. 303 - 304.

(79) Ostrogorsky: op. cit. p. 129.

ولم تكن إصلاحات ليو الثالث المدنية أقل أهمية من جهوده الحربية؛ ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية كانت فى حاجة شديدة إلى كثير من الإصلاحات الداخلية بعد عوامل الضعف والانحلال التى تعرضت لها منذ منتصف القرن السادس، وبعد حروب جستنيان التى استنفدت إمكانات الإمبراطورية، فضلا عن إغارات الفرس والعرب، والبلغار، والسلاف وما ترتب عليها من اختلال الحياة الاقتصادية[٨٠]، لذلك قام ليو الثالث بحركة إصلاحية واسعة النطاق، فأعاد تنظيم الجيش وأدخل كثيرا من التحسينات الإدارية، ونظم الشئون المالية والضرائب، كما أصلح بعض النظم الكنسية، وحد من نفوذ كبار ملاك الأراضى، هذا كله عدا عنايته بترقية الزراعة، والتجارة، والصناعة[٨١]، أمّا فى ميدان التشريع فقد أصدر ليو الثالث سنة ٧٢٦ مرجعا قانونيا يعرف باسم الإكلوجا Ecloga (المختار) ويعتبر هذا المرجع على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ القانون البيزنطى؛ لأنه يشتمل على مختارات من أهم قواعد القانون المدنى، والجنائى مع العناية بالنواحى المتعلقة بالأسرة، والميراث، والملكية، وكان الغرض من إصدار هذا الكتاب؛ إمداد القضاة بمرجع واف مركز يغنيهم عن بقية المراجع المطولة التى كان من الصعب الرجوع إليها [٨٢]، على أن هناك مشكلة دينية كبرى ظهرت فى ذلك العصر واستمر أثرها طوال عدة قرون فى تاريخ غرب أوربا فضلا عن شرقها، أما هذه المشكلة فقد قامت حول عبادة الصور والأيقونات، إذ ظهر رأى ينادى بتحريم هذه العبادة بعد أن انتشرت وشاعت، حتى أخذ المسلمون ـ بسببها ـ يعيبون على المسيحيين أنهم يعبدون الأصنام، فى حين رأى المؤيدون أن عبادة الصور الدينية أمر طبيعى يقتضيه احترام صاحب الصورة[٨٣]، على أنه يبدو أن عبادة الأيقونات جاءت مصحوبة بكثير من البدع، والخرافات، الأمر الذى استنكره المثقفون فى الإمبراطورية، ومن بينهم ليو الثالث نفسه الذى انحدر من أسرة على قسط من الثراء، كما كان على جانب من الثقافة مكنه من تفهم حقيقة الوضع[٨٤]،

(80) Oman: The Dark Ages, pp. 504 - 507.

(81) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 3 - 4.

(82) Ostrogorsky: op. cit. p. 141.

(83) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 6.

(84) Diehl & Marcais: op. cot. pp. 259 - 263.

وهنا نلاحظ أمرين: أولهما أن عبادة الصور والأيقونات لم تكن بالأمر الجديد فى المسيحية، وإنما ترجع بدايتها إلى القرن الرابع نفسه؛ أى إلى العصر الذى تمّ فيه الاعتراف بالمسيحية رسميًّا، وحينذاك بدأ تزيين الكنائس بالصور والتماثيل الدينية وبدأت هذه الأيقونات تحتل مكانة خاصة فى قلوب كثير من أتباع الكنيسة، وثانيهما أن الاعتراض على عبادة الأيقونات لم يكن وليد القرن الثامن وإنما امتدت جذوره إلى ما قبل ذلك بكثير عندما استاء بعض المسيحيين المخلصين من تصوير الإنسان بالفسيفساء أو النقوش الجصية البارزة (الفرسكو) أو نحتها فى الحجر، واعتبروا ذلك ضربا من الوثنية، حتى أن مجمع الوير Elvre فى إسبانيا نادى فى أوائل القرن السادس بتحريم وضع الصور والتماثيل فى الكنائس(٨٥) .

ومهما يكن الأمر فإنه يبدو أن عبادة الأيقونات انتشرت انتشارا واسعا فى القرن الثامن، مما تطلب من الإمبراطور ليو الأيسورى علاجا سريعا لهذه المشكلة، وهناك رأى يقول إن الإمبراطور ليو استغل هذه المشكلة فى القضاء على نفوذ الأديرة اليونانية، بعد أن تضخمت ثروتها، وتضاعفت ممتلكاتها المعفاة من الضرائب، وازدادت حقوقها وامتيازاتها ومسموحاتها، مما جعلها خطرا كبيرا على الدولة(٨٦)، ولمّا كان الرهبان من أشد المنتفعين من عبادة الأيقونات فإنهم عارضوا الإمبراطور فى تحريمها، وأخذوا يبذرون بذور الفتنة والشقاق فى كل مكان، ووجدوا مؤيدين كثيرين لهم فى كل جهة وخاصة بين كبار النبلاء الذين تطلبت مصالحهم الخاصة معارضة الإمبراطور والوقوف فى وجهه، وهكذا انقسم الناس - داخل الكنيسة وخارجها - إلى معسكرين: أيقونيين ولا أيقونيين(٨٧) .

والغريب أن الحرب على الأيقونية بدأت فى الدولة الإسلامية عندما أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك أمرا سنة ٧٢٣ بإزالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية(٨٨)، ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى الدولة البيزنطية فبدأ

---

(85) Vasiliev: op. cit. Tome, 1. pp. 337 - 338.

(86) Thompson: op. cit. Vol 1, p. 144.

(87) Cam. Med. Hist. Vol, 4. p. 10.

(88) Ostrogorsky: op. cit. p. 143.

الإمبراطور ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٧٢٦ أى بعد مرور تسع سنوات على تخليصه القسطنطينية من حصار المسلمين، وعندئذ وجد الإمبراطور تشجيعا قوياً وتأييدا لسياسته اللاأيقونية من بعض كبار موظفى الدولة المدنيين، والعسكريين فضلا عن المثقفين من رجال الدين، ولم تلبث جموع الجند أن سايرت الإمبراطور فى سياسته، كما شايعت هذه السياسة الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية، وهنا لا نستطيع أن نجد تفسيرا لقوة الحركة اللاأيقونية فى الشرق عنها فى الغرب إلاّ فى أثر العقيدة الإسلامية التى قاومت الأصنام وعبادتها، فضلا عن تأثير اليهود الذين حرموا عبادة الصور وتقديسها(٨٩)، أما المعارضون لسياسة الإمبراطور الدينية فكان على رأسهم الديريون الذين وجدوا فى عبادة الأيقونات مصلحة خاصة لهم، كما تمسكت بهذه العبادة الطبقات الدنيا من الناس؛ نتيجة لجهل أفرادها، وانتشار البدع، والمعتقدات الباطلة(٩٠) وإذا كانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الرومانية قد أظهرت تأييداً للاتجاه اللاأيقونى، فإن الأجزاء الغربية - وخاصة إيطاليا والبابوية - عارضت الإمبراطور ليو معارضة شديدة وتمسكت بسياستها الأيقونية(٩١).

وكان المرسوم الذى أصدره ليو الثالث سنة ٧٢٦ بتحريم عبادة الأيقونات حازما وشديدا، إذ قضى بإزالة جميع التماثيل، والصور الدينية من الكنائس والأديرة، وبدأ رجال الإمبراطورية فعلا فى إزالة الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية، الأمر الذى أثار عامة الناس . ولكن الإمبراطور أخضع ثورتهم فى سهولة، ولم تلبث هذه الأعمال أن استفزت رجال الكنيسة لاسيما فى الغرب، حيث وقف البابا جريجورى الثانى ثم البابا جريجورى الثالث موقفا عنيدا من سياسة الإمبراطور اللاأيقونية، حتى أصدر البابا جريجورى الثالث قرار الحرمان ضد الإمبراطور سنة ٧٣١(٩٢)، على أن هذا القرار لم ينه المشكلة إذ استمر الخلاف عدة قرون حتى انتهى بفوز الأيقونية وأنصارها، على الرغم من الانتصارات المؤقتة التى أحرزها ليو الثالث.

---

(89) Vasiliev: op. cit. Tom 1. p. 338.

(90) Oman: The Dark Ages pp. 309 - 310.

(91) Eyre: op. cit. p. 82.

(92) Thompson: op. cit. Vol, 1. p.. 144.

ويهمنا في هذا المقام أن النزاع اللاأيقوني كان له أثره الخطير بالنسبة لإيطاليا والبابوية وعلاقتهما بالدولة البيزنطية، ذلك أن أواسط إيطاليا، وروما، ورافنا وقفت جميعا إلى جانب البابوية في المعسكر الأيقوني ، في حين كانت صقلية وجنوب إيطاليا في جانب الإمبراطور اللاأيقوني[٩٣] . وقد ردّ الإمبراطور ليو الثالث على قرار البابا بحرمانه من الكنيسة بأن حرم البابوية من حقوقها وأملاكها في صقلية وجنوب إيطاليا، وفصل الكراسي الأسقفية في هذه الجهات عن سلطان البابا الديني والقضائي وجعلها تحت سلطان بطريق القسطنطينية[٩٤] . وهكذا جاء النزاع اللاأيقوني ليزيد من حدة الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، مما كان له أثر واضح في مستقبل الحوادث التاريخية[٩٥] ، أما من الناحية السياسية فقد ساعدت هذه الخلافات على أن تجعل البابا حاكما إيطاليًا لا يدين بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية، وهنا أخذت البابوية تبحث عن قبلة أخرى تتجه نحوها ،لطلب المعونة السياسية، والحربية ضد اللمبارديين حتى وجدت ضالتها أخيرا في دولة الفرنجة بغاليا[٩٦]، أما إيطاليا نفسها فقد غدت مقسمة سياسياً، وحضارياً إلى ثلاثة أقسام فالوسط لاتيني يظهر فيه نفوذ البابا، والجنوب يوناني يتبع الإمبراطور البيزنطي، والشمال جرمان يخضع للومبارديين، وقد زاد من صبغة جنوب إيطاليا وصقلية بالطابع اليوناني في السنوات التالية ما حدث من هجرة آلاف الملاك، والرهبان، والقساوسة فضلا عن عامة الناس من البلقان إلى صقلية وجنوب إيطاليا، تحت ضغط السلاف والبلغار[٩٧] .

قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) :

وعلى الرغم مما كانت عليه الدولة البيزنطية عند وفاة ليو الثالث سنة ٧٤١ من انقسام بسبب النزاع السياسي والديني في الداخل، والأخطار الناجمة عن غزو البرابرة والعرب لأراضيها في الخارج، إلاّ أنها استمرت تقوم بدورها كاملا على مسرح

(93) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 10.
(94) Diehl & Marcais: op. cit. p. 267.
(95) Lot: The End of the Ancient Wlrld. p. 301.
(96) Cam. Med, Hist. Vol 2, pp. 691 - 695.
(97) Thompson: op. cit. Vol, 1, pp. 144 - 155.

التاريخ، ولا غرابة في ذلك ، فإن أهم ما امتازت به الإمبراطورية البيزنطية في تاريخها الطويل كان ـ كما سبق أن أشرنا ـ احتفاظها بطابع الحيوية والاستمرار.

وقد خلف ليو الثالث قسطنطين الخامس (٧٤١ – ٧٧٥) الذى ورث عن أبيه نشاطه ومثابرته، وإن اختلف عنه في تطرفه، وحبه لمظاهر الترف والمرح. وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي ورثها قسطنطين الخامس عن والده هي الخلاف بين الأيقونيين واللاأيقونيين؛ وهو الخلاف الذى دفع الفريق الأول إلى المناداة بسقوط قسطنطين الخامس، وإشعال نار الثورة في البلقان . ولكن الإمبراطور اعتمد على مقدرته من جهة، وعلى مساعدة الأقاليم الآسيوية من جهة أخرى، حتى استطاع إخماد هذه الثورة سنة ٧٤٢ . ويبدو أن موقف قسطنطين الحازم من الأيقونيين، وما اتصف به هذا الموقف من عنف وصرامة، جعلهم لايفكرون في إشعال نار الفتنة مرة أخرى طوال حكمه الذى امتد سنوات عديدة[٩٨]. وعندما وجد الإمبراطور أن طريقة العنف وحدها غير كافية لتحقيق سياسته اللاأيقونية، وأن كثيرا من الناس استمروا يباشرون عبادة الصور، والأيقونات الدينية سرا، لجأ إلى عقد مجمع ديني في القسطنطينية سنة ٧٥٣ – ٧٥٤ لتبرير سياسته[٩٩]، على أن هذا المجمع لم يكن مسكونيا إلاّ من الناحية الاسمية فقط؛ لأن البابوية ردت على الدعوة لحضور هذا المجمع بإنزال اللعنة على كل من يحضره، في حين اعتذر عن حضوره بطارقة أنطاكية، وبيت المقدس والإسكندرية، الذين كانوا في حماية المسلمين، وبذلك لم يحضر المجمع سوى نحو ثلاثمائة وأربعين أسقفا برئاسة بطريرق القسطنطينية[١٠٠]، وكان أن قرر هذا المجمع تحريم تصوير المسيح في أي شكل من الأشكال لأن هذه الصور والتماثيل تعبر عن طبيعته الإنسانية والإلهية في طابع بشرى مجسد وبذلك تطمس صفته الإلهية، أما صور القديسين فقد حرم المجمع عبادتها هي الأخرى بدعوى أن هذه العبادة ضرب من الوثنية، وعبادة البشر[١٠١]. وهكذا اتخذ قسطنطين

(98) Ostrogorsky: op. cit. pp. 147 - 148.

(99) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 13 - 14.

(100) Diehl & Marcais: op. cit. p. 271.

(101) Vasiliev: op. cit .Tom 1. p. 345.

من قرارات مجمع القسطنطينية سلاحًا قوياً ساعده على التطرف فى اضطهاد الأيقونيين، والتنكيل بالديريين بوصفهم أشد أنصار الأيقونية، بل أنه عمل على هدم الحياة الديرية فى بلاده بمختلف الطرق والوسائل، وإن لم يتمكن من تحقيق هدفه(١٠٢).

أما فى الميدان الخارجى فإن عهد قسطنطين الخامس البالغ قرابة خمس وثلاثين سنة كان عهد نشاط حربى كبير، توجته سلسلة من الانتصارات التى أحرزها الإمبراطور على أعداء بلاده فى الشرق والغرب، ذلك أنه استغل ما كان هناك من خلافات داخل الدولة الأموية واسترد سنة ٧٤٦ بعض الجهات الواقعة على أطراف آسيا الصغرى وأعالى النهرين من المسلمين، كما صدَّ سنة ٧٤٨ هجوما إسلاميا وقع على جزيرة قبرص استولى على ملطية عند أعالى الفرات سنة ٧٥١ – ٧٥٢ لمدة قصيرة، ولم يكن قسطنطين الخامس أقل حماسة فى الدفاع عن ولايات البلقان ضد البلغار، فأصلح الحصون الواقعة على الحدود، وحصن القلاع المطلة على ممرات البلقان(١٠٣)، وهكذا استطاعت الإمبراطورية الصمود فى وجه البلغار عندما هاجموها سنة ٧٥٥ فقاومت سالونيكا الحصار بعناء حتى تمكن الإمبراطور من إنزال الهزيمة بهم فى ستريمون، وعندئذ أسكن بضعة آلاف من البلغار فى بيثنيا. وقد قام قسطنطين الخامس بعدة حملات بعد ذلك (٧٥٩ – ٧٧٥) أدب فيها البلغار وأوغل داخل أراضيهم(١٠٤).

ويبدو أن الانتصارات الخارجية التى أحرزها قسطنطين مكنته من القيام بعدة إصلاحات داخلية أدت إلى إنعاش أحوال الإمبراطورية(١٠٥). من ذلك أنه أقام عدة مستوطنات فى الأراضى البور الواقعة على الحدود الغربية للإمبراطورية، وأنزل فيها المسيحيين المهاجرين من أرمينية وتراقيا، وذلك لطبع تلك الجهات بالطابع الهلينى. هذا إلى أن الزراعة تقدمت فى عهده، كما نشطت التجارة بعد أن أمنَّ الطرق وقضى

(102) Oman: The Dark Ages. pp. 313 - 315.
(103) Ostrogorsky: op. cit. p. 149.
(104) Idem: pp. 149 - 151.
(105) Diehl & Marcais: op. cit. p. 259.

على قطاعها. أما القسطنطينية فقد اهتم بها وعمل على تزويدها بالمياه العذبة اللازمة، وإمدادها بالسكان الكافين؛ لتعميرها بعد أن أدى انتشار الوباء فيها (٧٤٦ – ٧٤٧) إلى موت بضعة آلاف من سكانها، وأخيرا مات قسطنطين الخامس ٧٧٥ وهو فى السابعة والخمسين من عمره، تاركا خلفه دولة منظمة، وجيشًا يدين بالولاء للإمبراطورية، وخزانة عامرة بالمال[١٠٦].

نهاية البيت الأيسورى:

خلف قسطنطين الخامس أكبر أبنائه ليو الرابع الشهير فى التاريخ باسم ليو الخزرى؛ لأن أمه كانت ابنة ملك الخزر كما تقدم. وإذا كان ليو الرابع قد أظهر شيئا من التسامح تجاه الأيقونيين فى بداية عهده، إلاّ أنه لم يلبث أن تحول إلى سياسة أبيه عندما وجد أنهم رفعوا رؤوسهم ليعاكسوا الدولة من جديد[١٠٧]، كذلك هاجم ليو الرابع المسلمين شرقى الأناضول سنة ٧٧٨، فردّ عليه الخليفة المهدى العباسى بمهاجمة أراضى البيزنطيين فى العالم التالى، على أن ليو الرابع لم يلبث أن توفى سنة ٧٨٠ بعد حكم قصير لم يتجاوز خمس سنوات (٧٧٥ – ٧٨٠)، والواقع أن هذه الوفاة المبكرة لم يكن لها من أهمية سوى أنها جعلت السلطة الفعلية فى الدولة البيزنطية تنتقل إلى أيدى أرملته إيرين، التى قامت بالوصاية عدة سنوات على ابنها الصغير قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧) والتى أثبتت أنها من أمهر النساء الشهيرات فى التاريخ وأكثرهن عنفا وميلا للشر[١٠٨].

ذلك أنها تخلت عن الإصلاحات اللاأيقونية التى تبناها الأباطرة الأيسوريون فى الستين سنة السابقة ولم تلبث بمجرد أن آلت إليها مصائر الأمور أن أعلنت الحقيقة التى أخفتها عن زوجها فى حياته؛ وهى أنها من أشد أنصار الأيقونية، وقد بدأت إيرين وصايتها بإخماد مؤامرة حاول القيام بها أنصار الإصلاح من اللاأيقونيين، كما عينت فى منصب بطريرق القسطنطينية طرسيوس؛ وهو أحد دعاة الأيقونية

---

(106) Oman : The Dark Ages. pp. 316 - 317.

(107) Cam. Med. Hist. Vol. 4. p. 21.

(108) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 312 - 313.

المتحمسين، وكان من الطبيعى أن تهلل البابوية والكنيسة الغربية لإيرين، التى تشجعت فعقدت مجمعا دينيا فى نيقية سنة ٧٨٧ أقرَّ بقاء الصور والأيقونات على أساس احترامها وتبجيلها، لا عبادتها لذاتها(١٠٩).

على أن قيام امرأة بهذا النوع على رأس الإمبراطورية عاد بنتائج وخيمة على الدولة فى تلك الظروف، عندما أمست الحاجة واضحة إلى وجود إمبراطور قوى محارب يستطيع دفع الأخطار الخارجية التى هددت الإمبراطورية، ذلك أن جيوش الخليفة العباسى هارون الرشيد اجتاحت آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى وصلت البسفور، فى حين عجزت إيرين عن مواجهة الخطر فرضيت بأن تشترى الصلح من المسلمين مقابل مبلغ ضخم تعهدت بدفعه سنويا، وفى ذلك الوقت نشط البلغار فى البلقان فاجتاحوا تراقيا بعد أن أنزلوا الهزيمة بجيوش الإمبراطورية(١١٠)، وفى وسط هذه الظروف بلغ قسطنطين السادس سن الرشد، ولكنه لم يستغن عن أمه، التى حقدت على ابنها وكرهت أن يشاركها الحكم بعد أن تذوقت طعم السلطان. ويبدو أن الانتصارات التى أحرزها قسطنطين السادس فى تلك المرحلة، وخاصة عندما انتصر على المسلمين عند أنطاكيا - على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى - أثارت الحقد فى نفسها على ابنها حتى أعمى بصيرتها فدبرت مؤامرة فى القصر سنة ٧٩٧ انتهت بالقبض على ابنها وسمل عينيه، وبالتالى عزله وإرساله إلى أحد الأديرة ليقضى عشرين سنة محروما من نعمة البصر(١١١).

على أنه إذا كانت إيرين قد أقدمت على هذه الجريمة البشعة ضد ولدها ليخلو لها الجو، إلاَّ أن الفترة القصيرة التى قضتها فى الحكم بعد ذلك - وهى لا تتجاوز خمس سنوات (٧٩٧ - ٨٠٢) جاءت مليئة بالكوارث الداخلية والخارجية(١١٢)، ذلك أن سياسة هذه الإمبراطورة ومسلكها الفظ، أثار روح المعارضة والحنق عند فريقين من أهم عناصر الإمبراطورية، أولهما الجيش حيث كان الشعور اللاأيقونى لايزال قوياً

---

(109) Idem: pp. 349 - 350.

(110) Cam. Med. Hist. Vol. 4. pp. 22 - 24.

(111) Ostrogorsky: op. cit. p. 161.

(112) Diehl: Hist. of the Byzantine Empire. p. 67.

لاسيما بين رجال الفرق الآسيوية، وثانيهما كبار ملاك الأرض (Dunatoi) ، أمّا فى الخارج فقد عادت جيوش هارون الرشيد إلى تهديد الأقاليم الآسيوية للإمبراطورية حتى وصلت أفسوس غربا، ولم تستطع الإمبراطورة أن تتخلص من هذا الخطر إلا عن طريق تجديد العهد بدفع جزية سنوية ضخمة للمسلمين سنة ٧٩٨[١١٣]، وفى وسط تلك الظروف القاسية لم تتورع إيرين عن الدخول فى مفاوضات مع شارلمان - إمبراطور الغرب الجديد - بهدف الزواج منه وتوحيد الشرق والغرب داخل إطار إمبراطورية رومانية جديدة[١١٤].

وأخيرا أدرك كبار الدولة أن الكيل قد طفح ، فدبروا مؤامرة ضد إيرين سنة ٨٠٢ - بزعامة نقفور أمين الخزانة - ونجحت هذه المؤامرة فى القبض عليها وحبسها فى أحد الأديرة، وفى وسط تلك الأزمة لم تجد إيرين فردا واحدا يعطف عليها أو يدافع عنها - حتى من الأيقونيين - بعد أن أثار سلوكها الخاصة والعامة من الناس[١١٥].

وعلى هذا الوجه انتهى البيت الأيسورى بعد أن ظل فى حكم الدولة البيزنطية خمسا وثمانين سنة. وإذا كانت إيرين قد اختتمت تاريخ هذا البيت بصفحة سوداء لطختها الأنانية، والقسوة، إلا أن الخدمات التى أداها الأباطرة الأيسوريون للدولة - وخاصة ليو الثالث، وقسطنطين الخامس - لايمكن إغفالها، ويكفى أن هؤلاء الأباطرة أمنوا الإمبراطورية وحموها من الأخطار الخارجية الجسيمة التى أحاطت بها وهددتها، كما فعلوا الكثير من أجل مضاعفة ثروة الإمبراطورية وزيادة سكانها وتقوية جيوشها[١١٦].

---

(113) Cam. Med. Hist. Vol. 4. p. 24.

(114) Brycc: The Holy Roman Empire. p 61 & Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 624. & Vol.9. pp. 24 - 26.

(115) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 313.

(116) Oman : The Dark Ages. pp. 320 - 321.

الباب السادس

الإســلام

على الرغم من أن الإسلام يعتبر ظاهرة شرقية من ناحيتى المولد والحضارة إلاّ أن أثره فى أوربا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لايمكن تتبع تاريخ أوربا فى تلك العصور دون الإشارة إلى هذا الأثر. حقيقة أن الدولة الإسلامية فى أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوربا مثل: إسبانيا، وصقلية، فضلا عن بعض جزر أخرى معروفة فى البحر المتوسط، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر، أى بلاد الشام، ومصر، وشمال أفريقية، فى الوقت الذى كانت فيه حضارة أوربا لاتزال ترتبط إلى حد كبير بذلك البحر، وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الإسلامى ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة، هذا فضلا عن أن الدولة الإسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافى بمثابة الحلقة التى ربطت القارات الثلاث: أوربا ،وآسيا، وأفريقيا، وبالتالى انتقل عن طريقها التراث الحضارى للشرق إلى أوربا العصور الوسطى(١).

وتختلف الغزوات التى تعرضت لها أوربا من جانب المسلمين منذ القرن السابع فى طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التى تعرضت لها أوربا قبل ذلك من جانب الجرمان، فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمة قدم الإمبراطورية الرومانية نفسها، وربطتها بالإمبراطورية صلات تحالف وولاء، أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التى أدت إلى غزو أراضى الإمبراطورية والاستقرار داخل حدودها، أما العرب الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية فى القرن السابع، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شيء من الأهمية، وكل ما هنالك هو أن الإمبراطورية الرومانية اكتفت باتخاذ بعض إجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضارية فى الصحارى المجاورة، هذا فضلا عن إقامة دولة الغساسنة على حدود الشام؛

(1) Deanesly: op. cit. pp. 185 - 187.

لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم، وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف شبه الجزيرة العربية لتهديد العالم الرومانى، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم(٢).

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهما عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - سنة ٥٧٠ وهجرته إلى المدينة سنة ٦٢٢، ثم ما تبع ذلك من إنهاء حالة الفوضى، والتفكك السياسى، والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب شبه الجزيرة قرونا طويلة، وبعبارة أخرى فإن انتصار رسالة خاتم النبيين أدت إلى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا إله إلا الله محمد رسول الله، على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله أرسل محمداً شاهدا ومبشراً ونذيرا، ليكون رحمة للعالمين، ومن ثم غدت مهمة الرسول ليست فقط نشر الإسلام فى بلاد العرب، وإنما أيضًا دعوة الأمم المجاورة لاعتناق ديانته، والإيمان برسالته، ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبى (ﷺ) إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضا بل امتهانا مما جعل النبى يعد العدة للغزو والجهاد، وإن كانت موجة الفتوح الإسلامية لم تشتد وتتسع إلاّ بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢.

وليس العجيب فى أمر حركة الفتوح هذه هو أن العرب تجاسروا على مهاجمة الفرس والروم، وهما أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وإما العجيب هو أن العرب غزوا فارس فى الوقت نفسه الذى غزوا دولة الروم، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين فى وقت واحد، ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا فى بادية الشام سنة ٦٢٩؛ أى فى العام التالى مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس(٣)، وكانت دولة الروم - أو الدولة البيزنطية - تعانى حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة، وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها

---

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

(3) Oman: The Dark Ages, p. 216.

فى البلقان من جهة أخرى، زيادة على النزعة الانفصالية التى أخذت تقوى عند أقباط مصر، والآراميين فى سوريا، والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى، مما هدد كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا(٤)، ومهما يكن من أمر فإن موجة الفتوح العربية الإسلامية لم تتخذ شكلها الكاسح إلاّ عقب وفاة الرسول (ﷺ)؛ أى منذ خلافة أبى بكر الذى بادر بإيفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية - بقيادة أبى عبيدة الجراح - تعمل فى الشام ضد الروم، فى حين كان القسم الثانى من هذه الجيوش - بقيادة خالد بن الوليد - يعمل في العراق ضد الفرس(٥) . وقد حاول هرقل - إمبراطور الروم - إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور؛ لإنقاذ الموقف فى فلسطين، ولكن القائد العربى - خالد بن الوليد - أتى مسرعا من العراق؛ لنجدة إخوانه بالشام، وبذلك أمكن إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى موقعة أجنادين سنة ٦٣٤(٦)، وعندما توفى الخليفة أبو بكر فى هذه السنة السابقة، خلفه عمر (٦٣٤ – ٦٤٤) الذى اتسعت الفتوح الإسلامية فى عهده، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل، وعندئذ ثار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦، وقد خيل لهرقل فى تلك المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب فى جسده، وإذا كان هرقل قد أمضى سنتين ٦٣٥، ٦٣٦ فى جبهة الشام، إلا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع فى أيديهم (٦٣٧ – ٦٣٨)(٧) . ويروى القلقشندى أن هرقل عندما يأس من أمر الشام خرج إلى الرها، حيث وقف على مرتفع والتفت إلى الشام وقال: «السلام عليك يا سوريا، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومى بعدها إلا خائفا» . ثم عاد إلى القسطنطينية(٨) .

---

(4) Cam. Med, Hist. Vol. s p. 231.

(5) Idem pp. 338 - 339.

(6) Idem, p. 341.

(7) Diehl & Marcais: op. cit. pp. 190 - 192.

(٨) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٩٧.

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقلّ سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم، ففى سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق، وفى سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق إلى قلب بلاد فارس(٩) . ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة فى وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس(١٠).

وفى تلك الأثناء استمرت القوات العربية التى اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام. وقد بذل الإمبراطور هرقل محاولة يائسة لإنقاذ شمال الشام، والعراق من أيدى المسلمين، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض، ولكنها منيت بالهزيمة، واضطرت إلى الانسحاب، ولذلك سقطت المدن والمعاقل المهمة الموجودة فى شمال العراق، والشام مثل: ماردين، والرها، وميافارقين (٦٣٨ - ٦٣٩)، وباستيلاء العرب على قيصرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال أفريقية(١١) . ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس، ويعتبر فتح مصر بالذات مثلا واضحا على عظم الخسارة التى منيت بها المسيحية، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الإمبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسى(١٢)، وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا؛ بسبب ما قام فى جوف الدولة الإسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ . ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بالقوة والنشاط نفسهما. وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان؛ لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد(١٣)، وكانت حروب المسلمين فى شمال

---

(9) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 347.
(10) Orton: op. cit. pp. 80 - 81.
(11) Oman: The Dark Ages. p. 220.
(12) Eyre: op. cit. p. 63.
(13) Orton: op. cit. p. 81.

أفريقية طويلة وشاقة؛ لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس، ومهما يكن من أمر، فإن قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧، وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير.

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية إلى الحضارة العربية، ومن الديانة المسيحية إلى الديانة الإسلامية، حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين، وبذلك مرت السبعمائة سنة التى سيطرت فيها أوربا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال، فالمسيحية اندثرت، والحياة الرومانية ذبلت، والمدن تركها الرومان؛ ليعودوا أدراجهم إلى أوربا(١٤).

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال أفريقية حتى المحيط الأطلسى غربا وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينية ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف باسمه واستطاع فتح إسبانيا فيما بين سنتى ٧١١، ٧١٣(١٥). وبفتح إسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية، إذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر، فضلا عن بلاد أخرى كانت بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحى مثل شمال أفريقية وإسبانيا، وفى جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على اعتناق الإسلام «عن اختيار وإرادة حرة»(١٦)، وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديرة باهتمام المشتغل بالتاريخ، فالعرب الذين غزوا العالم الرومانى فى القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل، ومع ذلك فإن الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تغلبت فى النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم، فى حين كانت الغلبة فى الجهات التى انتزعها

---

(14) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 287.

(15) Thompson: op. cit. Vol. 1. pp. 163 - 164.

(١٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥١.

العرب واستقروا فيها ـ مثل الشام، ومصر، وشمال إفريقية. والأندلس ـ لحضارة العرب وديانتهم. ونحن لا نجد لهذه الظاهرة المهمة البارزة سوى تفسير تاريخى واحد، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الرومانى، فى حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة، وديانة سماوية أدت إلى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم فى المجتمع الجديد(١٧).

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية الإسلامية، والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة، والنجاح الكاسح الذى أحرزته، كانت من الموضوعات التى احتلت جزءاً كبيراً من تفكير المؤرخين المحدثين؛ ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة الرسول (ﷺ) سبعون سنة حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى، حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التى سهلت، مهمة الفتوح العربية الإسلامية، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب إلى الصبر على الجهاد طوعا لا كرهاً، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة فى تاريخ العالم. وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربى فى القرن السابع لم تكن مفاجئة ـ كما تبدو ـ وإنما حلقة أخيرة فى سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون، وأدت إلى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية؛ نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف جاء مصحوبا بانهيار سد مأرب فى القرن السادس(١٨)؛ وبعبارة أخرى فإن تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية إلى الهجرة، ولافرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الآراميون، والكنعانيون أو الهجرات اللاحقة التى قام بها العرب قبل ظهور الإسلام(١٩). ويميل برناردلويس إلى مشاركة بيكر هذا الرأى، فيقول إن بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر، مما أدى إلى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون

(17)Pierenne: Mohammed and Charlemagne. p. 150.

(١٨) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٣٩٧.

(19) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 331 (C.H. Becker).

منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم[٢٠]، أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيرا أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : إن حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا.

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيرا من المبالغة والبعد عن الحقيقة، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد، وهى الروح التى تبث الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع، حقيقة أن مؤرخا مثل توماس أرنولد يقول: «إن الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت إلاَّ قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية»[٢١]، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين، أو نصدق حاكما رومانياً معاصرا فى القرن السابع وقد أرسل إليه الإمبراطور هرقل يوبخه؛ لعجزه عن صد المسلمين، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا: «أنهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا، ذلك؛ لأنهم لايطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد؛ لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت، يا سيدى الإمبراطور»[٢٢].
أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت إلى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية، ويقول إن الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم، ومعهم، نساؤهم، وأطفالهم، ورقيقهم، ومواشيهم؛ بغية السلب، والنهب، والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم. حقيقة أن حركة الفتح الإسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات الجديدة التى تمّ فتحها، ولكن

---

(٢٠) برنارد لويس: العرب فى التاريخ ص ٢٨، ٥٧.
(٢١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٤٧.

(22) Eyre: op. cit. pp. 63 - 64.

هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ إلا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير[٢٣].

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب إلى شواطئ هذا البحر واستيلاءهم على موانئ الشام ومصر، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول؛ لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الإسكندرية سنة ٦٤٢ – ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون العرب بحريا فى فتوحهم الجديدة[٢٤]، والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر قبل الإسلام، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشيطة قبل الإسلام، ولكن عرب الشمال ظلوا بعيدين عن ممارسة ركوب البحر حتى كانت الفتوح الإسلامية وحينئذ أخذوا يكيفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط. ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة فغزوا قبرص سنة ٦٤٨، وأغاروا على الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ (Phoenix)؛ وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق. م.[٢٥]، وإذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الإسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة، فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت إغاراتهم إلى بحر إيجة سنة ٦٦٥، ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا عندئذخبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون إلى تراقيا (٦٦٨ – ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها، كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرص، ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر إيجة، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ – ٦٧٨)[٢٦]، ولم ينقذ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدى المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الإغريقية الذى توصل إليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقوس

(23)Pirenne: A Hist. of Europe, p. 47.

(24) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 160.

(25) Oman: The Dark Ages. p. 239.

(26) Diehl : Hist. of Th Byzantien Empire. p. 44.

Calinicus . أما هذا الاختراع فعبارة عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف مما أنزل بالسفن الإسلامية خسائر جسيمة[٢٧].

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا، حتى كان أوائل القرن الثامن، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك (٧١٥ – ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطيح بالإمبراطورية البيزنطية، واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على رأس هذه الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته إلى الشاطئ الأوربى سنة ٧١٧[٢٨]، وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر، إذا بالأسطول الإسلامى يهاجمها من ناحية البحر، حتى كادت المدينة تقع فى أيدى المسلمين لولا النار الإغريقية التى لعبت دورها فى تشتيت سفنهم، فى الوقت الذى أغرى الإمبراطور ليو الأيسورى (٧١٧ – ٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف [٢٩]، وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام[٣٠] . وهكذا تم تجنيب الإمبراطورية البيزنطية، بل أوربا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا عندئذ فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوربا من جهة الشرق.

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجياً عن آسيا الصغرى. حتى غامر الإمبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزاً فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها. وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرص[٣١]، ولم تلبث

---

(27) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 283.

(28) Idem pp. 313 - 314.

(29) Ostrogorsky. op. cit. p. 139.

(30) Diehl : Hist. of Th Byzantien Empire. p. 54.

(31) Cam. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121 - 122.

سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد. وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى، والأراضى البيزنطية حيث كان الضغط الإسلامى على الدولة البيزنطية شديدا وملموساً فى العصر الأموى، ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيها، ومن ثم قل الضغط الإسلامى على حدود هذه الدولة بصورة واضحة فى العصر العباسى(٣٢) ولكن ليس معنى هذا أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية، إذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى، حتى وصلت سنة ٧٨٢ إلى البسفور، مما اضطر الإمبراطورة إيرين إلى شراء مسالمة المسلمين بالمال(٣٣)، هذا فى الوقت الذى استمرت إغارات العرب البحرية على شاطئ الدولة البيزنطية وثغورها، حتى استولى المسلمون سنة ٩٠٤ على سالونيكا ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها.

ويلاحظ أن صمود الدولة البيزنطية ونجاحها فى صد المسلمين، فى الوقت الذى نجح الفرنجة فى صد مسلمى الأندلس عن غاليا وغرب أوربا كان له أثر كبير فى مستقبل تاريخ القارة الأوربية. ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الإسلامية تمثل المركز الأساسى للحضارة الأوربية فى العصور الوسطى. ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الإسلامى الأساسى، وهكذا أخذ التاريخ البيزنطى منذ اتساع الفتوح الإسلامية يفقد أهميته العامة، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمى أوربا من خطر آسيا، فى حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوربية إلى الغرب(٣٤).

على أن أثر المسلمين فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف، وإنما يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحا فى الميدان الحضارى وهنا نجد الحضارة العربية الإسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما: اللغة العربية، والديانة الإسلامية(٣٥). ومازالت السرعة التى انتشرت بها اللغة العربية والديانة الإسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين فاللغة العربية ليست

---

(32) Painter: op. cit. p. 44.
(33) Vasiliev: op. cit. Tome 1. p. 317.
(34) Eyre: op. cit. p. 64.
(35) Pirenne: A Hist. of Europe. p. 48.

باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال إن سهولتها أدت إلى سرعة انتشارها من المحيط الأطلسى حتى بحر فارس ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية فى أن تبسط سياستها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويلاً ـ باستثناء فارس؛ لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية إلاَّ فى ضوء انتشار العقيدة الإسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين، ويقول بيكر إن أوربا العصور الوسطى نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنيسة الدينية، وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل: الشام، ومصر، وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها، فراحت تفسر انتشار الإسلام فى هذه البلاد بأنه لم يتم إلاَّ بحد السيف[٣٦].

ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة ـ التى مازال بعض المتعلمين فى أوربا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها ـ بعيدة عن الواقع؛ لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة، وإنما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير، فسيطرة العرب السياسية هى التى تمت بقوة السلاح. أما الديانة الإسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها تلقائيا إلى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة. بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح المسلمين المطلق مع المسيحيين واليهود سواء، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين[٣٧].

وقد أجمع الباحثون على أن الحضارة الإسلامية كانت أعظم حضارة شهدها العالم فى العصور الوسطى، فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر البربرية من جرمان، وغير جرمان الذين انسابوا داخل الإمبراطورية الرومانية، والذين لا تقترن أسماؤهم فى التاريخ غالبا إلاَّ بالهدم والتخريب[٣٨]، وفى الوقت الذى نسمع بما أحدثته إغارات الهون، والوندال، والقوط من تخريب شامل لكثير من أقاليم أوربا وأفريقية إذا بالبلاد التى فتحها العرب واستقروا فيها تتحول إلى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف، للتزود والاستنارة، وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل إسبانيا، وصقلية، قبل فتح العرب لها

(36) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 330.

(37) Ibid.

(38) Pirenne: A Hist. of Europe. p. 46.

وأحوالها بعد استقرارهم بها، إذ تبدلت أوضاعها من جهل، وتأخر، وانحلال، وخراب إلى نشاط فكرى، وتقدم اقتصادى، وعمران شامل، وازدياد مطرد فى السكان والأموال[٣٩].

حقيقة أن العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية من القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة، ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها، وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات فى غرب آسيا وشمال أفريقية؛ وهى العلوم اليونانية التى ترجمها الآراميون والكنعانيون إلى لغاتهم السامية حتى جاء العرب ليحرصوا على نقلها إلى العربية[٤٠]، وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارات القديمة فى منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة؛ لأن التطور التاريخى ثابت ومستمر، وبعبارة أخرى فإن حضارة الإسلام ورثت الحضارة الشرقية الهللينستية وتعهدت هذه الحضارة بالحفظ، والعناية، والتغذية المستمرة. ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد أن أخذ الأثر الهللينستى يضعف - إلى حد ما - فى الحضارة الإسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية، والهندية، والصينية. وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخذ غرب أوربا يزداد - هو الآخر - تباعدا عن الحضارة الهللينستية بعد قيام الممالك الجرمانية مما أدى إلى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الإسلامية والغربية[٤١]، وهكذا غدت الحضارة الإسلامية مجمع العلوم اليونانية، والفارسية، والسريانية، والهندية، والصينية، فى حين غدت اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة[٤٢].

وكان أن أفاقت أوربا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى عشر لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء، فأخذت أوربا تقبل على هذه الحضارة

---

(39) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432 - 435.

(40) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 330.

(41) Ibid.

(42) Deanesly: op. cit.. p. 270 & Pirenne: A Hist. of Europe. p. 48.

الزاهرة، وأسرع الأوربيون إلى مراكز الحضارة الإسلامية يرتشفون من معينها الفيّاض ويرتوون من منهلها العذب. وازداد تدفق طلاب العلم الأوربيين بوجه خاص على الأندلس، وصقلية حيث أخذوا يترجمون إلى اللاتينية ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة، والعلوم، والرياضيات، وغيرها من ألوان النشاط الفكرى[٤٣]. حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها المسلمون من التراث اليونانى القديم، ولكن الفضل يرجع إليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها، حتى اندثر التراث اليونانى- أو كاد يضيع فى الفترة المظلمة التى أعقبت سقوط الإمبراطورية فى الغرب، لم يبق التراث اليونانى الفكرى قائما فى كثير من الحالات إلا فى التراجم العربية[٤٤]، وحسبنا ما أحدثته شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوربا العصور الوسطى[٤٥]، وما سببته معارف المسلمين فى الحساب، والهندسة، والجبر، وحساب المثلثات من انقلاب شامل فى تطور الفكر الرياضى الأوربى، وما ترتب على انتقال معلومات المسلمين فى الفلك، والجغرافيا إلى الأوربيين من تحول كبير، وما اعترف به الأوربيون أنفسهم من تقدم المسلمين فى الطبيعة والكيمياء، والطب، حتى استمرت الجامعات الأوربية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كثير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم[٤٦]، هذا كله فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى؛ مما جعل الأوربيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لاتزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة[٤٧]. وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوربا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الإمبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته[٤٨].

---

(43) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.

(44) Eyre: op. cit. pp. 273 - 279.

(45) Cam. Med. Hist. Vol. 4.p. 296.

(46) Eyre: op. cit. pp. 793 - 294.

وكذلك كتاب المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية (للمؤلف).

(47) Lethaby: The Lagacy of the Middle Ages p. 61.

(48) Orton: op. cit. p. 91.

ولاحاجة بنا إلى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها الإسلام والتى لايوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى، كان لها أكبر الأثر فى تفهم المسلمين للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا، وفى تفهم الأوربيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا(٤٩). ذلك أن المسلمين لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتتلمذ عليهم والاستفادة منهم، فأقبل الأوربيون فى الأندلس، وصقلية، والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها؛ مما ساعد على نهضة أوربا فى العصور الوسطى(٥٠).

---

(49) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 287.

(50) Thompson: op. Vol. 1. pp. 92 - 93.

الباب السابع

إيطاليا بين ثلاث قوى

اللمبارديون ـ البابوية ـ الدولة البيزنطية

لم تكد تمر سنوات قليلة على استسلام آخر القوات القوطية فى شمال إيطاليا للقائد البيزنطى نارسيس، أو على وفاة الإمبراطور جستنيان العظيم سنة ٥٦٥ بعد أن اطمأن إلى سيطرة قواته على شبه الجزيرة الإيطالية، حتى تعرضت إيطاليا لغزو اللمبارديين الذين تركوا أثراً واضحا فى كيانها السياسى، ونظمها الاجتماعية، وقوانينها العامة والخاصة(١).

أما هؤلاء اللمبارديون فكانوا آخر الشعوب الجرمانية التى اقتحمت الإمبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها، وقد أقاموا فى القرن الأول عند وادى نهر الأودر والجزء الأدنى من نهر الألب، حتى تحركوا جنوبا بعد قليل، ثم كان أن ظهروا فى بانونيا(٢)، فى أوائل القرن السادس حيث دخلوا فى صراع رهيب مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية مثل الجبداى، وخرجوا منتصرين من هذا الصراع سنة ٥٦٧ بفضل تحالفهم مع عنصر الآفار، الذين خلفوا الهون فى الأجزاء الشرقية والوسطى من أوربا(٣)، على أنه يبدو أن اللمباردييين لم يشكلوا فى تلك المرحلة خطرا على الإمبراطورية، بل عملوا كجند مرتزقة فى جيوش جستنيان حتى أن الجزء الأكبر من الجيش البيزنطى الذى عمل تحت قيادة نارسيس فى إيطاليا لرد القوط الشرقيين كان مؤلفا من اللمبارديين(٤). ولم تلبث الظروف أن جعلت اللمبارديين قوة خطيرة تهدد الإمبراطورية، وذلك عندما اتحدت قبائلهم تحت زعامة ملك واحد، وكان ذلك فى

---

(1) Lot: The End of the Ancient World. p 289.

(٢) فى الركن الشمالى الشرقى من اليريا على الشاطئ الشرقى لبحر الأدرياتيك، وقد فصلت عن اليريا؛ لتصبح ولاية جرمانية قائمة بذاتها سنة ٩م. وفى القرن الخامس كان معظم أهالى بانونيا قد هجروها بسبب تعرضها المستمر لغزوات الجرمان.

(3) Wallace ` Hadrill: The Barbarian West. p. 45.

(4) Lot: The End of the Ancient World. p 289.

الوقت الى اضطروا تحت ضغط الآفار إلى الجلاء من بانونيا، وهنا تلفت اللمبارديون حولهم فلم يجدوا بلدا أصلح لهم وأقرب إليهم من إيطاليا.

وهكذا أخذت جموع اللمبارديين تتدفق على إيطاليا فى ربيع سنة ٥٦٨ تحت زعامة ملكهم ألبوين Alboin فى وقت كانت الإمبراطورية البيزنطية - تحت حكم جستين الثانى - فى حالة لا تسمح لها بإرسال جيوش لصد ذلك الخطر الداهم، لذلك تركز الدفاع عن إيطاليا ضد الخطر اللمباردى فى المدن المحصنة ذات الأسوار المنيعة، ولكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود، فلم يكد يمضى عام حتى انتشر اللمبارديون فوق سهول نهر البو، واستولوا على فيرونا، وميلان دون أن يصادفوا مقاومة جدية من الأهالى أو من الحامية البيزنطية، ثمّ استطاع اللمبارديون إخضاع بافيا بعد حصار دام ثلاث سنوات فاتخذوها عاصمة لمملكتهم الجديدة التى أخذت منذ ذلك الوقت فى الاتساع السريع[٥]، ذلك أن مقتل ألبوين أثناء حركة توسع اللمبارديين لم يؤثر فى موقفهم وقوتهم، إذ استطاع أشراف اللمبارديين وزعماء قبائلهم التفوق على القوات البيزنطية الضعيفة، بل إنزال الهزيمة بها، حتى استولوا على تسكانيا والأجزاء الوسطى من إيطاليا حتى بنفنتوم، فضلا عن السهول الشمالية التى لصق بها اسم اللمبارديين حتى اليوم[٦].

ولم تكن هذه أول مرة تتعرض فيها إيطاليا لمحنة الغزو الجرمانى كما سبق أن رأينا، ولكن الفارق هو أن الشعوب الجرمانية التى غزت إيطاليا من قبل لم تنتزع كل الأراضى من أصحابها الرومان، وإنما اكتفت باغتصاب مساحة تتراوح بين ثلث الأراضى ونصفها، وتركت الباقى لأصحاب البلاد الأصليين[٧]، أما اللمبارديون فقد وضعوا أيديهم على جميع الأراضى المفتوحة، وأنزلوا الملاك الأصليين إلى مرتبة التبعية، كما أذاقوا الفلاحين كثيرا من الضغط والجور. وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على استمرار هذا الضغط، إلا أنه من الثابت أن اللمبارديين كانوا أعنف العناصر الجرمانية التى غزت إيطاليا وأشدها قسوة[٨]، هذا إلى أن اللمبارديين امتازوا عن

---

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 196.

(6) Oman: The Dark Ages, p. 187.

(7) Thompson. op. cit. Vol. 1. p. 170.

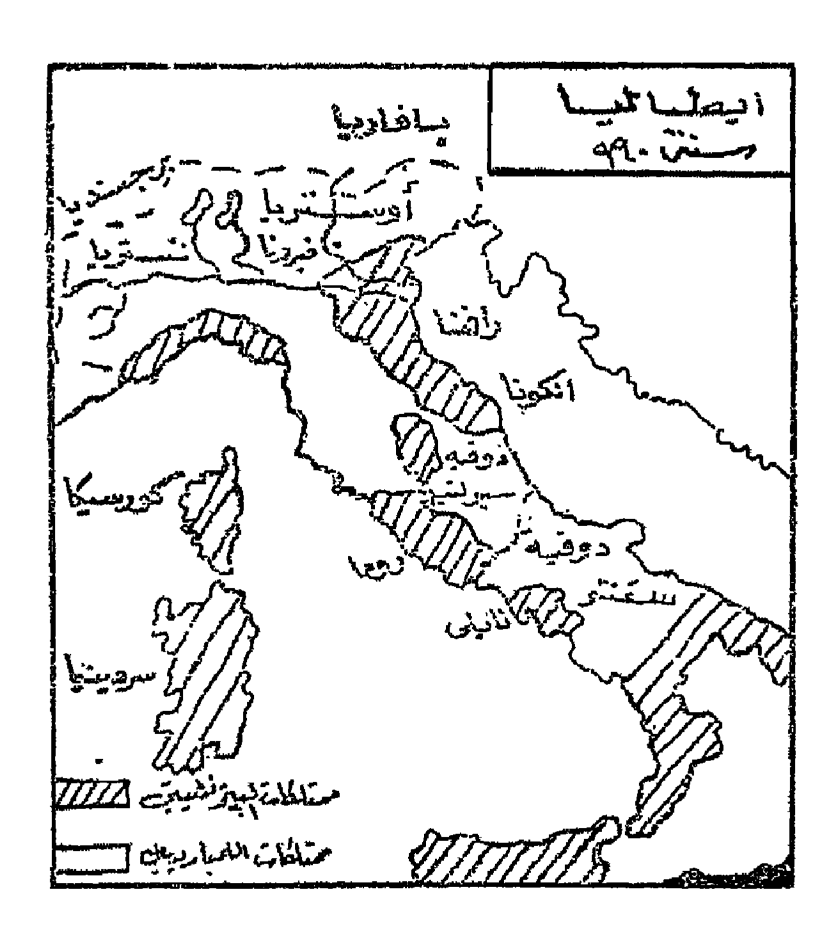
(8) Orton; op. cit. p. 103.

غيرهم من الشعوب الجرمانية بشدة تعصبهم لنظمهم، وتقاليدهم الجرمانية وتمسكهم بها. وربما كان من أسباب هذه الظاهرة أنهم دخلوا إيطاليا فاتحين لا حلفاء معاهدين (foederati) للإمبراطورية وأنه لم توجد روابط قوية تربطهم بالحضارة الرومانية مثلما كان الحال مع القوط من قبل، هذا زيادة على اعتناقهم للمذهب الأريوسى من جهة، وقلة عددهم بالنسبة لأهالى البلاد من جهة أخرى، مما جعلهم شديدى التعصب لأصلهم الرومانى ونظمهم الجرمانية، ومن أمثلة هذا التعصب الواضحة أن الملكية اللمباردية ظلت انتخابية فى حين غدت وراثية فى جميع ما عداها من الممالك الجرمانية[٩].

وقد وجد موريس إمبراطور الدولة البيزنطية (٥٨٢ - ٦٠٢) أن مقاومة الغزو اللمباردى لإيطاليا غير مجدية، فلجأ إلى وسيلة أكثر نفعا من الناحية العملية وهى إعادة تنظيم الإدارة الإمبراطورية فى إيطاليا، على أساس إقامة نظام الدوقيات فى روما، وبيروجيا، ونابلى، وكالبريا، وليجوريا، حيث تخضع كلها للنائب الإمبراطورى فى رافنا. وكان النائب الإمبراطورى يجمع فى يده السلطتين الحربية والمدنية، وكذلك كان الدوقات كل فى دوقيته، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللمبارديين[١٠]. على أن أهم ما يلاحظ على الأملاك البيزنطية فى إيطاليا عندئذ هو تناثرها وعدم ارتباطها، مما جعل أباطرة القسطنطينية يشعرون بعجزهم عن مواجهة الموقف ويطلبون مساعدة الفرنجة ضد اللمبارديين[١١]، وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ أوثارى Authari ملك اللمبارديين (٥٨٤ - ٥٩٠) يعمل على توحيد قواهم تحت سيادته، حتى إذا ما تم له ذلك بدأ يوجه كل جهوده نحو محاربة الفرنجة وصد خطرهم[١٢]. وثمة تطور آخر مهم حدث فى عهد أوثارى هو زواجه من ابنة دوق بافاريا، وهى أميرة كاثوليكية، الأمر الذى نجم عنه اعتناق زوجها للمذهب الكاثوليكى الذى أخذ ينتشر بين اللمبارديين فى القرن السابع[١٣].

---

(9) Wallace - Hadrill: op. cit. p. 45.
(10) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 178.
(11) Oman: The Dark Ages, pp. 190 - 191.
(12) Cam Med. hist. Vol. 2. pp. 190 - 200.
(13) Oman. op. cit. p. 193.


ايطاليا
سنة ٩٩٠
بافاريا
فيرونا
رافنا
انكونا
دوقية
دوقية
كورسيكا
سردينيا
نابلى
ممتلكات بيزنطية
ممتلكات اللمبارديين

وبعد أوثارى جاء أجيلولف Agilulf فى حكم اللمبارديين (٥٩٠ – ٦١٦) وقد شاء حسن حظ هذا الملك الجديد أن الفرنجة شغلوا بالمنازعات الداخلية فيما بينهم عن اللمبارديين، مما مكن الملك اللمباردى من انتزاع أجزاء جديدة من أملاك الدولة البيزنطية فى إيطاليا. حتى توسط البابا جريجورى العظيم فى عقد اتفاقية بين اللمبارديين والإمبراطورية البيزنطية سنة ٥٦٨(١٤)، على أن نقض النائب الإمبراطورى فى إيطاليا لهذه الاتفاقية جعل اللمبارديين ينزلون خسارة جسيمة بالإمبراطورية، إذ انتزعوا بادوا سنة ٦٠٢ ثم مانتوا - آخر المعاقل البيزنطية فى حوض البو - فى السنة نفسها. وعندئذ لجأ الإمبراطور فوقاس - إزاء الأخطار الجسيمة التى هددت دولته، وخاصة من جانب الفرس - إلى شراء مسالمة اللمبارديين مقابل تعهده بدفع جزية سنوية ضخمة لهم. وقد تعرض اللمبارديون فى عهد ملكهم أجيلولف لبعض المتاعب والثورات الداخلية، فضلا عن التهديدات الخارجية التى واجهت دولتهم من جانب الآفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية، ولكن على الرغم من كل ذلك فإن ذلك العصر يمثل دور النضج بالنسبة للمبارديين وحضارتهم فى إيطاليا، إذ أخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد، واعتناقهم المسيحية الغربية يهتمون ببناء الكنائس، وينصرفون نحو كثير من المشروعات السلمية(١٥).

على أن أشهر ملوك اللمبارديين وأهمهم فى التاريخ كان روثارى Rothari (٦٣٦ – ٦٥٢) الذى شهد عصره إتمام غزو شمال إيطاليا، وانتزاع المنطقتين اللتين كانتا لاتزالان تحت سيطرة البيزنطيين، وهما: منطقة ليجوريا الممتدة من نيس إلى لونا - بما فيها مدينة جنوة العظيمة، والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو Oderzo على شاطئ البندقية، ولم يحصل روثارى على هذه الجهات إلاّ بعد جهد عنيف وقتال شاق ضد البيزنطيين، انتهى بانتصاره عليهم بعد أن حملهم خسارة فادحة(١٦)؛ ولا ترجع أهمية روثارى فى التاريخ إلى انتصاراته السابقة فحسب، بل يرجع جانب كبير من شهرته إلى أنه شكل القانون اللمباردى ونظمه، فأصدر سنة ٦٤٣ مجموعة القوانين

(14) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 201.

(15)Oman: The Dark Ages, p. 195.

(16) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 203.

العرفية الخاصة بالشعب اللمباردى والتى لم يسبق تدوينها أبدا من قبل. حقيقة أن القوانين والتشريعات التى أصدرها روثارى (Edictum Rotharis) لا تعدو أن تكون مجموعة بدائية تصور أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة وسط الأحراش والغابات، أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب إيطاليا . ولكنها على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الشطر الأكبر منها يتناول المسائل المتعلقة بالفدية، والتزامات الأتباع نحو سادتهم، وتنظيم حقوق الوراثة، دون أن تحوى شيئا عن حياة الحضر والكنيسة، فإن أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية وقيمتها فى تصوير أوضاع الشعوب الجرمانية، فضلا عن كونها أول قانون مدون للمبارديين(١٧) .

وبعد أن فرغ البيزنطيون من حروب هرقل ضد الفرس ثم العرب، حاولوا فى عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ – ٦٦٨) أن يقفوا موقفا قويا تجاه اللمبارديين فى إيطاليا؛ ليستغلوا حالة التفكك والانقسام والفوضى التى أمسى فيها اللمبارديون عقب وفاة ملكهم روثارى سنة ٦٥٢ فى إحياء النفوذ الإمبراطورى واسترداد ما فقدته الإمبراطورية فى شبه الجزيرة الإيطالية(١٨)، ولذلك هجم البيزنطيون على بنفنتوم (٦٥٠ – ٦٦٣) ولكن اللمبارديين اتحدوا واختاروا جريمولد دوق بنفنتوم ملكا عليهم (٦٦٢ – ٦٧١) وبذلك تمكنوا من مقاومة البيزنطيين(١٩) .

وهكذا نجح الغزو اللمباردى فى القضاء على الوحدة الإيطالية التى أجهد الإمبراطور جستنيان نفسه فى إحيائها، فظلت إيطاليا حتى القرن التاسع عشر مجرد اصطلاح جغرافى دون أن تقوم لها وحدة سياسية تنظم أمورها، والواقع أن إيطاليا غدت فى القرن السابع مقسمة بين ثلاث قوى: اللمبارديون، والدولة البيزنطية، والبابوية، وأن نظرة سريعة يلقيها الباحث على خريطة إيطاليا عندئذ توضح له ما كانت عليه من انقسام وبعثرة سياسية حتى صار من الصعب فى كثير من الحالات أن تتصل الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا بعضها ببعض إلاّ عن طريق البحر(٢٠) .

---

(17) Lot: The End of the Ancient World, pp. 289 - 290.

(18) Vasiliev: op. cit. Tome. 1, pp. 292 - 293.

(19) Diehl & Marcais: op. cit. p. 239.

(20) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 172 - 173.

ازدياد نفوذ البابوية:

أمَّا الأهمية القصوى لعصر استقرار اللمبارديين فى إيطاليا فترجع قبل كل شىء إلى ما شهده ذلك العصر من ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها السياسى، حتى غدت تمثل إحدى القوى الحاكمة فى إيطاليا إلى جانب اللمبارديين والدولة البيزنطية، وخير ما يوضح ازدياد نفوذ البابوية فى تلك الفترة هو تضاعف ممتلكات الكنيسة فى إيطاليا وهى الأملاك التى لم تضمن للبابوية موردا ماليا ضخمًا فحسب، بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوى والمادى فى البلاد[٢١]، ذلك أن أساقفة إيطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التى سادت ايطاليا فى ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الأراضى ويتخذون لأنفسهم صفة الحكّام العلمانيين، فيعينون موظفى البلديات فى المدن، ويشرفون على الأعمال العامة، ويجمعون الضرائب ، وغير ذلك من الأعمال التى هى فى الواقع من صميم اختصاص الحكام العلمانيين[٢٢]. وقد ساعد رجال الكنيسة على تحقيق أغراضهم ومطامعهم فى الاستيلاء على الأراضى أن صغار ملاك الأراضى فى إيطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها، فلم يجدوا وسط الفوضى الناجمة عن النزاع بين اللمبارديين والبيزنطيين سوى الكنيسة، فسلموها أراضيهم مختارين وأصبحوا شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان[٢٣]، أما البابا فكان لا يختلف - من الوجهة النظرية - عن غيره من الرعايا البيزنطيين وذلك من حيث تبعيته للنائب الإمبراطورى. ولكن نفوذ هذا النائب الإمبراطورى أخذ يخبو ويتضاءل تدريجيًا حتى صار غير ملموس، ولاسيما أن نواب الإمبراطور البيزنطى لم يحاولوا أن يتخذوا روما مركزًا للدفاع ضد الخطر اللمباردى، وإنما آثروا الإقامة فى رافنا وبذلك تركوا روما وليس فيها إلا سيد واحد هو البابا[٢٤]. وهنا نلاحظ أنه إذا كان البابا قد أصبح أعظم ملاك الأراضى فى إيطاليا فإن الممتلكات البابوية لم تقتصر على المنطقة المحيطة بروما، وإنما انتشرت فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت إلى

(21) Moss: op. cit. p. 132.
(22) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 229.
(23) Moss: op. cit. p. 132.
(24)Oman: The Dark Ages, pp. 198 - 199.

صقلية فضلا عن ممتلكات البابوية خارج إيطاليا، حيث إنه يمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التى نعمت بها البابوية كانت السر فى القوة الزمنية التى تمتعت بها[٢٥]. وقد تعرضت البابوية فى عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) لخطر اللمبارديين الذين استولوا على الأملاك البابوية فى شمال إيطاليا، كما أدى توسعهم فى أواسط إيطاليا إلى تهديد الأراضى البابوية فى تلك الجهات، وربما كان الخطر اللمباردى هو الذى جعل البابوية تحافظ على علاقتها الودية مع الدولة البيزنطية فى ذلك الدور حتى تعثر على نصير آخر يحميها من أخطار الدولة البيزنطية واللمبارديين جميعاً[٢٦].

والواقع أن البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التى ميزتها طوال العصور الوسطى فى عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم، وقد وُلد هذا الرجل فى روما سنة ٥٤٠ فى أسرة عريقة من النبلاء، ولكنه أظهر منذ حداثته نزعة دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التى ورثها عن أهله فى تأسيس ستة أديرة فى صقلية، ودير سابع فى روما، ولم يلبث أن استقال من المنصب الكبير الذى عينه فيه الإمبراطور جستين الثانى، ووزع ما تبقى لديه من مال على الفقراء والمحتاجين مفضلا الانقطاع للحياة الديرية[٢٧]. وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ - على الرغم من تمنعه الشديد - أخذت تظهر شخصية هذا البابا الجديد على حقيقتها، لتعبر عن كثير من الصفات التى امتاز بها العديد من أهالى العصور الوسطى، مثل ولعه باللاهوت، واعتقاده فى المعجزات، وبغضه للتراث الكلاسيكى، وحماسته للديرية[٢٨]، وإلى جانب كل ذلك اتصف جريجورى العظيم بالتواضع الجم، حتى اتخذ لنفسه وهو بابا لقب «خادم خدام الله» Servus Servorum Dei زيادة على بساطته المتناهية، ولكنه فى مباشرته وظيفته البابوية اتصف بالكبرياء، والاعتزاز بنفسه، وسلطته العليا كما يتضح من رسائله العديدة إلى معاصريه من الأساقفة والملوك التى ينهاهم فيها عن المفاسد ويأمرهم بالخير والاستقامة[٢٩].

(25) Lot: The End of the Ancient World, p. 305.
(26) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 174.
(27) Dudden: Gregory the Great; Vol. 1. p. 106.
(28) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 236 - 237.
(29)Oman: The Dark Ages, p. 201.

وتبدو عظمة جريجورى الأول أشد ما تكون وضوحا فى النواحى السياسية، والإدارية، والتنصيرية، فحكومته فى روما كانت أقرب إلى الحكومة الدنيوية منها إلى الحكومة الدينية. ذلك أنه أخذ ينظم وسائل الدفاع ضد اللمبارديين كإعداد الجند، وتحصين الأسوار، وشحن القلاع، بل توجيه الهجمات. وفى حالات أخرى كان هو الذى يفاوض اللمبارديين باسم الشعب الرومانى حتى عقد معهم هدنة سنة ٥٩٢، كما عقد صلحا نهائيا مع ملكهم أجيلولف سنة ٥٩٨ أنهى به الحروب المتواصلة التى استمرت ثلاثين سنة منذ الغزو اللمباردى لإيطاليا[٣٠]، وتشهد رسائل جريجورى الأول - التى دونت عند نهاية القرن السادس - على مدى دقة هذا البابا وكفايته الإدارية. ذلك أن هذه الرسائل تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية عن كيفية إدارة جريجورى لأملاك البابوية الواسعة، وعن جهوده فى تنمية مواردها والإشراف إشرافا دقيقا على إيراداتها ومصروفاتها[٣١]، وقد أراد جريجورى الأول أن يستغل إيراد البابوية الضخم فى مختلف الأغراض التى تعود على أبناء العالم المسيحى بالخير، مثل فدية أسرى المسيحيين، وتخفيف آلام المجاعات، وإنشاء المستشفيات للعناية بالمرضى، والجرحى ودعم الكنائس أو إصلاحها بعد أن تعرض كثير منها لعبث اللمبارديين[٣٢]. وهنا نلاحظ أن أفق جريجورى العظيم لم يقف عند الحدود الإيطالية، لأن هذا البابا حرص على أن يشعر جميع أبناء العالم المسيحى بأهميته بوصفه أبا روحيا للجميع، فإذا سمع بحدوث أزمة اقتصادية فى القسطنطينية أسرع بإرسال السفن إليها من صقلية محملة بالقمح، وإذا علم بحاجة قبط مصر إلى الأخشاب لبناء الكنائس والأديرة أرسل لهم حاجتهم من سردينيا، وهكذا[٣٣].

وعلى الرغم من أن اختيار جريجورى العظيم لمنصب البابوية تطلب موافقة الإمبراطور البيزنطى، وقبول البابا الجديد لجميع قرارات المجامع الدينية السابقة، إلاّ أن جريجورى أظهر دائما تمسكا بسيادة كرسى روما على بقية الكراسى الأسقفية فى

---

(30) Dudden: op. cit. Vol. 1. p. 246.

(31) Moss: op. cit. p. 132.

(32) Deanesly: op. cit. p. 180 & Moss: op. cit. p. 132.

(33) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 178.

الشرق والغرب[٣٤]، حتى أنه حاول - دون جدوى - فرض سيادة البابوية - فى الناحية القضائية - على الأساقفة الشرقيين بمن فيهم بطريرك القسطنطينية، ويبدو أن ضعف النائب الإمبراطورى فى إيطاليا، وافتقاره فى معظم الحالات إلى المال والرجال ساعد على ازدياد نفوذ البابوية العلمانى فى بقية أنحاء إيطاليا، فضلا عما فعله جريجورى من مد نفوذ البابوية الفعلى إلى أفريقية، وغاليا، وإسبانيا، وإنجلترا[٣٥]. ذلك أنه عمل على نشر المذهب الكاثوليكى بين القوط الغربيين، وبذلك أدخل إسبانيا فى حظيرة الكنيسة الغربية، كما أرسل بعثة القديس أوغسطين الصغير إلى إنجلترا، الأمر الذى أدى إلى انتشار المسيحية فيها من جهة، وإلى سيطرة البابا على كنيستها من جهة أخرى، أما فى إيطاليا فقد استطاع جريجورى العظيم أن يدعم الكنيسة الكاثوليكية بين اللمبارديين عن طريق تأثيره على زوجة ملكهم أجيلولف[٣٦]، وفى غاليا كانت رغبات جريجورى العظيم تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة فى جميع أنحاء غاليا. حقيقة أن جريجورى لم يتردد فى طلب معونة الإمبراطورية البيزنطية لإخضاع أساقفة اليريا أو تأديب هراطقة الدوناتيين فى شمال أفريقية[٣٧] ولكن بلغ الأمر بهذا البابا أنه فى الوقت الذى كان أحوج ما يكون إلى مساعدة الإمبراطورية البيزنطية، لم يتراجع عن تهديد الإمبراطور موريس عندما لجأ الأخير إلى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجال القادرين على الخدمة العسكرية، وهكذا استطاع جريجورى - بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها - أن يضرب مثلا عاليا احتذاه خلفاؤه من البابوات[٣٨] ويكفى أنه ترك لخلفائه - عندما توفى سنة ٦٠٤ - بناء بابويا شامخًا، ونفوذاً روحياً واسعاً وسلطة زمنية قوية، كما حقق

---

(34) Cam. Med. Hist, Vol. 1. p. 246.

(35) Dudden: op. cit Vol. 2. pp. 201 - 237.

(36) Cman: The Dark Ages, p. 202.

(37) Moss: op. cit. p. 133.

فرقة هرطقية نسبت إلى دوناتوس Donatus أسقف قرطاجة فى أوائل القرن الرابع الذى أعلن استقلال كنيسة أفريقية وعدم ارتباطها فى اختيار أساقفتها، وفى عقد المجامع الدينية بأية جهة أخرى سواء كانت الدولة أو كنيسة روما، وقد ظلوا صامدين فى وجه أباطرة القسطنطينية حتى تلاشى أمرهم مع الفتح الإسلامى لأفريقية سنة ٦٣٧.

(38) Dudden: op. cit. Vol. 2, pp. 238 - 239.

للمنصب البابوى قسطا من السمو لم يسبق أن حظيت به البابوية من قبل(٣٩).

على أن هذه المكانة السامية التى أضحت فيها البابوية منذ عهد جريجورى الأول، سرعان ما أدت إلى نوع من التنافس بينها وبين الإمبراطورية؛ نتيجة لاعتزاز كل من الطرفين بسمو مركزه، وهو تنافس أدى إلى الصدام أكثر من مرة فى العصور الوسطى، وقد بدأ الاحتكاك أول مرة بين الإمبراطور قنسطانز الثانى (قسطنطيوس) ٦٤١ – ٦٦٨، والبابا مارتن الأول (٦٤٩ – ٦٥٥) وكان هذا البابا قد عقد مجمعا فى روما سنة ٦٤٩ أعلن بطلان المرسوم الذى أصدره الإمبراطور بخصوص تحريم أى نقاش حول المونوفيزيتية، فى الوقت الذى كانت البابوية تطمع فى تحريم المونوفيزيتية نفسها واضطهاد أتباعها، ولم يستطع الإمبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة فأمر نائبه فى إيطاليا بانتهاز الفرصة للقبض على البابا، وتم ذلك ثم أرسل البابا إلى القسطنطينية حيث حوكم ونفى إلى القرم ليموت ٦٥٥(٤٠)، ويبدو أن حرص الإمبراطور قنسطانز على تحقيق سيطرته شجعه على الانتقال إلى إيطاليا سنة ٦٦٣ حيث اشتبك مع اللمبارديين فى بعض مواقع فى الجنوب، ثم قصد روما بعد ذلك حيث قدم له البابا فيتاليان Vitalian (٦٥٧ – ٦٧٢) فروض الولاء والتبعية(٤١)، على أن هذه الزيارات أضرت فى الواقع بالإمبراطور وسمعته أكثر مما أفادته، نظرا لأنه لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التى وجدها فى روما، هذا فى الوقت الذى لم يغفر الإيطاليون للإمبراطور قنسطانز ما فعله بالبابا مارتن الذى اعتبروه شهيدا. ويبدو أن قنسطانز أحس عندئذ بخطورة ازدياد البابوية، بدليل أنه حاول أن يقلم أظافرها، فمنح رئيس أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية، وعدم الخضوع لسلطانها الروحى، وقد استمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين سنة، حتى انتهى الأمر بعودة الأخيرة إلى حظيرة البابوية(٤٢).

ومن الواضح أنه لو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية لاستطاع أن يقف من الإمبراطور قنسطانز موقفا صلبا عنيدا، ولتطور الأمر عندئذ إلى نزاع خطير

(39) Oman: The Dark Ages, p. 203.

(40) Diehl & Marcais: op. cit. p. 231.

(41) Idem: p. 239.

(42) Cam. Med. Hist. Vol , 2. p. 394.

بين البابوية والإمبراطورية. ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا، فخشى أن يتعرض للمصير الذى تعرض له مارتن من قبل وآثر الاستسلام والخضوع، الأمر الذى أجل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية ولكن إلى حين[٤٣]. ذلك أن قسطنطين الثالث (٦٦٨ - ٦٨٥) حرص على علاقته الودية مع البابوية، ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر فى عهد خليفته جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥) الذى عاد فحرض نائبه فى إيطاليا على القبض على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) وإرساله إلى القسطنطينية. ولكن النائب الإمبراطورى تعرض - عند محاولة تنفيذ هذا الأمر - لمعارضة الحامية البيزنطية نفسها، فضلا عن أهل روما، حتى انتهى الأمر بانتصار البابا فى الوقت الذى أدت سياسة الإمبراطور جستنيان الثانى إلى عزله[٤٤]، وقد ساعدت الفوضى التى تعرضت لها الإمبراطورية البيزنطية فى الاثنتين والعشرين سنة التالية (٦٩٥ - ٧١٧) على ضعف نفوذها فى إيطاليا، وهو الأمر الذى أعطى البابوية فرصة للظهور والتمتع بسلطات زمنية واسعة، حتى أن البابا حنا السادس (٧٠١ - ٧٠٥) باشر جمع الضرائب فى روما، كما عقد المعاهدات مع دوق بنفنتو اللمباردى.

ثم كان أن ساءت العلاقات إلى حد كبير بين روما والقسطنطينية على عهد البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) عندما أخذ الإمبراطور ليو الأيسورى يباشر سياسته اللاأيقونية. ويبدو أن جريجورى الثانى استغل هذه الأزمة من جهة، كما استغل نفوذ الإمبراطورية فى إيطاليا - ما عدا الجنوب - من جهة أخرى، ليتحرر من سلطة الإمبراطورية تحررا تاما، ويجعل سلطة البابا على السلطات الإمبراطورية حقيقة ملموسة، لذلك استحوذ جريجورى الثانى على السلطات الإمبراطورية مثل جمع الضرائب فى إيطاليا سنة ٧٣٥، كما أصدر قرار الحرمان ضد النائب الإمبراطورى مما يعتبر خروجا على الإمبراطور[٤٥]، وفى الوقت الذى اشتد الخلاف والقتال بين أتباع الإمبراطوروأتباع البابا فى إيطاليا، أعاد اللمبارديون توحيد جبهتهم تحت زعامة ليتويراند (٧١٢ - ٧٤٣) الذى يعتبر هو الآخر من أعظم ملوك اللمبارديين، وقد

(43) Oman: The Dark Ages, pp. 277 - 278.
(44) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 408 - 409.
(45) Deanesly: op. cit. p. 411.

عرف عن ليتوبراند تحمسه للكنيسة حتى أنه أسس عددا كبيرا من الأديرة، فى الوقت الذى اختار ألا يتخذ سياسة معادية للإمبراطورية، وكل ما هنالك هو أنه صمم على بسط سيادة الملكية اللمباردية على جميع أنحاء إيطاليا، ممّا أوقعه فى صراع مع غيره من زعماء اللمبارديين فضلا عن الإمبراطورية والبابوية جميعا(٤٦)، وهكذا أخذ اللمبارديون يهاجمون الممتلكات الإمبراطورية ويستولون على المدن التابعة للإمبراطور البيزنطى واحدة بعد أخرى مثل بولونيا، وأوزيمو Osimo ، وريمينى Rimini ويبدو أن ليتوبراند لم يشأ أن يلتحم بالبابوية عندئذ، فنزل عند رغبة البابا وسلمه قلعة سوترى Sutri التى انتزعها اللمبارديون من البيزنطيين قرب روما(٤٧).

وفى ذلك الوقت استمر جريجورى الثانى يرد على الإمبراطور ليو الثالث فى لهجة عنيفة، مقبحا رأيه فى تحريم عبادة الأيقونات، مهددا إياه بالاحتماء باللمبارديين إذا جرؤ الإمبراطور على إرسال جيش ضد روما (سنة ٧٢٩) (٤٨)، ومن الواضح أن الاحتماء باللمبارديين كان آخر ما يمكن أن تلجأ إليه البابوية، لأن وقوع روما فى قبضة ملك قوى مثل ليتوبراند معناه القضاء التام على ما تطمع البابوية فى تحقيقه من سلطة زمنية، ثم أنه ليس من المعقول أن تعمل البابوية على تخليص نفسها من سيطرة الإمبراطور البيزنطى لتلقى بنفسها تحت رحمة الملك اللمباردى. وهكذا يبدو أن جريجورى الثانى ـ عندما هدد الإمبراطور البيزنطى بالاحتماء باللمبارديين ـ لم يكن جادا فى تهديده، بدليل أنه قام عندئذ ببذر بذور الفرقة بين ليتوبراند فى الشمال ودوقيتى بنفتو وسبوليتو فى الجنوب، وسرعان ما أدركت البابوية أنها نجحت فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى أواسط إيطاليا، ولكنها أصبحت وحيدة وجها لوجه أمام خصم آخر أقرب وأشد خطرا وهم اللمبارديون.

وقد حدث فى ذلك الوقت أن توفى البابا جريجورى الثانى فخلفه البابا جريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١)، الذى كان هو الآخر من كبار المتحمسين

(46) Lot: The End of the Ancient World, p. 290.

(47) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 181.

(48) Oman: The Dark Ages, pp. 282 - 283.

(49) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 691 - 695.

للأيقونية، ممّا أوقعه فى عداء مرير مع الإمبراطور البيزنطى، وكان أن ردّ الإمبراطور ليو الأيسورى على موقف البابا الجديد بإصدار مرسوم لتحديد اختصاص البابوية القضائى وفصل أسقفيات اليريا وجنوب إيطاليا عن البابوية وسلطانها(٥٠)، وفى العام التالى (سنة ٧٣٢) أعدّ الإمبراطور ليو الثالث أسطولا وحملة لاسترداد أملاك الإمبراطورية من اللمبارديين، والقبض على جريجورى الثالث، ولكن الطبيعة أبت إلا أن تعاكس الإمبراطور، فهبت زوبعة فى البحر الأدرياتى حطمت الأسطول الإمبراطورى وقضت على المشروع البيزنطى، وتعتبر هذه آخر محاولة جدية بذلتها الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد نفوذها المفقود فى إيطاليا، إذ اضطر الأباطرة الشرقيون بعد ذلك إلى ترك البابوات وشأنهم فى حين لم يعد للنائب الإمبراطورى نفوذ يذكر(٥١).

التحالف بين البابوية والفرنجة:

أمّا عن الموقف فى إيطاليا فقد عمل الملك ليتوبراند على نشر السلام فى أنحاء البلاد طوال الثمانية أعوام التى أعقبت اتفاقيته مع البابوية سنة ٧٣٠. وتدل الشواهد التاريخية على أن ليتوبراند كان رجلا تقيا، احترم البابوية، وناصر المسيحيين ضد أعدائهم، من ذلك أنه عندما غزا المسلمون إقليم بروفانس (٧٣٦ - ٧٣٧) طلب شارل مارتل مساعدة ليتوبراند ضد مسلمى الأندلس، فأسهم اللمبارديون فى طردهم من غاليا(٥٢)، على أن جو السلام الذى ساد إيطاليا حتى سنة ٧٣٨، لم تلبث أن أفسدته ثورة دوق سبوليتو ضد ليتوبراند(٥٣)، والمهم فى أمر هذه الثورة هو أن فشلها أدى إلى فرار الأمير الثائر إلى روما محتميا بالبابوية مما أثار ليتوبراند وجعله يزحف على روما ويحاصرها، وفى تلك الأزمة لم يستطع جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة إمبراطور القسطنطينية، فلم يجد البابا أمامه سوى شارل مارتل رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلى فى الدولة، فأرسل إليه طالبا المساعدة ضد اللمبارديين

(50) Diehl & Marcais: op. cit. p. 267.
(51) Oman: The Dark Ages, pp. 284 - 285.
(52) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.
(53) Oman: The Dark Ages, p. 285.

(٧٣٩) (٥٤)، على أن الظروف تجمعت عندئذ لتجعل مساعدة شارل مارتل للبابا أمرا متعذرا، إذ كان الأول ما زال مشغولا بأمر المسلمين الذين لم تنقطع إغاراتهم على غاليا، فضلا عن أن شارل مارتل كان لايزال يذكر فضل ملك اللمبارديين فى مساعدته منذ عدة سنوات ضد المسلمين، وهكذا لم يصادف طلب البابا جريجورى الثالث قبولا من شارل مارتل، لا سيما أن رجال الدين الفرنجة كانوا معادين لشارل مارتل بسبب استيلائه على دوقية سبوليتو ثم فى مهاجمة المناطق المجاورة لروما(٥٥)، إلاّ أن الأوضاع أخذت تتغير عندما توفى البابا جريجورى الثالث وشارل مارتل جميعا سنة ٧٤١، فى الوقت الذى عاد النائب الإمبراطورى إلى رافنا ليجدد جهوده ضد اللمبارديين، وهنا أدرك ليتوبراند أن مصالحه تتطلب الاتفاق مع البابا الجديد زكريا (٧٥١ – ٧٥٢)، فتعهد له بالمحافظة على السلام لمدة عشرين سنة، ورد جميع المدن والممتلكات التى انتزعها اللمبارديون من البابوية. ومع ذلك فإن هذه الحلول لم تنجح فى إطفاء ثورة الغضب والكراهية التى أثارتها أعمال اللمبارديين فى نفوس البابوات، لذلك من الخطأ الظن بأن البابوية هدأت بالاً بعد أن استرضى ليتوبراند البابا زكريا سنة ٧٤٢، فكل ما هنالك هو أنها أخذت تتربص الدوائر باللمبارديين وتترقب الوقت المناسب للإيقاع بهم(٥٦).

ثم كان أن مات ليتوبراند سنة ٧٤٣ قبل أن يتمكن من مهاجمة النائب الإمبراطورى، فتعاقب فى حكم اللمبارديين الملك هلدبراند (٧٤٣ – ٧٤٤)، ثم راتشيس Ratchis (٧٤٤ – ٧٤٩) ثم استولف (٧٤٩ – ٧٥٦). وقد أظهر استولف هذا تمسكا شديدا بسياسة ليتوبراند الخاصة بتوحيد إيطاليا، مما جعل اللمبارديين يعودون من جديد إلى تهديد الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا، وكان أن وصلت مملكة اللمبارديين فى عهد استولف هذا إلى أقصى درجات الاتساع بعد أن نجح فى الاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١(٥٧)، دون أن يلقى مقاومة تذكر، أو حتى معارضة من

---

(54) Orton: Outlines of Med. Hist. p. 132.

(55) Thompson: op. cit. vol. 1, pp. 182 - 183.

(56) Oman: the Dark Ages. p. 287.

(57)Ostrogorsky: op. cit. p. 151.

الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس(٧٤١ - ٧٧٥) الذى كان مشغولا فى بلاده بالحركة اللاأيقونية من جهة، وبمحاربة البلغار والفرس والمسلمين من جهة أخرى[٥٨]، وبعد ذلك اتجه استولف نحو إخضاع الممتلكات البابوية بل البابوية نفسها، فطلب من البابا ستفن الثانى (الثالث) (٧٥٢ - ٧٥٧) أن تعترف روما بالتبعية لملك اللمبارديين فضلا عن قيام البابوية بدفع جزية سنوية، وقد حاول البابا أن يخيف استولف بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو بطلب معونة الإمبراطور البيزنطى ضده، ولكن هذه التهديدات وأشباهها لم تنجح فى تحويل الملك اللمباردى عن قصده، وفى ذلك الموقف الحرج وجد البابا ستفن نفسه مضطرا إلى العمل بسرعة للخروج من ذلك المأزق. وشاءت الظروف أن يكون ذلك فى الوقت الذى أعلن بيبين القصير - ابن شارل مارتل - نفسه ملكا سنة ٧٥٢ بعد عزل آخر ملوك البيت الميروفنجى، وكان أن تم الاتصال سراً فى أوائل سنة ٧٥٣ بين البابا ستفن الثانى من جهة، وبين القصير من جهة أخرى وترتب على ذلك فرار البابا فى أكتوبر ٧٥٣ إلى غاليا حيث تم الاتفاق بينه وبين بيبين، وفى يوليو ٧٥٤ أعاد البابا تتويج بيبين بيده وأضفى عليه لقب البطركية من باب التشريف[٥٩].

أمّا استولف فقد أفزعه نبأ التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية، وحاول إصلاح الأمور ولكن بعد فوات الأوان، إذ لم تلبث أن غزت جيوش الفرنجة شمال إيطاليا فى ربيع سنة ٧٥٤، وعندئذ لم يستطع استولف المقاومة فحلت به هزيمة جعلته يفر مدحورا إلى بافيا، حتى حضر بيبين القصير بنفسه وحاصر استولف فى معقله. وقد عرض استولف الصلح فى تلك المرحلة على أساس أن يقدم فروض التبعية الشخصية لملك الفرنجة وأن يرد للبابا حقوقه المسلوبة، وبعد توقيع هذه الاتفاقية عاد البابا ظافرا إلى روما كما رجع بيبين إلى بلاده. ولكن لم يكد استولف يعلم بعودة بيبين حتى أخذ يماطل فى تنفيذ اتفاقية الصلح، فامتنع عن رد المدن التى سبق أن انتزعها من البابوية ٧٥٣، بل عاد إلى محاصرة روما فى شتاء ٧٥٥ - ٧٥٦، مما تطلب عودة بيبين القصير إلى إيطاليا للمرة الثانية؛ لينزل هزيمة أخرى باللمبارديين [٦٠] وفى تلك

---

(58) Lot: The End of the Ancient World . p. 302.

(59) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 584 - 585.

(60) Idem, pp. 589 - 590.

المرة كانت الشروط التى عرضت على استولف أشد قسوة، إذ ألزمه بيبين بتقديم ثلث دخله الملكى بمثابة جزية سنوية، فضلا عن مدينة رافنا وعدد آخر من المدن التى أخلاها اللمبارديون، ولم يلبث أن توفى استولف سنة ٧٥٦، ومن ثم أخذت دولة اللمبارديين فى الذبول والانحلال ولم تعد تمثل خطراً على البابوية أو تسبب إزعاجا لدولة الفرنجة[٦١].

أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة فى إيطاليا، إذ امتدت من البحر الأدرياتى ورافنا شرقا حتى روما غربا عبر الأبنين، فى حين فشلت المملكة اللمباردية فى محاولتها توحيد إيطاليا، وهكذا اكتسبت البابوية سلطاناً زمنيا إلى جانب سلطانها الروحى، حتى ظلت عقبة كأداء فى سبيل الوحدة الإيطالية حتى القرن التاسع عشر . ومع أن حوادث سنة ٧٥٦ لم تؤد إلى اتخاذ خطوة نهائية فاصلة لتحرير البابوية من روابطها الرسمية بالإمبراطورية البيزنطية، إلاّ أنه من الواضح أن البابوية تحررت فعلا ـ وبطريقة عملية ـ من تبعيتها للقسطنطينية.

---

(61) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 186.

الباب الثامن
الرهبانية والديرية

شهد العصر الذى أخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد تدريجيا فى الإمبراطورية الرومانية، نشأة حركة دينية كانت فى أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث أن أصبحت جزءا أساسيا من النظام الكنسى. والواقع أنه يمكن القول بأن بذور حياة الزهد والرهبانية وجدت فى أصول المسيحية الأولى، فالعهد الجديد لم يخل من إشارات إلى حث الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك[١]، هذا فضلا عمّا جاء فى أقوال القديس بولس من حث على حياة العزوبة[٢] التى تعتبر ركنا مهما من أركان حياة الزهد والرهبانية[٣]، وإذا كنا نسمع عن أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية فى أوائل عهد المسيحية[٤]، إلاّ أن هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح أمرا شائعا فى الشرق المسيحى قبل القرن الرابع ، فى حين لم ينتشر فى الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس. ويفهم من هذا أن الحياة الديرية شرقية الأصل، بل إنها أقوى أثر تركه الشرق فى المسيحية[٥].

والواقع أن الزهد والعزلة ـ وهما من الدعائم الأولى للحياة الديرية ـ مهدا فى أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التى تحولت فيما بعد إلى حياة ديرية جماعية. وهنا نستطيع تفسير الرغبة فى العزلة والتقشف بأنها كانت ثورة نفسية ضد ما ساد المجتمع الرومانى فى القرن الرابع من فساد. فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة ، وبين فساد المجتمع الخارجى من جهة أخرى، دفع كثيرا من المخلصين إلى الفرار نحو الأماكن النائية ينشدون راحة الفكر والضمير[٦]

---

(١) «ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، من استطاع أن يقبل فليقبل» (انجيل متى ـ الاصحاح التاسع عشر ١٢)».

(٢) «وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة (العهد الجديد ـ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ـ الإصحاح السابع ـ ١).

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 521.

(4) Bury: Hist of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 383.

(5) Thompson: Vol. 1. p. 219.

(6) Ibid.

هذا فضلا عن أن الاضطهاد الوحشى الذى لقيه المسيحيون، والذى بلغ أشده فى أواخر عهد دقلديانوس جعل الكثيرين يفكرون فى الفرار بعقيدتهم إلى الأماكن البعيدة، وهكذا صار نبذ الممتلكات، والأهل، والموطن نوعا من أنواع الرياضة النفسية التى تستهدف خدمة الدين، فالفقر والحرمان يؤديان إلى طهارة النفس، والعزلة فى جو تكتنفه المصاعب من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام.

والمعروف أن حياة الرهبانية ظهرت لأول مرة فى المسيحية فى مصر، حيث ساعدت طبيعة البلاد وجوها على نشأة هذه الحياة وتطورها[٧]. ويعتبر القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ - ٣٥٦) والقديس أنطون - المعاصر له - أول مثلين نعرفهما عن الرهبانية فى المسيحية، ويبدو أننا لا نستطيع الكلام بالتفصيل عن حياة القديس بولس نظرا لأن اللاحقين اضفوا عليه هالة واسعة من النور يصعب فى ضوئها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال، حتى قيل إنه قضى سبعا وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهوف طيبة بمصر العليا، أما القديس أنطون فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبان فى مصر العليا، خصص فيها لكل راهب خلوة يتعبد فيها منفردا، ولايشترك رهبان المستعمرة سويا إلاَّ فى إنتاج ما يلزمهم من طعام وملبس، فالحياة الدينية المثلى فى نظر القديس أنطون قامت على أساس الانفرادية[٨].

ومهما يكن من أمر، فإن الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف البعيد عن الحكمة وطبيعة الإنسان الاجتماعية، فليس من الدين فى شيء أن يبتعد الفرد عن إخوانه من بنى الإنسان ليعيش وحيدا وسط الهوام، يقضى أيامه فى جوع وحرمان، أو يأكل ما تيسر له من طعام فاسد دون أن يرتدى شيئا سوى أسمال بالية، ويحرم نفسه حتى من نظافة الجسم[٩]. لذلك كان لابد للعقلاء الراغبين فى الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام آخر يتفق مع طبيعة البشر، ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من جهة، وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى، وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم

(7) Workman: The Evolution of the Monastic Ideal p. 86.

(8) Painter. op. cit. p. 17.

(9) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 219 - 220.

قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر(١٠)، أمَّا القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين، ثم اشتغل جنديا فى جيش قسطنطين، حتى اهتدى إلى المسيحية فانسحب إلى الصحراء ليباشر حياة الرهبانية الانفرادية متبعا الحكمة القائلة «العزلة عبادة». ولم يلبث أن ضاق باخوم ذرعا بهذه الحياة التى لا تتفق مع طبيعة البشر بحكم أن الإنسان اجتماعى بالطبع، ولذلك شيد أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة حوالى ٣١٥ - ٣٢٠(١١). وهنا يلاحظ أن باخوم تأثر عند إقامة ديره الجديد بما شاهده فى الجيش الرومانى من نظم، فجاء الدير فى تصميمه وخلواته أشبه شيء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية، كما أن القديس باخوم استنَّ لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المعروفة فى الجيش الرومانى، ففرض على أعضاء الدير الطاعة، والهدوء، والنظام، والعمل اليومى، زيادة على مباشرة الطقوس الدينية، وسرعان ما تكشفت للمعاصرين مزايا هذا النوع الجديد من حياة التعبد، فأقبلوا على الديرية إقبالا شديدا، حتى أن المؤرخ المعاصر بلاديوس Palladius الذى زار مصر حوالى سنة ٣٩٠ قدر أتباع القديس باخوم بثلاثة آلاف راهب، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى(١٢)، على أنه يلاحظ أيضًا بخصوص هذه الأديرة الباخومية، أنها كانت منفصلة بعضها عن بعض، ولكل منها إدارته المستقلة(١٣)، كما أن الحياة الاجتماعية فيها كانت محدودة، بل إن الطابع الغالب على الحياة داخل هذه الأديرة كان طابع العزلة والانفرادية لأن كل راهب عاش شبه مستقل فى خلوته أو قليته مع إلزامه بالاجتماع مع إخوانه للقيام بالصلوات المشتركة(١٤).

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبانية والديرية خارج حدود مصر فى الجزء الشرقى من العالم الرومانى، أى فى بلاد الشام وقبرص وما بين النهرين وآسيا الصغرى(١٥)، ففى بلاد الشام نسمع عن القديس سيمون العمودى (ت٤٥٩)

---

(10) Bury: op. cit. p. Vol, 1. 338.
(11) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 524.
(12) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 220.
(13) Moss: The Birth of the Middle Ages, p. 37.
(14) Painter: op. cit. pp. 17 - 18.
(15) Workman: op. cit. pp. 111 - 113.

الذى اتخذ مقامه فوق عمود لمدة ثلاثين عاما، مكتفيا بأن يدلى سلة صغيرة بواسطة حبل؛ ليحصل فيها على ما يحتاج اليه من لوازم أساسية[١٦]، وفى آسيا الصغرى أسست أخت القديس باسل ديرا للراهبات سنة ٣٥٨ فى إقليم بونطس (Pontus) أمّا القديس باسل نفسه (٣٢٩ - ٣٧٩) فقد درس الأنظمة الأنطونية والباخومية ولم تعجبه، فأسس مؤسسة ديرية فى قيصرية الجديدة (Neocaesarea) بآسيا الصغرى أيضًا حوالى سنة ٣٦٠، وسرعان ما غدت التنظيمات التى وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للأديرة الباسلية التى انتشرت فى الشام، وفلسطين، وبلاد اليونان حتى صارت هذه الأديرة تتزعم الحياة الديرية فى الإمبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى[١٧].

والواقع أن نظام القديس باسل هذا جاء مزيجا من المثالية والواقع العملى، إذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل الدير، وجعل الرهبان يشتركون سويا اشتراكا فعليا فى الحياة العامة، والطعام، والعمل، والعبادة داخل الدير، كما نبذ فكرة إقامة الأديرة فى الصحراوات والمناطق المتطرفة وفضل إقامتها على مقربة من المدن إن لم يكن فى المدن نفسها[١٨]. كذلك حرم القديس باسل تعذيب النفس، وإهمال الجسد، وحث على العناية بالنظافة والعمل، فبدلا من أن يترك الرهبان أجسادهم تذبل وتبلى بدعوة التقشف والزهد، جعلهم القديس باسل يوجهون نشاطهم نحو أعمال نافعة ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل المنطقة التى يقع فيها الدير[١٩]. وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النافع المفيد داخل الدير، مثل الفلاحة، والنسيج، وصناعة الجلود، والأخشاب، والبناء، مع تحريم الملكية الخاصة على أعضاء الدير، بحيث لايمتلك الراهب إلاّ ثوبه ونعليه، وكان يراعى فى ثيابه البساطة، والرخص، والنظافة، أما

(16) Stephenson: op. cit. p. 87.

(17) Workman: op. cit. pp. 113 - 115.

(18) Cam. Med. Hist. Vol.1, pp. 527 - 528.

(19) Thompson: Vol. 1, p. 221.

طعامه فكان كافياً مغذياً دون إسراف، ومن هذا كله يمكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقى للحياة الديرية فى المسيحية(٢٠).

ولكن على الرغم من أن الديرية احتلت مكانة ملحوظة فى الحياتين الدينية والاقتصادية منذ القرن الرابع، إلا أنها لم تخل من مساوئ وعيوب، من ذلك ما ردده بعض الباحثين من أن الديرية قامت فى أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب التدين، فكل راهب يفكر فى إنقاذ نفسه وتجنيبها الضلال دون أن يفكر فى غيره بالقدر الذى يفكر به فى نفسه، بل ربما أوقعته عزلته عن المجتمع البشرى الكبير فى كثير من الأخطاء(٢١). وإذا كان الراهب يقوم بشيء من أعمال البر والإحسان فإنه لا يقوم بها رحمة بأخيه الإنسان وإنما رحمة بنفسه ووسيلة تقرب بها إلى الله، وهو يعمل داخل الدير لا لأن العمل نشاط نافع لنفسه وللمجتمع أو وسيلة لمساعدة غيره، وإنما يتخذ من العمل منفذا لتصريف طاقة الحماسة المكبوتة فى نفسه، فالراهب يهجر العالم ويلوذ بديره؛ لأنه فى حقيقة الأمر أجبن من أن يواجه مصاعب الحياة ويعمل على تعديل ما بها من انحراف، وتقويم ما فيها من آثام وشرور(٢٢). وهذا يبدو أنه على الرغم من اتجاه بعض كبار رجال الكنيسة ـ حنا فم الذهب ـ إلى إعلاء شأن الحركة الديرية، إلاّ أن ذلك لا يخفى الحقيقة المهمة، وهى أن هذه الحركة أصبحت عاملا من عوامل التفكك والانحلال التى أخذت تنخر فى جسم المجتمع، ويبدو أن هذه الحقيقة اتضحت للمعاصرين منذ وقت مبكر يرجع إلى النصف الثانى من القرن الرابع عندما شكا مجمع جانجرا Gangra سنة ٣٦٢ من أن نشاط الحركة الديرية أدى فعلا إلى تمزيق كيان الأسرة وشلّ كثيراً من مرافق الحياة العامة(٢٣)، هذا فى الوقت الذى انتاب الفزع الحكومة الرومانية، لكثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم لينخرطوا فى سلك الديرية، فاستنت قانونا يقضى بتحريم دخول الأديرة على اللائقين للخدمة العسكرية. وربما كان من العوامل التى دفعت الدولة إلى اتخاذ مثل هذا القرار

---

(20) Painter: op. cit. p. 18.

(21) Tayloe: The Mediaeval Mind. Vol. 1, pp. 373 - 374.

(22) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 221 - 222.

(23) Workman: op. cit. p. 56.

أن الديريين أخذوا يشتبكون أحيانا مع الكنيسة والدولة ويبعثون أتباعهم المسلحين بالعصى الغليظة لفرض آرائهم على المجامع الدينية(٢٤)، هذا فضلا عن أن الرهبان فاقوا غيرهم من الطوائف المسيحية فى شدة تعصبهم، الأمر الذى جعلهم يحرضون جموع الناس على التطرف فى العنف ضد الوثنيين والهراطقة. وقد اتضح تعصب الرهبان الشديد ضد كل ما له علاقة بتقاليد الوثنية وحضارتها فى أن مولد الحركة الديرية جاء مصحوبا من الناحية الزمنية بآخر حلقات الصراع بين المسيحية والوثنية المتداعية(٢٥)، وهنا يجب أن نتذكر أن التراث الكلاسيكى فى النواحى الأدبية، والفنية والفلسفية، والعلمية يرتبط ارتباطا شديدا بالوثنية وتقاليدها، ممّا جعل الديريين يعملون على هدم هذا التراث والقضاء عليه دون أن يفرقوا بين عقائد الوثنية وحضارتها، وحسبنا أن كثيرا من الأعمال الهدامة البشعة التى اقترفت ضد التراث الوثنى قام بها الديريون، مثل تحطيم المعابد الوثنية وما بها من مخلفات فنية، وحرق المكتبات وخاصة مكتبة الإسكندرية الثانية، واضطهاد رجال الفكر والفلاسفة والأبرياء بل تحريض الغوغاء على سفك دمائهم، كما حدث للفيلسوف هيباشيا Hypatia (٢٦).

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الحياة الديرية أدى إلى وجود فئتين من رجال الدين، الأولى تشمل رجال الدين النظاميين Regula أى رجال الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم محددة، وهؤلاء اختلفوا فى وضعهم القانونى والتاريخى والاجتماعى عن الفئة الثانية من رجال الدين «الدنيويين» أو «العلمانيين» (Saecula) ، أى رجال الكنيسة من أساقفة وشمامسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العكس من الديريين كانوا أكثر تداخلا فى الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعامة الناس(٢٧). وبقدر ما كان الفارق واضحا بين هاتين الفئتين وبقدر ما كان التنافس شديدا بينهما حول النفوذ والثروة، بقدر ما تأثرت إحداهما بالأخرى وأثرت فيها، من ذلك أن الهبات والعطايا - من أرض وعقار ورقيق وغيرها - أخذت تنهال على مقدمى الأديرة فى

(24) Moss: op. cit. p. 37.

(25) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 221 - 222.

(26) Ibid.

(27) Stephenson: op. cit. p. 92.

القرن السابع مثلما انهالت على الأساقفة منذ القرن السادس، ومن جهة أخرى أصرت الكنيسة فى بعض العصور على تطبيق مبدأ عدم زواج رجالها أسوة بما كان عليه الديريون (٢٨)، حقيقة أن فكرة عدم زواج رجال الدين بوجه عام أكثر قدما من الديرية نفسها، ولكن هذه الفكرة لم تقو وتشتد وتصبح مجالا للبحث والنقاش فى المجامع الدينية إلاّ بعد انتشار الحياة الديرية.

الديرية فى غرب أوربا:

وصلت الحياة الديرية إلى غاليا وإيطاليا، وشمال أفريقية قبل قيام الدولة الميروفنجية فى القرن خامس(٢٩)، وكان النظام الديرى الذى انتشر فى الغرب الأوربى قبل نهاية القرن الرابع شديد الشبه بالنظام الباخومى الذى عرفته مصر(٣٠) ذلك أن كثيرا من الحجاج الغربيين الوافدين من روما، وغاليا، وإسبانيا زاروا الأديرة الباخومية فى مصر ونقلوا معهم فكرتها إلى الغرب(٣١)، هذا إلى أن جيروم ترجم سنة ٤٠٤ نظام باخوم الديرى إلى اللاتينية، وبذلك وضع أمام الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التى عرفتها مصر(٣٢).

ويرتبط تاريخ الديرية فى غرب أوربا بأربعة أسماء لامعة هم: القديس كاسيان (حوالى ٣٦٠ – ٤٣٥)، والقديس مارتن التورى (حوالى ٣١٦ – ٣٩٧)، والقديس قيصر الآرلى (ت ٥٤٢)، والقديس بندكت (حوالى ٤٨٠ – ٥٤٣). ويعتبر أول هؤلاء - وهو القديس كاسيان - المؤسس الحقيقى للديرية الغربية على الرغم من وجود بعض رهبان من الغرب - وخاصة فى غاليا - قبل عصر كاسيان، وقد امتاز نظام كاسيان - بروح الابتكار لأنه لم تسبق له رؤية الأديرة الباخومية، ومن ثم جاء نظامه وليد خبرته(٣٣). أمّا القديس مارتن فقد فاق كاسيان فى اتساع نفوذه لأن الأول نجح فى اكتساب تأييد الرأى العام الشعبى وعطفه فى حين فشل الثانى فى ذلك، وكان مارتن

(28) Eyre: op. cit. p. 215.
(29) Deansly: op. cit. p. 70.
(30) Stephenson: op. cit. p. 88.
(31) Moss: op. cit. pp. 36 - 37.
(32) Workman: op. cit. p. 117.
(33) Idem: p. 231.

قد انتخب بالإجماع أسقفا لتور سنة ٣٧٢، وعلى مقربة منها أسس ديره الشهير (مارموتير) (Marmoutier)[٣٤]، ومع ذلك فإن القديس مارتن لم يترك أثرا واضحا فى تنظيم الحياة الديرية؛ إذ قضى معظم حياته فى محاربة الوثنية فى غاليا، ولاسيما فى المناطق الريفية، ممّا جعل الوثنية وأنصارها يفرون إلى الغابات والمستنقعات حيث استمروا عدة سنوات ، أما القديس قيصر الآرلى فاختلف عن زميليه السابقين فى أنه عاش فى الوقت الذى كان الفرنجة قد غزوا غاليا فعلا، ولذلك نجد اسمه مقحما فى كثير من الأحداث السياسية والدينية المعاصرة ، وقد وضع نظاماً للرهبان والراهبات يتضح فيه تأثره بآراء كل من كاسيان والقديس أوغسطين، كذلك وضعت شقيقة قيصر، وهى القديسة قيصرية Caesaria نظاما لدير الراهبات فى آرل Arles بمعاونة أخيها، وينص هذا النظام على أن تشغل الراهبات وقتهن بالغزل والطهى فضلا عن نسخ الكتب[٣٥]. وهكذا أخذ الأديرة تنتشر فى غاليا فى عهد خلفاء كلوفس، ولاسيما أن الملوك والقواد أسسوا عدداً كبيرا منها[٣٦].

أما إيطاليا فيلاحظ أن الحركة الديرية لم تتقدم فيها حتى القرن السادس، لعدم ظهور أحد أعلام الديرية ومؤسسيها فى تلك البلاد، كما كان الحال بالنسبة لباخوم فى مصر، وباسل فى آسيا الصغرى، وكاسيان فى غاليا[٣٧]. وهكذا يمكن القول بأنه حتى بداية القرن السادس كانت غاليا هى البلد الوحيد فى غرب أوربا الذى وجدت به مجتمعات ديرية منظمة، وذلك على الرغم من وجود رهبان متفرقين أو جماعات غير منظمة ديرية من عشّاق حياة الزهد فى كثير من بلاد الغرب، ولكن الوضع أخذ يتغير فى القرن السادس نتيجة لجهود ثلاثة رجال نفخوا فى الحركة الديرية بإيطاليا روحا جديدة وأعطوها طابعًا غربيا، هؤلاء الرجال هم: بندكت، وكاسيدور، وجريجورى[٣٨]، أما القديس بندكت فهو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى الذى عرف باسمه والذى جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة فى الغرب بعد

(34) Deanesly: op. cit. p. 71.
(35) Idem. p. 74.
(36) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 147.
(37) Dudden: Gregory the Great: Vol. 2, p. 160.
(38) Idem p. 161.

أن حلّ النظام البندكتى محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة، كما تمتع ـ لأول مرة فى تاريخ المنظمات الديرية ـ بتأييد البابوية وعطفها، ولايمكن أن نصف هذا النظام البندكتى ـ الذى أحرز النصر النهائى فى غرب أوربا ـ بأنه باخومى أو باسلى؛ لأن له طابعه الخاص الذى لا يوصف إلا بأنه بندكتى(٣٩).

وقد ولد القديس بندكت هذا حوالى سنة ٤٨٠ فى أسرة إيطالية معروفة بالثراء والأرستقراطية، فأرسل إلى روما ليتلقى تعليمه، ولكنه ضاق ذرعا بما لمسه من مظاهر الفساد الخلقى وآثر الفرار إلى مكان جبلى منعزل، حيث عاش فى كهف بعيد، معتمدا على ما يمده به المقربون من مأكل ولوازم ضرورية(٤٠)، ولم تلبث أن ذاعت شهرة هذا الرجل التقى، فقصده الناس طلبا للبركة حتى تجمع حوله عدد من المريدين، وعندئذ فكر بندكت ـ حوالى سنة ٥٢٠ ـ فى الانتقال إلى مكان بعيد عن روما فأرسل بعض أتباعه للبحث عن موضع أكثر ملاءمة، وكان أن عاد هؤلاء ليخبروا كبيرهم بأنهم عثروا على مكان مناسب فى منتصف الطريق بين روما ونابلى عند مونت كاسينو، حيث يوجد معبد قديم للإله أبولو مازال يتردد عليه بعض الفلاحين من المناطق المجاورة(٤١)، وهكذا اختار بندكت ذلك الموضع لإقامة ديره الأول مستخدما فى ذلك أحجار المعبد الوثنى القديم، ثمّ أخذ رهبان الدير الجديد يعملون فى تطهير المنطقة المجاورة من الغابات، والمستنقعات، واستصلاح أراضيها للزراعة، حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالى المناطق القريبة بالغلات والمحصولات المتباينة خلال أوقات الشدة(٤٢).

على أن المهم فى دير مونت كاسينو هو أنه أصبح مركزا وأبا روحياً لشبكة واسعة من الأديرة التى تأسست فى غرب أوربا وفق النظام الأساسى الذى وضعه القديس بندكت لهذه المنظمة(٤٣)، ذلك أن بندكت كان على علم تام بمساوئ الديرية الشرقية

---

(39) Stephenson: op. cit. p. 88.
(40) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 536.
(41) Workman: op. cit. p. 142.
(42) Thompson op. cit. Vol. 1, pp. 226 - 227.
(43) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 551.

وعيوبها، كما أنه أحاط بنظام الأديرة الباسلية بعد أن ترجمت مبادئ هذا النظام من اليونانية إلى اللاتينية، مما دفع القديس بندكت إلى تلافى هذه العيوب فى نظامه الجديد الذى صار من أعظم التنظيمات الدينية فى العصور الوسطى، كما غدا أساسا لجميع التنظيمات الديرية التالية(٤٤)، وقد قام النظام البندكتى على ثلاثة أركان أساسية هى إنكار الذات، والطاعة، والعمل، وهكذا ساد الأديرة البندكتية جو من التعبد، والهدوء والنظام، والعمل اليدوى، بحيث لم يترك هذا كله مجالا للأنانية، والكبرياء، واللغو والخمول(٤٥)، وكان ينبغى على من يريد الانضمام إلى الدير البندكتى، أن يقضى أولا فترة تحت الاختبار حتى تثبت صلاحيته وإخلاصه، وبعد ذلك يقسم يمين الولاء لنظام الدير، وعلى أن يظل عازبا فقيرا مطيعا، وعندئذ يتخلى عن إرادته؛ ليخضع خضوعًا تاما لمقدم الدير ـ وهو رئيسه المنتخب ـ فلا يمكنه أن يخرج خارج أسوار الدير إلا بتصريح من ذلك المقدم(٤٦)، ومن هذا يتضح أن مقدم الدير البندكتى كان يتحمل مسئولية جسيمة لأنه هو المسئول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير؛ لذلك خول القديس بندكت مقدم الدير سلطة عليه فى كل شيء، فرأيه هو النهائى فى جميع المسائل ، ولا يجوز الالتجاء إلى أية جهة أخرى لنقض قراراته، هذا وإن كان على هذا المقدم أن يستشير بقية رهبان الدير قبل أن يبت فى أمر مهم(٤٧).

أمَّا عن الحياة داخل الدير البندكتى فامتازت بالمساواة التامة بين أعضائه، فالحر والرق، والشريف والوضيع كلهم سواء دون أن يكون هناك فضل لعضو على آخر إلاَّ بالعمل الطيب، وكانت روح الاعتدال تسيطر على حياة الرهبان، فيأكلون طعاما كافيا، وينامون ما يقرب من ثمان ساعات ليلا، كل منهم فى فراشه الخاص، مع عدم حرمانهم من قدر معلوم من النبيذ، وإذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركان الحياة الديرية، إذ يجتمع الرهبان للاشتراك فى الصلاة والترتيل ثمان مرات يوما(٤٨)،

(44) Idem: Vol. 5, p. 658.
(45) Thompson: op. cit Vol. p. 227.
(46) Painter: op. cit. pp. 74 - 75.
(47) Workman: op. cit. p. 146.
(48) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538.

إلاّ أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة، فقال بأن العمل عبادة Laborare est orare وخصص لرهبان الدير ما يقرب من سبع ساعات يوميا يقضونها فى فلاحة الأرض، أما كبار السن من أعضاء الدير الذين لايحتملون مشقة العمل فى الحقل ، فكانوا يكلفون أعمالاً تتفق مع مقدرتهم، كبعض الصناعات الخفيفة أو طهى الطعام وإعداده، أو نسخ الكتب الدينية، أو تعليم الرهبان الجدد أو الأطفال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا فى مدرسة الدير(٤٩).

أما الرجل الثانى الذى ترك أثراً واضحًا فى تطور الديرية فى إيطاليا، بل فى الغرب الأوربى فهو كاسيدور (٤٩٠ – ٥٨٥) الذى اعتزل خدمة الملكية القوطية فى إيطاليا بعد حياة سياسية حافلة بالعمل الكثير. وآثر الانقطاع لحياة الرهبانية، وذلك قبل وفاة القديس بندكت بأربع سنوات أو خمس، وقد أسس كاسيدور ديرين فى كالبريا موطن آبائه وأجداده(٥٠) . ويلاحظ أنه آمن بأن الحياة الديرية لا تستلزم كراهية الطبيعة وجمالها أو ضرورة حرمان الفرد من الضروريات التى تحقق له السعادة والراحة الديرية، على أن أهم ما عنى به كاسيدور هو أن يجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة، لا معرفة اللاهوت والعلوم الدينية فحسب، بل العلوم الدنيوية أيضًا ،لأن عقولنا تتدرب على فهم الإنجيل والكتابات الدينية عن طريق دراسة الأدب الدنيوى، لذلك تحمل كاسيدور كثيرا فى سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحوى مجموعة نادرة من المخطوطات التى تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين، فرجال اللاهوت يجدون فيها نسخا مصححة مقارنة من الإنجيل، زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين، أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسيدور مجموعة من إنتاج رجال الأدب والبلاغة - شعرا ونثرا - فوق ما جمع من كتب التاريخ، والجغرافيا، والموسيقى، والعلوم. وهكذا يرجع الفضل إلى كاسيدور فى زيادة القيمة العلمية للأديرة، وهى الناحية التى ظهر أثرها فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية فى غرب أوربا(٥١).

---

(49)Stephenson: op. cit. pp. 91 - 92.

(50) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p 538.

(51) Dudden: op. cit. Vol. 2, pp. 169 - 173.

وأخيرا يأتى جريجورى الأول (٥٤٠ – ٦٠٤)؛ وهو الديرى الذى أصبح بابا سنة ٥٩٠ ليقوم بدور المنظم للحياة الديرية فى غرب أوربا. فالفارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يسهم مثلهما بنواح مبتكرة فى نظم الحياة الديرية ومثلها، ولكن جهوده ظهرت فى تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذى أتى به القديس بندكت، فضلا عن تحديد العلاقة بين الديريين من جهة، والأساقفة ورجال الدين العلمانيين من جهة أخرى، وهكذا نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب بين الحياة الديرية من جانب، والكنيسة والبابوية من جانب آخر، وهو أمر لانجد له شبيها فى الشرق البيزنطى، حيث ظلَّ التباعد واضحا بين هيئة الكنيسة من رجال الكهنوت المتزوجين وبين الديريين العزاب[٥٢].

والواقع أن البابا جريجورى العظيم استغل الديرية كأداة فعالة تساعده فى تنفيذ سياسته ونشر المسيحية، ولا عجب فى ذلك، فقد كان هذا البابا راهبا بندكتيا شديد التحمس للديرية حتى أنه استغل ثروته الموروثة الطائلة فى تأسيس عدد كبير من الأديرة منها ستة فى صقلية وواحد فى روما[٥٣]، كذلك اختار جريجورى العظيم معظم أعضاء البعثات التبشيرية التى أرسلها إلى مختلف الجهات من الرهبان البندكتيين[٥٤]، ومن هذه الإرساليات بعثة القديس أوغسطين الصغير ـ مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى فى روما ـ وقد أوفده البابا إلى إنجلترا سنة ٥٩٦ على رأس بعثة من تسعة وثلاثين راهبا ليعيدوها إلى حظيرة المسيحية بعد أن ظلت خارجها ما يقرب من قرنين نتيجة لغزوات الجوت، والإنجلز والسكسون؛ وهى الغزوات التى أدت إلى تحطيم الحضارة الرومانية وذبول المسيحية فى بريطانيا. وفى سنة ٦٠١ طلب أوغسطين من البابا إمداده بعدد آخر من الرهبان لمساعدته فى جهوده التبشيرية، فأمده البابا بمجموعة أخرى من المبشرين البندكتيين[٥٥] وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافها، فأسس ديرا فى كانتربورى؛ وهو المكان

(52) Workman: op. cit. p. 152.
(53) Dudden: op. cit Vol. 1., p. 207.
(54) Workman: op. cit. p. 169 - 172.
(55) Dudden: op. cit. Vol. 2, p. 123.

الذى شيدت عليه الكاتدرائية الشهيرة، فيما بعد، واتخذ الرهبان هذا الدير مركزا لنشاطهم التبشيرى الذى قام على أساس تحويل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس بدلا من هدمها(٥٦)، ولم يلبث أثلبرت ـ ملك كنت ـ أن اعتنق المسيحية وتبعه كثيرون من رعاياه، كما أنعم الملك على رجال الكنيسة الجديدة بكثير من المنح والأراضى(٥٧).

الديرية الأيرلندية:

على أن الإرساليات البندكتية التى قصدت إنجلترا وغاليا الفرنجية، صادفت فى طريقها نوعا من الأديرة الكلتية التى انتشرت من أيرلندا إلى إنجلترا، وغاليا، وألمانيا، وكانت أيرلندا هى البلد الوحيد من البلاد المعروفة للقدماء فى غرب أوربا الذى لم يفتحه الرومان، مما ترك القراصنة الإيرلنديين ـ من عنصر الكلت ـ أحرارا فى مواصلة إغاراتهم العنيفة على بريطانيا، وخاصة فى أوائل القرن الخامس أى فى أواخر حكم الرومان لبريطانيا.

وفى إحدى هذه الغارات ـ حوالى سنة ٤٠٠ ـ أسر الأيرلنديون شابا اسمه سوكات Succat، قدر له أن يصبح فيما بعد القديس باتريك (ت ٤٦١) مؤسس الكنيسة الأيرلندية(٥٨)، ذلك أن سوكات قضى ست سنوات أسيرا فى أيرلندا، فرّ بعدها إلى غاليا حيث قضى بعض الوقت فى التعلم، حتى فكر بعد ذلك فى العودة إلى أيرلندا ليقوم بنشر المسيحية بين ربوعها، وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة فى أيرلندا قبل ذلك الوقت، بدليل أن البابا كالستين الأول أرسل سنة ٤٣١ مبعوثا اسمه بلاديوس إلى أيرلندا ليكون أول أسقف لها(٥٩)، ألا أن القديس باتريك يعتبر صاحب الفضل الحقيقى فى تحويل أيرلندا إلى المسيحية الغربية، كما أن الفضل يرجع إليه فى تأسيس أسقفية أرماغ فى الشمال الشرقى من أيرلندا سنة ٤٤٥(٦٠).

ويبدو أن تطرف أيرلندا وعزلتها ساعدا على احتفاظ الكنيسة الأيرلندية ببعض

---

(56) Workman: op. cit. p. 172 - 174.

(57) Hodgkin: The Hist. of England. pp. 117 - 119.

(58) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 533.

(59) Idem: Vol. 2, pp. 503 - 505.

(60) Deamesly: op. cit. p. 468.

الأوضاع الكنسية القديمة، بعد أن درست هذه الأوضاع واختفت من صلب القارة. وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضاع؛ لذلك بدأ الخلاف بين الأيرلنديين والبابوية منذ عهد البابا جريجورى العظيم، ولم ينته هذا الخلاف حتى سنة ٧٣٣ عندما قبل الأيرلنديون مسايرة الأوضاع المعمول بها فى الكنيسة الرومانية.

وقد اتجه الأيرلنديون فى القرن السادس نحو إرسال بعثات تبشيرية من الرهبان إلى سكتلند، وبريطانيا، وغاليا، مدفوعين فى ذلك بحبهم للتجوال والسياحة من جهة، وبحماستهم الدينية من جهة أخرى. وكان رائد هذه الحركة القديس كولمبا St. Columba الذى اتجه سنة ٥٦٣ على رأس اثنى عشر من إتباعه لتأسيس دير فى جزيرة أيونا Iona غربى البلاد المعروفة الآن باسم سكتلند(٦١)، ومن هذا الدير اتجه المبشرون لتحويل البكتيين Picts - وهم العناصر القديمة التى سكنت سكتلند الحالية - إلى المسيحية(٦٢)، ولم يلبث المبشرون الأيرلنديون أن مدوا نشاطهم إلى إنجلترا نفسها، حيث التقوا بالبعثات التبشيرية التى أرسلتها روما، وهكذا تم القضاء فى القرن السابع على وثنية الأنجلوسكسون بعد أن تعرضت بلادهم لغزو المبشرين الأيرلنديين من الشمال، والمبشرين الرومان من الجنوب(٦٣).

وفى ذلك الوقت نفسه، قام المبشرون الأيرلنديون بغزو القارة. وأول هؤلاء المبشرين وأعظمهم كان القديس كولمبانوس Columbanus (٥٤٣ - ٦١٥) الذى نزح مع أربعين من أعوانه - حوالى سنة ٥٨٥ - إلى بريطانيا ومنها إلى غاليا، حيث أسس ديرا شهيرا عند أناجريت Anagrates فى برجنديا سنة ٥٩١، ولم يلبث هذا الدير أن اجتذب كثيرا من الراغبين فى الحياة الديرية، مما شجع القديس كولمبانوس على تأسيس دير جديد جنوبى الأول بثمانية أميال عند لوكسويل Luxeuil (٦٤). ويلاحظ أن القديس كولمبانوس أهمل عند تأسيسه هذه الأديرة إحدى القواعد المعمول بها فى القارة، وهى أنه يتعين على مقدم الدير أن يحصل أولا على موافقة الأسقف الذى يقع

(61) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 533.
(62) Workman: op. cit. p. 199 - 200.
(63) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 232.
(64) Cam. Med. Hist. Vol. !, pp. 533 - 534.

الدير داخل دائرة أسقفيته، مما أدى إلى صدام بين الطرفين، ولم يلبث دير لوكسويل أن نما هو الآخر بسرعة، مما شجع على إقامة أديرة أخرى لكل منها مقدم، أهمها دير فونتين Fontaines (٦٥). أما القديس كولمبانوس فقد ظلَّ يعمل عشرين عاما فى دير لوكسويل حتى استفزت سياسته الصارمة الخاصة بنقد البلاط والكنيسة عداء الطرفين، مما جعله ينزح إلى سويسرا حيث أخذ يواصل جهوده فترة قصيرة حول بحيرة كونستانس(٦٦)، ولم يلبث أن اضطر القديس كولمبانوس إلى مغادرة سويسرا مع أعوانه، فعبر جبال الألب إلى إيطاليا حيث أحسن ملك اللمبارديين استقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيبو Bobbio شمالى جنوا، وفى هذا الدير ـ الذى أصبح من أعظم أديرة أوربا فى العصور الوسطى وأوفرها ثروة فى المخطوطات ـ قضى القديس كولمبانوس السنوات الثلاث الأخيرة من حياته حتى توفى سنة ٦١٥(٦٧). على أن نظام الأديرة الذى وضعه القديس كولمبانوس، لم يقدر له البقاء طولاً لأنه لم يقرر وسيلة للربط بين هذه الأديرة بعضها وبعض، كما أنه اصطدم فى سرعة بالنظام البندكتى، ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صبغة عملية أوضح، فضلا عن تمتعها بعطف البابوية ورعايتها، فإن نظام القديس كولمبانوس لم يستطع الثبات طويلا أمامها(٦٨).

ولم يقتصر نفوذ الأديرة الأيرلندية على هذه الجهات السابقة، وإنما امتد أيضاً إلى جهات أخرى فى وسط أوربا لم تكن المسيحية قد وصلت إليها بعد، ففى جنوب ألمانيا قامت عدة أديرة أيرلندية أشهرها ورزبرج، ورجنسبرج، وسانت جال St. Gall وغيرها من الأديرة التى ظلت تحتفظ بذكرى أصلها الكلتى الأيرلندى على الرغم من تأثرها فيما بعد بالنظام البندكتى، ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثامن إلاَّ كانت جميع الأديرة الأيرلندية قد غدت من الوجهة العملية خاضعة لإشراف البابوية، كما انتهى استقلال الكنيسة الأيرلندية، على أن الأديرة الأيرلندية ـ بوجه خاص ـ تركت

---

(65) Workman: op. cit. p. 207.

(66) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 148.

(67) Workman: op. cit. p. 208.

(68) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 232 - 233.

أثرا عميقا فى الحياة الدينية وغير الدينية فى غرب أوربا، ويكفى أنها أصبحت مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية . كما أن كثيرا منها ـ مثل بوبيو وسانت جال وغيرها من الأديرة الأيرلندية بأيرلندا وإنجلترا امتازت بغنى مكتباتها بالمخطوطات الكلاسيكية النادرة[٦٩]، هذا إلى أن حمية البعثات الأيرلندية وحماستها أشعلت حركة التبشير فى أوربا العصور الوسطى، وكان الأيرلنديون هم أول من تمسك بالمبدأ الخاص باستقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة؛ وهو المبدأ الذى لم يعترف به غرب أوربا إلاّ فى القرن الحادى عشر.

المبشرون الإنجليز فى غاليا وألمانيا :

ازداد عدد البعثات التبشيرية الإنجليزية فى الخارج زيادة كبيرة منذ أواخر القرن السابع، ففى سنة ٦٧٧ جنحت سفينة ولفرد أسقف يورك الأنجلوسكسونى على شاطئ فريزيا وهو فى طريقه إلى روما، فقضى الشتاء فى هذه البلاد، وفى سنة ٦٩١ عبر وليبرورد Williborord ـ وهو أحد رجال الدين الإنجليز ـ البحر إلى فريزيا حيث ساعده بيبين هرستال على تأسيس أسقفية أوترخت، ومن ثم استمر يعمل على نشر المسيحية فى تلك الجهات ما يقرب من خمسين سنة [٧٠] ، على أن أعظم رجال الكنيسة ورهبان المسيحية فى القرن الثامن كان دون شك القديس بونيفيس الذى تلقى تعليمه فى اكستر ثم عبر البحر سنة ٧١٥ إلى فريزيا، وعندما وجد الحرب متأججة بين الفريزيين وشارل مارتل، عاد إلى إنجلترا ومنها إلى روما سنة٧١٨ حيث زودته البابوية بالنفوذ والسلطة اللازمين للقيام بجهوده التبشيرية فى ألمانيا[٧١] . وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات فى هس Hesse حتى عينه البابا رئيسا لأساقفة ميتز سنة ٧٤٤، وهو الكرسى الأسقفى الرئيسى فى ألمانيا[٧٢]، وهناك فاقت جهوده ما قام به الرهبان الأيرلنديون من إدخال الحضارة اللاتينية وتنظيمها، وإليه كذلك يرجع الفضل فى تأسيس كثير من الأسقفيات والأديرة فى الأراضى الألمانية مثل أسقفيات

---

(69) Eyre: op. Cit. pp. 266 - 267.

(70) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 541 & Vol. 2, p. 535.

(71) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 236.

(72) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540.

ورزبرج، وماربورج، وأرفرت، وأديرة فولدا، وهرسفلد، وأورثرف، وأمونبرخ، هذا إلى أن القديس بونيفيس تبعته بعض النساء الإنجليزيات إلى ألمانيا مثل والبورجا Walburga، وليوبا Lioba ، وثكلا Thekla وهؤلاء أسهمن فى تأسيس كثيرمن الأديرة البندكتية الخاصة بالنساء في ألمانيا(٧٣) كذلك كان للقديس بونيفيس دور أساسى فى دعوة مجمعى لفتناس Liftinas (سنة ٧٤٣)، وسواسون (سنة ٧٤٤) وفى القرارات التى أصدرها هذان المجمعان(٧٤)، أما جهوده السياسية فكانت لا تقل أهمية عن جهوده الدينية؛ إذ يرجع إليه الفضل فى التوفيق بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل، كما أنه تولى المفاوضات بين بيبين القصير والبابوية؛ وهى المفاوضات التى انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين، واعتلاء بيبين عرش دولة الفرنجة (سنة ٧٥١)، وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والدولة الكارولنجية(٧٥).

ويبدو أن هذه الأعمال والمشاغل العديدة صرفت بونيفيس فيما بين سنتى ٧١٨ ، ٧٥٢ عن الهدف الذى كرس نفسه له فى شبابه وهو تحويل الفريزيين إلى المسيحية، وقد أدرك بعد سنة ٧٥٢ أنه أتم أعماله السياسية والإدارية، فعزم على العودة إلى فريزيا ـ التى كانت لاتزال على وثنيتها ـ لمباشرة نشاطه التبشيرى، ولكن الفريزيين الوثنيين أحاطوا به هذه المرة وقتلوه سنة ٧٥٥، وبذلك انتهت صفحة علم من أعلام المسيحية الغربية فى العصور الوسطى(٧٦).

وبعد. فإنه يتضح لنا مما سبق كيف قام الديريون بدور فعّال فى نشر المسيحية وحفظ الحضارة فى عصر مضطرب اتصف بالفتن والحروب. أمّا فى الميدان الاقتصادى فإن نشاطهم أدى إلى إصلاح كثير من الأراضى، والنهوض بالزراعة، زيادة على جهودهم العملية فى النسيج والصباغة، ودبغ الجلود وصناعتها الأمر الذى تبعه نبوغهم فى زخرفة المخطوطات وتزيينها، على أنه يتضح لنا بالموازنة بين الديرية فى الشرق والغرب أن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى جعل الديرية أداة

---

(73) Workman: op. cit. p. 176.

(74) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540.

(75) Deanesly: op. cit. pp. 289 - 290.

(76) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 237.

فعالة فى خدمة الحضارة الغربية، ففى الشرق اليونانى ظلت الديرية أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان الحضارى والمجتمع الإنسانى، أمّا فى الغرب فإن الأديرة البندكتية غدت مراكز الحضارة والتعليم، فيها تنسخ الكتب وفى مدارسها يتعلم الصغار والكبار[٧٧]، هذا إلى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل فى الموازنة بينها وبين الديرية الشرقية، بقدر ما تتمثل فى الأثر الذى تركه النظام البندكتى فى حياة العصور الوسطى وفكرها.

ففى الوقت الذى كان العالم الرومانى يحقر من شأن العمل اليدوى، ويعتبر هذا النوع من الأعمال وقفا على الرقيق، إذا بالنظام البندكتى يضع العمل اليومى فى منزلة العبادة، ويجعله جزءا أساسيًا من حياة الديريين؛ وبذلك أصبحت الديرية عاملا إيجابيا منتجا فى المجتمع ولم تعد - كما اتهمها بعض السابقين - مأوى للمتعطلين وملاذا للكسالى الهاربين من أعباء الحياة وتبعاتها[٧٨].

(77) Workman: op. cit. pp. 152 - 154.

(78) Idem: pp. 153 - 158.

الباب التاسع
شارلمان وإمبراطورية الفرنجة

رؤساء البلاط:

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى كفت عن التوسع والنمو فجأة، ودخلت دورا من الفوضى والحروب الأهلية استمرت قرابة قرن ونصف القرن، وسرعان ما ظهر فى هذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجى من سلالة كلوفس(١)، فى الوقت الذى انقسمت فيه دولة الفرنجة إلى ثلاث ممالك صغرى هى أوستراسيا فى وادى الميز والراين الأدنى، ونستريا فى الجزء الغربى بما فيه (نورمنديا) واكوتين، وأخيرا برجنديا فى المنطقة بين الرون وجبال الألب(٢)، ومن مظاهر ضعف ملوك الفرنجة، فى هذه الأقسام الثلاثة تغلب نفوذ النبلاء ورجال الدين، فوافق الملوك على أن يتنازلوا عن تعيين الأساقفة ليقوم رجال الأسقفية بانتخابهم، كما وافقوا على عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم الدولة؛ مما جعل الكنيسة الفرنجية شبه مستقلة عن التاج، أمّا النبلاء العلمانيون فقد حصلوا على ضمان بملكية ما تحت أيديهم من أراض، كما حيل بين التاج وبين فرض أية ضرائب إضافية(٣).

ثم كان أن اختار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البلاد فى القصر الملكى، وذلك ضماناً لبقاء امتيازاتهم ومصالحهم، وكانت هذه الوظيفة فى أول أمرها متواضعة يقوم صاحبها بالإشراف على خدم القصر وموظفيه، ولكنها أخذت تسمو تدريجياً حتى صار صاحبها بمثابة الوزير الأول فى الدولة، الذى يشرف على جمع إيرادات الأراضى الملكية، فضلا عن توزيع الهبات والوظائف(٤)، وقد تعاقب فى هذا المنصب منذ سنة ٦١٤ سلسلة من النبلاء بطريق الوراثة، حتى أصبحت السلطة الفعلية فى أيديهم، وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين بعد وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٩

---

(1) Oman: The Dark Ages. p. 158.
(2) Davis: Charlemagne. p. 25.
(3) Lot: The End of the Ancient World. p. 332.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 136.

مرتبطا بالملوك، وإنما برؤساء البلاط فى الأقسام الثلاثة التى انقسمت إليها الدولة الميروفنجية(٥)، وكان النصر فى النزاع بين هذه الأقسام الثلاثة لأوستراسيا التى برز رئيس بلاطها بيبين الثانى أو بيبين هرستال فى أواخر القرن السابع، ثم خلفه فى منصبه ابنه غير الشرعى شارل مارتل سنة ٧١٤(٦) وقد استطاع شارل مارتل أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية فى يديه سنة ٧١٩، وعندئذ وجد دولة الفرنجة فى حالة يرثى لها؛ بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاد فى نستريا وأوستراسيا من جهة، والأخطار الخارجية التى أحاطت بدولة الفرنجة عندئذ من جهة أخرى، وهنا أسرع شارل مارتل فى القيام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق، فقام بخمس حملات ضد السكسون بين سنتى ٧١٨ ، ٧٣٨ وبحملتين ضد الفريزيين (سنة ٧١٩، ٧٣٨) وحملة ضد الألمان (سنة ٧٣٠) وحملتين ضد البافاريين (سنة ٧٢٥، ٧٢٨)(٧) على أن الخطر الأكبر الذى هدد دولة الفرنجة فى ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب، أى من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على ناربون سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا فى برجينديا. وقد وجد شارل مارتل نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه، فحشد قوى أتباعه من النبلاء وغير النبلاء، واستعان باللمبارديين فى إيطاليا كما استولى على بعض أراضى الكنيسة، هذا كله فى الوقت الذى كان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى قد استولوا على بوردو سنة ٧٣٢ وأخذوا بعد ذلك يزحفون شمالا، وأخيرا دارت موقعة بلاط الشهداء بين بواتيه وتور، واستمرت سبعة أيام قتل فيها عبدالرحمن وارتد أتباعه من المسلمين سنة ٧٣٢(٨).

أما شارل مارتل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة اكسبته لقب مارتل Martel أى المطرقة، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول الذى حمى غرب أوربا من الغزو الإسلامى(٩)، وقد اعتاد المؤرخون أن يبالغوا فى قيمة هذا النصر الذى

---

(5) Lot: The End of the Ancient World. p. 337.

(6) Idem: pp. 341 - 342.

(7) Deancsly: op. cit. p. 285.

(8)Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.

(9) Stephenson: op. cit. p. 171.

أحرزه شارل مارتل على المسلمين سنة ٧٣٢، على أساس أنه حمى غرب أوربا بأجمعه من غزو المسلمين وسيطرتهم، ولكن نظرة دقيقة إلى الحوادث المعاصرة تثبت لنا أن الواقع يخالف ذلك، فالمسلمون لم يلبثوا أن عادوا فى العام التالى إلى تهديد آرل وأفينون وغيرهما من المدن فى جنوب غاليا وخاصة فى إقليم بروفانس[١٠]، ثم أنه لم يكن هناك ثمة خطر واضح يهدد غرب أوربا بأجمعه من جانب المسلمين الذين بوصولهم إلى الأندلس كانوا قد قاربوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية الكبرى. لذلك كان من الصعب، بل من المتعذر على المسلمين أن يقوموا بجهد حربى ضخم جديد لإخضاع غرب أوربا لنفوذهم، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعدوا كثيرا عن المركز الأول لحركتهم التوسعية، هذا إلى أن الدولة الإسلامية كانت قرب منتصف القرن الثامن قد أخذت تتعرض فعلا لآثار الانقسامات المذهبية والسياسية مما حال دون تكاتف المسلمين فى المشرق والمغرب للقيام بجهد عظيم مشترك لغزو أوربا. ولذلك لا نبالغ إذا قلنا إن غزوة عبد الرحمن فى جنوب غاليا لا تعدو أن تكون غزوة محلية محدودة الهدف والنتائج، وربما كانت حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية قبل ذلك بخمس عشرة سنة أشد خطرا على مصير أوربا ومستقبلها؛ نظرا لقرب القسطنطينية من مركز الخلافة الإسلامية فى دمشق من جهة، ولعظم الجهود والإمكانات التى سخرت فى هذه الحملة من جهة أخرى.

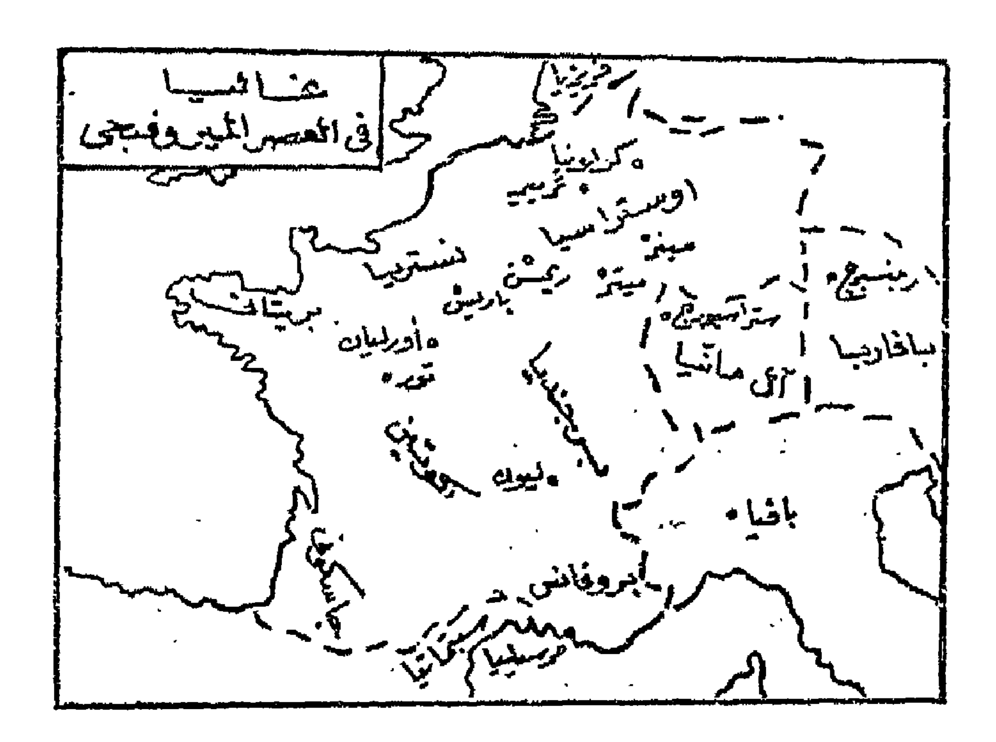
على أن استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة فضلا عن رفضه مساعدة البابوية ضد اللمبارديين، أثارا وحشة بينه وبين الكنيسة[١١]. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الوحشة لم تستمر طويلا إذ توفى شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيبين القصير فى رئاسة البلاط (٧٤١ – ٧٦٨). وقد عمل بيبين على إصلاح ذات البين مع الكنيسة، فعقدت أربعة مجامع دينية تحت إشراف القديس بونيفيس، وفى هذه المجامع تقرر تطبيق النظام البندكتى فى الأديرة الفرنجية، وتعيين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة، على أن يمتد سلطان البابوية على الجميع[١٢].

---

(10) Fichenau: The Carolingian Empire, pp. 12 - 13.

(11) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 207.

(12) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 539 - 540.


غاليا
في العصر الميروفنجي
كولونيا
أوستراسيا
نستريا
ريمس
باريس
ميتز
بريتانيا
أورليان
آل مانيا
بافاريا
ليون
بافيا
بروفانس
سبتمانيا

وسرعان ما أيقن المعاصرون أن الوضع السياسي القائم في دولة الفرنجة غير صحيح في ظل حكم رئيس بلاط هو الحاكم الفعلي للبلاد. وملك شرعي مستضعف لاحول له ولا قوة؛ لذلك اجتمع المجلس العام لشعب الفرنجة سنة٧٥١ وقرر عزل شلدريك الثالث (شلدبرت) آخر ملوك أوستراسيا، وإحلال بيبين القصير محله في العرش، وقد أراد بيبين القصير أن يصبغ هذه الخطوة صبغة شرعية فأرسل بعثة إلى البابا زكريا في روما لاستشارته وأخذ رأيه. ولسنا في حاجة إلى القول بأن البابوية كانت لا تزال تطمع عندئذ في مساعدة دولة الفرنجة، بوصفها القوة الوحيدة التي يمكنها مساندة البابوية ضد اللمبارديين؛ لذلك جاء رد البابا زكريا واضحا، وهو أنه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية في البلاد.

وهكذا تشجع بيبين القصير فأعلن عزل شلدريك الثالث ونفاه إلى أحد الأديرة ليقضي فيه بقية حياته، في حين اعتلى بيبين عرش الفرنجة (٧٥٢ - ٧٦٨)، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس وبدأت الأسرة الكارولنجية من سلالة رؤساء بلاط أوستراسيا[١٣].

ولم تلبث ظروف الموقف بين البابوية واللمبارديين أن أدت إلى سفر البابا ستفن الثاني سنة ٧٥٣ إلى غاليا؛ لطلب المساعدة من بيبين القصير. وكان أن تعهد بيبين بمساعدة البابا وأقسم على أن يحقق للبابا كل ما يريد، ويعطيه رافنا، فضلا عن بقية المدن التي يستردها من اللمبارديين أو البيزنطيين، وفي مقابل ذلك توج البابا بيبين بيده كما توج زوجته وولديه شارل وكارلومان، وإنزل اللعنة على كل من يحاول اغتصاب عرش الفرنجة من بيت بيبين القصير[١٤]، وبذلك دخلت دولة الفرنجة دورا جديدا في تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية في غرب أوربا، بفضل تحالفها مع البابوية، وهو التحالف الذي كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوربا في العصور الوسطى[١٥].

---

(13) Oman: The Dark Ages, pp. 325 - 326.

(14) Moss: op. cit. p. 200.

(15) Eyre: op. cit. p. 89. & Moss: op. cit. p 200.

حضارة الدولة الميروفنجية:

أخذت نظم الفرنجة تتعدل عقب استقرارهم فى غاليا نتيجة لاتصالهم المستمر بالمواطنين الرومان، وما نجم عن هذا الاتصال من تأثر الفرنجة بالأوضاع الرومانية، ويلاحظ أن الفرنجة احترموا ملكية الأرض فى غاليا ولم يغتصبوها من أصحابها، كما أنهم لم يحاكوا غيرهم من الجرمان فى استخدام العنف مع أهالى البلاد الأصليين(١٦)، ولكن كبرياء الفرنجة أبت عليهم الاعتراف بالمساواة التامة المطلقة بينهم وبين أهالى غاليا الأصليين من الرومان، فجعلوا الدية التى تدفع تعويضا عن مقتل رجل من الفرنجة تفوق تلك التى تدفع عن مقتل أحد الرومان، كما أعفوا أنفسهم من الضرائب الرومانية المباشرة، وجعلوا هذا النوع من الضرائب وقفا على أهالى غاليا من الرومان وحدهم(١٧) وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شقاق عنصرى بين الفرنجة والرومان فى غاليا إذ تزاوج الطرفان بعضهما من بعض فى حرية وسهولة، وصارت جميع المناصب الكنسية والحكومية مفتوحة أمام الجميع دون تمييز أو تفرقة(١٨)، وساعد على هذا التقارب بين الفرنجة والرومان اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى، واستخدامهم اللغة اللاتينية؛ ممّا أدى إلى التداخل الحضارى وتأثر كل طرف بالآخر، وهكذا أخذ الملوك الميروفنجيون يحاكون مظاهر البلاط الرومانى الإمبراطورى، فأضفوا على موظفى البلاط ألقابا رومانية وأصدروا مراسيمهم وفق النمط الرومانى.

أما فيما يختص بنظم الحكم عند الفرنجة فى العصر الميروفنجى فنلاحظ أن الملكية ظلت وراثية فى سلالة كلوفس، فلم يعرف الفرنجة المبدأ الانتخابى، وكانت السلطة الملكية تعتبر إرثا يقسم بين الأبناء الذكور بالتساوى مع استبعاد الإناث(١٩)، وقد تمتع ملوك الفرنجة بسلطة مطلقة فى النواحى الإدارية، والمالية، والقضائية، والحربية، وكانت أية مخالفة أو عصيان للملك يعاقب صاحبها بالإعدام(٢٠).

---

(16) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 114.

(17) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 212.

(18) Lot: The End of the Ancient World, p. 358.

(19) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 113.

(20) Cam, Med. Hist. Vol. 2, pp. 133 - 134.

وقد اعتبر الفرنجة ـ شأنهم شأن غيرهم من الجرمان ـ معظم الجرائم نوعا من المخالفات الشخصية الخاصة لا العامة، فيترك لعائلة المجنى عليه مهمة معاقبة الجانى والاقتصاص منه، وفي بعض الحالات كانت الأسرة صاحبة الحق تكتفى بأخذ تعويض من المذنب أو أهله، وفي حالات أخرى كانت تقتص لنفسها بطريقة عنيفة تدل على الخشونة والوحشية، على أن قسوة قانون الفرنجة وتطرفه سرعان ما خفت حدتهما نتيجة لجهود رجال الكنيسة، وانتشار تعاليم الديانة المسيحية ومبادئها(٢١).

أمّا عن الناحية المالية والاقتصادية فيلاحظ أن ملوك الفرنجة لم يحاولوا تغيير النظم المالية السائدة فى غاليا، فتركوا جميع الضرائب القائمة كما هى سواء فى ذلك ضريبة الأرض، أو ضريبة الرأس، أو ضرائب الأسواق، أو الضرائب غير المباشرة(٢٢)، وكان الدخل الملكى يتألف من إيراد الضياع الملكية فضلا عن الهبات، والهدايا، والخدمات الخاصة والمحلية التى كان على الرعايا أن يقدموها، ثمّ أخذت تختفى تدريجيا الضرائب الرومانية المباشرة التى كانت معروفة أيام الرومان مثل ضريبة الرأس، وضريبة الأرض، وصار الكونتات وحكام الأقاليم يدفعون للملك ثلثى الضرائب والأموال التى يجمعونها من الأهالى على أن يحتفظوا لأنفسهم بالثلث(٢٣)، أما الهدايا السنوية التى يقدمها النبلاء للملك كل ربيع فقد غدت إجبارية. ولم تعف منها جهة من الجهات ذات الإيراد حتى الأديرة والمؤسسات الدينية، وكانت هذه الهدايا من الذهب، والفضة، والأحجار الثمينة، والخيول وما شابهها، ويبدو أن جميع الإيرادات السابقة كانت تقدم للملك بصفته الشخصية ليصرف منها على بلاطه دون أن يكون للمنشآت العامة فيها نصيب(٢٤)، أمّا هذه المنشآت فكانت تقوم بها الإدارة المحلية، كما أن المجندين الأحرار كانون يدخلوا الخدمة العسكرية مزودين بأسلحتهم على نفقتهم الخاصة(٢٥).

---

(21) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 213.

(22) Lot: The End of the Ancient World, p. 351.

(23) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, pp. 126 - 127.

(24) Thompson: Vol, 1. pp. 215 - 216.

(25) Lot: The End of the Ancient World, p. 353.

وقد نشطت التجارة فى عهد الدولة الميروفنجية حيث وجدت طبقة نشيطة من التجار استخدمت طرق التجارة الرومانية القديمة، ويبدو أن نسبة التجّار اليهود والبيزنطيين كانت كبيرة، لا سيما فى المدن والموانئ ذات الأهمية التجارية مثل مرسيليا، وآرل، وناربون[٢٦]، وكانت لغاليا علاقات تجارية مهمة مع موانئ الشرق فى البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ أى حتى زمن جريجورى التورى أول مؤرخى الفرنجة، ولكن هذه العلاقات أخذت تذبل تدريجيا؛ نتيجة لنمو قوة المسلمين البحرية فى القرن السابع، مما جعل تجارة الفرنجة تصبح شبه محلية، أمّا الطابع الغالب على دولة الفرنجة فكان الطابع الزراعى نتيجة لاضمحلال المدن وهجرانها وتلاشى الحياة المدنية من جهة، ولازدياد عدد الضياع الزراعية الكبيرة التى تكفى نفسها بنفسها وما صحب ذلك من تناقص عدد الأحرار، وصغار الملاك، وازدياد عدد الأقنان من جهة أخرى[٢٧].

الدولة الكارولنجية:

وبتتويج بيبين القصير رئيس البلاط ملكا على دولة الفرنجة سنة ٧٥٢ تكون الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة الكارولنجية فى حكم دولة الفرنجة، وقد استمر بيبين القصير فى الحكم حتى وفاته سنة ٨٦٨ وعندئذ قسمت مملكته ـ وفقا لتقاليد الفرنجة ـ بين ولديه، فخصّ شارل أوستراسيا وجزء من أكوتين، واختص كارلومان بتستريا وبقية أكوتين[٢٨]، ولايهمنا كثيرا أمر النزاع الذى نشب بين الأخوين والذى هدد بالقضاء على وحدة مملكة الفرنجة، ما دام النزاع قد انتهى بوفاة كارلومان سنة ٧٧١، ممّا أتاح لأخيه شارل فرصة توحيد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته، من مصب الراين حتى مصب الرون، ومن نهر المين حتى خليج بسكاى[٢٩]، على أن الذى يهمنا هو أن جربرجا Gerbrega ـ أرملة كارلومان ـ استاءت لإغفال حقوق ولديها القاصرين فى ملك أبيهما، ففرت إلى بلاط دسدريوس

---

(26) Lot, Pfister Ganshof: op. cit. p. 355.

(27) Idem: p. 350.

(28) Oman: The Dark Ages, p. 336.

(29) Kleinclausz: Charlemagne: pp. 12 - 13.

ملك اللمبارديين فى بافيا. وكان شارل قد سبق أن تزوج من ابنة دسدريوس ولكنه عاد فطلقها بالسرعة التى تزوجها بها، الأمر الذى زاد الموقف توترا بين شارل ودسدريوس. ولم يكن منتظرا من الملك اللمباردى أن يتأخر فى مساعدة أرملة كارلومان(٣٠)، فطلب من البابا تتويج ابنى كارلومان، ولما رفض البابا ذلك لجأ دسدريوس إلى مهاجمة الأملاك والأراضى البابوية دون وجه حق، مما دفع البابا ستفن الثالث (الرابع) (٧٦٨ – ٧٧٢) إلى الاستنجاد بشارل ملك الفرنجة(٣١). وقد حاول شارل مفاوضة دسدريوس فى أول الأمر فأرسل إليه يطلب تسليم جميع المدن التى استولى عليها من البابوية دون وجه حق، ولكن دسدريوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه فى عدم إعطاء البابوية مدنها. وعندما غزا شارل إيطاليا سنة ٧٧٣ حاول دسدريوس أن يسد منافذ الألب فى وجهه، ولكنه غلب على أمره وفر إلى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته(٣٢)، وفى تلك الأثناء أخذ ابن دسدريوس يجمع قوات اللمبارديين قرب فيرونا، مما جعل شارل يترك جزءا من قواته فى حصار بافيا، ويسرع بالجزء الباقى لمطاردة هذا الابن الذى فر إلى القسطنطينية تاركًا شارل يستولى على فيرونا وبرجاموا وغيرهما من المدن المهمة(٣٣)، وعندما طال حصار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح (سنة ٧٧٤) فى روما حيث جدد للبابا هدريان (أدريان) الأول (٧٧٢ – ٧٩٥) هبة بيبين القصير للبابوية من قبل، ثم كان أن سقطت بافيا أخيرا بعد حصار عشرة أشهر، فحمل دسدريوس إلى دير كوربى فى نستريا حيث قضى بقية حياته بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة، فى حين اتخذ شارل لنفسه لقب «ملك اللمبارديين»(٣٤). ويلاحظ أن شارل لم يشأ فى أول الأمر أن يدمج اللمبارديين ضمن مملكته، وآثر أن يتركهم يعيشون فى ظل نظمهم الخاصة، ولكن عندما ثار اللمبارديون ضده من جديد، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن دسدريوس الهارب فى القسطنطينية وإعلانه ملكا، عاد إليهم ونجح فى إخضاعهم سنة ٧٧٦، وعندئذ أرغم اللمبارديين على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم.

---

(30) Moss: op. cit. p. 218.

(31) Lot, Pfister Ganshof: op. cit. p. 421.

(32) Cam. Med. Hist. Vol. 2,pp. 220.

(33) Oman: The Dark Ages. p. 347.

(34) Pirenne: Mohammed and Charlemagne p. 228.

على أن حروب شارل العظيم ضد اللمبارديين لم تكن سوى الحلقة الأولى فى سلسلة طويلة من الحروب قام بها شارل ضد السكسون، ومسلمى إسبانيا، والعناصر السلافية الرابضة على نهر الألب والدراف[٣٥] وقد حققت هذه الحروب الواسعة التى قام بها شارل قسطا كبيرا من النجاح، وأدت إلى حماية غرب أوربا من العناصر الوثنية المجاورة، فضلا عن نشر المسيحية بين هذه العناصر، ففى سنة ٧٧٨ قام شارل العظيم بأولى حملاته الكبيرة ضد المسلمين فى أسبانيا فاجتمعت جيوشه أمام سرقسطة واعترف له حكام برشلونة وجيرونا بالولاء، على أن جيوش شارل عجزت عن الاستيلاء على سرقسطة فعادت أدراجها دون أن تحقق نتائج ظاهرة[٣٦]، وفى أثناء عودة شارل هاجمت عناصر الباسك (البسقاوية) فى شمال أسبانيا مؤخرة جيشه، فقتل رولان وأصبح هذا الحادث محورا لأنشودة مشهورة ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصور شارل العظيم فى صورة الصليبى الأول[٣٧]، وبعد أن قام شارل بعدة هجمات ضد السكسون، أخضع البافاريين سنة ٧٨٨، وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق نظم الإدارة الفرنجية [٣٨]، وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة لملك البافاريين، الأمر الذى أثار شارل ضدهم، فغزا أراضيهم فى حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنتى ٧٨٨، ٨٠٥ حتى حطم قوتهم نهائيا وأخضعهم تماما. وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم، على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة[٣٩]. كذلك قام شارل العظيم بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهرى الألب والأودر سنة ٧٨٩، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا سنة ٨٠٥ – ٨٠٦.

على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون، الذين سبق أن قاتلهم شارل مارتل وببين القصير، وقد قام شارل العظيم بثمانى عشرة حملة ضدهم، كان غرضه الأول منها حماية حدود بلاده من خطرهم، ثم لم يلبث أن أصبح هذا الغرض

(35) Eginhard: The Life of Charlemagne pp. 15 - 26 & The Monk of St. Gall: The Lif of Charlemagne: p. 105.

(36) Lavisse: Hist. de France, Tome 2, Premiére Partie pp, 293 - 294.

(37) Davis: op. cit. pp. 110 - 114.

(38) Deanesly: op. cit. pp. 368 - 369.

(39) Oman: The Dark Ages, p, 362.

تحويلهم إلى المسيحية وإخضاعهم بالقوة(٤٠)، وكان مصدر المتاعب الكبرى التى واجهت شارل فى حروبه ضد السكسون نابعا من صعوبة بلادهم ذات الغابات والأحراش، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضى على قوة أعدائه بالاستيلاء عليها، فضلا عن عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية، وهكذا ساعدت هذه الظروف السكسون فأظهروا عنادا شديدا وتمسكا قوياً بعقائدهم، وتقاليدهم، ونظمهم، حيث إنه كان يضربهم فى كل مرة ويأخذ منهم عددا ضخما من الأسرى، والرهائن زيادة على غرامة مالية فادحة، وعندئذ يتظاهرون بالخضوع ويعتنقون المسيحية بالجملة، ولكنهم لايلبثوا أن يرتدوا إلى أسلوبهم وعقائدهم بعد أن ينصرف عنهم شارل(٤١)، وعندما تجددت ثورة السكسون سنة ٧٨٢ أعدم شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة فى مذبحة فردن Verden (٤٢)، وهكذا ظل شارل يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم حتى خربت بلادهم فهدأت العلاقات بينه وبينهم قليلا، وإن استمرت ثورات السكسون حتى سنة ٨٠٤(٤٣)، وفى تلك الأثناء أسس شارل ثمانى أسقفيات فى سكسونيا وأرسل كثيرا من البعثات التبشيرية اليها، حتى آمن السكسون أخيرا بالمسيحية، وعندئذ حرص شارل على تعليم بعضهم ليصبحوا قساوسة فى بلادهم(٤٤).

على أن حروب شارل الطويلة ضد السكسون بوجه خاص، لم تصرفه عن العمل على تأمين شواطئ أوربا الجنوبية وجزرها من خطر قراصنة المسلمين، بعد أن اشتدت إغاراتهم عليها. لذلك بدأ شارل العظيم بتأمين حدوده الجنوبية من ناحيتهم، فأنشأ وحدة إدارية على الحدود الإسبانية سميت ماركية إسبانيا (Marcl, of Spain) سنة ٧٩٥ حول مدن جيرونا، وجاردونا، وأورجل وأوزونه، ثم ضمَّ إليها برشلونة سنة ٧٩٧،

---

(40) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 609 - 611.

(41) Halphen: Etudes Critiques sur L'Hist. de Charlemagne p. 146.

(42) Kleinclausz: Charlemagne, p. 134.

(43) Deanesly: op. cit. pp. 358 -356.

(44)Kleinclausz: op. cit. pp. 138 - 139.

وهي أعظم مدن إقليم قطالونيا بعد أن سلمها له حاكمها الخائن نكاية في سيده خليفة قرطبة[٤٥] . أما في الجانب البحري فقد استولى الفرنجة على كورسيكا، وسردينيا، كما استولوا على جزر البليار سنة ٧٩٩؛ لحرمان مسلمي الأندلس من اتخاذها قواعد للإغارة على شواطئ إيطاليا وغاليا الجنوبية[٤٦]، على أن الصراع البحري لم يلبث أن اشتدّ في الجزء الغربي من حوض البحر المتوسط عندما ظهرت قوة الأغالبة البحرية الأمر الذى أزعج البابا ليو الثالث وشارل العظيم فضلاً عن الدولة البيزنطية، ولم يتأخر شارل في إرسال النجدات إلى البابا للدفاع عن شواطئ إيطاليا وصقلية، وإن كانت هذه الجهود لم تفلح في وقف ذلك الخطر الذى تعرضت له شواطئ أوربا الجنوبية بشكل واضح في أوائل القرن التاسع[٤٧] .

وهكذا قضى شارل العظيم معظم حكمه في حروب مستمرة، حتى قدر عدد حملاته بأربع وخمسين حملة مكنته من فرض سيطرته على ما كان للإمبراطورية الرومانية القديمة من أملاك الغرب، إذا استثنينا ولاية أفريقية، وبريطانيا، وجنوب إيطاليا، ومعظم أسبانيا، هذا فضلا عمّا نتج عن هذه الحروب من نشر المسيحية في بلاد وبين شعوب لم يسبق أن وصل إليها الرومان من قبل[٤٨] .

تتويج شارل العظيم إمبراطورا:

يتضح ممّا سبق أنه لم يكد ينتهى القرن الثامن إلاّ كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين؛ ذلك أنه لم ينجح في تكوين دولة ضخمة في غرب أوربا فحسب، بل نجح أيضاً في حماية البابوية ونشر المسيحية ، وإحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية في الغرب[٤٩]، وقد أثارت هذه الأعمال في عقول المعاصرين ذكرى روما ومجدها القديم، فأخذوا يتغنون بهذه الذكرى ويشعرون بالرغبة في إحياء هذا المجد، على أن المعاصرين لم يقصدوا إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية في حضارتها وقواتها فقط، بل أيضاً في شخص الإمبراطور

(45) Oman: The Dark Ages, p, 365.
(46) Eginhard: Life of Charlemagne, p. 31.
(47)Deanesly: op. cit. pp. 375 -376.
(48) Thompson: op. cit. Vol, 1. p. 259.
(49) Kleinclausz: op. cit. p. 287.

بعد أن ظل الغرب يشعر بفراغ سياسى كبير منذ سقوط الإمبراطورية الغربية فى أواخر القرن الخامس. حقيقة كانت هناك إمبراطورية رومانية وإمبراطور قائم فى القسطنطينية، ولكن أهالى غرب أوربا بوجه عام وإيطاليا بوجه خاص نظروا إلى هذا الإمبراطور البيزنطى نظرة ملؤها الاستياء والكراهية؛ بسبب موقف الأباطرة البيزنطيين من عبادة الأيقونات من جهة، وسياستهم المعادية للبابوية من جهة أخرى، حتى أصبح هؤلاء الأباطرة - فى نظر الإيطاليين - مجرد جباة أموال مبغوضين(٥٠).

كان هذا شعور المعاصرين إذاً نحو الماضى والحاضر فى الوقت الذى قضى شارل العظيم على قوة اللمبارديين السياسية، وحمى البابوية من خطرهم، وحارب السكسون وغيرهم من العناصر الوثنية؛ لينشر المسيحية بينهم، كما حارب المسلمين فى إسبانيا والبحر المتوسط؛ لدفع خطرهم. هذا كله مع شدة رعايته للعلوم وجهوده فى إنعاش الحضارة فى الغرب، ولاشك فى أن هذه الأعمال أوضحت للمعاصرين أن شارل العظيم كان أكبر قوة فى عصره تحمى البابوية والكنيسة بل الحضارة الغربية، وأنه جدير بلقب الإمبراطور بعد أن قام بأعمال لا تقل عن تلك التى قام بها أعاظم الأباطرة الرومان.

ومن الواضح أنه كان فى استطاعة شارل أن يضفى على شخصه هذا اللقب أو أن يوحى إلى الكنيسة الفرنجية بفعل ذلك، ولكنه كان يطمع فيما هو أكثر، أى فى أن تخلع عليه البابوية نفسها لقب الإمبراطور حتى يكون أوقع أثراً فى العالم المسيحى أجمع(٥١). وكان أن أتيحت الفرصة لتحقيق هذا الحلم الجميل سنة ٧٩٩ عندما تآمر خصوم البابا ليو الثالث ضده ووضعوا خطة تستهدف سمل عينيه، وقطع لسانه لإبعاده عن منصبه(٥٢)، ولم يلبث أن سمع شارل بأمر هذه الأحداث التى جرت فى روما وبأن البابا لم ينج من المؤامرة إلا بصعوبة، فأرسل إلى البابا الهارب يستدعيه إليه واستقبله فى ترحاب خفف عنه ما يعانيه من آلام(٥٣) وبعد ذلك قام شارل بإرسال

---

(50) Moss: op. cit. p. 219.

(51) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 232.

(52) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 619.

(53)Deanesly: op. cit. p. 381.

البابا مخفورا إلى روما حيث لحق به بعد قليل، وفى روما عقد مجمع برأ ليو الثالث من جميع التهم التى ألصقها به خصومه، وبذلك عاد البابا إلى مباشرة مهام منصبه فى حين أمر شارل بمعاقبة المتآمرين(٥٤)، وأخذ البابا يفكر فى وسيلة يرد بها الجميل للملك الفرنجى الذى أنقذ البابوية وأثبت فى كل مناسبة أنه أخلص حليف لها وأقوى دعامة للكنيسة الغربية. حقيقة أن منح لقب إمبراطور لملك من ملوك البرابرة أمر ليست له سابقة، وربما بدا غريبا فى نظر المعاصرين، ولكن حياة شارل العظيم أثبتت أنه لم يكن كغيره من ملوك البرابرة، وإذا قورن بمعاصرته الإمبراطورة إيرين - وهى المرأة الشريرة التى أخذت تعبث بمصير الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت - فإنه لا يوجد أى وجه للمقارنة أو الموازنة(٥٥). وهكذا يبدو أن شبح هذه المرأة العابثة التى تحكمت فى مصائر الإمبراطورية البيزنطية (٧٩٧ - ٨٠٢) كان من العوامل التى شجعت البابوية والغرب على قطع آخر الخيوط التى ربطتهم بالإمبراطورية الشرقية(٥٦).

وكان أن نفذ البابا فكرته فى الاحتفال الكبير الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس تمجيدا لعيد رأس السنة (٨٠٠)، فعندما انتهت الصلاة، تقدم البابا ليو الثالث بخطى وئيدة ممسكا تاجاً ذهبيا فى يده ووضعه على رأس شارل - الذى كان لايزال راكعا أمام المذبح وقال - «اللهم امنح الحياة والنصر لشارل العظيم الذى يتوج بفضل الله إمبراطوراً عظيما على الرومان»(٥٧)، ولم يلبث أن علا صياح الحاضرين من محاربى الفرنجة ورجال الدين الإيطاليين، وأخذ الجميع يحيون شارلمان بالطريقة التى كانت متبعة مع الأباطرة الرومان(٥٨).

ولاشك فى أن هذا الحادث لم يكن خطيرا بالنسبة لشارلمان فحسب، بل أيضاً

---

(54)The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 92.

(55) Lot. Pfister, Ganshof: op. cit. p. 457.

(56) Oman: The Dark Ages, p. 372.

(57) Bryce: The Holy Roman Empire. p. 49.

(58) Kleinclausz: op. cit. p. 304.

بالنسبة للبابوية والغرب الأوربى فضلا عن الشرق البيزنطى[٥٩]، أمَّا عن شارلمان فيقال إنه فوجئ بهذا الإجراء الذى اتخذه البابا ليو الثالث، ولم يكن يعلم به أو يتوقعه وإن كان يرجوه ويحلم به، وقد ذكر اينهارت - المؤرخ المعاصر الذائع الصيت الذى ترجم لشارلمان - أن سيده لو عرف بما أعده البابا فى يوم رأس السنة لما دخل كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم[٦٠]. ومهما يكن من أمر فقد قدر لشارلمان أن يحيى الإمبراطورية الرومانية فى الغرب بعد أن ظلَّ العالم الغربى بلا إمبراطور منذ أواخر القرن الخامس، وأن يكون مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى لعبت دورا عظيمًا فى أحداث العصور الوسطى. أمَّا البابوية فقد قطعت - بتتويج شارلمان إمبراطورا - الرباط الواهى الذى كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية، وفى الوقت نفسه دعمت الرباط الذى كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعا دينيا مقدسا، هذا فضلا عن أن الطريقة التى تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الإمبراطورى يبدو فى صورة منحة من البابا. وهى العقيدة التى أصبح لهاشأن كبير فى النزاع بين الإمبراطورية والبابوية فيما بعد[٦١].

أمَّا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية فإن إعلان شارلمان إمبراطورا فى الغرب جاء صدمة عنيفة لها[٦٢]، فمنذ سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس، والعالم الرومانى لا يعرف إلاَّ إمبراطورا واحدا هو الإمبراطور البيزنطى الذى تمتع بسيادة - ولو اسمية - على الغرب بوصفه وارث الأباطرة الرومان، ولكن قيام شارلمان إمبراطورا سنة ٨٠٠ أوجد منافسا خطيرا للإمبراطور البيزنطى، وحرم الإمبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدَّعيها على البابوية والعالم الغربى، هذا إلى أن تتويج شارلمان لم يجعل منه إمبراطورا فحسب بل «الإمبراطور» الأساسى فى الدولة الرومانية؛ - لأن الإمبراطورية - من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى - لاتحتمل رأسين مثلها مثل البابوية، وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة

---

(59) Vasiliev: op. cit. Tom 1, p. 351.

(60)Eginbard: The Life of Charlemagne: p. 44.

(61) Moss: op. cit. p. 222 - 223.

(62) Eyre: op. cit. p. 173.

الراجحة لأنه إمبراطور الكنيسة الرومانية؛ وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزها[٦٣] . ولعل هذه الصدمة التى أصابت الإمبراطورية الشرقية، هى التى جعلتها لا تعترف بإمبراطورية شارلمان إلا عندما أفاقت ، بعد مرور اثنتى عشرة سنة على تتويجه (فى يناير سنة ٨١٢) [٦٤].

إصلاحات شارلمان:

على أن أهمية شارلمان فى التاريخ لا تبدو فى حروبه الطويلة أو تتويجه إمبراطورا لأول مرة بين ملوك الجرمان فحسب، بل تبدو هذه الأهمية أيضًا فى إصلاحاته الواسعة التى تناولت مختلف المرافق والاتجاهات حتى أدت إلى ما يعرف فى التاريخ باسم النهضة الكارولنجية.

ففى ميدان الثقافة أظهر شارلمان اهتماماً كبيراً بالدراسات العلمية، فشجع الأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه من مختلف أنحاء أوربا ، ولا سيما أيرلندا، وإنجلترا وإيطاليا[٦٥]، واشتهر من هؤلاء العلماء مجموعة ضخمة من أعلام النهضة الكارولنجية مثل بطرس البيزى، وبولينوس، وبولس الشماس وغيرهم. وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى الكوين، وهو رجل إنجليزى الأصل احتضنه شارلمان، فتعهد النهضة الفكرية فى الإمبراطورية الكارولجية فى أواخر القرن الثامن، وبذل جهودا جبارة فى خدمة العلم والتعليم[٦٦] .من ذلك أنه قام على تصحيح المخطوطات القديمة، واهتم بإصلاح نظم المدارس الدينية، ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافى. كذلك تولى الكوين رئاسة مدرسة القصر التى كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها[٦٧] . وهكذا أضحى بلاط شارلمان مركزا ثقافيا علمياً كبيرا زاخراً بالمعلمين - مثل الكوين - والمؤرخين مثل اينهارت الذى وضع ترجمة معروفة لشارلمان، والشعراء مثل

---

(63) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 620 - 621.

(64) Pirenne: Mohammed and Cherlemagne, p. 233.

(65)Foligno: Latin Tbought, p. 68 & Taylor; Med. Mind Vol. 1, p. 214.

(66) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 574.

(67) Eyre, op. cit. p. 268.

(68) Kleinclausz: op. cit. pp. 197 - 202.

ثيودلف[٦٨]، لذلك لا عجب إذا انتشر التعليم، وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه، فضلا عن العناية بالمكتبات، ونسخ الكتب، وتصحيحها، ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها، مما أدى إلى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرا من ضروب العلم والمعرفة[٦٩].

أمّا إصلاحات شارلمان فى ميادين التشريع، والقضاء، والإدارة، فكانت هى الأخرى على جانب كبير من الأهمية، من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرا من التشريعات لإقرار النظام الإدارى وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبى فى دور القضاء. كذلك أمر شارلمان سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف العناصر التى تألفت منها إمبراطوريته[٧٠]، وقد قسّم شارلمان إمبراطوريته الواسعة إلى أقسام إدارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه فى منطقته ويتمتع تبعا لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء فى النواحى المالية أو القضائية أو الإدارية، فالكونت مسئول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات، كذلك عن إعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس، فضلا عن الإشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية. وكان للكونت أن يختار مساعدين، ونوابا يساعدونه فى مهام منصبه بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين وفى نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الإمبراطورية إلى القصر الملكى فى العاصمة (اكس لاشابل) حيث يقضون بضعة أسابيع فى تسليم ما فى عهدتهم من أموال فضلا عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة[٧١]، أمّا هذا المجلس L'assemblée générale فكان بمثابة مجلس استشارى ينعقد وفق إرادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الإمبراطورية وشعوبها ـ لا الفرنجة فحسب ـ فضلا عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات[٧٢]، ولما كان لابد لحكام الأقسام الواقعة على الحدود من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار

(٦٩) يمكن الوقوف على مظاهر النهضة الكارولنجية فى شىء من التفصيل بالرجوع إلى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(70) Eginhard: The Life of Charlemagne, p. 45.

(71) Deanesly: op. cit. p. 403.

(72) Kleinclausz: op. cit. pp. 82 - 88.

(73) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 680.

الخارجية الطارئة، فإن هذه الأقسام ـ التى أطلق عليها ماركيات ـ عين على كل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع فى وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت فى كونتيته[٧٣]. على أن أهم إصلاح إدارى أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missl، وكان هؤلاء المبعوثون يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره إلى حكام الأقاليم ويفتشوا على هؤلاء الحكام؛ لضمان حسن سير الإدارة[٧٤]، واعتاد شارلمان أن يرسل إلى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين أحدهما من رجال الإدارة والثانى من رجال الدين؛ ليضمن انتظام الجهازين الإدارى والكنسى فى الدولة[٧٥]، كذلك حرص شارلمان على عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم وإنما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يوطدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالى الأقاليم[٧٦].

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية فى إمبراطوريته فاهتم بالزراعة ونهض بها حتّى غدت ضياعه بمثابة مزارع نموذجية تفيض بالخيرات، كما شجع كبار الملاك فى الإمبراطورية على العناية بزراعة أراضيهم ومعاونة الحكومة فى تقوية جسور الأنهار[٧٧]، أما الصناعة فكانت مراكزها الأساسية فى الأديرة، التى اشتهرت بإنتاج خير المصنوعات المعدنية، والجلدية، والخشبية وغيرها، على أن الصناعة لم تقتصر فى العصر الكارولنجى على الأديرة وإنما انتشرت فى الضياع والقرى حيث بدأت تظهر بذور النقابات؛ لتنظيم مصالح أفراد الحرفة الواحدة وحمايتهم من المنافسة الخارجية[٧٨]، كذلك بدت جهود شارلمان واضحة فى ميدان التجارة حيث اهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتشجيعها، من ذلك أنه نظم الموازين، والمقاييس والمكاييل، والعملة المتداولة، هذا فضلا عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها، ومنع المستغلين من فرض رسوم باهظة على سالكيها أو عابرى الجسور، وقد أقيمت الفنادق والوكالات على امتداد الطرق الرئيسية لإيواء التجار ودوابهم وحفظ بضائعهم[٧٩]، على أن التجّار فى ذلك العصر فضلوا دائما استخدام الطرق النهرية

---

(74) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére partie, p. 319.

(75) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 682 - 683.

(76) Davis; op. cit. pp. 155 - 157.

(77) Boissonnade; Life and Work in Med. Europe, p. 71.

(78) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie, p. 336.

(79) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 657.

والبحرية؛ لسهولتها وقلة تكاليفها، فكانت التجارة الداخلية فى الإمبراطورية تعتمد على أنهار الراين، والدانوب، والسين، والرون وفروعها، فى حين اعتمدت التجارة الخارجية على البحر المتوسط وبحر الشمال، وساعد هذا النشاط التجارى الواسع على ظهور أهمية بعض المدن بحكم موقعها مثل مينز التى كانت مركزا رئيسيا للتجارة بين ألمانيا وغاليا، ومثل نيم Nimes وما جلون، وآرل، وناربون التى كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق (٨٠).

شارلمان والكنيسة:

يبدو لنا من دراسة تاريخ الإمبراطورية الكارولنجية أن الطابع الدينى كان غالبا عليها، فالعامل الأساسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا فى العصور الوسطى كان العامل الدينى، وهو العامل نفسه الذى أدى إلى نجاح شارلمان فى إقامة إمبراطوريته، وفى المزج بين شعوب هذه الإمبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعا لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة، بل يسيطر عليها وعلى رجالها.

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلهفة دائما على مخالفة الملوك الكارولنجيين لحمايتها من نفوذ الإمبراطورية البيزنطية من جهة، ومن خطر اللمبارديين من جهة أخرى، وإذا كان ملوك البيت الكارولنجى لم يتقاعسوا عن مساندة البابوية، فإن الأخيرة ردت إليهم الجميل بتتويج بيبين القصير ملكا سنة ٧٥٣ ثمّ بتتويج شارلمان إمبراطورا سنة ٨٠٠، وهكذا قامت الإمبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى، فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل إمبراطوريته، فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو إلى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع؛ لبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة(٨١)، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديريين وواجباتهم(٨٢)، «وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعا ورئيسا للأساقفة

(80) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie, pp. 338 - 340.

(81) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 616.

(82) Kleinclausz: op. cit. p. 225.

(83) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie, p. 316.

والكونتات دون تمميز؛ لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة(٨٣)، حتّى الموسيقى الدينية ، والمواعظ التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله(٨٤)، وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعا تاما لحكومة شارلمان كما صار رجالها بمثابة أتباع مخلصين له، يخضعون لأوامره ونواهيه خضوعا تاما(٨٥)، وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة إلى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦، يفهمه أن اختصاص البابوية لاينبغى أن يتعدى الجانب الدينى بأى حال «وأن واجبك أيها الأب المقدس هو أن تساعدنا برفع يدك إلى السماء والدعاء لنا مثلما فعل موسى»(٨٦).

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كان شارلمان يجمع فى قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية، ولكن الموقف أخذ يتغير بعد شارلمان. عندما عجز خلفاؤه عن فرض سيطرتهم على الكنيسة ورجالها ممّا آذن باصطدام السلطتين كما سنرى فيما بعد(٨٧).

تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية:

أشرنا فيما سبق إلى تمسك الفرنجة بنظرتهم القديمة إلى الملك على أنه إرث يقسم بين أبناء الملك، وطبيعى أن يؤدى استمرار تطبيق هذا المبدأ إلى تفتيت الدولة ثم إلى زوالها؛ نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثم تقسيم كل قسم بين أبناء الأبناء وهكذا، ومن الغريب أن شارلمان ـ وهو السياسى البعيد النظر ـ لم يحاول الخروج على هذه القاعدة أو تعديلها، فقسّم إمبراطوريته الواسعة فى حياته بين أبنائه الثلاثة(٨٨)، على أن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء واحد ـ وهو لويس التقى ـ أخر إلى حد ما تقسيم الإمبراطورية(٨٩)، وقد احتفل شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقى

---

(84) The Monk of St. Gall; The Life of Charlemagne, p. 72.

(85) Fichenau: The Carolingian Empire, pp. 132 - 133.

(86) Oliver Thatcher: A Source Book, p. 107. &

سفر الخروج ، إصحاح ١٧ – (١١).

(87) Davis : op. cit. pp. 276 - 277.

(88) Deanesly, op. cit. p. 392.

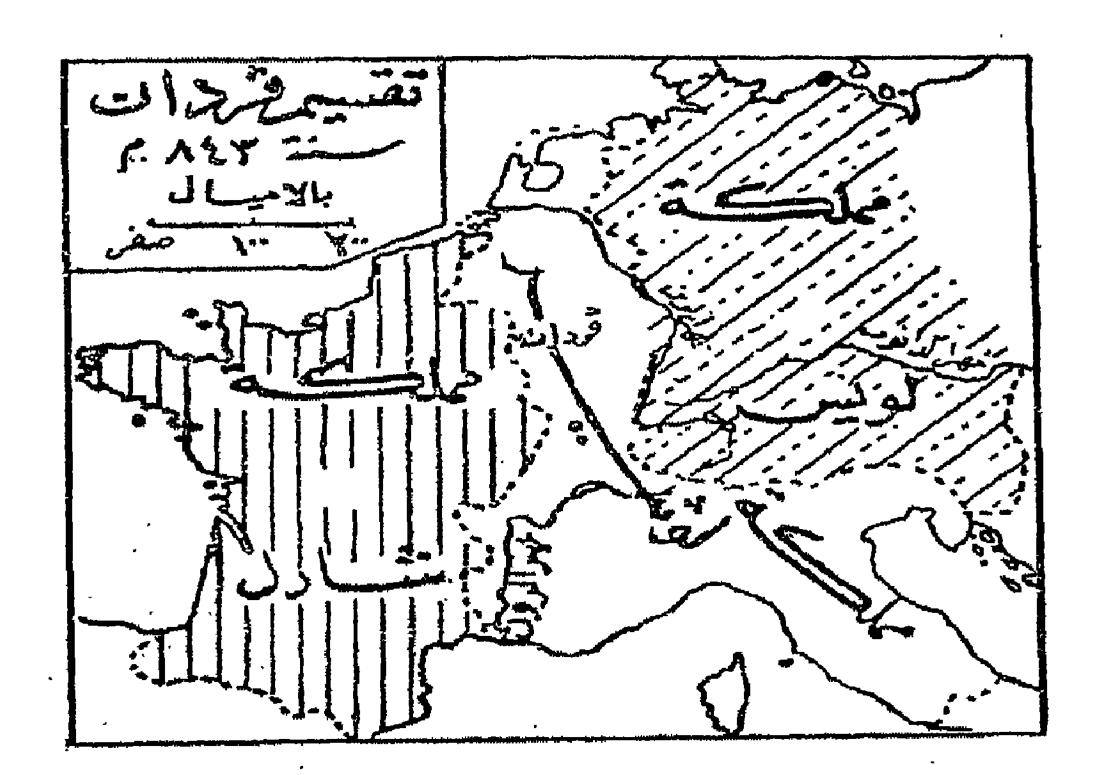
(89) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624.

(90) Oman: The Dark Ages, p. 387.

الذى خلفه فى حكم الإمبراطورية ، والذى لم يلبث أن أعيد تتويجه بواسطة البابا ستفن الرابع (الخامس) سنة ٨١٦[٩٠].

والواقع أن لويس التقى لم يكن بالشخص الذى يستطيع حكم إمبراطورية شارلمان، لذلك لأنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أوالكفاية الإدارية، أو حتى قوة الشخصية ما ضمن له سيطرة كافية على الجيش والإدارة والكنيسة، هذا فى الوقت الذى تزايد الخطر الخارجي بعد وفاة شارلمان سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الإمبراطورية الشرقية، أو من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية[٩١]، وزاد الطين بلة تمسك لويس التقى - وخلفائه من بعده - بسياسة تقسيم الملك بين الأبناء، حتى أن لويس وضع مشروعا سنة ٨١٧ لتقسيم إمبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وبيبين، ولويس؛ ليضمن عدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته[٩٢]. على أن لويس التقى تزوج بعد ذلك وأنجب ابنا جديدا اسمه شارل، ومن ثم أراد إعادة توزيع المملكة توزيعا جديدا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة بإخوته، ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الإخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الإخوة بعضهم وبعض من جهة، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى[٩٣]، وكان أن توفى بيبين، ثمّ لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تمّ الاتفاق فيما بينهم فى اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقسيم الإمبراطورية تقسيما يرضيهم جميعا[٩٤]، ذلك أن شارل الأصلع أخذ نستريا، وأكوتين، والماركية الإسبانية على الحدود الجنوبية، وأخذ لويس الألمانى الجزء الواقع شرقى الراين من أوستراسيا فضلا عن بافاريا، وسوابيا، وسكسونيا، فى حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين، أى فريزلاند (الأراضى المنخفضة) والجزء الباقى من أوستراسيا غربى الراين زيادة على برجنديا، وبروفانس، وإيطاليا، على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهاية لإمبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب، بل لأنها توضح أيضاً بداية مولد

(91) The Monk of St. Gels, The Life of Charlemagne, p. 130.
(92) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 10 - 11.
(93) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premtiere Parite, pp. 362 - 363.
(94) Oman: The Dark Ages, p. 409.
(95) Eyre: op. cit. p. 99.


تقسيم فردان
سنة ٨٤٣ م
بالأميال
صفر ١٠٠ ٢٠٠
مملكة
لويس
مملكة
شارل

بعض الدول العظمى الحديثة[٩٥]، ذلك أن التقسيم السابق قام ـ إلى حد ما ـ على أساس لغوى، فكان شارل الأصلع يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية ـ المحرفة عن اللاتينية ـ ومن ثمّ سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للإشارة إلى هذا الجزء الغربى من الإمبراطورية الفرنجية. وحكم لويس الألمانى الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية، ومن ثم سنشير إلى هذا الجزء بألمانيا. أمّا لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية، وقد سميت بلاده لوثر نجيا ـ أى مملكة لوثر ـ ثم حرف الاسم إلى اللورين؛ وهى المنطقة التى مازالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية[٩٦].

ولمّ يلبث لوثر ـ صاحب المملكة الوسطى ـ أن توفى سنة ٨٨٥، وبذلك قسمت مملكته إلى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه[٩٧]، وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت إليها الإمبراطورية الكارولنجية، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكرولنجى، بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا ،وشارل السمين فى ألمانيا، وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوحد بين ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا توحيدا اسميًا لمدة ثلاث سنوات، إلا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العام التالى[٩٨]. أمّا فى فرنسا فإن شارل البسيط كان طفلا فى الثامنة من عمره، ممّا سهل انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى أودو كونت باريس، الذى استطاع أن ينتزع الملك ويؤسس أسرة جديدة هى أسرة كابيه سنة ٨٨٨[٩٩].

وعلى هذا الوجه انهارت الإمبراطورية الكارولنجية، وإن ظلت ذكرى شارلمان ـ مؤسس هذه الإمبراطورية ـ باقية فى التاريخ لتخلد اسمه إلى جانب قيصر والإسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التى استطاعت أن تكيف التاريخ الأوربى. وإذا كان المعاصرون فى القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالإسكندر، ورومولوس، وهانيبال وغيرهم من أعلام العصرالوثنى، فإن البابوات وصفوه بأنه قسطنطين الجديد، كما رسمت صورته فى قصر إنجلهايم إلى جوار قسطنطين وثيودسيوس[١٠٠].

(96) Orton: op. cit. pp. 149 - 150.

(97) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 34.

(98) Deanesly. op. cit. p. 560.

(99) Idem, p. 561.

(100) Kleinclausz: op. cit. pp. 355 - 556 & Fichtenau. op. cit. p. 83.

الباب العاشر

الڤيكنج

نقصد بالفيكنج العناصرالشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة جتلاند (الدانمارك)، والتى اتخذت إغاراتها على أوربا شكلا خطيرا فى القرن التاسع، وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها ـ وأطلق عليها المعاصرون ـ اسم الفيكنج Vikings ـ بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوربا[1].

وإذا كان الفيكنج يرجعون فى الناحية العنصرية إلى الأصل التيتونى أوالجرمانى، إلاّ أننا نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التى أغارت على أوربا فى أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ـ ذلك أن الفيكنج ظلوا برابرة خالصين محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم، والبناء الاجتماعى والديانة، واستمروا حتّى القرن التاسع يعيشون فى هذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى، والبحر المتوسط، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السابقة التى اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الإمبراطورية بعدة قرون. ولم تحاول الإمبراطورية الرومانية أو إمبراطورية الفرنجة مدّ سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربى الجنوبى، ممّا جعل بعض الكتاب يقولُ بأن الفيكنج هم الذين استكشفوا أوربا وليست أوربا هى التى كشفت عن الفيكنج[2].

ولم يختلف الفيكنج عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية فى نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم، اللهم إلاّ أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات، والأحراش والمستنقعات، لم تترك لهم مجالاً يعيشون فيه سوى السهول الساحلية، وهى لا تعدو فى معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأراضى الصعبة، وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى اتصفت بطولها وقلة

(1) Mawer: The Vikings, p. 1.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 306.

عرضها وسارت بالمجداف أوالشراع، وجابوا بها شواطئ أوربا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الأطلسى حتى صاروا أعظم الشعوب البحرية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى(٣)؛ لذلك اتخذت إغارات الفيكنج شكلا بحرياً أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة، كذلك عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد.

أمّا الأسباب التى دفعت الفيكنج إلى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة، فيمكن تفسيرها على أسس نفسية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية، فمن الناحية النفسية أثبت التاريخ دائما أن الشعوب المتخلفة يغلب عليها شعور الحسد والطمع فى البلاد المتحضرة القريبة منها، والرغبة فى الإغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها. وهذا الشعور كان أحد العوامل التى حركت الجرمان نحو أراضى الإمبراطورية الرومانية من قبل، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج فى القرن التاسع(٤). ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفيكنج كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا(٥) لذلك اهتز الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا، وسكسونيا؛ نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شلٍّ نشاطهم التجارى، وبالتالى مضايقتهم اقتصاديا، ومن الناحية الاجتماعية يقال إن أعداد الفيكنج تزايدت فى القرن التاسع حتّى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ سكندناوة، ودانمارك، ممّا دفعهم إلى الهجرة إلى أرض الله الواسعة والإغارة على البلاد القريبة الدافئة بغية الحصول على ما يمسك رمقهم ويسد حاجتهم(٦)، هذا وإن كانت لاتوجد فى الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا

---

(3) Stephenson, op. cit, p. 201.

(4) Eyre: op. cit. p. 106.

(5) Lct, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 465.

(6) Cam. Mcd. Hist. Vol. 3, p. 311.

لهجرة الفيكنج فى القرن التاسع(٧)، وأخيرا يأتى العامل السياسى ممثلا فى نشأة الملكية بين الفيكنج وخاصة فى النرويج, حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع فى يدى هارولد الأشقر Harold Fairhair الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة إلى أوطان جديدة عن الخضوع فى ظل نظام لم يألفوه، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن السويد، والدانمارك شهدتا أيضاً تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفيكنج إلى الهجرة(٨)، وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتّى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية فى شمال غرب أوربا، حتى أن قوتهم كانت عقبة فى سبيل توسع الفيكنج جنوبا ، ولكن حدثت عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدى شارل مارتل سنة ٧٣٤ ثمّ شارلمان سنة ٧٨٥، أن زالت هذه العقبة من طريق الفيكنج وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم(٩).

وإذا كنّا فى حديثنا عن الفيكنج نقسمهم إلى نرويجيين، وسويديين، ودانيين فإننا يجب أن نشير إلى أن هذا التقسيم لا يعنى وجود فوراق بين هذه الفئات الثلاث، وإنما كل ما يقصد به هو الإشارة إلى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندناوة أو شبه جزيرة الدانمارك؛ وبعبارة أخرى فإن العصر الكارولنجى لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج، أو السويد، أو الدانمارك(١٠).

---

(7) Eyre: op. cit. p. 106.

(8) Mawer, op. cit. pp. 7 - 8.

(9) Eyre: op. cit. p. 106.

(10) Stephenson, op. cit. p. 200.

وقد جاء فى موسوعة تاريخ كامبردج أن المقصود بالفيكنج «جموع الشماليين، والدانيين، والسويديين، ومن هذا التعريف نفهم أن الشماليين هم النرويجيون وحدهم، فى حين أن لفظ الفيكنج أكثر شمولا؛ لأنه يعنى جميع سكان سكندناوة والدانمارك فى القرن التاسع، والواقع أن معظم حوليات العصور الوسطى لم تحاول التفرقة بين الدانيين - سكان دانمارك - والنرويجيين، وعبرت عنهم جميعا باسم الشماليين Nordmanni على أننا نجد هذه التفرقة واضحة بين الفئتين فى كتابات الأيرلنديين المعاصرة، أمّا الكتاب الذى دونوا حولية أنجلو سكسون فقد حرصوا على استخدام لفظ الشماليين Noromenn دلالة على النرويجيين فقط، وكذلك فعل ألفرد فى ترجمته لكتاب المؤرخ أوروزيوس.

(انظر: Mawer, op. cit. pp. 9 - 10).

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافى فى توزيع غزوات الفيكنج، ـ فالسويديون الذين يواجهون شرق أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التى هيأتها وديان الأنهار للوصول إلى سهول شرق أوربا والبحر الأسود. أمّا النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا إنجلترا، وأيرلندا، والجزر القريبة، فضلا عن الجزر الشمالية فى المحيط الأطلسى، هذا فى حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطئ الإمبراطورية الكارولنجية فى ألمانيا، وفرنسا، وأسبانيا، فضلا عن إنجلترا، وأيرلندا، والجزر القريبة.

ويمكن تقسيم الأدوار التى مرت بها علاقة الفيكنج بغرب أوربا إلى ثلاثة أدوار، الأول دور الهجوم، والثانى دور الاستقرار، والثالث دور الدفاع، أمّا دور الهجوم فقد بدأ فى أواخر القرن الثامن ـ أى منذ سنة ٧٨٩ ـ عندما أخذ الفيكنج يهددون شواطئ إنجلترا، وإسكتلندا، وأيرلندا، وفى ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض إمبراطوريته لهجمات الفيكنج، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا إلا بعد وفاة شارلمان، ثمّ بوجه خاص بعد وفاة لويس التقى سنة ٨٤٠[11]، وقد اتخذ نشاط الفيكنج فى ذلك الدور شكل غزوات صيفية فيخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو ثمّ يعودون إليها فى الخريف وقد اكتظت سفنهم بالغنائم، والأسلاب. على أن حركة توسع الفيكنج لم تلبث أن دخلت دوراً جديداً عند منتصف القرن التاسع، عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم فى معسكرات حصينة أو فى الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطئ البلاد التى يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها، وبعد أن كانوا فى الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا فى هذا الدور الثانى يغيرون على بلاد غرب أوربا فى هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم؛ بغية الاستقرار فى البلاد التى يغزونها، وهكذا أقام الفيكنج مستعمرة قصيرة العمر فى أيرلندا سنة ٨٤٣ كما قضوا الشتاء لأول مرة فى إنجلترا سنة ٨٥١[12]، وكذلك أخذوا يستقرون حوالى ذلك الوقت فى الجزء الغربى من فرنسا الذى عرف فيما بعد باسم نورمنديا[13]، ولكنهم صاروا يوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وكلما هجر الأهالى

(11) Oman: The Dark Ages, p. 415.
(12) Hodgkin : The Hist. of England, p, 267.
(13) Eyre: op. cit. p. 107.

الأجزاء الساحلية إلى الداخل تبعهم الفيكنج، وأخيرا يأتى الدور الثالث فى أواخر القرن التاسع، وهو الدور الذى امتاز بمقاومة أهالى البلاد وحكامها للفيكنج فى حين التزم هؤلاء الأخيرون جانب الدفاع ، وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أودو حاكم باريس ممّا أدى إلى فشل حصار الفيكنج لباريس (٨٨٥ – ٨٨٧)، وقبل ذلك بقليل كان ألفرد ملك وسكس بانجلترا قد أنزل بالدانيين هزيمة كبرى فى أدنجتون سنة ٨٧٨[١٤]، وفى سنة ٨٩١ استطاع أرنولف ـ أحد ملوك البيت الكارولونجى فى المملكة الوسطى ـ أن ينزل هزيمة بالفيكنج فى موقعة ديل Dyle فى برابانت Brabant[١٥] .

إغارات الفيكنج على الإمبراطورية الكارولنجية:

بدأت إغارات الفيكنج على الإمبراطورية الكارولنجية فى حياة شارلمان الذى أدى توسعه شمالا إلى إيجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين، ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم للعلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين[١٦]، هذا فى الوقت الذى أخذت بعض سفنهم تغير على إقليم أكوتين[١٧]. ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع إغارات الفيكنج على شواطئ الإمبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموا إحدى القرى أو المراكز الساحلية، ويبدو أن هذه الإغارات أفزعت شارلمان فأعدّ أسطولا قويا فى موانئ نستريا لحماية شواطئ إمبراطوريته من هجمات الفيكنج، ومع ذلك فقد استمر جودفريد ملك الدانيين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان فى جنوب البحر البلطى وشواطئ فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم سنتى ٨٠٤، ٨٠٩ كوسيلة لدفع شرهم[١٨]، ثمّ حدث فى عهد لويس التقى ـ خليفة شارلمان ـ أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التى قامت حول تقسيم الإمبراطورية، وأنزلوا قوات ضخمة على شاطئ فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أو ترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا ودورشتد

---

(14) Cam. Med. Hist., Vol. 3. p. 315.

(15) Eyre: op. cit. pp. 109 - 110.

(16) lot, Pfister, Ganshof: op. cit. pp. 465 - 466.

(17) Mawer: op. cit. p. 17.

(18) Davis: op. cit. pp. 296 - 297.

Durstede أكبر موانئ الإقليم. وفى العام التالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب ثمَّ عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا إلى نموجن Nimugen ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما حضر إليهم لويس التقى على رأس جيوشه(١٩)، ويبدو أن لويس التقى حاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال، كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحولوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج، وإن كانت هذه الإجراءات وأشباهها لم تؤد فى الواقع إلاَّ إلى زيادة مطامعهم فى أراضى الإمبراطورية(٢٠).

ويلاحظ أن أنهار فرنسا الغربية مثل السين، واللوار، والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السبيل إلى جوف البلاد، فأوغلوا فى نهر اللوار حتّى تور حيث نهبوا كتدرائيتها، ودخلوا فى الجارون حتى تولوز، فى حين أوصلهم السوم إلى أميان، والسين إلى باريس، وقد ساعد الفيكنج على التوغل فى الإمبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التى أمست فيها هذه الإمبراطورية فى القرن التاسع من نزاع وحروب أهلية بين الأمراء والحكام(٢١)، ومهما يكن من أمر فإن إغارات الفيكنج أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقى سنة ٨٤٠، إذ أوغلوا فى نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان، وربما شجع الفيكنج فى سياستهم الهجومية عندئذ ما لجأ اليه لوثر بالذات من تحريض لهم على مهاجمة أراضى منافسيه، وذلك أثناء النزاع الذى قام حول تقسيم الإمبراطورية عقب وفاة لويس التقى(٢٢). وهكذا أوغل الفيكنج فى اللوار قبيل عقد اتفاقية فردون مباشرة وأحرقوا ميناء نانت(٢٣). ولم تلبث أن ازدادت إغارات الفيكنج حدة وعنفًا عقب تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣، حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للإخوة الثلاثة الذين اقتسموا الإمبراطورية، وكان لويس الألمانى أوفر إخوته حظا؛ لأن قبائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعًا قوياً يحمى هذه الدولة من خطر

(19) Oman: The Dark Ages, p. 400.
(20) Mawer: op. cit. pp. 18 - 19.
(21) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 312
(22) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.
(23) Oman: The Dark Ages, p. 418.

الفيكنج. ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألمانى حرق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥ ففر أسقفها إلى برمن[٢٤]، كما أن قوة كبيرة من الفيكنج أوغلت فى نهر الألب سنة ٨٥١ وهزمت أمراء السكسون، ثمّ عادت ظافرة إلى الدانمارك بعد أن نهبت جزءا كبيراً من سكسونيا.

أمّا الأخ الثانى لوثر فكانت خسارته فادحة، إذ أخذ الفيكنج يغيرون على شواطئ فريزيا سنويا، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى روريك Rorik؛ ليسترضيه ويتفادى شره، ولكن هذا الحل لم يجد إذ سرعان ما أصبحت شواطئ فريزيا (الأراضى المنخفضة) قلاعا للفيكنج، استغلوها فى التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر فى قصره بمدينة آخن (اكس لاشابل) لا يأمن على نفسه من خطرهم.

وأمّا الأخ الثالث ـ وهو شارل الأصلع ـ فكان أسوأ الثلاثة حظا؛ لأن مملكته (فرنسا) امتازت بشاطئ طويل مكشوف، وعدد كبير من الأنهار التى ساعدت الفيكنج على التوغل داخل البلاد، وقد استغل الفيكنج فرصة انشغال شارل فى حرب أهلية مع ابن أخيه بيبين أمير أكوتين، وجددوا هجماتهم على الأجزاء الشمالية من مملكته، وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة فى نستريا، بعد أن استولوا على دير نوار موتييه، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الأجزاء الجنوبية من فرنسا[٢٥] ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بيبين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفيكنج، إذ استعان بهم الأول وساعدهم على التوغل فى حوض الجارون حتى وصلوا إلى مدينة تولوز[٢٦]، وفى ذلك الوقت كان الفيكنج قد عادوا إلى تهديد حوض السين من جديد، فأغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥، وظلوا يتقدمون فى نهر السين حين بلغوا أسوار باريس ولم يجرؤ شارل الأصلع على مواجهتهم وإنما انسحب وتحصن فى مرتفعات مونتمارتر Montemartre ، وفى دير سانت دنيس، وترك باريس ليدخلها الفيكنج وينهبوها[٢٧].

---

(24) Mawer: op. cit. p. 20.

(25) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(26) Mawer: op. cit. pp. 20 - 21.

(27) Oman: The Dark Ages, p. 419 f.

ولم تتوقف إغارات الفيكنج على فرنسا عند هذا الحد، بل إنهم أغاروا على بوردو ـ كبرى مدن الجنوب ـ ونهبوها سنة ٨٤٧، ثم استولوا عليها تماما بعد قليل فظلت بأيديهم عدة سنوات، ومن الواضح أن استيلاء الفيكنج على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة. أغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميرى بأعداد أكبر حتى وصلت مملكة شارل الأصلع إلى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال، وقد حدث عندما تجددت هجمات الفيكنج على حوض السين سنة ٨٥٢، أن أتى لوثر على رأس جنده؛ لمساعدة أخيه شارل الأصلع، ولكن الأخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال، وأجاز له الاستقرار فى منطقة قرب مصب اللوار، ومن ثمّ انسحب لوثر عائدا إلى بلاده[٢٨]، ولم تلبث أن تجددت الحروب الأهلية بين لويس الألمانى وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت للدانيين الذين أوغلوا فى مملكة شارل وحرقوا نانت، وتور ونهبوا المناطق المحيطة بأنجرز، وبلوا، وبذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ – ٨٥٤)[٢٩].

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجى عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفيكنج أنهم لجأوا إلى شراء مسالمتهم بالمال. من ذلك ما فعله شارل الأصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال؛ ليقوم الأخير بإخلاء نستريا من الغزاة، ولكى يحصل الملك الكارولنجى على هذا المبلغ الذى يتعهد بدفعه للفيكنج فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة، حيث لم تعف منها الكنائس، والأديرة، والنبلاء، والتجار بل فقراء الفلاحين[٣٠] وهكذا جاءت هذه الضريبة لتضيف حملا جديدا إلى الأثقال التى كان يتحملها أهالى دولة الفرنجة، فى الوقت الذى اتضح عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم[٣١].

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٥، ٨٨٧ تعتبر من أحلك عصور التاريخ

---

(28) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiere partie. 379.

(29) Oman: The Dark Ages, p. 422.

(30) Mawer: op. cit. p. 45.

(31) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 313.

الغربى. ففى سنة ٨٥٥ توفى لوثر، فكان ذلك نذيرا بحرب أهلية جديدة بين أبنائه وإخوته حول اقتسام ممتلكاته. وفى تلك الظروف لم يتوقف خطر الفيكنج، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الأصلع إلى إصدار مرسوم بيستر Pistres سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش سريعة الانتشار، خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة، ولعمل جسور ووضع عقبات فى مجرى الأنهار لتعوق تقدم سفن الفيكنج من جهة أخرى، على أن وفاة لويس الألمانى سنة ٨٧٦، ثمّ شارل الأصلع سنة ٨٧٧ زادت من انقسام الإمبراطورية الكارولنجية، بل من ضعفها وعجزها عن مقاومة أخطار الفيكنج[٣٢]، ففى سنة ٨٧٩ دخلت جموعهم نهر الشلد وأقاموا معسكراتهم عند غنت ليجتاحوا وادى السوم بأكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة مثل كوربى، وسانت روكويير وغيرهما، كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز للمصير نفسه، إذ هيأت أنهار الراين، والميز، والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفيكنج حتّى وصلوا آخن وهددوا كولونيا. حقيقة أن لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن يحرز نصرا على الفيكنج فى موقعة سوكورت Saucourt سنة ٨٨١، حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته، ولكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم[٣٣]، وفى سنة ٨٨٢ لجأ شارل السمين إلى مصالحة جودفريد أحد زعماء الفيكنج فعقد معه معاهدة السلو Elsloo التى وافق فيها شارل على منح الفيكنج مبلغا ضخما من العملة الفضية. فضلا عن إقليم فريزيا ليكون دوقية لجودفريد الذى تزوج جزلا ابنة الملك شارل، وفى مقابل كل ذلك تعهد جودفريد بالانسحاب من مملكة شارل السمين، وتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظلّ تابعا للملك شارل.

ولكن هؤلاء الفيكنج الذين غادروا ألمانيا وفقا لمعاهدة السلو اتجهوا نحو نستريا، وهو أمر لم يهتم له شارل السمين فى قليل أو كثير ماداموا سيجلون عن مملكته. لذلك كان شتاء سنة ٨٨٢ ـ ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا، إذ دهمت المنطقة من ريمس حتى أميان جموع ضخمة من الفيكنج. وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ – ٨٨٤) أن يحذو حذو سلفه لويس الثالث، وإنما فضل أن يقتفى

(32) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie. pp. 389 - 390.

(33) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 321.

سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة لكى يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم إلى أوستراسيا، وإنجلترا، وأيرلندا، وقد أتيحت لشارل السمين - بعد موت كارلومان ملك فرنسا - فرصة توحيد معظم أجزاء إمبراطورية شارلمان تحت سيادته، ولكن الفارق كان عظيمًا بين شخصيتى شارل السمين، وشارل العظيم(٣٤)، وكان أن امتازت السنوات الثلاث التى وحّد فيها شارل السمين الإمبراطورية (٨٨٤ – ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية، وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية.

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن الاتفاقات التى عقدها ملوك الغرب مع الفيكنج لاقيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التى يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم. لذلك لم يلبث أن عاد الفيكنج إلى تهديد ألمانيا وفرنسا، حتّى اشتدت إغاراتهم بصفة خاصة فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع، فدمروا فلاندرز، كما تعرض وادى الجارون فى الجنوب الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة، ذلك أن الفيكنج استولوا على بوردو مرتين، ونهبوا بواتيه وتولوز، بل إن أساطيلهم دارت حول شبه جزيرة أيبريا وأغارت على الموانئ المسيحية والإسلامية فى إسبانيا، كما هددت الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط وتسللت فى الرون حتّى نهبت نيم وأفينون(٣٥)، وإذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفيكنج، فإن الأديرة والكنائس لم يكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية، وهذا سلاح لم يعترف به أولئك المغيرون الوثنيون. لذلك شدد الفيكنج هجماتهم على الأديرة والكنائس بعد أن خبروها فوجدوها مخبأ الثروات والكنوز، الأمر الذى نشأ عنه اندثار كثير من المؤسسات الدينية فى ذلك العصر، ولما كانت الأديرة حينذاك تمثل المراكز الأساسية للنشاط التعليمى والحضارى فى أوربا العصور الوسطى فإن الخسارة التى لحقت بالحضارة الأوربية؛ نتيجة لتدمير الأديرة وفرار أهلها أو قتلهم كانت أعظم من أن تقدر(٣٦).

(34) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie, p. 393.

(35) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 316.

(36) Haskins: The Normans in European History, p. 35.

على أن حوض السين ظل الهدف الأساسى لهجوم الفيكنج فى أواخر القرن التاسع. وقد تعرضت باريس في أواخر سنة ٨٨٥ لهجوم كبير قام به أربعون ألفاً منهم جاءوا في سبعمائة سفينة، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شئون الغزو[٣٧]، وكان أن استطاعت باريس الصمود عدة أشهر ومقاومة الهجوم والحصار، بفضل مهارة كونت أودو حاكمها، حتّى وصل أخيرا (سبتمبر ٨٨٦) الإمبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة أخرى ويعقد صلحا مشينا مع الفيكنج تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس، كما سمح لهم بالإقامة فى برجنديا[٣٨]، على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع إلى ظهور شخصية كونت أودو على مسرح الحوادث فحسب، بل ترجع أيضاً إلى ظهور أهمية باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد.

وكان أن تمّ اختيار أودو ملكا على فرنسا فى فبراير ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين فى العام السابق[٣٩]، ولم يلبث أن أحرز أودو انتصارا جديدا على الفيكنج بعد تتويجه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم[٤٠]، ولكن الفيكنج لم يتركوه يهنأ بالاستقرار إذ عادوا بعد قليل إلى محاصرة باريس للمرة الرابعة، وعلى الرغم من أن المدينة استطاعت الصمود مرة أخرى ومقاومة الحصار لعدة أشهر، إلا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة فى الدفاع عن باريس من أودو الكونت، إذ اقتفى هو الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفيكنج بالمال، وعندئذ انسحبوا إلى بريتانى ولم يلبث أن عاد الفيكنج - كما هى عادتهم - إلى تهديد وسط فرنسا، وعندئذ أنزل أودو بهم هزيمة ساحقة عند مونتبنسيه Montpeniser وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢.

وعندما أخذ نبلاء فرنسا يشعرون بتناقص خطر الفيكنج، شرعوا فى التآمر ضد ملكهم أودو، فنظروا إليه على أنه أحدهم وأرسلوا يستدعون شارل البسيط - وريث البيت الكارولنجى - من إنجلترا، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات

---

(37) Mawer: op. cit. p. 49.

(38) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie. p. 394.

(39) Idem: p. 399.

(40) Fliche: L'Europ Occidentale, p. 62.

بين أودو وشارل البسيط ولم تنته إلاّ سنة ٨٩٨ بوفاة أودو[٤١] . وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربى من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ وأظهر فى هذه المدة همة كبيرة فى محاربة الفيكنج على الرغم من صغر سنه . ولم تكن إغارات الفيكنج قد انقطعت حينئذ، بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الأهلية بين أودو وشارل البسيط وعادوا إلى نستريا؛ ليجتاحوها من جديد، ونلاحظ أن إغارات الفيكنج امتازت ـ فى هذه المرحلة ـ بمقاومة الأهالى لها من جهة، وبقلة الغنائم التى صار الفيكنج يحصلون عليها من جهة أخرى، بعد أن أحاطت المدن والأديرة أنفسها بأسوار منيعة .

وعندما فشل الفيكنج فى تثبيت أقدامهم فى برجنديا نتيجة لمقاومة البرجنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذى نسب إليهم فيما بعد ـ نورمنديا، وتشير الوثائق المعاصرة إلى أن رولو Rollo الذى أصبح بعد ذلك دوق نورمنديا أخذ يهاجم بايو فيما بين عامى ٨٩٠ ، ٨٩٢، ويبدو أن الفيكنج اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطئ هذا الجزء الغربى من فرنسا بين السوم وبريتانى، وعلى الرغم من أنهم فشلوا فى الاستيلاء على شارتر سنة ٩١٢[٤٢]، إلاّ أن شارل البسيط اختار أن يسلك معهم الأسلوب نفسه الذى اتبعه ألفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة، فعرض على زعيمهم رولو إقليما واسعا يستقر فيه مع أتباعه[٤٣]، وكان أن تمت المقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفيكنج الإقليم الساحلى الممتد من السوم حتى بريتانى؛ وهى المنطقة التى نسبت إلى الشماليين (أو النورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نومنديا أى أرض النورمان[٤٤].

والواقع أن اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع؛ لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدى الفيكنج فعلا، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة

(41) Idem: pp. 65 - 68.
(42) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 318.
(43) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.
(44) Mawer: op. cit. p. 52.

٨٤١، والذين لم تنقطع إغاراتهم عنها إلاّ حوالى سنة ٩٦٦ أى بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن(٤٥)، ومهما يكن الأمر فإن الفيكنج أصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورمنديا حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية، مع إقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا، ومن الواضح أن الدافع الأساسى الذى شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة وإلقاء نورمنديا للفيكنج لقمة سائغة هو رغبته فى إيجاد خصم قوى يقف فى وجه كونت باريس، وزاد من أهمية الأمر أن رولو دوق نورماندیا سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله، كما أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط، إذ نزحت معظم جماعات الفيكنج المتناثرة فى فرنسا ليعيشوا تحت حكم رولو فى نورمنديا، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد(٤٦)، والمعروف عن الفيكنج أنهم كانوا - أينما حلوا - يظهرون مرونة سريعة فى تقبل حضارة وعادات، وأوضاع أهالى البلاد الأصليين، ولذلك لم يكد يمر قرن من الزمان على غزو الفيكنج لإقليم نورمنديا حتى تأقلم النورمان وصاروا فرنسيين فى عقيدتهم، ولغتهم، ونظمهم، وثقافتهم، وإن ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة والعنف الذى اتصف به أسلافهم الأوائل، مما جعلهم يقومون بدور مهم فى حكومات فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وصقلية، وهى الجهات التى غزاها النورمان فيما بعد(٤٧).

إغارات الفيكنج على إنجلترا:

كانت إنجلترا من أولى بلاد غرب أوربا التى تعرضت لإغارات الفيكنج، إذ شهدت هذه البلاد غارة قامت بها بعض سفنهم التى رست قرب دورشستر Dorchester سنة ٧٨٧ على عهد الملك بيوهتريك Beorhtric ملك وسكس (٧٨٦ -٨٠٢) كما نهبوا أسقفية لندسفرين Lindisfrane قرب الشاطئ الشمالى الشرقى لإنجلترا سنة ٧٩٣(٤٨). وبعد أن أغار الفيكنج على دير القديس بولس فى جارو Jarrow على الساحل الشرقى سنة ٧٩٤ لم نسمع عن إغارات أخرى قاموا بها

(46) Fliche: L'Europ Occidentale, pp. 72 - 77.

(47) Lavisse: op. cit. Tome 2, Premiére Partie. p. 402.

(48) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 257 - 258.

على إنجلترا حتى سنة ٨٣٥، ويبدو أنهم فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٩٤، ٨٣٥، وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو أيرلندا كما سيأتى بعد قليل.

وقد أطلق أهل إنجلترا من السكسون اسم «الدانيين» Danes على جماعات الفيكنج التى أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن[(٤٩)]. وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون الجرعة نفسها التى سبق أن سقوها لأهالى بريطانيا - من البراطنة والرومان - فى القرنين الخامس والسادس، ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من قسوة إغارات الفيكنج على إنجلترا، وما لقيته البلاد على أيديهم من تخريب وفوضى، إلا أنه من الثابت أن الفائدة التى حصلت عليها إنجلترا من وراء هذه الإغارات فاقت الخسارة التى لحقت بها ويكفى أنها أدت إلى تكتل إنجلترا الأنجلوسكسونية فى هيئة مملكة واحدة[(٥٠)].

أمّا إغارات الفيكنج على إنجلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت فى الجنوب والغرب ثمّ لم تلبث أن أخذت تمتد شرقا[(٥١)]، ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفيكنج فى هذا الدور، إذ أغاروا على سوثهامبتون Southampton سنة ٨٤٠ وبورتلاند فى الوقت نفسه، وشارموث Sharmouth سنة ٨٤٣، ومصب نهر باريت Pariet سنة ٨٤٨، ثم ومبورى Wembury سنة ٨٥٤، وليس معنى هذا أن بقية أجزاء البلاد نجت من خطرالفيكنج، فقد اجتاحوا لندسى Lindsey وإنجليا الشرقية وكنت سنة ٨٤١، وفى سنة ٨٤٤ لقى ردوولف Redwulf ملك نورثمبريا مصرعه على أيديهم[(٥٢)].

ولم تلبث أن دخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين الذين استولوا على كانتربورى ولندن، ثم عبروا التيمز حيث أنزل بهم إثلوولف

---

(٤٩) هذا على الرغم من أن إغارات الفيكنج فى هذا الدور الأول على إنجلترا قام بها فعلا النرويجيون أو الشماليون من سكان النرويج لا الدانيون من سكان الدانمارك، وهم الذين لم تبدأ هجماتهم بصفة جدية على إنجلترا وأيرلندا إلا قرب منتصف القرن التاسع. انظر:

Nawer' op. cit. p. 14

(50) Hodgkin: The History. of England, p. 262.

(51) Mawer: op. cit. p. 14.

(52) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 266 - 267.

Ethelwulf ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى Ockley وذبح منهم عددا كبيرا، ومهما تكن قيمة هذا النصر، فقد قلل من أثره أن الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ فى إنجلترا عند ثانت Thanet ، وبذلك أخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة إلى دور الاستقرار(٥٣).

ثم كان أن لجأ شارل الأصلع إلى تخليص نهرالسين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال ٨٦٦، وعندئذ لجأت هذه الجموع إلى إنجلترا حيث أغارت فى العام التالى (٨٦٧) على يورك، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول نورثمبريا(٥٤)، على أن انتهاء أمر هذا النزاع لم يؤد إلى إضعاف الدانيين أو طردهم، بل إن مرسيا Mercia دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩(٥٥). كما عبروا مرسيا إلى انجليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث أنزلوا هزيمة بملكها أدموند وقتلوه، ومن ثم اعتبر هذا الملك قديسا وشهيدا فى نظر العصور التالية(٥٦).

والواقع أنه لم ينقذ بقية إنجلترا من خطر الدانيين وتوسعهم سوى جهود ألفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ – ٨٩٩)، حتى أن سنة ارتقائه العرش صارت ذات أهمية بالغة فى تاريخ إنجلترا(٥٧)، ذلك أن ألفرد العظيم أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى أنه اشتبك معهم فى تسع مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه، الأمرالذى جعل الدانيين يقنعون بعقد الهدنة ويولون أبصارهم شطر مرسيا، على أن الصراع سرعان ما تجدد بين ألفرد والدانيين، سنة ٨٧٥، وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من الصعاب فى هذا الدور، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها جميعا، وأنزل بالدانيين هزيمة ساحقة عند إدنجتون Edington سنة ٨٧٨، وكان أن طلب الدانيون الصلح، فتّم عقد صلح ودمور Wedmore سنة ٨٧٨ على أساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن، فضلا عمّا وعد به ملكهم من اعتناق المسيحية(٥٨)، ولكن

(53) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 312.
(54) Mawer: op. cit. p. 24.
(55) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 318.
(56) Mawer: op. cit. p. 25.
(57) Hodgkin: The Hist. of England, p. 319.
(58) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 319.

ملك الدانيين فى إنجلترا لم يلبث أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤، الأمر الذى جعل ألفرد يحاربهم مرة أخرى حتّى انتهى الأمر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ حددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب التيمز حتى شستر، بمعنى أن لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفرد، فى حين التزم الدانيون الأراضى الواقعة شمالى هذا الخط وهى التى سميت مسموح الدانيين (Danelaw)[٥٩] .

وقد تمتعت إنجلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات، قضاها ألفرد فى إعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام، فى حين وجه الفيكنج جهودهم إلى القارة، وفى ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقى الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفيكنج؛ وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال، فاختاروا أرنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧، لم يلبث أرنولف هذا أن أحرز نصرا على الفيكنج قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١، الأمر الذى جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى إلى إنجلترا[٦٠]، وهكذا تعرضت إنجلترا فى خريف ٨٩٢ لهجوم أسطولين من أساطيل الدانيين أحدهما رسا عند ليمن Limen (فى الجنوب الشرقى جنوبى دوفر) فى حين رسا الأسطول الثانى عند ملتون Milton فى الجزء الشمالى من كنت، وسرعان ما أبدى الدانيون نشاطا كبيرا فى مهاجمة الجهات القريبة، ولكن ألفرد واجههم فى قوة وعزيمة وأجبرهم على الانسحاب، وبعد ذلك لم نعد نسمع عن غارات أخرى خارجية قام بها الدانيون على إنجلترا بقية عهد ألفرد، وإن ظلّ الدانيون المقيمون فى أنجليا الشرقية ونور ثمبريا يقومون بكثير من أعمال القرصنة، الأمر الذى دفع ألفرد إلى توجيه نشاطه نحو بقاء أسطول قوى استغله فى دفع خطر الدانيين وإنزال عدة ضربات بهم[٦١] .

وعندما توفى ألفرد سنة ٨٩٩ أخذ خلفاؤه يغزون أراضى الدانيين تدريجيا حتى انتهى الأمر سنة ٩٥٤ بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذى أصبح يستحق

---

(59) Hodgkin: The Hist. of England, p. 287.

(60) Idem: pp. 306 - 307.

(61) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 325.

لقب ملك إنجلترا فى التاريخ، على أن ملوك إنجلترا فى الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شيء من المقدرة والكفاية، ممّا عرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفيكنج، وفى تلك المرة لم يأت الدانيون إلى إنجلترا على هيئة جماعات متفرقة، وإنما جاءوا فى صورة أمة مترابطة، حتّى أصبح كانوت Canute ابن ملك الدانمارك والنرويج ملكا على انجلترا (١٠١٦ – ١٠٣٥)، ولم يستطع أصحاب الحق الشرعى فى عرش إنجلترا من البيت السكسونى استرداد عرشهم إلاّ سنة ١٠٤٢، عندما اعتلى العرش إدوارد الثالث (١٠٤٢ – ١٠٦٦) الذى عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقب «المعترف» فى التاريخ، وقد قضى إدوارد المعترف هذا شبابه منفيا فى بلاط قريبه دوق نورمنديا، مما جعله يتأثر إلى حد كبير بالآراء والاتجاهات النورمندية(٦٢)، ومهما يكن من أمر فإن وليم دوق نورمنديا ادعى أنه صاحب الحق الشرعى فى بلاط إنجلترا عند وفاة إدوارد المعترف سنة ١٠٦٦، بحكم القرابة بين الطرفين من جهة، وبحجة أن إدوارد نفسه وعد وليم بأن يرثه فى حكم إنجلترا من جهة أخرى، وهنا نلاحظ أن البابوية ساندت وليم النورمندى فى أطماعه بسبب غضب البابا من السكسون، الذين طردوا رئيس أساقفة كانتربورى النورمندى على الرغم من أنه كان يحمل تفويضا من البابوية(٦٣).

وهكذا استطاع وليم النورمندى أن ينزل قواته على الشاطئ الجنوبى الشرقى لإنجلترا، متغلبا على الصعوبات التى اعترضته فأوقع الهزيمة بهارولد ملك إنجلترا السكسونى الجديد - فى موقعة هاستنجس ١٠٦٦(٦٤) وبذلك نجح وليم فى فتح إنجلترا مما أكسبه لقب الفاتح فى التاريخ، كما استطاع توحيد نورمنديا وإنجلترا تحت حكمه.

غزوات الفيكنج لأيرلندا:

أما أيرلندا فقد قاست أكثر من غيرها فى المرحلة الأولى من مراحل إغارات الفيكنج، إذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم، فى الوقت الذى كانت مدن الجزيرة

---

(62) Ibid.

(63) Idem, Vol. 5, p. 497.

(64) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 488 - 491.

وأديرتها مكشوفة دون أسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين. وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون إغاراتهم على إيرلندا فى أواخر القرن الثامن، حتى تحولت هذه الاغارات إلى نوع من الاستقرار فى الجزيرة فى أوائل القرن التاسع[٦٥].

وإذا كانت أيرلندا قد تعرضت لإغارات الفيكنج فى الوقت نفسه الذى واجهت إنجلترا - هى الأخرى - غزواتهم، إلا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر، ذلك أن الفيكنج داروا حول الشاطئ الغربى لاسكتلندا وغزوا جزيرة سكاى Skye قرب الشاطئ سنة ٧٩٥، كما هاجموا جزيرة مان Man - بين أيرلندا وإنجلترا - سنة ٧٩٨، أمّا جزيرة أيونا قرب شاطئ إسكتلندا الغربى فقد نهبوها سنة ٨٠٢ ثمّ سنة ٨٠٦[٦٦] وفى سنة ٨٠٧ ظهر الفيكنج قرب شواطئ أيرلندا الشمالية الغربية عند سليجو Sligo ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى بلغوا روسكومون Roscommon فى أواسط البلاد، وفى سنة ٨١١ هاجموا منستر Munster فى جنوب غرب الجزيرة، كما نهبوا شبه جزيرة هوث Howth - بجوار دبلن - وغيرها من الجزر الصغير القريبة سنة ٨٢١[٦٧].

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع أن أساطيل الفيكنج أحاطت بأيرلندا إحاطة تامة فى الربع الأول من القرن التاسع، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلاّ وكان الفيكنج قد أوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم، وعندئذ لم يعد الفيكنج يكتفون بالغارات الفردية، وإنما أخذوا يهاجمون الجزيرة بأساطيل كبرى، متخذين من خلجانها وموانيها العديدة مراكز ينفذون منها إلى الداخل[٦٨].

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبدتها القبائل الأيرلندية حالت دون استيلاء الفيكنج على الجزيرة كلها، فقنعوا بإقامة مراكز لهم حول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها، وقد حصن الفيكنج هذه المراكز وأقاموا فيها القلاع، وعن هذا الطريق ظهرت أهمية دبلن، وليميرك Limerick، وكورك، ووتر فورد Waterford، ووكسفورد[٦٩]،

(65) Oman: The Dark Ages, p. 417.
(66) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 311.
(67) Mawer: op. cit. p. 12.
(68) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317.
(69) Mawer: op. cit. p. 13.

أما المناطق الداخلية فقد اكتفى الفيكنج بنهبها، ولا سيما الأديرة التى تعرضت لكثير من مظاهر التدمير، مما جعل كثيرين من رهبانها يؤثرون الفرار إلى أديرة فرنسا، وفلاندرز، وألمانيا.

ومن زعماء الفيكنج فى ذلك العصر تورجس Turges الذى ظهر اسمه لأول مرة عند هجومهم على أرماغ سنة ٧٣٢، وقد بلغت قوة تورجس هذا ذروتها سنة ٨٤١ عندما نفى مقدم دير أرماغ وأصبحت له السيطرة التامة على الجزء الشمالى من أيرلندا، حتّى وقع فى قبضة الأيرلنديين بعد ذلك بثلاث سنوات، ومهما يكن من أمر فإن تورجس هذا لم يكن إلا واحدا من عدد كبير من زعماء الفيكنج الذين غزوا أيرلندا فى تلك الحقبة والذين تتردد أسماؤهم بكثرة فى الحوليات المعاصرة(٧٠).

وهنا نكرر القول بأن الإغارات الأولى التى تعرضت لها إنجلترا وأيرلندا جميعا من جانب الفيكنج فى ذلك الدور الأول - أى حتى قرب منتصف القرن التاسع - قامت بها عناصر من الشماليين أى النرويجيين، لا من الدانيين(٧١)، وتحدد الحوليات المعاصرة أول إغارة للدانيين على أيرلندا سنة ٨٤٩، ومنذ ذلك الوقت أخذت إغاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا فى صراع شديد مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم إلى الجزيرة، من ذلك أن الدانيين اشتبكوا مع النرويجيين فى معركة كبيرة وقتلوا منهم كثيرين، كما نهبوا قواعد النرويجيين فى دبلن ودوندالك Dundalk سنة ٨٥١ وهكذا اشتد النزاع فى أيرلندا بين الدانيين والنرويجيين الشماليين فى الوقت الذى تدخل الأيرلنديون ليحموا أنفسهم من خطر الفريقين، مما أوقع الجزيرة فى حالة شاملة من الفوضى، وزاد من حدة هذه الفوضى وصول أولاف Olaf - ابن ملك النرويج - إلى أيرلندا سنة ٨٥٣ ليخضع الدانيين فى الجزيرة(٧٢).

وقد أصبحت دبلن تحت حكم أولاف مركزا قويًا لحكم النرويجيين الشماليين فى أيرلندا، كما أخذ الوفاق يسود العلاقات بين النرويجيين والدانيين فى الجزيرة. أمّا الأيرلنديون أنفسهم فقد لاقوا كثيرا من المتاعب ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا وظهر

(70) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317.

(71) Mawer: op. cit. p. 14.

(72) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317.

بينهم زعماء تولوا قيادتهم ضد أعدائهم ولم يقتصر نشاط أولاف في تلك الفترة على أيرلندا، وإنما امتد خارجها فوصل إلى سكتلندا سنة ٨٦٦، كما أسهم بنفسه في حصار دمبارتون Dumbarton على شاطئ سكتلندا الغربي سنة ٨٧٠، وعندما عاد أولاف إلى النرويج حوالي سنة ٨٧٣ بدأ الدانيون ينتهزون الفرصة للقضاء على سيطرة النرويجيين في أيرلندا، ممّا فتح باب النزاع والحرب بين الطرفين من جديد(٧٣)، على أننا نستطيع القول بأن الغلبة في أيرلندا ظلت بوجه عام للنرويجيين الشماليين، وأن الدانيين لم ينجحوا في بسط سيطرتهم على الجزيرة(٧٤).

ثمّ كان أن ساد السلام في أيرلندا لفترة امتدت نحو أربعين سنة بدأت سنة ٨٧٧، ويبدو أن الفيكنج شغلوا في هذه الفترة بميادين أخرى استأثرت بالجزء الأكبر من نشاطهم، وخاصة إنجلترا وإمبراطورية الفرنجة، ولم تلبث أن سقطت دبلن نفسها في أيدي الأيرلنديين سنة ٩٠٢، على أن النرويجيين سرعان ما استعادوها سنة ٩١٦، وعبثا حاول الأيرلنديون استعادة مركزهم حتى حلت بهم الهزيمة سنة ٩١٩ وهكذا أضحت أيرلندا طوال الخمسين سنة التالية فريسة سهلة لإغارات الشماليين والدانيين على السواء. وإذا كان الشماليون اتخذوا دبلن مركزا أساسيا لهم، فإن الدانيين اتخذوا كورك Cork في جنوب الجزيرة قاعدة لهم وأغاروا منها على الجهات المجاورة حتى اجتاحوا اقليم منستر بأجمعه(٧٥).

وفي تلك الأثناء استمر الأيرلنديون يقاومون أعداءهم في عزيمة لا تعرف الملل حتى أغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة. وفي سنة ٩٨٠ نزلت أولى الضربات الكبرى بالشماليين عندما حلت بهم الهزيمة في تارا Tara واضطروا إلى إطلاق سراح جميع من لديهم من رهائن، فضلا عن دفع غرامة حربية باهظة، ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين و أعدائهم عند كلونتارف Clontarf سنة ١٠١٤ وانتهت هي الأخرى بهزيمة الشماليين هزية ساحقة ومقتل زعمائهم، ومع أن الفيكنج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدنهم الكبيرة في أيرلندا إلاّ أنهم أخذوا يذوبون تدريجياً في الشعب الأيرلندي على مرّ السنوات(٧٦).

(73) Mawer: op. cit. p. 58.

(74) Idem, p. 11.

(75) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 317- 334.

(76) Mawer: op. cit. p. 46.

الفيكنج فى الجزر الشمالية:

على أن توسع الفيكنج فى الاتجاه الغربى لم يقتصر على إنجلترا، وأيرلندا، وشواطئ سكتلندا، وإمبراطورية الفرنجة، وإنما شمل أيضاً الجزر الصغيرة القريبة، من تلك البلاد مثل مان وأوركنى، وشتلند، وجزر فاروى Faroe [٧٧]، هذا فضلا عن أن النرويجيين اتجهوا - بحكم موقعهم الجغرافى - اتجاها شماليا غربيا، أى نحو آيسلاند، وجرينلاند، ويرجح أن النرويجيين عرفوا من إقامتهم فى أيرلندا بوجود جزيرة أخرى كبيرة تقع بعيدا فى شمال المحيط الأطلسى؛ لأنه من الثابت أن الرهبان الأيرلنديين سبق أن وصلوا إلى أيسلاند وإن لم يستقروا فيها، هناك رواية وردت فى إحدى الساحات تشير إلى أن سفينة نرويجية قذفتها العواصف بعيدا عن طريقها حتى رست على شواطئ أيسلاند سنة ٨٦١[٧٨]، ومهما يكن من أمر فإن استقرار الفيكنج فى آيسلاند لم يبدأ إلا حوالى سنة ٨٧٠ عندما هاجر إليها كثير من النبلاء النرويجيين ومعهم أتباعهم؛ ليعيشوا فيها أحرارا بعيدين عن سيطرة هارولد الأشقر صاحب السلطة العليا فى النرويج عندئذ[٧٩].

ولم يلبث أن اتجه الشماليون غربا من آيسلاند حتى وصلوا جرينلاند، والشواطئ الشمالية الشرقية لأمريكا حوالى سنة ١٠٠٠، وهكذا أصبحت جرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا إليها من النرويج وآيسلاند، فعمروها وشيدوا بها الكنائس حتى أسست أسقفية جاردار Gardar سنة ١١٢٦[٨٠].

توسع السويديين شرقا:

إذا كان هناك جدل طويل فى التاريخ حول نصيب كل من النرويجيين والدانيين فى حركة الفيكنج، فإننا لا نصادف خلافا فى الرأى عند دراسة حركة توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا، حقيقة أنه يفهم من بعض المصادر المعاصرة أن

(77) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 325.

(78) Thompson: Vol. 1, p. 332.

(79) Mawer: op. cit. p. 142.

(80) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 324.

بعض السويديين ترددوا - هم الآخرون - على إنجلترا وغيرها من بلاد الغرب، ولكن هذه الإغارات كانت من النوع الفردى، ولاتعبر بأى حال عن النشاط الاجماعى للسويديين، وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا، وهو أن هذه الحركة قامت على أساس التغلغل السلمى الذى اعتمد على النشاط التجارى، لا على أساس الغزو الحربى والنهب والتدمير، وهى الصفات التى امتازات بها غزوات النرويجيين والدانيين فى الغرب(٨١).

والواقع أن البحر البلطى كان ميدانا أساسيًا لنشاط عناصر الفيكنج، وإن كان السويديون والدانيون هم الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط فى هذا الميدان، بعكس النرويجيين الذين اتجهوا غربا بحكم توجيههم الجغرافى.

وإذا كان نشاط الدانيين فى حوض البحر البلطى قد اقتصر على شواطئ بومرانيا Pomerania - غربى دانزج - فإن نشاط السويديين اتجه إلى الجزء الشرقى من حوض ذلك البحر حتى وصلوا إلى كورلاند Kurland على خليج ريجا، ومنها أوغلوا شرقا على امتداد نهر دونا Duna داخل البلاد(٨٢)، ومهما يكن من أمر ، فإن الميدان الرئيسى لتوسع السويديين ونشاطهم لم يكن فى حوض البحر البلطى وشمال أوربا بقدر ما كان فى سهولها الجنوبية الشرقية، وفى هذه السهول عُرف السويديون باسم «الروس» Rus ، وهو لفظ فنى بمعنى «النوتية أو البحارة» أطلقه الفنيون والسلاف على هذه العناصر الشمالية التى تغلغلت فى بلادهم.

وكان الآفار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية فى شرق أوربا؛ لجلب الرقيق والفراء وبيعها إلى تجار المسلمين فى القوقاز أوالتجار المسيحيين فى القسطنطينية، ولكن قوة الآفار كانت قد انهارت فى القرن التاسع، الأمر الذى مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا أقدامهم فى حوض نهر الدنيبر حتّى وصلوا إلى البحر الأسود، وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطى والأسود ممّا ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم فى هذا

(81) Mawer: op. cit. p. 9.

(82) Idem, . pp. 72 - 73.

الجزء الشرقى من أوربا(٨٣)؛ ذلك أن الروس أسسوا عدة مدن، تتحكم كل مدينة منها فى المنطقة القريبة التى تحيط بها والتى سكنتها قبائل مختلفة من السلاف، ولكل مدينة حكومتها الذاتية، ومجالسها، وموظفوها، وقد فكرت هذه المدن فى حماية أنفسها وحماية تجارتها، فلجأت إلى تأليف جيوش صغيرة، على رأس كل جيش أمير يقوم أيضاً بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الإدارية والقضائية(٨٤)، وكان أن حدث حوالى سنة ٨٨٢ أن استولى أحد الزعماء الروس - ويدعى روريك Rurik - على مدينة كييف، وبذلك نشأت دوقية كييف العظيمة لتكون مركزا للفيكنج فى شرق أوربا، مثلما كانت نورمنديا مركزا لهم فى غربها، على أنه إذا كانت دوقية نورمنديا قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها فى فرنسا(٨٥)، فإن دوقية كييف استطاعت على العكس، أن تتسع بسرعة فائقة، وأن تفرض سيطرتها المباشرة - وغير المباشرة - على كثير من القبائل والشعوب الضارية فى سهول شرق أوربا، ويقال إنه بلغ من سرعة اتساع كييف أن صار بها فى الربع الأول من القرن الحادى عشر - أى على عهد فلاديمير الأول أو العظيم (ت ١٠١٥) - ثمانى أسواق كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين، والهنغاريين، والألمان، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد(٨٦)، ومازالت لدينا صور بعض معاهدات تجارية ترجع إلى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة، والدولة البيزنطية من جهة أخرى، تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والرقيق إلى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصوغات وغيرها من لوازم الترف، وربما كان أوضح ما فى هذه المعاهدات أن الموقعين عليها من الروس يحملون أسماء سويدية(٨٧).

على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل تجارية سلمية على طول الخط، فقد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو الحرب والقتال؛ ممّا دفعهم إلى

---

(83) Stephenson: op. cit. pp. 201 - 211.

(84) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 325.

(85) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 327.

(86) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 325.

(87) Mawer: op. cit. p. 75.

الإغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها، من ذلك أنه حدث سنة ٨٦٥ أن أبحروا فى الدنيبر حتى البحر الأسود، واجتازوه إلى بحر مرمرة حيث تعرضت سفنهم لعاصفة حطمت معظمها، ثم حدث سنة ٩٠٧، أن أغار أحد زعماء الروس واسمه أولج Oleg على أطراف القسطنطينية ومعه أتباعه تحملهم ألف سفينة، ولم ينسحب إلاَّ بعد أن دفعت له الإمبراطورية مبلغا كبيرا من المال[٨٨].

ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى هجم زعيم روسى آخر اسمه ايجور Igor على عاصمة الدولة البيزنطية سنة ٩٤١ ثم ٩٤٤، مما دفع الإمبراطورية إلى السعى للتفاهم مع الروس وإقامة العلاقة بين الطرفين على أسس سلمية[٨٩]، وكان أن تمّ التفاهم فعلا حوالى منتصف القرن العاشر، ومن ثمّ أخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين فى البحرية الإمبراطورية؛ حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم[٩٠]، وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحرب[٩١]، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء، والقنب، والشمع، والقار، والعنبر، والرقيق، على أن تعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل، والمجوهرات، أمّا عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التى عثر عليها فى السويد وفى روسيا والتى يرجع معظم تواريخها إلى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٠و ١٠٠٠ [٩٢]، ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافى الكبير الذى عاشوا وسطه بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادى عشر، إلا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافى العام[٩٣].

---

(88) Ostorgorsky: op. cit. p. 229.
(89) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 426.
(90) Diehl & Marcais: op. cit. pp. 470 - 471.
(91) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 327.
(92) Mawer: op. cit. p. 79.
(93) Idem: p. 80.

نشاط الفيكنج فى حوض البحر المتوسط :

لم يقتصر نشاط الفيكنج على دائرة البلاد السابق ذكرها، إنما امتد هذا النشاط إلى كثير من البلاد المجاورة، ففى سنة ٨٤٤ أغار الفيكنج على شواطئ إسبانيا الإسلامية وتعرضت لشبونة، وقادس، وإشبيلية بوجه خاص لعبثهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية[٩٤]. وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التى أظهرها الأهالى فى صدّ أولئك الغزاة ـ الذين أسماهم المسلمون باسم المجوس[٩٥] ـ إلا أنه يبدو أن إغاراتهم استمرت بشكل خطير ممّا دفع عبدالرحمن الثانى إلى إرسال سفارة إلى ملك الفيكنج[٩٦].

ثمّ حدث سنة ٨٥٩ أن أبحر الفيكنج من حوض السين وعبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بلاد المغرب وقراها، كما أغاروا على شواطئ الأندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار، وبعد أن أمضوا فصل الشتاء فى إحدى الجزر الواقعة عند مصب نهر الرون، حيث أغاروا على مدن إقليم بروفانس، أبحروا فى الربيع التالى إلى إيطاليا حيث استولوا على بيزاولونا Luna ويبدو أن الهدف الأساسى من ذهاب الفيكنج إلى إيطاليا كان الاستيلاء على روما ، ولكننا لاندرى السبب فى عدم تقدمهم جنوبا لتحقيق هذا الهدف وإن كانت بعض الأساطير المعاصرة تعلل ذلك بأن الأمر اختلط عليهم فظنوا أن لونا هى روما ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الفيكنج عادوا سنة ٨٦٢ من حيث أتوا فعبروا مضيق جبل طارق إلى بريتانى.

وهكذا استطاع الفيكنج فى النصف الثانى من القرن التاسع الإحاطة بأوربا إحاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس إلى القسطنطينية شرقا، ووصل الفيكنج الغربيون إلى شواطئ إيطاليا من الجهة المقابلة[٩٧].

---

(94) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(٩٥) ويبدو أن إطلاق مسلمى الأندلس اسم المجوس على الفيكنج جاء نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يستولون عليها، أو لما اعتاده الفيكنج من إشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة، الأمر الذى جعل المسلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أو المجوس.

(96) Mawer: op. cit. pp. 19 - 20

(97) Idem: pp. 46 - 47.

حضارة الفيكنج:

لم يكن الفيكنج برابرة بكل معاني الكلمة؛ لأنهم أظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية(٩٨)، إذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية الأولى من جهة، فى حين فاقوا كثيرا من شعوب أوربا المجاورة فى بعض نواحى النشاط البشرى، وخاصة الحرب، والتجارة، والتنظيم الاجتماعى من جهة أخرى(٩٩)، على أن الخشونة والبدائية التى عرف بها الفيكنج فى أول الأمر لم تلبث أن أخذت تتعدل نتيجة لانتشار المسيحية تدريجياً بينهم، وما ترتب على ذلك من تهذيب طباعهم.

ويرجح أن أول معرفة الفيكنج بالمسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين، حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندناوة والدانمارك منذ أوائل القرن الثامن، ومن هذه البعثات بعثة القديس وليبرورد Willibrord وبعثة إبو Ebbo رئيس أساقفة ريمس سنة ٨٢٣(١٠٠)، وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقى على نشر المسيحية بين الفيكنج بالطرق السلمية، فأغرى هارولد ملك الفيكنج على اعتناق المسيحية حتى تمّ تعميده مع عدد كبير من أتباعه سنة ٨٢٦. وعند عودة هارولد بعد ذلك إلى بلاده صحبه القديس أنسكار St. Ansker أحد رهبان دير كوربى المعروفين بحماستهم الدينية، فقضى أنسكار عامين فى نشر المسيحية فى الدانمارك، ثم أبحر إلى السويد حيث استقبل استقبالا طيبا ونجح فى تحويل عدد كبير من السويديين إلى المسيحية، حتى عاد إلى بلاده سنة ٨٣١، فعيّن رئيسا لأسقفية هامبورج التى أصبحت قاعدة لنشر المسيحية فى البلاد الشمالية(١٠١)، وهكذا أخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية، ليس بين الدانيين فحسب، بل بين النرويجيين والسويديين كذلك، وليس فى بلادهم الأصلية فحسب بل فى المواطن الجديدة التى هاجروا إليها واستقروا فيها سواء فى غرب أوربا أو شرقها، وليس هناك من شك فى أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثرا واضحا فى مستقبل أوربا وتاريخها، إذ يمكن الوقوف على أهمية

(98) Haskins: The Normans in European History, p. 36.
(99) Mawer: op. cit. p. 83.
(100) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 314.
(101) Mawer: op. cit. p. 86.

هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الذين استقروا فى شرق أوربا اعتنقوا ديانة جيرانهم المسلمين فى القوقاز بدلا من ديانة جيرانهم المسيحيين فى الدولة البيزنطية(١٠٢).

وقد امتازت حضارة الفيكنج فى الجانب المادى بالثروة والفخامة، فجمعوا الحلى، وأدوات الزينة، والسيوف ذات المقابض الثمينة، وغيرها من الأشياء التى فاضت بها مقابرهم، وليس هناك من شك فى أن مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب فى إغاراتهم من جهة، كما كان النشاط التجارى من جهة أخرى(١٠٣)، ومن الواضح أن الفيكنج تركوا أثرا حضارياً واضحاً فى كل بلد استقروا فيه وخاصة أيرلندا وإنجلترا وملحقاتهما الطبيعية(١٠٤)، وإذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفيكنج قد أُخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التى نزحوا إليها واستقروا فيها، فإن هذه العناصر قُدر لها البقاء فى أقصى الغرب - أى فى آيسلاند وجرينلاند - حيث ازدهرت حضارة الفيكنج وأصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن أى تطور حضارى آخر فى القارة الأوربية(١٠٥). حقيقة أن حضارة الفيكنج فى تلك الجهات لم تكن خالصة، إذ امتزجت بحضارة أيرلندا الكلتية نتيجة؛ لهجرة كثير من الكلت الأيرلنديين إليها، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة، وقد بلغ التقدم الحضارى فى جرينلاند - بعد استقرار الشماليين فيها - أن أديرتها فى القرن الثانى عشر كانت تستخدم أنابيب المياه الدافئة فى تدفئة داخل الأديرة، فى حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينبوع دافئ طبيعى، هذا فضلا عن النشاط التجارى الواسع الذى أقام به أهالى جرينلاند وآيسلاند فى الميدان الاقتصادى إذ أخذوا يصدرون الأسماك، والغراء، والزيت إلى البلاد القريبة(١٠٦).

أمّا فى ميدان الأدب فإن المجموعة الضخمة من أساطير الساجا Saga وأشعار

---

(102) Dawson: The Making: of Europe. p. 244.

(103) Haskins: The Normans in European History, p. 36.

(104) Mawer: op. cit. p. 86.

(105) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 339.

(106) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 324.

الأدا تعتبر خبر ما يدل على التقدم الأدبى وخاصة فى آيسلاند، أمّا الساجات فهى أساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعى واتزانها واستقامة نظرتها إلى الحياة والطبيعة الإنسانية، وأما الأدات فهى مقطوعة منظومة تمثل نوعاً بدائياً من الشعر ولكنها تمتاز أيضاً ببروز الجانب الخلقى والنظرة الواقعية إلى الحياة، وإذا كانت هذه الأشعار تنطوى على شيء من الخشونة والبربرية إلا أنها تعبر تعبيرا ساميا عن روح البطولة كمّا تحرص على إبراز الغرض الأسمى الذى يسعى إليه البطل، وهذا يرجع الفضل إلى الفيكنج عندما أنتجت جزر أوربا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبا رفيعا من أعظم ما أنتجته أوروبا العصور الوسطى(١٠٧).

---

(107) Dawson: op. cit. p. 252.

الباب الحادى عشر
أسرة كابيه فى فرنسا

من الواضح أن الغزوات التى تعرضت لها أوربا فى القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من انهيار السلطات الملكية، وما جرى من منازعات بين الأمراء والحكام، تمخضت كلها فى النهاية عن حال شديدة من الفوضى عمت بلاد غرب أوربا. وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك إلى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك أو لنفوذ السلطة المركزية، ممّا اضطرهم إلى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم، وهكذا أخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك فى ظل نظام من الحقوق الواجبات المتبادلة؛ كوسيلة وحيدة لحماية أرواحهم من الأخطار والقلاقل التى هددت المجتمع الغربى[١]. وبعبارة أخرى فإن هؤلاء الضعفاء أو المستضعفين قبلوا أن يعيشوا فى حال من الهوان والمغارم مقابل قيام كبار الأمراء الإقطاعيين بحمايتهم والذود عنهم، فى حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة، شأنهم شأن أى أمير آخر من الأمراء الإقطاعيين.

وسوف نتكلم ـ فيما بعد ـ بشىء من التفصيل عن النظام الإقطاعى وخصائصه[٢]، ولكن يكفى أن نشير الآن إلى هذا الوضع من التنظيم السياسى والاجتماعى هو الذى ساد فرنسا فى القرن العاشر، والحادى عشر، والثانى عشر. ففرنسا ذاتها هى الدولة التى بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع، حتى صار من الضرورى الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس حماية أرواحهم، وهكذا لم يكد ينتهى القرن العاشر، إلا كان النظام الإقطاعى قد وطد أقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا[٣]، ومن الثابت أن فرنسا ـ وهى الجزء الغربى من الإمبراطورية الكارولنجية ـ اختلفت عن ألمانيا ـ الجزء الشرقى من هذه

---

(1) Painter: op. cit. pp. 105 - 106.

(٢) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب الخاص بنظم أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى.

(3) Orton: op. cit. p. 174.

الإمبراطورية؛ لأن الأولى كانت فى سالف الزمن جزءاً من العالم الرومانى حتى دخلت تحت حكم الجرمان، وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة إلى أقسام إدارية - أو كونتيات - تتبع حدود الأسقفيات، ويحكم كلاً منها كونت نائبًا عن الملك الميروفنجى أوالكارولنجى، وهكذا ظلّ الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية فى فرنسا وعندئذ لم تبق قوة تحل محلها سوى قوة الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك(٤).

ولاشك فى أن الحقيقة التاريخية الكبرى التى امتاز بها تاريخ فرنسا فى القرن العاشر هى سقوط البيت الكارولنجى وقيام أسرة كابيه فى الحكم؛ ذلك أنه حدث عندما عُزل شارل السمين سنة ٨٨٧ أن أختير أودو كونت باريس ملكا فى العام التالى، بعد ما أبداه من شجاعة فى الدفاع عن باريس أثناء حصار الفيكنج لها(٥). على أنه يبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت تدفع المعاصرين إلى الإخلاص للبيت الكارولنجى والتمسك بهذا البيت(٦)، الأمر الذى أثار نزاعا طويلا - استمر قرنا من الزمان - بين البيت الكارولنجى والبيت الباريسى حول الاستئثار بحكم فرنسا، وهنا نشير إلى عدم صحة ما يردده كثير من المؤرخين من أن الكارولنجيين الأواخر اتصفوا بالضعف وعدم الكفاية، الأمر الذى أدى إلى ضياع الملك من أيديهم، فالواقع أن معظمهم كان على قدر كاف من المقدرة، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم، ولكن كان ينقصهم المال اللازم. ذلك لأن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين، ولم تكن له ضياع فى الجزء الغربى من إمبراطوريته سوى القليل، وهو الجزء الذى صار من نصيب سلالته ملوك فرنسا، وهذا هو السبب فى أن ملوك الجزء الغربى من الإمبراطورية - فرنسا - ظلوا دائما فى فقر وحاجة إلى المال حتى زوال البيت الكارولنجى(٧).

وقد حدث أثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجى والبيت الباريسى

---

(4) Painter: op. cit. p. 152.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 62 - 63.

(6) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 60.

(7) Painter: op. cit. p. 153.

أن اختير أحد أبناء البيت الكارولنجى ملكا، وهو شارل البسيط (٨٩٣ - ٩٢٣)، ولم يعجب ذلك روبرت أخا أودو ووريثه، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح بفضل مساعدة لوثر نجيا للأخير، هذا إلى أن شارل البسيط اكتسب حليفا قويا عندما منح رولو وأتباعه من الفيكنج أقليم نورمنديا. ومع ذلك فإن السنوات الأخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الجسام التى سببها له روبرت كونت باريس(٨)، وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢، ولكنه قتل فى العام التالى تاركها ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله(٩)، أما شارل البسيط فقد خلف ابنه لويس الرابع (٩٣٦ - ٩٥٤)، الذى كان محاربا قويا وسياسيا بارعا، فتزوج من أخت أوتو العظيم؛ ليضمن مساعدة ألمانيا، ولكن لويس الرابع سرعان ما استكشف أنه أضعف من أن يقف أمام هيو العظيم(١٠)، فاضطر إلى مسالمته مكتفيا بالإقامة فى مدينة لايون Laon ، وهكذا نجح هيو العظيم - ومن بعده هيو الملقب كابيه - فى السيطرة على معظم أنحاء فرنسا قبل أن تحل سنة ٩٨٦، وهى السنة التى توفى فيها لوثر بن لويس الرابع، ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧) ابن لوثر - دون أن يترك ابنا يخلفه - بمثابة فصل الختام بالنسبة للبيت الكارولنجى، فتمّ تتويج هيو كابيه ملكا على فرنسا (٩٨٧ -٩٩٦) فى العام نفسه الذى شهد وفاة لويس الخامس، وبذلك بدأ تاريخ أسرة كابيه فى حكم فرنسا.

ومن الواضح أن قيام أسرة كابيه فى حكم فرنسا سنة ٩٨٧ لايعنى أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى، إذ لم يلبث آل كابيه أن ورثوا حقوق الكارولنجيين وامتيازاتهم من جهة، كما أصبحوا السادة الأعلين لجميع الإقطاعيين فى المملكة من جهة أخرى(١١)، ولكى ندرك مركز هيو كابيه يجب أن ننظر إليه من ثلاث زوايا مختلفة أولها أنه توج ملكا على دولة الفرنجة الغربية (فرنسا)؛ ليرث الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم، وثانيها أنه جاء ممثلا لكبار الإقطاعيين، وأخيرا أنه هو نفسه لا يعدو أن يكون أميرا إقطاعيا فى إقطاعه أو فى دوقيته(١٢)، وإذا كان من

---

(8) Tout: The Empire and the Papacy, p. 66.

(9) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 74 - 75.

(10) Orton: op. cit. p. 180.

(11) Lavisse: op. cit. Tome. 2, Deuxiéme Partie ,p.147.

(12) Painter: op. cit. p. 155.

أسباب سقوط الملكية الكارولنجية أنها لم تستطع أن تمثل التطور الإقطاعى وتسايره فى وقت صار لايوجد محل لسلطة لاتعتمد على دعائم وأسس إقطاعية، فإنه يمكن القول بأن أسرة كابيه الجديدة أنقذت نظام الملكية فى فرنسا بتزويدها بروح وقواعد إقطاعية مكنتها من مسايرة العصر والظروف(١٣).

وقد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كابيه فى الوصول إلى حكم فرنسا يعتبر انتصارا للأمراء الإقطاعيين على الملكية الكارولنجية، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أن آل كابيه كانوا أنفسهم فى مركز لايحسدون عليه من جراء منافسة كبار الأمراء الإقطاعيين وخطرهم(١٤)؛ ذلك أن فرنسا كانت عند قيام أسرة كابيه فى الحكم سنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضخم من الإقطاعات المتباينة التى ارتبط كل منها بأسرة معينة فى ظل قوانين ونظم خاصة، حتى أن ستة وخمسين من كبار الأمراء الإقطاعيين كانوا يسكون النقود الخاصة بهم، فضلا عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى فى فرنسا، ولا أقل من استعراض أهم الإمارات و الأقسام التى انقسمت اليها فرنسا عندئذ، حتى يمكننا متابعة تاريخها منذ القرن العاشر.

ففى الشمال كانت دوقية برجنديا التى حكمها فرع من أسرة كابيه الحاكمة(١٥) فى حين تحولت فلاندرز- بين نهر الشلد وبحر الشمال- إلى إمارة قوية بفضل سياسة أمرائها فى ضم الضياع المجاورة على الحدود الفرنسية من جهة، وبفضل نشاطها التجارى وما ترتب عليه من ازدياد الثروة، واتساع المدن، وكثرة السكان من جهة أخرى، أمّا فى الغرب فإن بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب إهمالها وتأخرها وجدبها وكثرة الحروب فيها، فضلا عن إغارات النورمان عليها(١٦)، وعلى حدود بريتانى- على بحر المانش- قامت إمارة نورمنديا التى صار صاحبها- بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩١١- فصلا للتاج الفرنسى، وسرعان ما غدا أهلها من النورمان جزءا من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجديدة واعتنقوا

---

(13) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.

(14) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 341.

(15) Tout: The Empire and the Papacy, p. 88.

(16) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 128.

(17) Lavisse: op. cit. Tome. 2, Deuxiéme Partie, pp. 41 - 44.

الديانة المسيحية[١٧].

أمّا جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة؛ لأن الأقاليم الجنوبية امتازت بلغتها الخاصة البروفنسالية فضلا عن عاداتها وتقاليدها التى ظلت ترتبط بالتراث الرومانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجرمانى. وإذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض إقطاعية للملك، فإن أمراء الجنوب لم تربطهم صلة بآل كابيه سوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تاريخ حوادثهم، وأهم هذه الإمارات الجنوبية كانت دوقية أكوتين وعلى رأسها أمراء بواتييه منذ القرن العاشر، وقد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ومن خليج بسكاى حتّى الرون، الأُمر الذى جعل من المتعذر على فرد واحد أن يحكمها[١٨] أمّا الإقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون Gascons يحكمهم أمير منهم حتى انضموا إلى أكوتين فى أواخر القرن الحادى عشر، وأخيرا وجدت إمارتان على البحر المتوسط، الأولى إمارة تولوز محل سبتمانيا القديمة، والثانية إمارة برشلونة محل المارك الإسبانى الى أقامه شارلمان على الحدود[١٩].

آل كابيه الأوائل:

وعلى الرغم من كثرة ما دوّن عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كابيه، إلا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية، والظاهرة العامة التى تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ – ١١٠٨) هو أن الظروف أظهرتهم فى مظهر الضعف أمام كبار الأمراء الإقطاعيين، وإن كان الواقع هو أن فرنسا دخلت فى ذلك العصر دوراً جديداً من تاريخها، بمعني أنه إذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور، فإن آل كابيه الأوائل يمثلون عصر صحوة وتقدم وبناء[٢٠].

وقد أكسب هيو كابيه ـ أول هؤلاء الملوك (٩٨٧ – ٩٩٦) الأسرة الحاكمة لقبها الذى عرفت به فى التاريخ، وإن كان كل ما فعله هو أنه توج ابنه فى حياته، وبذلك

---

(18) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 128 - 130.

(19) Stephenson: op. cit. pp. 231 - 232.

(20) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.

وضع أساس سابقة اتبعها خلفاؤه فى القرنين التاليين الأمر الذى جعل العرش ينتقل فى سهولة إلى ابنه روبرت الثانى (٩٩٦ – ١٠٣١)، ثمّ حفيده هنرى الأول (١٠٣١ – ١٠٦٠) ثم ابن حفيده فيليب الأول (١٠٦٠ – ١١٠٨)، دون أن يكون لأحد هؤلاء الملوك نشاط خاص يسترعى انتباهنا.

ويبدو أن الظروف كانت لايمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا حكم فرنسا فى القرن الحادى عشر فى فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته الاسمية الواسعة. لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو إنقاذ ما تبقى لهم من نفوذ موروث فى إماراتهم الإقطاعية حول باريس، وهى المنطقة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ile de France حيث وجد بعض صغار الأمراء الاقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع والحصون - وخاصة فى عهد فيليب الأول - تحديا له[٢١].

وإذا كان عهد فيليب الأول بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه السلطة الملكية إلى الحضيض، إلا أن هذا العهد يمثل أيضًا نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة؛ نظرا لاتساع أملاك آل كابيه تدريجيا [٢٢]؛ ذلك أن فيليب الأول استغل حاجة أمير بورج Bourges للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى واشترى منه إقطاعه، كما استولى على بعض أراضى كونت أنجو عن طريق المساومة السياسية، ومن ناحية أخرى أسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم[٢٣].

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لايستطيعون التخلى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا إلى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة. ففى داخل جزيرة فرنسا - أو على مقربة منها - وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكية، وقد قدم رؤساء هذه

(21) Lavisse: op. cit. Tome. 2, Deuxiéme Partie ,p. 176.

(22) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 110.

(23) Painter:A Hist. of The Middle Ages, p. 161.

الأسقفيات ومقدمو الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم ودعمها، ولكن على الرغم من هذه المساعدات فإن آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أندادا لكبار الأمراء الإقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا[٢٤]، حقيقة أن إسهام كثير من فرسان فرنسا وأمرائها الإقطاعيين فى النشاط الصليبى كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل، إذ أدى ذلك إلى اتجاه هؤلاء الأمراء إلى هذه الحروب الدينية فى الشرق بدلا من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض[٢٥]، ولكن ذلك ليس معناه أن الفوضى الإقطاعية التى عمت البلاد قلّ خطرها، وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الإقطاعيين بعضهم وبعض، أو بعبارة أخرى بين الفرنسيين بعضهم وبعض، لا عن هجمات أجنبية قام بها مغيرون من الخارج كما كان الحال فى غزوات الفيكنج من قبل[٢٦].

لويس السادس:

ولكن إذا كان فيليب الأول قد ظهر عجزه عن مقاومة البارونات الإقطاعيين فإن لويس السادس (١١٠٨ - ١١٢٧) كان مثلا طيبا للحاكم القوى[٢٧] والواقع أن بيت كابيه كان قد انحدر إلى درجة سيئة من الضعف والانحلال عندما اعتلى لويس السادس العرش، وقد رأى لويس السادس أنه يتعين عليه إخضاع أتباعه وأفصاله من الأمراء الإقطاعيين داخل جزيرة فرنسا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية ونشر هذا السلطان فى بقية أنحاء فرنسا[٢٨]، وهكذا لم تكد تحل سنة ١١٢٠ إلا وكان الملك يستطيع أن ينتقل فى أنحاء أراضيه الإقطاعية دون حاجة إلى حراسة أو جيوش، كما أن أفصاله أخذوا يدفعون الأموال المستحقة عليهم بانتظام، ولم يلبث أن أدى استقرار الأوضاع داخل جزيرة فرنسا إلى نشاط الحياة الاقتصادية، بعد أن أمن التجار على أنفسهم وأموالهم؛ مما عاد على الجميع بالخير والرفاهية[٢٩].

---

(24) Stephenson: op. cit. pp. 244 - 245.
(25) Orton: op. cit. p. 185.
(26) Tout: The Empire and the Papacy, p. 77.
(27) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 544 - 497.
(28) Idem, p. 596.
(29) Stephenson: Med. Hist.p. 398.

ولكن إذا كان لويس السادس قد استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الإقطاعية، إلا أنه ظلّ عاجزا أمام كبار الأمراء الإقطاعيين فى بقية أنحاء فرنسا؛ ذلك أن هؤلاء الأمراء الأقوياء استمروا يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يقيموا وزنا للملك أو يعترفوا له إلا بتبعية اسمية، فلم يدفعوا له ما يستحق عليهم من ضرائب إقطاعية أو يقدموا له ما يجب عليهم من التزامات عسكرية وغير عسكرية يفرضها العرف الإقطاعى(٣٠)، وهنا شاءت الظروف أن تمد ملك فرنسا بقوة تساعده فى فرض سيطرته على بقية الأمراء الإقطاعيين فى بلاده، ذلك أن وليم العاشر دون أكوتين أوصى وهو على فراش الموت (سنة ١١٣٧) بأن تتزوج ابنته ووريثته اليانور من ابن لويس السادس، الأمر الذى هيأ لملك فرنسا فرصة ضم دوقية قوية غنية زادت من سطوته ونفوذه، هذا فى الوقت الذى استغل لويس السادس فرصة النزاع بين أبناء وليم الفاتح ليؤكد تبعية هنرى الأول ملك إنجلترا له بوصفه دوق نورمنديا(٣١).

والواقع أن أعظم خطر هدد الملكية الفرنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر جاء من ناحية ملوك إنجلترا، الذين جمعوا بين العرش الانجليزى ودوقية نورمنديا؛ ذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة، والنورمان من جهة أخرى، حتى جرح وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحا خطيرا أثناء مهاجمته ضواحى باريس. ثمّ لجأ هنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ – ١١٣٥) إلى تأليف حلف قوى ضد لويس السادس ملك فرنسا، وضمّ هذا الحلف أفصاله فى بريتانى وأمراء جزيرة فرنسا الحانقين على ازدياد نفوذ الملكية، وأهالى المدن الفلمنكية الذين لم يكونوا على وفاق مع أمرائهم، فضلا عن كونت بلوا Blois ، وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت أكثر من مرة بلويس السادس إلا أنه ظل محتفظا بثباته ومركزه(٣٢).

وثمة تطور مهم يستحق الإشارة فى تلك الفترة، هو نشاط الحركة القومونية فى شمال فرنسا، ومع أنه لايوجد ما يثبت أن لويس السادس أيد المدن وشجعها، إلا أنه

---

(30) Tout: The Empire and the Papacy, p. 278.

(31) Stephenson: Med. Hist. pp. 400 - 401.

(32) Tout: The Empire and the Papacy, p. 280.

لايوجد دليل فى الوقت نفسه على أنه عاكس حركة تحرر المدن وقاومها، وربما كان الأقرب إلى الصواب أنه منح كثيرا من المدن الناشئة براءات ساعدت على تحريرها(٣٣).

وخلاصة القول إن دعائم بيت كابيه تمّ تثبيتها عند وفاة لويس السادس سنة ١١٣٧، الأمر الذى مكن خلفاءه من إقامة دولة قوية على هذه الدعائم(٣٤).

لويس السابع:

أمّا لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠) فقد كان مركزه قويا بعد أن ضم إليه أكوتين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق، وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبنى الثائر (سنة ١١٤٧)؛ وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا أنوسنت الثانى(٣٥)، ويقال إن لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة إلى إحراق كنيسة فترى Vitry التى كانت مشحونة باللاجئين، فاحترق فى هذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال. ويبدو أن هذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع ـ وهو الرجل التقى ـ حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه، وكان أن أسهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحبا معه زوجته اليانور ١١٤٧ ممّا تطلب منه بذل كثير من الأرواح والأموال دون ثمرة.

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسية التى كانت لأبيه؛ بحيث لم ينقذ الأداة الحكومية فى فرنسا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر (ت ١١٥٢) Suger الذى كان مقدم دير سانت دنيس، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا ووزيرا خاصا للملك(٣٦)، ولم يلبث أن ظهر عدم الانسجام بين لويس السابع ـ الملك التقى الهادئ ـ وزوجته المرحة الطروب، وهى اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر. وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك إنجلترا قد زوج ابنته من كونت أنجو، وأنجبت

---

(33) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 515.

(34) Painter:A Hist. of The Middle Ages, pp. 163 - 164.

(35) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 607.

(36) Lavisse: op. cit. Tome. III, Premiére Partie , pp. 20 - 23.

هذه الزيجة هنرى الأنجوى، وصادف أن طلق لويس السابع زوجته اليانور صاحبة أكوتين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة؛ ولأنها لم تنجب له ولدا ذكرا يحفظ الحكم فى بيت كابيه من جهة أخرى[٣٧]، فتزوجت اليانور من هنرى الأنجوى السابق ذكره الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنرى الثانى[٣٨] وهكذا غدت ممتلكات ملك إنجلترا فى صلب القارة تمتد من المانش حتى البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا وإنجلترا أمرا لا مفر منه[٣٩]، وكان المحك بين لويس السابع وهنرى الثانى هو مدينة تولوز، إذ منع الأول ملك إنجلترا من الاستيلاء عليها مما أثار الحرب بين الطرفين، وقد شاءت الظروف أن يرتكب هنرى الثانى فى ذلك الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى، مما أثار الشعور العام ضد ملك إنجلترا، وجعل الكثيرين من نبلاء بريتانى، وبواتو، وجوين يساندون لويس السابع[٤٠]، هذا فى الوقت الذى اتبع لويس السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج، ففى الداخل لجأ إلى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقام لها المدن؛ لتتخذها مسرحا لنشاطها ولتكون عونا له ضد كبار الأمراء الإقطاعيين[٤١]، أمّا فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا، وهو تفاهم أو تحالف ظل قائما مدى ثلاثة أجيال، هذا فى الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك إنجلترا عن طريق إثارة أبنائه ضده، وفعلا ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الذين كانوا يشرفون على أملاك التاج الإنجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع من خطر الملكية الإنجليزية[٤٢].

فيليب أوغسطس:

ثمّ كان أن اعتلى عرش فرنسا فيليب أوغسطس «الثانى» (١١٨٠ - ١٢٢٣) الذى تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة، ولم يلبث أن استطاع فيليب أوغسطس التخلص من الأخطاء التى وقع فيها والده، ومن ثمّ بدأ يستأنف سياسة جديدة فى

(37) Painter:A Hist. of The Middle Ages, p. 250.
(38) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 609.
(39) Tout: The Empire and the Papacy, p. 268.
(40) Lavisse: op. cit, Tome. 3, Premiére Partie , p. 55.
(41) Orton: op. cit. pp. 251 - 252.
(42) Adams: The Hostory of England, p. 304.

التمكين للملكية فى الداخل والتوسع فى الخارج، وهى نتائج توصل إليها بعد سلسلة من الإصلاحات الداخلية الواسعة التى منحته قوة جعلته خطرا على خصومه فى إنجلترا ونورمنديا، وفلاندرز، وألمانيا، وجنوب فرنسا[٤٤]، هذا إلى أن فيليب أوغسطس حكم مدة قاربت أربعا وأربعين سنة، وهى مدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الإقطاعيين فى فرنسا، مما أتاح للملك فرصة تأكيد حقوقه الإقطاعية قبل الأمراء الجدد، وأخيرا ينبغى أن نذكر ما كان لفيليب من أخلاق ساعدته على النجاح، فقد عرفت عنه قوة العزيمة، والثبات، والصبر، زيادة على ما هو عليه من الذكاء وحسن التقدير، مما مكنه من مواجهة الصعاب التى اعترضته والتغلب عليها واحدة تلو الأخرى[٤٥].

وقد بدأ فيليب أوغسطس عهده باسترضاء هنرى الثانى ملك إنجلترا، ليضمن عدم تدخله فى الحركة التى أزمع القيام بها لإخضاع أمراء فلاندرز، وشامبنى، وبرجنيدا[٤٦]، وكان أن دخل فيليب فعلا فى حرب طويلة مع هؤلاء الأمراء (١١٨١ – ١١٨٥)، حتى أخضعهم لسلطان الملك الذى غدا يسيطر على المنطقة الغنية الممتدة من فرماندوا Vermandois حتى أرتوا Artois [٤٧] على أن فيليب أوغسطس كان يدرك تماما من أول الأمر أنه من المتعذر عليه تحقيق سيطرته على الإقطاعات الكبرى فى فرنسا ما دامت ممتلكات التاج الإنجليزى فى شمالها وغربها تحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتمثل خطرا جاثما عليها[٤٨]؛ لذلك لجأ فيليب إلى كل وسيلة ممكنة - سياسية أو حربية - لإضعاف قوة إنجلترا فى القارة، من ذلك أنه عقد تحالفا سنة ١١٨٧ مع فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا (١١٥٢ – ١١٩٠) للوقوف فى وجه خصومهما من كبار الإقطاعين ، وخاصة الأنجويين فى فرنسا والجلفيين فى

(43) Stephenson: Med. Hist. pp. 424.
(44) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 284 - 285.
(45) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 520.
(46) Adams: The Hist. of England, p. 338.
(47) Lavisse: op. cit. Tome. 3, Premiére Partie , p. 87.
(48) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 291 - 302.

ألمانيا(٤٩)، وقد استمر هذا التحالف الذى جعل ملوك أسرة كابيه وآل هو هنشتاوفن فى جانب، وملوك إنجلترا والجلفيين فى الجانب الآخر المضاد يلعب دورا عظيمًا فى السياسة الأوربية حتى موقعة بوفان Bouvines سنة ١٢١٤، على أن جهود فيليب الثانى ضد الملكية الإنجليزية لم تقف عند محالفة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا، وإنما استغل ملك فرنسا عقوق هنرى وريتشارد، وجيوفرى وحنا - أبناء هنرى الثانى ملك إنجلترا - وأخذ يساعدهم ضد أبيهم ليضعف نفوذ الملكية الإنجليزية عن طريق بث الشقاق بين ملك إنجلترا وأبنائه(٥٠).

وعندما خلف ريتشارد الأول أباه فى حكم إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩) خرج ليسهم مع فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠، ولم تطل إقامة فيليب بالأراضى المقدسة إذ اعتذر بسوء حالته الصحية وعاد إلى بلاده سنة ١١٩١، ومن الواضح أن الحجة التى احتج بها فيليب أوغسطس كانت شكلية واهية، وأنه عاد بقصد الحصول على نصيب زوجته فى إقليم فلاندرز بعد أن توفى كونت فلاندرز(٥١). هذا إلى أنه انتهز فرصة غياب ريتشارد فى الأراضى المقدسة وحاول الهجوم على نورمنديا، ولكن أمراءه رفضوا الاشتراك معه؛ لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضى صليبى يحارب المسلمين فى الأراضى المقدسة، فضلا عن أن ممتلكاته فى أوربا تعتبر طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته، وعندئذ أخذ فيليب أوغسطس يحرض حنا ضد أخيه ريتشارد ويعده بمساعدته على تتويجه ملكا على إنجلترا(٥٢)، ويبدو أن أخبار هذه المؤامرات بلغت مسامع ريتشارد فعاد من الشرق بعد أن عقد صلح الرملة مع صلاح الدين، ولكنه سلك الطريق البرى من إيطاليا إلى بلاده، فوقع فى يد دوق أوستريا الذى باعه لهنرى السادس إمبراطور ألمانيا، وقد عرض فيليب أوغسطس مبلغا كبيرا على الإمبراطور؛ ليحتفظ بملك إنجلترا أسيرا،

---

(49) Adams: op. cit. p. 347.
(50) Tout: The Empire and the Papacy, p. 293.
(51) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 304.
(52) Painter:A Hist. of The Middle Ages, p. 252.

ولكن الإمبراطور أفرج عنه سنة ١١٩٤[٥٣]، وهكذا استطاع ريتشارد العودة إلى بلاده ليستعد للذهاب إلى نورمنديا حيث تعرضت مصالحه لخطر كبير أمام تهديد فيليب أوغسطس.

وقد قضى ريتشارد السنوات الخمس الباقية من حكمه على شاطئ فرنسا، ولم يعد إلى إنجلترا حتى مقتله سنة ١١٩٩، أمّا الأعمال التى قام بها فى نورمنديا فى تلك الفترة، فإنه بدأ بهجوم مباغت على فيليب أوغسطس قرب فيرتفال Fréteval وعندئذ لم يستطع فيليب النجاة إلا بصعوبة بعد أن فقد خاتم الملك وبعض الوثائق والأمتعة المهمة[٥٤]. ويبدو أن الهزيمة كانت أقسى ضربة تعرض لها فيليب أوغسطس فى حياته، مما جعله ينسحب من نورمنديا، ومين، وتورين، ويطلب عقد الهدنة مع ملك إنجلترا سنة ١١٩٤، على أن الحرب لم تلبث أن تحولت إلى فلاندرز لحدوث تطور فى السياسة الإمبراطورية[٥٥].

ذلك أنه حدث عند وفاة الإمبراطور هنرى السادس إمبراطور ألمانيا سنة ١١٩٧، أن رشح كل من الجلفيين والجبلليين فردا يتولى عرش الإمبراطورية، فاختار الفريق الأول أوتو الرابع دوق برنسويك ابن هنرى الأسد وابن أخت ريتشارد ملك إنجلترا، فى حين اختار الفريق الثانى فيليب دوق سوابيا وهو الأخ الأكبر للإمبراطور هنرى السادس خصم ريتشارد، وكان من الطبيعى أن تؤيد إنجلترا أوتو الرابع مرشح الجلفيين نظرا للظروف السابقة من جهة، ولمصالحها التجارية فى شمال غرب ألمانيا من جهة أخرى[٥٦]. وقد اتفقت مع إنجلترا فى موقفها كل من فلاندرز وبولونيا Boulogne[٥٧] أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد ساند المرشح الآخر وهو فيليب دوق سوابيا، ولهذا الغرض زحف إلى فلاندرز حيث لم يصادفه التوفيق[٥٨] ثم أعقب ذلك هدنة بين الطرفين لمدة سنة استغلها ريتشارد فى بناء جيلارد Gaillard فوق ربوة تطل على

(53) Lavisse: op. cit. Tome. 3, Premiére Partie, p. 112.

(54) Adams: op. cit. p. 378.

(55) Cam. Med. Hist. Vol, p. 305.

(56) Barraclough: The Origins of Modern Germany, pp. 210 - 213.

(٥٧) على بحر المانش جنوبى كاليه.

(58) Thompson: op. cit. Vol. 1, P. 522.

نهر السين شمالي روان؛ وذلك لحراسة عاصمة نورمنديا من أى اعتداء فرنسى، ولم يلبث بناء ذلك الحصن أن أثار العداوة بين الطرفين من جديد، فهجم فيليب أوغسطس على نورمنديا سنة ١١٩٨ ونجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة[٥٩]، وأخيرا تدخل البابا ونجح سنة ١١٩٩ فى عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات[٦٠]. على أن ريتشارد لم يلبث أن لقى مصرعه فى تلك السنة السابقة نفسها، وبذلك تخلص فيليب أوغسطس من ألد خصومه وأقدرهم.

وقد خلف ريتشارد فى حكم إنجلترا أخوه حنا (١١٩٩ - ١٢١٦) الذى كانت تنقصه الكفاية والقدرة الشخصية اللتان امتاز بهما أخوه، مما أتاح فرصة لفيليب الثانى ملك فرنسا حتى يستمر فى سياسة تفتيت أملاك التاج الإنجليزى بالقارة، ولتحقيق هذا الغرض أخذ فيليب يستعد بتدبير المال اللازم للحرب من جهة، وبتأليب آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا ملك إنجلترا من جهة أخرى، وذلك كما سبق أن ألّب أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم وألّب حنا ضد أخيه ريتشارد، وقد تظاهر فيليب باعترافه بسلطة آرثر فى نورمنديا وبريتانى، وأخذ يحشد قلاع هذين الإقليمين بالجند الفرنسيين تحت ستار مساعدته ضد عمه[٦١]، وبعد ذلك تخلى فيليب عن مساعدة آرثر مقابل ثمن مرتفع اضطر حنا إلى دفعه، وهو التخلى عن إفرى Evreux لفرنسا، وعن المحالفات التى عقدها ريتشارد فى ألمانيا وفلاندرز، فضلاً عن دفع مبلغ كبير من المال، وفى الوقت الذى كان حنا ملك إنجلترا مفتقرا إلى المال وولاء الرجال، كان فيليب متمتعا بكل ما يعوز خصمه، فأخذ يستولى على مدن نورمنديا واحدة بعد الأخرى عن طريق رشوة حامياتها، فإن لم تنفع الرشوة لجأ إلى القوة والقتال، وهكذا لم تكد تنتهى سنة ١٢٠٥ إلا كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورمنديا، وانجو، ومين، وتورين، فى حين دان له بالطاعة معظم أمراء بواتو، وبذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسى وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة[٦٢].

---

(59) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 394 - 395.

(60) Adams: op. cit. p. 385.

(61) Lavisse: op. cit. Tome. 3, Premiére Partie , p. 260.

(62) Painter:A Hist. of The Middle Ages, p. 253.

والواقع أن استيلاء آل كابيه على نورمنديا يعتبر نقطة تحول بالغة الأثر فى تاريخ الملكيات الغربية، فعلى الرغم من خسارة إنجلترا الفادحة بضياع نورمنديا إلا أنها استفادت بعد أن أصبحت مملكة جزرية قائمة بذاتها، لا مجرد امتداد لممتلكات ملوكها النورمان فى القارة، أمّا الأمراء النورمان فقد أصبح عليهم أن يختاروا بين ممتلكاتهم وإقطاعاتهم على أحد جانبى المانش، ليكونوا أفصالا إما لملك انجلترا أو لملك فرنسا، بعد أن كانت تبعيتهم موزعة بين الجانبين، وهكذا يمكن القول بأن استيلاء الفرنسيين على نورمنديا يعتبر الخطوة الأولى نحو تبلور القومية الإنجليزية(٦٣)، أمّا من ناحية فرنسا فقد غدا فيليب أوغسطس بعد استيلائه على نورمنديا يفوق فى قوته أى أمير إقطاعى آخر فى البلاد، إذ صارت أملاكه تشمل بيكاردى، ونورمنديا، وأنجو، وبواتو، وأوفرن، فضلا عن جزيرة فرنسا، بل إنه ملك فرنسا أصبح الرجل الثانى فى أوربا بعد إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وذلك بعد أن تضاعفت أملاكه وموارده فى الرجال والأموال(٦٤).

وقد حرص فيليب فى السنوات العشر التالية على تدعيم سلطانه فى هذه الممتلكات الجديدة التى اغتصبها من التاج الإنجليزى، والاستعداد فيها لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب إنجلترا، ولم تلبث أن لاحت الأخطار التى توقعها فيليب أوغسطس، عندما عاد حنا ملك إنجلترا إلى بلاده ليجمع الأموال اللازمة لاسترداد أراضيه المفقودة فى فرنسا، وليقيم حلفا ضد ملك فرنسا يضم الأمراء الحانقين عليه مثل كونت فلاندرز، فضلا عن زعيم الولفيين أوتو الرابع إمبراطور ألمانيا، وأخيرا تمّ الاتفاق على أن يقوم الحلفاء بغزو فرنسا من الشمال فى حين يهاجم حنا ملك إنجلترا أنجو من الجزء الذى تبقى له فى أكوتين(٦٥)، وهكذا أصبح الموقف خطيرا بالنسبة لفيليب أوغسطس، ولاسيما أن أوتو الرابع حشد سنة ١٢١٤ قوة ضخمة فى فلاندرز تبلغ ثمانين ألف مقاتل فى حين أخذ حنا يستميل أمراء أكوتين، أما فيليب أوغسطس فلم يكن أمامه سوى أن يعتمد على الشعور الوطنى الذى أخذ يستيقظ فى شمال فرنسا

---

(63) Stephenson: Med. Hist. pp. 472 - 473.

(64) Orton; op. cit. p. 253.

(65) Lavisse: op. cit. Tome. 3, Premiére Partie , pp. 166 - 173.

من جهة، وعلى ما عساه أن يقوم به الهوهنشتاوفن - من جهة أخرى، وكان أن تغلب فيليب أوغسطس على أتو الرابع وبقية الحلفاء الذين هاجموا فرنسا من جهة الشرق فى موقعة بوفان Bouvines يولية سنة (١٢١٤)، فى الوقت الذى فشل الهجوم الذى قام به حنا ملك إنجلترا على اللوار[٦٦]، وهكذا جاء هذا الانتصار الجديد ليحمى ملوك فرنسا من أى خطر أو تهديد من جانب إنجلترا لاسترداد أملاكها المفقودة فى نورمنديا، ومين وأنجو، أما بواتو Poitou فقد ظلت منطقة انتقال بين الطرفين[٦٧].

امتداد النفوذ الفرنسى جنوبا - الحملة الألبيجنسية:

وبينما فيليب أوغسطس يعمل على نشر نفوذه فى الشمال والغرب عن طريق الغزو والسياسة، إذا بحملة صليبية تتجمع فى شمال فرنسا لتغزو جنوبها، وتبعا لذلك تمد نفوذ أسرة كابيه على الجنوب أيضاً، ذلك أنه وجدت فى جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى هى دوقية أكوتين، وكونتية تولوز، وكونتية بروفانس، وكانت الاثنتان الأوليان ضمن نطاق الملكية الفرنسية، فى حين ظلت كونتية بروفانس وراء الرون لا ترتبط بملك فرنسا.

وهكذا استمر جنوب فرنسا فى شبه عزلة عن شمالها، وهى عزلة زاد من وقعها الاختلاف الحضارى بين الجنوب والشمال، إذ بقى الجنوب محتفظا بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أى جزء آخر من أجزاء أوربا، دون أن يحدث ما يغير الوضع الحضارى لهذا الاقليم سوى سيطرة المسلمين على مصب الرون بين سنتى (٨٨٨، ٩٧٢)، على أن تخلص جنوب فرنسا من سيطرة المسلمين ساعد هذا الاقليم الغنى بثروته الطبيعية، ونشاطه التجارى، ومناخه المعتدل على إقامة بناء حضارى امتاز بالتجديد والعظمة، ويكفى أن جنوب فرنسا شهد مولد الأدب البروفنسالى الذى تجلى بوضوح فى شعر التروبادور فضلا عن ظهور جو من التسامح الدينى وحرية الفكر[٦٨].

---

(66) Adams: op. cit. p. 431.

(67) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 395 - 396.

(68) Thompson: op. cit. Vol. 1, P. 528.

وقد أدت هذه الحرية وذلك التسامح من جهة، وروح الاستياء العامة من الأوضاع التى ترددت فيها الكنيسة ورجالها من جهة أخرى، إلى انتشار بعض المذاهب الهراطقية فى جنوب فرنسا، ذلك أن تولوز والمنطقة المحيطة بها اكتظت عند نهاية القرن الثانى عشر بأعداء سافرين للكنيسة ورجالها، فى حين كان الأمراء أنفسهم من الهراطقة أو من مشجعى الهرطقة(٦٩). وكان أن ظهر عندئذ مذهبان من المذاهب الهرطقية الخارجة عن تعاليم العقيدة الكاثوليكية وأصوله، أولها مذهب الوالدنسيين Waldensian وثانيهما مذهب الكاتاريين Catharist ، أمّا المذهب الأول فينسب إلى بطرس والدو Peter Waldo وهو أحد تجار ليون فى القرن الثانى عشر، وهب جميع ثروته لأوجه البر والإحسان وأخذ ـ حوالى سنة ١١٧٧ ـ يتجول، واعظا الناس بالعودة إلى سنن القديسين والرسل الأوائل، مهاجما رجال الدين وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع تعاليم المسيحية وروحها(٧٠)، ولم يلبث أن التفت حوله أعداد كبيرة من الفقراء وخاصة فى جنوب فرنسا وإقليم بروفانس حيث أخذ الوالدنسيون يهاجمون رجال الكنيسة حتى اتهمته الكنيسة بالخروج عليها وبأنه يفسر الإنجيل تفسيرات غير صحيحة، ولا سيما أن القانون الكنسى يحرم على أى فرد مباشرة الوعظ والإرشاد إلاّ بإذن من الكنيسة(٧١)، وعندما لجأ بطرس والدو إلى البابا ليشكو إليه موقف الكنيسة منه، رأى البابا حسن نيته، فأقرّ الوالدنسيين على مذهبهم فى التقشف والحياة البسيطة، ولكنه حرم عليهم الوعظ إلا بإذن من الأساقفة فى مناطق نفوذهم، على أن بطرس والدو وأتباعه استكشفوا فى العهد الجديد ما ينص على أن الوعظ ركن أساسى من أركان المسيحية(٧٢)، فرفضوا الامتثال لرغبة البابا سنة ١١٧٩، وقالوا بإنهم لا يمتثلون لبشر لأن الطاعة تجب عليهم للرب وحده، وهكذا صدر قرار الحرمان ضد الوالدنسيين ١١٨١ - ١١٨٤ وطردوا من منطقة ليون، فتحولوا إلى فرقة هرطقية، وأخذوا يباشرون طقوسهم الدينية دون وساطة رجال الدين

(69) Tout: The Empire and the Papacy, p. 397.

(70) Lavisse: op. cit. Tome. 3, Premiére Partie , p. 262.

(71) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 707.

(٧٢) «وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للأحياء والأموات» (سفر أعمال الرسل ـ الإصحاح العاشر ـ ٤٢).

كما تطرفوا فى اعتناق الآراء الغريبة عن الكنيسة(٧٣)، وقد مات بطرس والدو نفسه سنة ١١٩٧، ولكنه ترك أتباعا كثيرين فى بوهيميا، واللورين، وجنوب فرنسا، وأرغونة، وشمال إيطاليا، ولم يلبث أن انقسم هؤلاء الأتباع على أنفسهم وتحولوا إلى فرق هرطقية عديدة، ممّا أثار فى وجه البابوية مشاكل كثيرة لا حصر لها.

أمّا أتباع المذهب الثانى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم الكاتاريين Cathari أى الأطهار، وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين(٧٤)، وبينما اختلف الوالدنسيون مع الكنيسة حول أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية دون أن يعترضوا على تعاليمها الدينية، إذا بالكاتاريين ينادون بتعاليم تتعارض تعارضاً كبيرا مع تعاليم الكنيسة ممّا جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت(٧٥)، ذلك أن مذهبهم لم يقم على أساس التوحيد، وإنما كان مذهبا ثنائيا يقول بوجود إلهين أحدهما للخير والآخر للشر، الأول يحكم العالم الروحى والثانى يحكم العالم المادى(٧٦) وبعبارة أخرى فإن هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة، فهناك روح ومادة وهناك نور وظلام، وخير وشر.(٧٧)،كذلك نادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها، وتحريم الزواج وإنكار الثالوث المقدس، إلى غير ذلك من الآراء الهدامة، ويبدو أن هذه الآراء انتشرت من شرق أوربا إلى غربها - عن طريق التجار، حتّى وصلت فى القرن الحادى عشر إلى لمبارديا، وشرق فرنسا، ووسطها، وحوض الراين، وفلاندرز، ممّا هدد الكنيسة وأفزعها فزعا شديدا (٧٨)، ومن الواضح أن آراء الكاتاريين انتشرت فى الجهات التى تنكر فيها رجال الدين لواجباتهم ووظائفهم، وحيث اشتدت الفوارق بين كبار رجال الكنيسة وصغارهم، الأمر الذى دفع كثيرا من الطبقات الفقيرة إلى

---

(73) Stephenson: Med. Hist. p. 445.

(٧٤) تنسب العقيدة المانوية إلى مانى أحد المثقفين الفرس فى القرن الثالث الميلادى، وهى تجمع بين عناصر مستقاة من المسيحية والمجوسية وغيرهما من الديانات الشرقية مثل ديانة متراس، وتقوم على أساس الثنائية إذ ترى أن الخير والشر قوتان متعادلتان، واعتبر مانى نفسه آخر الأنبياء.

(75) Eyre; op. cit. p. 355.

(76) Lavisse: op. cit. Tome 3, Priére Partie, p. 262.

(77) Cam. Med Hist. Vol. 6, pp. 701 - 702.

(78) Ibid.

الانضمام إلى هذه الفرقة حتى ازداد عددهم زيادة كبيرة(٧٩)، ويبدو أنهم بلغوا درجة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبى Albi فى كونتيه تولوز ـ مما جعلهم ينسبون إليها ويعرفون باسم الألبيجنسيين.

ومهما يكن من أمر، فقد حاول البابا أنوسنت الثالث إقناع الهراطقة فى أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة، فأرسل بعض الوعاظ ـ وعلى رأسهم مقدم ديرسيتو، ومندوب من قبل البابا نفسه إلى الجهات الجنوبية من فرنسا. ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم ولم يلقوا تشجيعا ومساعدة للقيام برسالتهم، حتى من جانب الأمراء وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز، الذى امتاز بحبه للطرب والمرح فلم يهتم بشئون الدين والكنيسة(٨٠)، وأخيراً يئس أنوسنت الثالث (سنة ١٢٠٤) من القضاء سلميا على هذا الخطر الذى أخذ يستفحل ويهدد الكنيسة تهديدا خطيراً، فبدأ يفكر فى الالتجاء إلى القوة للقضاء على هؤلاء الهراطقة، على أن ريموند السادس رفض أن يمد البابوية بالقوة اللازمة لتنفيذ عزمها، فلجأ البابا إلى فيليب أوغسطس، وطلب منه أن يقود جيشا ضد الهراطقة، ولكن ملك فرنسا كان هو الآخر مشغولا عندئذ بالحرب ضد حنا ملك إنجلترا فلم يلب نداء البابوية الذى تكرر سنتى (١٢٠٥، ١٢٠٧)، ويبدو أن فيليب أوغسطس لم يرض عن تدخل البابوية فى شئون فرنسا، وادعاء البابا حق إخضاع بعض المقاطعات الفرنسية، بحجة أن هذه المقاطعات خارجة عن تعاليم الكنيسة، فضلا عن أنه وجد نفسه لايستطيع مهاجمة بعض أفصاله فى الجنوب والاستيلاء على أراضيهم، ممّا يعتبر خروجا على أوضاع العرف الإقطاعى(٨١)، وأخيرا لجأ المندوب البابوى إلى إصدار قرار الحرمان ضد ريموند السادس سنة ١٢٠٧، الأمر الذى ترتب عليه مقتل هذا المندوب فى العام التالى بوساطة أحد رجال كونت تولوز، وعلى الرغم من عدم وجود ما يثبت تحريض ريموند السادس على مقتل المندوب البابوى، إلا أن البابا اعتبره مسئولا عن هذه الجريمة، فأقرت البابوية قرار الحرمان ضد ريموند السادس، كما أعلنت أنه من حق

(79) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 306.

(80) Idem: pp. 310 - 311.

(81) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 314.

أى مسيحى أن يستولى على أراضى وأموال هؤلاء الهراطقة الخارجين عن أصول الدين[٨٢].

وقد تحمس كثير من أمراء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا، وإن ظل فيليب أوغسطس نفسه على موقفه، وهكذا نجحت هذه الحملة الصليبية التى دعت لها البابوية ضد الهراطقة (سنة ١٢٠٩)، وإن كانت قد تحولت إلى القضاء على الأمراء الإقطاعيين فى الجنوب وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز الذى حلت به الهزيمة فى سبتمبر سنة ١٢١٣، ولم تستول هذه الحملة الصليبية على تولوز فحسب بل أنزلت الهزيمة أيضاً بملك أرغونة بطرس الثانى (١١٩٦ - ١٢١٣) فى موريه Moret سنة ١٢١٣، وبعد ذلك عقد البابا أنوسنت الثالث مجمعا دينيا بابوياً سنة ١٢١٥ قرر إعطاء دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الإمارات الإقطاعية المجاورة، لسيمون دى مونتفورت أحد أمراء جزيرة فرنسا الذى تولى زعامة هذه الحملة.

أمّا فيليب أوغسطس الذى ظلّ بعيدا - فى أول الأمر - عن حوادث تلك الحرب الصليبية، فإنه لم يستطع أن يقاوم نفوذ البابا وقرار المجمع البابوى، ولم يلبث فيليب أن خرج عن عزلته تدريجيا، فسمح لابنه لويس سنة ١٢١٣ بالمشاركة فى حرب الهراطقة الجنوبيين، كما ساعد سيمون دى منتفورت فى تدمير الحصون والمعاقل الاقطاعية فى الجنوب [٨٣]، وعلى الرغم من أن سيمون اعترف لفيليب أوغسطس بالتبعية، إلا أن الأخير لم يلبث أن استاء من مسلك الأول المشوب بالكبرياء والعنف، لذلك ساعدت قوات ملك فرنسا المحاولة التى قام بها ريموند السادس لاسترداد أملاكه، ممّا أدى إلى مقتل سيمون سنة ١٢١٨، ثمّ لم يلبث أن لحق به فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣.

إصلاحات فيليب أوغسطس:

ولم تكن انتصارات فيليب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته فى التاريخ؛ لأن إصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات، وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيفا مع أفصاله وأتباعه الإقطاعيين؛ لأن مشاغله فى الحروب والفتوح حالت دون أن يسلك

(82) Stepheson: op. cit. pp. 446 - 447.

(83) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiére Partie, p. 277.

مسلكا عدائيا تجاه هؤلاء الأفصال، ومع ذلك فإنه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الأمراء الإقطاعيين، أمّا موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيليب أوغسطس مع البابوية لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة فى بلاده، فأخذ يعمل جاهدا للحد من تدخل البابا فى شئون الكنيسة، كما ألزم رجالها بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات(٨٤).

أمّا فى الناحية الإدارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيليب أوغسطس كان محاربا وسياسيا أكثر منه إداريا ومشرعا، وهكذا كان دوره الرئيسى فى تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطانها، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم، ومع ذلك فإن الظروف تطلبت منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الإدارى لفرنسا، وهوالبناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع(٨٥)؛ ذلك أنه قاوم الاتجاه الذى كان يرمى إلى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية، لما فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين، وقد أوجد فيليب أوغسطس طبقتين من الموظفين الإداريين، تتألف الأولى من الوكلاء الملكيين Baillis ومهمتهم الإشراف على العدالة وجمع الإيرادات الملكية، وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوسطى لضمان إخلاصهم للملك وارتباطهم به، فضلا عن مراعاة نقلهم من منطقة إلى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها(٨٦)، أمّا الطبقة الثانية فكانت من المديرين الذين عهد إليهم الإشراف على المناطق الواقعة على الحدود قرب الأعداء، ومن ثم اختير هؤلاء المديرون من الفرسان، والبارونات ذوى الخبرة بشئون القتال وفيما عدا مهامهم الحربية، قام المديرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدهم فى ذلك عدد كبير من الموظفين والمندوبين(٨٧)، وقد ساعد فيليب أوغسطس فى الناحية الإدارية وزيره والتر الاسبتارى Walter the Hospitaler الذى امتد نشاطه إلى جميع فروع الإدارة الحكومية فضلا عن شئون الجيش والقضاء، وإلى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين، وجدت مجموعة من المستشارين ـ العلمانيين

(84) Idem: pp. 211 - 218.

(85) Tout: The Empire and the Papacy, p. 404.

(86) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiére Partie, p. 235.

(87) Painter:A Hist. of The Middle Ages, p. 254.

والدينيين - روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى يظلوا بمثابة مجلس استشارى ، وكان الملك يضيف إلى هؤلاء مجموعة أخرى من النبلاء والأساقفة فى حالة الضرورة[٨٨]، وعند دعوة هذا المجلس، روعى فى الدعوة تحديد مكان الاجتماع، وزمانه، والغرض منه، ويبدو أن هذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه، كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا بحيث لا يتعرض للمسائل التى تدخل فى الروتين الحكومى العادى. وبعبارة أخرى فإنه كان يمثل هيئة استشارية بحتة لايوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها؛ لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية، والتشريعية والقضائية، على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أنه كان حاكما مطلقا بكل معانى الكلمة؛ لأن طبيعة النظام الإقطاعى وما ارتبط به هذا النظام من حقوق وواجبات كانت تحد من سلطة الملك المطلقة[٨٩].

أمّا المدن فكان فيليب أوغسطس أعظم نصير لها، فحالف أهلها وأظهر عطفا كبيرا على آمالهم، حتى دخلت كثير من المدن الفرنسية الخارجة عن أملاكه تحت حمايته ولم يكتف فيليب أوغسطس بإعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها، وإنما ساعدها فى تقوية أسوارها واستحكاماتها وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها ، كذلك شجع التجار الأجانب على التردد على الأسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من إنتاجها[٩٠]، أما باريس فقد أضحت على أيام فيليب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية فى أوربا؛ وذلك أنه شيد لها سورا قويا يضم بين جوانبه القصر الملكى، والمدارس والكاتدرائية، والأحياء التجارية والصناعية، كما عنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها[٩١]، وفى عهد فيليب أوغسطس حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة، وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالى الألب فى العصور الوسطى، وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة فى القارة، فضلا عن كونها ضمت بعض

---

(88) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 326.

(89) Thompson: op. cit. Vol. 1, P. 526.

(90) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiére Partie, pp. 222 - 232.

(91) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 327 - 330.

المبانى الجميلة ذات الطراز القوطى الذى أخذ ينتشر فى بقية أنحاء فرنسا عندئذ[٩٢].

وخلاصة القول إن فيليب أوغسطس استطاع - عن طريق القوة والسياسة - أن يجعل من فرنسا دولة عظمى، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أى أمير إقطاعى آخر فى فرنسا، ويكفى أنه أول ملك من أسرة كابيه شعر بأن قوته وسطوته بلغتا درجة من الثبات بحيث لم يعد فى حاجة إلى تتويج ابنه فى حياته ليضمن له العرش من بعده[٩٣].

لويس الثامن:

وقد خلف فيليب ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) الذى لم يكن على شىء من المقدرة التى امتاز بها أبوه، وإن ظلّ حريصا على سياسة والده الخاصة بتوحيد فرنسا وبسط نفوذ الملكية على مختلف أنحائها، ولتحقيق هذه الأهداف فرض لويس الثامن سياسته على أكوتين وإن بقيت بوردو خارج قبضته، كما أظهر رغبة صادقة فى ضمّ الأجزاء الجنوبية من فرنسا، وفى تلك الأثناء كان قائد الحملة الصليبية الألبيجنسية - سيمون دى مونتفورت - قد قتل سنة ١٢١٨ فتنازل ابنه عمورى للويس الثامن ملك فرنسا عن كل الحقوق التى حصل عليها سيمون من البابوية، مما دفع لويس الثامن إلى القيام بحملة صليبية سنة ١٢٢٦ ضد الهراطقة، وإن كان هدفها الحقيقى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا، وقد نجح لويس الثامن فعلا فى تحقيق جزء كبير من هدفه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦[٩٤].

لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠):

وعلى الرغم من أن لويس التاسع كان طفلا فى الثانية عشرة من عمره عند وفاة أبيه إلا أن ذلك لم يعق تقدم الملكية الفرنسية بفضل وصاية أمه بلانش القشتالية (Blanche of Castile)، ولم يلبث أن فاق لويس التاسع أمه فى الصلاح والتقوى حتى سمى القديس لويس[٩٥].

(92) Tout: The Empire and the Papacy, p. 403.

(93) Idem: pp. 402 - 405.

(94) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 322 - 324.

(95) Idem:. p. 331.

على أن الأمراء والبارونات الإقطاعيين استغلوا صغر سن الملك ووصاية أمه للحد من نفوذ الملكية المتزايد، ولتحقيق ذلك دبر البارونات أكثر من مؤامرة ضد الملك الصغير وأمه، ولعل أهمها تلك المؤامرة التى حيكت سنة ١٢٢٩ وتزعمها دوق برجنديا وكونتات بريتاني، وشامبنى، ولامارش، يؤيدهم هنرى الثالث ملك إنجلترا، ولكنها باءت بالفشل بفضل حزم بلانش - الملكة الوالدة - من جهة، ومساعدة البابوية - الحليفة الطبيعية لأعداء الهرقطة الألبيجنسية - من جهة أخرى(٩٦)، وهكذا استمرت الأوضاع حتى انتهت فترة الوصاية سنة ١٢٣٥ .

ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التى تلقاها أسلافه، فدفعته حماسته الدينية إلى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة، على الرغم من معارضة أمه ونصح وزرائه، وقد قضى لويس التاسع عدة سنوات فى الاستعداد لهذه الحملة حتى أبحر سنة ١٢٤٨ قاصدا مصر، بعد أن أصبحت العقيدة السائدة عند الصليبيين عندئذ أن مصر هى الطريق الموصل للسيطرة على بيت المقدس(٩٧) ، وبعد أن استولى لويس التاسع على دمياط سنة ١٢٤٩ ، تقدم نحو القاهرة حيث حلت الهزيمة بجيشه قرب المنصورة؛ نتيجة لجهل الصليبيين بأحوال البلاد وطبيعتها فى حين وقع لويس التاسع نفسه أسيرا فى أيدى المسلمين ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية ضخمة.

وإذا كان لويس التاسع ملكا متدينا حى الضمير، فإن ذلك دفعه إلى التسليم بحقوق غيره مثلما تمسك هو بحقوقه ، وفى ضوء هذا الاعتبار اختار لويس التاسع أن يسالم هنرى الثالث ملك إنجلترا بدلا من محاولة طرد الإنجليز من جاسكونى(٩٨) .

ويبدو أن هذه السياسة لم تؤد فقط إلى إقرار صلح باريس بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٢٥٩ بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين، بل دفعت هنرى الثالث أيضاً إلى التنازل عن كل حقوقه الاسمية فى نورمنديا، وأنجو، ومين، وتورين، وبواتو، وإن أصرّ على الاحتفاظ بملكية جوين، وجاسكونى، وليموسان، وكويرسى، وبريجورد،

(96) Orton: op. cit. p. 332.

(97) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 357.

(98) Painter: A Hist. of The Middle Ages, p. 257.

على أن تؤدى جميعها فروض التبعية لملك فرنسا وتتعهد بعدم المشاركة فى أية ثورة ضده[٩٩]، وهكذا يمكن القول بأنه ـ بصرف النظر عن حماسة لويس التاسع الصليبية ـ فإن سياسته الخارجية اتسمت بطابع المسالمة، فلم يحاول أن يستغل الظروف السيئة التى أحاطت ببيت هوهنشتاوفن ليحقق لنفسه مكاسب خاصة، ورفض أن يقحم نفسه فى النزاع بين البابوية والإمبراطورية، فلم يستجب إلى تحريض البابا فى مهاجمة فردريك الثانى، ولم يخضع لرأى الأخير ويسلمه البابا أنوسنت الرابع[١٠٠]، هذا فضلا عن أنه لم يفكر فى استغلال سوء أحوال إنجلترا ليعتدى على أملاكها فى فرنسا[١٠١]، وإذا كان لويس التاسع قد استطاع أن يجعل من فرنسا فى أواخر عهده أقوى دولة فى أوربا، فإننا يجب أن نقدر الظروف الخارجية التى ساعدت على إبراز هذه الحقيقة، وأهمها حرج مركز الإمبراطورية الألمانية من جهة وسوء أحوال الملكية الإنجليزية من جهة أخرى[١٠٢].

أمّا فى الداخل، فإن لويس التاسع حرص كل الحرص على احترام حقوق أفصاله من كبار الأمراء الاقطاعيين، فى الوقت الذى احتفظ بسلطانه الملكى وحقوقه العليا فى السيادة على الدولة، وفى ذلك الوقت كان كبار الأمراء الذين أتعبوا أسلافه فى القرن الثانى عشر قد ماتوا، وخلفهم خلف ضعيف من الأمراء الذين لم يحاولوا أن يسببوا متاعب كثيرة للملكية[١٠٣]؛ لذلك لا عجب إذا رأينا عهد لويس التاسع وقد امتاز بإصلاحات متعددة فى النواحى الإدارية، والقضائية، والمالية، وإن كان من الملاحظ أن ذلك العهد لم يشهد مولد نظم جديدة بقدر ما شهد تطور النظم القديمة السائدة، وكان محور السلطة المركزية فى ذلك العصر ـ سواء فى فرنسا أو إنجلترا ـ هو المجلس الاقطاعى للملك Curia Regis الذى تألف فى جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين، وينضم اليهم أفصال الملك فى حالة الشروع فى إعلان الحرب أو

(99) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 358.
(100) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 420 - 421.
(101) Stepheson: Med. Hist. p. 476.
(102) Tout: The Empire and the Papacy, p. 241.
(103) Orton: op. cit. pp. 333 - 334.

زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة(١٠٤)، وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس فى القرن الثالث عشر أخذ ينقسم إلى عدة لجان لكل منها مهمته، مثل الهيئة التى اختصت بالإيرادات الملكية Chambre des Comptes، والهيئة الخاصة بالقضاء أو المحكمة الملكية فى باريس Parlement وغيرهما، أمّا ممتلكات الخاصة الملكية والأراضى الإقطاعية الخاصة بالملك، فقد عهد بالإشراف عليها إلى وكلاء ملكيين Baills . ولكى يتأكد لويس التاسع من حسن سير الجهاز الحكومى، دأب على إرسال مفتشين ملكيين (Enquéteurs) لسماع شكاوى الأهالى والتحقيق فيها فضلا عن التفتيش على الحكام المحليين، مما جعلهم شديدى الشبه بالمبعوثين Missi على أيام شارلمان(١٠٥)، وقد تمسك لويس التاسع بحقه فى أن تستأنف أمامه جميع القضايا على أن يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الإقطاعيين، كما حدد عددا معينا من الجرائم يجب أن يكون الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم، أما فى الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول فى جميع أنحاء فرنسا، فى حين لا تسرى العملات الخاصة التى أصدرها كبار الأمراء الإقطاعيين إلا فى إقطاعاتهم وحدها، الأمر الذى ضمن البقاء والفوز النهائى للعملة الملكية(١٠٦)، كذلك اهتم لويس التاسع برعاية التجارة، وحماية القومونات، ونشر الأمن والسلام، مما يمكن التجار من البيع والشراء فى يسر وطمأنينة هذا فضلا عن عدة مدن أقامها لويس التاسع فى الجنوب(١٠٧).

أمّا سياسة لويس التاسع تجاه الكنيسة فقد قامت على أساس حمايتها من جشع الأمراء والموظفين الملكيين، وإعطائها كل مالها، وفى الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية تجاه الكنيسة وحرص على استخلاص هذه الحقوق كاملة غير منقوصة، فلم يسمح لها بالتدخل فى الشئون العلمانية وفرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام(١٠٨)، وقد حظى رهبان منظمتى الفرانسسكان والدومينكان بمكانة خاصة عند

---

(104) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 335.

(105) Tout: The Empire and the Papacy, p. 424.

(106) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 336 - 338 & 351.

(107) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 76.

(108) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 350.

لويس التاسع على حساب غيرهم من أفراد المنظمات القديمة، فضلا عن رجال الكنيسة العلمانيين(١٠٩).

وهكذا أخذ لويس التاسع يعمل على تنظيم الإدارة وإقرار المساواة فى جمع الضرائب، مما جعل الفترة الأخيرة من حكمه - بعد عودته من الأراضى المقدسة سنة ١٢٥٤ - تمتاز بالسلام الشامل، ولم يحدث فى تلك الفترة ما يعكر صفو السلام والأمن الداخلى، وإنما أخذ الملك ينتقل من إقليم إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى فى ظل إدارته الصالحة، وما عرف عنه من عطف وبر بالضعفاء والمحتاجين. لذلك لا عجب إذا امتاز ذلك العهد بالتقدم الحضارى الكبير فى ميادين العلوم والفنون، فأخذت جامعة باريس الناشئة تخطو بالدراسات المتنوعة إلى الأمام، فى حين بلغ الفن القوطى عصره الذهبى، كما يبدو فى كاتدرائيات ذلك العصر وعلى رأسها كاتدرائيات أميان وبورج وبوفيه(١١٠).

على أن إفراط لويس التاسع فى التقوى والتدين كانت له نتائج هدامة من بعض الوجوه، إذ دفعه ذلك إلى التطرف فى اضطهاد اليهود والهراطقة، وإلى السماح باتخاذ أعنف الإجراءات ضد الألبيجنسيين فى الجنوب، مما أثر فى الحضارة البروفنسالية تأثيرا سيئا للغاية(١١١)، وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر سنة ١٢٤٩ لم تأت بثمرة سوى الخسارة الفادحة فى الأرواح والأموال(١١٢)، فإن لويس التاسع سرعان ما نسى الدرس القاسى الذى أخذه قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ وأخذ يفكر فى أواخر أيامه فى القيام بحملة صليبية جديدة، وكانت وجهة هذه الحملة تونس فى شمال أفريقية، حيث أرسى أسطول لويس التاسع سنة ١٢٧٠ فى وقت من أسوأ فصول السنة، ومن الواضح أن لويس لم يكن عندئذ فى سن تمكنه حتى من ركوب فرسه، الأمر الذى عجل بوفاته فى السنة السابقة نفسها، وبذلك فقدت فرنسا أبرز من جمع بين المواهب الخلقية والسياسية فى سلسلة ملوكها العظام(١١٣).

(109) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 422 - 423.

(110) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 539 - 540.

(111) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 347.

(112) Orton: op. cit. p. 337

(113) Lodge: The Close of the Middle Ages, p. 46.

فيليب الثالث:

وبعد لويس التاسع حكم ابنه فيليب الجرىء أو الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥) الذى يعتبر عهده عديم الأهمية، اللهم إلا من ناحية أنه يمثل مرحلة انتقال بين الملكية الإقطاعية التى ميزت عهد سلفه لويس التاسع، والملكية القومية التى ميزت عهد خلفه فيليب الرابع، هنا نشير إلى أن القومية بمعناها الحديث الذى نعرفه، لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى[١١٤]. وكل ما هنالك هو أن انهيار النظام الإقطاعى ونشأة المدن وظهور الآداب واللغات الجديدة، كل ذلك جعل ملوك أوربا فى أواخر العصور الوسطى يرفضون فكرة خضوع العالم لسلطة إمبراطورية عليا واحدة، وهى الفكرة التى طالما هيمنت على العصور الوسطى، وهكذا أخذ كل ملك يباشر سلطانه ويثبت نفوذه على أنه يستمد ذلك السلطان والنفوذ من الله مباشرة مما جعل الملوك يتجهون فى بلادهم اتجاها محليا، لا عالميا.

وعلى الرغم من عدم كفاية فيليب الثالث، إلا أن الملكية الفرنسية استمرت فى تقدمها بفضل الطاقة التى زودها بها ملوك فرنسا السابقون، مما جعل عهد فيليب الثالث لا يبدو مظلما على طول الخط، ولعل أبرز ما فى هذا العهد أن الملكية الفرنسية نجحت فى ضم ثلاثة أقاليم مهمة ظلّ اثنان منها فى حوزة التاج الفرنسى، ذلك أنه كان من جملة الذين هلكوا فى حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ألفونس أمير بواتيه وزوجته دون أن يتركا وريثا، فاستولى التاج الفرنسى على أملاكهما الواسعة فى تولوز وبواتو Boitou وأوفرن Auvergne وبروفانس[١١٥]. ثمّ حدث سنة ١٢٧٤ أن توفى هنرى ملك نافارى، وكونت شامبنى وبرى Brie تاركا طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها، أخذتها أمها إلى البلاط الفرنسى طالبة حماية فيليب الثالث، وسرعان ما انتهز ملك فرنسا الفرصة فأسرع باحتلال شامبنى وبرى وضمهما إلى التاج الفرنسى، فى الوقت الذى وافق البابا على زواج أرملة هنرى من فيليب ابن ملك فرنسا الذى اعتلى العرش تحت اسم فيليب الرابع[١١٦].

(114) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 306.

(115) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 111.

(116) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 47 - 48.

فيليب الرابع:

أمّا فيليب الرابع أو الوسيم (١٢٨٥ - ١٣١٤) فقد امتاز ببعد النظر، وقوة العزيمة، والمهارة السياسية، وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومدّ حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوربا(١١٧). لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش أن الحدود الطبيعية لبلاده هى نهر الراين، وجبال الألب، وجبال البرانس، وبناء على ذلك أخذ يعمل على ضمّ الجهات التى ظلت خارج نفوذه، وقد رأينا أن التاج الفرنسى ضم شامبنى عن طريق زواج فيليب الرابع من صاحبتها، ولما كانت بريتانى فى شبه عزلة، فإن فيليب أخذ يتطلع إلى جوين وجاسكونى، اللتين كانتا لاتزالان مملوكتين لملك انجلترا، مع اعترافه بالتبعية فيهما لملك فرنسا، ثم كان أن تصادمت المصالح الإنجليزية والفرنسية أيضًا فى إقليم فلاندرز، الذى كان من أهم المراكز الصناعية والتجارية فى غرب أوربا(١١٨)، فإنجلترا التى لم يكن قد تمّ تصنيعها بعد، اعتادت أن تصدر الصوف الخام من يوركشير إلى فلاندرز حيث يتم صنعه وتسويقه فى حين تجبى الملكية الإنجليزية إيرادها الأساسى من الضريبة المفروضة على الصوف المصدر إلى فلاندرز(١١٩). وكان دوق فلاندرز تابعا للتاج الفرنسى فى حين كانت مدن ذلك الإقليم حرة من الناحية العملية، ويميل أهلها إلى إنجلترا؛ بحكم ارتباطهم بها اقتصاديا هذا كله فضلاً عما كان هناك من تنافس بين الإنجليز والفرنسيين حول مصايد الأسماك فى بحر الشمال مما أثار كثيرا من الاشتباكات بين الصيادين الفرنسيين والإنجليز وحرك شكوك الملكية فى كل من البلدين(١٢٠).

وأخيرا حدث سنة ١٢٩٣ أن اعتدى بعض صيادى جاسكونى على الصيادين النورمان، ورفض الفريق الأول الامتثال لأحكام المحاكم الفرنسية، مما جعل فيليب الرابع ملك فرنسا ينتهز فرصة المتاعب الداخلية التى تعرض لها إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧)، ويستدعيه للحضور أمامه لاستجوابه بشأن إخلاله بتعهداته

(117) Orton: op. cit. pp. 358 - 359

(118) Cam. Med. Hist. Vol. 7. p, 320.

(119) Perroy: La Guerre de Cent Ans, pp. 16 - 18.

(120) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 296.

الإقطاعية[١٢١]، على أن إدوارد كان مشغولا عندئذ بمحاربة الإسكتلنديين فوعد بالحضور فى وقت آخر قريب، وأرسل أخاه إدموند بدله، كما سلم لفيليب بعض القلاع الواقعة على الحدود فى جوين ضمانا لحضوره[١٢٢]، ويبدو أن إدوارد لم يستطع الحضور إلى باريس فى الوقت المحدد، مما أساء إلى العلاقة بين الطرفين فلجأ فيليب الرابع إلى التمسك بالقلاع التى أخذها، فى حين ردّ عليه إدوارد بإعلان تحلله من ولائه لملك فرنسا، كما عمل تحالفا مع بعض الأمراء الألمان والفلمنكيين ضده، أما فيليب الرابع فرد على ذلك بالتحالف مع سكتلند ضد ملك إنجلترا، ثم احتل جوين وهاجم كونت فلاندرز حليف إدوارد سنة ١٢٩٧، حتى انتهى الموقف بصلح مؤقت بين الطرفين سنة ١٢٩٨ بفضل وساطة البابا بونيفيس الثامن، فتخلى ملك فرنسا عن مساعدة سكتلند، ولم يلبث أن ثار أهالى فلاندرز من الفلمنك ضد الحكم الفرنسى فذبحوا كثيرا من الفرنسيين كما هزموا القوات الفرنسية سنة ١٣٠٣ عند كورتراى Courtrai ، وأخيرا اضطر فيليب الرابع إلى عقد صلح نهائى مع إدوارد الأول ١٣٠٣ على أساس أن يعود كونت فلاندرز إلى حكم بلاده وأن تسترد إنجلترا جاسكونى وجوين[١٢٣].

ولكن يبدو أن أطماع فيليب الرابع فى فلاندرز كانت لايمكن أن تنتهى بهذه السرعة، فلم يلبث بعد أن اطمأن إلى وفاة بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣ أن عاد إلى محاولة إخضاع الفلمنكيين، ونجح فعلا فى الانتصار عليهم، ولكنه لم يحرز نصرا حاسما، وسرعان ما استطاع أهالى فلاندرز تعبئة قواهم مما جعل ملك فرنسا يعجل بالصلح سنة ١٣٠٥.

أما عن العلاقة بين فيليب الرابع والبابوية فكان محورها الأساسى البابا بونيفيس الثامن الذى كان أهم شخصية فى عصره، حتى لقب بأنه آخر بابوات العصور الوسطى العظام[١٢٤]، وكان هذا البابا (١٢٩٤ - ١٣٠٣) قد شبَّ فى أيام سطوة

(121) Lodge: op. cit. p. 51.

(122) Perroy: op. cit. p. 45.

(123) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 300.

(124) Lodge: op. cit. p. 28.

البابوية وقوتها، ومن ثمّ لم يستطع أن يتفهم الأوضاع الجديدة التى أخذت تلم بالعالم الأوربى، وأنشأ يباشر سلطاته البابوية على أوسع مدى، مما جره إلى التدخل فى شئون النبلاء والملوك المعاصرين(١٢٥) .. وعندما أشرك فيليب الرابع - ملك فرنسا - رجال الكنيسة فى دفع الضرائب التى قررها لمواصلة الحرب ضد إنجلترا سنة ١٢٩٤، احتج رجال الكنيسة على هذا العمل وشكوا إلى البابوية، والواقع أن أهم مشكلة واجهت الملكيات الأوربية عند نهاية القرن الثالث عشر كانت الحاجة إلى المال لمواجهة نفقة الدولة المتزايدة من جهة، ونفقات الإدارة وكثرة الموظفين من جهة أخرى، وفى حالة فرنسا بالذات جاء عامل جديد هو حرب فلاندرز الطويلة التى تطلبت من فيليب الرابع الالتجاء إلى طرق جديدة - لا تخلو من عنف - فى جمع الأموال، حتى من الكنيسة(١٢٦) .

لذلك أصدر البابا بونيفيس الثامن قرارا سنة ١٢٩٦ ببطلان حق الملوك فى فرض ضرائب على الممتلكات الكنسية دون إذن البابوية، وهدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار(١٢٧)، وقد استاء ملكا فرنسا وإنجلترا من هذا القرار الذى يعتبر محاولة من البابوية للعودة إلى أوضاع القرن الثانى عشر، وسرعان ما اتخذ استياء ادوارد الأول ملك إنجلترا صورة نزاع مع رئيس أساقفة كانتربورى، فى حين أدى استياء فيليب الرابع إلى صدام مباشر بينه وبين البابا بونيفيس الثامن نفسه(١٢٨) . ذلك إن فيليب الرابع حرم على جميع الأجانب دخول فرنسا، وبذلك حال دون وصول المندوبين البابويين، كما حرم تصدير الذهب والفضة والنقود إلى خارج فرنسا، مما أدى إلى قطع الموارد المالية التى تصل إلى البابوية من فرنسا(١٢٩) .

وكان من الطبيعى أن يحتج بونيفيس الثامن على إجراءات فيليب الرابع فدعا إلى عقد مجمع من رجال الدين لاتخاذ قرار ضد الملكية الفرنسية(١٣٠)، ولكن فيليب الرابع

---

(125) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 44 - 45.
(126) Orton: op. cit. pp. 360 - 361.
(127) Pirenne: La Fin du Moyen Age, p. 45.
(128) Tout: The Hist. of England. pp. 200 - 201.
(129) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 132
(130) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 313.

حال دون خروج أى واحد من رجال الدين الفرنسيين إلى روما، كما دعا مجلس الطبقات States General لأول مرة فى التاريخ الفرنسى (أبريل ١٣٠٢)، وقد أقرّ النبلاء فى ذلك المجلس السلطة الزمنية للتاج، فى حين كتب رجال الدين إلى البابا بونيفيس الثامن ينصحونه بعدم عقد المجمع الذى دعا إليه[١٣١]، ولكن المجمع البابوى لم يلبث أن عقد سنة ١٣٠٢، وحضره بعض رجال الدين الفرنسيين على الرغم من الإجراءات المشددة التى اتخذها فيليب الرابع، مما عرضهم لمصادرة أملاكهم، وقد أقرّ ذلك المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذى أثار فيليب الرابع وجعله يوجه إلى البابا بونيفيس الثامن كثيرا من الاتهامات كما دعا إلى عقد مجمع لمحاكمته[١٣٢]، ثم حدث فى الوقت الذى كان بونيفيس يتأهب لإصدار قرار الحرمان ضد فيليب أن تمكن أتباع الأخير من القبض على البابا وإهانته، بحيث لم يستطع البابا الخلاص إلا بصعوبة، ثم مات فى روما سنة ١٣٠٣، وبوفاة بونيفيس الثامن انطوت آخر صفحة، فى تاريخ البابوية بمعناها العظيم الذى عرفته العصور الوسطى، لأنه على الرغم من اتهامه بالمحسوبية والمحاباة، وعلى الرغم من أن دانتى جعله من أهل الجحيم، إلا أنه كان مشرعا عظيما وإداريا كبيرا، بحيث أن فشله لايرجع إلى نقص فى مواهبه بقدر ما يرجع إلى عدم استطاعته تفهم الروح الجديدة التى سادت المجتمع الأوربى فى أواخر العصور الوسطى[١٣٣]، وقد جاء بعد بونيفيس الثامن البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) الذى كان رجلا معتدلا فسحب القرارات التى سبق أن صدرت ضد ملك فرنسا[١٣٤]، ثم جاء البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) فسمح لفيليب الرابع بفرض ضريبة عشرية لمدة خمس سنوات على ممتلكات الكنيسة الفرنسية، وفى سنة ١٣٠٩ اختار كلمنت الخامس أفينون مقرا له يباشر منه مهام منصبه البابوى، وبذلك بدأت فى تاريخ البابوية فترة الأسر البابلى التى سنتكلم عنها فيما بعد.

---

(131) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, pp. 149 - 150.

(132) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 49 - 50.

(133) Eyre: op. cit. pp. 465 - 466.

(134) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 316.

ويتضح ممّا سبق أن فيليب الرابع لم يحقق نتائج ناجحة تستحق الذكر فى نشاطه الخارجى، إذ انتهت محاولاته فى ضم أكوتين وفلاندرز بالفشل، ولم ينجح إلا فى ضم ليون سنة ١٣١٢، وإذا كان قد حقق انتصارا على البابوية فإن هذا الانتصار تمّ عن طريق وسائل غير مشرفة، هذا فضلا عن أن إقامة البابوية فى أفينون لم تحقق فوائد ثابتة لفرنسا، وهكذا يبدو إنه إذا كانت ثمة أهمية لعهد فيليب الرابع فى التاريخ فإن هذه الأهمية تنبع من إدارته الداخلية وجهوده فى تحسين هذه الإدارة، والتخلص من جميع العقبات التى حالت دون سيطرة الملك على دولته سيطرة تامة(١٣٥)، وهنا نلاحظ أن الفارق الأساسى بين الدولتين الإنجليزية والفرنسية فى تلك الحقبة هو أن الأولى دانت كلها لملوكها الذين غزوها وفرضوا عليها نظما حربية، وقضائية، ومالية موحدة، فى حين تم بناء فرنسا لبنة بعد أخرى، إذ لم يكن لملوكها فى أول الأمر سوى الجهات المحدودة المعروفة باسم جزيرة فرنسا، ومن ثم أخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجيا على كبار الأمراء فى الجهات المجاورة. ولهذا السبب ظلت فرنسا لا تخضع لقانون عام موحد حتى ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩(١٣٦).

ويبدو أن فيليب الرابع اضطر بحكم حاجته المستمرة إلى المال اللازم لمواصلة حروبه ، إلى اتخاذ بعض الإجراءات التعسفية، من ذلك أنه طردجميع رجال المال والصيارفة اللمبارديين من فرنسا سنة ١٢٩١ ، كما صادر ممتلكاتهم، أما اليهود فقد قام فيليب الرابع فى أول الأمر بحمايتهم مقابل مقاسمتهم أرباحهم، وكان اليهود فى تلك الحقبة من العصور الوسطى يمثلون طبقة رجال المال فى أوربا والشرق، حقيقة أنهم انتشروا فى بلاد واسعة متعددة، ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط هى الدين، والدم والمال، وهكذا جمعوا ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية وإقراض الهيئات الكنسية لإتمام منشآتها الضخمة، أو إقراض الفرسان والأمراء لتنفيذ مشروعاتهم الصليبية، وذلك بفوائد مالية باهظة، منتهزين فرصة تحريم الكنيسة على أتباعها أكل الربا(١٣٧)، وأخيرا استغل فيليب الرابع الكره الإجماعى لليهود وصادر

---

(135) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 49 - 50.

(136) Stephenson: Med. Hist. p. 495.

أملاكهم وطردهم من بلاده سنة ١٣٠٦[١٣٨]، ولكن فيليب الرابع لم يلبث أن أدرك ما ترتب على طرد اليهود من اضطراب أصاب التجارة الفرنسية، مما جعله يسمح لبعضهم بالعودة و وإن كان قد عاد إلى طردهم ثم إرجاعهم أكثر من مرة[١٣٩]. ويبدو من استعراض تاريخ مختلف البلدان الأوربية فى تلك الفترة أن هذه المعاملة السيئة التى لقيها اليهود من فيليب الرابع لم تكن أمرا فريدا من نوعه، ذلك أن جشعهم وحبهم للمال وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية دفعت إدوارد الأول ملك إنجلترا إلى طردهم أيضاً من بلاده ومصادرة أملاكهم سنة ١٢٩٠[١٤٠]، كما لجأ أمراء ألمانيا، وملوك إسبانيا، والسلطات الحاكمة فى المدن الإيطالية إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات ضد اليهود[١٤١].

ولم ينج الداوية ـ وهم أفراد إحدى المنظمات التى أسهمت بنصيب واضح فى الحرب الصليبية ـ من أطماع فيليب الرابع، وكانت منظمة الداوية قد فقدت أهميتها العسكرية منذ سقوط عكا فى أيدى المماليك سنة ١٢٩١، ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشاط مصرفى ومالى واسع فى غرب أوربا درّ عليها ثروة طائلة ، والواقع أنها أضحت أشبه شيء بتنظيم سرى يحوطه الغموض، ويعيش أفرادها فى رفاهية ونعيم بعد أن انصرف معظمهم إلى المصالح الدنيوية[١٤٢]، وقد اقترح بعض البابوات ضمّ هذه المنظمة إلى هيئات أخرى حصلت على صيت ذائع فى عصر الحروب الصليبية، وهى الاسبتارية التى ظلّ أفرادها يقومون بكثير من أعمال البر والإحسان[١٤٣]، ولكن فرسان الداوية عارضوا فكرة إدماج الهيئتين بعضهما فى بعض، بعد أن ألفوا حياة الدعة والراحة حتى أتخمتهم الثروة، واتصفو بالكبرياء والغطرسة، ثم كان أن أقدم البابا كلمنت الخامس على التحقيق فى مسلك الداوية لمحاكمتهم، وعندئذ انتهز فيليب الرابع ملك فرنسا الفرصة سنة ١٣١٠ فأحرق أربعة وخمسين من فرسانهم فى باريس،

---

(138) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74 - 75.

(139) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, pp. 222 - 226.

(140) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 655.

(141) Tout: The Hist. of England. pp. 175 - 176.

(142) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316 - 317.

(143) Stephenson: Med. Hist. pp. 501 - 502.

ثم أصدر أمرا سنة ١٣١٢ بحل هيئة الداوية ومصادرة أملاكها، وفي سنة ١٣١٤ أحرق مقدمهم جاك دى مولاى Jacques De Molai [١٤٤]، وبذلك انحلت هيئتهم وتفرقوا في البلاد، ويبدو أن الاضطهاد الذى حلّ بالداوية جعلهم يعتنقون بعض المذاهب الهرطقية التى أدانهم بها البابا كلمنت الخامس[١٤٥].

ثم إن حاجة فيليب الرابع إلى الأموال لم تدفعه إلى التعسف في جمعها فحسب، بل أيضًا إلى تغيير العملة والتلاعب في قيمتها[١٤٦]، كذلك فرض ضرائب على المبيعات مما أدى إلى تدهور أهمية أسواق شامبنى العظيمة، هذا فضلا عن الضرائب غير المباشرة التي فرضها على الواردات والصادرات بعد أن توصل إلى حقيقة مهمة، هى استغلال الضرائب في تنظيم عملية التجارة، وهكذا لجأ إلى فرض ضريبة على الأصواف الإنجليزية والفلمنكية؛ لحماية الإنتاج المحلي والمساعدة على ترقيته، كذلك فرض فيليب الرابع ضرائب على الهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات وأراضى البارونات والطبقة البورجوازية. أما المدن فقد فرض على كل منها مبلغا معينا كبيرا من المال، ومنح البلديات حرية في جمع الضرائب من الأهالى[١٤٧].

أمّا في الناحية الإدارية التشريعية فإن فيليب الرابع فصل من الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس بقية الإقطاعيين، وأحلّ محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الرومانى وتشبعوا بما فيه من حب للملكية واعتراف بسيادتها[١٤٨]، كذلك أنشأ محكمة أو غرفة مالية الغرض منها الفصل في المنازعات التي تقوم حول الضرائب وغيرها من الإشكالات المالية، على أن أهم من هذا كله كانت دعوة فيليب الرابع لعقد مجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ ،وهو المجلس الذى كان له أثر خطير فيما بعد في تاريخ فرنسا[١٤٩]، ذلك أن فيليب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث - رجال الدين، والنبلاء والبورجوازيين - وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة، مثلما حدث سنة (١٣٠٢ - ١٣٠٣) أثناء نزاعه مع البابا

---

(144) Lodge: op. cit. p. 56.

(145) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 318 - 319.

(146) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 233.

(147) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 324 - 325.

(148) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 330.

(149) Cam. Med. Hist. Vol. 7 p. 684.

بونيفيس الثامن، وسنة ١٣٠٨ عند حلّ منظمة الداوية، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج إلى أموال للحرب فى فلاندرز(١٥٠)، ويبدو من حرص فيليب الرابع على دعوة هذا المجلس أنه كان يقدر ما للرأى العام من أهمية وقوة، وعلى الرغم من أنه لم يسمح لأعضاء مجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين، إلا أنه سمح لهم برفع آرائهم إلى الملك(١٥١)، وقد حدث أثناء انعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على إحدى الضرائب، فاضطر فيليب الرابع إلى إلغائها وإلى عدم التلاعب فى العملة بعد ذلك.

نهاية أسرة كابيه:

وعند وفاة فيليب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين (١٣١٤ – ١٣١٦) وبعد ذلك اعتلى عرش فرنسا ابن آخر لفيليب الرابع هو فيليب الخامس (١٣١٦ – ١٣٢٢) الذى دعا مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد لإقرار أحقيته فى العرش وإحباط المحاولة التى قام بها منافسوه لتولية ابنه لويس العاشر بدلاً منه، وكان فيليب الخامس حاكما نشيطا ذكيا(١٥٢)، عمل على تركيز الإدارة الملكية فى باريس وتحويل كثير من الضرائب الاقطاعية لصالح الملكية ومنع الأمراء الاقطاعيين من الاحتفاظ بحاميات فى قلاعهم ما لم تكن هذه القلاع على الحدود ، كذلك امتاز عهد فيليب الخامس بكثرة التشريعات التى بلغت بالنظم التى وضعها آل كابيه درجة الكمال، أمّا مجلس طبقات الأمة فقد بلغ درجة كافية من النضج وتعددت اجتماعاته حينا بعد آخر(١٥٣).

وبعد فيليب الخامس تولى الحكم أخوه شارل الرابع (١٣٢٢ – ١٣٢٨) وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع، فشابه أباه فى حب فرض الضرائب والتلاعب فى قيمة النقود، أما فى الخارج فقد شغل شارل الرابع بحرب فلاندرز، وهى الحرب التى ظلت منذ أيام فيليب الرابع لا تخمد نارها إلا لتشتعل بعد قليل(١٥٤)، كذلك فتح شارل الرابع باب

---

(150) Lodge: op. cit. pp. 59 - 60.
(151) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 326 - 327.
(152) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxiéme Partie, p. 330.
(153) Orton: op. cit. p. 364.
(154) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 338.

النزاع مع إنجلترا من جديد نتيجة لاستيلائه على معظم جاسكونى، ومهما يكن من أمر، فإن شارل الرابع هذا لم يترك وريثا يرثه فى حكم المملكة، مما أدى إلى انتهاء عهد أسرة كابيه(١٥٥) .

ولقد اجتمع مجلس طبقات الأمة بعد وفاة شارل الرابع سنة ١٣٢٨، فاختار فيليب فالوا الذى أصبح فيليب السادس ملكا على فرنسا، وليس لهذا الاختيار من أهمية خاصة سوى أن النزاع حول وراثة العرش بعد وفاة شارل الرابع كان من أسباب قيام حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا، وهى الحرب التى سنعالجها فى باب خاص فيما بعد .

(155) Lodge: op. cit. 65.

الباب الثانى عشر
ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى، فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة، وإذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارولنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى إخضاع بافاريا وسكسونيا، إلا أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية، وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من إمبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الإمبراطورية تتعرض للتفكك والانهيار قرب منتصف القرن التاسع[١].

وتتضح هذه الفكرة فى شعوب ألمانيا التى أخذت تتمسك بتراثها القديم وتبحث عن زعامة محلية عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكنج والمجريين، فظهر زعماء محليون من كبار الأمراء فى كل من سكسونيا وفرانكونيا، وسوابيا، وبافاريا، وهى الأجزاء الرئيسية التى تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا[٢]، على أنه يلاحظ أن ألمانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الإمبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تتناقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأمراء الإقطاعيين[٣]، حقيقة أن هناك تشابهًا واضحًا فى التطور السياسى بين المملكتين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى الأمراء المحليين، وفى أن زمام الحكم انتقل فى كل من البلدين من أيدى سلالة البيت الكارولنجى إلى بيوت أخرى إقطاعية[٤]، ولكن ألمانيا اختلفت عن فرنسا فى أن أراضى الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة فى الأولى، كما أن نفوذ الأمراء ـ

---

(1)Barraclough: The Origins of Modern Germany, pp. 6 - 11.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 164.

(3) Orton: op. cot. p. 160.

(4) Stephenson: Med. Hist. pp. 279 - 280.

على الرغم من ازدياده - لم يصل إلى درجة تقويض نظم الإدارة القديمة مثلما صار الحال في فرنسا(٥).

والواقع أن الخطر الذى هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحية الأمراء الإقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسها، فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية ساعدت على توحيد سكانها - مع اختلاف أصولهم - إذا بألمانيا تظل منقسمة إلى أقاليم كبرى تختلف عن بعضها البعض اختلافا بينا من الناحية الطبيعية، حتى صار لكل إقليم منها اتجاهه السياسي وعصبيته العنصرية، فإذا كان الجزء الشمالي من ألمانيا سهلياً منبسطاً، فإن الجزء الجنوبي جبلي وعر، وإذا كانت أنهار الشمال تتجه لتصب في بحر الشمال أو البحر البلطى وبذلك توجه الأهالى نحو الشمال فإن أنهار الجنوب تجرى شرقًا وغرباً؛ لتوجيه الأهالى فى هذين الاتجاهين، وهكذا ساعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشعوب والقبائل التى تألفت منها ألمانيا فى نهاية القرن التاسع، وهم: السوابيون، والبافاريون، والسكسون، والثورنجيون، والفريزيون(٦).

أرنولف:

وكان أهم حكّام ألمانيا من البيت الكارولنجى فى أواخر القرن التاسع هو الملك أرنولف (٨٨٧ - ٨٩٩)، وقد امتاز حكم أرنولف هذا - البالغ اثنتى عشرة سنة - بالحيوية والقوة، حتى استطاعت ألمانيا فى تلك الفترة التغلب على أعدائها فى الشمال والشرق، فضلا عن حصولها على نوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية فى غرب أوربا، وحسب أرنولف أن الملوك الذين حكموا مختلف أجزاء دولة الفرنجة قصدوا ألمانيا للحصول على موافقته ورضائه ممّا حقق له زعامة فعلية عليهم، على الرغم من عدم تمتعه بلقب الإمبراطورية(٧).

ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو نجاحه فى دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد أقل أعداء الدولة الألمانية خطرا عليها؛ ذلك أنه حدث سنة ٨٩١ أن أخذ الدانيون يتدفقون على أوستراسيا فى قوة وعنف حتى اجتاحوا جميع

(5) Orton: op. cit. pp. 160 - 161.

(6) Thompson: op. cit. Vo;1, pp. 362 - 363.

(7) Oman: The Dark Ages, pp. 468 - 469.

أراضى الميز والموزل، وأنزلوا الهزيمة بالقوات المحلية التى واجهتهم فى لوثرنجيا. وعندما سمع أرنولف بذلك أتى مسرعًا من بافاريا وأخذ يطارد الدانيين حتى معسكرهم عند لوفان Louvain حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة[8]. وكانت هذه الهزيمة درسا قاسيًا تلقاه الدانيون فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية، بحيث لم يحاولوا بعد ذلك التوغل داخل حدود ألمانيا أو إقامة إمارة مستقلة فى أراضيها، وإن استمرت إغاراتهم السريعة على شواطئ فريزيا والراين الأدنى[9].

وبعد أن أخضع أرنولف بعض الثورات التى قامت بها العناصر السلافية التابعة له فى الشرق - مثل التشك والمورافيين - دفعه طموحه ورغبته فى أن يصبح إمبراطورا إلى أن يزج بنفسه فى السياسة الإيطالية؛ مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى؛ ذلك أن إيطاليا كانت عندئذ ميدانا للتنافس بين بعض الأمراء، مما أتاح فرصة لتدخل أرنولف فى شئونها، وخاصة عندما اشتد النزاع بين جاى Guy (ويدو Wido،) وبرنجار Berengar حول حكم إيطاليا، مما آثار حربا عنيفة بين الطرفين وقفت فيها لمبارديا فى صف برنجار، فى حين ظاهرت تسكانيا والبابوية جاى[10]، وكان أن توج البابا ستفن الخامس جاى إمبراطوراً وملكا على إيطاليا سنة ٨٩١، الأمر الذى حقق له النصر النهائى وجعل خصمه برنجار يستنجد بأرنولف ملك ألمانيا[11]، وكان أن رحب أرنولف بهذه الفرصة التى أتاحت له التدخل في شئون إيطاليا فعبر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع حوض نهر البو، فى حين فرّ جاى نحو الجنوب حيث توفى، وفى العام التالى عاد أرنولف مرة أخرى إلى إيطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا الجديد فورموزس Formsous (٨٩١ - ٨٩٦) وتوجه إمبراطورا[12].

وهكذا وضع أرنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا جهودهم بين ألمانيا وإيطاليا دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل فى شئون إيطاليا

(8) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.

(9) Fliche: L'Europe. Occidentale, p. 10.

(10) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 64 - 65.

(11) Oman: The Dark Ages, pp. 463 - 464.

(12) Deanesly: op. cit. p. 565.

سوى إضعاف نفوذهم فى ألمانيا وبعثرة قواهم، فعلى الرغم من الجهود الضخمة التى بذلها ملوك ألمانيا للسيطرة على إيطاليا، إلا أن نفوذهم فيها لم يكن فعليا إلا فى حالة وصول الملك الألمانى على رأس جيشه إلى إيطاليا، وفيما عدا ذلك سرعان ما يتقلص ذلك النفوذ ويتلاشى بعودة الألمان إلى بلادهم(١٣)؛ ذلك أن البابوية، والنبلاء، والمدن عارضت جميعا قيام أية سلطة سياسية قوية فى إيطاليا، ومن ثم فشل الأباطرة الألمان فى الربط بين ألمانيا وإيطاليا سياسيا فى ظل تاجهم، فى الوقت الذى صرفتهم شئون إيطاليا عن دعم نفوذهم فى ألمانيا ذاتها، ومهما يكن من أمر فإن الانقسامات والأفكار التى تعرضت لها ألمانيا على عهد أرنولف وخلفائه المباشرين أدت إلى ترك إيطاليا وشأنها دون تدخل من جانب ألمانيا لمدة ستين سنة(١٤).

أمَّا أرنولف فقد عاد من إيطاليا متوجاً بالتاج الإمبراطورى الذى أضفى عليه نوعا من المهابة أكدت أولويته بين ملوك غرب أوربا المعاصرين وزعامته عليهم. على أن المشاكل التى واجهت أرنولف بعد عودته من إيطاليا كانت كثيرة وشاقة، ومن هذه المشاكل ما هو داخلى مرتبط بمسألة الوراثة، ومنها ما هو خارجى يتمثل فى إغارة المجريين على ألمانيا(١٥)، أما هؤلاء الهنغاريون أو المجريون؛ فكانوا قبائل رعوية من أصل آسيوى مثل الهون والآفار، اعتمدوا على الخيل فى حلهم وترحالهم وبرعوا فى الحروب الخاطفة التى شنوها على خصومهم، وقد ترك هؤلاء الهنغاريون مقرهم فى شرق أوربا - على البحر الأسود - وزحفوا سنة ٨٩٦ نحو السهول الواقعة بين الكربات والدانوب، وهى المنطقة التى نسبت إليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر، ومن هذا الموطن الجديد أغار الهنغاريون فى ربيع سنة ٨٩٩ على إيطاليا عن طريق إكويليا وفيرونا حتى وصلوا بافيا، وبعد أن نهبوا سهول إيطاليا الشمالية اضطروا إلى العودة عن طريق بانونيا(١٦)، على أن أرنولف يعتبر المسئول الأول عن تجرؤ الهنغاريين على أراضى الإمبراطورية بعد أن استعان بهم فى حربه ضد مورافيا ، وبذلك دلهم

---

(13) Thompson: op. cit. Vo;1, pp. 364 - 365.
(14) Bryce: The Holy Roman Empire, p. 78.
(15) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 67.
(16) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 43 - 44.

على طريق مورافيا وألمانيا جميعا، ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو أن خطر الهنغاريين على ألمانيا لم يكن جسيما فى حياة أرنولف نفسه؛ لانشغالهم بتطهير سهول الدانوب من السلاف؛ ولذلك لم يشتد خطرهم على بافاريا وثورنجيا إلا عقب وفاة أرنولف فى نهاية سنة ٨٩٩(١٧).

لويس الطفل (٨٩٩ - ٩١١):

أجمع أمراء ألمانيا وأساقفتها على اختيار لويس الطفل (Lewis the Child) ملكا عقب وفاة أبيه أرنولف سنة ٨٩٩، وكان لويس هذا فى السادسة من عمره عندئذ، الأمر الذى جعل الإحدى عشرة سنة التى حكم فيها البلاد حكما اسميا من أحلك عصور التاريخ الألمانى، ففى تلك الحقبة قويت النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان، وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قوية وعصبية قبلية واضحة، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بينهم، وربما أدى إلى حدة هذه المنازعات أن مناصب الدوقات والكونتات غدت وراثية، مما جعل لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسية التى تألفت منها ألمانيا ـ وهى فرانكوفيا، وسوابيا، وبافاريا، وسكسونيا ـ دوقا يرثه ابنه فى منصبه(١٨)، ولم تكن النزعة الانفصالية أقل وضوحا عند الأساقفة الألمان، الذين بلغوا هم الآخرون درجة كبيرة من الثروة واتساع الأملاك والنفوذ حتى صارت لهم سيطرة على التاج، كما ناضلوا ضد الأمراء لتحقيق أطماع سياسية بحتة(١٩)، على أنه يبدو أن هؤلاء الزعماء المحليين ـ من دينيين وعلمانيين ـ ظلوا لا يجرؤون على الحركة ما دام هناك ملك قوى على رأس الدولة ، فلما توفى أرنولف وخلفه ابنه لويس الطفل أخذوا يتحركون ويشتبكون بعضهم مع بعض فى منازعات طويلة وحروب أهلية دامية أضرت بالبلاد ضررا جسيما.

وزاد الطين بلة اشتداد إغارات الهنغاريين التى لم تنقطع عن ألمانيا منذ وفاة أرنولف سنة ٨٩٩، وقد بدأ الهنغاريون بالإغارة على بافاريا، وكارنثيا، ثم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطرقوا إلى سوابيا حتى وصلوا سكسونيا، وكان أن

(17) Oman: The Dark Ages, p. 471.

(18) Orton: op. cit. p. 161.

(19) Thompson: op. cit. Vo;1, p. 370.

أنزل الهنغاريون هزيمة كبرى بالقوات البافارية سنة ٩٠٧، كما قتلوا ليتوبولد Luitpold دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج وأسقفى فريزنج وسبن Seben[٢٠]، وهكذا تمكن الهنغاريون من اجتياح بافاريا كما دخلوا ثورنجيا فى العام التالى وقتلوا دوقها وأسقف ورزبرج، الأمر الذى دفع لويس الطفل - وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره - إلى النزول إلى الميدان بنفسه؛ لصد خطر الهنغاريين وفعلا اتحد البافاريون، والسوابيون، والفرانكونيون تحت قيادة الملك الصغير لمحاربة المجريين، ولكن الهزيمة حلت بهم جميعا، ولم يلبث أن توفى لويس الطفل عقب هذه الكارثة، فى سبتمبر سنة ٩١١[٢١].

كونراد الأول (٩١١ - ٩١٨) :

وبوفاة لويس الطفل انتهت سلالة البيت الكارولنجى من الذكور فى ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلا إلا فى شخص شارل البسيط فى فرنسا[٢٢]، ولم يكن هناك سوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشكلة ملء العرش، فإما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسى للبيت الكارولنجى، وإما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب، وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأى الأخير، فاجتمع زعماء فرانكونيا، وسكسونيا، وسوبيا، وبافاريا واختاروا سنة ٩١١ كونراد الأول دوق فرانكونيا ملكا عليهم، وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية ، فيشترك فى انتخاب الملك كبار الأمراء فضلا عن رؤساء أساقفة مينز وكولونيا، مما جعل عملية الانتخاب هذه مصدر خلافات وحزازات لا تنقطع[٢٣].

وكانت السنوات السبع التى قضاها كونراد الأول فى الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية، إذ لم يكن له مجد موروث - كما كان للكارولنجيين - يعتمد عليه فى توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا إليه على أنه واحد منهم، وازدادوا تباعدا عن السلطة المركزية، وهكذا قويت النزعة الانفصالية فى أقسام

(20) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 69.
(21) Oman: The Dark Ages, pp. 472 - 473.
(22) Fliche: L'Europe. Occidentale, p. 21.
(23) Barraclough: op. cit. 18.

ألمانيا المختلفة، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية فى ذلك العهد(٢٤)، وقد حاول كونراد الأول ـ يسانده الأساقفة ـ القبض على زمام الأمراء، ولكنه دفع الثمن غاليا، إذ أثار كره الأمراء للملكية حتى أصبح كبار الأمراء فى أواخر عهده أكثر شعورا بقوتهم وأشدّ تعصبا ضد الملكية ونفوذها(٢٥)، وهكذا يبدو أنه إذا كان كونراد الأول قد فكر فى بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة، فإنه سرعان ما اضطر إلى التخلى عن هذه الفكرة والاعتراف بأمراء سكسونيا، وسوابيا، وبافاريا على أنهم أنداد مساوون له، والواقع أنه لم يكن فى وسع كونراد أن يفعل غير ذلك أمام ازدياد شعور العصبية المحلية فى الأقاليم السابقة من جهة، وتجدد خطر الهنغاريين على ألمانيا من جهة أخرى(٢٦).

ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ السوابيون والبافاريون يقاومون جهود كونراد الأول فى توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية، إذا بالهنغاريين يوغلون فى ألمانيا حتى بلغوا الراين سنة ٩١٣، فأغاروا على مدينة كوبلنز Coblenz بل داهموا بازل وأحرقوها سنة ٩١٧، وهى أهم مدن الركن الجنوبى من المملكة الألمانية، وهكذا مات كونراد الأول دون أن ينجح فى دفع الأخطار الداخلية أو الخارجية التى هددت دولته(٢٧).

هنرى الأول (الصياد) ٩١٩ – ٩٣٦:

وكان آخر ما فعله كونراد الأول وهو على فراش الموت أن نصح من حوله بضرورة اختيار ملك قوى يخلفه إذا أرادوا إنقاذ ألمانيا، ويبدو أن التفكير فى الصالح العام تغلب حينئذ على كونراد، لأنه اعترف بضعفه وحذرهم من اختيار أحد أفراد أسرته، بل رشح لمنصب الملكية خصمه العنيد هنرى السكسونى؛ لأنه اعتقد أنه أصلح فرد يستطيع انتشال البلاد من الهوة التى تردت فيها(٢٨).

وكان أن سارت الأمور فى الاتجاه الذى أراده كونراد الأول، فاجتمع كبار الأمراء والأساقفة عقب وفاته وقر رأيهم على اختيار هنرى دوق سكسونيا ملكا على ألمانيا سنة

---

(24) Oman: The Dark Ages, pp. 475 - 476.

(25) Thompson: op. cit. Vo;1, pp. 371 - 372.

(26) Stephenson: Med. Hist. p. 229.

(27) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 33 - 34.

(28) Oman: The Dark Ages, p. 477.

٩١٩، ويقال أن إختيار هنرى لمنصب الملكية تمّ أثناء انشغاله برياضة الصيد، ومن ثم لقب فى التاريخ بالصياد (Fowler)[٢٩]، والواقع أن انتقال الملكية إلى البيت السكسونى أمر له دلالته العظمى، حتى أنه يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الأمة الألمانية، حقيقة أن قيام دولة ألمانية مستقلة صار حقيقة تاريخية واقعة منذ عهد لويس الألمانى وأرنولف ، ولكن السيادة ظلت لعنصر الفرنجة فى ألمانيا حتى وفاة كونراد الأول، مما جعل ألمانيا تبدو فى صورة الجزء الشرقى من دولة الفرنجة أكثر منها دولة ألمانية مستقلة، ولكن بانتقال الحكم إلى دوق سكسونيا أخذت الملكية تبدو فى طابع ألمانى بحت، ولا سيما وأن السكسون كانوا أقل العناصر التى تألفت منها ألمانيا تأثرا بتقاليد الكارولنجيين وأكثرها تمسكا بتراثها الجرمانى القديم[٣٠].

والمعروف أن الفضل يرجع إلى هنرى الأول فى وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد والده وخليفته أوتو[٣١]، على أنه يبدو لنا فى أول الأمر أن سلطة هنرى الصياد وهو ملك ـ عندما تولى الحكم ـ لم تتجاوز سلطته وهو دوق سكسونيا[٣٢]، فألمانيا كانت وقتئذ أقرب إلى اتحاد بين الدوقيات الكبرى ، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذى يحكم أقوى هذه الدوقيات بلقب الملكية، ومن هنا كانت مهمة هنرى الصياد هى أن يحول هذه السيادة الاسمية إلى سلطة فعلية، ولذلك رفض ـ من أول الأمر ـ أن يتوج بيد رئيس أساقفة ميتز حتى لايظهر بمظهر التبعية للكنيسة، كما عمل على تقوية الروابط بين الدوقيات الألمانية[٣٣]، أما موقف هنرى الأول من كبار الدوقات، فقد طلب إليهم إعلان ولائهم له وتقديم فروض التبعية بوصفهم أفصاله الإقطاعيين، كذلك أصرّ هنرى على الحد من نفوذ هؤلاء الدوقات عن طريق حرمانهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكام المحليين، وجعل هؤلاء الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة، أما الأساقفة ومقدمو

---

(٢٩) ومن الثابت أن هذا اللقب لم يطلق عليه لأول مرة فى التاريخ إلا قرب منتصف القرن الثانى عشر ، انظر: (Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179)

(30) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 13 - 14.

(31) Bryce: op. cit. p. 117.

(32) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179.

(33) Thompson: op. cit. Vo;1, pp. 373 - 374.

الأديرة فقد أعاد إليهم أراضيهم التى اغتصبت منهم خلال حكم لويس الطفل، وجعلهم يتمتعون فى هذه الأراضى بالسلطة التى تمتع بها الكونتات وبذلك أصبحوا يتبعون التاج تبعية مباشرة[٣٤].

ومن الواضح أن هنرى الأول اعتمد فى تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية على قوته الحربية التى استمدها من سكسونيا كبرى الدوقيات الألمانية التى عرف أهلها بالشجاعة وقوة الشكيمة، على أنه كان من العسير أن يتمكن هنرى من تنفيذ جميع أركان هذه السياسة قبل أن يؤمن بلاده ضد الأخطار الخارجية التى سببت له ولأسلافه كثيرا من الكوارث فى السنوات الأخيرة، ذلك أن سكسونيا قاست كثيرا من غزوات الدانيين والونديين[٣٥]، فضلا عن المجريين الذين أخذوا يوجهون حرابهم سنة ٩٢٤ نحو سكسونيا بعد أن لمسوا قوة معارضه البافاريين، وهكذا تلقت سكسونيا الضربة وحدها فى تلك المرة، دون أن يلقى هنرى الصياد أية مساعدة من سوابيا أو بافاريا ، الأمر الذى جعله يقبل الصلح مع الهنغاريين على أساس أن يدفع لهم جزية سنوية. وبذلك استطاع هنرى أن يجنب بلاده خطرهم لمدة تسع سنوات استغلها فى القيام بعدة إصلاحات حربية، وكان أهم هذه الإصلاحات إنشاء مراكز محصنة Burgwarde فى ثورنجيا وشرق سكسونيا؛ وهى المراكز التى تحولت بسرعة إلى مجمعات تجارية نشيطة تعيش داخل أسوار محصنة وتقوم بحمايتها حاميات من السكسون[٣٦].

ولم يلبث أن انتهى أجل الهدنة مع الهنغاريين سنة ٩٣٣، وعندئذ فضل هنرى القتال على الاستمرار فى دفع الجزية، فأنزل هنرى الأول بالمجريين هزيمة قرب مرسبرج (مارس٩٣٣) وبعد ذلك حارب هنرى الأول الدانيين سنة ٩٣٤، وانتزع منهم منطقة قرب نهر الأيدر جعلها مستوطنة للمستوطنين الألمان، وبذلك ضمن لألمانيا السيطرة على مصب نهر الألب[٣٧]، وهكذا بدأ هنرى الأول حركة توسع الألمان شرقا، كما حال دون تصدع المملكة وانفصال أجزائها الكبرى الأمر الذى ثبت أقدام

---

(34) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 165.

(٣٥) قبائل سلافية انتشرت بين البحر البلطى والكربات.

(36) Thompson: op. cit. Vo;1, p. 375.

(37) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 185.

الأسرة السكسونية فى الحكم وحقق للملكية الألمانية ما كان ينقصها من مجد وهيبة(٣٨).

أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣):

أوصى هنرى الأول قبل وفاته فى يولية سنة ٩٣٦ باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده، وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه وهو فى العشرين من عمره، وتمّ تتويجه فى آخن.

ويعتبر أوتو الأول أو العظيم مؤسس الإمبراطورية المقدسة بالمعنى الذى يعبر عنه اسم هذه الإمبراطورية والذى يشير إلى ارتباط إيطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما جميعا(٣٩)، حقيقة أن تلك الإمبراطورية الألمانية تعتبر من الناحية العملية امتدادا لإمبراطورية شارلمان، كما أنها اعتمدت على الآراء التى قامت عليها إمبراطورية شارلمان سنة ٨٠٠ ولكن القرن ونصف القرن اللذين انقضيا منذ تتويج شارلمان صحبهما تغيير كثير من الأوضاع فى غرب أوربا وخاصة بالنسبة لمركز الإمبراطورية، وسلطانها، وعلاقتها بالكنيسة، وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر إلى أوتو فى التاريخ لا على أنه خليفة شارلمان بعد فترة طويلة من الشغور، وإنما على أنه المؤسس الثانى للإمبراطورية فى الغرب(٤٠).

وكان أوتو الأول يعتقد فى سمو مركزه، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية، ولذلك أخذ ينشر نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا، كما حرص على تعيين أقاربه فى مناصب الدوقيات الشاغرة، وقد أدت سياسة أوتو إلى كثير من الثورات

(38) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 38 - 39.

(٣٩) المعروف أن اللقب الأساسى لهذه الإمبراطورية هو «الرومانية» فقط، أما صفة «المقدسة» فقد ظهرت لأول مرة على عهد الإمبراطور فردريك الأول حوالى سنة ١١٥٧ عندما استعمله الإمبراطور فى نداء وجهه إلى زعماء الإمبراطورية طالبا مساعدته ضد المدن اللمباردية، وبعد ذلك أكثر هنرى الرابع ثم فردريك الثانى من استعمال لقب «المقدسة» فى وصف الإمبراطورية حتى غدا شائعا، على أن استعمال هذا اللقب فى وصف الإمبراطورية لايعني أى تغيير فى وضعها السياسى؛ لأن هذه الإمبراطورية بمعناها العالمى الواسع وضع أساسها شارلمان، وبمعناها الضيق ـ أى فى حدود ألمانيا وإيطاليا ـ يرجع تأسيسها إلى أوتو العظيم. (انظر:
(Bryce: op. cit. pp. 196 - 197)

(40) Byrce: op. cit. pp. 79 - 80.

والحروب الأهلية، الأمر الذى جعله يتجه نحو الكنيسة ليتخذ من رجالها سلاحا يشهره فى وجه الدوقات وكبار الأمراء، ذلك أن أوتو الأول أدرك أنه فى حاجة إلى أنصار لايعتمدون على العصبية العنصرية ولايحرصون على مصالحهم الوراثية، ولم يجد ضالته إلا فى رجال الكنيسة، فرأى فى قوة الأساقفة إضعافا للنبلاء وللعصبية العنصرية التى هددت الوحدة الألمانية(٤١)، وهكذا صار لزاما على الأساقفة ومقدمى الأديرة أن يرسلوا الفصائل اللازمة للجيش الملكى كلما طلب إليهم ذلك، كما ضاعف أوتو من نفوذهم فى مناطقهم ـ وفى المناطق القريبة ـ على حساب الدوقات، وبذلك ضمن أوتو الأول فى حالة ثورة أحد الدوقات ضده ـ وجود أنصار أقوياء للملكية من رجال الكنيسة داخل أراضى الدوق(٤٢).

وقد لجأ أوتو الأول بحكم اتجاهه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها إلى التوسع فى منح الأساقفة ومقدمى الأديرة الإقطاعات الكبيرة، كما نصب نفسه حاميا للكنيسة وأملاكها، وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين فى ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان، كما أخذوا يباشرون سلطات واسعة فى النواحى القضائية، والمالية، والإدارية، على أنه يلاحظ أن الكنيسة دفعت الثمن غاليا؛ لأن تحول الأساقفة إلى أمراء إقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة، جعلهم خاضعين للملك خضوعا مباشراً كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده، وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم فى تعيين الأساقفة وعزلهم، ممّا أضر ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر(٤٣).

ويبدو أن تدخل أوتو الأول فى شئون الكنيسة ومحاولته العمل دائما على إخضاعها لسيطرته المطلقة، لم يتم دون معارضة ، إذ لجأ بعض كبار الأساقفة وعلى رأسهم وليم بن أوتو نفسه ـ إلى عرض الأمر على البابا، وعلى الرغم من أن البابوية كانت فى شغل عندئذ عن ألمانيا وكنيستها، إلا أن هذا الإجراء جعل أوتو يشعر بأن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وأنما ترتبط بالبابوية فى روما وتخضع لهيمنتها، ويتبع ذلك أنه إذا أراد أوتو أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة

(41) Tout: The Empire and thr Papacy, pp. 18 - 21.

(42) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 166.

(43) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 139 - 142.

على ألمانيا، فإنه يجب أن يبدأ بإخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه إلى جانبه، وطالما كان البابا خارجا عن قبضة أوتو الأول، فإن أحلام الأخير في السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون، وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو، وهى التدخل فى شئون إيطاليا للسيطرة على البابوية[٤٤].

ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت لأوتو الأول فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض، وذلك عندما توفى لوثر ملك إيطاليا وفرت أرملته إلى ملك ألمانيا طالبة مساعدته ضد برنجار الثانى ملك إيطاليا الجديد؛ لذلك أسرع أوتو الأول إلى غزو لمبارديا سنة ٩٥١ حتى تزوج من الأرملة الحسناء، وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له[٤٥]، وجاء هذا التوفيق الذى صادفه أوتو فى إيطاليا بمثابة نصر ثالث له بعد أن أجبر ملك آرل Arles على الاعتراف له بالتبعية سنة ٩٤٦، وبعد أن هزم التشك فى بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا. وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون غربا وإيطاليا جنوبا[٤٦]، على أن الثورة لم تلبث أن تجددت فى إيطاليا سنة ٩٥٣؛ بسبب كراهية الإيطاليين لسيطرة حكام ألمانيا، وعندئذ لم يستطع أوتو الذهاب لإخمادها بسبب كثرة مشاكله الداخلية والخارجية.

ذلك أن ابنه ليولف ثار ضده فى سوابيا وثار كونراد فى اللورين الأعلى كما ثار فردريك رئيس أساقفة مينز، ومهما يكن من أمر، فإن أوتو لم يتعب كثيرا فى القضاء على هؤلاء الثائرين؛ بسبب كثرة منافسيهم[٤٧]، وعندما توفى رئيس أساقفة مينز، عين أوتو ابنه وليم بدلاً منه فى كرسيه، كذلك قسم أوتو اللورين إلى قسمين، فجعل الجزء الأعلى من اللورين لأخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا فى حين نشأت تدريجيا فى الجزء الأدنى كونتيه هينو Hainaut، وبرابانت Brabant ، وهكذا غلب الطابع الإقطاعى على الكنيسة حتى صار من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقا[٤٨].

---

(44) Tout: The Empire and thr Papacy, pp. 26 - 27.

(45) Bryce: op. cit. p. 83.

(46) Stephenson: Med. Hist. p. 280.

(47) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 196 - 197.

(48) Thompson: op. cit. Vo;1, p. 381.

وفى خلال هذه الاضطرابات غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدا فى بافاريا حتى أوجسبرج، ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة ليخفيلد Lechfeld قرب أوجسبرج سنة ٩٥٥، مما جعلهم لايجرءون على غزو ألمانيا مرة أخرى، وقد ترتب على هذه الهزيمة أن أوتو مدّ نفوذه شرقا على حساب الهنغاريين وأقام فى تلك الأراضى الجديدة ماركية أوستريا (النمسا)[٤٩]، ولكى يضمن أوتو العرش من بعده لابنه الصغير البالغ من العمر سبع سنوات فإنه توجه معه شريكا فى الحكم سنة ٩٦١، وجعله تحت رعاية أخويه أسقفى كولونيا وميتز.

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من جهود أوتو الأول فى دعم نفوذه الملكى والربط بين أجزاء ألمانيا تحت سلطانه، إلا أنه ارتكب خطأ كبيرا فى حق وحدة الدولة الألمانية عندما قسم سكسونيا فجعل وستفاليا وحدها للتاج وأعطى بقية سكسونيا (استفاليا) لهرمان بيلونج Hermann Billung بعد أن منحه لقب دوق[٥٠]، وسرعان ما أصبح دوقات سكسونيا من سلالة بيلونج خطرا عظيما هدد وحدة ألمانيا فى القرن التالى[٥١].

وهكذا لم تكد تنتهى سنة ٩٦١ إلا كان أوتو الأول قد فرغ من معظم المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهته، وعاد من جديد يفكر فى مشروعه الإمبراطورى الضخم، ويقال إن الرغبة فى إحياء الإمبراطورية عندئذ لم تكن وليدة تفكير أوتو وحده، بل شاركه فى هذه الرغبة كثير من المعاصرين الذين رأوا فى هذا الإحياء منفذاً للخلاص من الفوضى والأخطار التى تعرضت لها أوربا حينئذ، لاسيما وأن لفظ الإمبراطورية ارتبط دائما فى أوربا العصور الوسطى بالاستقرار والأمن والنظام[٥٢].

وكانت هذه الفوضى التى شكت منها أوربا فى القرن العاشر أظهر ما تكون فى إيطاليا، حيث تعاقب على كرسى البابوية سلسلة من البابوات الضعاف غير الكفاة، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشينة دبرها نبلاء روما العابثون، حتى

---

(49) Orton: op. cit. p. 162.

(50) Barraclough: op. cit. p. 29.

(51) Thompson: op. cit. Vo;1, pp. 378 - 379.

(52) Bryce: op. cit. pp. 83 - 84.

تولى أحد هؤلاء النبلاء منصب البابوية سنة ٩٥٥ تحت اسم البابا حنا الثانى عشر(٥٣)، على أن هذا البابا الجديد الذى جمع فى شخصه بين السيادتين الدينية والدنيوية فى روما، سرعان ما وجد فى الملك برنجار الثانى عقبة كؤودا اعترضت سبيل البابوية وحالت دون اتساع نفوذها، ومن ثم استنجد حنا الثانى عشر بأوتو الأول عدة مرات بين سنتى ٩٥٧، ٩٦١(٥٤)، وقد سبق أن أشرنا إلى المشاكل العديدة التى أحاطت بأتو الأول فى تلك الفترة والتى حالت دون تلبية نداء البابوية على وجه السرعة، وأخيرا عبر أوتو جبال الألب إلى إيطاليا ودخل روما فى سنة ٩٦٢ حيث توجه البابا حنا الثانى عشر إمبراطورا فى فبراير من العام نفسه، وفى المكان ذاته الذى توج فيه شارلمان إمبراطورا من قبل.

ومن الواضح أن تتويج أوتو الأول إمبراطورا بيد البابا، واستمرار تدخل الملوك الألمان فى شئون إيطاليا إنما يعنى مواصلة هؤلاء الملوك جهودهم فى سبيل بسط سيطرتهم على جانبى الألب، ويبدو أن أوتو نفسه كان مصمما على فرض إرادته على البابوية كما فعل شارلمان من قبل، كما أن البابا نفسه لم يمانع فى هذا الاتجاه ما دام أوتو يقوم بحمايته ضد خصومه(٥٥)، على أن الشرط الذى ضايق البابوية وأفزعها هو أن أوتو أصرّ على أن يقسم البابا قبل ترسيمه يمين الولاء للإمبراطورية مما جعل حنا الثانى عشر يدس لأوتو عند الإمبراطور البيزنطى بل عند الهنغاريين والمسلمين فضلا عن برنجار نفسه(٥٦)؛ لذلك أسرع بالعودة إلى روما ففر البابا منها، وعندئذ دعا الإمبراطور مجمعا كبيرا من الأساقفة، والكرادلة، ودوقات ألمانيا، وقرر هذا المجمع سنة ٩٦٣ عزل البابا حنا الثانى عشر من منصب البابوية، وحرمان أهل روما من المشاركة فى انتخاب البابا فى المستقبل، وتعيين موظف إمبراطورى فى حكم المدينة، أمّا المنصب البابوى فقد عين فيه أحد القساوسة تحت اسم البابا ليو الثامن(٥٧)، وقد ثار

---

(53) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 161.

(54) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 31.

(55) Thompson: op. cit. Vo. 1, p. 382.

(56) Ullmann: The Growth of the Papal Government, p. 230.

(57) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 282.

أهل روما مرتين (٩٦٤، ٩٦٥) ضدّ هذا الوضع الشائن الذى انحدروا إليه، حتى طردوا ليو الثامن من روما، ولكن أوتو العظيم عاد إليهم وأخضعهم مرة بعد أخرى، وهنا يصح أن نكرر أن تدخل أوتو العظيم فى شئون الكنيسة والبابوية جاء وليد الموقف السياسى ورغبته فى السيطرة على شئون ألمانيا بوجه خاص، لا وليد الرغبة فى إكساب دولته طابعا ثيوقراطيا[٥٨]، ومهما يكن من أمر، فإن أوتو الأول قضى عدة سنوات بعد ذلك فى جنوب إيطاليا محاولا بسط سيطرته على هذا الجزء ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب معارضة الدولة البيزنطية، وعدم اعتراف إمبراطورها نقفور فوقاس به[٥٩].

وإذا كان أوتو العظيم قد نجح فى إحياء الإمبراطورية فى الغرب، فإن إمبراطوريته اختلفت اختلافا واضحا عن إمبراطورية شارلمان فالإمبراطورية التى أقامها أوتو جاءت وليدة رغبته فى استغلال التقاليد الإمبراطورية؛ لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية هذا إلى أن الإمبراطورية كانت فى نظر أوتو مسألة ألمانية بحتة، فلم يكن يعنيه من أمر إيطاليا إلا تنفيذ سياسته الداخلية فى ألمانيا نفسها. وهكذا استغل أوتو الأول الكنيسة والبابوية واللقب الإمبراطورى إلى أبعد مدى، فى تنفيذ مشروعاته الألمانية؛ لأنه أدرك جيدا أن ألمانيا هى منبع قوته الحقيقية؛ لذلك نستطيع أن نقرر أن إمبراطورية أوتو لم تحظ مطلقا بذلك الطابع العالمى الذى امتازت به إمبراطورية شارلمان ، فضلا عن أن هذه الإمبراطورية المقدسة التى أقامها أوتو كانت لايمكن أن تمثل تراث الماضى، كما كان الحال مع إمبراطورية شارلمان[٦٠].

وإذا كان المؤرخون المحدثون ـ وخاصة الألمان ـ قد وجهوا اللوم إلى أوتو العظيم؛ لأنه جرى وراء الخيال ، وبذل من الجهد فى سبيل الحصول على الإمبراطورية وعلى إيطاليا ما كانت ألمانيا نفسها أحق به، إلا أنه من الواضح أن هذا النقد غير عادل؛ لأن أوتو لم يجر وراء إيطاليا والبابوية والإمبراطورية، إلا لتحقيق أهداف بعيدة ترمى إلى السيطرة على ألمانيا ذاتها [٦١]، فأوتو الأول نظر إلى تتويجه فى روما بعين الاهتمام

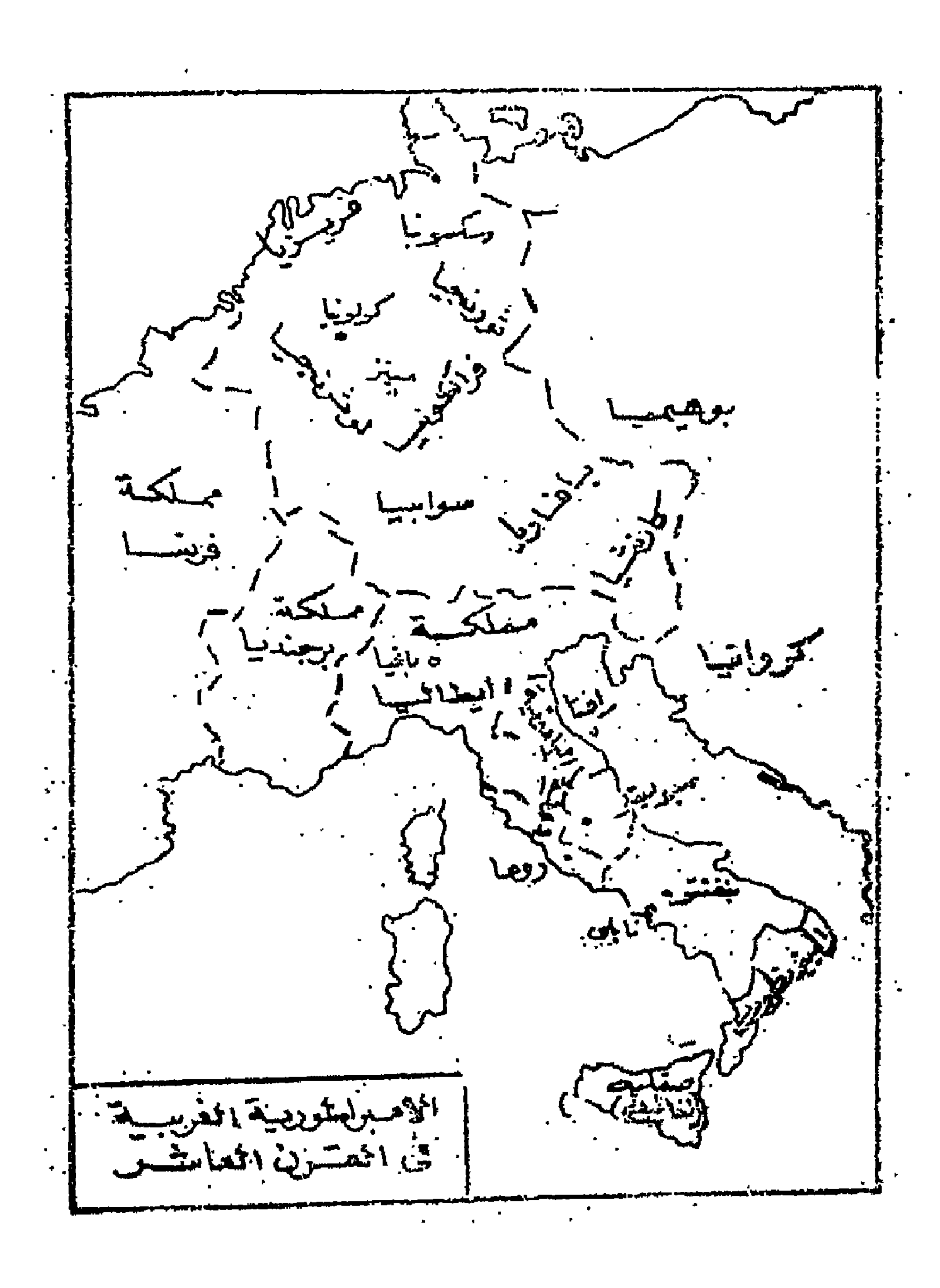
---

(58) Barraclaugh: op. cit. p. 55.

(59) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, p. 469.

(60) Eyre: op. cit. p. 117.

(61) Barraclaugh: op. cit. p. 54.


سكسونيا
بوهيميا
مملكة
فرنسا
سوابيا
بافاريا
مملكة
برجنديا
مملكة
ايطاليا
بافيا
كرواتيا
روما
نابلي
الامبراطورية الغربية
في القرن العاشر

لالشيء سوى أن هذا التتويج سيمكنه من إتمام سيطرته على الكنيسة الألمانية بمساعدة البابا ثمّ من إتمام سيطرة الملكية على مختلف أنحاء ألمانيا(٦٢).

ولعل خير شاهد على صحة هذه النظرة أعمال أوتو الأول بعد تتويجه إمبراطورا، إذ عكف فى همة ونشاط على إصلاح الكنيسة الألمانية وإخضاعها لإشرافه كما أنشأ فى مجد برج Magdeburg أسقفية كبرى تشرف على المناطق السلافية شرقى الإمبراطورية(٦٣).

وبعد، فإننا فى ختام كلامنا عن الإمبراطور أوتو العظيم ينبغى أن نشير إلى أن عهده شهد نهضة فكرية كبرى، وأن الإحياء الدينى فى ذلك العصر جاء مصحوبا بإحياء ثقافى، حتى غدا القصر الملكى فى ألمانيا ـ كما كان أيام الكارولنجيين ـ مركزا للنشاط الفكرى، وقد تزعم تلك النهضة ـ التى تعرف فى التاريخ باسم النهضة الأوتية أو السكسونية ـ برونو Bruno الأخ الأصغر للإمبراطور أوتو ، كما ظهر من الأدباء كثيرون كتبوا فى مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية، أما الإمبراطور أوتو نفسه فقد أسهم فى تلك النهضة على الرغم من مشاغله الكثيرة، كما تعلم قراءة اللاتينية وتفهمها وإن صعب عليه الحديث بها(٦٤).

وأخيرا توفى أوتو الأول فجأة فى ربيع سنة ٩٧٣ بعد أن وضع أساس تطور جديد فى تاريخ الغرب استمر ما يقرب من ثلاثة قرون، كما جعل من ألمانيا دولة قوية مستقرة وسط مظاهر الفوضى التى سادت غرب أوربا فى ذلك العصر، بل إنه حقق لنفسه مكانة الزعامة فى أوربا المعاصرة.

أوتو الثانى (٩٧٣ - ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ - ٩٧٦) عرض على معاصره الإمبراطور أوتو الأول تصفية الموقف بين

---

(62) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 32.

(63) Stephenson: Med. Hist. p. 281.

(64) Tout: The Empire and thr Papacy, pp. 24 - 25.

الإمبراطوريتين الشرقية والغربية ـ وخاصة فى إيطاليا ـ عن طريق زواج أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو Theophano ابنة رومانوس الثانى إمبراطور الدولة البيزنطية الأسبق على أن يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا[٦٥]، وكان أن رحب أوتو الأول بهذه الفرصة فتمّ زواج ولى عهده أوتو من عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين إيطاليا وألمانيا فى ظل الإمبراطورية المقدسة، وإن لم يتضح أثر هذا العامل إلا فى عهد أوتو الثانى[٦٦].

وقد اختلف أوتو الثانى الذى اعتلى عرش الإمبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافا كبيرا فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول، فبينما التزم الأب سياسة ألمانية حتى أنه فى إحياء الإمبراطورية كان يرمى إلى خدمة المصلحة الألمانية ، إذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقا امتدت إلى خارج حدود ألمانيا بكثير. فأوتو الثانى نظر إلى إيطاليا والإمبراطورية نظرة اختلفت إلى حد كبير عن أبيه؛ لأن إيطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا. ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الإمبراطورية القوى، وفى الوقت نفسه آمن إيمانا قويا بفكرة الإمبراطورية العالمية وبأن سيطرة الإمبراطورية على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان وفى ذلك كانت الخطورة الكامنة على ألمانيا والأسرة السكسونية؛ لأن سياسة أوتو الثانى ـ ومن بعده أوتو الثالث ـ التى اتجهت نحو إيطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا، لم ينتج عنها إلا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الإمبراطورية الرومانية بوجه عام[٦٧].

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفوذ بعض الدوقيات الأمر الذى جاء مصحوبا بنزعة انفصالية، على الرغم من جهود أوتو الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط الإمبراطورية الوثيق، وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا تحت حكم الأميرة جوديت Judith أرملة

---

(65) Vasiliev: op. cit. Tom 1, pp. 433 - 434.

(66) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 201 - 202.

(67) Eyre, op. cit. p. 118.

هنرى الأول دوق بافاريا، بصفتها وصية على ابنها الصغير هنرى الثانى(٦٨)، وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديت إلى سوابيا عن طريق ابنتها هدويج Hedwig زوجة دوق سوابيا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل، وهكذا رأى أوتو الثانى خطرا جسيما فى ارتباط بافاريا وسوابيا مما أنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا، حتى دفعه الخوف إلى تعيين ابن أخيه دوقا على سوابيا عند وفاة دوقها العجوز، وكان أن ثارت بافاريا (٩٧٦ - ٩٧٨) واستنجدت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا، ولكن أوتو الثانى نجح فى إخماد هذه الثورة، كما استغل الفرصة لإضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشرقيةوالشمالية عنها(٦٩)، وهكذا انتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا، ولكن بعد أن تتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة ، والعمل على تفتيت ممتلكات كبارالأمراء من جهة أخرى(٧٠).

أمّا فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى اضطر أوتو الثانى إلى الهرب من آخن، وعندما رد أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما عجل بإقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠(٧١) على أن المسرح الرئيسى لنشاط أوتو الثانى كان إيطاليا التى ظلت عندئذ ميدانا للفوضى؛ نتيجة لأطماع الأمراء من جهة، وإغارات المسلمين من جهة أخرى، وقد حدث أن استنجدت البابوية ـ كعادتها ـ بأوتو الثانى ضد كرسكنتيوس ـ أقوى أمراء روما، فعبر أوتو جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد البابا بندكت السابع (٩٧٤ - ٩٨٣) إلى روما، وكان أتو الثانى يطمع دائما فى أن يجعل سلطة الإمبراطورية العالمية ملموسة فعلا، وأن يثبت نفوذه فى إيطاليا بوجه خاص، ولذلك استغل فرصة وجوده فى إيطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة؛ لتحقيق غرضين: الأول طرد المسلمين الذين عبروا من صقلية وهددوا بنفنتو، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته ثيوفانو بعد

(68) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 204 - 205.

(69) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 37.

(61) Barraclaugh: op. cit. p. 33.

(71) Thompson: op. cit. Vo. 1, p. 385

أن عادت الدولة البيزنطية إلى المماطلة فى هذه الحقوق[٧٢]، وقد صادف أوتو الثانى توفيقا فى حربه بجنوب إيطاليا (٩٨١ - ٩٨٢) فاستولى على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو، وبارى، وتارنتو، كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون Cotrone وقتل فى المعركة أبوالقاسم أمير صقلية، على أن المسلمين لم يلبثوا أن نصبوا كمينا للقوات الإمبراطورية ومزقوها شرّ ممزق عند خليج كولون Colonne سنة ٩٨٢ ولم يستطع الإمبراطور نفسه النجاة إلا بصعوبة[٧٣].

ولاشك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الأولى من نوعها فى تاريخ الإمبراطورية الأوتية، إذ يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الإمبراطورية الغربية فى وسط إيطاليا وجنوبها، وزاد من وقع الكارثة أن الأخبار جاءت إلى الإمبراطورية بتحرك السلاف على نهر الألب وأنهم أعلنوا ارتدادهم إلى الوثنية وذبحوا كثيرا من رجال الكنيسة؛ لذلك عقد أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه؛ وهو المجمع الذى اكتسب أهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وإيطاليا فيه جنبًا إلى جنب، إشارة إلى وحدة البلدين داخل إطار الإمبراطورية، على أن لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ؛ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه واضحة، فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الإمبراطور لشن حرب دينية مقدسة ضد المسلمين ، وفعلا بدأت الاستعدادات لتنفيذ هذه الفكرة التى يمكن أن تعتبر أساسا للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى، ومهما يكن من أمر فإن أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أوالسلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس بروما[٧٤].

أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) :

عندما توفى أوتو الثانى كان ابنه الصغير أوتو الثالث فى الرابعة من عمره ولذلك استغلت جميع القوى المعارضة للإمبراطورية هذا الوضع لتحقيق أغراضها الثورية، فعاد هنرى دوق بافاريا إلى التمرد ، بل إنه نازع الإمبراطورة الوالدة ثيوفانو حق

(72) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 38.
(73) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 169 - 170.
(74) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 211 - 213.

الوصاية على ولدها الصغير، حتى بلغ به الأمر أن طالب بالتاج لنفسه(٧٥)، وهنا نجد زمام الموقف ينتقل إلى أيدى رجال الدين والأساقفة، الذين صار فى استطاعتهم ترجيح كفة على أخرى بعد أن جعل منهم أوتو الأول قوة سياسية لها حسابها فى الدولة ، وبفضل تأييد رجال الدين انتصرت ثيوفانو وولدها أتو الثالث، واضطر هنرى إلى التزام سياسة المسالمة فى دوقيته بافاريا، وعندما توفيت ثيوفانو سنة ٩٩١ تألف مجلس وصاية على أوتو الثالث، تزعمه بعض كبار الأساقفة الذين تعهدوا للملك الصغير بالرعاية الكافية والتعليم الراقى كما بثوا فيه روح الحماسة للكنيسة(٧٦)، وهكذا نشأ أوتو الثالث نشأة قوية تغلب عليها التقوى والإيمان حتى جاوز الخامسة عشر من عمره فذهب إلى إيطاليا سنة ٩٩٥، وهناك فى إيطاليا وجد أوتو الثالث منصب البابوية شاغرا فعين برونو فى منصب البابوية تحت اسم جريجورى الخامس، وهو أول ألمانى يتولى هذا المنصب(٧٧)، ولم يلبث ذلك البابا الجديد أن توج أوتو الثالث إمبراطورا فى روما (مايو سنة ٩٩٦)، وأخذ يعمل مع الإمبراطور على تنفيذ آرائهما الخاصة بمدينة الأرض ممثلة فى الإمبراطورية يتزعمها الإمبراطور والبابا؛ لنشر السلام وإقرار العدالة، ثمّ عاد الإمبراطور بعد تتويجه إلى ألمانيا، فحارب السلاف الذين ثاروا أثناء غيبته وطردوا أدالبرت من أسقفيته فى براغ وأعلنوا ارتدادهم إلى الوثنية(٧٨).

وفى ذلك الوقت ثار حنا كرسكنتيوس فى روما، فعاد الإمبراطور إلى إيطاليا ليخضع حركته ويعدمه سنة ٩٩٨، وكذلك توفى البابا جريجورى الخامس فعين الامبراطور بدلا منه معلمه جربرت الذى تسمى باسم البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ – ١٠٠٣)، فاستأنف سياسة التحالف مع الإمبراطورية؛ لتحقيق أغراضهما المشتركة، ويبدو من آراء أوتو الثالث فى تلك الفترة أنه أراد أن يجعل من نفسه ملكا مقدسا (rex-sacerdos) بمعنى السيطرة على الشئون الدينية والسياسية جميعا، كم أراد أن يجعل من روما قاعدة الحكم، وحاضرة العالم، وعاصمة المملكة (Urbs regia) بعد أن أصبحت

---

(75) Cam Med. Hist. Vol. 3, pp. 209 - 210.

(76) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 41.

(77) Barraclaugh: op. cit. p. 59.

(78) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 223 - 224.

كنيستها أم الكنائس الغربية جميعا[٧٩]، وهكذا انصرف أوتو الثالث عن شئون ألمانيا وحاول أن يجعل من نفسه قسطنطيناً آخر، مما عاد بأوخم العواقب على سلطة الإمبراطورية [٨٠]، ذلك أن البابوية أخذت تنهض بفضل الأباطرة ومساندتهم لتنشل نفسها من حالة الضعف والفوضى التى غرقت فيها فى القرن العاشر وتصل إلى المستوى الذى صارت عليه فى عهد جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥)، وبعبارة أخرى فإن الأباطرة أخذوا يدعمون البابوية، غير مدركين أنهم يبنون لحد الإمبراطورية بأيديهم[٨١]، هذا إلى أن ما حاوله البابا سلفستر الثانى من بث نفوذه فى بولندا وهنغاريا أغضب الشعور القومى فى هذين البلدين، فضلاً عن استياء أساقفة ألمانيا نفسها من سياسية هذا البابا، وسيطرته عليهم، أمّا إيطاليا - وخاصة روما نفسها - فقد ظلت تسبب المضايقات للبابا سلفستر حتى انتهى الأمر بقيام الثورة فيها ضد الإمبراطور والبابا جميعا، فى وقت لم يجد الإمبراطور حوله نصيرا يسانده - حتى فى ألمانيا نفسها، وفى ذلك الموقف توفى الإمبراطور أوتو الثالث قرب روما سنة ١٠٠٢، ثم لحق به البابا سلفستر الثانى فى العام التالى[٨٢].

وصفوة القول إن أوتو الثالث كان رجلا نظريا، قضى حكمه غارقا فى أحلام الماضى، بعيدا عن الواقع والحقائق التى أحاطت به، فأقام معظم أيامه فى إيطاليا الأمر الذى أضرّ بهيبته فى ألمانيا أبلغ الضرر، حتى فقد مكانته فيها عند وفاته[٨٣].

هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤):

توفى أوتو الثالث دون أن يترك ولدا يرثه فى العرش فانتقل الحكم من السلالة المباشرة لأوتو العظيم إلى فرع آخر من البيت السكسونى نفسه، وذلك عندما تولى العرش هنرى الثانى دوق بافاريا، وإذا كان حسن الظروف شاء أن يتم هذا التحول فى وراثة العرش بطريقة سلمية إلا أن أول ما يلاحظ على الملك الجديد أنه لم يحظ

---

(79) Ullmann: The Growth of the Papal Government, pp. 240 - 241.

(80) Eyre: op. cit. p. 118.

(81) Bryce: op. cit. p. 143.

(82) Fliche: L'Europe. Occidentale, p. 231.

(83) Eyre: op. cit. p. 118.

بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم؛ ذلك أنه أحسَّ بعدم توليه الملك عن طريق الوراثة عن آبائه ـ وإن كان هو أقرب الأفراد إلى أوتو الثالث الراحل بحكم كونه حفيد ابنة أوتو الأول(٨٤) ـ كما أحس بأن الفضل في اختياره يرجع إلى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين، ومن ثمّ لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل، واختار أن يحكم عن طريق المجامع والمجالس الاستشارية.

وقد تمتع هنرى الثانى بسلطان واسع فوق الكنيسة، فأحبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير، وفى الوقت نفسه استغل الأساقفة ومقدمى الأديرة كأداة له فى تنفيذ سياسته الدنيوية حتى صاروا ممثلين للسلطة الإمبراطورية فى مناطق نفوذهم، أما رهبان الأديرة الكلونية فقد حظوا بقدر كبير من عطفه وتشجيعه حتى أن الفضل يرجع إليه فيما أحرزه هؤلاء المصلحون من مركز قوى فى ألمانيا(٨٥).

وقد أتى الخطر الأكبر الذى هدد الدولة الألمانية ـ عندما اعتلى هنرى الثانى العرش ـ من ناحية السلاف، وخاصة بولندا التى أخذ حاكمها بولسلاف Boleslav يعمل على توحيد الشعوب السلافية تحت سيطرته؛ ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان إلى ما وراء نهر الألب(٨٦)، وكان أن بدأ بولسلاف فى تنفيذ مشروعه فغزا بوهيميا سنة ١٠٠٣، وعندئذ حاول هنرى الثانى تصفية الموقف سلميًا مع السلاف، ولكن دون جدوى، فقام بحرب طويلة متقطعة ضدهم بدأت بمهاجمة بوهيميا سنة ١٠٠٤ وانتهت بالصلح الأخير معهم سنة ١٠١٨(٨٧)، وهكذا استنفدت حروب هنرى الثانى ضد السلاف بوجه عام والبولنديين بوجه خاص قدرا كبيرا من حكمه وجهده دون أن تؤدى فى النهاية إلى نتيجة مشرفة بالنسبة له، حتى اضطر أخيرا إلى التسليم بمطالب البولنديين الإقليمية وأهمها ماركية لوزاس (Lusace) (٨٨).

---

(84) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 234 - 239.
(85) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 48.
(86) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 222.
(87) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 234 - 239.
(88) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 49.

على أن خطر البولنديين لم يصرف هنرى الثانى عن شئون إيطاليا ، وإن كان من الواضح أن التيار الذى سار فيه أوتو الثالث لم يجرف هنرى الثانى بالقوة ذاتها فى طريقه، وأن الأخير تخلى عن كثير من مطامع الأول الواسعة واتجه اتجاها ألمانيا قوميا إلى حد كبير، ويبدو أن أحداث إيطاليا نفسها واضطراب أحوالها هى التى جذبت ملوك ألمانيا إلى التدخل فى شئونها إذا عادت البابوية بعد وفاة سلفستر الثانى لتقع تحت رحمة أمراء روما من آل كرسكنتى Crescntii فى الوقت الذى نصّب أردوين Ardoin نفسه ملكا على إيطاليا(٨٩). لذلك ذهب هنرى الثانى إلى إيطاليا سنة ١٠٠٤ ثم سنة ١٠١٣، وفى المرة الأخيرة توجه البابا بندكت الثامن إمبراطورا فى روما (فبراير سنة ١٠١٤)(٩٠)، ثم كان أن زار البابا نفسه ألمانيا سنة ١٠٢٠ لتدشين كاتدرائية بامبرج Bamberg وفى تلك الزيارة تم الاتفاق بين البابا والإمبراطور على أن يقوم الأخير بحملة شاملة على إيطاليا؛ لإقرار الأوضاع فيها، وفعلا قام الإمبراطور بحملته سنة ١٠٢١ حتى استطاع إخضاع شمال إيطاليا ووسطها، ولكن مرضا تفشى بين رجاله فى أبوليا فاضطر إلى العودة إلى ألمانيا فى العام التالى قبل أن يستقر الموقف تماما فى إيطاليا، وهكذا ظلّ الحال مضطربا فى إيطاليا؛ بسبب العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة، وبين كبار النبلاء Capitani وصغارهم Vavassors من جهة أخرى، وبين المدن بعضها وبعض، أو بينها وبين السلطات الإقطاعية من جهة ثالثة(٩١).

أمّا هنرى الثانى فقد شغل سنواته الأخيرة بمؤازرة أنصار حركة الإصلاح الكلونية، والحق أن هنرى الثانى يعتبر من كبار المصلحين الديريين، وبفضل جهوده تمّ إدخال إصلاحات كثيرة على أديرة بروم Prum، وهرسفلد Hersfeld وريخنو Reichenau وفولدا، وكوربى وغيرها، كذلك عقد كثيرا من المجامع الكنسية تحت

(٨٩) وجدت عائلتان كبيرتان تتنازعان السلطة والنفوذ فى روما عند مستهل القرن الحادى عشر، الأولى آل كرسكنتى والثانية كونتات توسكولم Tsuculum ، ويبدو أن البابوات الثلاثة الذين خلفوا سلفستر الثانى تولوا منصب البابوية بفضل تأييد الأسرة الأولى. انظر:
(Hayward: A History of the Popes, p. 142)

(90) Bryce: op. cit. p. 146.

(91) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 392.

رئاسته وتولى هو توجيهها، هذا فضلا عن أنه منح رجال الدين - وخاصة الديريين - كثيرا من الامتيازات والحقوق[٩٢]، على أنه يلاحظ أن عطف هنرى الثانى على رجال الدين الأجانب - غير الألمان - أثار ضغينة الأساقفة الألمان وحقدهم، وقد تزعم حركة المعارضة ضد الإمبراطور والبابا بندكت الثامن جميعا أريبو Aribo رئيس أساقفة مينز، ولكن شاءت الظروف أن يموت البابا بندكت الثامن سنة ١٠٢٤ ثم يلحق به هنرى الثانى فى العام نفسه، وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الإمبراطور[٩٣].

وبوفاة هنرى الثانى انتهى البيت السكسونى الذى حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان استطاع فيها أن يجنبها الفوضى الشاملة التى تردت فيها فرنسا فى القرن العاشر[٩٤]، على أنه يتضح لنا من عرضنا السابق لملوك البيت السكسونى أنهم بدأوا بتشجيع الأساقفة وتزويدهم بالنفوذ القوى كوسيلة للضغط على كبار الأمراء، ولم يكن للديريين فى أول الأمر نصيب من هذا العطف؛ لأنهم بحكم عزلتهم وانقطاعهم للعبادة كانوا لا يصلحون أداة فى أيدى الملوك يستعينون بها ضد خصومهم السياسيين، الأمر الذى جعل الديريين يحقدون على الأساقفة ويحسدونهم على ما هم فيه من قوة ونفوذ[٩٥]، ثم كان أن اعتلى عرش الإمبراطورية هنرى الثانى فأخذ يعطف على الديريين ويشجع حركة الإصلاح الكلونية، مما أغضب كبار الأساقفة وأخافهم، ذلك أنه كان من مبادئ الحركة الإصلاحية تحقيق استقلال الكنيسة عن السلطة الزمنية، وفى الوقت نفسه دعم نفوذ البابوية ونشر سلطانها الفعلى على الكنيسة الغربية فى مختلف الدول، ومع أن الأساقفة الألمان اعترفوا برئاسة روما وزعاماتها الروحية، إلا أنهم رأوا فى تحقيق هذه الآراء إضعافا لنفوذهم الدنيوى من ناحية وحرمانهم من بعض نفوذهم الدينى من ناحية أخرى، لا سيما فيما يتعلق باستئناف الأحكام التى يصدرونها أمام البابا؛ لذلك وجد الأساقفة الألمان فى الآراء الكلونية التى شجعها الديريون خطرا هددهم، ومن ثم أخذوا - عقب وفاة هنرى الثانى - يبذلون قصارى

---

(92) Ullmann: The Growth of the Papal Government, pp. 247 - 248.

(93) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 50.

(94) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 258.

(95) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 393.

جهدهم حتى لا يلى عرش الإمبراطورية رجل يشايع الديرية وآراءها الإصلاحية[٩٦]، وهكذا اتخذت مسألة اختيار خليفة لهنرى الثانى شكل نضال بين الأساقفة من جهة، والديريين من جهة أخرى، حتى انتصر الفريق الأول واختير كونراد دوق سوابيا.

كونراد الثانى (١٠٢٤ - ١٠٣٩):

انتخب كونراد الثانى دوق سوابيا ملكا على الرغم من معارضة أهالى اللورين حيث كانت الآراء الكلونية قد أحرزت تقدما كبيراً ، وبانتخابه بدأت سلسلة الأباطرة الساليين، وكان الفارق عظيما بين هنرى الثانى وخليفته كونراد الثانى، إذ كان الأخير جنديا ومحاربا قبل أى اعتبار آخر ، فرأى لذته الكبرى فى حياة المعسكرات لا فى المناقشات حول المسائل الدينية؛ لأن الحرب كانت فى نظره الوسيلة الوحيدة التى تضمن نفوذه الإمبراطورى[٩٧].

والواقع أن كونراد الثانى توج ملكا فى مينز سنة ١٠٢٤ ليجد كل شيء مختلا فى الدولة، ولكن لم يمض على قيامه فى الحكم عامان حتى بث فى دولته روحا جديدة وأصلح كثيرا من مواطن الضعف والخلل فيها. وأتت أول صعوبة واجهت كونراد الثانى من اللورين، التى لم يكتف أمراؤها بمعارضة اختيار كونراد فحسب بل رفضوا الاعتراف به بعد تتويجه ملكا، ولكن كونراد الثانى قضى على هذه الفتنة وغيرها من القلاقل الداخلية وأعاد الاستقرار إلى ألمانيا تحت سيادته[٩٨]، أما إيطاليا التى بلغت السلطة الإمبراطورية فيها درجة متناهية من الضعف فى أواخر عهد هنرى الثانى، فقد بقيت خارج نفوذ كونراد من الوجهة العملية، ولم ينقذ ما تبقى له من نفوذ سوى موقف الأساقفة اللمبارديين الذين رأوا فى الإمبراطور خير درع يقيهم سيطرة الأمراء المحليين؛ لذلك عبر كونراد الثانى جبال الألب سنة ١٠٢٦ حيث قضى فى شمال إيطاليا عاما كاملا ثبت فيه فوزه وأخضع خصومه، ثم قصد روما بعد ذلك فى ربيع سنة ١٠٢٧ حيث توج إمبراطورا بيد البابا حنا التاسع عشر، وهكذا يبدو أن الطابع الألمانى الضيق الذى امتازت به سياسة كونراد لم يحل دون قيامه بالزيارة التقليدية

---

(96) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 51.

(97) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 246- 247.

(98) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 254.

التى اعتاد الأباطرة أن يقوموا بها لإيطاليا، حتى قيل إن كونراد الثانى لم يصبح إمبراطورا «رومانيا» إلا بعد أن توجه البابا فى روما [٩٩]، وبعد أن قام كونراد الثانى بزيارة جنوب إيطاليا؛ لتقوية وسائل الدفاع عنها ضد البيزنطيين فى كالبريا، عاد إلى ألمانيا مسرعا؛ ليتفرغ لشئونها،وهنا نكرر القول بأن سياسة كونراد الثانى اختلفت عن سياسة سلفه هنرى الثانى فى أن الأول اتجه اتجاها ألمانيا عمليًا وتخلى عن الاتجاه العالمى النظرى الذى أدى إلى إضعاف نفوذ هنرى فى ألمانيا[١٠٠].

ويبدو أن نفوذ كونراد الثانى فى ألمانيا بلغ درجة من القوة عقب عودته من إيطاليا جعله يعمل على جعل الحكم وراثيا فى أسرته، فتوج ابنه هنرى فى حياته سنة ١٠٢٨؛ وقد أثار هذا العمل حقد كبار الأمراء، وعلى رأسهم أرنست دوق سوابيا ، ولكن كونراد الثانى لم يتعب كثيرا فى القضاء عى هذه الفتنة فأخضع الثورة وحرم أرنست من دوقيته، حيث عاد كونراد يسيطر على ألمانيا سيطرة تامة قوية[١٠١].

على أنه إذا كانت الأوضاع قد استقرت لكونراد فى الداخل، فإن أعداء الدولة فى الخارج لم يتركوا له فرصة للتمتع بهذا الاستقرار، من ذلك أن كونراد الثانى دخل فى صراع طويل مع البولنديين (١٠٢٨ – ١٠٣١)؛ بسبب إغاراتهم على سكسونيا الشرقية سنة ١٠٢٨ وتدميرهم كثير من القرى وإحراق كنائسها، وكان السبب الأساسى لهذه الهجمات التى قام بها البولنديون على ألمانيا هو عدم اعتراف كونراد الثانى بملكهم مسكو الثانى Mesko II ولكن كونراد كان فى موقف لا يساعده على إنزال ضربة قاصمة بالبولنديين بسبب انشغاله بغيرهم من أعداء الدولة؛ ولذلك انتهى الموقف بين الطرفين بالصلح سنة ١٠٣١[١٠٢]، وفى تلك الأثناء شغل كونراد الثانى بأمر بوهيميا التى كانت تربطها علاقة التبعية بالدولة الألمانية، وقد ساءت العلاقات بين كونراد الثانى وأودلريخ Udalrich دوق بوهيميا سنة ١٠٣٢، الأمر الذى حدا بالأول إلى إرسال حملة إلى بوهيميا أخضعت أودلريخ وأرسلته أسيرا إلى بافاريا، وإن ظلت

---

(99) Ullmann: The Growth of the Papal Government, p. 250.

(100) Eyre: op. cit. pp. 130 - 131.

(101) Tout: The Empire and thr Papacy, p. 54.

(102) Fliche: L'Europe. Occidentale, pp. 251 - 252.

الفوضى ضاربة أطنابها فى بوهيميا حتى سنة ١٠٣٥ (١٠٣)، أما الهنغاريون فقد تجمعت عدة عوامل أساءت إلى العلاقات بينهم وبين كونراد الثانى أيضاً، مما اضطره إلى الهجوم على هنغاريا سنة ١٠٣٠ ولكنه لم يصادف توفيقا فى تلك الحرب، وذلك بسبب العقبات الطبيعية التى اعترضت سبيله كالغابات والأنهار والأحراش، زيادة على مقاومة الهنغاريين وتفشى المرض بين جنوده، مما جعله يعود متقهقرا إلى ألمانيا ومعه البقية الضئيلة من جنوده (١٠٤).

على أن أهم نصر أحرزه كونراد الثانى فى سياسته الخارجية كان نجاحه فى ضم مملكة آرل Arles أو برجنديا Burgundy إلى ممتلكاته، وكانت هذه المملكة قد وقعت منذ منتصف القرن العاشر فى فوضى شديدة، حتى توفى ملكها رودلف الثالث سنة ١٠٣٢ دون أن يترك ولدا يرثه فى الملك (١٠٥)، وعندئذ استغل كونراد الثانى صلة القربى التى تربطه بالملك الراحل وتوج نفسه ملكا على آرل، مما جعل تلك المملكة جزءا من الإمبراطورية، حتى استمر أمراؤها مدة طويلة يتخذون لأنفسهم لقب «أمراء الإمبراطورية المقدسة» (١٠٦)، أما أهمية هذه الخطوة فلا ترجع إلى أن ضم مملكة آرل أتاح نفوذا جديدا للأباطرة الألمان بقدر ما ترجع إلى بضع حقائق أخرى مهمة، أولها أن هذه المملكة الجديدة كانت رومانية الطابع فأدى ضمها إلى الإمبراطورية إلى تخفيف الطابع الألمانى الذى اتصفت به الإمبراطورية المقدسة، وثانيها أن هذا الضم حال دون ارتباط آرل بفرنسا سياسيا فى ذلك العصر، كما أدى إلى تثبيت مبدأ الوراثة فى حكم ألمانيا (١٠٧)، فإذا أضفنا إلى ذلك أن برجنديا أو آرل كانت مركزا رئيسيا لحركة الإصلاح الكلونية مما ترتب على ضمها للإمبراطورية سرعة انتشار تلك الحركة فى ألمانيا، وأن ضم مملكة آرل إلى الإمبراطورية حال دون تدخل فرنسا فى شئون إيطاليا، إذا ذكرنا كل هذا أدركنا فى النهاية مدى خطورة هذه

---

(103) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 262.
(104) Fliche: L'Europe. Occidentale, p. 254.
(105) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 309.
(106) bryce: op. cit. p. 148.
(107) Tout: The Empire and thr Papacy, pp. 55 - 56.

العملية فى التاريخ، وهكذا صارت الإمبراطورية تضم جميع الأراضى التى تناولتها اتفاقية فردون سنة ٨٤٣ باستثناء الجزء الغربى، أو فرنسا بمعناها الضيق[١٠٨].

على أن كونراد الثانى اعتقد أن هناك أمرا واحدا ينتقص سلطانه الفعلى ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد وهذا الأمر هو قوة نفوذ كبار الأمراء ، وارتباط الأفصال بسادتهم الإقطاعيين، وضعف الروابط التى تربط هؤلاء الأفصال وغيرهم من عامة الناس بالإمبراطور؛ لذلك حاول كونراد أن يستميل إلى جانبه صغار الأفصال ضد كبار الأمراء، فناصر مبدأ توريث ما بأيديهم من إقطاعات؛ ليهيئ لهم قدرا من الاستقرار والثبات فى وجه سادتهم الإقطاعيين[١٠٩]، هذا إلى أن تطبيق مبدأ الوراثة فى الإقطاعات الصغيرة من شأنه أن يدعم مبدأ توريث التاج الإمبراطورى، وهو أمر سعى كونراد لتحقيقه، كذلك لجأ كونراد الثانى إلى القضاء على كيان الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثية، فضلا عن دعم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليدا علمانيا، واستخدامهم كأداة للحد من بطش كبار الأمراء[١١٠].

ويبدو أن النجاح العظيم الذى صادفه كونراد الثانى فى تطبيق هذه السياسة فى ألمانيا وبرجنديا دفعه إلى تطبيقها فى إيطاليا، على أن روح الاستقلال والانفصال عن الإمبراطورية كانت قد أخذت تشتد فى شمال إيطاليا عندئذ، حتى بين كبار الأساقفة الذين سبق أن استنجدوا بكونراد ضد كبار الأمراء العلمانيين، ومن هؤلاء الأساقفة أريرت Arbert رئيس أساقفة ميلان الذى تمتع بمركز مستقل فى أسقفيته ، وأخذ يمنى نفسه بنفوذ سياسى إلى جانب نفوذه الدينى[١١١]، ولكن إذا كان أريرت يستطيع الاعتماد على ولاء أهالى ميلان الذين عرفوا بطاعتهم لأساقفتهم، فإن الأمراء المحليين رأوا فى تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم ، فثاروا ضده مما أدى إلى حرب أهلية تطلبت سفر كونراد الثانى إلى إيطاليا لتهدئة الموقف فى شمالها سنة ١٠٣٦ ، وكان أن وقف أريرت من الإمبراطور موقفا عنيدا، لم يلبث أن تحول إلى

---

(108) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 259.

(109) Orton: op. cit. p. 170.

(110) Eyre: op. cit. p. 222.

(111) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 258.

حرب سافرة بين الطرفين، ولم يتردد كونراد عندئذ فى استمالة صغار النبلاء الإقطاعيين إلى جانبه، فأصدر مرسوما سنة ١٠٣٧ بجعل إقطاعاتهم وراثية فى إيطاليا، كما وعدهم بعدم إرهاقهم بالضرائب والالتزامات المالية، على أن هذه الإجراءات وأشباهها لم تكن كافية لإخضاع أربرت الذى قوى مركزه فى ميلان فى الوقت الذى تطلبت شئون الإمبراطورية من كونراد الثانى العودة إلى بلاده سنة ١٠٣٨ حيث توفى فجأة فى أوترخت فى العام التالى(١١٢).

ومهما يكن من أمر، فإن وفاة الإمبراطور كونراد الثانى قبل أن يتمكن من التغلب على مشكلة أربرت فى إيطاليا لا تقلل من نجاحه العام فى النهوض بأعباء الوظيفة الإمبراطورية، ويكفى أنه ثبت نفوذه الإمبراطورى تثبيتا قويا جعل ابنه يعتلى عرش الإمبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة، وذلك لأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦):

بلغت الإمبراطورية المقدسة ذروة قوتها على عهد هنرى الثالث(١١٣) الذى أظهر كفاية فى عهد أبيه عندما عهد إليه بحرب البولنديين والهنغاريين فضلا عن الخبرة السياسية التى اكتسبها بعد أن توجه أبوه وأشركه معه فى الحكم بصورة غير رسمية، وهكذا استطاع هنرى الثالث عندما تولى الحكم أن يتم رسالة أبيه، وأن يسير وفق الخطوط العريضة التى اتبعها كونراد الثانى فى سياسته، بل إنه نفخ فى هذه السياسة روحا جديدة جعلت الإمبراطورية المقدسة تبدو فى عهده فى صورة القوة الكبرى الفعالة فى توجيه مصائر غرب أوربا(١١٤).

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت هنرى الثالث هى مشكلة أربرت رئيس أساقفة ميلان، بعد أن مات كونراد الثانى قبل أن يحلها حلا يرضى كرامة الإمبراطورية وهيبتها، على أن هذه المشكلة حلت حلا سلميًا، إذ تغلب العقل على

(112) Tout: The Empire and the Papacy, p. 59.
(113) Bryce: op. cit. p. 148.
(114) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 272 - 306.

أربرت عندما علم بوفاة الإمبراطور كونراد الثاني، واتجه إلى ألمانيا سنة ١٠٤٠ حيث أعلن ولاءه لهنرى الثالث وطلب عفوه، وبذلك عاد السلام إلى إيطاليا وصار فى وسع الملك الجديد أن يتفرغ للمشاكل الأخرى وأهمها مشكلة الحدود مع بولندا، وبوهيميا، وهنغاريا(١١٥).

والواقع أن بولندا لم تكن مصدر خطر واضح على عصر هنرى الثالث بعد أن مزقتها الحروب الأهلية وتعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التى أضحت عندئذ أقوى الدول السلافية، ولذلك لم يصادف هنرى الثالث صعوبة كبيرة فى إعادة بولندا إلى تبعيتها للإمبراطورية، ولكن الموقف اختلف بالنسبة لبوهيميا التى أراد دوقها برتسلاف (Bertslav) أن يجعل من نفسه ملكا وأن يرفع أسقف بوهيميا فى براغ إلى مرتبة رئيس أساقفة حتى يحقق لبوهيميا الاستقلال السياسى والكنسى(١١٦)؛ ولذلك قاوم برتسلاف جهود الإمبراطورية فى السيطرة على بوهيميا مقاومة عنيفة، ولكنها لم تجد أمام قوة هنرى الثالث الذى أوغل فى بوهيميا حتى هدد براغ نفسها سنة ١٠٤١، وأخيرا أدرك برتسلاف صعوبة المقاومة فرضى بالخضوع لهنرى الثالث بشروط قاسية أهمها دفع غرامة حربية باهظة، وإطلاق سراح ما لديه من أسرى، وهدم جميع التحصينات المقامة فى غابات بوهيميا، وبعد ذلك مثل برتسلاف بين يدى هنرى الثالث (أكتوبر سنة ١٠٤١) حيث أعلن تبعيته وخضوعه ،وعندئذ أقطعه هنرى دوقية بوهيميا التى كان الأمير السلافى يحلم بتحويلها إلى مملكة مستقلة(١١٧).

على أن الصعوبة التى صادفها هنرى الثالث فى هنغاريا كانت أشد وأعظم ، إذ قامت فيها حركة وثنية أتت بملك جديد اسمه آبا Aba على العرش وقد أصدر البابا قرار الحرمان ضد ذلك الملك الوثنى، فحاول آبا أن يفوز باعتراف هنرى الثالث به ملكا، ولما رفض هنرى أغار آبا على ألمانيا عن طريق وادى الدانوب ثم عاد إلى بلاده فى أوائل سنة ١٠٤٢ محملا بالأسلاب؛ لذلك هجم هنرى الثالث على هنغاريا

(115) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 262.
(116) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 300 - 301.
(117) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 262 - 263.

عدة مرات (١٠٤٢ - ١٠٤٥) حتى انتهى الأمر بفرار آبا واعتراف خليفته بطرس بالتبعية للإمبراطورية[١١٨].

أما فى الجبهة الشمالية فقد أنزل هنرى الثالث هزيمة بالعناصر السلافية التى أغارت على سكسونيا سنة ١٠٤٥، كما عقد الملك اجتماعا فى العام التالى مع الحكام السلاف، اعترفوا فيه بسيادة الإمبراطورية، وهكذا استطاع هنرى الثالث أن يكمل رسالة أبيه فى تحقيق عظمة ألمانيا وجعل الإمبراطورية المقدسة صاحبة الكلمة العليا، فى غرب أوربا [١١٩]، وربما ساعد على إعلاء كلمة الإمبراطورية عندئذ ضعف الملوك الأوائل من أسرة كابيه فى فرنسا، وانشغالهم بالحروب المستمرة مع الزعماء الاقطاعيين، مما جعل الإمبراطورية المقدسة لاتجد أمامها منافسا قويا فى غرب أوربا ينازعها السيادة العالمية، ولم يحاول هنرى الثالث أن يستغل ضعف فرنسا فى ذلك العصر فى تحقيق مطامع سياسية عبر الراين، بل على العكس حرص على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا، وأراد أن يؤكد حسن العلاقات بزواجه سنة ١٠٤٣ من أميرة فرنسية هى آجنى Agnes صغرى بنات وليم كونت بواتو، وربما كانت أهم النتائج التى ترتبت على هذا الزواج ، هو الأثر القوى الذى تركته الأميرة الفرنسية فى السياسة الدينية التى اتبعها زوجها هنرى الثالث[١٢٠].

وبعد أن خلص هنرى الثالث من مشاكله الخارجية، أخذ يوجه عنايته نحو مشاكل الإمبراطورية فى الداخل، أى فى ألمانيا وإيطاليا، والواقع أن هذين البلدين كانا لا يزالان يشكوان الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من الجهود التى بذلها الأباطرة السابقون، وقد أدت سياسة كونراد الثانى - الخاصة بتشجيع صغار النبلاء الإقطاعيين - إلى كثرة الحروب المحلية مما تطلب من هنرى الثالث جهدا كبيرا لحسم ذلك الوضع وإقرار الأمن والنظام. وفى سبيل تحقيق هذا الغرض تخلى هنرى الثالث عن سياسة أسلافه فى الحرص على تركيز السلطة فى يدى الملك واكتفى بتعيين جماعة من أقاربه وأنصاره فى الدوقيات الكبيرة، ثم ترك لهم بعد ذلك شيئا من حرية التصرف

---

(118) Tout: The Empire and the Papacy, p. 61.

(119) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 264.

(120) Tout: The Empire and the Papacy, p. 62.

والنفوذ في دوقياتهم، بعد أن أدرك أن ألمانيا أصعب من أن تحكم حكما أوتوقراطيا مركزيا[١٢١].

على أن الدور الذى قام به هنرى الثالث فى إيطاليا ـ وخاصة تجاه البابوية يسترعى منا انتباها خاصا، ذلك أن مركز البابوية انحط فى ذلك العصر إلى الدرجة التى جعلت هنرى الثالث يتخذ دعم البابوية مفتاحا لسياسته الإمبراطورية[١٢٢]، وحسبنا أن البابا غدا ألعوبة فى أيدى أمراء روما، بل صار المنصب البابوى يباع ويشترى بالمال، مما جرح شعور كل مسيحى غيور، من ذلك أن أحد هؤلاء الأمراء تولى منصب البابوية تحت اسم بندكت التاسع سنة ١٠٣٣ على الرغم من حداثة سنه، ثم لم يلبث أن باع منصبه لقاء حفنة من المال إلى بابا آخر هو جريجورى السادس فى العام التالى، وإزاء هذه الفوضى والفضائح، عقد دعاة الإصلاح مجمعا فى روما واستنجدوا بالملك هنرى الثالث لمساعدتهم فى وضع حد لهذه الفوضى، والواقع أن هنرى اهتم بحركة الإصلاح الكلونية وأخذ يتحمس لإنقاذ الكنيسة والبابوية من الهوة التى سقطتا فيها، وازدادت هذه السياسة قوة بعد زواجه من آجنى[١٢٣].

وكان أن عبر هنرى الثالث جبال الألب إلى إيطاليا سنة ١٠٤٦ حيث عقد مجمعا فى سوترى Sutri قرب روما فى ديسمبرمن العام نفسه ثم مجمعًا آخر فى روما فى الشهر عينه، عزل فيهما جميع البابوات المتنازعين، وانتهى الأمر بتعيين سويدجار Suidgar أسقف بامبرج تحت اسم البابا كلمنت الثانى، وفى اليوم الذى احتفل فيه بتعيين البابا الجديد قام البابا بتتويج هنرى الثالث وزوجته بالتاج الإمبراطورى[١٢٤]، وبعد ذلك قام الإمبراطور وبصحبته البابا ـ بجولة فى جنوب إيطاليا لإخضاعها وإقرار الأمور فيها، وإذا كان الإمبراطور قد اضطر إلى العودة بعد ذلك إلى ألمانيا إلا أن سياسته استمرت نافذة فى إيطاليا حيث تمتع بنفوذ لم يحظ به غيره من أباطرة الدولة المقدسة[١٢٥]، من ذلك أنه حدث بعد وفاة البابا كلمنت الثانى سنة ١٠٤٨ أن ظلّ رأى

(121) Bryce: op. cit. p. 148.

(122) Barraclough: op. cit. p. 56.

(123) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 290.

(124) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 265 - 266.

(125) Bryce: op. cit. pp. 148 - 149.

الإمبراطور معمولا به فى اختيار الشخص الذى يلى منصب البابوية، فتعاقب على هذا المنصب البابا داماسوس الثانى Damasus II الذى مات بعد أسابيع، فخلفه ليو التاسع - قريب الإمبراطور (١٠٤٨ - ١٠٥٤) -، ثم فكتور الثانى (١٠٥٤ - ١٠٥٧)(١٢٦)، وفى عهد البابا الأخير قام هنرى الثالث بزيارة إيطاليا مرة أخرى لبعض أغراض سياسية ولكنه لم يلبث أن عاد إلى ألمانيا؛ لنشوب ثورة فى بافاريا.

والواقع أن سياسة هنرى الثالث الدينية تبدو على جانب كبير من الأهمية والتناقض ذلك أنه عمل على إصلاح الكنيسة وشرع ضد السيمونية - أى بيع الوظائف الدينية - وغيرها من المفاسد الكنسية(١٢٧)، ولكنه حرص فى الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية جميعا دون أن يدرى أن هذه السيطرة كانت من الأمراض الخطيرة التى تشكو منها الكنيسة عندئذ، وأبرز مثل لهذه السيطرة تدخل هنرى الثالث فى عزل البابوات وتعيين من يشاء دون الرجوع إلى أى مجامع دينية. ومن الواضح أن هدف هنرى الثالث من ذلك كان سلب نبلاء روما سيطرتهم على البابوية، علاوة على إثبات حقه فى تعيين أساقفة ألمانيا وتقليدهم علمانيا ما دام هو الذى يعين البابا نفسه(١٢٨)، على أنه إذا كان ليو التاسع ومن بعده فكتور الثانى لم يتجاسرا على معارضة الإمبراطور، فإن التطور نحو تحرير الكنيسة من سيطرة السلطة العلمانية بدأ يظهر فى بطء على عهد البابا ستفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨)، ولم يلبث أن اتخذ هذا التطور شكل هجوم على السلطة العلمانية فى عهد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ - ١٠٦١)(١٢٩).

وهكذا أدت سيطرة الإمبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة، ومحاولة الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى، إلى نزاع حاد بين الإمبراطورية والبابوية، ظهر أول فصوله على مسرح العصور الوسطى بعد وفاة الإمبراطور هنرى الثالث ١٠٥٦.

---

(126) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 297 - 298.

(127) Eyre: op. cit. pp. 132 - 133.

(128) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 151.

(129) Eyre: op. cit. p. 133.

الباب الثالث عشر

إيطاليا والبابوية

كانت إيطاليا فى ختام القرن العاشر مقسمة إلى عدد من الوحدات تتنازع النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوربية كبيرة. فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا، وكالبريا فى الجنوب، بعد أن نجحت قوات الإمبراطور باسل المقدونى فى طرد المسلمين من تلك الجهات، وإحراز نصر بحرى عليهم، واسترداد معاقلهم فى الجنوب الشرقى من إيطاليا (٨٨٤ - ٨٨٧)[١]، هذا وإن ظلّ المسلمين يسيطرون على بعض المراكز فى جنوب إيطاليا الغربى وجزيرة صقلية، وذلك بعد أن سقطت سيراكيوز عاصمة الجزيرة فى أيديهم سنة ٨٧٧. ومع أن المسلمين فشلوا فى اتخاذ مقر ثابت لهم فى جنوب إيطاليا، إلا أنهم استمروا يؤثرون فى توجيه مصائر ذلك الجزء من أوربا، ولاسيما الشاطئ الغربى لشبه الجزيرة[٢]. وبالإضافة إلى البيزنطيين والمسلمين، وجد عدد من الدوقيات اللمباردية فى بنفنتو، وسالرنو، وكابوا فى الجنوب[٣]، أمّا شمال إيطاليا ووسطها فقد أقام فيهما اللمبارديون عدة إمارات قوية، كما ظهرت فى تلك الأجزاء بعض المدن التجارية النشيطة مثل أمالفى ونابلى، هذا فضلا عن البابوية التى أخذت تعمل من جانبها على أن يكون لها نفوذ سياسى فوق نفوذها الدينى، فإذا أضفنا إلى هذه القوى المتعددة الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى شرع أباطرتها يتدخلون فى شئون إيطاليا ويطمعون فى الربط بينها وبين ألمانيا تحت سيطرتهم. أمكننا أن نكون فكرة عن الفوضى السياسية التى أضحت فيها إيطاليا فى تلك الحقبة[٤].

قيام دولة النورمان فى جنوب إيطاليا:

وقد ساعدت هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار على امتداد نفوذ النورمان إلى جنوب إيطاليا فى القرن الحادى عشر، حتى استطاعوا أن يكونوا دولة قوية أسهمت

---

(1) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, pp.. 440 - 441.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 399 - 400.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 103 - 104.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 167 - 168.

بدور مهم فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ذلك أن النورمان الذين استقروا فى غرب فرنسا سرعان ما اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الفرنسية، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو. وبعبارة أخرى فإنهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيدة المدى بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة، وكثيرا ما انتهت هذه الأسفار بتأسيس دويلات نورمانية كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى. من ذلك ما حدث حوالى سنة ١٠١٩ من أن أربعين حاجا نورمنديا مروا بجنوب إيطاليا - قرب مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطئ الشرقى - فى طريق عودتهم من الأراضى المقدسة إلى وطنهم[٥] وفى ذلك الوقت كان ميليس Meles - أحد مواطنى مدينة بارى Bari قد استغل فرصة توغل المسلمين وثار ضد السلطات البيزنطية، فاستعان بهؤلاء النورمان فى تحقيق غرضه، واستغلهم كجند مرتزقة، وقد رحب زعيم هؤلاء الحجاج بالفرصة، كما شجع البابا بندكت الثامن الفكرة، وبفضل هذه المعونة تمكن ميليس من الانتصار على القوات البيزنطية مما أكسب النورمان شهرة كبيرة فى إيطاليا كجند محاربين شجعان[٦].

وعندما عاد هؤلاء الحجاج إلى نورمنديا نقلوا إلى ذويهم ما شاهدوا عليه البلاد الإيطالية من فوضى وتفكك، الأمر الذى أغرى كثيرين من الطموحين على الهجرة من نومنديا إلى جنوب إيطاليا ليعملوا جندا مأجورين، ويقال إن دوق نابلى رحب بهم سنة ١٠٣٠ بعد أن ساعدوه ضد أمير كابوا اللمباردى؛ مما جعل هذا الدوق يكافئ رانولف - زعيم النورمان - بمنحة منطقة غنية يقيم فيها مع قومه بصفة دائمة، وفى تلك المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠، التى تعتبر أول مركز دائم لهم فى إيطاليا[٧]. وهكذا أخذت جموع النورمان تتكاثر فى جنوب إيطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر؛ حيث وجدوا فى هذا الوطن الجديد ميدانا صالحا لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية. واشتهر من زعماء النورمان فى

(5) Haskins: The Normans in European History, p. 198.
(6) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 104 - 105.
(7) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 268.

إيطاليا فى تلك الحقبة ثلاثة إخوة يلقبون بلقب «هوتفيل Hauteville » هم: وليم، وهمفرى، ودروجو، وقد أحرزوا جميعا صيتا ذائعا فى ميدان الحرب والقتال [٨]، وكان أن قدم هؤلاء الإخوة مساعدتهم إلى البيزنطيين سنة ١٠٣٨ لطرد المسلمين من صقلية، حتى صار وليم هوتفيل أميرا على النورمان فى أبوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملفى Melfi مركزا له[٩]، وعندما توفى سنة ١٠٤٦ اعترف الإمبراطور الغربى هنرى الثالث بأخيه دروجوا أميرا على أبوليا، ولكن حدث حوالى ذلك الوقت أن حضر من نورمنديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة هو روبرت جويسكاد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان فى إيطاليا بعد وفاة همفرى سنة ١٠٥٧[١٠]، وقد اشتهر روبرت جويسكارد هذا (ت ١٠٨٥) كسياسى ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول إلى هدفه، ومن أعماله أنه وجه كل جهوده نحو غزو جنوب إيطاليا وأراضى الدولة البيزنطية وتقويض نفوذها فى شبه الجزيرة[١١] . دون أن يدرى أن توسع النورمان فى جنوب إيطاليا، وما صحب هذا التوسع من أعمال الغضب والعنف، أثار حنق البابوية ومخاوفها، ذلك أنه على الرغم من ترحيب البابوات والأساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان؛ ليكونوا عونا لهم ضد المسلمين من جهة، والكنيسة الشرقية من جهة أخرى، إلا أن النورمان أثاروا كره الجميع بعد أن اشتهروا بالنهب، والسلب، والقسوة[١٢]، هذا فضلا عن أنهم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص، فتارة يحاربون مع الأمراء اللمبارديين وطورا فى صف القوات البيزنطية، دون أن يكون لهم هدف من وراء كل ذلك سوى توسيع رقعة أراضيهم الخاصة عل حساب البيزنطيين واللمبارديين والبابوية جميعا.

وكان أن دفع شعور الخوف والاستياء البابا ليو السابع إلى أن يوجه جيشا ـ خليطا من الألمان والإيطاليين ـ لمهاجمة النورمان سنة ١٠٥٣ ، ولكن النورمان انتصروا على

(8) Stephenson: op. cit. p. 247.

(9) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, p. 560.

(10) Haskins: The Normans in European History, p. 201.

(11) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 474.

(12) Orton: op. cit. p. 188.

هذه الحملة البابوية فى موقعة كيفيتيت Civitate فأثبتوا مرة أخرى كفايتهم الحربية(١٣)، حتى استطاع زعيمهم روبرت جويسكارد أن يغزو كالبريا بأكملها سنة ١٠٥٧(١٤)، ويبدو أن هزيمة البابوية أمام النورمان وقتئذ كانت ذات نتائج مهمة؛ لأنها أثبتت للمعاصرين ـ وخاصة البابوية ـ أنه لا يمكن طرد النورمان من إيطاليا، هذا فى الوقت الذى حالت تقوى هؤلاء النورمان دون استغلال انتصارهم فى تتبع البابوية ومعاقبتها(١٥)، وفى ذلك الوقت بالذات كانت البابوية فى حاجة إلى حليف قوى، بعد أن أخذت تحس بخطر الأباطرة الألمان على كيانها وتطمع فى التحرر من سيطرتهم، مما جعلها تغير نظرتها تجاه النورمان وتفكر فى اتخاذهم حلفاء لها يساعدونها فى تحقيق استقلالها والتخلص من خطر الأباطرة من جهة، ونبلاء روما من جهة أخرى،وأخيرا تمت هذه الصفقة السياسية بين البابوية والنورمان على عهد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٨ - ١٠٦١) وتحت تأثير ووساطة الكاردينال هلدبراند(١٦)، الذى ذهب بنفسه سنة ١٠٥٩ إلى كابوا ومهد للاتفاق النهائى الذى أبرم فى ملفى Melife، والذى اعترفت فيه البابوية بشرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا مقابل اعترافهم بالتبعية للبابا ودفع مبلغ معين من المال له سنويا(١٧).

ولاشك فى أن هذه الخطوة الحاسمة كان لها أثر خطير فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى؛ ذلك أن قيام دوقية أبووليا النورمانية كان الخطوة الأولى نحو قيام مملكة نابولى، ونشأ من ذلك أن هذه الخطوة أدت إلى فصل جنوب إيطاليا عن شمالها مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ إيطاليا. هذا إلى أن اتفاقية ملفى هيأت للبابوية حليفا قويا فى الجنوب، اتجهت إليه عندما تأزم الموقف بينها وبين الإمبراطورية نتيجة لحركة الإصلاح الواسعة التى شرعت البابوية فى النهوض بها(١٨). وسرعان ما أثبتت الأحداث أن مملكة النورمان التى قامت فى جنوب إيطاليا أثرت تأثيرا خطيرا فى

(13) Haskins: The Normans in European History, p. 203.
(14) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 403.
(15) Eyre: op. cit. p. 130.
(16) Tout: The Empire and the Papacy, p. 114.
(17) Haskins: The Normans in European History, p. 204.
(18) Eyre: op. cit. p. 138.


النورمان في صقلية
وجنوب إيطاليا
دوقية
سبوليتو
دوقية روما
بنفنتو
نابلي
سالرنو
باري
برنديزي
تارنتو
كالابريا
ريدجيو
بالرمو
صقلية
إتنا
قطانية
سيراكيوز
(سرقوسة)

تاريخ إيطاليا بوجه عام. والبابوية بوجه خاص. ولم يلبث الكاردينال هلدبراند نفسه - عندما أصبح بابا تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ - أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا الجزء الجنوبى من إيطاليا، سواء الممتلكات البيزنطية أو إمارة بنفنتون التابعة للبابوية. لذلك أدرك جريجورى السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأملاك البابوية وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليم كونت برجنديا(١٩)، على أن محاولات هذا البابا - المعروف بالعنف والصرامة - لم تفلح فى وقف التوسع النورمانى إذ لم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو وأمالفى(٢٠)، ثم شاءت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجورى السابع فى صراعه العنيف ضد الإمبراطورية، مما جعله يتلهف على مساعدة النورمان، فأقر جويسكارد سنة ١٠٨٠ على ما بيده من أراض مقابل قيام الأخير بحماية البابوية من خطر الإمبراطور(٢١).

وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلا وقدم لها بعض المساعدات، ولكن ذلك لم يصرفه عن التوسع فى جنوب إيطاليا حيث كان أخوه الأصغر يعمل منذ سنة ١٠٦١ حتى تمّ استيلاء النورمان على بارى سنة ١٠٧١ بعد حصار ثلاث سنوات، وبذلك تم طرد البيزنطيين نهائيا من إيطاليا (٢٢)، وصارت الخطوة التالية أمام النورمان هى الاستيلاء على جزيرة صقلية وانتزاعها من المسلمين، وأخيرا توفى روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ قبل أن يحقق بقية أطماعه الواسعة فى الشرق، وفى الدولة البيزنطية نفسها، وإن كان يكفيه أنه ثبت أقدام النورمان فى جنوب إيطاليا، وهى الفترة التى استمرت نصف قرن، وبدأ دور آخر - استمر نصف قرن أيضًا - استحكم فيه النزاع الداخلى بين النورمان أنفسهم، حتى استطاع روجر الثانى توحيد جميع الأراضى التى فتحها النورمان واتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠(٢٤) و وهكذا قامت

(19) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 303 - 304.
(20) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 179.
(21) Orton: op. cit. p. 189.
(22) Tout: The Empire and the Papacy, p. 117.
(23) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 182.
(24) Haskins: The Normans in European History, pp. 206, 218 - 219.

مملكة الصقليتين - التى شملت جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية - والتى غدت من أبرز ممالك غرب أوربا وأرفعها حضارة فى العصور الوسطى، وذلك بحكم مركزها المتوسط بين الشرق والغرب.

شمال إيطاليا ووسطها فى القرن الحادى عشر:

هذا عن جنوب إيطاليا، أما شمالها فقد تعرض منذ القرن الحادى عشر لتطورات اقتصادية وسياسية أدت إلى نشأة ما يعرف باسم القومونات - أو المدن ذات الكيان الاقتصادى والسياسى المستقل[٢٥]، ففى بداية القرن الحادى عشر ظهرت البندقية فى صورة جمهورية مستقلة لها دوقها الذى ينتخبه نبلاؤها ولها نفوذها السياسى وكيانها الاقتصادى الخاص [٢٦]، وفى خلال ذلك القرن أيضًا ظهرت جنوة وبيزة كقوى مستقلة أخذت تسهم فى الحروب الصليبية منذ نهاية القرن الحادى عشر إسهاما فعليا. ولم تلبث هذه الحركة - حركة استقلال المدن وتحررها - أن امتدت إلى سهول لمبارديا وإقليم تسكانيا حيث حصلت مدن كثيرة على حقها فى الحكم الذاتى، ومن أمثلة هذه المدن سينا Siena، وفلورنسا، ولوكان، وميلان، وبافيا، وبرسكيا، وبولونيا[٢٧]. وسوف نتكلم عن أهمية نشأة المدن وظهور القومونات فيما بعد فى باب مستقل، ولكن الذى يعنينا الآن بالنسبة لتاريخ إيطاليا هو أن هذه المدن أو القومونات أظهرت حرصاً شديدا فى التمسك باستقلالها السياسى، فأخذت تقاوم كل سلطة أو هيئة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال سواء كانت هذه السلطة دينية بابوية أو سياسية إمبراطورية ، مما جعلها تلعب دوراً مهماً فى تاريخ إيطاليا السياسى منذ أواخر القرن الحادى عشر، وخاصة فى حوادث النزاع بين البابوية والإمبراطورية[٢٨]. هذا فضلا عن الدور المهم الذى قامت به فى الميدان الحضرى بوجه عام وفى الجانبين الاقتصادى والفكرى بوجه خاص، مما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد[٢٩].

---

(25) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 220.

عن نشأة القومونات وأهميتها، انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(26) Stephenson: Med. Hist. Vol. p. 320 - 321.

(27) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 481 - 482.

(28) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 222 - 223.

(29) Pirenne, Cohen, Focillon: LA Civilisaticn Occdentalc au Moyen Ages, pp. 146 - 153.

أما وسط إيطاليا فقد وجدت به بعد الغزو اللمباردى بعض الدوقيات المستقلة وأهمها دوقية تسكانيا، ولا تهمنا بقية تلك الدوقيات كثيرا لسرعة ما طرأ على وضعها السياسى من تغيير وتبديل طوال العصور الوسطى، على أن أهم قوة وجدت فى ذلك الجزء كانت دون شك قوة البابوية، التى لم تستمد أهميتها التاريخية من أثرها الروحى وزعامتها للكنيسة الغربية فحسب، بل أيضاً من الدور السياسى الذى أخذت تقوم به فى عناد وإصرار لتجعل زعامتها على العالم الغربى حقيقة واقعة(٣٠)، وهنا نلاحظ أن البابوية لم تستطع أن تحقق أطماعها فى الزعامة والسمو إلا بعد أن مرت الكنيسة الغربية بوجه عام بدور من الإصلاح والتطور، الأمر الذى مكن البابوية من الوقوف على رأس الكنيسة فى وجه القوى المعارضة، حتى خرجت فى النهاية مرفوعة الرأس.

البابوية والكنيسة الغربية:

امتاز تطور الكنيسة ونموها فى العصور الوسطى بظاهرتين أساسيتين الأولى ازدياد سيطرة البابا على رجال الأكليروس، والثانية ازدياد تدخل هؤلاء الآخرين فى الشئون العلمانية، وقد رأينا كيف قام شارلمان بتنظيم الكنيسة ضمن نواحى الإصلاح الأخرى التى تعهدها بعنايته، وذلك بوصفه رائداً أو زعيمًا للشعب المسيحى (Rector Populi christiani) (٣١)، ولكن اضمحلال إمبراطورية شارلمان حرم البابوية من حليفها القوى وتركها وحيدة فى الميدان وسط مظاهر الفوضى الشاملة والأخطار الخارجية التى تعرضت لها منذ منتصف القرن التاسع، ولم يقتصر هذا التدهور على البابوية وحدها، بل امتد إلى بقية الجهاز الكنسى حتى اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام فى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع ونهاية الحادى عشر(٣٢). فالبابا غدا أقرب إلى أن يكون نبيلا رومانيا لا سلطان له على كنائس بلدان غرب أوربا المتعددة فى فرنسا وألمانيا، وإيطاليا، وانجلترا، وأسبانيا، وغيرها, وهى الكنائس التى تباين مدى استقلالها عن السلطة الزمنية أو تبعيتها لها(٣٣). أما الأساقفة فكان لهم فى البابوات

(30) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 55 - 58.

(31) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 188.

(32) Eyre: op. cit. pp. 124 - 125.

(33) Cam. Me. Hist. Vol. 3, p. 454.

أسوة سيئة، وسرعان ما أصبحوا من رجال الإقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات، بل إن وظائفهم نفسها غدت إقطاعية، كما أدى زواجهم إلى انصرافهم نحو جمع الثروة ليورثوها أبناءهم(٣٤)، وهكذا خرج الأساقفة عن دائرة اختصاصهم الدينى إلى المشاركة فى الحروب، وعقد المجالس القضائية، وجمع الضرائب، والمكوس الإقطاعية، لا داخل أراضيهم الخاصة فحسب، بل فى أراضى النبلاء المجاورين أيضاً(٣٥)؛ وبعبارة أخرى فإن كبار رجال الدين من أساقفة ومقدمى أديرة - غدوا أفصالا إقطاعيين للملوك وكبار الأمراء، يؤدون لهم ما جرى عليه العرف الإقطاعى من خدمات والتزامات معروفة(٣٦).

على أن هذا الوضع كان لايمكن أن يسكت عنه المخلصون من رجال الدين، لاسيما بعد أن رسم القديس أوغسطين فى القرن الخامس الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية، وقال إن الأولى قامت على أساس من الشر والغدر؛ لأنها من صنع البشر؛ لذلك يجب أن تخضع لسلطة الكنيسة، وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على إقرار رسالته(٣٧)، والواقع أن الكنيسة لم تنس حقوقها فى السمو على السلطة الزمنية، وهى الحقوق التى سبق أن أوضحها القديس أوغسطين، وكل ما هنالك هو أن شارلمان نظر دائما إلى الإمبراطورية نظرة دينية، واعتقد أن وجود دولة قوية وكنيسة قوية فى قبضته من شأنه أن يحقق نوعا من الوحدة بين بلاد الإمبراطورية المختلفة وشعوبها المتباينة(٣٨)، وما دامت الكنيسة قد رضيت بأن يقوم شارلمان بدور حامى حماها، المدافع عن كيانها، فإن عليها أن تقبل - وهى صاغرة - تدخله فى جميع شئونها الدينية دون أن تجرؤ على المطالبة بوضع حدود فاصلة بين السلطتين الدينية والعلمانية(٣٩)، وهكذا ظلت الكنيسة راضية بالأوضاع القائمة، تخفى رغبتها فى التحرر والسيادة طالما كانت فى قبضة شارلمان القوية، هذا وإن استمرت نظرة القديس

---

(34) Idem: Vol. 5. pp. 5 - 6.
(35) Eyre: op. cit. p. 125.
(36) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 125.
(37) Thompson: op. cit. Vol. I, pp. 413 - 414.
(38) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 443.
(39) Eyre: op. cit. p. 120.

أوغسطين ماثلة دائما فى أفكار ذوى الطموح من رجال الكنيسة.

على أن وفاة شارلمان وزوال قبضته القوية عن الكنيسة جعلتها تعمل على تحرير نفسها بسرعة من سيطرة السلطة الزمنية، كما أخذت البابوية تعمل على إبراز أهميتها وتحقيق سموها، من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (الخامس) (٨١٦ - ٨١٧) من إنكار شرعية تتويج لويس التقى فى حياة أبيه، وقيامه بتتوجيه مرة أخرى بيده فى ريمس سنة ٨١٦ تأكيدا لحق البابوية فى منح التاج الإمبراطورى(٤٠)، ثم جاءت ثورة ابنى لويس التقى ضده سنة ٨٣٣ لتهيىء فرصة للبابا جريجورى الرابع يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما، ذلك أنه حدث عندما طلب بعض الأساقفة المشايعين للإمبراطور لويس التقى من البابا الخضوع لأوامر الإمبراطور بصفته الرئيس الأعلى للإمبراطورية والكنيسة جميعا، رد عليهم جريجورى الرابع بأنه بصفته بابا لا يعتبر أخا لبقية الأساقفة وإنما أبا لهم، يقدمون له فروض الولاء والطاعة(٤١)، كذلك اختار جريجورى الرابع أن يؤكد لهم أن أوامره وآراءه ليست أقل قدسية من الأوامر الإمبراطورية «لأن يجب ألا تنسوا أن الحكومة الروحية التى يهيمن عليها البابا أعلى قدرا من السلطة الإمبراطورية التى لا تعدو أن تكون زمنية ومؤقتة(٤٢)». وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) الذى تمسك فى آرائه ومسلكه تجاه الإمبراطور بمبدأ سمو البابوية على الإمبراطورية(٤٣). وهوالمبدأ الذى ظلت البابوية تجاهد فى سبيل تحقيقه منذ عهد جريجورى العظيم حتى عهد بونيفيس الثامن(٤٤)، هذا إلى أن نيقولا الأول لم يشأ أن يعترف بأن الإمبراطور البيزنطى إمبراطور رومانى، «لأن الإمبراطورية الرومانية لا توجد إلا حيث يريد البابا». وفى ضوء هذه الآراء جميعا يبدو لنا نيقولا الأول فى خطابه لمعاصريه من الحكام

---

(40) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 134 - 144.

(41) Idem. pp. 168 - 169.

(42) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 115.

(43) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 453.

(44) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 121.

العلمانيين فى صورة السيد الآمر الذى تجب طاعته؛ لأن الحاكم الذى لا يطيع أوامر الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعتبر عاصيا ويستحق اللعنة والحرمان[٤٥]، ثم جاء تتويج شارل الثانى أو الأصلع إمبراطورا بيد البابا حنا الثامن سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الإمبراطور صنيع البابوية وربيبها، وأن البابا عندما توج شارل إمبراطورا إنما عبّر عن إرادة الله والمسيح فى التفضل عليه بهذا التشريف، «ومنحه» التاج الإمبراطورى[٤٦].

على أنه إذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التى عمت أوربا فى القرن التاسع للتحرر من سلطان الدولة ليكون لها كيان خاص مستقل، إلا أن الفصل بين الكنيسة والدولة بدا أمرا غير عملى فى ظل النظام الإقطاعى، هذا فى الوقت الذى لم تجد البابوية أمامها سابقة تستند إليها فى تأكيد سيادتها على الملوك من جهة، وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى، وهنا لجأ رجال الكنيسة إلى التزييف والتزوير لاختلاق سوابق تستند إليها البابوية فى تحقيق أهدافها، وثمة وثيقتان زيفهما رجال الكنيسة؛ لتحقيق أغراضهم ومبادئهم، أما الوثيقة الأولى فتسمى «هبة قسطنطين Donation of Constantine »، والغرض منها إثبات سلطة البابوية الزمنية وسيادتها على الغرب الأوربى، وهذه الوثيقة المزورة عبارة عن مرسوم قيل إن الإمبراطور قسطنطين أصدره عندما أنشأ روما الجديدة (القسطنطينية) وتنازل بمقتضاه للبابوية عن روما القديمة، بل عن كل أراضى الإمبراطورية الغربية[٤٧]، ويبدو أن هذه الوثيقة زورت فى القرن الثامن بعد أن منح بيبين الأول (القصير) البابا سلطة زمنية فى أراضى إيطاليا سنة ٧٥٥، فأراد رجال الكنيسة عندئذ أن يحيطوا هبة بيبين هذه بجو من الشرعية التقليدية التى تثبت أن حق البابوية فى مباشرة السلطة الزمنية قديم يرجع إلى أيام قسطنطين نفسه[٤٨]، ومهما يكن من أمر، فقد استمرت البابوية تعتمد على هذه الوثيقة المزورة وتتخذها أساسا لسلطانها الزمنى حتى كشف عن تزويرها حوالى سنة ١٤٣٩، أى فى عصر النهضة الإيطالية.

---

(45) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 202 - 203.

(46) Idem. pp. 161 - 162.

(47) Eyre: op. cit. p. 122.

(48) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 58 - 60.

أمّا الوثيقة الثانية فظهرت حوالى ٨٥٠ – ٨٥٧ واسمها الأحكام البابوية المزورة Forged Decretalis وهى تنسب إلى شخص غامض اسمه أيسيدور، وإن كان لايمكن القول برأى قاطع فى حقيقة نشأتها[٤٩]، وكل ما هناك هو أنه يبدو أنها وضعت فى ريمز أو مينز، ثم أحكمت آياتها بعد ذلك فى روما، وكان الهدف الأساسى من وضعها خدمة مصالح الأساقفة المحليين من جهة، والبابوية من جهة أخرى[٥٠]؛ لأنها ترمى إلى إضعاف سيطرة رؤساء الأساقفة وفى الوقت نفسه تعمل على إعلاء شأن البابوية وتضخيم نفوذها[٥١].

وهكذا أخذت هذه المبادئ تسود الدوائر الكنسية فى غرب أوربا منذ النصف الثانى من القرن التاسع ، فأنشأ الأساقفة يتجاهلون رؤساءهم ويلجأون إلى البابوية لإنصافهم، كما تدخل البابا نيقولا الأول (٨٥٨ – ٨٦٧) فى شئون كنيسة اللورين، مستندا إلى بعض الأحكام المزورة السابقة، فأصرَّ على حقوق البابوية فى إصدار التعليمات والأوامر إلى مختلف الكنائس المحلية [٥٢]، على أنه من الملاحظ أن الفترة الواقعة بين وفاة نيقولا الأول سنة ٨٦٧ وتتويج أوتو الأول إمبراطورا سنة ٩٦٢، كانت من أحلك السنوات فى تاريخ أوربا من النواحى السياسية والكنسية جميعا، فبالإضافة إلى اضمحلال إمبراطورية شارلمان وتفككها، شهدت هذه الفترة أيضاً تدهور البابوية والكنيسة الغربية بوجه عام[٥٣]، حقيقة أن الكنائس المحلية فى مختلف بلاد غرب أوربا ظلت تنظر إلى البابا على أنه زعيمها الروحى، ولكن نفوذ البابوية على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسميا، فكثير من البابوات فى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيها فعليا رشيدا، ولم يفكرو فى دعوة مجامع دينية عامة، وتركوا مهمة هذا التوجيه ودعوة المجامع إلى الملوك فى كل بلد من البلدان حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم فى بلادهم؛ مما أدى إلى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها فى غرب أوربا، ومن الواضح أن سيطرة

(49) Bryce: op. cit. p. 153.
(50) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 448.
(51) Oman: The Dark Ages. p. 456.
(52) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 421 - 422.
(53) Eyre: op. cit, pp. 123 - 124.

الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط إلى تفكك الكنيسة فى تلك الحقبة، وإنما أدت أيضاً إلى انحطاط المستوى الخلقى لرجال الدين؛ لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم؛ مما أدى إلى وصول بعض ضعاف النفوس إلى أرفع المناصب الكنسية(٥٤).

حركة الإصلاح الكلونية:

ولم يلبث هذا الفساد الذى عمَّ الكنيسة فى القرنين التاسع والعاشر أن أدى إلى إيقاظ بعض الضمائر التى أفزعها ما آل إليه أمر الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوربا(٥٥)، وكان أن انبعثت الدعوة إلى الإصلاح فى النصف الأول من القرن العاشر فى منطقة اللورين حول متزوليج، حيث كانت الحياة الديرية قوية سليمة، وهناك بدأ أحد المصلحين ـ واسمه جيرارد ـ تلك الحركة بتأسيس كنيسة قرب نامور سنة ٩١٤، ثم ألحق بها ديرا بعد قليل، وسرعان ما سارت تلك الحركة الإصلاحية فى اللورين سيرا طيبا فنادى المصلحون بالعودة إلى تعاليم السلف الصالح وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية، ولكن تلك الحركة الإصلاحية ظلت محلية الطابع، إذ استمر أنصار الفساد خارج المنطقة أقوى نفوذا، فقاوم كثير من رجال الدين تلك الدعوة بعد أن ألفوا حياة الترف والانحلال، وبذلك حالوا دون انتشارها والإفادة منها(٥٦)، ومهما يكن من أمر فإن هذه الحركة الإصلاحية التى ظهرت فى إقليم اللورين لم تكن الوحيدة من نوعها، إذ عاصرتها دعوة أخرى للإصلاح انبعثت فى حوض الرون الأعلى حيث أسس وليم التقى دوق أكوتين ديرا جديدا فى كلونى سنة ٩١٠(٥٧).

وقد روعى فى نظام هذا الدير تجنب الأخطاء والمفاسد التى ترددت فيها بقية الأديرة المعاصرة ليصبح رأسا لحركة إصلاحية ديرية شاملة، من ذلك أن دير كلونى لم يقبل أرضا من أمير إقطاعى أوحاكم مقابل خدمات أو ارتباطات إقطاعية مع ذلك الأمير أو الحاكم، وهكذا جاءت جميع المنح التى تلقاها دير كلونى ـ من أراض وغيرها ـ حرة غير مشروطة، ولايتقاضى أصحابها عنها سوى حسن الثواب من الله والدعوات

---

(54) Idem: p. 126.

(55) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 128.

(56) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 128 - 131.

(57) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 661.

الطيبات من أهل الدير، وإذا كان نظام الأديرة البندكتية قد تطلب من الديريين القيام بقسط كبير من العمل اليدوى فى الحقول إلا أنه لوحظ عدم تطبيق هذا المبدأ بصورة تكفل تحقيق الغرض المنشود؛ لأن معظم الأراضى التى كانت تمنح للأديرة عليها أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها، الأمر الذى وفر على الديريين عناء العمل فى الحقول من جهة، وأوجد فراغا كبيرا فى حياتهم من جهة أخرى. ولسد هذا الفراغ وتلاشى أخطار البطالة روعى فى نظام كلونى مضاعفة الساعات اليومية المخصصة للصلاة والعبادة(٥٨).

وقد قام نظام الأديرة الكلونية على أساس الطاعة المطلقة والتفانى فى خدمة المجموعة، فالفرد لا شىء والجماعة هى كل شىء، كذلك أدرك زعماء الحركة الكلونية أن الأمراض الخطيرة التى تعرضت لها الكنيسة حينئذ إنما جاءت وليدة ارتباط الكنيسة بالدولة، وكذلك وجدوا فى الفصل بين السلطتين العلاج الوحيد الشافى من تلك الأمراض(٥٩)، ولعل هذا هو السبب فى حرصهم على أن يكون نظامهم الديرى تابعا للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين إشراف على الأديرة الكلونية التى تقع فى مناطق نفوذهم(٦٠)، وهكذا غدت الأديرة الكلونية تخضع لإشراف مركزى شديد، إذ لا يوجد لها سوى مقدم واحد فى الدير الرئيسى بكلونى هو المسئول الأول عن بقية الأديرة الكلونية التى يشرف عليها رؤساء لا يتمتعون باستقلال كبير فى أديرتهم ويخضعون خضوعا مباشرا للمقدم العام فى كلونى، الذى له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذى يخضع بدوره للبابا خضوعا مباشرا(٦١)، وسرعان ما اشتهر دير كلونى فانتشر هذا النظام الديرى فى غرب أوربا انتشارا واسعا فى سرعة فائقة، حتى أن كثيرا من الأديرة البندكتية المعروفة فى فرنسا وألمانيا تقبلت النظام الكلونى ودخلت تحت رئاسته. هذا زيادة على الأديرة الأخرى التى اختارت أن تحتفظ باستقلالها ولكنها تأثرت فى نظمها بمبادئ الإصلاح الكلونية(٦٢)، والذى يهمنا الآن من أمر هذه الحركة هو أنها لم تلبث أن

(58) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 128 - 129.

(59) Tout: The Empire and the Papacy, p. 99.

(60) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 664.

(61) Eyre: op. cit, p. 127.

(62) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 662.

تطورت واتسع أفقها، فبعد أن كانت تستهدف فى أول أمرها إصلاح الحياة الديرية وحدها، إذا بها فى القرن الحادى عشر تسعى نحو إصلاح الكنيسة إصلاحًا شاملا، معتمدة فى ذلك على ما أصبح للأديرة الكلونية ورجالها من قوة وعظمة ونفوذ واسع عند منتصف القرن الحادى عشر، حقيقة أن الدعوة الكلونية تعرضت لمعارضة قوية من كثير من الأساقفة، بل من بعض المؤسسات الديرية الأخرى التى ألف أهلها حياة الفساد، ولكن حركة الإصلاح الكلونية استطاعت أن تستمر فى طريقها السوى دون أن توقفها هذه المعارضة(٦٣).

وكانت الكنيسة تعانى عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة، هى السيمونية، وزواج رجال الدين، والتقليد العلمانى، أما السيمونية فالمقصود بها شراء الوظائف الدينية بالمال(٦٤). وهو داء تفشى تفشياً خطيراً بين رجال الدين حتى توصل كثير من المجرحين غير الصالحين إلى المناصب الدينية الكبرى عن طريق المال، مما أضعف الكنيسة وشوه سمعتها(٦٥)، ذلك أن ما تمتعت به الأديرة والأسقفيات من ثروة طائلة وأراض واسعة جعلها موضع أنظار الطامعين الذين لم يضنوا بتقديم الأموال الكثيرة إلى الحكام العلمانيين أو كبار الأساقفة، ليعينوهم رؤساء على تلك الأديرة والأسقفيات(٦٦). وقد حاول البابا جريجورى السادس (١٠٤٥ – ١٠٤٦)، وكذلك البابا ليو التاسع (١٠٤٨ – ١٠٥٤) مكافحة السيمونية، وشجعهما فى جهودهما الإمبراطور هنرى الثالث، حتى تمّ عزل الكثير من رجال الدين الذين اشتروا مناصبهم بالمال(٦٧). هذا إلى أن المجامع الدينية التى عقدت سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٠ أصدرت قرارات مشددة ضدّ السيمونية والإتجار فى المناصب الدينية(٦٨).

---

(63) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 427.

(٦٤) تنسب السيمونية إلى سيمون الساحر الذى ورد عنه فى العهد الجديد :ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدى الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم، قائلا أعطيانى أنا أيضًا هذا السلطان حتى أى من وضعت عليه يدى يقبل الروح القدس، فقال له بطرس لتكن فضتك طريقك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم. (سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن، ١٨ – ٢٠).

(65) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 10.

(66) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 122.

(67) Hayward: A Host. of the Popes, p. 147.

(68) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 343 - 344.

أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الأساقفة ظلوا عزابا فى حين أقبل على الزواج معظم القساوسة وصغار رجال الدين(٦٩) . والواقع أنه لم يوجد قانون كنسي يفرض حياة العزوبة عل رجال الكنيسة، وإن وجدت بعض تشريعات فى أوائل العصر المسيحى تؤيد مبدأ العزوبة(٩٧)، وهى تشريعات لم يمكن تنفيذها فى سهولة على الرغم من جهود البابا جريجورى العظيم فى سبيل تطبيقها(٧١)، وهكذا ظلت الكنيسة ترى ضرورة إلزام رجال الإكليروس بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة؛ لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تطهر النفس زيادة على دعم النظام الكنسى نفسه(٧٢)، والمعروف أن الاتجاه السائد منذ القرن العاشر كان يميل إلى توريث الوظائف الإقطاعية، مما أدى بدوره إلى اتجاه رجال الدين المتزوجين نحو توريث وظائفهم الدينية لأبنائهم، الأمر الذى جعل منهم طبقة وراثية وأنزل أبلغ الضرر بالنظام الكنسى. وعلى ذلك فالكنيسة كانت تقر مبدأ الزواج كتشريع دينى لحفظ السلالة البشرية ولكنها عارضت فى زواج رجال الدين حفظا لكيانها ونظامها، وقد ظهرت هذه المعارضة فى القرارات التى أصدرتها مجامع روما الدينية سنة ١٠٥٠ وسنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٣، والتى حرمت على عامة الناس التعامل مع القساوسة المتزوجين(٧٣) .

على أنه إذا كانت المسائل المتعلقة بالسيمونية وزواج رجال الدين تعتبر من المشاكل الداخلية بالنسبة للكنيسة، فإن مسألة التقليد العلمانى اختلفت عنها فى كونها تتصل اتصالاً مباشراً بسلطة الحكام العلمانيين، والمقصود بالتقليد العلمانى هو أن يقوم الحكام العلمانيون - من أباطرة وملوك وأمراء - بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية ، والمعروف أن القانون الكنسى نصّ منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة

---

(٦٩) نلفت نظر القارئ إلى أننا عالجنا موضوع زواج رجال الكنيسة بشيء من التفصيل فى الباب الخاص بالنظم الدينية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(70) Cam. Med. Hist. Vol. 5. pp. 11 - 12.

(71) Eyre: op. cit. pp. 215 - 216.

(72) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 428.

(73) Eyre: op. cit. p. 216.

(74) Orton: op. cit. pp. 166 - 167.

بوساطة أساقفتهم، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأسقفية بانتخاب الأسقف، وأخيرا يعتمد كبير كبار الأساقفة ـ وهو البابا هذا الاختيار، ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام، فأصبح أصحاب الأراضى من الإقطاعيين يقومون بتعيين القساوسة، فى حين تولى الأباطرة والملوك والدوقات تعيين الأساقفة ، فيكفى أن يسلم أحدهم خاتم الأسقفية وعكازها إلى أحد الأفراد ويقول له «تسلم أسقفية كذا»، حتى يصبح أسقفا على تلك الأسقفية(٧٤).

ومن الواضح أن هذا الوضع أفاد الدولة سياسيا، إذ جعل كبار رجال الدين تابعين للحكام العلمانيين وجعل الوظائف الدينية بمثابة إقطاعات يمنحها هؤلاء الحكام لرجال الدين، ولذلك تمسك أباطرة الدولة المقدسة ـ بوجه خاص ـ بهذا الحق، واعتبروا تخليهم عنه خسارة كبرى تحيق بسلطانهم السياسى(٧٥)، ولكن الكنيسة هى التى خسرت خسرانا مبينا من جراء هذا الوضع الشاذ الذى أدى إلى تفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البابوية، بعد أن غدا الأساقفة أذناباً للملك أو الإمبراطور يعينهم لخدمته وتحقيق أغراضه، لا لخدمة الكنيسة وتحقيق أغراضها، فالكنيسة كانت تريد من رجالها أن يخضعوا للبابوية وحدها وينصرفوا لخدمة وظائفهم الدينية، فى حين أراد الحكام العلمانيون أن يسيطروا على رجال الدين سيطرة إقطاعية وأن يتحكموا فى تعيينهم حتى يكونوا أداة فى أيديهم، ولا سيما أن رجال الكنيسة كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة ـ التى تستطيع القراءة والكتابة ـ ومن ثم اشتدت حاجة الحكام العلمانيين إليهم فى الشئون الإدارية(٧٦).

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى تدخل الملوك والأمراء فى اختيار البابوات أنفسهم، فأخذ أمراء روما يسيطرون على البابوية ـ وبوجه خاص بعد وفاة بندكت الثامن سنة ١٠١٤ ـ واختاروا لهذا المنصب الخطير من يحقق أغراضهم، حتى ولو كان من غير رجال الدين، مما جعل كثيرا من البابوات يستنجدون بالأباطرة الألمان كما سبق أن رأينا(٧٧)، ولكن قيام الأباطرة الألمان بحماية البابوية جعل هذه

(75) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 237.

(76) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 132.

(77) Cam. Med. Hist. Vol. 5. pp. 14 - 15.

الأخيرة صنيعة لهم، مما ساء الكرادلة المصلحين. فانتهزوا فرصة وفاة الإمبراطور هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ عن طفل صغير - هو هنرى الرابع - واختاروا البابا ستفن التاسع عقب وفاة البابا فكتور الثانى سنة ١٠٥٧[٧٨]، ويبدو أن هذا الاختيار لم يرق فى عيون أمراء روما فطردوا البابا ستفن التاسع وعينوا البابا بندكت العاشر، وعندئذ تمسك الكرادلة برأيهم ورفضوا الاعتراف بالبابا الجديد حتى تم عزله هو الآخر، ولوضع حد لهذه الفوضى دعا البابا نيقولا الثانى مجمعا دينيا فى روما سنة ١٠٥٩ لتنظيم اختيار البابا وإنقاذ البابوية من الهوة التى غرقت فيها، وكان أن قرر هذا المجمع أن يتولى الكرادلة وحدهم - وهم أساقفة روما وضواحيها السبع - انتخاب البابا على أن يستدعى الناس ورجال الاكليروس بعد ذلك لمجرد الموافقة على هذا الاختيار[٧٩]، هذا فضلا عن أنه تقرر ضرورة اختيار البابا من بين رجال الإكليروس فى روما نفسها، إلا فى حالة عدم توافر المؤهلات والشروط اللازمة للمنصب البابوى فى أحدهم، فإذا تعذر لأى سبب إجراء عملية انتخاب البابا فى روما فإنه يجوز إجراء هذه العملية فى أى مكان آخر[٨٠] ، وبذلك استطاعت البابوية أن تتحرر من نفوذ نبلاء روما وسيطرة الأباطرة جميعا، فضلا عن أن اختيار البابا أصبح انتخابيا فى هيئة مختارة من صفوة رجال الكنيسة. لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن هذا الإجراء كان الخطوة الأولى فى سبيل إقامة حكومة مركزية فى الكنيسة تستطيع أن تباشر الإصلاح الكنسى بوجه عام[٨١] .

ومن الشخصيات البارزة التى ظهرت فى ذلك المجمع الدينى للكاردينال هلدبراند، الذى رأى بثاقب بصره إقناع أعضاء المجمع بعدم المساس بحقوق الإمبراطور القائم وهو هنرى الرابع ، على أن يحرم خلفاؤه من أى حق فى اختيار البابوات، ولم تلبث شهرة هلدبراند ومكانته أن أدت إلى المناداة به بالإجماع لتولى منصب البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم جريجورى السابع، وبذلك بدأت صفحة جديدة

---

(78) Hayward: op. cit. p. 153.
(79) Byrce: op. cit. p. 155.
(80) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 37.
(81) Eyre: op. cit. p. 134.
(82) Byrce: op. cit. p. 155.

فى تاريخ البابوية بل فى تاريخ الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى[٨٢].

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥):

والواقع أن البابا جريجورى السابع لم يكن مجددا أو مبتكرا ولم يسهم إلا بقسط ضئيل فى نظرية السمو البابوى؛ لأن هذه النظرية قديمة ترجع إلى أيام جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤)، بل أن البابا جلاسيوس الأول (٤٩٢ - ٤٩٦) حاول أن يطبق هذه الاراء الخاصة بسمو البابوية فى علاقته مع الإمبراطور أنسطسيوس[٨٣]، ولكن إذا كانت نظرية السمو البابوى فى ذاتها ليست وليدة أفكار جريجورى السابع إلا أن من حقه أن يفخر بأنه أول من طبق هذه النظرية فى إصرار وعناد[٨٨]، ذلك أنه كان يقدر ضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها حتى قال: «إننى لا أقبل البقاء فى روما يوما واحدا إذا أدركت أننى عديم الجدوى للكنيسة».

وكان أن عقد جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ لمعالجة مشاكل الكنيسة فى ذلك الوقت وهى - كما سبق - السيمونية، وزواج رجال الدين ، والتقليد العلمانى[٨٥]، وقد أصدر هذا المجمع عدة قرارات تقضى بفصل كل من توصل إلى منصب فى الكنيسة عن طريق الشراء، وأن لا يسمح فى المستقبل بشراء الحقوق الكنسية وبيعها، كذلك تقرر فصل كل عضو فى الكنيسة اتهم بالتبذل والاستسلام لشهواته، أمّا عن زواج رجال الدين فقد دعا جريجورى السابع الجمهور المسيحى إلى عدم التعاون مع أى قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بسنن الرسل وتعاليم البابوية كما منع القساوسة المتزوجين من الوعظ فى الكنائس وحرم على الناس الاستماع إليهم[٨٦].

على أنه إذا كان جريجورى السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية فى الكنيسة، فإنه كان من المتعذر عليه مكافحة

---

(83) Idem, p. 158.

(84) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 271.

(85) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 61.

(86) Byrce: op. cit. p. 135.

مبدأ التقليد العلمانى دون الاصطدام بالحكام العلمانيين وعلى رأسهم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة صاحب النفوذ السياسى الواسع فى ألمانيا وإيطاليا، وتتضح لنا نظرة جريجورى السابع إلى الحكام العلمانيين ومكانتهم من رجال الدين فى عبارته الشهيرة «إن قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله، إن البابا سيد الأباطرة؛ لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس» . أما خير ما يلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحى العالمى، فهى المجموعة التى تنسب إلى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل (حوالى سنة ١٠٨٧)، وتعرف هذه المجموعة باسم الإرادة البابوية أو الأوامر البابوية (Dictatus Papae) وأهم موادها[٨٧]:

- البابا وحده هوالذى يتمتع بسلطة عالمية.
- البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم.
- جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .
- للبابا الحق فى عزل الأباطرة.
- لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام إلا بأمر البابا.
- ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس.
- لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته.
- للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وأيمان الولاء التى أقسموها لحاكمهم.

وهكذا يبدو من الآراء السابقة أن جريجورى السابع آمن إيمانا قويا بأن البابا له السلطة العليا فى حكم المجتمع المسيحى Societas Christiani وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائبا عن القديس بطرس. فإذا امتنع حاكم علمانى عن تنفيذ تعاليم الكنيسة فإن لها أن تحاربه بالأسلحة الروحية والمادية Spiritualibus et Saeclaribus armis وبعبارة أخرى فإن جريجورى السابع رأى

(87) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 439 - 440.

(88) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 281.

أن الطريق الوحيد لإصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور، هو إخضاعه للكنيسة وإخضاع الكنيسة للبابوية. لذلك وجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلمانى هذا نصه:

«إن أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين، يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس، وإذا جرؤ إمبراطور أو ملك أو دوق أو كونت، أو أى شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فإنه يحرم من الكنيسة فورا»(٨٩).

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعنى تحرير جميع رجال الدين من الأسقفيات والكنائس والأديرة من إشراف الملوك والأمراء فى مختلف البلاد، كما يعنى جعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين فى العالم المسيحى الغربى، من حيث تعيينهم فى مناصبهم والفصل فى مشاكلهم والإشراف على أعمالهم(٩٠).

وهكذا أخذت سياسة جريجورى السابع تنذر بصدام عنيف مع الحكام العلمانيين، فرفض وليم الفاتح ملك إنجلترا الاعتراف بسيادة البابوية والتبعية لها(٩١). فى حين لم يعبأ فيليب الأول ملك فرنسا(١٠٦٠ - ١١٠٨) بآراء البابا وطلباته واستمر فى سياسته نحو الكنيسة(٩٢)، أما أباطرة ألمانيا فكان من الطبيعى ألا يقبلوا قرار جريجورى السابع العنيف الذى يمس سيادتهم وإشرافهم على رجال الدين فى بلادهم ولاسيما أن نصف أراضى ألمانيا وثرواتها كانت بأيدى رجال الدين من أساقفة وديريين ، فكان معنى تنفيذ قرار جريجورى السابع خروج هذه الأراضى من قبضة الإمبراطورية ودخولها تحت سيطرة البابا، الأمر الذى يجعل الحكومة الإمبراطورية ضربا من الشكليات أو المستحيلات(٩٣).

وهكذا أوشكت البابوية أن تقع فى صدام عنيف مع السلطة الزمنية والنزاع الذى

---

(89) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 367.

(90) Cam. Med. Hist. Vol. 5. pp. 64 - 65.

(91) Adams: The History of England, pp. 49 - 50.

(92) Tout: The Empire and the Papacy, p. 80.

(93) Byrce: op. cit. p. 156.

شغل أوربا طوال القرنين التاليين، حتى أصبح تاريخها فى تلك الفترة من العصور الوسطى يدور حول محور واحد، هو البابوية والإمبراطورية[٩٤]

وهنا نشير إلى أن جريجورى السابع عندما شرع فى تنفيذ سياسته الإصلاحية العنيفة لم يعتمد على سلاح التشريعات والأوامر البابوية التى أصدرها فحسب، وإنما اعتمد أيضاً على سلاح قوى، هم رجال الأديرة الكلونية أو «الرهبان السود» كما أسماهم المعاصرون، وهؤلاء كانوا قوة عظمى ساندت البابا فى سياسته واعتمد عليهم فى تنفيذها، كما اختار منهم مندوبيه ورسله إلى الزعماء العلمانيين والدينيين[٩٥].

---

(94) Ullmann: Madiaeval Papalism, p. 1.

(95) Hayward: op. cit. pp. 158.

الباب الرابع عشر
الإمبراطورية والبابوية

عندما توفى هنرى الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ خلفه ابنه هنرى الرابع الذى كان عندئذ فى السادسة من عمره، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة (١٠٥٦ - ١٠٧٢)[١]، ولا شك فى أن قيام صبى قاصر على عرش الإمبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الإمبراطورية وسلطانها، فى الوقت الذى نفخت الحركة الكلونيةروحا جديدة فى الكنيسة الغربية أدت إلى ازدياد نفوذ البابوية التى وجدت حلفاء أقوياء لها فى النورمان بجنوب إيطاليا من جهة، وفى كونتية تسكانيا من جهة أخرى[٢].

ولم يكن منتظرا أن تستطيع آجنى Agnes ـ أم هنرى الرابع وصاحبة الوصاية عليه ـ الوقوف فى وجه كبار الدوقات والأمراء، فدبر آنون ـ Annon ـ رئيس أساقفة كولونيا ـ مؤامرة لخطف الملك الصغير ووضعه تحت وصايته سنة (١٠٦٢)[٣] الأمر الذى استدعى تنحى الإمبراطورة الوالدة عن الوصاية بعد ست سنوات (١٠٥٦ - ١٠٦٢) ثم تسليم مقاليد الحكم لهنرى الرابع سنة ١٠٦٥ على الرغم من أنه كان وقتئذ فى الخامسة عشر من عمره[٤]، ويبدو أن السلطة الفعلية فى الدولة أصبحت فى تلك الفترة بأيدى أدالبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن الذى كان رجلا طموحا فسيطر على شئون الكنيسة والدولة جميعا، واستباح أموال الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية وغير الدينية، هذا فى الوقت الذى استطاع أدالبرت أن يحتفظ لهنرى الرابع بسلطانه على الجزء الشمالى من ألمانيا[٥]. على أن هذا الوضع لم يلبث أن أثار حنق الأمراء، فعقدوا مؤتمرا فى تريبور Tribur سنة ١٠٦٦ وخيروا الملك الصغير بين عزل أدالبرت أوترك العرش، فاختار الملك الحل الأول، وإن ظل أدالبرت

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 112.

(2) Eyre: op. cit. p. 137.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 351.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 122.

(5) Barraclough: op. cit. pp. 93 - 94.

محتفظا بنفوذه خلال فترات متقطعة[٦]، وهكذا لم يتيسر إيجاد حل للموقف يكفل للإمبراطورية شيئا من الاستقرار ، فقامت ثورة فى ثورنجيا سنة ١٠٦٩ وأخرى فى بافاريا سنة ١٠٧٠ ، كما أخذت إيطاليا تفلت تدريجيا من قبضة الإمبراطورية[٧].

وبوفاة أدالبرت سنة ١٠٧٢ يمكن القول بأن هنرى الرابع أخذ يباشر الحكم فى صورة عملية، ويبدو أنه كان قليل الثقة فى ولاء أهالى الأجزاء الشمالية من ألمانيا فاختار وزراءه المقربين من مقاطعة سوابيا الجنوبية التى ينتمى هو إليها، وأكثر من تشييد القلاع فى سكسونيا وثورنجيا فى الشمال[٨]، كما حشد تلك القلاع بالجند الذين أتوا كثيرا من أعمال العبث والاعتداء على الفلاحين، ولم تلبث هذه السياسة التى انتهجها هنرى الرابع أن استثارت غضب أمراء الشمال، فثارت سكسونيا وبافاريا سنة ١٠٧٣ ، واشترك فى هذه الثورة الأمراء ورجال الدين فضلا عن المزارعين الأحرار[٩]، وعندما نجح هنرى الرابع فى إخماد تلك الثورة سنة ١٠٧٥ صمم على حكم البلاد حكما استبداديا ، وإن كان هذا الأسلوب لم يؤد إلى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضاع فى ألمانيا، وخاصة فى سكسونيا التى ظلت تتحين الفرص للثورة ضد الملك، مما جعلها تلعب دورا مهما فى الصراع المقبل بين هنرى والبابوية[١٠].

وفى ذلك الوقت كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم البابا جريجورى السابع، ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا بأس البابا الجديد لما عرف عنه من شدة وصرامة، فحرضوا هنرى الرابع على إلغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التى نص عليها مجمع روما الدينى سنة ١٠٥٩ ، وإنما أوصى البابا إسكندر الثانى باختياره خليفة له مما جعل جموع المصلين على البابا الراحل تنادى بهلدبراند بابا فى كنيسة القديس بطرس بروما[١١]، ولكن هنرى الرابع اختار ألا يطيع أساقفة ألمانيا فيما ذهبوا إليه، واكتفى بأن أرسل إلى روما مستفسرا عن

(6) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127 - 128.
(7) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 447 - 448.
(8) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127 - 128.
(9) Barraclough: op. cit. p. 95.
(10) Eyre: op. cit. p. 137.
(11) Hayward: op. cit. pp. 156 - 157.

الظروف التى أحاطت باختيار البابا الجديد، وعندئذ أظهر جريجورى السابع - هو الآخر - كثيرا من الاعتدال، فأجل بقية المراسم الخاصة بتوليه المنصب البابوى حتى تتم موافقة هنرى الرابع على اختياره ولم تلبث أن صدرت هذه الموافقة فى يونية سنة ١٠٧٤، وليس أدل على حسن التفاهم بين الملك هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع فى تلك المرحلة من أن الأول استقبل البعثة التى أوفدها البابا إلى ألمانيا سنة ١٠٧٤ بكل ترحاب، كما وافق هنرى على فصل خمسة من كبار أعوانه كان البابا إسكندر الثانى قد اتهمهم بالسيمونية وأصدر قرار الحرمان ضدهم(١٢).

على أن جريجورى السابع لم يلبث أن شرع يعالج أمراض الكنيسة فى شدة وحزم، وكان أن استغل البابا فرصة الاضطرابات التى نشبت فى سكسونيا وأصدر فى ديسمبر سنة ١٠٧٤ قراراً بمنع جميع القساوسة المتزوجين فى ألمانيا من مباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس، مما أوجد حالة من الاستياء وعدم الاستقرار(١٣)، وبعد عدة أشهر - أى فى فبراير ١٠٧٥ - أصدر جريجورى السابع قراره العنيف ضد التقليد العلمانى، كما سبق أن أشرنا، الأمر الذى أزعج هنرى الرابع بوجه خاص وبقية ملوك الغرب بوجه عام، وأثار مخاوفهم جميعا(١٤)، ذلك أن حرمان الملك من حق تعيين رجال الدين معناه قلب نظام الحكم فى الإمبراطورية رأسا على عقب، مما تطلب من هنرى اتخاذ موقف حازم تجاه القرارالبابوى السابق، وكان أن تجمعت عدة عوامل لتساعد هنرى على الصمود فى وجه البابا، أهمها فراغه من ثورة سكسونيا فضلا عن تأييد الأساقفة الألمان له؛ لتخوفهم من شدة البابا الجديد وعنفه(١٥)، ومهما يكن من أمر فقد أدت سياسة جريجورى من ناحية، وموقف هنرى الرابع من هذه السياسة من ناحية أخرى، إلى فتح باب النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى، والواقع أن هذا النزاع - الذى بدأ حول مشكلة التقليد العلمانى - له أهميته البالغة فى التاريخ؛ لأنه أعمق من مجرد خلاف شكلى حول بعض المراسم الكنسية - كما يظن

---

(12) Barraclough: op. cit. p. 108.

(13) Ibid.

(14) Bryce: op. cit. 156.

(15) Tout: The Empire and the Papacy, p. 128.

البعض ـ وربما كان من الأصوب أن نتذكر دائما أن تقليد رجال الدين والنزاع الذى نشأ حول هذا التقليد، لم يكن سوى محورا للحركة الإصلاحية الكنسية الكبرى، وهى الحركة التى أكسبت ذلك العصر طابعه العام(١٦).

وقد مرّ النزاع بين البابوية والإمبراطورية بعدة أدوار، يحسن أن نعالج كلا منها على حدة، مع عدم إغفال بقية التطورات التاريخية التى تعرضت لها الإمبراطورية المقدسة خلال حوادث النزاع.

الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية:

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة، وخاصة فى شمال إيطاليا، إذ أصر كل من البابا والملك على أنه له وحده حق تعيين من يشغلون هذه المناصب، وتمسك كلاهما برأيه؛ لأنه رأى فى انتصار خصمه تحطيما للمبدأ الذى يسعى هو من أجل تحقيقه، فهنرى الرابع وجد من تمسكه برأيه محافظة على حقه الذى ورثه عن أسلافه، وأن نجاحه فى فرض رأيه أمر تتوقف عليه هيبته فى إيطاليا وغير إيطاليا من بلدان الإمبراطورية، ولذلك أسرع بتعيين اثنين من أتباعه فى أسقفيتى فرمو Formo وسبوليتو Spoleto على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلا داخل منطقة النفوذ البابوى(١٧). أما جريجورى السابع فقد تمسك من جانبه بنظرية السمو البابوى بحكم أن البابا خليفة المسيح فى الأرض ووارث القديس بطرس فى الغرب، كما اعتبر نجاحه فى فرض رأيه علي الإمبراطور أمرا تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية فضلا عن سياسته فى الإصلاح الكنسى، وهى السياسة التى شرع فعلا فى تنفيذها.

ثم كان أن تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنرى الرابع أسقفا جديدا لميلان هو تدالد Tedald ـ سنة ١٠٧٥، وحينئذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع(١٨)، ويبدو أن جريجورى السابع كان مستعدا عندئذ للتحدى والنزول، فأرسل

(16) Eyre: op. cit. p. 137.

(17) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 451.

(18) Fliche: L'Europe Occidentale, Vol 1, p. 370.

رسالة شديدة اللهجة إلى هنرى الرابع فى أواخر سنة ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والثبور إن لم يخضع لرأى البابوية، وكان أن ثارت ثائرة الملك فعقد مجمعا فى ورمز Worms (يناير ١٠٧٦)، قرر بطلان انتخاب البابا جريجورى السابع ثم عزله من منصبه[١٩]، وعندما سمع جريجورى السابع بهذا القرار قابله بشىء من الهدوء، فدعا هو الآخر مجمعا فى الفاتيكان (فبراير ١٠٧٦) قرر توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من إيمان الطاعة والتبعية التى أقسموها له، وبذلك بدأت الحرب سافرة بين العاهلين[٢٠].

ومع أن موقف الطرفين كان حرجا وصعبا ، إلا أن من الواضح أن هنرى الرابع وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة من خصمه؛ لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثيرين من أبناء العالم المسيحى بوصفه الأب الروحى للكنيسة، فى حين كان هنرى الرابع لا يستطيع الاعتماد حتى على ولاء رعاياه، بعد أن وقع عليه البابا عقوبتين: الأولى عقوبة الحرمان بوصفه مسيحًا، والثانية عقوبة العزل بوصفه ملكا[٢١]، وبعبارة أخرى فإن كفتى البابوية والإمبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقا عند بداية النزاع، بل طيلة الأدوار التالية التى مرّ بها ذلك النزاع؛ لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد دائما على أسلحة قوية أهمها أحاسيس المعاصرين وعواطفهم فضلا عن الأسانيد المستقاة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها، هذا فى حين لم يكن للإمبراطور سوى سندين: أولهما القانون الرومانى الذى يمجد الإمبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها، وثانيهما الجيش الإمبراطورى الذى ثبت عجزه فى أكثر من مناسبة عن إخضاع البابوية [٢٢]، والواقع أن هنرى الرابع لم يجد له نصيرا سوى تلك الفئة القليلة من رجال الدين الألمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سندا حقيقيا للملك، أما ذوو المكانة من

(19) Barraclough: op. cit. p. 109.

(20) Hayward: op. cit. p. 160.

(21) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 301.

(22) Ullmann: Medieval Papalism, p. 78.

الأساقفة وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعا البابوية فى موقفها المعادى للملك[٢٣]، وسرعان ما انتهز السكسون فرصة قرار البابا بتحرير أتباع هنرى الرابع ورعاياه من أيمانهم وتعهداتهم وثاروا ضده ثورة عنيفة، حتى طردوا الحاميات الملكية من أراضيهم[٢٤]، وهكذا تلفت هنرى الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء إذ كانوا جميعا يخشون نزعته الاستبدادية، وكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها مجمعا فى تريبور Tribur (أكتوبر ١٠٧٦) قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع وإنذاره باختيار ملك غيره على ألمانيا إن لم يغفر له البابا فى مدة أقصاها فبراير ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ فى أحد الأديرة محروما من جميع شعائر الملكية وحقوقها[٢٥].

وكان أن انسحب هنرى الرابع إلى ذلك الدير وفكر فى موقفه،وإن كان الموقف فى غير حاجة إلى تفكير طويل، ذلك أنه وجد نفسه وحيدا أمام خصم عنيد لايرحم، فلابد له من التراجع والاستسلام إذا أراد إنقاذ عرشه، ولاسيما أن الأمراء الألمان وجهوا الدعوة إلى البابا للحضور إلى أوجسبرج؛ مما تطلب من هنرى الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه فى ألمانيا فيؤدى ذلك إلى مظاهرة عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد فى موقفه[٢٦]، وأخيرا لم يجد هنرى الرابع أمامه حلا سوى أن يرحل سرا إلى البابا، فى الوقت الذى كان الأخير قد بدأ رحلته فعلا إلى ألمانيا، ولكنه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنرى الرابع عبر الألب فى اتجاهه، واحتمى البابا فى قلعة كانوسا التابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا[٢٧]، وكان البرد قارسا عندما أخذ هنرى الرابع يصعد الطريق الجبلى الوعر إلى قلعة كانوسا، حيث بقى ثلاثة أيام واقفا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه، حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون

---

(23) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 68.
(24) Eyre: op. cit. p. 138.
(25) Tout: The Empire and the Papacy, p. 130.
(26) Barraclough: op. cit. p. 110.
(27) Stephenson: Med. Hist. p. 291.

قيد (يناير ١٠٧٧)[٢٨]، ويقال إن هنرى الرابع دخل على البابا حافى القدمين ومرتديا ثوباً من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف، حتى إذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتمى بين قدميه وانفجر باكيا وهو يصيح «اغفر لى أيها الأب المقدس»، فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية وزوده بالنصح والإرشاد[٢٩].

وهكذا استطاع هنرى الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطالب بولاء رعاياه،ولكن بعد أن دفع ثمنا باهظا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة، فها هو حاكم الإمبراطورية العظيم بذل نفسه للبابوية واعترف بحقها فى حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من وظيفته، وها هو خليفة قيصر وشارلمان ارتضى أن يقف البابا موقف الحكم بينه وبين شعبه، إن شاء أمرهم بالخروج عن طاعته وإن شاء أمرهم بالامتثال له، لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التى أنزلتها البابوية بالإمبراطورية فى كانوسا كانت قاصمة، وأن الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقا بعد ذلك[٣٠].

والواقع ـ كما يبدو فى ضوء التطورات التالية ـ أن هنرى الرابع لم يستفد كثيرا من مقابلة كانوسا، كما أن هذه المقابلة لم تكن مكسبا على طول الخط بالنسبة لجريجورى السابع[٣١]، حقيقة أن البابا خرج من هذه الجولة مرفوع الرأس بعد أن حقق سمو البابوية، ولكن مسلك جريجورى السابع العنيف أثار استياء نسبة كبيرة من الرأى العام فى العالم المسيحى، فعاب كثيرون على البابا شدته وقسوته ، وهو رجل الدين الرحيم والأب الروحى الذى يجب أن يتحلى بروح التسامح والعفو عند المقدرة، أماهنرى الرابع فسرعان ما استكشف أن خسارته فى كانوسا فاقت مكسبه؛ لأن خضوعه للبابوية على ذلك الوجه المزرى لم يفده شيئا فى استرضاء أعدائه وخصومه الخارجين عليه فى ألمانيا، بل إن أنصاره من اللمبارديين فى شمال إيطاليا ساءهم أن يريق الملك ماء وجهه على تلك الصورة المشينة فنادوا بخلعه وإحلال ابنه محله[٣٢]،

---

(28) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 69.

(29) Hayward: op. cit. p. 161.

(30) Orton: op. cit. p. 212.

(31) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.

(32) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 455.

هذا في الوقت الذي اعتبر أمراء ألمانيا فرار الملك سرا إلى كانوسا خروجا على العهد الذي أخذه على نفسه تنفيذا لقرارات تريبور التي قضت بانزوائه في أحد الأديرة حتى يغفر له البابا(٣٣)؛ ولذلك عقد الأمراء الألمان مؤتمرا في فورخهايم Forchheim (مارس سنة ١٠٧٧) قرروا فيه عزل هنري الرابع عن العرش واختيار رودلف دوق سوابيا ملكا بدله، وهنا حرص الأمراء قبل البدء في الإجراءات الخاصة بتتويج الملك الجديد على يد أسقف مينز، على أن يأخذوا عليه موثقا بألا يطالب بأي حق وراثي لأبنائه في العرش وألا يتدخل في حرية انتخاب الأساقفة(٣٤).

على أن شعور العطف على هنري الرابع أخذ يتزايد في سرعة حتى بلغ حداً أصبحت عنده معظم ألمانيا في جانبه، ما عدا سكسونيا التي ناصرت رودلف، وقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين قرابة ثلاث سنوات (١٠٧٧ - ١٠٨٠)، ولايعنينا من حوادثها الكثيرة المعقدة سوى أنها فتحت باب النزاع من جديد بين هنري الرابع وجريجوري السابع، ذلك أن البابا اختار أن يقف على الحياد في المرحلة الأولى من مراحل الحرب بين هنري ورودلف حتى يحصل من الطرفين على اعتراف بسيادته(٣٥)، وعندما انتصر رودلف على خصمه في موقعة فلارخهايم Flarchheim (يناير سنة ١٠٨٠) أعلن البابا رأيه صراحة في أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون فعقد مجمعا دينيا في مارس من السنة نفسها قرر إعادة توقيع قرارالحرمان على هنري الرابع وإقصاءه عن عرش الإمبراطورية(٣٦).

وهكذا أخذ جريجوري السابع ينادي بأنه قبل أن تحل بداية العام التالي سيكون هنري الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعا، ولكن شاءت الظروف ألا تحقق له شيئاً من أمانيه، ذلك أن هنري الرابع أدرك أنها معركة حياة أو موت فأظهر إصرارا وحماسة بالغين ولاسيما بعد أن آمن بوجود أنصار كثيرين له في إيطاليا وألمانيا(٣٧)؛ لذلك ردّ

---

(33) Barraclough: op. cit. p. 110.
(34) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.
(35) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 72.
(36) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 409.
(37) Tout: The Empire and the Papacy, p. 133.

هنرى الرابع على البابا بعقد مجمع آخر فى بركسن Brixen (يونية ١٠٨٠) دعا إليه أنصاره من أساقفة ألمانيا وشمال إيطاليا، وقرر هذا المجمع عزل البابا جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة وانتخاب جيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليخلفه فى منصب البابوية[٣٨]، وقد امتاز هذا البابا الجديد ـ الذى اخذ اسم كلمنت الثالث ـ بالخبرة الطويلة والكفاية العظيمة فأسرع عقب مؤتمر بركسن إلى رافنا؛ ليوجه الأمور فى شمال إيطاليا ضد منافسه جريجورى السابع، وهكذا اشتدّ النضال وتعقد الموقف، بعد أن وجد على المسرح اثنان من البابوات يتنازعان على كرسى البابوية واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الإمبراطورية[٣٩] واختار الحظ أن يقف فى جانب هنرى الرابع وكلمنت الثالث فى ألمانيا وإيطاليا جميعا، إذ دارت معركة حامية (أكتوبر سنة ١٠٨٠) على ضفاف نهر إلستر Elster انتصر فيها حزب رودلف من السكسون ولكن رودلف نفسه قتل وبذلك استراح هنرى الرابع من منافس خطير[٤٠]، وعندما وجد هنرى الرابع أن السكسون أضاعوا ثمرة انتصارهم فى الخلاف حول اختيار خليفة لرودلف، أسرع بعبور جبال الألب إلى إيطاليا (مارس ١٠٨١)؛ لمواجهة خصمه اللدود جريجورى السابع ، وكان أن اجتمع هنرى الرابع بنصيره كلمنت الثالث فى رافنا ثم تقدم على رأس قواته صوب روما [٤١]، وفى تلك المرحلة الحاسمة لم يجد البابا سندا يعتمد عليه سوى قوة حليفته الأميرة ماتيلدا، من جهة وقوة النورمان من جهة أخرى، ولكن شاء سوء حظ جريجورى السابع أن تصاب قوات الأميرة ماتيلدا بهزيمة ساحقة عند فولتا Volta قرب مانتوا، فى حين كان روبرت جويسكارد النورمانى مشغولا بمشروعه الخاص بغزو الدولة البيزنطية؛ مما جعل الطريق مفتوحا أمام هنرى الرابع إلى روما[٤٢]، أما جريجورى السابع فلم يفقد ثباته فى ذلك الموقف وإنما اعتمد على حصانة روما، وبذلك ظل هنرى الرابع فى إيطاليا نحو ثلاث سنوات (١٠٨١ – ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها إلا

---

(38) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 351 - 352.

(39) Barraclough: op. cit. p. 125.

(40) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 413.

(41) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 78.

(42) Barraclough: op. cit. p. 125.

بعد رشوة الحراس لفتح أبواب المدينة (مارس ١٠٨٤)، وفى روما أسرع هنرى الرابع إلى دعوة مجمع دينى قرر عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة، وأعقب ذلك اعتلاء كرسى البابوية فى روما وتتويج هنرى الرابع إمبراطوراً فى كنيسة القديس بطرس[٤٣].

أما جريجورى السابع فكان قد احتمى بسانت أنجيلو - قلعة روما الحصينة - ومن هناك أرسل يستحث حلفاءه النورمان فى جنوب إيطاليا للإسراع إلى نجدته. وكان أن تقدم جويسكارد النورمانى نحو روما، لا حرصا على مساعدة البابا جريجورى السابع ولكن خوفا من ازدياد نفوذ هنرى الرابع فى إيطاليا، مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم[٤٤]، ولم يكن هنرى الرابع على درجة من القوة تمكنه من الوقوف فى وجه النورمان فآثر مغادرة روما قبل أن يصلوا إليها، واتجه إلى ألمانيا حيث كانت الظروف تستدعى وجوده[٤٥]، وهنا أسرع أهالى روما إلى إغلاق أبواب مدينتهم فى وجه النورمان خوفا من عبثهم، مما تطلب من جويسكارد استخدام العنف حتى اقتحم المدينة (مايو ١٠٨٤)، فانساب رجاله فى شوارعها ينهبون، ويدمرون، ويحرقون كل ما صادفهم حتى احترقت أحياء بأكملها وبيع آلاف من أهل روما فى أسواق الرقيق، ثمّ انسحب النورمان بعد ذلك إلى جنوب إيطاليا، تاركين روما تنعى مجدها وحرمتها[٤٦]، وقد أثارت هذه الأحداث الرأى العام ضد جريجورى السابع الذى تسبب فيما حلّ بروما على أيدى حلفائه النورمان، لذلك خشى جريجورى السابع أن يبقى وحيدا فى روما وسط مظاهر السخط التى أحاطت به، وآثر مرافقة حلفائه النورمان إلى سالرنو حيث مرض ومات فى مايو ١٠٨٥[٤٧]، وكانت آخر عبارة فاه بها جريجورى السابع وهو على فراش الموت قوله: «لقد أحببت العدالة وكرهت الظلم ولذا فإنى أموت مغتربا»[٤٨].

---

(43) Hayward: op. cit. p. 162.

(44) Tout: The Empire and the Papacy, p. 135.

(45) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 420.

(46) Haskins: The Normans in Eyropean History; p. 205.

(47) Hayward: op. cit. p. 162.

(48) Bryce: op. cit. p. 160.

على أن وفاة جريجورى السابع لم تضع حلا لمشكلة التقليد العلمانى؛ لأن البابا كلمنت الثالث لم يستطع البقاء فى روما بعد أن حولها النورمان إلى حطام، فغادرها إلى رافنا بشمال إيطاليا، وهكذا ظل الكرسى البابوى شاغرا فى روما زهاء سنة بعد وفاة جريجورى السابع حتى اجتمع الكرادلة واختاروا فكتور الثالث لمنصب البابوية (مايو ١٠٨٦)[٤٩]، وكان هذا البابا الجديد صديقًا حميمًا لجريجورى السابع ومن أنصار مبادئه، ولكنه كان بحكم كبر سنه ـ أضعف من أن يقوم بالدور الذى قام به سلفه القوى، وعند وفاة فكتور الثالث فى أواخر ١٠٨٧، اختار الكرادلة رجلا أصلب عودا هو البابا أوربان الثانى الذى شابه جريجورى السابع فى تحمسه للإصلاح الكنسى، ولكنه امتاز عنه بالحرص والمهارة فى انتقاء الوسائل التى ينفذ بها أغراضه، معتمدا على التحالف بين البابوية من جهة، والأميرة ماتيلدا والنورمان من جهة أخرى[٥٠]، على أن أوربان الثانى لم يستطع الإقامة فى روما طويلا؛ بسبب احتلال قوات البابا الإمبراطورى ـ كلمنت الثالث ـ لقلعتها، فاتجه إلى جنوب إيطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده تحت حماية روجر الأول النورمانى[٥١]، وكان أهم ما قام به أوربان الثانى فى تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنرى الرابع فى ألمانيا وإيطاليا، وذلك عن طريق عقد زواج سياسى سنة ١٠٨٩ بين الأميرة ماتيلدا حليفة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف Welif الخامس دوق بافاريا، وهو أقوى منافسى هنرى الرابع[٥٢].

وفى ذلك الوقت كانت الأحوال قد هدأت نسبيًا فى ألمانيا فأخذ هنرى الرابع يوجه نشاطه نحو إيطاليا وانتقل إليها من جديد سنة ١٠٩٠[٥٣]، وامتازت الأعمال الحربية التى قام بها هنرى الرابع فى إيطاليا بين سنتى ١٠٩٠ – ١٠٩٢ بالنجاح والتوفيق، فاجتاح أراضى الأميرة ماتيلدا واستولى على مدنها وقلاعها، ما عدا قلعة كانوسا التى منى بالفشل أمامها لمناعتها[٥٤]، ويبدو أن عجز هنرى الرابع أمام كانوسا

(49) Hayward: op. cit. p. 163.
(50) Barraclough: op. cit. p. 126.
(51) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.
(52) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 435.
(53) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 146.
(54) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.

شجع خصومه، فحرضوا ابنه كونراد على الثورة ضد أبيه سنة ١٠٩٣ وانحاز كثير من المدن اللمباردية إلى الابن الثائر الذى توج فى ميلان ملكا على إيطاليا فى السنة نفسها، وقام بتتويجه رئيس أساقفتها انسلم بموافقة ماتيلدا أميرة تسكانيا وزوجها الولفى(٥٥)، أما البابا أوربان الثانى فقد شجعته هذه الأحداث على العودة إلى روما فى أواخر سنة ١٠٩٣، ومن ثم أخذ يجوب البلاد ويعقد المجامع الدينية لتقوية جانب الكنيسة، وكان أن أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥، وبذلك حقق للبابوية نصراً عظيماً وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحى فى صراعه الطويل ضد المسلمين(٥٦)، وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة بالإمبراطور هنرى الرابع إلى مغادرة إيطاليا يائسا سنة ١٠٩٧، وعندئذ لم يجد أمامه حلا سوى تسوية مشاكله فى ألمانيا تسوية هادئة، فعين الابن الأكبر للأمير ولف دوقا على بافاريا فى حين أقنع الابن الأصغر لذلك الأمير بترك عروسه ماتيلدا التى تكبره سنا، أما كونراد ـ ابن الإمبراطور ـ فقد حرمه أبوه من وراثة العرش وأحل محله أخاه الصغير الذى توج فى حياة أبيه(٥٧).

ولم ينقطع البابا أوربان الثانى فى تلك الأثناء عن العمل على توطيد مركزه فى إيطاليا وتصفية المشاكل المعلقة بين البابوية والنورمان فى الجنوب، وذلك عندما توفى فجأة فى يوليو ١٠٩٩، ثم لحق به منافسه البابا الإمبراطورى كلمنت الثالث فى العام التالى، وعلى الرغم من أن هنرى الرابع رغب حينئذ فى الصلح مع البابوية إلا أن الشروط التى طلبها أوربان الثانى ثم تمسك بها خليفته باسكال الثانى جعلت تحقيق هذا الصلح أمرا متعذرا(٥٨). ذلك أن البابا الجديد باسكال الثانى الذى تمّ انتخابه فى أغسطس سنة ١٠٩٩ كان شديد التمسك بمبادئ جريجورى السابع وآرائه، ومن ثم بدأ أعماله بإصدار قرار الحرمان للمرة الثالثة ضد هنرى الرابع، كما أخذ يحرض السكسون ضده حتى ثاروا بزعامة ابنه هنرى الصغير سنة ١١٠٤(٥٩)، ويبدو أنه لم

---

(55) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 440 - 441.

(56) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 147.

(57) Tout: The Empire and the Papacy, p. 139.

(58) Barraclough: op. cit. pp. 126 - 127.

(59) Hayward: op. cit. p. 170.

يتبق لدى هنرى الرابع وقتئذ من الصبر والعزيمة ما يكفى للدخول فى صراع جديد ضد البابوية، فاستسلم لابنه هنرى الخامس وتنازل له عن العرش سنة ١١٠٥ ثم لم يلبث أن توفى الأب فى العام التالى.

وسرعان ما أدرك هنرى الخامس أن خيانته لأبيه لم تفده كثيرا، وأن البابوية التى اعترفت به ملكا فى حياة أبيه أخذت تعكر أمامه الجو داخل ألمانيا وخارجها، هذا فى الوقت الذى استكشفت البابوية أن هنرى الخامس لم يقل عن أبيه تمسكا بحقوقه فى التقليد العلمانى، وأنه أخذ ـ بمجرد اعتلائه العرش ـ يملأ الأسقفيات الشاغرة فى الإمبراطورية وفق هواه دون الرجوع إلى رأى البابوية[٦٠]، وهكذا استمرت مشكلة التقليد العلمانى دون حل، إذ تمسك كل من البابا والإمبراطور بحقوقه فى تقليد الأساقفة، وبعد أن قضى هنرى الخامس سنتين فى حروب ضد هنغاريا وبوهيميا، عزم على تصفية الموقف مع البابوية، ولكن هنرى الخامس ـ على النقيض من والده ـ قرر الاتفاق أولا مع كبار الأمراء؛ ليجعل من ألمانيا جبهة متحدة تسانده فى صراعه المقبل ضد البابوية[٦١]، وهكذا استطاع هنرى الخامس أن يستأنف معركة التقليد العلمانى وهو مطمئن تماما إلى مساندة أمراء ألمانيا وأساقفتها ، فرحل إلى إيطاليا سنة ١١١٠ على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل ليتوج إمبراطوراً فى روما وليثبت حقوق الإمبراطورية[٦٢] وفى تلك المرة لم يصادف هنرى الخامس مقاومة تذكر فى إيطاليا بسبب حالة الانقسام التى كانت تعانيها من جهة وعدم كفاية البابا باسكال الثانى من جهة أخرى، وربما كان من العوامل التى أضعفت مركز البابا فى تلك المرحلة أن ماتيلدا ـ أميرة تسكانيا ـ وهى الحليفة التقليدية للبابوية فى نضالها ضد الإمبراطورية، أسرعت هذه المرة بالخضوع لهنرى الخامس وأعلنته وارثاً لها فى إماراتها، وبذلك نكثت عهدها السابق بمنح أراضيها للبابوية[٦٣]، وفى تلك المحنة لم يبق أمام البابا باسكال الثانى سوى أن يفكر فى الوصول إلى حل سلمى مع هنرى الخامس عندما اقترب الأخير من روما على رأس قواته فى أوائل سنة ١١١١[٦٤].

---

(60) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 454 - 455.

(61) Barraclough: op. cit. pp. 128 - 129.

(62) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 155.

(63) Barraclough: op. cit. p. 129.

(64) Orton: op. cit. p. 216.

أمّا شروط الاتفاقية التى عرضها البابا على هنرى الخامس فجاءت غريبة فى طابعها جديدة فى نوعها، إذا تقضى بأن تتنازل الكنيسة عن كل ما لها من أراض وحقوق إقطاعية وقضائية حصلت عليها منذ أيام شارلمان[٦٥]، مكتفية بالعشور وبما يتبرع به الخيرون، وفى مقابل ذلك تنتهى مصلحة الإمبراطورية فى التمسك بتقليد الأساقفة، ويترك هذا الحق للبابا وحده، ومن هذا العرض يتضح مدى استعداد الكنيسة للتضحية بكل ما تمتعت به من حقوق وامتيازات دنيوية مقابل احتفاظها بحقوقها الروحية، وعلى رأسها تقليد الأساقفة والإشراف عليهم[٦٦]، ومن الطبيعي أن يقبل هنرى الخامس هذا العرض الذى يعطيه ملكية ضياع الكنيسة الواسعة، ولكن المشكلة كانت تكمن فى موقف الأساقفة ورجال الكنيسة الذين سيفقدون أملاكهم وحقوقهم وينخفضون فى معيشتهم إلى مستوى معين لم يألفوه فى القرون الأخيرة[٦٧]، وعندما اكتظت كنيسة القديس بطرس فى روما بالجموع التى وفدت لمشاهدة تتويج الإمبراطور فى يوم الأحد ٢٢ فبراير سنة ١١١١، بدأ البابا الحفل بقراءة نص الاتفاقية الجديدة بينه وبين هنرى الخامس، فثار الأساقفة الألمان والإيطاليون جميعا واشتد سخطهم على البابا الذى قبل أن يضحى بأملاكهم وحقوقهم مع احتفاظه هو بحقوق البابوية وأملاكها سليمة لم تمس[٦٨]، ولم تلبث أن امتدت الثورة إلى طرقات روما حيث أخذ الناس يعملون القتل فيمن يصادفونه من الألمان، مما جعل البابا يعدل عن الاتفاقية ويواجه هنرى الخامس وحيدا دون نصير، وكان أن ألقى ملك ألمانيا القبض على البابا والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ له فى مسألة التقليد العلمانى، فرضى البابا أن يقوم الملك بتعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى. بذلك انتصر هنرى الخامس وثار لما حل بأبيه فى كانوسا[٦٩].

على أن المخلصين من أبناء الكنيسة لم يرضوا عن هذا الاستسلام فاشتد حنقهم على البابا باسكال الثانى، ولم يجد البابا مخرجا من موقفه سوى نقض الاتفاقية

---

(65) Barraclough: op. cit. p. 129.
(66) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 460 - 461.
(67) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 102 - 103.
(68) Tout: The Empire and the Papacy, p. 143.
(69) Barraclough: op. cit. p. 130.

المعقودة بينه وبين الإمبراطور، على أساس أنها تمت تحت تأثير الضغط والإرهاب[٧٠]، وهكذا أخذت الصعاب تحيط بالإمبراطور هنرى الخامس لاسيما بعد أن دبرت بعض المؤامرت وقامت عدة ثورات ضده فى أنحاء متفرقة من ألمانيا [٧١]، وفى ذلك الوقت توفيت الأميرة ماتيلدا فى إيطاليا سنة ١١١٥ بعد أن أوصت أخيرا بممتلكاتها الواسعة للبابوية، ولو كانت وصية الأميرة ماتيلدا قد نفذت فعلا واستولت البابوية على ممتلكاتها لأصبح البابا أعظم سلطة زمنية فى إيطاليا، ولكن الإمبراطور هنرى الخامس أسرع إلى إيطاليا فى العام التالى لإثبات حق الإمبراطورية فى تلك التركة، واحتل روما سنة ١١١٧، حيث توجت زوجته الانجليزية[٧٢]، أما البابا فقد فر من روما ليحتمى بالنورمان فى الجنوب ولكنه لم يلبث أن مات سنة ١١١٨ قبل أن يبت برأى حاسم فى توقيع عقوبة الحرمان على الإمبراطور[٧٣]، وقد خلف باسكال الثانى البابا جلاسيوس الثانى (١١١٨ - ١١١٩) ثم البابا كالكستس الثانى (١١١٩ - ١١٢٥) وكان الأخير سياسيا قديراً جمع بين الصفتين الدينية والدنيوية لكونه ابن حاكم برجنديا. لذلك صمم البابا كالكستس الثانى من أول الأمر على فض النزاع مع الإمبراطورية، فعقد مجمعا دينيا لهذا الغرض فى ريمس كما أرسل مندوبين إلى الامبراطور، للتفاهم معه، بل إن البابا اتجه بنفسه نحو موزون Mouzon (أكتوبر ١١١٩) لمفاوضة الإمبراطور، لولا أن الأخير حضر على رأس مظاهرة عسكرية ضخمة جعلت البابا يفضل الإسراع بالعودة من حيث أتى[٧٤]، على أنه يبدو أن الإمبراطور هنرى الخامس كان قد ملَّ النزاع هو الآخر فأظهر استعدادا للتفاهم، وبذلك أخذ الطرفان يبحثان الإشكال لأول مرة فى جو مشبع بروح الاعتدال، والرغبة فى التفاهم، وليس معنى ذلك أن طريق التفاهم صار ممهدا سهلا، إذ يبدو أن الجروح القديمة لم تكن قد اندملت بعد، ومن ثم دفع الشك الجانبين إلى الدخول فى تفاصيل

---

(70) Hayward: op. cit. p. 172.

(71) Tout: The Empire and the Papacy, p. 144.

(72) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 104.

(73) Barraclough: op. cit. p. 131.

(74) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 479.

صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد هنرى الخامس سنة ١١٢٠ (٧٥).

ولم يلبث هنرى الخامس أن أدرك عاقبة المبالغة فى التشكك والإسراف فى سوء الظن لا سيما بعد أن لمس ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى ألمانيا. هذا فى الوقت الذى عاد البابا كالكستس الثانى فأرسل إلى الإمبراطور موضحا له أن هدف البابوية ليس إضعاف الإمبراطورية وتقليل شأنها وإنما تعظيم قدرها وتقوية نفوذها(٧٦)، وهكذا عادت روح الاعتدال والرغبة فى التفاهم لتمهد لاستئناف المفاوضات التى قدر لها النجاح تلك المرة، حتى انتهى الأمر بعقد اتفاقية ورمز Worms الشهيرة بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى سنة ١١٢٢ (٧٧)، وتنص هذه الاتفاقية على أن يكون انتخاب الأساقفة ومقدمى الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسى دون أى تدخل من جانب السلطة العلمانية، وبعد الاحتفال بتقليد الأسقف دينيا يستطيع الإمبراطور أن يكلفه أو يزوده بأية سلطة، أما فى ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب، وللإمبراطور أو مندوبه حق حضور عملية انتخاب الأسقف دون الالتجاء إلى السيمونية أو العنف»، وبعد أن يتم انتخاب الأسقف قانونيا يقلده الإمبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الدينى(٧٨).

ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تحقق كل ما كانت تصبو إليه الكنيسة لأن حضور الإمبراطور أو مندوبه عملية انتخاب الأسقف من شأنه أن يؤثر فى سير الانتخاب، ولكن يكفى - على أى حال - أن الكنيسة أحرزت نصرا ولو جزئيا بتحديد سلطة الإمبراطور فى اختيار رجال الدين، مما جعل البابا يظل سيد الموقف فى أوربا، وبعبارة أخرى فإننا نخرج من هذه الاتفاقية بأن الإمبراطورية دخلت دائرة النزاع مع البابوية حول التقليد العلمانى وهى فى أوج قوتها وسلطانها، وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح بعد ما نزل بها من هزائم نكراء بحيث يظهر الفارق واضحا بين موقف كل من هنرى الخامس وسلفه هنرى الثالث(٧٩) وقد حاول بعض الكتاب أن

---

(75) Tout: The Empire and the Papacy, p. 146.
(76) Barraclough: op. cit. p. 132.
(77) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 107.
(78) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 483.
(79) Bryce: op. cit. p. 161.

يصور الموقف عند عقد اتفاقية ورمز بأن الإمبراطور كان أمامه أن يختار بين الاحتفاظ بالرغيف كاملا أو الاكتفاء بنصفه فأجبرته البابوية على الاكتفاء بالنصف. في حين كان على البابوية أن تختار بين النصف الثانى للرغيف أو البقاء دون نصيب ففازت بالنصف ، وهكذا لم يستأثر فريق دون آخر بتقليد رجال الدين وبقى الأمر مناصفة بين الطرفين(٨٠).

ولكن إذا كانت اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ قد وضعت حدا للنزاع حول التقليد العلمانى وأنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية، إلا أنها لم تضع حداً للصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية(٨١)، ذلك أنه يتضح من دراسة شروط هذه الاتفاقية أنها لم تمس جوهر النزاع بين السلطتين ولم تتعرض للمشكلة الأساسية التى كمن فيها الخلاف، وهى أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السيادة العليا: البابوية أم الإمبراطورية(٨٢)؟ ومادامت هذه المشكلة الكبرى قائمة دون حل فإنه لايمكن القول بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية قد وصل إلى نهاية ترضى الطرفين، لأن مشكلة التقليد العلمانى لم تكن فى حقيقة أمرها إلا مظهرا للتنافس بين البابوية والإمبراطورية حول سيادة العالم(٨٣).

أحوال الإمبراطورية بعد اتفاقية ورمز:

أمّا عن نتائج هذا الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية حول التقليد العلمانى فمن الواضح أنه كانت على جانب كبير من الخطورة بالنسبة للإمبراطورية، ذلك أن محاولة البيت السالمى إقامة ملكية قوية باءت بالفشل، بمعنى أنه ليست البابوية أو الإمبراطورية هى التى خرجت فائزة من هذا الصراع ، وإنما كان كبار الأمراء فى ألمانيا هم الذين انتهزوا فرصة انصراف ملوكهم إلى النزاع مع البابوية ليدعموا قوتهم وسلطانهم (٨٤)، وهكذا أدى الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى إلى

(80) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 463.
(81) Barraclough: op. cit. p. 133.
(82) Idem: pp. 139 - 140.
(83) Tout: The Empire and the Papacy, p. 184.
(84) Barraclough: op. cit. p. 134.

ازدياد شدة التيار الإقطاعى فى ألمانيا حتّى غدت حصون الأمراء وقلاعهم بمثابة المراكز الأساسية للتنظيم السياسى فى البلاد، وقد ظهر أثر هذا التطور بوضوح فى المجتمع الألمانى إذ صار ضعاف الأحرار - وخاصة من المزارعين - أقنانا، فى حين غدا أقوياؤهم فرسانا وأقصالا، تربطهم روابط عديدة بسادتهم الإقطاعيين، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن النزاع حول التقليد العلمانى ترك أثرا خطيرا فى بناء المجتمع الألمانى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى(٨٥)، ومن الواضح أن انتشار النظام الإقطاعى وازدياد نفوذ كبار الأمراء جاء على حساب الملكية وسلطانها؛ لأن هذا الازدياد وما صحبه من تناقص نسبة الأحرار من السكان معناه أن الملك أو الإمبراطور لم يعد له نفوذ مباشر إلا على نسبة متناقصة من أهالى البلاد، فى حين لم تعرف الأغلبية المتزايدة سلطانا مباشرا سوى سلطان سادتهم الإقطاعيين(٨٦).

أما البابا كالكستس الثانى والإمبراطور هنرى الخامس فلم تقدر لهما الحياة طويلا بعد اتفاقية ورمز، إذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الثانى فى مايو ١١٢٥، وقد ساعت الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرش الألمانى والبابوية على تهدئة الموقف بعد اتفاقية ورمز، ففى ألمانيا أجمع الأمراء عقب وفاة هنرى الخامس على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكا، وهوالدوق الذى عارض هنرى الخامس معظم حكمه والذى كان محبوبا من الألمان بسبب بلائه ضدّ السلاف(٨٧)، وكان من أشد أنصار لوثر الثانى الأمير هنرى المتكبر دوق بافاريا الذى تزوج ابنة لوثر وأنجبت هذه الزوجية هنرى الأسد وارث دوقيتى بفاريا وسكسونيا(٨٨)، على أنه يبدو أن اختيار لوثر الثانى للعرش سنة ١١٢٥ لم يعجب آل هو هنشتاوفن أمراء سوابيا، هذا فضلا عن أن لوثر الثانى لم يكن الرجل القادر على استرداد هيبة الإمبراطورية وعظمتها بسبب ضعفه وتقدم سنه.

هذا عن ألمانيا، أمّا الشطر الثانى من الإمبراطورية وهو إيطاليا، فإن البابوية

---

(85) Idem: pp. 136 - 138.

(86) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 108, 163 & Barraclough op. cit. p. 139 .

(87) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 334 - 335.

(88) Eyre, op. cit. p. 159.

سرعان ما وجدت نفسها فى مأزق أمام توسع النورمان فى جنوب إيطاليا بعد أن تمّ لهم الاستيلاء على صقلية سنة ١٠٩١[٨٩]. ومن ثمّ وحدوا صقلية، وكالبريا، وأبوليا تحت سيطرتهم، ممّا أفزع البابوية، فهبت تدافع عن نفسها أمام هذا الخطر العظيم، كان أن أخذ البابا هنريوس الثانى (١١٢٤ - ١١٣٠) يجاهد عبثا لتأليف حلف من أمراء إيطاليا ضدّ النورمان، حتّى اضطر أخيرا إلى الاعتراف سنة ١١٢٨ بمركز روجر الثانى فى أبوليا وصقلية، ولم يلبث النورمان أن استصغروا لقبى «كونت» و«دوق» اللذين تلقب بهما أمراؤهم الأوائل فاحتفل فى يوم رأس السنة عام ١١٣٠ بتتويج روجر الثانى ملكا فى بالرمو[٩٠]، ثمّ كان أن نشأ نزاع حول الكرسى البابوى بعد وفاة البابا هنريوس الثانى، ففر البابا أنوسنت الثانى إلى ملك ألمانيا مستنجدا به ضدّ خصومه، ولما أنجده لوثر الثانى، كافأه البابا بتتويجه إمبراطوراً فى روما سنة ١١٣٣، والمهم فى أمر هذه الزيارة التى قام بها لوثر الثانى لإيطاليا سنة ١١٣٣ هو أنه خالف سياسة سلفه هنرى الخامس واعترف بحق البابوية فى تركة الأميرة ماتيلدا، على أن يأخذ الملك هذه التركة من البابا كإقطاع مقابل مال سنوى يؤديه، ومعنى ذلك أن البابوية حصلت على دليل جديد يظهر الإمبراطور فى صورة فصل إقطاعى للبابا[٩١].

وعند وفاة الإمبراطور لوثر الثانى سنة ١١٣٨، كان أقوى رجلين فى ألمانيا هما هنرى المتكبر دوق بافاريا وسكسونيا وعميد البيت الولفى، وكونراد هوهنشتاوفن دوق سوابيا، وقد خشى كبار النبلاء قوة هنرى وبطشه، كما تخوفت الكنيسة من قيام رجل قوى مثله فى عرش الإمبراطورية؛ ولذلك تمّ اختيار كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملكا على ألمانيا «١١٣٨ - ١١٥٢»[٩٢]. ومنذ ذلك الوقت أخذ يشتد التنافس والعداء بين الولفيين - وهم أمراء سكسونيا - والجبلينيين - وهم دوقات أسرة هوهنشتاوفن - نسبة إلى قلعة فى إقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم[٩٣]، وقد تطور اللفظ الأول فى الصيغة الإيطالية

(89) Haskins: The Normans in European History; p. 209.

(90) Idem, p. 210 - 211.

(91) Barraclough: op. cit. p. 157.

(92) Tout: The Empire and the Papacy, p. 231.

(93) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 344 - 349 & 404.

إلى الجلفيين Geulfs وأصبح يطلق على أعداء الإمبراطورية بوجه عام فى نزاعها مع البابوية، فى حين أصبح اسم الجبللينيين يطلق على أنصار الإمبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام(٩٤).

وكان كونراد الثالث هو هنشتاوفن ضعيفا، وهو أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج إمبراطورا منذ أوتو العظيم(٩٥)، وزاد من ضعفه أن تغيير البيت الحاكم أكثر من مرة سنة ١١٢٥ ثمّ سنة ١١٣٩ وماتبع ذلك من حروب أهلية أدى إلى انكماش الأراضى الخاصة بالتاج وبالتالى إلى ضعف الملك الذى استمد قوته فى ظل النظام الإقطاعى من ضياعه الخاصة. وهكذا وجد كونراد الثالث نفسه لايمتلك قوة مادية - لاسيما فى شمال ألمانيا - تمكنه من الوقوف موقفا قويا من أعدائه فى الداخل والخارج، وقد جاء ضعف الملكية الألمانية فى تلك الحقبة مصحوبا بظاهرة واضحة هى ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى انتخاب الملك، وهى الظاهرة التى غدت بمثابة الطابع المميز للفترة الواقعة بين سنتى ١١٠٦، ١١٥٢(٩٦)، أمّا فيما يتعلق بموقف كونراد الثالث من إيطاليا والبابوية فيلاحظ أنهُ أضاع معظم جهوده فى الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية، ممّا أضعف هيبتهِ فى إيطاليا حتّى أعلن البابا أنوسنت الثانى فى السنة نفسها التى اعتلى كونراد الثالث العرش (مجمع ١١٣٩) عدم ارتباطه باتفاقية ورمز، وأن البابا له السيادة العليا على جميع العلمانيين الذين لايحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها(٩٧)، وعلى الرغم من كل ذلك فقد أبىٍ كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة ضدّ البابوية، وفضّل العمل على توطيد نفوذهُ فى ألمانيا عن طريق الحد من نفوذ البيت الولفى؛ ممّا أدى إلى حرب أهلية لم تنته إلا سنة ١١٤٢(٩٨).

وعندما مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢ خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ – ١١٩٠) الذى كان شابا فى الثلاثين من عمره، امتاز بالشجاعة،

(94) Eyre, op. cit. p. 159.
(95) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358 - 359.
(96) Barraclough: op. cit. pp. 158 - 160.
(97) Hayward: op. cit. pp. 178 - 179.
(98) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 475

والفصاحة، والكبرياء، مع اتصافه بسرعة الغضب، والإيمان المطلق بعظمة الوظيفة الإمبراطورية وسموها(٩٩)، وقد أخذ فردريك بربروسا يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الإمبراطورية ومجدها المفقود، وهو المجد الذى لا يتحقق - فى نظره - إلا بالربط بين شطرى الإمبراطورية فى ألمانيا وإيطاليا؛ لذلك بدأ يعقد معاهدة كونستانس مع البابا سنة ١١٥٣، وفيها تعهد فردريك الأول بعدم عقد صلح مع روجر الثاني ملك صقلية دون موافقة البابا، وأن يقوم فردريك بإخضاع أعداء البابا والثائرين ضدّه مقابل تتويج البابا له إمبراطورا ومساندته ضدّ خصومه فى ألمانيا(١٠٠).

ولكن فردريك كان أعقل من أن يذهب إلى إيطاليا وينصرف إلى شئونها قبل أن يوطد نفوذه فى ألمانيا؛ لذلك أخذ يتقرب إلى الأمراء ويسترضيهم، فردّ بافاريا إلى هنرى الأسد عميد الولفيين وأعطاه سلطانا شبه مطلق عليها وعلى سكسونيا، كما استرضى بقية الأمراء حتّى قوى نفوذهم على حسابه، وبعد ذلك بدأ يوجه بصره شطر إيطاليا(١٠١)، ويبدو أن الموقف فى إيطاليا كان خطيرا حينذاك إلى الدرجة التى جعلت فردريك الأول يسرع بالذهاب إليها قبل أن يفرغ من إتمام مشروعاته الرئيسية فى ألمانيا نفسها. ذلك أن البابوية سرعان ما أنهكها الصراع ضدّ النورمان فى الجنوب، فى حين استطاعت المدن اللمباردية فى شمال إيطاليا أن تتحرر من نفوذ الأمراء الإقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة فى إدارة شئونها(١٠٢) وكان أن اشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكتلها فى حلفين متضادين، أحدهما بزعامة ميلان والثانى بزعامة بافيا، وإن كانت رغبتها فى التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادى جعلتها تتفق جميعا فى سياسة واحدة، هى مقاومة أية سيطرة تحاول الإمبراطورية فرضها عليها(١٠٣)، ولم يحاول أحد حكام الإمبراطورية - مثل لوثر الثانى أو كونراد الثالث - أن يتدخل لإخماد هذه الحركة التحررية التى لم تلبث أن

---

(99) Bryce: op. cit. p. 166.

(100) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 247 - 248.

(101) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 447.

(102) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 361.

(103) Eyre, op. cit. p. 165.

امتدت إلى روما نفسها، ذلك أن أهالى روما قاموا بثورة ضدّ البابا أنوسنت الثانى سنة ١١٤٢ مطالبين بتحويل مدينتهم هى الأخرى إلى قومون مستقل، حتى انتهى الأمر بفرار البابا ايوجنيوس الثالث Eugenius III من روما سنة ١١٤٧(١٠٤)، والغريب فى أمر هذه الثورة أن زعيمها - وهو أرنولد البريشى Arnold of Brescia كان من رجال الدين، فآمن بما سبق أن نادى به البابا باسكال الثانى ١١١١ من آراء تستهدف تخلى الكنيسة عن أراضيها الإقطاعية واكتفائها بالعشور، والعودة إلى حياة البساطة التى اتسمت بها المسيحية الأولى(١٠٥).

ومهما يكن من أمر، فقد استنجد البابا أيوجنيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣) ثمّ البابا أدريان الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩)، بالملك فردريك بربروسا، الذى لبى النداء سنة ١١٥٤ ، كعادة أسلافه من حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وهنا نلاحظ أن الغرض الأساسى من ذهاب فردريك الأول إلى إيطاليا فى تلك السنة كان اكتساب رضاء البابوية وإثبات حسن نيته لها؛ وليتوج إمبراطوراً فى روما مقابل ما يؤديه للبابا، من خدمات، أهمها تحطيم قوة أرنولد البريشى وتثبيت سلطة البابوية فى روما(١٠٦)، وكان أن استطاع فردريك بجيشه الصغير الذى لم يتعد ألفاً وثمانمائة فارس أن يخضع المدن اللمباردية، فاعترفت له بالسيادة بعد أن أرهبها وأعطاها درسا قاسيا(١٠٧)، وبعد ذلك اتجه فردريك إلى روما حيث كان أدريان الرابع قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٥٤، وهو الإنجليزى الوحيد الذى تولى هذا المنصب فى العصور الوسطى(١٠٨)، وكان هذا البابا الجديد قوى الشخصية واسع المعرفة، فلم يستسلم للأخطار التى واجهت البابوية عندئذ، وإنما أنزل قرار الحرمان ضدّ روما وأنزل اللعنة على أهلها الثائرين، وعندئذ أحجم الحجاج عن زيارة مدينة مغضوب عليها، ففقد أهلها موردا غزيرا لثروتهم واضطروا إلى طرد أرنولد البريشى والدخول فى طاعة البابوية(١٠٩).

---

(104) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 486.
(105) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 371 - 372.
(106) Barraclough: op. cit. p. 178.
(107) Tout: The Empire and the Papacy, p. 248.
(108) Orton: op. cit. p. 232.
(109) Tout: The Empire and the Papacy, p. 249.

على أن مشاكل البابوية لم تقف عند ذلك الحد، إذ أغار وليم النورمانى على كامبانيا Campania على الشاطئ الغربى جنوبى روما - ونهبه ودمره، وهدد بالزحف على روما نفسها؛ لذلك أسرع أدريان الرابع بتجديد اتفاقية كونستانس التى سبق أن عقدها أيوجنيوس الثالث مع فردريك الأول سنة ١١٥٣، حتّى انتهى الأمر بتتويج فردريك الأول إمبراطورا فى كاتدرائية القديس بطرس بروما (١١٥٥ - ١١٥٦)[١١٠]، وقد تمّ التتويج سرا وبسرعة خوفا من غضب أهالى روما الكارهين لفردريك، والذين اشتدت ثورتهم عندما أُعلن الخبر، فى حين تناقصت جيوش الإمبراطورية واشتدت به الحاجة إلى المؤن والإمدادات، فلم يستطع الثبات فى وجه أهالى روما الثائرين واضطر إلى الفرار منها وبصحبته البابا [١١١]، وسرعان ما أدرك فردريك صعوبة البقاء فى إيطاليا، ولا سيما بعد أن سمع بأن الأوضاع فى ألمانيا تستدعى عودته إليها، فعبر جبال الألب إلى بلاده تاركا البابا وحده فى شمال إيطاليا، وهكذا اضطر أدريان الرابع إلى مصالحة أهالى روما على أساس الاعتراف بمدينتهم قومونا مثل غيرها من القومونات الإيطالية، وعلى هذا الأساس استطاع العودة إلى روما فى صيف سنة ١١٥٥[١١٢].

أمّا الإمبراطور فردريك بربروسا فقد عاد إلى ألمانيا ليواصل جهوده فى توحيدها وتقوية سلطانه على الأمراء، قد تمّ للإمبراطور ما أراد حتّى بدا فى نظر المعاصرين أعظم قوة فى أوربا، لا سيما بعد أن مدّ نفوذه إلى برجنديا عن طريق الزواج من وريثتها سنة ١١٥٦[١١٣]، وزاد من نفوذ فردريك الأول وسطوته فى أوربا أن بولسلاف الرابع صاحب بولندا وبولسلاف الثانى صاحب بوهيميا دانا له بالتبعية، فى حين اعترف له ملك الدانيين - بل هنرى الثانى ملك إنجلترا - بالسيادة[١١٤]، وبذلك لم يبق أمام الإمبراطور سوى دعم نفوذه فى إيطاليا، وكانت العلاقة قد ساءت بين فردريك

---

(110) Hayward: op. cit. p. 184.
(111) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 421.
(112) Tout: The Empire and the Papacy, p. 250.
(113) Barraclough: op. cit. pp. 173.
(114) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 492.

الأول والبابا أدريان الرابع عقب انسحاب الأول إلى ألمانيا فى صيف سنة ١١٥٥ تاركا البابا وحيدا فى إيطاليا. وهنا نعود فنكرر القول بأن المشكلة الكبرى بين الإمبراطورية والبابوية كانت لاتزال قائمة، وإذا كانت الظروف قد اضطرت البابا والإمبراطور إلى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة التى هددت نفوذهما من ناحية القومونات الإيطالية من جهة، وثورة أرنولد البريشى من جهة أخرى، وخطر النورمان فى الجنوب من جهة ثالثة، فإن هذا الاتفاق لم يكن معناه اطمئنان الطرفين بعضهما إلى بعض بأى حال من الأحوال.

والواقع أن مركز البابا أدريان الرابع كان ضعيفا فعلا عندما تركه الإمبراطور وحيداً فى صيف ١١٥٥(١١٥)، الإمبراطور ترك البابا دون أن يساعده فى إخضاع روما أو دفع الخطر النورمانى الذى هدد الأملاك البابوية تهديدا واضحا، لذلك أدرك البابا أدريان الرابع أنه لابد من الاعتماد على نفسه، فألف حلفا مع أمراء أبوليا الإقطاعيين الذين اشتدت رغبتهم فى التخلص من سيطرة النورمان، كما أجرى مباحثات مع مانويل الأول إمبراطور الدولة البيزنطية (١١٤٣ - ١١٨٠) لمساعدته فى محاربتهم(١١٦)، ويبدو أن وليم النورمانى أحس بخطر هذه المحالفات التى يعقدها البابا ضده، فأسرع إلى عقد اتفاقية بنفنتو سنة ١١٥٦ مع البابوية، ورضى بإعلان تبعيته للبابا مقابل موافقة البابوية على قيامه فى حكم أبوليا وصقلية (١١٧)، وفى هذه السنة نفسها أنزل وليم الأول النورمانى هزيمة كبرى بالبيزنطيين عند برنديزى حتّى اضطر الإمبراطور مانويل كومنين إلى عقد الصلح مع الملك النورمانى سنة ١١٥٨، ونجحت وساطة البابوية فى إتمام ذلك الصلح(١١٨)، هذا فى الوقت الذى استرضى البابا أهالى روما بأن أقرهم نهائيا على قيام القومون الرومانى. وبذلك تغلب أدريان الرابع على جميع المشاكل التى واجهته دون حاجة إلى مساعدة الإمبراطورية.

---

(115) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 422.
(116) Vasilev: op. cit. Tome 2, p. 13.
(117) Orton: op. cit. p. 233.
(118) Ostrogorsky: op. cit, p. 342.

الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية:

هكذا يبدو أن كلا من البابا أدريان الرابع والإمبراطور فردريك الأول استطاع أن يمكن لنفسه ويقوى مركزه فى بلاده، ولم يبق بعد ذلك سوى أن يواجه كل منهما الآخر، والواقع أن فردريك الأول استاء من تحالف البابا مع وليم النورمانى من جهة فى حين أخذ البابا أدريان الرابع يتخوف من ازدياد نفوذ الإمبراطور واتساع سلطانه بعد أن استقرت له الأمور داخل الإمبراطورية وخارجها(١١٩)، وصادف أن اختار البابا مندوبا أرسله إلى ألمانيًا - هو الكاردينال رولاند، الذى عرف بصلابة رأيه وقوة عقيدته فى سمو الكنيسة - فذهب المندوب ليعرب عن استياء البابا من بعض تصرفات الإمبراطور، لا سيما حبس كبير أساقفة لوند Lund الذى كان صديقا حميماً لأدريان الرابع، وعندما دخل المندوب البابوى على الإمبراطور فى مجمع بسانسون Besancon سنة ١١٥٧ حياه تحية غريبة إذ قال: «إن البابا يحييك كوالد والكرادلة يحيونك كإخوة» فدهش فردريك من هذه التحية التى جعلت من الكرادلة إخوة مساوين للإمبراطور؛ وهو السيد العظيم خليفة قيصر وشارلمان(١٢٠). على أن الذى ضايق فردريك هو أن رسالة البابا إليه احتوت عبارة مؤداها أن التاج الإمبراطورى يعتبر Beneficium من البابا (١٢١)، وهذا اللفظ اللاتينى يحتمل معنيين، إذ يمكن تفسيره على أنه يعنى «جميلا أو معروفا Benefit»، كما يمكن تفسيره بمعنى إقطاع Bene-fice (١٢٢)، واختار الإمبراطور وأنصاره أن يفسروا اللفظ بمعناه الأخير، أى أن البابا يعتبر التاج الإمبراطورى منحة أقطعها للإمبراطور ووهبها له، ومن ثمّ ثار فردريك لكرامته وكرامة وظيفته الإمبراطورية وأيده فى موقفه الأساقفة الألمان، ولم يكن الإمبراطور مبالغا فى غضبه أو ثورته؛ لأن المندوب البابوى نفسه أصرّ على تفسير اللفظ على أنه يعنى «إقطاع» وقال لفردريك فى شجاعة «فممن إذن أن يتسلم الإمبراطور وظيفته الإمبراطورية إن لم يتسلمها من البابا» (١٢٣)؟ ولكن فردريك أدرك

(119) Tout: The Empire and the Papacy, p. 253.

(120) Ibid.

(121) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 390 - 420.

(122) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 341 - 342.

(123) Bryce: op. cit. p. 166.

جيدا أن التسليم بهذا المبدأ يعنى خضوع الإمبراطور للبابا، ولذلك ردّ مدافعا عن حقوقه، «إننا نتسلم الوظيفة الإمبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء، إن شريعة الله تقضى بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفى الإمبراطورية والبابوية، كما أن تعاليم القديس بطرس تقضى بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله وأن يكرموا الملك[١٢٤]، وعلى هذا فإن كل من يقول بأننا تسلمنا التاج الإمبراطورى إقطاعا من البابا يعتبر ملحدا باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس»[١٢٥].

أمّا البابا أدريان الرابع فقد ارتبك فى ذلك الموقف، واضطر إلى التصريح فى أوائل العام التالى بأنه قصد باللفظ معناه العام - أى معروف أو جميل - ولم يقصد معناه الإقطاعى الخاص. وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع المباشر مع الإمبراطورية، وإن ظلّ سوء النية قائما عند الطرفين[١٢٦]، وبعبارة أخرى فإن أهمية هذا الحادث تبدو فى أنه كشف النقاب عن حقيقة شعور كل من البابوية والإمبراطورية تجاه الطرف الآخر، كما مهد لتجدد النزاع السافر بين الجانبين، وإذا كان النزاع بين الإمبراطورية والبابوية قد اتخذ فى دوره الأول من مشكلة التقليد العلمانى محورا له فإنه فى هذا الدور الثانى تركز فى مشكلة القومونات الإيطالية[١٢٧].

ذلك أن الإمبراطور فردريك بربروسا كان - كما سبقت الإشارة - يعتقد اعتقادا راسخا فى عظمة الوظيفة الإمبراطورية، ويؤمن بأنه خليفة قيصر وشارلمان، ومن ثمّ يجب أن يتمتع بما كان لهذين الإمبراطورين من نفوذ عالمى وسلطان واسع، وقد رأى الإمبراطور فردريك الأول أن كثيرا من الحقوق التى تمتعت بها المدن اللمباردية إنما هى فى حقيقة أمرها حقوق منحها ملوك الفرنجة لكونتات المدن ومنهم انتقلت إلى أساقفتها حتّى استغلت القومونات فرصة مشكلة التقليد العلمانى فاستأثرت بهذه الحقوق[١٢٨]. وبعبارة أخرى فإن سيطرة الإمبراطورية على المدن اللمباردية لا تعنى

---

(١٢٤) من الواضح أن الامبراطور استند فى هذه العبارة إلى ما جاء فى العهد الجديد: (أكرموا الجميع ، أحبوا الإخوة، خافو الله، أكرموا الملك) رسالة بطرس الأول، الإصحاح الثانى، ١٧ .

(125) Tout: The Empire and the Papacy, p. 254.

(126) Bryce: op. cit. p. 197.

(127) Eyre: op. cit . p. 65.

(128) Barraclough: op. cit. p. 180.

أكثر من استرداد حقوق الإمبراطورية المفقودة فى شمال إيطاليا، ومن الواضح أن تطبيق هذه الآراء عمليا كان يعنى إخضاع المدن اللمباردية فى شمال إيطاليا لسلطة الإمبراطورية المباشرة، بل أيضاً فرض السيطرة الإمبراطورية على الأراضى البابوية نفسها بما فيها تركة الأميرة ماتيلدا التى استأثرت بها البابوية، وطبيعى أن البابا كان لايمكنه أن يقر هذا الوضع؛ لأن أخطر ما كانت تخشاه البابوية هو ازدياد نفوذ الإمبراطور فى إيطاليا ممّا يؤدى إلى وقوع البابا تحت رحمته، ولم يلبث أن أتاح الانشقاق بين المدن اللمباردية فرصة طيبة لتدخل الإمبراطور(١٢٩)، إذ وقف حزب كريمونا وبافيا فى جانب الإمبراطور ضدّ الحزب الآخر الذى تزعمته ميلان، وكان أن عبر الإمبراطور فردريك الأول جبال الألب فى يولية سنة ١١٥٨ فخضعت له ميلان بعد مقاومة عنيفة ثمّ عقد الإمبراطور مجمعا فى رونساجليا Ronsaglia (نوفمبر سنة ١١٥٨) أعلن فيه تمسكه بحقوقه فى تعيين حكام إمبراطوريين (Podesta) فى المدن اللمباردية يشرفون على سك العملة وجمع الضرائب(١٣٠).

على أن الأمور لم تتم للإمبراطور فى شمال إيطاليا فى سهولة ويسر، إذ توفى البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذى تلقب باسم إسكندر الثالث، والذى ظلّ فى منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ - ١١٩١)، حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها، ممّا جعل النزاع بين البابوية والإمبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف التى رأيناها فى الدور الأول. وكان أن تألف تحالف بين صقلية، والبابوية، وميلان ممّا أخلّ بالتوازن الذى حققه فردريك فى إيطاليا سنة ١١٥٤ - ١١٥٥(١٣١)، وسرعان ما تجددت ثورة المدن اللمباردية وعلى رأسها ميلان بتحريض من البابوية، فطردت الحكام الإمبراطوريين وأخذ يشتد فيها شعور التعصب ضدّ الدخلاء الألمان، وعندئذ واجه فردريك الموقف بشدة وحزم فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمرها ـ كما فعل مع كريما Crema ـ أمّا ميلان فقد صمدت

---

(129) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 279.

(130) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 427.

(131) Barraclough: op. cit. pp. 181 - 182.

وقاومت حصار الإمبراطور ثلاث سنوات حتّى أرغمتها المجاعة على الاستسلام سنة ١١٦٢، وعندئذ دمرها فردريك تدميرا شاملا كما أخذ زعماءها رهائن عنده. وبذلك صار الإمبراطور سيد الموقف في شمال إيطاليا(١٣٢).

أمّا عن موقف فردريك الأول من البابا اسكندر الثالث فإنه كان يعرف أخلاقه وآراءه جيداً؛ لأن البابا إسكندر لم يكن سوى رولاند، وهو الكاردينال الذى أزعجت شدته الإمبراطور فى مجمع بسانسون سنة ١١٥٧؛ ولذلك صدم فردريك باختياره للبابوية ولم يجد أمامه سوى العودة إلى سلاح الإمبراطورية القديم، أى تعيين فكتور الرابع بابا إمبراطوريا منافسا للبابا إسكندر الثالث(١٣٣)، وإذا كان إسكندر الثالث قد اضطر إلى الانسحاب من روما بعد عدة أيام من توليه منصبه، إلا أنه ظلّ متمسكا بموقفه، لاسيما بعد أن تمّ عقد مجمع دينى سنة ١١٦٠ تحت رعاية لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا، وقرر كبار الأساقفة فى هذا المجمع الاعتراف ببابوية إسكندر الثالث والوقوف إلى جانبه، وقد شجع هذا القرار البابا إسكندرالثالث على الفرار إلى فرنسا بعد أن سقطت ميلان فى يد الإمبراطور سنة ١١٦٢، وأضحى موقف البابوية محفوفا بالخطر فى إيطاليا (١٣٤) وفى العام التالى - أى سنة ١١٦٣ - عقد إسكندر الثالث مجمعا فى تور أصدر قرار الحرمان ضدّ البابا الإمبراطورى فكتور الرابع وأعوانه من الكرادلة(١٣٥).

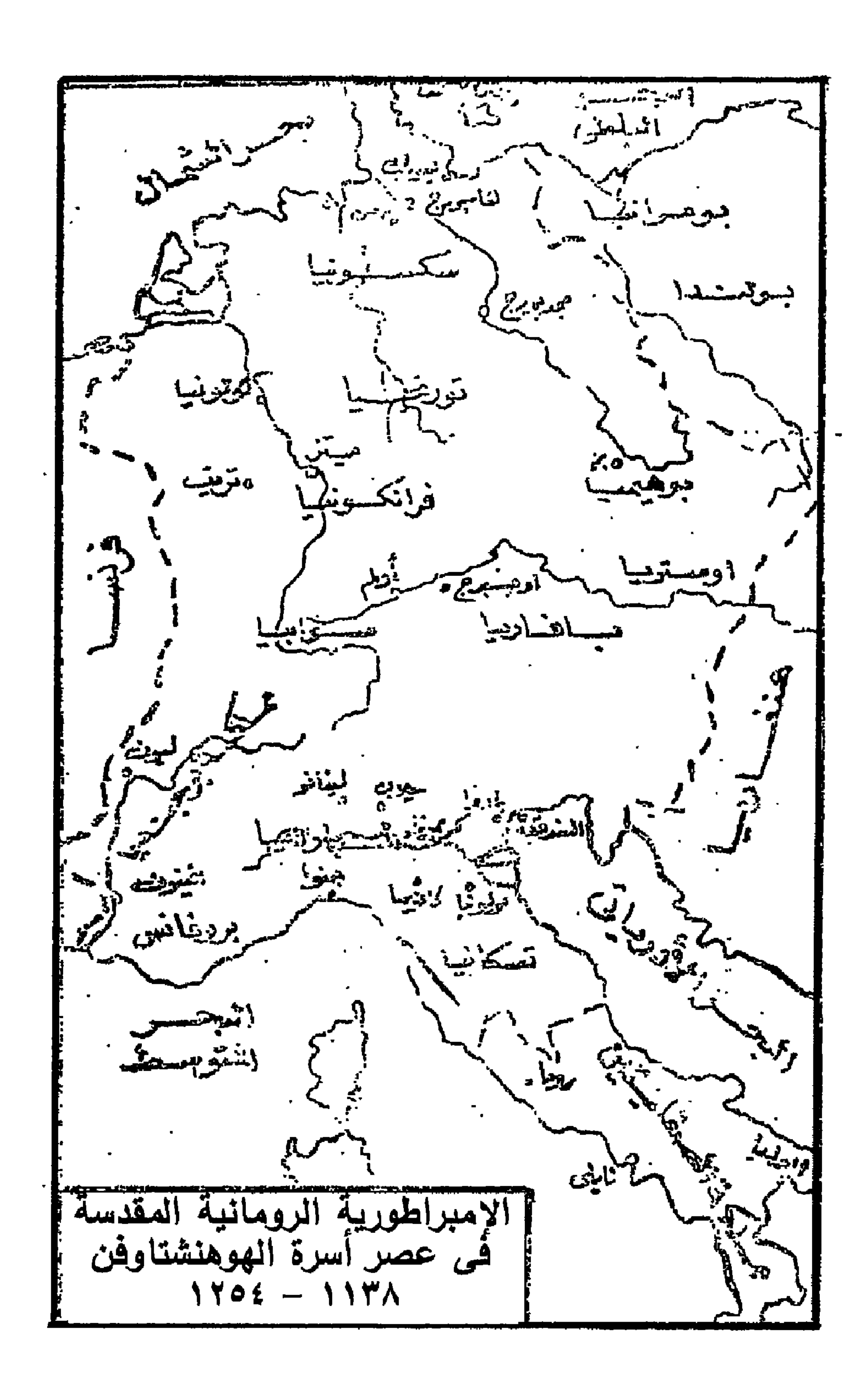
وعلى الرغم من أن فردريك الأول استكشف عند عودته إلى ألمانيا سنة ١١٦٢ أن كثيرا من رجال الكنيسة الألمانية وقفوا إلى جانب البابا إسكندر الثالث مطالبين بعقد مجمع لتسوية الخلاف بين البابوية والإمبراطورية، إلا أنه لم يتأثر بهذه الأزمة وأصرّ على موقفه، وعند وفاة البابا الإمبراطورى فكتور الرابع أثناء زيارة الإمبراطور لإيطاليا للمرة الثالثة سنة ١١٦٤، اختار الإمبراطور البابا باسكال الثالث ليحل محله(١٣٦). وفى تلك الأثناء أخذ الحكم الألمانى فى شمال إيطاليا يتصف بالقسوة

(132) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 497.
(133) Hayward: op. cit. p. 185.
(134) Lavisse, op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 39.
(135) Tout: The Empire and the Papacy, p. 257.
(136) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 394.

والخشونة، حتّى غدا الإيطاليون يُعاملون على أنهم أعداء الإمبراطور لا رعاياه، وليس هناك من شك في أن هذه السياسة كانت خطرا على مصالح الإمبراطورية وأهدافها حتى تألف حلف فيرونا سنة ١١٦٤ لمقاومة الحكم الإمبراطوري(١٣٧)، وفي ذلك الوقت لم يستطع البابا الإمبراطوري باسكال الثالث أن يحتفظ بمركزه في روما كما أن تلك الأخبار شجعت إسكندر الثالث على المغامرة والعودة إلى إيطاليا سنة ١١٦٥، فدخل روما دخول الظافر وأصدر قرار الحرمان ضدّ الإمبراطور(١٣٨)، وسرعان ما تجدد نشاط المدن اللمباردية، فتقدمت البندقية لمساعدة حلف فيرونا ممّا جعل الإمبراطور يعجل بالعودة إلى إيطاليا للمرة الرابعة سنة ١١٦٦، وفي تلك المرة لم يبدأ فردريك بالمدن اللمباردية(١٣٩)، وإنما اختار أن يستأصل «رأس الأفعى» فزحف على روما مباشرة وحاصرها حصارا عنيفا حتى سقطت في يده سنة ١١٦٧، وعندئذ كانت خيبة أمل الإمبراطور كبيرة عندما عرف أن غريمه إسكندر الثالث تمكن من الفرار جنوبا محتميا بحلفائه النورمان(١٤٠)، ومهما يكن من أمر فقد دخل فردريك الأول، روما في تلك السنة ليتوج إمبراطورا ـ للمرة الثانية ـ بيد البابا الإمبراطوري باسكال الثالث، وجدير بالملاحظة أن العداء بين الإمبراطوريتين الغربية والشرقية بلغ أشده في تلك المرحلة، فلم يحاول الإمبراطور فردريك بربروسا اكتساب الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين إلى جانبه ضدّ النورمان حلفاء البابا، بل على العكس اتصل فردريك بقلج أرسلان سلطان قونية السلجوقي، والعدو اللدود للإمبراطور البيزنطي(١٤١).

ثمّ كانت أن أخذت المصائب تترى على الإمبراطور، فانتشر الطاعون في جيشه وفتك برجاله فتكا ذريعا، ممّا جعل المعاصرين يفسرون ذلك في ضوء غضب الله ولعنة البابا إسكندر على الإمبراطور، وقد شجعت هذه الأخبار المدن اللمباردية، فكونت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللمباردي سنة ١١٦٨ الذي اتسع حتّى شمل

(137) Barraclough: op. cit. p. 182.
(138) Hayward: op. cit. p. 186.
(139) Eyre: op. cit . p. 166.
(140) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 441.
(141) Ostrogorsky, op. cit. p. 342.



الإمبراطورية الرومانية المقدسة
فى عصر أسرة الهوهنشتاوفن
١١٣٨ - ١٢٥٤

جميع مدن سهول إيطاليا الشمالية من ميلان حتّى البندقية، ومن برجامو حتّى بولونيا. وهكذا انسدت المسالك فى وجه الإمبراطور فردريك بربروسا حيث أنه لم يستطع العودة إلى ألمانيا فى ربيع سنة ١١٦٨ إلا فى مشقة بالغة(١٤٢)، وسرعان ما اكتسب الحلف اللمباردى قوة جديدة عندما باركه البابا بإنشاء مدينة جديدة تحمل اسمه - هى مدينة ألسندريا أو إسكندرية - Alessandria إلى الشمال الغربى من جنوة(١٤٣).

وكان أن ساد السلام مدن العصبة اللمباردية مدة ست سنوات توفى أثناءها البابا الإمبراطورى باسكال الثالث سنة ١١٦٨ وحلّ محله كالكستس الثالث، ولكن إيطاليا غدت من الناحية العملية خارج نفوذ الإمبراطور فى الوقت الذى ازداد نفوذ البابا إسكندر الثالث زيادة كبيرة حتّى فى ألمانيا نفسها، على أن الإمبراطور فردريك بربروسا لم يكن بالرجل الذى يرضى بهذا الوضع، وهو صاحب العقيدة الراسخة فى عظمة الوظيفة الإمبراطورية وسموها؛ لذلك قام بحملته الخامسة على إيطاليا سنة ١١٧٤، وحينئذ تأهبت المدن اللمباردية للدخول من جديد فى صراع رهيب ضدّ الإمبراطور(١٤٤)، ولايعنينا من حوادث هذه الفترة المتشابكة - بين حروب ومفاوضات - سوى موقعة ليناتو Legnano إلى الشمال الغربى من ميلان؛ وهى الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللمباردى من جهة والجيوش الإمبراطورية من جهة أخرى (٢٩ مايو ١١٧٦)، ويبدو أن الروح الوطنية والشعور بالفوارق العنصرية واللغوية فعلت فعلها عندئذ لتجمع مختلف المدن فى شمال إيطاليا فى هيئة جبهة متحدة تقف فى وجه سيطرة الألمان وتدخلهم(١٤٥)، وهكذا حلت الهزيمة فى هذه الموقعة بالجيوش الإمبراطورية، ولم يستطع فردريك الأول الفرار إلى بافيا إلا فى مشقة بالغة، وثمة أهمية لهذه الموقعة وهى أنها تعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوربا الحربى، نظرا

---

(142) Tout: The Empire and the Papacy, p. 259.

(143) Hayward: op. cit. p. 187.

(144) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 445.

(145) Bryce: op. cit. p. 175.

لأنها المرة الأولى التى استطاعت فيها جيوش المدن الناشئة أن تنزل الهزيمة بجيش إمبراطورى يتبع النظم الإقطاعية التقليدية التى عرفتها أوربا منذ القرن التاسع(١٤٦) .

أمّا عن الموقف بين فردريك الأول وأعدائه بعد لينانو فيبدو أن نشوة النصر صرفت المدن اللمباردية عن مطاردة الإمبراطور وفلول جيشه، بل إن بعض المدن - مثل كريمونا - أخذت تفكر فى عقد صلح منفرد مع الإمبراطور (١٤٧)، ولم يكن فردريك الأول أقل رغبة فى الصلح بعد أن سئم النضال وهدده بعض أعوانه - مثل رئيس أساقفة كولونيا - بالانشقاق عنه إن لم يسو أموره سريعا مع البابا، أمّا البابا إسكندر الثالث فقد أظهر من جانبه وقتئذ مرونة سياسية، فلم يمانع فى فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور سنة ١١٧٦(١٤٨)، وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين بعض الوقت بسبب إصرار البابوية على شروطها وتمسكها بآرائها، حتّى انتقل البابا إلى البندقية فى مارس ١١٧٧ ليكون على مقربة من سير المحادثات، وأخيرا لم يجد الإمبراطور فردريك مفرا من الخضوع والاستسلام، فدخل البندقية حيث كان البابا إسكندر الثالث فى انتظاره يحيط به جمع حافل من الكرادلة(١٤٩) . ولم تلبث أن تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام بالضبط، فأتى الإمبراطور فردريك الأول العظيم، خليفة قيصر وشارلمان، يرتمى بين قدمى البابا إسكندر الثالث باكيا طالبا منه الصفح والغفران، مثلما فعل سلفه - العظيم أيضًا - هنرى الرابع مع البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٧(١٥٠).

وهكذا تمّ الصلح بين الإمبراطورية والبابوية فى أغسطس ١١٧٧، فوافق فردريك الأول على ردّ جميع الأراضى المغتصبة من البابوية، وتعهد كل من الطرفين بمساعدة الطرف الثانى ضدّ أى عدو يهدده، هذا علاوة عمّا وافق عليه الإمبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمان فى صقلية لمدة خمس عشرة سنة، وهدنة

---

(146) Eyre: op. cit . p. 166.
(147) Tout: The Empire and the Papacy, p. 262.
(148) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 508.
(149) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 448.
(150) Tout: The Empire and the Papacy, p. 263.

أخرى مع المدن اللمباردية لمدة ست سنوات[١٥١]. وقبل أن تنتهى هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية تمّ توقيع صلح كونستانس سنة ١١٨٣، بين المدن اللمباردية والإمبراطورية، وهو الصلح الذى نص على أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسى، والقضائى، والاقتصادى، والحربى، مع احتفاظ الإمبراطور ببعض المظاهر التى تصور سيادته الاسمية، مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض ضريبة شكلية تافهة للمساهمة فى نفقات الجيوش الإمبراطورية، على أنه من الواضح أن هذه الشروط لا تخفى الحقيقة الواقعة وهى أن المدن اللمباردية غدت دويلات مستقلة بمقتضى معاهدة كونستانس، وأن نفوذ الإمبراطور فى شمال إيطاليا أضحى اسميًا، ممّا أدى إلى تفكك الإمبراطورية وانفصال إيطاليا عن ألمانيا فى تطورها[١٥٢].

الإمبراطورية عقب صلح البندقية سنة ١١٧٧:

أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين الإمبراطور وإيطاليا عقب صلح البندقية فرصة لفردريك الأول ليوجه عنايته نحو شئون ألمانيا، بعد أن شغلته الأحداث الإيطالية عنها طويلا، وكان منبع الخطر الرئيسى الذى هدد سلطة الإمبراطور فى ألمانيا هو هنرى الأسد الذى استغل فرصة انشغال الإمبراطور ليحصل على امتيازات واسعة، ويزيد من أملاكه ونفوذه على حساب جيرانه فى الشمال والجنوب، حتّى غدا خطرا حقيقيا هدد الإمبراطور فضلا عن بقية الأمراء، هذا إلى أن زواج هنرى الأسد من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك إنجلترا[١٥٣]، جعله على صلة وثيقة بالبلاط الإنجليزى، ومكنه من اتباع سياسة خارجية مستقلة عن سياسة الإمبراطورية، وقد ظهرت بعض أركان هذه السياسة فى مشروعات هنرى الأسد لضم الدانمارك وفى البعثات الدبلوماسية المتبادلة بينه وبين الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، على الرغم ممّا كان من عداء شديد بين هذا الإمبراطور والإمبراطور فردريك بربروسا، بل إن هنرى الأسد تعمد زيارة القسطنطينية سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة ممّا أثار الشكوك بأنه

(151) Barraclough: op. cit. p. 183.

(152) Bryce: op. cit. p. 175.

(153) Adams: The Hist. of England pp. 291 - 292.

يتآمر مع الإمبراطور البيزنطى ضدّ فردريك[١٥٤]؛ لذلك وجه فردريك الأول جهوده نحو هنرى الأسد فأنزل به الهزيمة سنة ١١٨٠ وعندئذ قسم سكسونيا بين عدد من النبلاء ولم يترك لهنرى سوى أجزاء محدودة[١٥٥].

ثمّ كان أن أحرز الإمبراطور فردريك الأول نصرا سياسيا عظيما سنة ١١٨٤ عندما وضع مشروعا لزواج ابنه وخليفته هنرى من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية[١٥٦]، ومن الواضح أن هذا الزواج جاء على جانب خطير من الأهمية لأن من شأنه أن يؤدى فى المستقبل إلى التوحيد بين الإمبراطورية ومملكة صقلية ممّا يجعل الأملاك البابوية فى وسط إيطاليا تقع بين شقى الرحى[١٥٧]، ولم يكن هذا هو كل ما صادفه الإمبراطور فردريك الأول من توفيق فى تلك المرحلة، إذ أن الحلف اللمباردى تفكك بعد أن أحست المدن اللمباردية بزوال الخطر الإمبراطورى، فاشتد التنافس فيما بينها وبين بعض، ممّا مكن الإمبراطور من النفاذ إلى شئون إيطاليا مرة أخرى، وصادف أن توفى البابا إسكندر الثالث سنة ١١٨١ فترك فراغا كبيرا فى روما لأن أحدا من البابوات الخمسة الذين خلفوه فى منصبه بين سنتى ١١٨١، ١١٩٨ لم تتح له فرصة البقاء طويلا فى الوظيفة البابوية ليقوم بعمل ذى أهمية فى التاريخ[١٥٨]، وقد أوشك النزاع بين البابوية والإمبراطورية أن يتجدد سنة ١١٨٤ عندما ماطل البابا لوكيوس الثالث فى تتويج هنرى - ابن الإمبراطور فردريك الأول - فى حياة أبيه، ثمّ تجدد النزاع فعلا فى عهد البابا أوربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧) عندما عين كل من البابا والإمبراطور رئيسا لأساقفة ترير Trier وتمسك كل منهما برأيه[١٥٩]، وسرعان ما تألف حلف ضدّ الإمبراطور فردريك الأول من البابا ورئيس أساقفة كولونيا وهنرى

(154) Barraclough: op. cit. p. 187.

(155) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 200 - 201 & 507.

(156) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 280.

لم يخلف وليم الثانى ملك صقلية عندئذ أبناء، ولذا كانت الوريثة الشرعية للعرش هى الأميرة كونستانس ابنة روجر الثانى، ملك صقلية الأسبق (١٠٩٣ - ١١٥٤).

(157) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 453.

(158) Hayward: op. cit. pp. 189 - 191.

(159) Idem: p. 189.

الأسد، ولكن موقف الإمبراطور كان قويا بعد أن استمال إليه أعداءه القدامى فى إيطاليا وألمانيا، وعلى رأسهم مدينة ميلان التى شهدت الاحتفال بزواج هنرى ابن الإمبراطور من الأميرة كونستانس.

وعلى الرغم من الهزائم التى لحقت بالبابا وحلفائه فى ألمانيا وإيطاليا إلا أن أوربان الثالث أصرَّ على موقفه واستعد لإصدار قرار الحرمان ضدّ الإمبراطور، فى الوقت الذى جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين بالأراضى المقدسة سنة ١١٨٧، وبعد ذلك بأيام قلائل توفى البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجورى الثامن علي لم شعث القوى المسيحية لإرسال حملة جديدة إلى الشرق تثأر لما حلّ بالصليبيين على أيدى صلاح الدين[١٦٠]، على أن هذا البابا لم يمكث فى منصب البابوية سوى أسابيع قليلة توفى بعدها، فخلفه كلمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١) الذى استأنف سياسة سلفه فى ضمّ صفوف الغرب المسيحى، فاسترضى الإمبراطور فردريك بربروسا بأن عزل رئيس أساقفة تريير المغضوب عليه من الفريق الإمبراطورى، كما وعد فردريك بتتويج ابنه هنرى. وهكذا عادت للإمبراطور فردريك الأول سيادته من جديد على ألمانيا وإيطاليا، فنفى هنرى الأسد وثبت الأمن والنظام فى شطرى الإمبراطورية[١٦١]. وفى سنة ١١٨٩ غادر الإمبراطور فردريك بربروسا ألمانيا على رأس الشطر الألمانى من الحملة الصليبية الثالثة، فى الوقت الذى كان الأمير هنرى الأسد يدبر له المؤامرات من منفاه فى البلاط الإنجليزى وقد انتهز هنرى الأسد فرصة سفر الإمبراطور إلى الشرق وعاد إلى ألمانيا محاولا استرجاع سكسونيا بالقوة، ممّا جعل السياسة الأوربية تمر فى تلك الحقبة بدور شديد التعقيد بسبب علاقة الصداقة بين ألمانيا وفرنسا من جهة وعداء إنجلترا لفرنسا وبالتالى ألمانيا من جهة أخرى[١٦٢]، أمّا فيما يتعلق بفردريك بربروسا فقد شاءت الأقدار أن يلقى هذا الإمبراطور الشيخ حتفه غرقًا فى أحد أنهار آسيا الصغرى سنة ١١٩٠ قبل أن يصل إلى الأراضى المقدسة.

---

(160) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 270 - 271.

(161) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 509.

(162) Barraclough: op. cit. p. 195.

وكان أن جاء في العرش بعد فردريك بربروسا ابنه هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) الذى ورث عن أبيه مقدرته، وقوة عزيمته، وتشبعه بفكرة الإمبراطورية العالمية[١٦٣]، ذلك أنه وضع لنفسه برنامجا ضخما يتضمن جعل المنصب الإمبراطورى وراثيا فى ذريته وإلغاء مبدأ الانتخاب فى اختيار الإمبراطور، واستغلال مركز زوجته كوريثة صقلية فى دعم نفوذه فى جنوب إيطاليا، على أن هنرى السادس لم يستطع إتمام مشروعاته السابقة دون الاصطدام مع خصومه ومنافسيه، وعلى رأسهم هنرى الأسد الذى ذكرنا أنه عاد من منفاه بإنجلترا ليطالب بأملاكه ويستعيد نفوذه[١٦٤]، هذا فى الوقت الذى كان وليم الثانى ملك صقلية قد توفى فى أواخر سنة ١١٨٩ وأراد الوطنيون إعطاء عرش المملكة لتنكرد بدلا من كونستانس زوجة هنرى السادس والوريثة الشرعية للعرش[١٦٥].

ويبدو أن هذه المشكلة الأخيرة كانت أهم المشاكل فى نظر هنرى السادس حتّى أنه صفّى المسائل المعلقة بينه وبين هنرى الأسد، ثمّ عبر جبال الألب إلى إيطاليا فى أوائل سنة ١١٩١ حيث اكتسب تأييد أهالى روما وتغلب على مماطلة البابا كالستين الثالث Calsstine III حتى تمّ تتويجه مع زوجته الإمبراطورة كونستانس فى شهر أبريل من السنة نفسها[١٦٦]، وعندما زحف هنرى السادس جنوبا لاسترداد مملكة صقلية من مغتصبها تنكرد، تنكر له الحظ بسبب مقاومة نابلى وانتشار الطاعون بين الجنود الألمان، حتّى اضطر الإمبراطور إلى العودة شمالا إلى ألمانيا[١٦٧]، وكانت الأوضاع فى ألمانيا عندئذ تنذر بصدام جديد بين الهوهنشتاوفن والجلفيين، أو بعبارة أخرى بين الإمبراطور وهنرى الأسد، وفعلا قامت حرب بين الطرفين سنة ١١٩٢، ولم تلبث أن تعقدت حوادث هذه الحرب عندما ثار أمراء الراين سنة ١١٩٣ نتيجة لسياسة هنرى السادس؛ وبذلك اشتدت أواصر التحالف بين الهونشتاوفن فى ألمانيا وآل كابيه فى فرنسا ضدّ أفصالهم الولفيين وأمراء الراين وملك إنجلترا[١٦٨]، على أن الحظ

(163)Bryce: op. cit. p. 201.

(164) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 460.

(165) Eyre: op. cit. p. 167.

(166) Hayward: op. cit. p. 191.

(167) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 464.

(١٦٨) كان ملك إنجلترا عندئذ يعتبر فصلا إقطاعيا لملك فرنسا بالنسبة للأراضى الواسعة التى كانت تحت سيادة الأول فى غرب فرنسا (نورمنديا، وآنجو، ومين، وتورين، وبواتو، وجوين وجاسكونى).

حالف هنرى السادس، إذ حدث فى الوقت الذى ثار أمراء الراين أن وصله خبر وقوع ريتشارد ملك إنجلترا ـ أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة ـ فى أسر دوق أوستريا الذى سلمه بدوره لهنرى السادس، وقد ظلّ ريتشارد فى الأسر أكثر من عامين أرسل خلالهما فيليب ملك فرنسا إلى حليفه هنرى السادس يطلب منه عدم الإفراج عنه، ولكن هنرى السادس أفرج عنه أخيرا سنة ١١٩٤ بشروط قاسية(١٦٩)، وسرعان ما تتابعت انتصارات هنرى السادس على خصومه، فخضع أمراء الراين واستسلم هنرى الأسد وبقية حلفائه، وبذلك غدا هنرى السادس سيد الموقف فى ألمانيا، مما مكنه من توجيه كل جهوده نحو إيطاليا(١٧٠).

وقد ساعدت هنرى السادس فى تحقيق أطماعه الإيطالية المقدرة التى امتاز بها على الانحناء أمام التيارات الصغيرة والثورات المحلية حتّى تمر بسلام، هذا فضلا عن انشغال المدن اللمباردية فى شمال إيطاليا بما نشب بينها من خلاف، وهنا نجد هنرى السادس يحرص على عدم الزج بنفسه فى تلك الخلافات، وعلى استرضاء مختلف الفرق المتنازعة، ممّا مكنه من الحصول على معونة بحرية من جنوة وبيزة فى حربه ضدّ صقلية، كما حرم مملكة صقلية من الحصول على مساعدة حلفائها فى شمال إيطاليا، أمّا البابا كالستين الثالث Calestine III (ت ١١٩٨) فكانت تنقصه الجرأة واكتفى بالوسائل السياسية لعرقلة مشروعات الإمبراطورية ممّا جعل ملك صقلية يواجه هنرى السادس وحيدا منفردا(١٧١).

وكان تنكرد قد توفى عند وصول هنرى السادس إلى إيطاليا سنة ١١٩٤، فحلّ محله ابنه وليم الثالث الذى لم يستطع مواجهة الإمبراطور، فتمكن هنرى السادس قبل نهاية ١١٩٤ من الاستيلاء على مملكة الصقليتين؛ حيث ترك زوجته كونستانس تنوب عنه فى حكمها فى حين عاد هو إلى ألمانيا سنة ١١٩٥، وهكذا حرمت البابوية من أقوى حلفائها فى إيطاليا بعد أن أصبحت الأجزاء الجنوبية فى قبضة الإمبراطورية(١٧٢)، أمّا هنرى السادس فقد بلغ وقتئذ درجة من اتساع النفوذ لم يصل

(169) Adams: op. cit. pp. 374 - 376.

(170) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 306 - 309.

(171) Hayward: op. cit. p. 191.

(172) Eyre: op. cit. p. 167.

إليها إمبراطور فى غرب أوربا منذ أيام شارلمان، لا سيما بعد أن خلصه الموت من خصمه هنرى الأسد سنة ١١٩٥ [١٧٣]، ويلاحظ بصفة خاصة أن نجاح هنرى السادس فى صقلية يعتبر نقطة تحول فعالة فى تاريخ الإمبراطورية وسياستها الخارجية؛ لأن هذا النجاح لم يجعل الأباطرة ورثة النورمان فى أراضيهم بجنوب إيطاليا وصقلية فحسب، بل ورثوهم أيضًا فى سياستهم الخاصة بالسيطرة على البحر المتوسط وفى عدائهم الشديد للدولة البيزنطية، الأمر الذى جعل السياسة الخارجية للإمبراطورية المقدسة تتحول عن مجراها الطبيعى إلى مجرى آخر لا يتفق مع مصالح الإمبراطورية [١٧٤]، وبعبارة أخرى فإن ضمّ صقلية إلى الإمبراطورية سبب للأخيرة مشاكل داخلية وخارجية لم تستطع أن تتحملها، إذ استمرت صقلية مدة ستين عاما - بدأت منذ سنة ١١٩٠ - تستأثر بجهود الأباطرة الذين صرفوا أبصارهم عن شئون ألمانيا، حتّى انتهى الأمر بانهيار أسرة هوهنشتاوفن وتفكك حكومة ألمانيا [١٧٥]، أمّا هنرى السادس فقد حصل سنة ١١٩٦ على موافقة أمراء ألمانيا على اختيار ابنه فردريك الثانى ليخلفه فى عرش الإمبراطورية، ثمّ ذهب بعد ذلك إلى إيطاليا حيث توفى سنة ١١٩٧ وهو يتأهب للقيام بحملة صليبية كبيرة [١٧٦].

وصادف فى ذلك الوقت أن البابا كالستين الثالث لحق بالإمبراطور بعد أربعة أشهر تقريبا، فخلفه سنة ١١٩٨ البابا أنوسنت الثالث الذى امتاز بشخصية عظيمة مكنته من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادئ جريجورى السابع وإسكندر الثالث، وقد شبه أنوسنت الثالث البابوية بالشمس والإمبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس، وبذلك عاد إلى نغمة سيادة البابوية على الإمبراطورية ممّا هدد بفتح باب للنزاع من جديد بين السلطتين [١٧٧]، وربما كان من العوامل التى ساعدت أنوسنت الثالث على الظهور عدم وجود إمبراطور قوى على رأس

---

(173) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 469.
(174) Barraclough: op. cit. p. 197.
(175) Ibid.
(176) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 512.
(177) Tout: The Empire and the Papacy, p. 314.

الإمبراطورية عندئذ؛ لأنه حدث بعد وفاة هنرى السادس أن انفصل تاج صقلية عن الإمبراطورية وعندئذ لم تبذل أية محاولة جديدة للاحتفاظ بوحدة عرشى صقلية وألمانيا(١٧٨)، ويبدو أن كونستانس ـ الإمبراطورة الوالدة ـ أثرت الاحتفاظ لابنها بملك صقلية، مبتعدة به عن ألمانيا ومشاكلها، وفى سبيل ذلك أعلنت تبعيتها للبابوية وتعهدت بدفع مبلغ معين من المال للبابا سنويا، وهكذا استطاعت كونستانس أن تحكم نابلى وصقلية باسم ابنها فردريك الصغير فأبعدت الموظفين الألمان الذين شكا منهم الأهالى، كما أوصت قبل وفاتها سنة ١١٩٨ بأنها يخلفها البابا فى الوصاية على ابنها الصغير(١٧٩)، وقد قام البابا أنوسنت الثالث بالوصاية على فردريك الثانى على خير وجه، كما أخذ يمكن للبابوية فى أواسط إيطاليا وشمالها بعد طرد الحاميات الألمانية من روما، هذا فى الوقت الذى أخذ البابا يرقب ـ حوادث الانقسام التى هددت ألمانيا بحرب أهلية(١٨٠).

ذلك أن فيلب دوق سوابيا ـ وعم فردريك ـ الثانى ـ أسرع إلى ألمانيا عقب وفاة أخيه هنرى السادس للاحتفاظ بعرشها للهوهنشتاوفن ، حتّى انتهى الأمر باختياره ملكا على ألمانيا سنة ١١٩٨ ، على أن عددا كبيرا من الأمراء أيدوا أوتو ـ الابن الثانى لهنرى الأسد ـ الذى كان يعيش فى بلاط ريتشارد ملك إنجلترا، وعندئذ أمده ريتشارد بالمال وأرسله إلى ألمانيا ليستخلص حقوقه بوصفه ممثل الولفيين(١٨١)؛ ممّا جعل ألمانيا مسرحا لحرب أهلية استمرت عشر سنوات وانتهت بانتصار فيلب سنة ١٢٠٧ ، ثمّ مقتله فى العام التالى، وهكذا تبسم الحظ لأوتو الرابع الذى لم يجد أمامه من ينافسه من بيت هوهنشتاوفن، فأسرع إلى الزواج من ابنة غريمه فيليب ليربط بين الجلفيين والجبللينيين، هذا إلى أنه عمل على استرضاء البابوية، فقصد إيطاليا سنة ١٢٠٩ ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك ألمانيا وليبحث مع البابا مشكلة تركة الأميرة ماتيلدا(١٨٢). وقد انتهز أوتو الرابع فرصة مقابلته للبابا وأعلن ولاءه للبابوية كما أقسم

(178) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 44 - 45.

(179) Tout: The Empire and the Papacy, p. 317.

(180) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 45.

(181) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 233.

(182) Barraclough: op. cit. p. 212.

على أنه يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين، وعلى أن يساعد البابا ضد خصومه، فكافأه البابا على ولائه بتتويجه فى أكتوبر من العام نفسه[١٨٣]، على أن موقف أوتو من البابوية بعد أن توج إمبراطورا اختلف كثيرا عن موقفه منها وهو يسعى لاكتساب عطفها للوصول إلى العرش، ذلك أن أوتو الرابع لم يلبث أن أفزعته سياسة البابا أنوسنت الثالث وأطماعه، فاضطر - وهو الإمبراطور الجلفى - إلى اتباع سياسة خصومه من آل هوهنشتاوفن تجاه البابوية[١٨٤]. وهكذا أخذت العلاقة بين البابوية والإمبراطورية تتخذ شكل حرب باردة، فبدأ أوتو الرابع يعمل على إبعاد فردريك الثانى عن عرش صقلية لإدخالها تحت سلطانه، ممّا أفزع البابا أنوسنت الثالث، لاسيما بعد أن تمسك أوتو الرابع بحق الإمبراطورية فى تركة الأميرة ماتيلدا[١٨٥]. ولم تلبث هذه الحرب الباردة أن تحولت إلى حرب ساخنة عندما شرع أوتو الرابع فى تنفيذ أطماعه عمليا، فاحتل تسكانيا سنة ١٢١٠، ثمّ غزا أبوليا وأخذ يتأهب لغزو صقلية بمساعدة الأسطول البيزى[١٨٦]، وقد أرتاع البابا من تلك الأحداث، فأصدر قرار الحرمان ضدّ الإمبراطور، وأباح لرعاياه الخروج عن طاعته، كما أعلن فردريك الثانى إمبراطورا، وهكذا انقلبت الأوضاع فى أوربا فأصبح أوتو الرابع - وهو ابن هنرى الأسد الولفى - يقوم بدور الهوهنشتاوفن فى مناوءة البابوية والتمسك بسيادة الإمبراطورية، فى حين أخذ البابا يساند فردريك الثانى الجبلليني سليل الهوهنشتاوفن[١٨٧]، وكيفما كان الأمر فقد أتت السياسة البابوية أُكلها، فاجتمع عدد من أمراء ألمانيا الكارهين للإمبراطور فى نورنبرج Nurnberg سنة ١٢١١، واعتبروا قرار البابا ضدّ الإمبراطور مرسوما بعزله، واختاروا فردريك الثانى ملك صقلية - وابن هنرى السادس - ملكا على ألمانيا بدلا من أوتو الرابع المحروم من الكنيسة، ومن الواضح أنه لم يكن من مصلحة البابا أن يختار الألمان فردريك الثانى ملكا عليهم حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكى الكماشة فيحيط بها النفوذ الإمبراطورى من الشمال

---

(183) Hayward: op. cit. p. 193.

(184) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 73.

(185) Tout: The Empire and the Papacy, p. 318

(186) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 74.

(187) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 621.

والجنوب[١٨٨]، ولكن الموقف الذى كان فيه البابا أنوسنت الثالث عندئذ جعله لايفكر فى شيء سوى التخلص من أوتو الرابع، فوافق على اختيار فردريك الثانى لعرش ألمانيا دون أن يدرى ما سيترتب على هذا الاختيار من نتائج[١٨٩].

أمّا فردريك الثانى فلم يلبث أن غادر صقلية - وكان فى السادسة عشر من عمره- وقصد روما حيث أعلن ولاءه للبابوية، ثُم قصد ألمانيا حيث رحبت به سوابيا وبافاريا، حتّى يتم تتويجه رسميا ملكا على ألمانيا بيد رئيس أساقفة مينز ١٢١٢[١٩٠]، ولم يبق أمام أوتو الرابع عندئذ سوى الاعتماد على إمارة سكسونيا، فطلب المعونة من خاله حنا ملك إنجلترا الذى كان مغضوبا عليه من البابوية هو الآخر، على أن التحالف بين فردريك الثانى وفيليب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية كان أقوى أثرا من التحالف بين ملك إنجلترا وأوتو الرابع وغيرهما من أمراء فلاندرز وبرابانت واللورين[١٩١]، وسرعان ما أنزل فيليب أوغسطس هزيمة ساحقة بخصومه فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤، وهى الموقعة التى تعتبر نقطة تحول لا فى تاريخ ألمانيا، فحسب، بل فى تاريخ غرب أوربا بأسره، أمّا فيما يتعلق بألمانيا فإن أوتو الرابع انسحب يجر أذيال الخيبة نحو سكسونيا حيث توفى سنة ١٢١٨ فى حين استسلم أنصاره وأتباعه لفردريك الثانى بسهولة[١٩٢]، وقد احتفل فردريك الثانى بانتصاره بإعادة تتويجه فى كاتدرائية آخن. وبذلك أصبح بعد موقعة بوفان الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حكم ألمانيا والصقليتين[١٩٣]، والواقع أن هناك عدة ظروف تجمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى وأشدها غرابة، ذلك أنه ولد من أب ألمانى وأم نصف إيطالية، وتلقى تعليمه فى صقلية، على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية، فنشأ فيلسوفا محبا للجدل والرياضيات[١٩٤] يجيد عدة

---

(188) Barraclough: op. cit. p. 212.

(189) Tout: The Empire and the Papacy, p. 239

(190) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 76.

(191) Adems: op. cit. p. 431.

(192) Barraclough: op. cit. p. 214.

(193) Eyre: op. cit. p. 169.

(194) Kantorowicz: op. cit. pp. 293 - 395.

لغات منها اللغة العربية، ويتذوق الشعر العربي وغير العربي، هذا كله فضلا عن مهارته كسياسي، ومحارب، وقانوني، حتّى أطلق عليه المؤرخون «أعجوبة الدنيا»(١٩٥)، وقد شاءت الظروف أن تساعد فردريك الثاني في أوائل عهده لأن البابا أنوسنت الثالث توفى سنة ١٢١٦ فتحرر فردريك الثاني من سيطرته، ولاسيما أن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) كان هادئ الطبع، ففضل توجيه جهود العالم الغربي نحو الحروب الصليبية بدلا من المنازعات العقيمة بين البابوية والإمبراطورية.

الدور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية:

على أن جهود فردريك الثاني في التمكين لنفسه من جهة، واتخاذ إيطاليا وصقلية - لا ألمانيا - مسرحا سياسيا لنشاطه من جهة أخرى، كان من شأنها أن تثير مخاوف البابوية(١٩٦)، وازدادت هذه المخاوف عندما اتضح للبابوية أن فردريك الثاني غير قانع بصقلية وجنوب إيطاليا، وإنما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمالها - أي في لمبارديا، حقيقة أن فردريك حرص عندئذ على احترام مركز البابوية في إيطاليا، ولكن سيطرة الإمبراطور على جنوب إيطاليا وشمالها أنذرت بوقوع الأملاك البابوية بين شقي الرحى، ممّا جعل البابا ينظر إلى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف ممّا سيتمخض عنه المستقبل(١٩٧).

وكان فردريك الثاني قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية، كما وعده بفصل صقلية عن الإمبراطورية، ولكنه عاد فأخذ يماطل في القيام بالحملة التي وعد بها، كما توج ابنه هنري سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه في حكم صقلية والإمبراطورية جميعا ممّا ضايق البابوية وأفزعها(١٩٨)، وفي سنة ١٢٢٠ تمّ تتويج فردريك الثاني إمبراطورا في روما بعد أن جدد العهد بالقيام بالحملة الصليبية، ويبدو أن فردريك لم يكن جادا في مشروعه الصليبي في الوقت الذي كانت البابوية

---

(195) Bryce: op. cit. pp. 203 - 204.

(196) Barraclough: op. cit. pp. 222 - 223.

(197) Idem, p. 228.

(198) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 364 - 365.

تتوق لإرسال حملة صليبية على وجه السرعة لإصلاح الموقف الذى نجم عن فشل حملة حنا برين على مصر، وهى الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ - ١٢٢١)، وأخيرا لجأ البابا إلى تشجيع فكرة زواج الإمبراطور من الأميرة يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة فى الذهاب إلى الأراضى المقدسة واسترداد بيت المقدس من المسلمين، وفعلا تمّ الزواج سنة ١٢٢٥، ومع ذلك لم يخط فردريك الثانى خطوة جدية فى سبيل تنفيذ وعده الصليبى(١٩٩)، هذا إلى أن فردريك الثانى لجأ بعد تتويجه إلى فرض قوانين مشددة على رجال الدين استهدفت الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم، كما عقد مؤتمرا فى كريمونا سنة ١٢٢٦ أعلن فيه تمسكه بحقوقه الإمبراطورية كاملة فى السيطرة على لمبارديا، مما أفزع المدن اللمباردية، فجددت حلفها ضدّ الإمبراطور وسدت ممرات الألب فى وجهه. وكان صبر البابا هنريوس الثالث قد أوشك أن ينفد عندئذ، فأخذ يتأهب لتجديد الحلف بين البابوية والمدن اللمباردية، ولكنه توفى فى مارس سنة ١٢٢٧ مما أجل فتح باب النزاع بين الإمبراطورية والبابوية(٢٠٠).

وعلى الرغم من أن البابا الجديد جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعنا فى السن، إلا أنه امتاز بإرادة حديدية لا تفل، فلم يقبل الأعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية، وأصرّ على ضرورة رحيل الإمبراطور إلى الشرق فورا(٢٠١)، وكان أن أبحر الإمبراطور فعلا من برنديزى قاصداً الأراضى المقدسة، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض، ممّا جعل البابا يعتبر المرض تمارضا فأصدر قرارالحرمان ضدّ الإمبراطور فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧(٢٠٢)، وهنا يجدر بنا أن نوضح مرة أخرى أن توقيع هذا القرار على الإمبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثانى فى تنفيذ وعده الصليبى فحسب، بل أيضاً تخوف البابوية من سياسة فردريك فى إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص(٢٠٣). ومهما يكن من أمر

(199) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 139.

(200) Hayward: op. cit. p. 200.

(201) Cam. Med. Hist. op. cit. 146.

(202) Kantorowicz: op. cit. p. 171.

(203) Creighton: A Hist. of the Papacy, p. 26.

فإن هذا الإجراء فتح باب النزاع على مصراعيه بين البابوية والإمبراطورية، وكانت ميلان مسئولة إلى حد كبير عن فتح هذا الباب؛ لأنها عارضت بشدة إحياء النفوذ الإمبراطورى فى لمبارديا، فجددت الحلف اللمباردى لمدة خمس وعشرين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٢٢٦، كما أنها سدت ممرات الألب فى وجه الجيوش الإمبراطورية الوافدة من ألمانيا(٢٠٤)، أمّا البابا فقد أرسل رسله ومندوبيه إلى جميع أنحاء إيطاليا وألمانيا لإبلاغ الناس القرار البابوى ضدّ الإمبراطور وتحريضهم على الخروج عن طاعته، وعلى أنه يبدو أن الإمبراطور فردريك لم يتأثر بتلك الدعوة، وظلّ ثابتا فى مركزه يرقب فشل عملاء البابا فى تحريك الثورة ضده، بل على العكس نجح دعاة الإمبراطور فى إثارة فتنة ضدّ البابا فى روما ممّا اضطر جريجورى التاسع إلى الفرار منها، سنة ١٢٢٨(٢٠٥).

وأخيرا أدرك فردريك الثانى أن مصلحته تستدعى القيام بحملته الصليبية المزعومة حتّى يبدو فى ثوب المجاهد فى سبيل الغرض الصليبى، فوصل عكا على رأس قوة صغيرة فى سبتمبر سنة ١٢٢٨، ويفهم من حوادث هذه الحملة الصغيرة أن فردريك الثانى لم يخرج إلى الشرق بقصد الحرب، وإنما كان يبغى مفاوضة المسلمين للحصول على كسب سريع، ولم تلبث هذا المفاوضة أن انقلبت إلى نوع من الاستعطاف، وهو السلاح الوحيد الذى كان يملكه فردريك الثانى عندما قدم إلى الشرق فى بضع مئات من أتباعه، وتشير بعض المصادر المعاصرة إلى أن فردريك كان يبكى فى بعض مراحل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود إلى الغرب فاشلا ليواجه البابوية وبقية أعدائه فى إيطاليا وألمانيا(٢٠٦)، ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثانى إلى السلطان الكامل الأيوبى أثناء المفاوضات يقول فيها: «أنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عمّا تأمره خروج! وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم..!(٢٠٧)».

---

(204) Barraclough: op. cit. p. 230.

(205) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 367 - 368.

(206) Kantorowicz: op. cit. p. 185.

(٢٠٧) المكتبة الصقلية جـ ٢ ص ١٤ (ذيل البابا الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات).

وهكذا استطاع فردريك الثانى أن يكتسب عطف السلطان الكامل، فعقدت معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٢٩ سلم بمقتضاها الكامل بيت المقدس للإمبراطور الذى استطاع بذلك أن يحقق نصرا عجزت عنه بقية الحملات الصليبية الضخمة التى وفدت إلى المشرق بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧، وكان أن دخل فردريك الثانى كنيسة القيامة فى بيت المقدس حيث أعلن من ذلك المكان المرموق أن قرارالحرمان الذى أصدره البابا ضدّه باطل، كما توج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة[٢٠٨]، وهنا نلاحظ أن تتويج الإمبراطور لنفسه فى ذلك المكان له مغزى عميق، إذ ربما أراد الإمبراطور بذلك أن يعلن بطريقة صامتة فى تلك الكنيسة ذات الأهمية العظمى أنه لم يتلق التاج الإمبراطورى من رجال الدين، وأنه تلقاه من الله مباشرة دون وساطة أحد من رجال الكنيسة، هذا وإن كانت بعض المصادر المعاصرة تفسر تتويج الإمبراطور لنفسه بأن رجال الدين فى بيت المقدس امتنعوا عن تتويج إمبراطور محروم من الكنيسة، مطرود من رحمتها[٢٠٩]، ومهما يكن من أمر فإن إقامة فردريك الثانى لم تطل فى الأراضى المقدسة، إذ عاد بسرعة إلى إيطاليا ليجد قوات البابا جريجورى التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه فى جنوب إيطاليا ، بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر وفاة الإمبراطور فى الشرق ليضعف مركزه فى إيطاليا وألمانيا، واستغل هذه الفرية ليستولى على الأملاك الإمبراطورية، كما يتضح ذلك من رسالة بعث بها الإمبراطور إلى أحد أصدقائه المسلمين فى الشرق بعد عودته[٢١٠]؛ لذلك وقع خبر وصول الإمبراطور فردريك الثانى إلى ميناء برنديزى

---

(208) Kantorowicz: op. cit. p. 199.

(209) Ibid.

(٢١٠) أرسل الإمبراطور فردريك الثانى رسالة بعد عودته إلى إيطاليا إلى الأمير فخر الدين، رسول السلطان الكامل فى المفاوضات بينه وبين فردريك قبل تسليم بيت المقدس، وفى هذه الرسالة الطريفة يحكى الإمبراطور لصديقه المسلم ما فعله البابا فى غيابه، فضلا عما توضحه الرسالة من شعور عدائى متبادل بين البابوية والإمبراطورية عندئذ، فيقول «بسم الله الرحمن الرحيم، من قيصر العظيم إمبراطور رومية فردريك ... وبعد علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا، فنشعره أن البابا باء بالغدر والخديعة، أخذ إحدى قلاعنا المنيعة، واضطر إلى أن زعم أننا متنا وحلف القرذنالية (الكرادلة) على ذلك، وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراضوا العامة بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن جراية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا..». =

(يونية ١٢٢٩) وقع الصاعقة على البابا جريجورى التاسع، الذى يبدو أنه بات يخشى هجوما مسلحا يقوم به فردريك الثانى على روما، فأرسل سنة ١٢٢٩ عدة رسائل إلى كبار الأساقفة يأمرهم بسرعة الحضور، ومع كل منهم قوة مسلحة للدفاع عن الكنيسة الرومانية ضدّ هجوم الإمبراطور المتوقع(٢١١)، وأخيرا لم يجد البابا مفرا من الاعتراف بما حققه الإمبراطور من مكاسب للمسيحية باسترداده بيت المقدس، فعقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ مع الإمبراطور، وبمقتضاه رفع عنه قرارالحرمان مقابل تعهده بحماية أملاك البابا والاعتراف بحق البابوية فى السيادة على صقلية(٢١٢).

ومن الواضح أن صلح سان جرمانو لم يتعرض لأسباب الخلاف الحقيقية بين البابا والإمبراطور؛ لذلك لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة مؤقتة بين الطرفين، ومهما يكن من أمر، فإن فردريك الثانى استغل هذه الهدنة لتقوية نفوذه فى جنوب إيطاليا وصقلية، وهنا يظهر التناقض الشديد بين سياسة الإمبراطور فى إيطاليا وسياسته فى ألمانيا، إذ بينما هو يعمل على توطيد نفوذه فى إيطاليا عن طريق إضعاف الأمراء الإقطاعيين، إذا به يعتمد على أمرائه الألمان فى إمداده بالقوة اللازمة لتنفيذ سياسته الإيطالية(٢١٣)؛ لذلك اضطر الإمبراطور إلى ترك الحبل على الغارب بالنسبة للأمراء الألمان، مماً أدى إلى تقويض نفوذ الهوهنشتاوفن فى ألمانيا، لا سيما فى ذلك الوقت الذى أخذت المدن الإلمانية تنمو لتتحول إلى قومونات ذات نفوذ سياسى واقتصادى مستقل، وفى تلك الأثناء كانت المدن اللمباردية ترقب بعين القلق ازدياد نفوذ الإمبراطور فى إيطاليا، مماً أدى إلى تجديد الحلف فيما بينها سنة ١٢٣٢ لمواجهة هذا الخطر المشترك(٢١٤)، ولم تلبث تلك المدن أن ثارت ضدّ الإمبراطور الذى اعتمد على معونة كبار الأمراء الإقطاعيين حتّى تمكن من إنزال هزيمة بقوات الحلف اللمباردى

= انظر المكتبة الصقلية جـ ٢ ص ٢٤ الباب ١٠٣ من التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان لأبى الفضائل الحموى.

(211) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 296 N.I.

(212) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 147.

(213) Tout: The Empire and the Papacy, p. 370

(214) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 151.

عند كورتنوفا Cortenuova قرب ميلان سنة ١٢٣٨' وبذلك ثار فردريك الثانى لما حلّ بفردريك الأول فى ليتانو سنة ١١٧٦[٢١٥]، ويبدو أن هذه الهزيمة أثارت شعور اليأس عند كثير من المدن التى أسرعت إلى عقد الصلح مع الإمبراطور، بل إن ميلان نفسها عرضت حل الحلف اللمباردى الذى أصبح لا يضم سوى ست مدن، ولكن فردريك أصر على أن يكون استسلام ميلان غير مشروط بقيد؛ وبذلك أضاع فرصة طيبة للوصول إلى تسوية سريعة[٢١٦].

ذلك أن البابا جريجورى التاسع كان قد استعد للدخول فى نضال جديد ضدّ الإمبراطورية، ولا سيما أن الاستياء بلغ به حدا كبيرا عندما أخذ فردريك الثانى - عقب انتصاره على المدن اللمباردية سنة ١٢٣٧ - يتصل بأهالى روما ويحرضهم على الثورة ضدّ البابا[٢١٧]، وفى سنة ١٢٣٨ - ١٢٣٩ أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان - للمرة الثانية - ضدّه الإمبراطور فردريك الثانى، كما حرض رعاياه على الثورة ضدّه، بل بلغ الأمر بالبابا أن عرض تاج الإمبراطورية على أخ لملك فرنسا، ولكن لويس التاسع لم يهتم بنداء البابا الذى وجهه إليه فى أكتوبر سنة ١٢٣٩، واختار أن يحترم اتفاقية الصداقة التى عقدتها أمه بلانش مع الإمبراطورية[٢١٨]. أما جهود البابا فى إثارة المتاعب ضدّ الإمبراطور بألمانيا فقد منيت كلها بالفشل؛ ممّا مكن الإمبراطور من مواصلة الحرب ضدّ البابوية فى إيطاليا، وهو مطمئن تماما إلى ناحية الجبهة الألمانية، وكان البابا يظن أنه يستطيع باكتساب القوى البحرية - جنوة، وبيزة، والبندقية - إلى جانبه، أن يشنّ هجوما على صقلية ليقضى على المركز الرئيسى لفردريك، ولكن الهزيمة التى حلت بأسطول جنوة سنة ١٢٤١ خيبت أمله[٢١٩]، فى حين أخذت القوات الإمبراطورية تهاجم الأراضى والمدن الموالية للبابا فى أواسط إيطاليا. فاستولت على أنكونا، ودوقية سبوليتو، كما أصبح الإمبراطور سيد رافنا وفاينزا

---

(215) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 629 - 630.

(216) Barraclough: op. cit. p. 230.

(217) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 135.

(218) Hayward: op. cit. 202.

(219) Barraclough: op. cit. p. 231.

Faenza، بل إنه استولى على بعض المدن الشديدة القرب من روما مثل: فوليجنو وفيتربو Viterbo بحيث إنه لم ينقذ البابا عندئذ سوى بقاء أهالى روما على ولائهم له(٢٢٠). وأخيرا لم يجد البابا وسيلة لإحراج مركز فردريك الثانى فى أوربا كلها سوى عقد مجمع دينى فى روما يشترك فيه كبار رجال الدين بالغرب لإنزال اللعنة بالإمبراطور، وفعلال لَبى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا واجتمعوا فى ربيع سنة ١٢٤١ فى جنوة استعدادا للإبحار منها إلى روما، ولكن عددا كبيرا من مدن إيطاليا البحرية - وعلى رأسها بيزة - كانت موالية للإمبراطور، واستطاعت هذه القوة البحرية أن تتصيد السفن الجنويّة التى تنقل الأساقفة الوافدين لحضور المجمع البابوى؛ ممّا أوقع معظمهم فى أسر الإمبراطور وأدى إلى فشل مشروع البابا(٢٢١) . ولم ينقذ هؤلاء الأساقفة من قبضة الإمبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بإعلان الحرب، وعندئذ أطلق فردريك الثانى سراحهم. وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى توفى البابا جريجور التاسع (أغسطس ١٢٤١) وهو فى الثامنة والتسعين من عمره(٢٢٢).

وقد أعقب جريجورى التاسع فى منصب البابوية كلستين الرابع، ولكنه توفى فى العام نفسه (سنة ١٢٤١) وعندئذ تعذر انتخاب بابا جديد، فظلّ كرسى البابوية شاغراً مدة سنة ونصف - بسبب دسائس فردريك الثانى - حتّى اختير أنوسنت الرابع فى يونية سنة ١٢٤٣(٢٢٣). وفى تلك الأثناء كانت المحادثات دائرة بين الفريق الإمبراطورى من جهة والبابا جريجورى التاسع ثمّ أنوسنت الرابع من جهة أخرى للوصول إلى اتفاق ينهى حالة النزاع بين الطرفين، ولكن هذه المحادثات مُنيت بالفشل مرة بعد أخرى لاصطدامها بصخرة واحدة هى تمسك البابوية بالسيطرة على الموقف بين فردريك والمدن اللمباردية، فى حين كان فردريك مستعدا للتساهل فى جميع المشاكل الكنسيّة المعلقة دون أن يسمح للبابا بالتدخل فى حقوقه الإمبراطورية فى

---

(220) Tout: The Empire and the Papacy, p. 284
(221) Kantorowicz: op. cit. pp. 544 - 546.
(222) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.
(223) Hayward: op. cit. p. 203.

لمبارديا[٢٢٤] . وكان أن صمم أنوسنت الرابع على مواصلة سياسة جريجورى التاسع تجاه الإمبراطورية، ممّا جعل قوات الإمبراطور - من المسلمين الذين استعان بهم وأسكنهم فى جنوب إيطاليا - تهجم على الأراضى البابوية، وقد اضطر البابا إزاء هذه الأخطار إلى الفرار من روما سنة ١٢٤٤ إلى جنوة ومنها إلى فرنسا حيث عقد مجمعا دينيا فى ليون سنة ١٢٤٥ لبحث المشاكل الكبرى التى تواجه الكنيسة. وعلى رأسها مسألة النزاع مع الإمبراطورية [٢٢٥] .

وقد قرر ذلك المجمع عزل فردريك من منصبه على أن يختار من يحل محله فى هذا المنصب. ويبدو أن فردريك الثانى أدرك خطر هذا القرار فأصدر نداء إلى ملوك أوربا وحكّامها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا من أجله واكتفوا بإظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين؛ على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر نفسه فى بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ورجالها [٢٢٦] . وقد أدرك أنوسنت الرابع بعد الانتصارات التى أحرزها فردريك الثانى فى إيطاليا أنه لن يستطيع كسب المعركة ضدّ الإمبراطورية فى إيطاليا نفسها، فأخذ يوجه جهوده منذ سنة ١٢٤٥ نحو ألمانيا لتنظيم عناصر المقاومة الداخلية ضدّ الإمبراطور، وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساقفة ألمانيا وأمرائها قرروا سنة ١٢٤٦ اختيار أمير ثورنجيا ملكا على ألمانيا، إلاّ أن غالبية ألمانيا ظلت على ولائها للإمبراطور فى الوقت الذى أخذ فردريك الثانى يستغل كل أداة توصله إلى غرضه، وكان الصراع عنيفا - وبصفة خاصة فى الأراضى الإيطالية - فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع بين البابوية والإمبراطورية، فبذل البابا جهودا قوية للحيلولة دون قيام وحدة إمبراطورية متصلة تمتد من ألمانيا شمالا حتّى صقلية جنوبا مماً يهدد البابوية تهديدا خطيرا[٢٢٧] . ويبدو أن الفريق الإمبراطورى أحرز تفوقا ملحوظا بين سنتى ١٢٤٥، ١٢٥٠ حتّى بات الإمبراطور يحلم بعبور جبال الألب إلى ليون حيث يقيم خصمه أنوسنت

---

(224) Barraclough: op. cit. p. 321.

(225) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.

(226) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 630.

(227) Barraclough: op. cit. p. 232.

الرابع[٢٢٨]. ولكن فردريك الثانى فوجئ باشتعال نار الثورة فى بارما ١٢٤٧، حتّى استطاع أهالى هذه المدينة إحراز انتصار كبير على القوات الإمبراطورية فى العام التالى، ويعتبر هذا الحادث نقطة تحول خطيرة فى تلك المرحلة من مراحل النزاع بين البابوية والإمبراطورية، إذ سرعان ما أخذ التيار يتحول بسرعة ضدّ الإمبراطورية فثار أمراء أبوليا فى جنوب إيطاليا، كما اشتدت مقاومة المدن المعادية للإمبراطور فردريك فى شمالها[٢٢٩] حقيقة أن الحظ ابتسم مرة أخرى للإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ عندما انتصرت قواته فى شمال إيطاليا ، كما جاءت الأخبار من ألمانيا بانتصار ابنه كونراد على غريمه وليم أمير هولندا الذى اختارته البابوية ملكا على ألمانيا [٢٣٠]، ولكن لم يكن لهذه الانتصارات أية ثمرة نتيجة لوفاة الإمبراطور فردريك الثانى فى ديسمبر سنة ١٢٥٠ وهو فى طريقه من جنوب إيطاليا إلى شمالها.

وبوفاة فردريك الثانى انتهت الصفة العالمية للإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ لأنه كان فى الواقع آخر الأباطرة العظام الذين تمسكوا بالعقيدة الإمبراطورية وأصرّوا على سمو الإمبراطورية وطابعها العالمى[٢٣١]، وإذا كنّا فى حديثنا عن الصراع بين البابوية والإمبراطور فردريك الثانى قد تعمدنا عدم الاستطراد إلى مختلف التطورات التى أخذت تسرى فى جوف الإمبراطورية؛ وذلك لعرض الصراع فى صورة متصلة الحلقات، إلا أن ذلك لا يعنى الإقلال من شأن هذه التطورات وأثرها. وأول ما نلاحظه أن حوادث النزاع بين الإمبراطورية والبابوية صرفت الأباطرة عن ألمانيا وشئونها، مماً أدى إلى ازدياد نفوذ السلطات المحلية، ونخص بالذكر فردريك الثانى الذى جعل لصقلية وإيطاليا المكانة الأولى فى برنامجه ونشاطه، ممّا زاد من أهمية العنصر الإيطالى فى الحكومة الإمبراطورية وذلك طبعا على حساب ألمانيا، ولاعجب، فإن فردريك الثانى اعتبر نفسه صقلياً قبل أن يكون ألمانياً حتّى أنه لم يمض فى ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذى امتد من سنة ١٢١٢ حتّى سنة ١٢٥٠[٢٣٢]،

(228) Tout: The Empire and the Papacy, p. 650
(229) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 161 - 162.
(230) Tout: The Empire and the Papacy, p. 390
(231) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 164.
(232) Barraclough: op. cit. pp. 219 - 220.

على أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع لم تعرقل بأى حال التطور الحضارى الذى أسرعت ألمانيا فى طريقه وقتئذ، فانتعشت التجارة حتّى أصبحت ألمانيا مركزا عالميا للتجارة فى غرب أوربا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التى ازدهرت فيها الآداب، والقانون، والنشاط التشريعى، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين حباهم فردريك الثانى بقسط من رعايته. وفى ذلك الوقت استمر النفوذ الألمانى فى اتساعه شرقا وشمالا حتّى أصبح للألمان سيطرة على أراضى البلطيق والدانمارك فضلا عن العناصر السلافية فى الشرق(٢٣٣).

ومهما يكن من أمر، فإننا نكرر القول بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قدْ انتهت من الوجهة العملية بو فاة الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠، وإن ظلت اسميًا حتى القرن التاسع عشر، وقد حدث أن توفى كونراد الرابع ابن فردريك الثانى سنة ١٢٥٤، وأعقبت ذلك فترة استمرت عشرين سنة ظلت ألمانيا طوالها مسرحا للمنازعات والحروب الأهلية دون إمبراطور يحكمها أو يسوس شئونها ممّا جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور (Interregnum) فى التاريخ الألمانى. وهكذا يبدو لنا فى وضوح كيف ذهبت الملكية ضحية فكرة الإمبراطورية العالمية، إذ ضحى ملوك ألمانيا بمستقبل بلدهم السياسى القومى فى سبيل تمسكهم بسراب الإمبراطورية الرومانية العالمية وجريهم وراء مشروعات فاشلة فى إيطاليا (٢٣٤)، ولا شك فى أن المدن الألمانية استفادت من ذلك الوضع فائدة كبرى، إذ أخذ كثير منها يخطو خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى(٢٣٥)، وقد شعرت هذه المدن بحاجتها إلى الترابط للمحافظة على حريتها واستقلالها ممّا أدى إلى مولد «عصبة الراين» حوالى سنة ١٢٥٤ التى تألفت من عدة مدن أهمها: مينز وورمز، وبازل وستراسبورج، كما أن التحالف الذى تمّ بين هامبورج وليوبك حوالى ذلك الوقت وضع أساس العصبة الهانزية Henseatic League (٢٣٦).

---

(233) Tout: The Empire and the Papacy, p. 373.
(234) Bryce: op. cit. p. 210.
(235) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 112 - 113.
(236) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 637.

أمّا قصة النزاع بين البابوية الإمبراطورية فقد انتهت على هذا الوجه الصامت بعد أن عجز الأباطرة عن إخضاع البابوية وإدخالها تحت سيطرتهم، ومن السهل الوقوف على أسباب انتصار البابوية، إذ ظلّ الأباطرة يستندون إلى أحلام الماضى ومجد أسلافهم القدامى، دون أن يحسبوا حساباً لروح العصور الوسطى - عصور الإيمان والدين - أمّا البابوات فكانوا يستندون إلى دعائم أقوى وأكثر تغلغلا فى نفوس الناس؛ لأنهم استمدوا قوتهم من نفوذهم الروحى وما للدين من سلطان كبير على قلوب الأفراد، وحسب البابوات قوة أن ينادوا بأنهم خلفاء المسيح فى الأرض وأن بأياديهم مفاتيح الجنة والنار، فإذا كان الأباطرة يسيطرون على الدنيا فإن هذه الدنيا ليست إلا عرضا زائلا لا يلبث أن ينتهى بالموت، وعندئذ تصبح الكلمة فى حياة البقاء والخلود للدين ولأهل الدين، ويكفى قول المسيح للحواريين: «الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء»[٢٣٧].

---

(٢٣٧) العهد الجديد - إنجيل متى - الإصحاح الثامن عشر، ١٨.

الباب الخامس عشر
الدولة البيزنطيّة والسلاجقة
(٨٠٢ - ١٠٩٦)

لم يهتم المفكرون الغربيون فى العصور الوسطى كثيرا بأمر الإمبراطورية البيزنطية، فأجحفوا حقها فى وراثة روما وأنكروا فضلها فى حماية الحضارة الأوربية من خطر هجمات الفرس، وغيرهم من العناصر الآسيوية والشمالية[١]. على أن هذا النكران الذى تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية من جانب الغرب لم يعرقل تطورها، فمضت فى سبيلها حاملة وحدها عبء الإمبراطورية الرومانية بعد أن سقطت فى غرب أوربا سنة ٤٧٦، وفى تلك الأثناء ظلت الإمبراطورية البيزنطية تتمسك بعلاقاتها مع الغرب حيناً، وتشغلها الأخطار التى أحاطت بها عن الغرب أحيانا، حتى كان عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) وعندئذ بدأت الإمبراطورية البيزنطية تتخذ اتجاها شرقيا ثابتا، وبعبارة أخرى انتهى العصر الرومانى على عهد هرقل وبدأ العصر البيزنطى[٢]، ثمّ جاء الخلاف اللاأيقونى من القرن الثامن ليزيد من اتساع الفجوة بين الشرق والغرب؛ إذ وقفت البابوية من الأباطرة البيزنطيين موقفا عنيدا، أظهرتهم فى ثوب الهراطقة الخارجين عن طاعة الكنيسة ممّا أنقص هيبة هؤلاء الأباطرة فى نظر العالم الغربى وقلل من مكانتهم[٣]؛ وهكذا ساعدت الظروف على إحياء الإمبراطورية فى الغرب سنة ٨٠٠، وبذلك لم يعد هناك مبرر لاعتبار الإمبراطورية البيزنطية وحدها وريثة روما، بعد أن وجدت إمبراطورية أخرى فى الغرب تشاركها فى هذه الصفة وتقاسمها فخر حمل التراث الرومانى[٤]. بل إذا كان هناك بدّ من اختيار إحدى الإمبراطوريتين الشرقية أو الغربية لتنفرد وحدها بتمثيل الإمبراطورية الرومانية القديمة، فإن حق الإمبراطورية الغربية فى نظر المعاصرين كان أوضح وأظهر لارتباطها بالكنيسة الغربية العالمية وبالبابوية من جهة، وقربها من قلب العالم الرومانى القديم من جهة أخرى.

---

(1) Bryce: op. cit. 317.

(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 95.

(3) Eyre: op. cit. p. 84.

(4) Vasiliev, p. cit. Tome 1, pp. 352 - 353.

كان هذا هو الموقف في العالم الروماني عند نهاية القرن الثامن، أى فى الوقت الذى أضحت مصائر الامبراطورية البيزنطية معلقة بأيدى الإمبراطورة إيرين (٧٩٧ – ٨٠٢) . وقد دارت مفاوضات بين هذه الإمبراطورة وبين شارلمان بقصد زواج إمبراطور الغرب الجديد من إمبراطورة الشرق، كوسيلة لتحقيق وحدة الإمبراطورية الرومانية، ولكن سياسة هذه الإمبراطورة الشريرة جعلت روح الاستياء والتذمر من حكمها تعم الشرق والغرب جميعا(٥)، ولم يلبث هذا الاستياء أن انقلب إلى ثورة فى القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية عقب وصول رسل شارلمان بقليل (أكتوبر ٨٠٢) ، حتّى انتهى الأمر بعزل إيرين ونفيها إلى جزيرة لسبوس حيث ماتت قبل أن يتم مشروع الزواج الذى تحمست له وتمنت تحقيقه(٦) . وبخلع الإمبراطورة إيرين سنة ٨٠٢ سقطت الأسرة الأيسورية (٧١٧ – ٨٠٢) وبدأت فترة انتقال استمرت حتّى سنة ٨٢٠ وهى السنة التى قامت فيها الأسرة العمورية أو الفريجية (٨٢٠ – ٨٦٧) . وإذا كانت فترات الانتقال بين الأسرات الحاكمة فى التاريخ البيزنطى امتازت عادة بالفوضى وعدم الاستقرار، كما حدث سنتى ٦٩٥، ٧١٧ أى بين سقوط بيت هرقل وقيام البيت الأيسورى، إلا أننا لا نجد أثرا لهذه الظاهرة فى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٠٢ ، ٨٢٠، إذ لم تحدث فيها اضطرابات خطيرة، وإن امتازت بالتدهور العام فى أحوال الإمبراطورية(٧) .

وقد خلف إيرين فى الحكم الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢ – ٨١١) ؛ الذى عُرف بالمهارة والكفاية عندما كان وزيرا للمالية فى السنوات السابقة لاعتلائه عرش الإمبراطورية، وتبدو مهارة هذا الإمبراطور فى الطريقة التى عالج بها المشاكل القائمة أمامه، إذ ثبّت مركزه فى الحكم وقضى بنجاح على بعض قادة الجيش المناوئين، كما أقلع عن السياسة الدينية الخرقاء التى اتبعتها إيرين، فضلا عمّا لجأ إليه من معاملة اللاأيقونيين معاملة تنطوى على التسامح الكبير، على أن سياسة التسامح هذه لم ترض رجال الكنيسة وعلى رأسهم البطريرك، ممّا جعل نقفور يشدد الرقابة عليهم ويلزمهم باتباع تعليماته، الأمر الذى دفع بعض الحوليات فى العصور التالية إلى وصفه بالقسوة

---

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 42.

(6) Ostrogorsky: op. cit. p. 165.

(7) Oman: The Dark Ages. pp. 478 - 479.

والخشونة[٨]، وكذلك وجه نقفور جزءا كبيرا من جهوده لإصلاح الأوضاع المالية بعد أن اختلت وأوشكت الدولة على الإفلاس فى العهد السابق، فزاد من بعض الضرائب وفرض رسوما على أراضى الأديرة والكنائس، وقد طبق نقفور النظام الإجماعى فى دفع الضرائب حتّى يضمن وصول الأموال المستحقة إلى الخزانة عن طريق تضامن جميع أهالى منطقة معينة فى دفع ما على المنطقة من ضرائب[٩].

أمّا نظام الدفاع عن الإمبراطورية، فإن نقفور لم يكتف بجمع جنوده من أبناء طبقة معينة من ذوى الدخل المعلوم، وإنما جعل كل قرية مسئولة عن إمداد مجنديها بنفقات معدات الحرب التى تجعل منهم محاربين صالحين وكذلك لجأ إلى نقل بعض سكان آسيا الصغرى من رعايا الإمبراطورية إلى البلقان ليقيم منهم مستوطنات فى الجهات التى انتشر فيها السلاف، ممّا جعل لهذه المستوطنات وظيفة حربية فى الدفاع عن الإمبراطورية[١٠]، هذا وإن ظلت العناصر السلافية فى البلقان مصدر متاعب كثيرة للإمبراطورية.

وإذا كان نقفور قد اهتم اهتماماً كبيرا بالإدارة المالية والجيش، فإنه من الواضح أن هذه الإصلاحات جاءت ضرورية لتمكين الإمبراطورية البيزنطية من مواجهة الأخطار الخارجية التى أحاطت بها فى ذلك العصر، وأول هذه الأخطار جاء من جانب المسلمين فى الشرق، بعد أن رفض نقفور دفع الجزية التى تعهدت الإمبراطورة إيرين بدفعها للخليفة العباسى هارون الرشيد ممّا جعل جيوش الدولة العباسية تجدد هجماتها على أراضى الإمبراطورية ويبدو أن نقفور لم يُوفق فى حربه ضدّ المسلمين؛ لأنه أسرع إلى شراء السلم من الخليفة العباسى مقابل مبلغ كبير من المال[١١].

على أن الخطر الحقيقى الذى هدد الإمبراطورية البيزنطية حينئذ لم يأت من جانب المسلمين فى الشرق بقدر ما أتى من جانب البلغار فى البلقان بعد أن أضحوا قوة خطيرة منذ أواخر القرن الثامن، وأخذوا يقومون بهجمات عنيفة فى جوف تراقيا تحت قيادة ملكهم كروم Krum، الذى عُرف بالمقدرة والقسوة، ويبدو أن خطر البلغار تفاقم

(8) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 373.
(9) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 27.
(10) Ostrogorsky: op. cit. pp. 169 - 170.
(11) Idem: op. 173.

عندئذ إلى الدرجة التى اضطرت الإمبراطور نقفور إلى النزول بنفسه إلى ميدان القتال سنة ٨١١[١٢]، وقد حالف النصر الإمبراطور البيزنطى فى أول الأمر فأنزل هزيمة بالبلغار، واستولى على قصر ملكهم ونهبه، ولكن لم تكد الجيوش البيزنطية تفيق من نشوة النصر حتىّ دهمتها قوات البلغار ليلاً، فمزقتها شرّ ممزق وقتل نقفور نفسه، فى حين انسحبت فلول جيشه فى غير نظام تاركة خلفها جثة الإمبراطور ليصنع ملك البلغار من جمجمته وعاء احتسى فيه نخب انتصاره[١٣].

أمّا ابن نقفور ووريثه فى منصب الإمبراطورية فقد جُرح فى المعركة جرحا جعله بين الحياة والموت، وعندئذ انتهز ميخائيل - زوج ابنة نقفور الوحيدة - الفرصة واغتصب عرش الإمبراطورية (٨١١ – ٨١٣) . وقد اتصف ميخائيل الأول هذا بعدم المقدرة والجبن والتشكك فيمن حوله، وهى الصفات التى ظهرت واضحة فى تصرفاته[١٤]، ذلك أنه تردد فى محاربة البلغار الذين اشتدت إغاراتهم على تراقيا واتسع نطاقها، حتّى اضطر ميخائيل الأول إلى منازلتهم فى نهاية الأمر، وعندئذ مُنى بهزيمة نكراء، وفى الميدان السياسى اتخذ ميخائيل الأول خطوة مشينة - فى نظر رعاياه - هى اعترافه بشارلمان إمبراطورا شرعيا مساويا فى المرتبة للإمبراطور البيزنطى[١٥]، أمّا فى الجانب الدينى فقد أقلع عن سياسة التسامح التى اتبعها سلفه نقفور واتبع سياسة أيقونية أدت إلى اضطهاد اللاأيقونيين وعزلهم من مناصب الدولة العليا فى الجيش والإدارة[١٦].

ويبدو أن هذه السياسة الأيقونية من جهة، وعجز ميخائيل الأول عن دفع خطر البلغار الذين هددت هجماتهم القسطنطينية نفسها من جهة أخرى أغضبت رجال الجيش، فثارت الوحدات المتجمعة فى أدريانوبل (أدرنة) وأعلنت عزل ميخائيل ونفيه إلى أحد الأديرة سنة ٨١٣، فى حين أعلن أحد قادة الجيش - وهو ليو الأرمنى - نفسه إمبراطورا[١٧].

---

(12) Diehl, Marcais: Le Monde orientale, p. 249.

(13) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 370.

(14) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 29.

(15) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 355.

(16) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 29.

(17) Ostrogorsky: op. cit. pp. 177 - 178.

والحق أن ليو الخامس ـ الأرمنى ـ كان إمبراطورا قديراً (٨١٣ - ٨٢٠) أنزل هزيمة ساحقة بالبلغار عند مسبريا Mesembria جعلتهم يطلبون الصلح ولا يجرءون على غزو أراضى الإمبراطورية مرة أخرى قبل عدة سنوات، أمّا فى النواحى الإدارية فقد أعاد تنظيم الإدارة، والجيش، والمالية حتّى تستعيد الإمبراطورية قوتها ونشاطها فى الداخل والخارج؛ وهكذا صار من المحتمل أن ينجح ليو الخامس فى تأسيس أسرة قوية تتوارث حكم الإمبراطورية البيزنطية بعد أن بدأ هذه البداية المشرفة فى الداخل والخارج[١٨]. ولكن لم يلبث تيار النزاع اللاأيقونى أن جرف ليو فى طريقه حتّى قُضى عليه وعلى حكمه؛ ذلك أن ليو الأرمنى كان ـ كغيره من سكان الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية ـ لا أيقونيا متشددا، فطلب من البطريرك نقفور سنة ٨١٥ أن يرفع بعض الصور إلى مستوى مرتفع لايمكن الناس من تقبيلها أو معانقتها، ولمّا رفض البطريرك تنفيذ أمر الإمبراطور عزله وعين بدله من شارك الإمبراطور آراءه اللاأيقونية، إلا أنه أثار موجة من المعارضة والاستياء انتهت بنجاح المؤامرة التى دبرت لقتله سنة ٨٢٠[١٩].

الأسرة العمورية:

تزعم ميخائيل العمورى[٢٠] المؤامرة التى أودت بليو الخامس ولم يلبث ميخائيل هذا أن توج إمبراطورا فى كنيسة أيا صوفيا (ديسمبر سنة ٨٢٠)، باسم ميخائيل الثانى (٨٢٠ - ٨٢٩) ولم يكن ميخائيل الثانى على شيء من المقدرة التى امتاز بها سلفه، ولكنه عُرف بالشدة والقسوة اللتين أرهب بهما خصومه، حتّى تمكن من إخماد الحركات الثورية التى قامت فى أوائل عهده فى مختلف أنحاء الإمبراطورية[٢١]، وترجع أهمية هذه الثورات إلى أن مسلمى الأندلس استغلوا فرصة انشغال أساطيل الإمبراطورية وجيوشها واجتاحوا جزيرة كريت (٨٢٣ - ٨٢٥) حيث أسسوا مدينة جديدة أحاطوها بخندق وعرفت بالخندق، وهو اللفظ الذى حُرف فى اللغات الأوربية

---

(18) Oman: The Dark Ages. p. 482.

(19) Ostrogorsky: op. cit. p. 180.

(٢٠) نسبة إلى مدينة عمورية Amorium فى إقليم فريجيا بآسيا الصغرى مسقط رأس مؤسس الأسرة.

(21) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 33.

إلى خانداكس Chandax أو كانديا Candia ، وأصبح علما للجزيرة أو أكبر مدنها[٢٢]. وعندما أفاق ميخائيل الثانى من متاعبه الداخلية بذل محاولتين لاسترداد كريت من المسلمين، ولكن جهوده باءت بالفشل، وبذلك ظلت هذه الجزيرة بأيدى المسلمين مدة تربو على قرن وربع القرن[٢٣]. ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت كان ضربة كبرى للتجارة الإمبراطورية فى بحر إيجة، ولاسيما أن المسلمين غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧ مما مكنهم من السيطرة على طريق الملاحة فى البحر المتوسط[٢٤].

على أن الإمبراطور ميخائيل الثانى لم يهتم شخصيًا بضياع كريت، وكأنه حمد الله على عدم تعرضه لغزوة كبرى من جانب الدولة العباسية تهدد قلب إمبراطوريته، وإذا كان الأيقونيون قد ظاهروا ميخائيل الثانى عند اعتلائه العرش إلا أنه رفض أن يجعل نفسه أداة فى أيديهم، فمانع فى اضطهاد اللاأيقونيين واختار أن يتبع سياسة ملؤها التسامح تجاه الأيقونيين واللاأيقونيين على حد سواء[٢٥]، وهذه السياسة التى تبدو عادلة ومتزنة فى نظر الحكم المنصف، لم ترض أحدا من الفريقين المتنازعين، مماَ جعل ميخائيل الثانى يموت سنة ٨٢٩ مغضوباً عليه من الجميع.

وقد خلف ميخائيل الثانى أكبر أبنائه ثيوفيل (Theophilus ٨٢٩ - ٨٤٢) الذى امتاز بنشاطه، وحبه للحرب، وقوة عزيمته، من ذلك أنه قضى الشطر الأكبر من حكمه فى محاربة العباسيين بعد أن ظنَّ أنهم أمسوا بعد وفاة الرشيد فى حالة من الضعف تمكنه من استرداد بعض ما فقدته الإمبراطورية على أيام هرقل؛ لذلك استفز ثيوفيل الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) بإيواء بعض الهاربين من وجه الخليفة، ممَا أثار حربا بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة دون أن يستطيع أحدهما إنزال ضربة قاصمة بخصمه، وإنما اتخذت الحرب شكل إغارات مفاجئة تخللتها هدنات قصيرة[٢٦]، وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات المجاورة من الدولة البيزنطية فى إقليم كابادوكيا حتّى وصلت جيوشه هرقلة سنة ٨٣١، هذا فى الوقت الذى أغارت الأساطيل العباسية على الجزر الواقعة قرب الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى، ويبدو أن

---

(22) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 367.

(23) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 36.

(24) Diehl, Marcais: Le Monde orientale, p. 311.

(25) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 376.

(26) Ostrogorsky: op. cit. p. 185.

تحمس الخليفة المأمون لحرب البيزنطيين دفعه إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات فى آسيا الصغرى فاستولى على ممرات طوروس ثمّ على مدينة الطوانة Tyana العظيمة التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية(٢٧)، على أن حسن حظ الإمبراطورية شاء أن يموت المأمون فى تلك المرحلة بعد أن أرسل إليه ثيوفيل رسلاً يطلبون الصلح، فانسحبت الجيوش الإسلامية إلى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التى فتحتها وراء جبال طوروس(٢٨)، وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحا فى عصر الخليفة المعتصم، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم، فهاجم أعالى الشام وبلاد ما بين النهرين، ولم تلبث جرأة البيزنطيين فى مهاجمة البلاد الإسلامية، وإغاراتهم على مدينة زبطرة Sozopetra, Zapetra ذات المكانة الخاصة عند المعتصم أن استثارت الخليفة، فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية Amorium مسقط رأس الإمبراطور وأسرته انتقاما لمدينة زبطرة، وقد أسرع ثيوفيل لإنقاذ بلدته ولكن الهزيمة حلت بجيوشه، واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم إلى سامرا(٢٩)، ومهما يكن من أمر فإن وصول المسلمين إلى جوف إقليم فريجيا بآسيا الصغرى لم تعقبه مضاعفات خطيرة على الإمبراطورية؛ لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لزبطرة وتحقيق قسمه، وبعد ذلك عادت الإمبراطورية واستردت أراضيها فى آسيا الصغرى حتّى جبال طوروس، ولم يلبث أن أدى انشغال كل من الخليفة المعتصم والإمبراطور ثيوفيل إلى عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتّى وفاة الاثنين سنة ٨٤٢(٣٠).

أمّا أهم المسائل الداخلية التى شغلت الإمبراطور ثيوفيل فكانت الحركة اللاأيقونية، إذ أمر سنة ٨٣٢ بتدمير جميع الصور والتماثيل الدينية مهما يكن نوعها سواء كانت للمسيح أو للقديسين، وقد ساعد الإمبراطور فى تنفيذ سياسته الدينية البطرك حنا النحوى John Grammaticus الذى أصدر قرار الحرمان ضدّ جميع الأساقفة

(27) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 128.

(28) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 364.

(29) Diehl, Marcais: Le Monde orientale, pp. 312 - 313.

(30) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 131.

والديريين الذين لم يمتثلوا للقرار السابق[٣١]، ويبدو أن ثيوفيل تطرف فى اضطهاد عبدة الأيقونات على الرغم من أن قصره الإمبراطورى اكتظ بالأيقونيين الذين لم يجرؤوا على إظهار ميولهم، وعلى رأس هؤلاء الإمبراطورة ثيودورا، وهكذا مات ثيوفيل سنة ٨٤٢، بعد أن أصلح النظام القضائى وأنعش الخزانة وشجع التجارة حتّى غدت القسطنطينية على عهده مركزا من أعظم مراكز التجارة الأوربية[٣٢].

على أن سوء حظ الإمبراطورية شاء أن يموت ثيوفيل بينما كان ابنه ميخائيل الثالث فى الرابعة من عمره، فتشكل مجلس وصاية على الطفل الصغير برئاسة أمه الإمبراطورة ثيودورا، وهنا تكررت مأساة الإمبراطورة إيرين، فتنكرت ثيودورا لسياسة زوجها، وكشفت القناع عن ميولها الأيقونية، فعزلت البطريرك حنا النحوى والأساقفة[٣٣]، ودعت مجمعا فى القسطنطينية لإعادة الأيقونية وتسفيه اللاأيقونية[٣٣]. وهكذا لم يمض ثلاثون يوما على وفاة ثيوفيل حتّى انقلبت سياسته رأسا على عقب ونزلت الاضطهادات تترى على اللاأيقونيين الذين أخذوا يهجرون البلاد بالجملة[٣٤]، وفى سنة ٨٥٦ بلغ ميخائيل الثالث الثامنة عشر من عمره، فاستولى على مقاليد الأمور، وبدأ بإقصاء أمه ومصادرة ثروتها، وقد عرف ميخائيل الثالث بسوء الخلق، والإدمان على معاقرة الخمر، ولعب الميسر وغيرهما من أنواع الغى والفساد، حتّى لقبه رعاياه بلقب «السكير»، وربما كان المسئول الأول عن انحراف الإمبراطور هو خاله برداس Bardas - أخو ثيودورا - الذى أشرف على تربيته حتى نشأ تلك النشأة الفاسدة، وقد ظلّ الخال يسيطر على ابن أخته يشاركه فى الحكم حتى تخلص منه الإمبراطور عن طريق مؤامرة اشترك فيها باسل المقدونى، مؤسس الأسرة المقدونية فيما بعد[٣٥].

أمّا عن سياسة ميخائيل الثالث الخارجية والداخلية، فأهم ما فيها قيامه ببعض حروب كُللت بالنجاح، ففى عهده قام الروس بأول هجوم لهم على القسطنطينية سنة ٨٦٠ فى الوقت الذى كان الإمبراطور يخترق آسيا الصغرى فى طريقه لمحاربة

(31) Ostrogorsky: op. cit. p. 186.

(32) Diehl, Marcais: op. cit. pp. 313 - 316.

(33) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 378.

(34) Oman: The Dark Ages. p. 489.

(35) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 360.

المسلمين، وعندما سمع الإمبراطور بوصول الروس إلى خارج أسوار القسطنطينية، عاد مسرعا ونجح فى تخليص عاصمته من هذا الخطر الجديد، ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات بين الدولة البيزنطية من جهة ومملكة الروس الناشئة من جهة أخرى، كما بدأت الجهود التبشيرية لتحويل الروس إلى المسيحية كوسيلة لدفع خطر أولئك الجيران وإدخالهم دائرة الحضارة المسيحية(٣٦). والواقع أن أهم ما يميز ذلك العصر هو جهود الكنيسة الشرقية فى نشر المسيحية بين الشعوب المجاورة كالروس، والسلاف، والبلغار، ذلك أن ميخائيل الثالث لم يكتف بما أعلنه ملك البلغار من ولاء وتبعية للإمبراطورية البيزنطية، وإنما أجبره أيضًا على اعتناق المسيحية سنة ٨٦٤، الأمر الذى جعل العلاقات بين البلغار والبيزنطيين تتخذ طابعا أكثر مرونة فيما بعد(٣٧)، وقد نشأ ميخائيل الثالث على سياسة أمه فى تأييد عبادة الصور، حتّى أنه أخرج جثث زعماء اللاأيقونيين من قبورها ليحرقها.

وكان ميخائيل الثالث قد أشرك معه - بعد مقتل خاله - أحد رفاقه وهو باسل المقدونى بعد أن أعجب بشجاعته وقوته، ولكن باسل هذا لم يلبث أن تخلص من ميخائيل الثالث بالقتل سنة ٨٦٧ وبذلك انتهى البيت العمورى وبدأ عصر البيت المقدونى فى التاريخ البيزنطى(٣٨).

الأسرة المقدونية:

كان النفوذ الفعلى فى الدولة بأيدى باسل المقدونى عندما تخلص من ميخائيل الثالث بالقتل، فلم يجرؤ أحد على معارضته أو الوقوف فى وجهه؛ وبذلك قامت الأسرة المقدونية الجديدة فى الحكم دون نزاع أو حرب أهلية، وقد حقق أباطرة الأسرة المقدونية قسطاً وافراً من السعادة والرخاء للدولة البيزنطية مدة تزيد على قرن ونصف القرن، إذ استقرت الأوضاع فى الداخل بعد أن نجح المقدونيون فى جعل الحكم وراثيا فى أسرتهم، كما استطاعت الدولة الثبات فى وجه الأخطار الخارجية التى هددت كيانها فى ذلك العصر(٣٩). والواقع أن باسل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦) كان على درجة

(36) Ostrogorsky: op. cit. pp. 202 - 203.

(37) Diehl, Marcais: op. cit. p. 325.

(38) Idem pp. 327 - 328.

(39) Eyre: op. cit. p. 177.

كبيرة من المقدرة والكفاية على الرغم من الطريقة التى توصل بها إلى العرش والتى تنم عن روح الغدر والخيانة؛ ولذلك يقترن اسم باسل المقدونى بأطول أسرة عرفها التاريخ البيزنطى؛ هى الأسرة التى ظلت تحكم الإمبراطورية الشرقية حتى سنة ١٠٥٦، والظاهرة العامة التى تبدو لنا من دراسة تاريخ باسل المقدونى الخاصة هى أنه حاول جهد استطاعته أن يمحو من أذهان رعاياه الحقيقة الخاصة بأنه كان فى يوم ما نديما للإمبراطور السكير ميخائيل الثالث وصفيًا له، فأثبت مثابرته على العمل واقتصاده فى النفقات وعدالته فى معاملة رعاياه مماً أدى إلى انتعاش الإمبراطورية فى عهده انتعاشا واضحا[٤٠]، وقد قدر لبعض أعمال باسل المقدونى البقاء لتخلد ذكراه، مثل المجموعة القانونية التى أصدرها بعد مراجعة قوانين جستنيان وإضافة الأكلوجا (المختار) التى أصدرها ليو الأيسورى، وبذلك جاءت مجموعة باسل الأول مرجعا قانونيًا للدولة البيزنطية حتّى أواخر عهدها[٤١]، أما تنظيماته المالية فقد ظلت قائمة هى الأخرى نحوا من قرنين بعده، على أن كياسة باسل الأول وبُعد نظره يبدوان بوضوح فى سياسته الدينية التى حاول فيها أن يعالج الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية من جهة وأن ينهى الشقاق اللاأيقونى من جهة أخرى[٤٢].

أمّا حروب باسل الأول فقد صادفه فيها التوفيق بوجه عام، وذلك إذا استثنينا ميدان صقلية، ويبدو أن الظروف التى أحاطت بأعداء الإمبراطورية البيزنطية كان لها فضل كبير فى هذا التوفيق، حتّى غدا فى استطاعة الإمبراطورية أن تسترد ما كان لها من أقاليم واسعة قبل ذلك بثلاثة قرون على عهد جستنيان، وذلك لو أُتيح لباسل خليفة قوى يرثه فى حكم الإمبراطورية، فإيطاليا كانت مفككة تسودها الفوضى، فى حين أمسى السّلاف فى شرق أوربا يعانون الأمرّين من ضغط المجريين عليهم وبذلك لم تصادف الدولة البيزنطية وقتئذ عدوا خطيرا يهدد حدودها الغربية[٤٣]، أمّا عن الحدود الشرقية فإن الدولة العباسية كانت تسير فى ذلك الوقت بخطى سريعة فى طريق التفكك والانحلال حتّى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمانى سنوات (٨٦١ – ٨٦٩)

(40) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 51 - 52.
(41) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 450.
(42) Ostrogorsky: op. cit. p. 208.
(43) Oman: The Dark Ages. p. 493.

أربعة خلفاء مات منهم اثنان مقتولين(٤٤)؛ لذلك لا عجب إذا أخذت الدولة البيزنطية تمتد شرقا لأول مرة منذ حركة الفتوح الإسلامية، حتّى بلغت جيوش الإمبراطورية ميافارقين من جهة وحلب من جهة أخرى(٤٥)، كذلك استرد باسل المقدونى جزيرة قبرص لفترة قصيرة، وأخضع الحركة الثورية التى قام بها بعض الهراطقة على الحدود الأرمينية، هذا فى الوقت الذى أحرزت أساطيل الإمبراطورية بعض الانتصارات البحرية على سفن المسلمين بكريت وشمال أفريقيا، وقد حدث أن طلب لويس الثانى فى الغرب المعونة من باسل المقدونى ضدّ المسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا فأرسل الإمبراطورالبيزنطى سنة ٨٦٨ أسطوله الذى نجح فى إخلاء الأدرياتى من المسلمين، كما هجم البيزنطيون على بارى Bari ، ولكنهم لم يتموا عملياتهم الحربية واختاروا العودة بعد أن دبّ الشقاق بينهم وبين لويس الثانى(٤٦)، على أن حرص الدولة البيزنطية على الاحتفاظ بنفوذها فى إيطاليا دفع الإمبراطور باسل الأول إلى إرسال جيوشه إليها عقب وفاة لويس الثانى سنة ٨٧٥، وعندئذ صادفت الجيوش البيزنطية نجاحا كبيرا فى حربها ضدّ المسلمين فاستولت على بارى سنة ٨٧٥، وأخذ البيزنطيون ينتزعون مدن أبوليا واحدة بعد أخرى حتّى استولوا على تارينتو Tarento معقل المسلمين فى جنوب إيطاليا، وعندئذ اجتاح القائد البيزنطى نقفور فوقاس(٤٧) إقليم كالبريا بحيث لم يترك معقلا واحدا فى أيدى المسلمين فى الجزء الجنوبى الشرقى من إيطاليا (٨٨٤ – ٨٨٧)(٤٨)، على أن الانتصارات التى أحرزها البيزنطيون فى إيطاليا كانت لاتزيد بأى حال عن تلك التى حصل عليها المسلمون فى الوقت نفسه فى صقلية، ولم تلبث سيراكيوز (سراقوسة) عاصمة الجزيرة أن سقطت فى أيدى المسلمين بعد حصار قصير (٨٧٧ – ٨٧٨)، وبذلك لم يبق للبيزنطيين فى صقلية سوى عدة

---

(٤٤) أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكل (٢٤٧هـ)، أبو العباس أحمد المستعين بالله (٢٤٨هـ)، أبو عبد الله محمد المعتز بالله (٢٥٢هـ)، أبو إسحق محمد المهتدى بالله (٢٥٥هـ) وقد قتل الاثنان الأخيران.

(45) Dighl, Marcais: op. cit.p. 439.

(46) Oman: The Dark Ages. p. 457.

(٤٧) جد الإمبراطور البيزنطى الذى يحمل الاسم نفسه (٩٦٣ – ٩٦٩) والذى يلقب عادة بنقفور الثانى تمييزا له عن الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢ – ٨١١).

(48) Vasiliev, p. cit. Tome 1, p. 402.

قلاع صغيرة، فضلا عن مدينة قطانيا، والواقع أن سقوط سيراكيوز فى أيدى المسلمين سنة ٨٧٨ يعتبر بمثابة النهاية الفعلية لنفوذ البيزنطيين فى جزيرة صقلية(٤٩).

وعندما توفى باسل الأول سنة ٨٨٦ خلفه ابنه ثمّ حفيده فى الحكم خلال الثلاث والسبعين سنة التالية، وشاء سوء حظ الإمبراطورية أن أحدا من هذين الحاكمين لم يكن على شىء من الكفاية والمقدرة التى امتاز بهما مؤسس الأسرة المقدونية، أمّا ليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢) الذى أتى بعد أبيه باسل الأول فكان مولعا بالتنجيم ومعرفة الغيب وله تنبؤات كثيرة غامضة، كما أولع بتصنيف الكتب وجمعها حتّى أطلقت عليه الأجيال التالية لقب الحكيم أو الفيلسوف(٥٠)، وله كتاب مشهور فى التنظيم العسكرى والتكتيك الحربى (Tactica) ترجع أهميته إلى أنه يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن تنظيمات الجيوش البيزنطية وخططها فى الحرب، فضلا عن عادات الشعوب المختلفة التى احتك بها البيزنطيون وطبائعها، وعلى الرغم من ضعف شخصية ليو السادس، إلا أن حدود الدولة البيزنطية امتدت فى عهده فاستردت أجزاء من بلاد ما بين النهرين من الخلافة العباسية المتداعية، كما استردت أبوليا فى جنوب إيطاليا من أمراء بنفنتو المسلمين(٥١).

وعندما توفى ليو السادس سنة ٩١٢ خلفه وحيده قسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٩) الذى كان عندئذ طفلا فى الخامسة من عمره، والواقع أن السلطة الفعلية انتقلت عقب وفاة ليو السادس إلى عم الطفل الصغير، إسكندر (٩١٢ – ٩١٣) ولكن هذا العم لم يلبث أن توفى بعد أن استثار عداء البلغار بسبب قطعه الجزية السنوية التى كان على الدولة أن تدفعها لهم بمقتضى اتفاقية سنة ٨٩٦(٥٢).

ومن الواضح أن قسطنطين السابع قضى جزءا كبيرا من حكمه الطويل قاصراً تحت الوصاية ، هذا فضلاً عن ضعفه وانصرافه - مثل أبيه - إلى الكتب(٥٣) وربما كان العامل الوحيد الذى سند الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك العصر هو ضعف جيرانها،

(49) Ostrogorsky: op. cit. p. 211.
(50) Diehl : op. cit. p. 446.
(51) Oman: The Dark. Ages, p. 494.
(52) Ostrogorsky: op. cit. p. 231.
(53) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 59.

ممّا أتاح لها فرصة للانتعاش ودعم مركزها المالى، وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد تعرضت حينذاك لبعض أزمات مثل إغارة المسلمين من شمال أفريقية على سالونيكا سنة ٩٠٤، فإن هذه الأحداث كانت فردية، مرجعها سوء توجيه سياسة الإمبراطورية لا النقص فى وسائل الدفاع، وهكذا غدت القسطنطينية فى ذلك العصر ملتقى تجارة الشرق والغرب وأكبر مركز للتجارة الأوربية قاطبة[٥٤].

على أن الخطر الأكبر الذى واجه الإمبراطورية البيزنطية فى تلك الحقبة جاء من ناحية البلغار الذين وجدوا مبررا لتجديد الهجمات على أراضى الإمبراطورية فى البلقان نتيجة لسياسة إسكندر عم قسطنطين السابع، حتّى استطاع سيمون ملك البلغار إنزال عدة هزائم بالإمبراطورية[٥٥]، ولم ينفرد قسطنطين بالحكم إلا سنة(٩٤٥) وهو فى الأربعين من عمره، وعندئذ أثبت أنه لم يكن خيرا من أبيه، إذ انصرف للأدب، ورسم الصور، وتخطيط الكنائس، فضلا عن الكتب التى صنفها فى مختلف العلوم والفنون كالزراعة، والتاريخ، والجغرافيا، والسياسة، وغيرها[٥٦].

وفى ذلك النصف الأول من القرن العاشر ظهر جليًا ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها، بعد أن اضمحل نفوذ بنى العباس وأصبحت الكلمة العليا فى العراق وفارس لأمراء بنى بويه، فى حين قامت الخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية ودولة الإخشيديين فى مصر وجنوب الشام، وهكذا لم توجد قوة تعترض الإمبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية سوى قوة الحمدانيين الذين أقاموا دولتهم فى النصف الأول من القرن العاشر فى أعالى بلاد ما بين النهرين، ثمّ مدوا نفوذهم إلى أعالى الشام وقيليقية[٥٧].

وقد استغل أباطرة الدولة البيزنطية هذا الوضع الذى أمست عليه الدولة الإسلامية للتوسع واسترداد بعض ما انتزعه المسلمون من أراضى الدولة. فعندما توفى قسطنطين السابع خلفه ابنه الإمبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣) الذى أرسل قائده نقفور فوقاس سنة ٩٦٠ لاسترداد جزيرة كريت من المسلمين، فنجح نقفور فى مهمته، واسترد منهم جزيرة كريت ممّا أعطى الإمبراطور مركزا استراتيجيا وتجاريًا قويًا فى

(54) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 154 - 155.
(55) Ostrogorsky: op. cit. pp. 231 - 232.
(56) Tout: The Empire and the Papacy, p. 154.
(57) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 276 - 277.

البحر المتوسط، وبعد ذلك أتبع نقفور انتصاراته بمهاجمة الحمدانيين والاستيلاء على بعض المعاقل المهمة فى قيليقية(٥٨).

ثمّ كان أن توفى رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ تاركا ولديه الصغيرين باسل الثانى (٩٦٣ – ١٠٢٥)، وقسطنطين الثامن (٩٦٣ – ١٠٢٨) تحت وصاية أمهما ثيوفانو، على أن المكانة العظيمة التى أحرزها القائد نقفور فوقاس نتيجة لانتصاراته الحربية، مكنته من أن يفرض نفسه شريكا لهذين الولدين فى حكم الإمبراطورية، وخاصة بعد أن تزوج من أمهما ثيوفانو(٥٩)، وقد ظلّ نقفور الثانى فوقاس يحكم الإمبراطورية ست سنوات (٩٦٣ – ٩٦٩) باسم الولدين القاصرين، وامتاز عهده بالإصلاح الداخلى والانتصار الخارجى، ولكن يبدو أن حاجته إلى المال لتقوية الجيش دفعته إلى فرض ضرائب جديدة، كما أنه الوحيد بين الأباطرة البيزنطيين الذى لجأ إلى خفض العملة والتلاعب فى قيمتها لتحقيق غرضه، فضلا عن احتكار الغلات، والنبيذ، والزيوت(٦٠). وقد أدت سياسته المالية هذه إلى صدام بينه وبين طبقة التجار من جهة والكنيسة من جهة أخرى، ولا سيما بعد أن وضع تشريعا للأوقاف الدينية للحيلولة دون إقامة أديرة جديدة، كما احتفظ ببعض الأسقفيات المهمة شاغرة ليستولى على إيراداتها(٦١).

أمّا حروب نقفور الثانى فى تلك الفترة فقد امتدت فى الاتجاهين الشرقى والغربى، ففى الشرق أتمّ غزو قيليقية (٩٦٤ – ٩٦٥)، كما أرسل أحد قواده - واسمه نقتاس - لغزو قبرص سنة ٩٦٥، وفى سنة ٩٦٨ عاد نقفور إلى تهديد أعالى الشام فاستولى على حلب وأنطاكية، وتعهدت دمشق بدفع الجزية، أمّا فى الغرب فإن المشروع الذى وضعه نقفور الثانى لتزويج ابن الإمبراطور أوتو الأول من ابنة رومانوس الثانى باء بالفشل، ولم يلبث أن حدث احتكاك بين أوتو الأول ونقفور الثانى فى جنوب إيطاليا، كذلك فشل نقتاس فى مهمة ثانية عهد إليه بها نقفور، وهى استرداد صقلية من المسلمين(٦٢).

(58) Vasiliev, op. cit. Tome 1, pp. 407 - 408.

(59) Diehl, Marcais: op. cit. pp. 467 - 468.

(60) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 76.

(61) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 159 - 160.

(62) Ostrogorsky: op. cit. pp. 257 - 258.

على أن خشونة نقفور الثانى ومسلكه تجاه شريكيه الصغيرين فى الحكم، أخافت أمهما ثيوفانو فتآمرت مع عشيقها حنا شمشقيق (John Tzimisces) [٦٣] ضده، ونجح المتآمرون فى قتل نقفور أثناء نومه، وعندئذ أعلن حنا الأول شمشقيق إمبراطورا (٩٦٩ - ٩٧٦)[٦٤]، وبدلا من أن يتزوج هذا الإمبراطور الجديد من ثيوفانو شريكته فى المؤامرة وعشيقته السابقة، أخذ يوجس منها خيفة وخشى أن تفعل به مثلما فعلت بزوجها نقفور، حتّى دفعه خوفه وشكه إلى اعتقالها فى أحد الأديرة.

وقد حذا حنا الأول حذو سلفه نقفور فوقاس فى احترام حقوق شريكيه الصغيرين ابنى رومانوس الثانى، كما تمّ فى عهده (سنة٩٧٢) زواج أختهما ثيوفانو من أوتو السكسونى الذى أصبح أوتو الثانى فيما بعد[٦٥]، على أن حنا الأول سرعان ما وجد فى حرب الروس شاغلا قويا، إذ كان أولجا Olga زعيم الروس قد اعتنق المسيحية وزار القسطنطينية سنة ٩٥٧ حيث تمّ تعميده على عهد الإمبراطور قسطنطين السابع[٦٦]، ولكن ابنه زياتسلاف Sviatoslav (٩٦٤ - ٩٧٢) كان محاربا قويا فحالف الهنغاريين وغزا بلغاريا حتّى عبر البلقان سنة ٩٧٠ وهدد أدريانوبل (أدرنة) نفسها، وقد أسرع حنا الأول لصد ذلك الخطر واشتبك مع الروس فى أكثر من موقعة حتّى انتهى الأمر بإنزال الهزيمة بهم سنة ٩٧٢ فانسحب الروس بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة[٦٧]، ثمّ تمكن حنا الأول بعد ذلك من إخضاع البلغار بعد أن أوغل فى بلادهم بحجة الدفاع عنهم ضدّ الروس، بحيث إنه لم يكد ينتهى من أمر الروس حتّى كان قد احتل كل الأجزاء الشرقية من بلغاريا[٦٨]، هذا إلى أنه حارب المسلمين فى الشرق واسترد منهم إنطاكية بعد أن استولوا عليها مرة أخرى، كما استولى على الرها، وأخيرا مات حنا الأول مسموما سنة ٩٠٦ فى الوقت الذى كان ينتقل من نصر إلى نصر[٦٩].

---

(63) Diehl, Marcais: op. cit. p. 471.

(٦٤) لقبه شمشقيق أو شوموشقيق، وهو لفظ أرمنى بمعنى قصير القامة، ولقب كذلك بلقب دمستق Domsticus وهو لفظ لاتينى لقب به قائد جيش الروم (انظر ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ١٦٩).

(65) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 81.

(66) Vasiliev,o p. cit. p. 427.

(67) Diehl, Marcais: op. cit. p. 472.

(68) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 423.

وكان باسل الثانى ابن رومانوس الثانى قد بلغ العشرين من عمره حينئذ، فتولى حكم الإمبراطورية حتّى سنة ١٠٢٥، وقد أظهر باسل الثانى كفاية إدارية ومقدرة حربية أثناء قيامه بأعباء الحكم، من ذلك أنه ضغط على كبار ملاك الأراضى فى آسيا الصغرى ونجح بعد صراع طويل فى تحطيم نفوذ تلك الأرستقراطية الإقطاعية، وبذلك خلص السلطة الإمبراطورية من عقبة قوية طالما وقفت في وجهها(٧٠)، ولم يلبث باسل الثانى أن أعاد المجد الحربى لأسرته المقدونية، فدخل فى حرب عنيفة ضدّ البلغار الذين عادوا مرة أخرى تحت زعامة ملكهم الجديد صمويل إلى تهديد الإمبراطورية البيزنطية، وقد اشتد خطر البلغار عندما اجتاحوا سهول تساليا ومقدونيا ودمروها، كما غزوا الجزء الجنوبى من بلاد اليونان سنة ٩٩٦ ودمروا شبه جزيرة المورة من أدناها إلى أقصاها(٧١)، وعندما بدأت حروب باسل الثانى ضدّ البلغار سنة ٩٨١ استمرت نحواً من ثلاثين سنة ولكنها لم تتخذ شكلا شاملا إلا منذ سنة ١٠٠٢ عندما أخذ باسل الثانى يتوسع على حساب البلغار حتّى انتهى الأمر بإنزال هزيمةساحقة بهم، كما أسر نحوا من أربعة عشر ألف بلغارى سنة ١٠١٤(٧٢) وعندئذ دفعت روح الانتقام الإمبراطور باسل الثانى إلى ارتكاب جريمة شنيعة إذ سمل أعين جميع الأسرى واكتفى بأن ترك من كل مائة أسير رجلا بعينٍ واحدة ليتولى قيادة زملائه العميان إلى ملكهم، ويقال إن الملك البلغارى صمويل صدم عندما وقع بصره على هذا المشهد ورأى هذه الألوف المؤلفة من رجاله وقد عادوا إليه عميا، فأغشى عليه وسقط على الأرض من هول المنظر حتّى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد يومين (أكتوبر سنة ١٠١٤)(٧٣)، وعلى الرغم من أن خلفاء صمويل المباشرين استأنفوا مقاومة البيزنطيين، إلا أنه لم تحل سنة ١٠١٨ إلا كان باسل الثانى قد أكمل غزو بلاد البلغار، ومن ثمّ أحيى انتصاره فى القسطنطينية حيث حياه أهلها بلقب سفاح البلغار (Bulgaroctonus)(٧٤).

---

(69) Tout: The Empire and the Papacy, p. 163.

(70) Ostrogorsky: op. cit. pp. 268 - 269.

(71) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 239 - 240.

(72) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 423.

(73) Ostrogorsky: op. cit. p. 275.

(74) Diehl, Marcais: op. cit. p. 478.

وقد حاول باسل الثانى توجيه جهوده الحربية بعد ذلك ضدّ أرمينية ولكن محاولته فى التوسع شرقا على حساب تلك الدولة المسيحية لم تصادف ترحيبا فى عصر أخذ المسيحيون يحسون بضرورة توجيه جهودهم ضدّ خصومهم فى العقيدة، لا ضدّ بعضهم بعضا، ولم يلبث أن أحسّ باسل الثانى بهذا الشعور فأخذ يستعد لإرسال حملة جديدة ضدّ مسلمى صقلية عندما توفى فجأة وهو فى السادسة والثمانين من عمره سنة ١٠٢٥ [٧٥].

والواقع أنّ وفاة باسل الثانى تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، نظرا لما أعقب هذه الوفاة من انحلال ظاهر فى أحوال تلك الإمبراطورية الخارجية والداخلية [٧٦]، ذلك أن باسل الثانى لم يترك ابنا يرثه. فانفرد أخوه قسطنطين الثامن بعرش الإمبراطورية (١٠٢٥ – ١٠٢٨) بعد أن كان إمبراطورا اسميًا منذ وفاة والده رومانوس الثانى سنة ٩٦٣. ومن الواضح أن قسطنطين الثامن لم ينفرد بالإمبراطورية إلا بعد أن بلغ به كبر السن درجة جعلته لا يهتم بشئون إمبراطوريته أو بتعديل أسلوب حياته، فاستمر يحيا فى قصره الحياة نفسها التى شبّ عليها محاطا بالغانيات والخصيان الذين ترك لهم تصريف شئون الدولة. وهكذا قضى قسطنطين بقية عمره حتى مات سنة ١٠٢٨ دون أن يترك وريثا ذكرا يحفظ اسم البيت المقدونى [٧٧].

ويرتبط تاريخ البيت المقدونى بعد ذلك حتّى نهاية عهده بالأميرتين زوى Zoe وثيودورا ابنتى قسطنطين الثامن، ففى الفترة بين سنتى ١٠٢٨، ١٠٥٤ كان الحكم بأيدى أزواج الأميرة زوى وأتباعها [٧٨] وأول هؤلاء هو رومانوس الثالث (١٠٢٨ – ١٠٣٤) الذى تزوجته زوى بينما كان أبوها على فراش الموت. ولكن زوى كانت على قسط كبير من الجشع وحب السيطرة بحيث لم تترك لزوجها سوى نصيب ضئيل من السلطان، وعند وفاة ذلك الزوج الأول أسرعت زوى إلى الزواج من أحد رجال البلاط الذى اتخذ لنفسه لقب ميخائيل الرابع (١٠٣٤ – ١٠٤١)، حتّى مات هذا

---

(75) Tout: The Empire and the Papacy, p. 165.

(76) Ostrogorsky: op. cit. p. 283.

(77) Diehl, Marcais: op. cit. p. 533.

(78) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 400.

الزوج الثانى أيضاً، وهو فى ريعان شبابه فى حين جاوزت زوجته الستين من عمرها، وعندئذ ترددت زوى بين أن تتبنى طفلا ليصبح إمبراطورا أو تتصيد لنفسها زوجا ثالثا، وبعد أن اختارت زوى الحل الأول وتبنت ميخائيل الخامس (١٠٤١ – ١٠٤٢) إذ بها تعدل عن رأيها وتتزوج من قسطنطين التاسع (١٠٤٢ – ١٠٥٤)(٧٩) ومن الواضح أن هذا الزوج لم يقبل الزواج من الإمبراطورة العجوز إلا طمعا فى السلطان فاشترك معها فى الحكم، وكان عهدهما من أحلك أيام الإمبراطورية؛ ذلك أن هذا العهد شهد غزو النورمان لأبوليا وكالبريا والقضاء على ما تبقى من النفوذ البيزنطى فى إيطاليا، هذا إلى أن الدولة البيزنطية اتبعت فى ذلك العصر سياسة إضعاف أرمينية فى الوقت الذى أخذ الأتراك السلاجقة ينفخون فى الدولة الإسلامية روحا جديدة(٨٠)، هذا فضلا عن ازدياد روح التذمر بين أهالى الإمبراطورية بسبب قسوة الضرائب فى الداخل وإتمام القطيعة نهائيا بين الكنيستين الشرقيةوالغربية فى الخارج.

وكان ذلك سنة ١٠٥٤ عندما وصل إلى القسطنطينية بعض المبعوثين من قبل البابوية لمفاوضة البطريرك، ويبدو أن مسلكهم تجاه بطرك القسطنطينية كان مشوبا بالتعالى، والكبرياء، وعدم الاحترام، الأمر الذى جعله يرفض مباحثتهم، أو الاعتراف بسيادة البابوية على كنسيته(٨١)، وقد ردّ هؤلاء المبعوثون على ذلك بأن أصدروا ـ أمام مذبح كنيسة آيا صوفيا ـ قرار الحرمان ضدّ البطريرك وأتباعه، فأجاب البطريرك بعقد مجمع دينى وقع عليهم هم الآخرون عقوبة الحرمان كما أعقب ذلك إغلاق الكنائس اللاتينية فى أراضى الإمبراطورية البيزنطية وتسفيه آراء الكنيسة الغربية(٨٢)؛ وبذلك تمّ الانشقاق نهائيا بين الكنيستين الشرقية والغربية(٨٣).

والواقع أن مسألة إتمام القطيعة بين الكنيستين كانت مسألة زمن ليس إلا، بعد أن اتخذت كل منهما طريقا اختلف تماماً عن الطريق الذى اتخذته الأخرى، وهنا نشير إلى أنه من الخطأ اتهام القسطنطينية بإثارة هذا الانشقاق؛ لأن الوقائع تثبت أن الأباطرة البيزنطيين كانوا أشد الناس تحمسا لوحدة الكنيسة، وربما كان من الأصوب

---

(79) Ibid.
(80) Tout: The Empire and the Papacy, p. 166.
(81) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 469 - 470.
(82) Eyre: op. cit. p. 190.
(83) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 447.

تحليل هذا الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بظهور الوحدات السياسية المستقلة فى غرب أوربا، مما قضى على فكرة الإمبراطورية العالمية من جهة، وبانتشار المسيحية بين السلاف وارتباط العالم السلافى بكنيسة القسطنطينية، مما جعل هذه الكنيسة فى غنى عن الاعتراف بسيادة البابوية من جهة أخرى(٨٤).

وليس هناك من شك أن هذا الانفصال النهائى بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ يمكن أن يُعتبر نصرا للكنيسة الشرقية التى استقلت تماما عن البابوية وأصبح نفوذ بطركها على درجة كبيرة من العظمة(٨٥)، ولكن يجب أن نعترف بأن هذا الانشقاق كان خطير الأثر بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية السياسى؛ لأنه قضى على كل أمل فى الوصول إلى تفاهم سياسى بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الغربى، فى الوقت الذى أخذ خطر السلاجقة يقترب من الدولة البيزنطية مما جعل هذه الدولة فى حاجة ماسة إلى معونة الغرب(٨٦).

أمّا زوى فقد ماتت سنة ١٠٥٠، ثمّ لحق بها قسطنطين التاسع سنة ١٠٥٤ وعندئذ تولت عرش الإمبراطورية شقيقتها ثيودورا، آخر من تبقى من البيت المقدونى، وعلى الرغم من تقدم ثيودورا فى السن، إلا أنها امتازت بصلابة الرأى كما اختلفت فى أخلاقها عن أختها بحكم المدة الطويلة التى قضتها فى أحد الأديرة والتى أكسبتها أخلاق الراهبات واستقامتهن، ومهما يكن من أمر فإن ثيودورا لم تمكث فى الحكم أكثر من ثلاث سنوات (١٠٥٤ - ١٠٥٧) توفيت بعدها فانتهى بوفاتها البيت المقدونى وبدأت فترة من الاضطرابات قبل أن يقوم بيت جديد فى حكم الإمبراطورية البيزنطية(٨٧).

وكان من الممكن أن تجتاز الإمبراطورية البيزنطية تلك الفترة بسلام كما اجتازت الفترات السابقة التى جاءت بين سقوط أسرة وقيام أخرى فى الحكم، لولا ظهور خطر جديد فى هذه المرة، هو خطر الأتراك السلاجقة الذين بثوا فى المشرق الإسلامى روحا جديدة جعلت المسلمين يهددون الإمبراطورية البيزنطية تهديدا خطيرا مرة أخرى.

---

(84) Ostrogorsky: op. cit. p. 296.
(85) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 273.
(86) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 448.
(87) Tout: The Empire and the Papacy, p. 167.

السلاجقة :

أشرنا من قبل إلى أن الخلافة العباسية فقدت بريقها فعلا عند نهاية القرن التاسع الميلادى بعد أن أكثر الخليفة المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢) من الاعتماد على الترك، الأمر الذى اضطره إلى هجر بغداد ونقل عاصمته إلى سامرا سنة ٨٣٦، ولم يلبث أن غدا الخلفاء العباسيون أداة سهلة فى أيدى الأمراء الأتراك، حتّى صارت السلطة الفعلية فى القرن العاشر فى يد كبير هؤلاء الأمراء الذى اتخذ لنفسه لقب «أمير الأمراء»(٨٨)، وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل: الحركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى (٨١٦ – ٨٣٧) وحركة المعتزلة، فضلا عن نشاط الشيعة، فإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الزنج فى جنوب العراق (٨٧٧ – ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق (سنة٨٩٠)، استطعنا أن نكوّن فكرة عامة عن عوامل انحلال هذه الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال(٨٩) وليس أدلّ على انحلال هذه الخلافة وتفككها من الحركات الانفصالية التى قامت فى جسم الدولة والتى أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة مثل الدولة السامانية (٩٧١ – ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ – ١٠٤٢)، والدولة الغــزنوية (٩٦٢ – ١١٨٦)، والدولة الحمدانية (٩٢٩ – ١٠٠٣)، والدولة البويهية (٩٣٢ – ١٠٥٥)(٩٠)، هذا عدا الفاطميين الذين أقاموا دولتهم فى شمال أفريقية على أنقاض دولة الأغالبة، والأخشيديين الذين استقلوا بمصر وشطر من الشام، ثُم كان أن استطاع الفاطميون فتح مصر سنة ٩٦٩ واتخاذها مركزا لخلافة فاطمية شيعية؛ ممّا زاد من حدة الخلافات المذهبية والانقسامات السياسية فى المشرق الإسلامى(٩١).

وتهمنا من هذه الدول جميعا الدولة البويهية نظرا لما صار لآل بويه من نفوذ فعلى فى العراق فى القرن العاشر الميلادى، ويرجع أصل هؤلاء البوهيين إلى بلاد الديلم، وهى البلاد الواقعة إلى الجنوب الغربى من بحر قزوين، ومنها أخذوا يمدون سلطانهم فى القرن العاشر على بلاد فارس والعراق، حتّى دخل أحمد بن بويه بغداد سنة ٩٤٥م (٢٣٤هـ) فرحب به الخليفة المستكفى وأضفى عليه وعلى غيره من بنى

---

(88) Diehl, Marcais: op. cit. pp. 378 - 381.

(89) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 376.

(90) Diehl, Marcais: op. cit. pp. 385 - 392.

(91) Cam. Med. Hist. Vol 5, p. 245.

بويه الألقاب وأمر بنقش أسمائهم على السكة(٩٢)، ومنذ ذلك الوقت يمكن القول بأن السلطة الفعلية خرجت من أيدى الخلفاء العباسيين الذين صاروا مجرد زعماء دينيين فى الدولة لا حول لهم ولا قوة(٩٣).

ولعل هذا الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى اعترى وحدة الدولة الإسلامية، هو الذى مكن أباطرة الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفا أكثر عزماً وصلابة من جيرانهم المسلمين، وقد رأينا كيف نجح باسل الأول المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦) وخلفاؤه فى انتزاع أجزاء كبيرة من جسم الدولة الإسلامية فى أعالى العراق والشام، حتّى أصبحت الغلبة فى القرن العاشر لجيوش الدولة البيزنطية فى حين التزم المسلمون موقف الدفاع بقدر المستطاع(٩٤)، ولكن الموقف بين المسلمين والبيزنطيين أخذ يتبدل فى القرن الحادى عشر نتيجة لظهور قوة الأتراك السلاجقة، الذى يعتبر ظهورهم فاتحة عصر جديد لا فى التاريخ الإسلامى فحسب، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام(٩٥).

أمّا هؤلاء السلاجقة فهم فرع من الأتراك الغز، الذين ظلوا على بساطتهم الأولى دون أن تفسدهم حياة الترف والمدنية، حتّى كان اعتناقهم الإسلام فى وقت متأخر وتحمسهم له مصدر قوة للعالم الإسلامى فى وقت تفكك هذا العالم واشتدت الخلافات السياسية والمذهبية بين الدويلات التى انقسم إليها (٩٦)، وقد تواتر فى المراجع التاريخية أن جد السلاجقة الأول اسمه تقاق؛ وهو والد سلجوق الذى دخل خدمة خان التركستان حوالى سنة ١٠٠٠ . ثمّ نزح سلجوق بعد ذلك ومعه قومه من سهول قرغيز إلى بلاد ما وراء النهر حيث استقروا قرب بخارى، وهناك اعتنق سلجوق الإسلام وتبعه قومه الذين نسبوا إليه(٩٧)، وسرعان ما أخذت قوة السلاجقة تنمو نمواً واضحا، فبدأوا منذ سنة ١٠٢٩ يغيرون على حدود فارس الشمالية الشرقية حتّى استولوا على

(92) Diehl, Marcais: op. cit. p. 389.
(93) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 277.
(94) Ostrogorsky: op. cit. ps. 252 - 257 - 263.
(95) Cam. Med. Hist. Vol 4, p. 299.
(96) Cam. Med. Hist. Vol 5, pp. 259 - 260.
(97) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 467.

خراسان، ثمّ غزوا فارس قرب منتصف القرن الحادى عشر، ومن ثمّ أخذوا يتطرقون إلى بلاد ما بين النهرين[٩٨].

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء ثلاثة من ملوك السلاجقة فى العصر السلجوقى الأول هم طغرل (ت ١٠٦٣)، وألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢)، وملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢)[٩٩]. وفى خلال الخمسة والخمسين عاما التى حكم فيها هؤلاء الثلاثة، برز اسم الوزير المشهور نظام الملك الذى كان عهده أزهى عصور التاريخ السلجوقى وأكثرها ازدهارا، وكانت الخلافة العباسية فى ذلك العصر تعانى حالة خطيرة من الضعف والإنهاك فلم يسع الخليفة القائم بأمر الله إلا أن يعترف بطغرل الذى دخل بغداد سنة ١٠٥٥ فى موكب رسمى، فاستقبله الخليفة وخلع عليه وأجلسه إلى جواره، فى حين قام طغرل من جانبه بإخضاع الموصل وديار بكر وغيرها من الأطراف الغربية للدولة[١٠٠]، ومنذ ذلك الوقت حلّ السلاجقة محل البويهيين فى الوصاية على الخلافة، فى حين استمر الخليفة العباسى مجرد رمز دينى يعيش فى حماية سلاطين السلاجقة الذين مكنتهم قوتهم الحربية من فرض سيطرتهم على معظم جناح العالم الإسلامى فى آسيا[١٠١].

وبعد وفاة طغرل سنة ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذى حكم فترة قصيرة ولكنها مليئة بالأحداث المهمة[١٠٢]، ذلك أن السلاجقة كانوا سنيين متحمسين، فتعصبوا لنصرة الخليفة العباسى السنى ضدّ الفاطميين فى مصر والشام [١٠٣]؛ ولذلك حاربت جيوش ألب أرسلان الفاطميين واستردت منهم السيادة على حلب، ومكة، والمدينة، ثمّ زادت على ذلك إخضاع الثورات التى قامت فى فارس، على أن شهرة ألب أرسلان فى التاريخ تنبع بوجه خاص من موقفه من الدولة البيزنطية، والواقع أن السلاجقة أصبحوا عند منتصف القرن الحادى عشر عاملا أساسيا موجها للتاريخ البيزنطى نتيجة لتهديدهم

---

(98) Ibid.

(99) Diehl, Marcais: op. cit. p. 561.

(100) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 304 - 305.

(101) Ostrogorsky: op. cit. p. 303.

(١٠٢) ألب أرسلان لقب تركى معناه «الأسد الشجاع»، وقد اتخذ ألب أرسلان اسم محمد عند اعتناقه الإسلام بدلا من إسرائيل الذى كان يعرف به، ثم أضفى عليه الخليفة القائم العباسى لقب (عز الدين) (انظر Cam. Med. Hist. Vol. 4, 306).

(103) Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades pp. 10 - 20.

لحدود الدولة فى آسيا الصغرى والقوقاز[١٠٤]، ومن ذلك ما قام به ألب أرسلان من إغارة على أطراف الدولة البيزنطية فى كابادوقيا حتّى استولى على قيصرية ونهبت قواته ضريح القديس باسل. وقد هبّ إمبراطور الدولة البيزنطية عندئذ - وهو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) - للدفاع عن بلاده ضدّ هذا الخطر المستفحل، واستطاع أن يحصل فعلا على بعض انتصارات سهلة فى أول الأمر حتّى كانت المعركة الفاصلة بين السلاجقة والبيزنطيين عند ملازكرت أو مانزكرت، ومانزكرت هذه مدينة أرمينية تقع إلى الشمال من بحيرة فان Van [١٠٥]، استولى عليها ألب أرسلان سنة ١٠٧٠ فحاول الإمبراطور رومانوس الرابع استردادها ولم يكد الإمبراطور ينجح فى تحقيق غرضه حتّى كان السلاجقة قد أعدوا عدتهم فدارت معركة مانزكرت الشهيرة سنة ١٠٧١ بين ألب أرسلان الذى بلغ جيشه خمسة عشر ألف محارب، ورومانوس الرابع الذى بلغ جيشه مائتى ألف محارب[١٠٦]، وكان القتال عنيفا وطويلا، لم تنجح فيه الخيالة البيزنطية المدرعة الثقيلة بحركاتها التقليدية البطيئة، فتغلبت عليها خيالة السلاجقة الخفيفة المعروفة بسرعة الحركة، حتّى حلت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين وتمزق الجيش البيزنطى شرّ ممزق، فى حين جرح الإمبراطور نفسه ووقع أسيرا[١٠٧].

وتُعتبر هذه الهزيمة نقطة تحول خطيرة فى التاريخ البيزنطى؛ إذ ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية، وعدم استطاعة الإمبراطورية الثبات بعد ذلك فى وجه توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى، ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية - وخاصة أرمينية وكابادوقيا - كانت على جانب كبير من الأهمية ويكفى أنها أمدت الإمبراطورية بكثير من الأسرات الحاكمة وعدد كبير من أمهر الرجال الذين ساسوا أمور الدولة ودافعوا عنها، وارتبط تاريخها بهم[١٠٨]، ومهما يكن من أمر فقد تفاوض الفريقان عقب موقعة مانزكرت من أجل «صلح دائم» وتمّ الصلح فعلاً وفقا لشروط ، أهمها: إطلاق سراح

---

(104) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 467.

(105) Idem: Tome 1, p. 469.

(106) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 306 - 307.

(107) Ostrogorsky: op. cit. p. 304.

(108) Vasiliev, op. cit. Tome 1, pp. 469 - 470.

الإمبراطور رومانوس الرابع مقابل فدية ضخمة من المال، كما تعهدت الدولة البيزنطية بدفع جزية سنوية كبيرة لألب أرسلان، فضلا عن إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين (١٠٩) وأخيراً عاد الإمبراطور المنكود الحظ إلى القسطنطينية ليكافأ على شجاعته بخلعه من العرش وحبسه بعد سمل عينيه، فمات بعد أيام.

وإذا كان ألب أرسلان قد توفى هو الآخر سنة ١٠٧٢، إلا أن وفاته لم تقلل من خطر السلاجقة على الدولة البيزنطية، إذ خلفه أخوه ملكشاه الذى واصل السلاجقة فى عهده التوسع فى آسيا الصغرى وأنزلوا بالمدن البيزنطية أقسى ألوان الدمار. من نهب وإحراق وتخريب(١١٠). ويبدو أن السلاجقة استغلوا فرصة الفوضى التى غرقتْ فيها الدولة البيزنطية، فى الفترة الواقعة بين موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ واعتلاء ألكسيوس كومنين عرش الإمبراطورية سنة ١٠٨١ وأخذوا يتوسعون فى آسيا الصغرى دون أن يصادفوا مانعا يقاومهم، هذا إلى أن البيزنطيين أنفسهم استعاونوا بهم فى خلافاتهم الداخلية، وبذلك تغلغل السلاجقة فى آسيا الصغرى حتّى بلغوا أجزاءها الغربية، وربما ساعد على ذلك أن السلاجقة اعتبروا أنفسهم فى حل من الارتباط بالاتفاقية السابقة التى عقدها ألب أرسلان مع البيزنطيين بعد وفاة السلطان الذى أبرمها(١١١)، وأخيرا لم يجد الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ – ١٠٧٩) وسيلة لوقف توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى سوى عمل اتفاقية سنة ١٠٧٤ مع سليمان بن قتلمش ـ قائد جيش ملكشاه ـ سلم فيها الإمبراطور بحق السلاجقة فى حكم الأراضى التى فتحوها فعلا فى آسيا الصغرى(١١٢)، وإلى سليمان بن قتلمش هذا ـ الذى ناب عن سيده فى قيادة جيوش السلاجقة ضدّ البيزنطيين ـ يرجع الفضل فى وضع أساس ما عرف بعد ذلك باسم سلطنة قونية، نسبة إلى هذه المدينة العظيمة التى اتخذها الأتراك مركزا لسلطانهم فى آسيا الصغرى(١١٣)، ومن هذا المركز الرئيسى فى جوف آسيا الصغرى أخذت هذه القوة الجديدة تنمو وتمتد حتى بلغت شاطئ البحر الأسود شمالاً والبحر المتوسط جنوبا،

---

(109) Idem: op. 469.

(110) Cam. Med. Hist. Vol 4, pp. 307 - 308.

(111) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 470.

(112) Tout: The Empire and the Papacy, p. 172.

(113) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 471.

هذا فضلا عن استمرار توسع الأتراك السلاجقة غربا دون أن تقوى الإمبراطورية على وقف تيارهم(١١٤).

وقد حاول الإمبراطور ميخائيل السابع الاستنجاد بالبابا جريجورى السابع ووعده بأن يرد الجميل للبابا بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية، وفعلا استجاب جريجورى السابع - بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة - لهذه الدعوة، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم حقيقة موقف المسيحية فى الشرق وما تعانيه الإمبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك، ولكن دعوته ذهبت مع الريح، هذا فى الوقت الذى شغلت البابوية نفسها بالصراع مع الإمبراطور هنرى الرابع حول التقليد العلمانى؛ مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة(١١٥)، وهكذا ظلّ الحال حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩، وحلّ محله الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ - ١٠٨١)، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت بإعلان ألكسيوس كومنين إمبراطورا.

وكان الإمبراطور ألكسيوس رجلا قديرا، فحاول إصلاح الأوضاع الداخلية فى الإمبراطورية على نطاق ضيق، بالقدر الذى سمحت به الظروف والأوضاع القائمة(١١٦)، وقد نجح ألكسيوس - بقدر المستطاع - فى علاج الفتن الداخلية والأزمة المالية والحركات الهرطقية فى الدولة(١١٧)، أمّا فى الناحية الخارجية فإن ازدياد نفوذ النورمان فى جنوب إيطاليا أخذ يشكل خطرا جديدا على الإمبراطورية البيزنطية، واتضح ذلك عندما حاصر روبرت جويسكارد سنة ١٠٨١ مدينة دورازو Durazzo مركز النفوذ البيزنطى فى البحر الأدرياتى، وقد أسرع ألكسيوس للدفاع عن هذه المدينة ولكن قواته لم تستطع الصمود أمام النورمان. فانسحب البيزنطيون يجرون أذيال الخيبة(١١٨)، وهكذا تمكن النورمان من عبور الجبال الساحلية إلى مقدونيا وتساليا، ولم يخلص الإمبراطورية البيزنطية من خطرهم سوى اضطرار روبرت إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت وفاته سنة ١٠٨٥.

---

(114) Diehl, Marcais: op. cit. p. 562.

(115) Vasiliev, op. cit. Tome 1, pp. 471 - 472.

(116) Diehl, Marcais: op. cit. p. 464.

(117) Tout: The Empire and the Papacy, p. 174.

(118) Ostrogorsky: op. cit. p. 317.

وفى تلك الأثناء لم يكف السلاجقة عن مهاجمة أراضى الإمبراطورية والتوسع على حسابها فى آسيا الصغرى، هذا على الرغم من أن وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ وما أعقبها من نزاع بين أبنائه ساعدت على تقليل خطرهم مؤقتا، ولم يجد ألكسيوس وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات، حتّى انتهى به الأمر إلى إرسال بعثة إلى البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام [١١٩].

---

(119) Tout: The Empire and the Papacy, p. 175.

الباب السادس عشر
الحروب الصليبية

طابعها وأهدافها:

تُعتبر الحروب الصليبية من أهم الحركات الكبرى التى أثرت فى مجرى تاريخ العصور الوسطى وصبغت هذه العصور بطابعها الخاص الذى يميزها عن غيرها، وقد تباينت الآراء فى تفسير طبيعة هذه الحركة الضخمة ومحاولة معرفة البواعث الكامنة التى تقف من ورائها: فمن قائل بأنّها وليدة الحماسة الدينية التى اتسمت بها عصور الإيمان(١)، ومن منادٍ بأن المجتمع الرومانى وجد فيها منفذا للتهرب من الاعتراف بالحقيقة الخاصة بتدهوره وخضوعه للجرمان، فى حين رأى الجرمان فى هذه الحروب فرصة لإظهار ولائهم للمسيحية وإرضاء نزعتهم نحو القتال والترحال، وهناك رأى ثالث يؤكد بأن الحروب الصليبية إنما هى مظهر من مظاهر التوسع الاقتصادى والاستيطانى فى العصور الوسطى، كما أنها جاءت نتيجة لتطور النظام الإقطاعى فى تلك العصور.. إلى غير ذلك من الآراء المتباينة.

والحقيقة أن الحروب الصليبية لم تكن وليدة أحد هذه العوامل وحدها، وإنما هى نتيجة لتفاعل معظم العوامل السابقة، وغيرها(٢). فالدارس لتاريخ الحروب الصليبية يستطيع أن يستكشف بوضوح أثر العوامل الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية فى توجيه هذه الحروب والتحكم فى مصائرها(٣).

وقد اعتاد الكتّاب أن يهتموا بثمانى حملات صليبية، أربع اتجهت نحو الأراضى المقدسة (الأولى والثانية والثالثة والسادسة)، واثنتان ضدّ مصر (الخامسة والسابعة)، وواحدة ضدّ القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال أفريقية (الثامنة)، ومن ثمّ فازت هذه الحملات بأرقام عددية فى التاريخ، لكن هذا التحديد لا يخلو فى حقيقة الأمر من تجاوز كبير؛ لأن الحملات الصليبية أكثر من ثمان، إن لم يكن من العسير حصرها ذلك أنه لم يمر عام منذ سنة ١٠٩٦ حتى سنة ١٢٩١ إلا اتجهت بعض

---

(1) Cam. Med. Hst. Vol. 5, p. 265.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 561.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦ – ٣٦ الطبعة الرابعة ١٩٨٦.

الجموع والوفود الصليبية من الغرب إلى الشرق، وبعض هذه الجماعات فاقت فى أعدادها وفى أهمية أعمالها ما قامت به بعض الحملات الصليبية المعروفة، ومع ذلك لم تكتسب رقما أو صفة عددية فى التاريخ ضمن الحملات المعترف بأهميتها.

وإذا كان بعض المؤرخين يميل إلى تحديد مدى الحروب الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٦ – ١٢٩١، فإن هذا التحديد الزمنى لايشمل فى الواقع إلا المرحلة الحاسمة النشيطة فى تاريخ الحروب الصليبية. ذلك أنه يمكن للباحث أن يتتبع جذور الحركة الصليبية وروحها قبل القرن الحادى عشر بكثير، كما يمكنه أن يقتفى أثر ذيولها وروحها بعد نهاية القرن الثالث عشر بكثير أيضًا. فمنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية كبرى غزت العالم المسيحى وقوضت بعض أركانه، وأهالى أوربا المسيحيون لا يألون جهدا فى صد المسلمين ومحاربتهم، وحسبنا ما فعله ليو الأيسورى فى الشرق، وشارل مارتل فى الغرب لصد المسلمين عن العالم المسيحى، هذا غير ما قام به شارلمان من حروب ضدّ المسلمين فى الأندلس، وهى الحروب التى حرصت أغنية رولان على أن تظهرها فى طابع صليبى واضح، وما قام به بابوات الغرب وحكامه فى القرنين التاسع والعاشر لصد الإغارات الإسلامية عن شواطئ أوربا[٤]. والمهم فى أمر هذه الجهود التى بذلها المسيحيون فى محاربة المسلمين، أنها اتسمت بالطابع الدينى، فدعا إليها رجال الدين وتعهدها البابوات برعايتهم ممّا جعل فكرة الحروب الصليبية تنشأ فى أول أمرها مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا[٥].

والواقع أنّ فكرة محاربة المسلمين صادفت قبولا عاما فى غرب أوربا فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر، ففى إسبانيا كان ألفونس السادس ملك قشتالة (١٠٦٥ – ١١٠٩) يواصل ضغطه على المسلمين فى سبيل الاستيلاء على طليطلة، حتّى استولى عليها فعلا سنة ١٠٨٥ بمساعدة قريبه هيو الأول دوق برجنديا[٦]، وفى صقلية كان روبرت جويسكارد وأخوه روجر يعملان لانتزاع الجزيرة من أيدى المسلمين، أمّا جنوة وبيزة فقد دأبت أساطيلهما على مهاجمة المسلمين فى كورسيكا وسردينيا فضلا عن الموانئ الإسلامية فى شمال أفريقية[٧].

(4) Runciman: A History of th Crusades, Vol. 1, p. 88.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 267 - 268.

(6) Fliche: L' Europe Occidentale, pp. 552 - 553.

(7) Painter: A Hist, of the Middle, Ages, p. 200.

على أن الموقف بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق اختلف اختلافا بيّناً عمّا كان عليه فى الغرب أواخر القرن الحادى عشر، فبينما أمسى المسلمون فى الغرب فى موقف لا يحسدون عليه بسبب ضغط القوى المسيحية عليهم، إذا بهم فى الشرق يصبحون على قسط وافر من القوة، فتمكنوا من التفوق على الدولة البيزنطية، حتّى كانت موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع وما تلا ذلك من سيطرة الأتراك السلاجقة على معظم آسيا الصغرى[٨]، وقد دفع هذا الوضع البابا جريجورى السابع إلى توجيه الدعوة فعلا سنة ١٠٧٤ إلى حكّام الغرب لإرسال حملة صليبية إلى الشرق [٩] بعد أن استفحل خطر الأتراك السلاجقة واستولوا على بيت المقدس ممّا أثار شكوى الحجاج المسيحيين[١٠]، وكانت وجهة نظر جريجورى السابع تتلخص فى إرسال حملة لإنقاذ القسطنطينية والدولة البيزنطية بوصفهما الدرع الحامى للعالم المسيحى من جهة الشرق، هذا فضلا عمّا يمكن أن تحققه مثل هذه الحملة من إزالة الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية وإدخال الأولى فى حظيرة الثانية[١١]، ولكن يبدو أن الظروف التى أحاطت بجريجورى السابع لم تمكنه من تنفيذ هذه الرغبة، ويكفيه على أى حال أنه وضع أساس المشروع وترك مهمة تنفيذه لخليفته البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ – ١٠٩٩) [١٢].

وإذا كان البابا أوربان الثانى قد أظهر حماسة كبيرة لمشروع الحرب الصليبية ضدّ المسلمين، فإنه ليس من المستبعد أن يكون السبب الحقيقى لهذه الحماسة هو الرغبة فى إظهار البابوية فى صورة المؤسسة المتزعمة للعالم المسيحى الغربى، فى الوقت الذى اشتد النزاع بينها وبين الإمبراطورية حول سيادة العالم، هذا فضلا عمّا فى ذلك من فرصة لبسط سيطرة البابوية على الكنيسة الشرقية. لذلك لم يكد الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين (١٠٨١ – ١١١٨) يستنجد بالبابا أوربان الثانى، حتّى لبى البابا النداء فأعلن الحرب الدينية ضدّ المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥[١٣]، وهنا

(٨) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٦٨ – ٧١.

(9) Cam. Med, Hist. Vol. 5, p. 271.

(10) Vasiliev: op. cit. Tome 2, p. 25.

(11) Idem: p. 28.

(12) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 306 - 307.

(13) Cam. Med, Hist. Vol. 4, p. 410.

نلاحظ أن البابا أوربان الثانى نظر إلى الحروب الصليبية نظرة اختلفت عمّا أرادته الإمبراطورية البيزنطية ، فالإمبراطور ألكسيوس كومنين أراد ـ حين استنجد بالبابوية ـ أن يسعفه الغرب بقوة تمكنه من استرداد آسيا الصغرى من قبضة المسلمين، أمّا البابا أوربان الثانى فلم يكن يهتم بأمر آسيا الصغرى قدر اهتمامه بالأراضى المقدسة واستخلاصها من سيطرة المسلمين(١٤)، وهكذا بدا عدم الانسجام والتوافق فى الأغراض بين الحروب الصليبية التى دعت لها البابوية والحروب التى أرادتها الدولة البيزنطية؛ لأن الأخيرة طلبت إمدادها بجند يعملون تحت قيادتها لتحقيق أغراضها الخاصة وأهمها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى، فى حين أرسل الغرب صليبيين يستهدفون استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين(١٥).

أسباب الحماسة الصليبية عندالغربيين:

وسرعان ما انتشر الدعاة ـ أمثال بطرس الناسك ـ يدعون أمراء أوربا وفرسانها للمشاركة فى مشروع الحروب الدينية، وقد قوبلت هذه الدعوة بحماسة كبيرة من جمهور المسيحيين الغربيين على اختلاف طبقاتهم وبلادهم الأمر الذى يجعلنا نتوقف قليلا للبحث عن أسباب هذه الحماسة التى قُوبلت بها الدعوة للحروب الصليبية فى غرب أوربا. حقيقة أن البابوية هى صاحبة الفضل فى إثارة فكرة الحروب الصليبية عندما دعت لها فى مجمع كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ ، ولكن لماذا قابلت شعوب غرب أوربا هذه الدعوة بمثل تلك الحماسة البالغة؟ وبعبارة أخرى ما العوامل التى جعلت أوربا العصور الوسطى تستجيب لنداء البابوية وتلبى هذا النداء فى قوة وعزيمة؟ الواقع أننا نستطيع الوقوف على أول هذه العوامل بالرجوع إلى المثل الدينية التى سادت تلك العصور وتحكمت فى توجيهها، فالعصور الوسطى ـ فى الغرب والشرق ـ عُرفت بتغليب الجانب الدينى حتّى سُميت «عصور الإيمان»، هذا فى الوقت الذى اضطرت ظروف الحياة الغالبية العظمى من أهالى أوربا إلى أن يحيوا حياة دنيوية بعيدة عن الديرية وغيرها من أنواع الحياة الدينية، وقد ظلّ هذا الفريق يشعر بفراغ دينى كبير، واشتد هذا الشعور فى القرن الحادى عشر نتيجة لما أثارته الحركة الكلونية

---

(14) Painter: A Hist, of the Middle, Ages, p. 200.

(15) Ostorgorsky: op. cit. p. 230.

من حماسة واضحة، حتّى وجدوا ضالتهم أخيرا فى الحروب الصليبية[١٦]، وهى الحروب التى ستتيح لهم فرصة تقبيل الصخرة التى صلب عليها المسيح والسجود أمام قبره، بل دخول الجنة نفسها... إلى غير ذلك من ضروب الإغراء الكفيلة بأن تحرك مشاعر كل مسيحى مخلص فى تلك العصور[١٧].

وبالإضافة إلى هذا العامل الدينى وُجد عامل اجتماعى تمثل فى أن الغالبية العظمى من الطبقات الدنيا فى المجتمع الأوربى كانت تحيا عندئذ حياة ملؤها البؤس والشقاء فى ظلّ النظام الإقطاعى، فلم يجد أفراد هذه الطبقات سببا يشجعهم على البقاء فى بلادهم، بل على العكس من ذلك وجدوا فى الحرب الصليبية فرصة هيأت لهم الخلاص من القيود والفاقة التى يعانون منها، فضلا عمّا سيتاح لهم من أجر وحسن ثواب فى الدنيا والآخرة[١٨]، هذا فى الوقت الذى وجد الأمراء والفرسان فى الحروب الصليبية فرصة لإشباع روح المغامرة التى سيطرت على حياتهم الخاصة والعامة[١٩].

أمّا العامل السياسى فيبدو فى تطلع البابوية إلى بسط نفوذها على الشرق وكنسيته[٢٠]، هذا إلى أن البابوية فى القرن الحادى عشر كانت تخشى النورمان الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب إيطاليا فرأت فى الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن إيطاليا وتوجيه نشاطهم نحو ميدان آخر بعيد، ومن الثابت أيضاً أن كثيرا من كبار الأمراء شاركوا فى الحروب الصليبية بغية تأسيس إمارات لهم فى الشرق ، وبدت هذه المطامع السياسية واضحة منذ وصول الصليبيين إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة.

فإذا أضفنا إلى هذه العوامل السابقة العامل الاقتصادى أمكننا فى النهاية أن نكون فكرة واضحة عن سبب الحماسة التى قوبلت بها الدعوة إلى الحروب الصليبية، ذلك أن مدن إيطاليا التجارية ـ وخاصة البندقية، وجنوة، وبيزة ـ قامت منذ القرن الحادى عشر بنشاط تجارى واسع، وامتلكت الأساطيل البحرية الضخمة، الأمر الذى جرها إلى

---

(16) Vasiliev: op. cit. Tome 2, p. 30.
(17) Runciman: op. cit. Vol. 1, p. 115.
(18) Idem: p. 11.
(19) Vasiliev: op. cit. Tome 2, p. 30.
(20) Ibid.

الدخول فى عداوات ضدّ مُسلمى صقلية وسردينيا(٢١)، وقد أدركت هذه المدن الإيطالية أن استيلاء الصليبيين على الشام سيتيح لها منفذا يُمكنها من اختراق الحصار الذى فرضه المسلمون على تجارة الشرق بسيطرتهم على نصف شواطئ البحر المتوسط؛ ولذلك أسرعت المدن الإيطالية إلى مباركة حركة الحروب الصليبية وتقديم كل مساعدة ممكنة للصليبيين مقابل ما حصلت عليه هذه المدن من امتيازات تجارية فى الأجزاء التى سيطر عليها الصليبيون فى الشرق(٢٢).

الحملة الصليبية الأولى:

وعلى الرغم من أن جهود البابا أوربان الثانى وأعوانه فى تنظيم الحملة الصليبية الأولى، وحرصهم على ألا يشترك فيها إلا الأمراء القادرون على تسليح أتباعهم والإنفاق عليهم، فإن الدعاة جمعوا حولهم كلّ راغب من الفرسان المفلسين، فضلا عن العامة والأقنان والمغامرين، وقد حرص كل واحد من هؤلاء على أن يخيط على ردائه الخارجى صليبا، من القماش، ومن ثمّ أطلق عليهم اسم «الصليبيين» وعلى الحروب التى اعتزموا المشاركة فيها اسم الحروب الصليبية(٢٣).

وقدْ اعتاد المؤرخون عند الكلام عن الحملة الصليبية الأولى أن يقسموها إلى قسمين: القسم الأول يشمل حملة العامة، والقسم الثانى يشمل حملة الأمراء، أمّا العامة فقد اجتمع منهم فى مايو ١٠٩٦ خمسة جموع كبيرة، تضم تشكيلة متنوعة من المعدمين والدهماء والمجرمين وغيرهم وأخذوا يتجهون جميعا نحو القسطنطينية فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة(٢٤)، وقد فشلت ثلاثة جموع من هؤلاء العامة فى الوصول إلى القسطنطينية وتبدد شملهم فى الطريق نتيجة اصطدامهم بالمجريين(٢٥).
أما البقية الباقية فقد وصلت إلى القسطنطينية بعد أن تناقصت أعدادهم وأصبحوا فى حال يرثى له من الإنهاك والبؤس، وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها هؤلاء الصليبيون من الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين فى أول الأمر، إلا أنهم أتوا فى

(21) Vasiliev: op. cit. Tome 2, pp. 32 - 33.

(٢٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٠ – ٣٢.

(23) Stephenson: Med. Hist. p. 296.

(24) Grousset: Hist. des Croisades, Tome 1, p. 6.

(25) Idem: p. 9.

الإمبراطورية كثيرا من أعمال النهب والسلب حتّى أنهم لم يتورعوا عن سرقة الكنائس التى صادفوها[٢٦]. وقد ارتاع الإمبراطور من هذا المسلك فأخذ يفكر فى التخلص منهم بسرعة وسهل لهم العبور إلى آسيا الصغرى حيث وقعوا فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة، فأجهزوا عليهم جميعا وحولوهم إلى كومة من العظام والأشلاء[٢٧].

هذا عن القسم الأول من الحملة الصليبية الأولى، وهو القسم الخاص بالعامة والمعدمين، أمّا القسم الثانى الخاص بالأمراء والفرسان، فقد أخذ هؤلاء يتجمعون منذ مارس سنة ١٠٩٦ حتى تكونت منهم ثلاث مجموعات كبيرة، الأولى تألفت من فرسان اللورين تحت زعامة جودفرى بوايون وأخيه بلدوين[٢٨]، والثانية تألفت من فرسان إقليم بروفنسال تحت زعامة ريموند أمير تولوز بصحبة أدهمار المندوب البابوى[٢٩]، والمجموعة الثالثة تألفت من النورمان وعلى رأسهم بوهيموند وابن أخيه تنكرد [٣٠]، وأخيرا التقت هذه الجموع الثلاثة فى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٠٩٧، وكان عددهم يتراوح بين ستين ألفا ومائة ألف[٣١]، وهنا أخذت تنكشف العوامل المختلفة التى تحكمت فى توجيه الحملة الصليبية الأولى، بل كثير من الحملات التالية فمن جانب الغرب وجد عاملان مهمان، هما أطماع الأمراء فى تأسيس إمارات لهم فى الشرق، وما نشأ عن هذه الأطماع من حزازات ومنافسات، ثمّ أطماع القوى الإيطالية التجارية فى تحقيق مكاسبها الاقتصادية، أمّا من جانب الشرق فقد وجد عاملان أيضا هما سياسة الدولة البيزنطية تجاه الصليبيين من جهة وأحوال الشرق الإسلامى بعد مقتل الوزير نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ ثمّ وفاة ملكشاه أعظم سلاطين السلاجقة بعد ذلك فى العام نفسه من جهة أخرى؛ ممّا أدى إلى تفكك إمبراطوريتهم الواسعة وزيادة انقسام الشرق الإسلامى بين قوى مبعثرة متنافسة[٣٢].

والواقع أن وصول هذه الأعداد الضخمة من الصليبيين إلى أراضى الدولة

---

(26) Cam. Med, Hist. Vol. 1, p. 336.

(27) Runciman: op. cit. Vol. 1, pp. 127 - 132.

(28) Grousset: op. cit., Tome 1, pp. 11 - 14.

(29) Cam. Med, Hist. Vol. 5, p. 274.

(30) Grousset: op. cit., Tome 1, p. 20.

(31) Runciman: op. cit. Vol. 1, p. 169.

(٣٢) سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٧ وما بعدها (الطبعة الرابعة).

البيزنطية أثار مخاوف الإمبراطور ألكسيوس، لا سيما أن مسلك الصليبيين تجاه إخوانهم المسيحيين الشرقيين لم يكن مشجعا على الاطمئنان(٣٣)، لذلك لم يسمح الإمبراطور البيزنطى بفتح أبواب القسطنطينية للصليبيين إلا بعد أن تعهد له زعماء الحملة بالولاء وتسليمه كل ما يستردونه من أراضى الدولة وأملاكها المفقودة فى آسيا ما عدا الأراضى المقدسة نفسها وذلك كله مقابل تعهد الإمبراطور بإمدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقلهم إلى الشاطئ الآسيوى(٣٤)، ولا شك فى أن الغرب اللاتينى اعتبر هذا المسلك معاديا من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وذلك فى وقت أساء الغرب الظن بالشرق وتواترت الأخبار بسوء معاملة الدولة البيزنطية للحجاج الغربيين القاصدين البلاد المقدسة عبر أراضيها(٣٥)، وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتزيد من شعور النفور والعداء بين الغرب اللاتينى والشرق اليونانى ممّا كان له أكبر الأثر فى مصير الحروب الصليبية من جهة وفى مستقبل الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى(٣٦).

أمّا عن تفكك إمبراطورية السلاجقة بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ فيبدو مرجعه إلى أن سلاطين السلاجقة لم يفعلوا أكثر من احتلال المدن الرئيسية فى البلاد التى فتحوها احتلالاً عسكرياً ، مع ترك بقية البلاد، والأراضى الواسعة فيما بين هذه المدن خالية من كل مقاومة، وخير ما يوضح تفكك إمبراطورية السلاجقة عند نهاية القرن الحادى عشر أن بغداد أصبحت تحت نفوذ السلطان بركياروق (١٠٩٤ - ١١٠٤) فى حين كانت آسيا الصغرى تحت سيادة قلج أرسلان، سلطان قونية، أمّا بلاد الشام فكان يحكمها بيت تتش (ططش) بن ألب أرسلان وزاد من ضعف بلاد الشام عندئذ تعرضها لإغارات الفاطميين من مصر ممّا ضاعفت العداء بين السنة والشيعة(٣٧).

ثمّ كان أن أخذ الصليبيون يعبرون البسفور ويدخلون أراضى قلج أرسلان فى مايو سنة ١٠٩٧، مبتدئين بمدينة نيقية، فى الوقت الذى كان قلج أرسلان نفسه متغيبا عنها

---

(33) Runciman: op. cit. Vol. 1, pp. 115 - 116.
(34) Vasiliev: op. cit. Tome 2, pp. 43 - 44.
(35) Cam, Med, Hist. Vol. 4, p. 334.
(36) Runciman: op. cit. Vol. 1, p. 170.
(37) Cam, Med, Hist. Vol. 4, pp. 314 - 315.

على الحدود الشرقية. ولكن السلاجقة لم يستسلموا فى سهولة وأنزلوا بالصليبيين خسائر فادحة جعلتهم يضطرون إلى طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطى، وأخيرا سقطت نيقية فى أيدى المسيحيين (يونية ١٠٩٧) فتسلمها الإمبراطور ألكسيوس[٣٨]، وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو ضوروليوم حيث أحرزوا نصرا كبيرا على السلاجقة فى أول يوليو، وفرّ الأتراك شرقا تاركين خلفهم عددهم وأموالهم فضلا عن مخيمات السلطان والأمراء التى وقعت جميعها فى أيدى الصليبيين [٣٩]، ولا شك فى أن موقعة ضوروليوم لا تقل أهمية فى التاريخ عن موقعة مانزكرت؛ لأنه كما وضعت موقعة مانزكرت حدا لنفوذ البيزنطيين شرقى آسيا الصغرى فكذلك دلت موقعة ضوروليوم على ظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة المسيحيين الغربيين[٤٠]، وبعد أن قضى الصليبيون فى ضوروليوم يومين استراحوا فيهما من عناء القتال اتجهوا نحو قونية فوصلوها فى أواسط أغسطس وعندئذ وجدوا هذه المدينة التى اتخذها قلج أرسلان عاصمة لسلطنته خالية الوفاض بعد أن هجرها الأتراك وفروا إلى الجبال[٤١]. وفى قونية استراح الصليبيون عدة أيام أخرى ثمّ اتجهوا نحو هرقلة حيث أنزلوا الهزيمة ببعض أمراء السلاجقة. ومن هرقلة اتجه تنكرد ـ وتبعه بلدوين ـ نحو قيليقية وأخذت جيوشهما تستولى على مدن هذا الإقليم ممّا يعتبر تمهيدا لنشأة إمارة أنطاكية الصليبية، فى حين اتجه الجزء الرئيسى من الجيش الصليبى جهة الشمال الشرقى نحو قيصرية ليضم إليه قوة أرمينية المسيحية، وعندما اتجهت الجيوش الصليبية بعد ذلك صوب أنطاكية، انضم إليها بلدوين عند مرعش ـ قرب منتصف الطريق بين قيصرية وأنطاكية ـ ولكن بلدوين لم يلبث أن افترق عن بقية الصليبيين مرة أخرى واتجه شرقا ليستولى على الرها ويؤسس بها سنة ١٠٩٨ أولى الإمارات الصليبية فى الشرق[٤٢].

وعلى الرغم من أن بقية الجيوش الصليبية أخذت تتناقص سريعا؛ نتيجة للعقبات التى صادفتها من جهة، ولسوء الأحوال المناخية من جهة أخرى، إلا أن الصليبيين اتجهوا نحو أنطاكية لحصارها، وكان حصار أنطاكية عملية شاقة وطويلة لأنها كانت

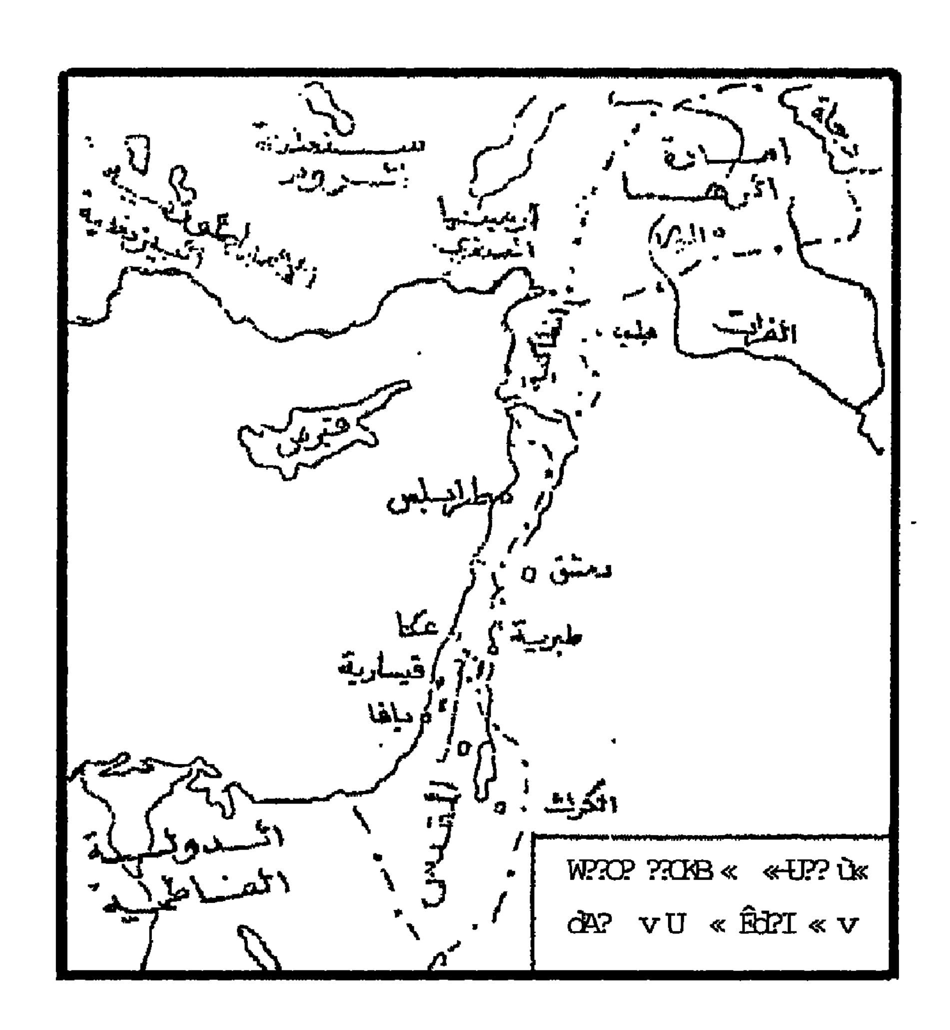
(٣٨) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٢٨.

(39) Runciman: op. cit. Vol. 1, p. 186.

(40) Grousset: op. cit., Tome 1, p. 35.

(41) Cam. Med, Hist. Vol. 5, p. 285.

(42) Runciman: op. cit. Vol. 1, pp. 206 - 208.


طرابلس
دمشق
عكا
طبرية
قيسارية
يافا
الكرك
حلب
الفرات
الدولة الفاطمية

من أقوى المدن المعاصرة تحصينا، فضلا عن صعوبة تموين الصليبيين من القسطنطينية وفتك الحمى والأمراض بهم، ولكن الصليبيين أصروا على حصارها نظرا لأهميتها فتغلبوا على النجدات الإسلامية التى أُرسلت لإنقاذها، حتّى سقطت المدينة أخيرا على أيدى الصليبيين بعد حصار سبعة أشهر ونصف الشهر (سنة ١٠٩٨)[٤٣]، وقد برزت أثناء الحصار شخصية بوهيموند النورماندى الذى أبلى فى القتال بلاءً حسنا، حتّى إذا ما سقطت المدينة بدأ النزاع بينه وبين ريموند حول امتلاك أنطاكية، فضلا عن مطالبة الإمبراطور البيزنطى بحقه الشرعى فيها[٤٤].

وقد استمر هذا النزاع نحوا من شهر، مما عطل زحف الصليبيين نحو بيت المقدس، ولكنه انتهى بفوز بوهيموند الذى أسس فى أنطاكية ثانى الإمارات الصليبية فى الشرق، وهى الإمارة التى غدت أقوى الوحدات السياسية للصليبيين فى الشام.

وقدْ أظهر الصليبيون بعد أن تركوا أنطاكية رغبة صادقة فى الوصول بأسرع ما يمكن إلى بيت المقدس، لا سيما بعد أن حاصروا عرقه (قرب حمص) مدة طويلة دون أن ينجحوا فى الاستيلاء عليها، وعندئذ أدركوا أن حصار كل بلدة تصادفهم فى طريقهم يتطلب منهم وقتا طويلا ، زيادة على استنفاد جهودهم[٤٥] ، ولم يصادف الصليبيون صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على بيت المقدس بسبب انحلال أحوال الدولة الفاطمية وقتئذ من جهة والعداء المذهبى بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى؛ لذلك سقطت بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ بعد حصار شهرين، وعندئذ ارتكبوا كثيرا من الأعمال الوحشية ضدّ الأهالى المسلمين، كما تشهد على ذلك وثيقة Gesta Francorum التى اشترك صاحبها فى هذه الحملة[٤٦]. ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول بأن الحملة الصليبية الأولى أنهت مهمتها باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس التى قامت فيها ثالث وحدة سياسية للصليبيين بالشام.

ويبدو أن كثيرا من الصليبيين عادوا إلى بلادهم بعد أن أوفوا بقسمهم واستردوا

---

(43) Cam. Med, Hist. Vol. 5, p. 292.

(44) Grousset: op. cit., Tome 1, pp. 108 - 116.

(45) Cam. Med, Hist. Vol. 5, p. 295.

(46) Runciman: op. cit. Vol. 1, pp. 286 - 287.

بيت المقدس للمسيحية؛ لذلك وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها أمام مشاكل بالغة الخطورة بسبب نقص الرجال، وسيطرة المسلمين على سواحل الشام زيادة على معظم الأراضى الداخلية، وقد أدرك حكّام مملكة بيت المقدس ضرورة الاستيلاء على سواحل الشام وموانيها لضمان الاتصال البحرى بأوربا، ولما كان الاستيلاء على هذه الشواطئ والموانئ أمرا صعبا بغير أسطول، فإن الصليبيين طلبوا مساعدة مدن إيطاليا البحرية مثل: جنوة، والبندقية، وبيزة، نظير إعطائهم ثلث الغنائم التى يستولون عليها من أية مدينة تقع فى أيديهم، وأن يكون لها أحياء تجارية حرة فى كل منها[٤٧]، وعن طريق هذه المساعدة تمّ للصليبيين الاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١، وعلى عكا سنة ١١٠٤ وعلى صور سنة ١١٢٤، أمّا طرابلس فقد سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١١٠٩ لتقوم فيها رابع الوحدات اللاتينية فى الشرق[٤٨].

أحوال الصليبيين فى الشرق:

هكذا نجحت الحملة الصليبية الأولى، وتمكن الصليبيون من تأسيس ثلاث إمارات فى الرها، وأنطاكية، وطرابلس زيادة على مملكة بيت المقدس، على أنه من الواضح أن هذه الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بقيام مملكة بيت المقدس وبعض الإمارات الصليبية فى الشرق، أدت إلى خلق موقف سياسى شديد التعقيد، فالدولة البيزنطية التى اطمأنت إلى إضعاف الأتراك السلاجقة فى آسيا واستردت جزءا كبيرا من أراضيها الآسيوية، بدأت تساورها المخاوف من جانب إمارات أنطاكية، والرها، وطرابلس، وهى الإمارات الصليبية التى سرعان ما وقفت موقفا عدائيا من الدولة البيزنطية[٤٩]، ولعل هذا الشعور هو الذى دفع الإمبراطورية الشرقية إلى قلب ظهر المجن - فى القرن الثانى عشر - لحلفائها الصليبيين والتقرب من أعدائها الأوائل وهم الأتراك السلاجقة، فى حين أخذ الصليبيون يتخوفون من نوايا الإمبراطورية البيزنطية، فعقدوا معاهدات مع السلاجقة ضدها[٥٠].

ولما كان العنصر الغالب على الحملة الصليبية الأولى هو العنصر الفرنسى فإن

(٤٧) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢١٧، ٢٣١ (الطبعة الرابعة).

(48) Grousset: op. cit., Tome 1, pp. 356 - 359.

(49) Cam. Med, Hist. Vol. 4, pp. 338 - 339.

(50) Vasiliev: op. cit. Tome 2, pp. 45 - 46.

الوحدات السياسية الصليبية التى تمخضت عنها هذه الحملة فى الشرق سادتها النظم الإقطاعية المعمول بها فى فرنسا، بالإضافة إلى تغلب اللهجة الفرنسية عليها، اللهم إلا فى الأحياء الإيطالية المستقلة التى غلب عليها الطابع الإيطالى(٥١)، وقد أدت الظروف التى أحاطت بالصليبيين فى الشرق إلى ظهور منظمات جديدة جمعت بين الفروسية والديرية، أو بعبارة أخرى بين الحياتين الحربية والدينية، مثل هيئة فرسان الاسبتارية Hospitallers وهيئة فرسان الداوية Templars (٥٢)، وسرعان ما نمت هذه المنظمات حتّى لعبت دورا مهماً فى حياة الصليبيين بالمشرق، إذ ألقى على عواتقها عبء الدفاع عن الأراضى المقدسة بعد تنظيمها وتقسيمها(٥٣). على أن أعضاء هذه الهيئات لم يلبثوا أن اشتغلوا بالتجارة وحاكوا الإيطاليين فى الحصول على مميزات تجارية واسعة، ممّا ضاعف ثروتهم وممتلكاتهم من جهة وأثار روح التنافس والبغضاء بين بعضهم وبعض من جهة أخرى(٥٤)، ولم تنقضِ سنوات طويلة حتى تغلبت المصالح التجارية على الغرض الصليبى، فأصبح لا همّ للحجاج الذين يفدون تباعا من غرب أوربا إلى الأراضى المقدسة سوى مباشرة النشاط التجارى والعودة إلى بلادهم محملين بالثروة والمتاجر.

ومن الواضح أن الإمارات التى أقامها الصليبيون فى الشرق كانت لا تستطيع الثبات طويلا وسط هذا المحيط الإسلامى الواسع دون أن تتلقى من الغرب مساعدات مستمرة قوية، ولاسيما أن كثيرا من مدن الشام المهمة مثل دمشق، وحمص، وحماة، وحلب ظلت فى أيدى المسلمين(٥٥). فالحكّام الصليبيون ضعاف منقسمون لم يستطيعوا جعل حكمهم وراثيا فى كثير من الحالات، والمصالح الدنيوية سرعان ما تغلبت على الصالح الدينى ممّا جعل بعض أمراء الصليبيين فى الشرق يتصلون سرا بالمسلمين أو البيزنطيين طالبين معونتهم ضدّ خصومهم الصليبيين، هذا إلى أن التنافس التجارى بين البندقية، وبيزة، وجنوة فى الأراضى المقدسة أدى إلى كثير من المتاعب زيادة

---

(51) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 573.
(52) Cam. Med, Hist. Vol. 5, pp. 682 - 683.
(53) Runciman: op. cit. Vol. 1, pp. 156 - 157.
(54) Cam. Med, Hist. Vol. 5, pp. 306 - 315.
(55) Idem: p. 306.

على المشاحنات بين الداوية والاسبتارية(٥٦)، فإذا أضفنا إلى ذلك تناقص أعداد اللاتين بالشام وتآمر الأباطرة البيزنطيين لانتزاع بعض الإمارات الصليبية بالشام وخاصة أنطاكية(٥٧)، أدركنا فى النهاية حقيقة موقف الإمارات الصليبية بالشام فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، والواقع أنه إذا كان الصليبيون قد نعموا بشىء من الاستقرار والهدوء حينئذ، فإن السبب فى ذلك لا يرجع إلى قوتهم وصلاح حالهم بقدر ما يرجع إلى تفكك القوى الإسلامية وافتقارها عند مطلع القرن الثانى عشر إلى زعيم قوى يوحد صفوف المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى ليجعل منهم جبهة واحدة قوية تواجه الصليبيين.

قيام الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها:

وقدْ ظهر هذا الزعيم الإسلامى المنتظر فى شخص زنكى أتابك الموصل (١١١٧ - ١١٤٦) الذى ضمَّ إليه حلب ثمّ انتزع الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤(٥٨)، ولاشك فى أن سقوط الرها فى أيدى المسلمين يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية بوصفها أولى الإمارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق، زيادة على كونها القلعة التى تعترض الطريق بين الموصل والشام، وبالتالى فإن بقاءها فى أيدى الصليبيين كان من شأنه أن يحول دون اتحاد القوى الإسلامية فى أعالى العراق والشام، لذلك أثار استيلاء المسلمين على الرها فزع العالم المسيحى الغربى فبدأت الاستعدادات لإرسال حملة صليبية ثانية على رأسها كونراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا(٥٩)، ولكن الفشل حالف هذه الحملة الثانية(١١٤٧ - ١١٤٩) منذ بدايتها، إذ اختار رجالها أن يسلكوا الطريق البرى عبر آسيا الصغرى فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة، بدلا من الطريق البحرى المباشر(٦٠)، وهكذا لم يتعظ زعماء الحملة الصليبية الثانية بما حلَّ بالحملة الأولى من كوارث فى آسيا الصغرى، لاسيما بعد أن عقد الإمبراطور مانويل كومنين البيزنطى صلحا مع مسعود سلطان قونية السلجوقى

---

(56) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 577.

(57) Grousset: op. cit., Tome 1, pp. 91 - 69 & Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 45.

(58) Grousset: op. cit., Tome 1, pp. 186 - 187.

(٥٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٨٥ وما بعدها.

(60) Cam. Med, Hist. Vol. 4, pp. 366 - 367.

الذى كان على الصليبيين أن يجتازوا أراضيه عبر آسيا الصغرى، بل يشير بعض المؤرخين إلى أن مانويل نفسه حرض مسعودا على وضع العقبات فى وجه الصليبيين[٦١]، ممّا أوقع معظم رجال الحملة الجديدة فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة، بحيث لم يصل منهم إلى الأراضى المقدسة سوى أعداد قليلة فاستقبلوا استقبالا فاترا، ، فى حين عاد كونراد الثالث ولويس السابع إلى بلديهما يجران أذيال الفشل[٦٢].

وفى ذلك الوقت كان زنكى أتابك الموصل قد توفى سنة ١١٤٦، فخلفه ابنه نور الدين محمود الذى عمل جاهدا فى سبيل تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة، ومهما تكن أهمية استيلاء نور الدين محمود على دمشق سنة ١١٥٤، فإن أهم ما شهدته تلك الفترة كان السباق بين عمورى ملك بيت المقدس ونور الدين محمود حول الاستيلاء على مصر، حيث كانت الخلافة الفاطمية تعانى آلام الموت البطىء[٦٣]، وقد انتهى هذا السباق بفوز نور الدين محمود سنة ١١٦٩، وإن كان قد توفى سنة ١١٧٣ تاركا لصلاح الدين مهمة إتمام رسالته فى توحيد القوى الإسلامية ومحاربة الصليبيين، ولم يلبث صلاح الدين أن أثبت صلاحيته التامة لمواجهة الموقف وإتمام الرسالة على خير وجه، فوحد مصر ومعظم الشام وأعالى العراق تحت سيادته[٦٤]، ثمّ دخل فى حرب جدية ضدّ الصليبيين حتى أنزل بهم هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ١١٨٧، واستولى على مدينة بيت المقدس وجميع ملحقاتها من البلاد والموانئ الساحلية، ما عدا صور التى استطاعت الصمود بفضل معونة القوى البحرية الإيطالية[٦٥]. والواقع أن موقعة حطين كانت موقعة حاسمة بكل معانى الكلمة، لا سيما أن الجيش الصليبى الذى مزق فيها كان يضم جميع قوى الصليبيين وزعمائهم بالشام، ممّا جعل من المتعذر تجنيد جيش صليبى جديد بعد أن بات زهرة فرسان الصليبيين أسرى أو قتلى، كما وقع صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم، غنيمة فى أيدى المسلمين[٦٦]، وإذا كان

---

(61) Vasiliev: op. cit. Tome 2, p. 60.

(62) Runciman: op. cit. Vol. 2, pp. 286 - 287.

(63) Grousset: op. cit., Tome 2, pp. 514 - 515.

(٦٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٣ ص ٥٨٣ وما بعدها.

(65) Cam. Med, Hist. Vol. 5, p. 210.

(66) Grousset: op. cit., Tome 2, pp. 797 - 799.

هناك ثمة أمل للصليبيين؛ فإن هذا الأمل أصبح فى وصول حملة كبرى من الغرب تعيد للصليبيين مجدهم المفقود بالأراضى المقدسة.

الحملة الصليبية الثالثة:

ولاشك فى أن سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين كان كارثة كبرى اهتز لها غرب أوربا، ممّا عجل بإرسال حملة صليبية جديدة، وكان أن لبى نداء البابوية لهذه الحملة الثالثة عدد كبير من ملوك أوربا وأمرائها، فاشترك فيها فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيلب الثانى ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنجلترا، واختار فردريك بربروسا أن يسبق زميليه ولكنه سلك الطريق البرى المشئوم عبر آسيا الصغرى، فانتهى الأمر بغرقه فى أحد أنهار قيليقية سنة ١١٩٠ وتشتت رجاله بحيث لم يصل الأراضى المقدسة سوى شرذمة قليلة منهم(٦٧)، أمّا ريتشارد وفيليب فقد دبّ بينهما الخلاف قبل أن يبحرا إلى الأراضى المقدسة، ففسخ ريتشارد خطوبته لشقيقة فيليب واستعاض عنها بخطوبة برنجاريا أميرة نافارى(٦٨)، ثمّ حدث أثناء مسيرة أسطول ريتشارد فى البحر المتوسط أن جنحت السفينة التى تحمل برنجاريا على شاطئ جزيرة قبرص، فأسرها حاكم الجزيرة، ممّا جعل ريتشارد يقطع رحلته ليغزو قبرص ويدخلها فى دائرة الحروب الصليبية(٦٩)، على أنه يلاحظ أن ريتشارد وفيليب لم يفعلا أكثر من الاستيلاء على عكا سنة ١١٩١ ثمّ يافا وقيسارية، وبعد ذلك عاد فيليب الثانى ملك فرنسا إلى بلاده(٧٠)، فى حين قام ريتشارد فى الأراضى المقدسة ببعض أعمال البطولة التى خلدت اسمه ضمن زعماء الحروب الصليبية، وإن كان قد فشل فى الاستيلاء على بيت المقدس، وأخيرا انتهى الأمر بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد سنة ١١٩٢، وفيه تمّ الاتفاق على أن يقتسم الصليبيون والمسلمون اللد والرملة، وأن تهدم عسقلان لتكون منطقة حرام بين الطرفين، على أن يحتفظ الصليبيون بساحل الشام بين صور ويافا، فى حين يظل باقى فلسطين - بما فيه بيت المقدس - فى أيدى المسلمين الذين تعهدوا بالسماح للمسيحيين بالحج والزيارة(٧١).

---

(67) Runciman: op. cit. Vol. 3, p. 15.

(68) Adams: op. cit. p. 368.

(٦٩) انظر كتاب (قبرص والحروب الصليبية) للمؤلف - ٢٦ - ٢٧.

(70) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 105.

(71) Grousset: op. cit., Tome 3, pp. 116 - 117.

ومع أن صلاح الدين توفى سنة ١١٩٣ إلا أن ذلك لم يؤد إلى تطورات مهمة بالنسبة للموقف فى الأراضى المقدسة، ويبدو أن زمن تحالف القوى الأوربية العظمى من أجل الغرض الصليبى انتهى بانتهاء الحملة الصليبية الثالثة، بعد أن أخذت العلاقات تشتد بين دول أوربا وحكّامها؛ ممّا أدى إلى عدم ظهور اتفاقيات جديدة بين ملوك أوربا بقصد الاشتراك فى حرب مقدسة(٧٢)، وليس معنى ذلك أن تيار الحروب الصليبية قد توقف، وإنما اعتراه الفتور منذ أوائل القرن الثالث عشر نتيجة لتغلب المصالح الدنيوية على الأغراض الدينية. وإذا كانت جموع الحجاج والصليبيين قد استمرت فى طريقها إلى الأراضى المقدسة بعد الحملة الصليبية الثالثة، فإن هذه الجموع كانت صغيرة وغير كافية لإصلاح موقف الإمارات الصليبية فى الشرق.

الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر:

على أن البابوية كانت لا تستطيع السكوت عن بقاء بيت المقدس فى أيدى المسلمين، لا سيما بعد أن نجح السلطان العادل سيف الدين أبو بكر - وهو العادل الكبير أخو صلاح الدين - ، فى جمع البيت الأيوبى وتحقيق سيادته العليا على مصر والشام لمواجهة الصليبيين صفا متراصا(٧٣)؛ لذلك فكر البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) فى إنفاذ حملة صليبية إلى الشرق، على أن تبدأ هذه الحملة أولا بمصر التى أثبتت الحوادث أنها مركز قوة المسلمين فى الشرق الأدنى ومنبع مقاومتهم وأكبر مورد يستمدون منه طاقتهم فى جهادهم ضدّ الصليبيين، وكان المفروض أن تحمل سفن البندقية جيوش الصليبيين إلى مصر فى سبيل نصرة الغرض الصليبى(٧٤)؛ لذلك ماطل البنادقة جموع الصليبيين المحتشدين فى البندقية حتّى أنفقوا ما معهم من أموال، وعندئذ لم يجدوا الأجر الكافى المتفق على دفعه للبندقية نظير نقلهم إلى مصر، وكان أن وافق البابا على عمل مشين؛ هو قيام الصليبيين بغزو مدينة زارا على ساحل دالماشيا التى كان الهنغاريون قد استولوا عليها أخيرا، وإعطائها للبندقية ثمنا لنقل الصليبيين إلى مصر، وفعلا تمت هذه الخطوة، سنة ١٢٠٢، ونهب الصليبيون زارا، وهى المدينة المسيحية، ممّا يعتبر فاتحة فصل جديد فى تاريخ

(72) Runciman: op. cit. Vol. 3, p. 76.
(73) Grousset: op. cit., Tome 3, pp. 164 - 166.
(74) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 415 - 416.

الحروب الصليبية أخذت فيه الحروب الصليبية تتجه ضدّ المسيحيين بدلا من المسلمين، وزاد الموقف سوءا أنّ زارا لم تكد تقع فى أيدى الصليبيين حتى دبّ الخلاف بينهم وبين البنادقة حول اقتسام الغنائم المسيحية، وتحول الخلاف إلى نزاع مسلح انتهى باتفاق سريع بين الطرفين[٧٥]، وفى الوقت الذى استعد الصليبيون للإبحار نحو مصر إذا بثورة تنشب فى القسطنطينية لتؤدى إلى خلع إسحق الثانى وفرار ابنه ألكسيوس إلى الغرب طالبًا مساعدة البابوية وجموع الصليبيين[٧٦]، أمّا الثمن الذى تعهد ألكسيوس بدفعه مقابل هذه المساعدة فكان مغريا حقا، إذ يتلخص فى إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية فضلا عن مساعدة الصليبيين فى حملتهم ضدّ مصر، ومن الطبيعى أن يصادف هذا العرض قبولا من البابوية، فى الوقت الذى وجدت فيه البندقية تحقيقا لفوائد مادية ضخمة[٧٧]؛ وهكذا تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأساسى ورسالتها الدينية، فاستولى الصليبيون على القسطنطينية سنة ١٢٠٤، ودخلوها كالجراد المنتشر، فلم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة إلا نهبوها، ولم يتركوا أثرا فنيا أو أدبيا إلا أفسدوه، حتى شبع منهم من كان جائعا واغتنى من كان فقيرا، حتّى الكنائس والأديرة لم تنج من عبث الصليبيين ولم تسلم من أيديهم، وهم الذين حملوا شارة الصليب وادعوا خدمة الدين ومحاربة أعداء الدين[٧٨] وليس هناك شك فى أن هذه كانت أخطر ضربة نزلت بالقسطنطينية منذ تأسيسها، حتّى أن الدولة البيزنطية لم تفق من أثرها حتّى سقوطها فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣.

وبعد أن انتهى الصليبيون من دور النهب والسلب، أخذ زعماء الحملة يوزعون الأسلاب والغنائم، فخرجت البندقية بنصيب الأسد؛ إذ فازت بربع القسطنطينية مع بعض الجزائر المهمة مثل: كريت وأيوبيا وغيرهما من الموانئ المطلة على البحر الأدرياتى[٧٩]، أمّا بقية الإمبراطورية فقد وزعت وفق العقلية الإقطاعية الغربية بين الأمراء[٨٠]، وانتخب بلدوين دى فلاندرز إمبراطورا، وبذلك قامت الإمبراطورية

---

(٧٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٣٤ (الطبعة الرابعة).

(76) Ostrogorsky: op. cit. pp. 368 - 369.

(77) Idem.

(78) Vasiliev: op. cit. Tome 2, pp. 111 - 112.

(79) Idem: p. 114.

(80) Ostrogorsky: op. cit. pp. 376 - 377.

اللاتينية فى القسطنطينية لتستمر حتّى سنة ١٢٦١[٨١]، وإذا صرفنا النظر عن الدلائل المادية والسياسية للحملة الصليبية الرابعة، فإننا نجد ـ من الناحية الأدبية ـ أن هذه الحملة ارتكبت جرما بالغا لا يغفره التاريخ فى حق الحضارة الأوربية وفى حق الفكرة الصليبية ذاتها، هذا علاوة على أن ما فعله رجال الحملة الرابعة أثبت أن البيزنطيين كانوا علي حق عندما نظروا منذ أول الأمر إلى الحروب الصليبية على أنها غزوات بربرية همجية[٨٢]، ونستطيع أن نقرر أن الحملة الصليبية الرابعة تعتبر نقطة تحول مهمة فى تاريخ الحروب الصليبية، بصرف النظر عن نتائجها الخطيرة بالنسبة للتاريخ الأوربى بوجه عام [٨٣]، إذ فترت بعدها الحماسة الصليبية واتضح جليا أن المصالح الاقتصادية والدنيوية أخذت تحتل المكانة الأولى فى سياسة المعاصرين.

ومن أغرب الحملات الصليبية التى شهدها القرن الثالث عشر بعد ذلك حملة الأطفال، إذ اجتمع عدد ضخم ـ قدره المعاصرون بثلاثين ألفا ـ من أطفال فرنسا وألمانيا وغيرهما سنة ١٢١٢ وطلبوا الذهاب إلى الأراضى المقدسة لمحاربة المسلمين، بعد أن ادعى صبى يشتغل برعى الغنم ـ اسمه ستفن ـ أنه رأى رؤيا، يأمره فيها السيد المسيح بالخروج للمشاركة فى الحروب الصليبية، وقد اعتقد كثيرمن رجال الدين المعاصرين أن هؤلاء الأطفال الأبرياء السذج سيأتون من الأعمال والمعجزات ما عجز عنه الكبار؛ ولكن الأمر انتهى بأن أخذ تجار البندقية هذه الآلاف من الأطفال ليبيعوهم فى أسواق الرقيق فى تونس والشرق[٨٤].

أمّا الحملة الصليبية الخامسة التى وضع مشروعها البابا أنوسنت الثالث ثمّ البابا هنريوس الثالث (١٢١٦ – ١٢٢٧) من بعده، فقد اتجهت نحو مصر «رأس الأفعى» للقضاء على قوة الملك العادل سيف الدين الأيوبى، وكان أن نجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩، ولكن أمر الحملة انتهى بالفشل بسبب الخلافات بين الصليبيين من جهة وما ارتكبوه من أخطاء فنية أثناء زحفهم من دمياط نحو القاهرة

---

(81) Painter: A Hist, of the Middle, Ages, p. 216.

(82) Eyre: op. cit. pp. 197 - 198.

(83) Runciman: op. cit. Vol. 3, pp. 130 - 131.

(٨٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٥٣ – ٧٥٣ (الطبعة الرابعة).

من جـهـة أخـرى. وهكذا تمّ جـلاء الصليـبـيين عن دمـيـاط دون قـيـد أو شـرط سنة ١٢٢١(٨٥).

على أن هذا الفشل الذى مُنيت به الحروب الصليبية بعد الحملة الثالثة زاد من غضب البابوية ورغبتها فى القيام بعمل حاسم ضدّ المسلمين، لذلك أخذ البابا يحث الإمبراطور فردريك الثانى على القيام بحملة صليبية، كما سهل له الزواج من وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة خاصة فى الذهاب إلى الشرق، وبعد أن ماطل الإمـبـراطور طويلا، خـرج على رأس جـيش صـغـيـر وهو مـحـروم من الكنيـسـة سنة ١٢٢٨(٨٦)، وكان أن تمكن فردريك الثانى من عمل اتفاقية سلمية مع الملك الكامل الأيوبى، استرد بها الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم وشريطاً ساحليا ضيقا، على أن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى ويسمح لهم بالتردد عليه(٨٧).

ولكن الأمر لم يستقر بعد ذلك للصليبيين فى الأراضى المقدسة، إذ اتجهت جموع الأتراك الخوارزمية غربا تحت ضغط المغول حتّى استولوا على بيت المقدس ـ للمرة الأخـيـرة ـ سنة ١٢٤٤، وبذلك لم تعـد هذه المدينة مـرة أخـرى إلى قـبـضـة الصليبيين(٨٨)، وفى أكتوبر من السنة نفسها، تمكنت جيوش الصالح أيوب ـ تحت قيادة مملوكه بيبرس وبمساعدة الخوارزمية ـ من إنزال هزيمة بالصليبيين عند غزة، وكانت هذه الهزيمة ساحقة وشاملة، حتّى أسمّاها بعض المؤرخين «حطين الثانية»، إذ أنها أدت إلى تمزيق الجيش الصليبى شرّ ممزق ووقوع أفراده بين قتلى وأسرى، وبعد ذلك تمكنت جيوش الصالح أيوب من الاستيلاء على دمشق سنة ١٢٤٥ ثمّ على عسقلان سنة ١٢٤٧(٨٩).

أمّــا أوربا فكانت عندئذ فى شـغل شـاغل بحـوادث النزاع بين البـابوية والإمبراطورية من جهة، وبالمشاكل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية التى أخذت تزداد وضوحا فى القرن الثالث عشر من جهة أخرى، على أن هذه المشاغل لم تمنع واحدا من ملوك أوربا المتحمسين ـ وهو لويس التاسع ملك فرنسا ـ من القيام بحملة

---

(85) Grousset: op. cit., Tome 3, p. 244.
(86) Runciman: op. cit. Vol. 3, p. 179.
(87) Cam. Med, Hist. Vol. 5, pp. 314 - 315.
(88) Grousset: op. cit., Tome 3, p. 412.
(89) Idem: Tome 3, pp. 418 - 421.

صليبية جديدة ضدّ مصر سنة ١٢٤٩[٩٠]، ويبدو أن لويس التاسع لم يتعظ بماحدث للحملة الخامسة قبل ذلك بثلاثين سنة، فوقع فى الأخطاء نفسها التى تردت فيها تلك الحملة سنة ١٢١٩، ممّا أدى إلى هزيمة الفرنسيين وأسر لويس التاسع نفسه قرب المنصورة. وهكذا باءت الحملة الصليبية - السابعة التى قام بها لويس التاسع - على مصر بالفشل، ولم يطلق سراح القديس لويس نفسه إلا سنة ١٢٥٠ بعد أن دفع فداء كبيرا[٩١].

نهاية الحروب الصليبية:

وأخيرا أدرك غرب أوربا أن الثمن الذى يدفعه فى الحروب الصليبية باهظ لايعادل الفوائد التافهة التى حصل عليها[٩٢]، فأخذ الأوربيون يوجهون نشاطهم نحو ميادين أخرى أجدى عليهم وأنفع لهم، فى حين رأى البابوات أن يستغلوا ما تبقى من حماسة دينية عند الغربيين فى تحقيق مآربهم السياسية؛ وهكذا تركت الأراضى المقدسة لتصبح ميدانا للتنافس التجارى بين البنادقة والبيازنة والجنوية، هذا عدا ما استمر بها من منازعات بين الأمراء اللاتين وبين الهيئات الدينية العسكرية[٩٣].

ويبدو أن ما آل إليه أمر الصليبيين فى الأراضى المقدسة من ضعف وانحلال كان خير مشجع لسلاطين المماليك على الإجهاز عليهم، من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) من الاستيلاء على كثير من الحصون الصليبية على ساحل الشام وفى داخلها، حتّى سقطت أنطاكية فى يده سنة ١٢٦٨[٩٤]، كذلك استولى بيبرس على حصن الأكراد معقل الإسبتارية سنة ١٢٧١ كما أجبر إمارة طرابلس على دفع جزية، ثمّ كان أن استطاع السلطان قلاون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) الاستيلاء على طرابلس نفسها سنة ١٢٨٩ وبذلك لم يبق للصليبيين من المعاقل المهمة بالشام سوى عكا التى لم تلبث أن سقطت هى الأخرى فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١[٩٥].

---

(90) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 99.

(٩١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٤٢ وما بعدها.

(92) Painter: A Hist, of the Middle, Ages, p. 219.

(93) Cam. Med, Hist. Vol. 5, pp. 312 - 313.

(94) Runciman; op. cit. Vol. 3, p. 325.

(٩٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٣٠ - ٩٣٦ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦).

وهكذا دالت دولة اللاتين فى الأراضى المقدسة، فأخذت مختلف المنظمات والهيئات الصليبية كالفرسان التيتون، والداوية، والإسبتارية تبحث لها عن منفذ أو مأوى جديد، أمّا الفرسان التيتون فاتخذوا الجهات الوثنية فى شمال أوربا ميدانا لنشاطهم(٩٦)، فى حين استولى الإسبتارية على رودس سنة ١٣٠٩ واحتفظوا بها حصنا فى وجه الأتراك العثمانيين حتى أواخر القرن الخامس عشر، على أنه يبدو أن مثل هذه الفرص لم تتح للداوية؛ لأن ثروتهم وكبرياءهم أثارت حقد المحيطين بهم فتعرضوا لاضطهاد شديد فى أوائل القرن الرابع عشر حتّى اختفوا وتلاشى دورهم(٩٧)؛ وبذلك انتهت قصة الحروب الصليبية التى تعتبر من أبرز صفحات تاريخ التفاعل بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. حقيقة أن النشاط الصليبى ضدّ المسلمين - سواء فى مصر والشام وشمال أفريقية أو فى آسيا الصغرى أو فى إسبانيا - استمر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كما دأب البابوات على إصدار الأوامر بمقاطعة التجارة مع المسلمين واستغلوا موقع جزيرة قبرص وحماسة ملوكها من آل لوزجنان فى تنفيذ بعض أركان هذه السياسة(٩٨). ولكننا مع كل ذلك نستطيع أن نحكم بأن الحروب الصليبية بمعناها المحدود الضيق انتهت بنهاية القرن الثالث عشر.

وليس من العسيرعلينا أن نعلل فشل هذه الحروب بعد أن رأينا ما كان من سوء نظام الصليبيين، وعدم توحيد قيادتهم وكثرة المنازعات والحروب فيما بينهم وبين بعض وعدم تورعهم عن السلب والنهب أثناء زحفهم، فوق ما كانوا عليه من عدم تعاون مع الدولة البيزنطية بسبب تخوفها من نواياهم وأطماعهم(٩٩).

فالصليبيون تعرضوا فى الطريق البرى إلى الأراضى المقدسة للجوع والهلاك والموت، فلما أعرضوا عن هذا الطريق وأرادوا اتخاذ البحر طريقا لهم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم واقعين تحت رحمة المدن الإيطالية والبحرية، والتى عرفت بضعف الوازع الدينى والتى استغلت الحروب الصليبية لتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب الاقتصادية.

---

(96) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 333.

(97) Eyre: op. cit. pp. 473 - 474.

(٩٨) انظر كتاب (قبرص والحروب الصليبية) للمؤلف.

(99) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 536.

وأخيرا يأتى أهم الأسباب التى أفضت إلى فشل الحروب الصليبية، وهو تطور الأوضاع فى أوربا نفسها، فالحروب الصليبية نجحت فى أول أمرها عندما كانت أوربا تربطها فكرة واحدة هى فكرة الإمبراطورية العالمية والكنيسة العالمية، ولكن التفكك السياسى الذى أصاب وحدة الغرب نتيجة لظهور الملكيات القومية المتنافسة، كان العامل الرئيسى فى تصدع جبهة الحروب الصليبية، وهو الأمر الذى ظهر بعد ذلك بوضوح فى الخلاف بين فيلب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنجلترا أثناء الحملة الصليبية الثالثة(١٠٠)، والغريب أن هذا الانقسام الذى أصاب أوربا فى الغرب جاء فى الوقت نفسه الذى اتحد المسلمون فى الشرق وكونوا الجبهة الإسلامية المتحدة التى امتدت من أعالى الفرات حتّى مصب النيل لمواجهة الخطر الصليبى.

نتائج الحروب الصليبية وأثرها فى غرب أوربا:

ولكن إذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت فى تحقيق أهدافها الأولى، إلا أنها تركت أثرا بعيدا فى تاريخ أوربا وتطورها؛ ذلك أنها أدت من الناحية السياسية إلى إضعاف أمراء الإقطاع لأن كثيرا منهم احتاجوا إلى المال للمساهمة فى النشاط الصليبى فباعوا الحرية لكثير من أتباعهم والمدن التابعة لهم؛ ممّا أدى إلى تصدع النظام الإقطاعى من جهة وتحرر المدن وازدياد نفوذها، فضلاً عن ازدياد قوة الملوك من جهة أخرى(١٠١)، هذا إلى أن الحروب الصليبية أظهرت فى وضوح - لأول مرة - روح التنافس والفوارق بين مختلف الشعوب الأوربية كالفرنسيين والإنجليز والألمان، كما زادت من حدة الانقسام بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى(١٠٢)، أمّا البابوية فقد أتاحت لها الحروب الصليبية فرصة طيبة لإظهار زعامتها على العالم الأوربى وتأكيد هذه الزعامة ، من ثمّ أدت هذه الحروب إلى ازدياد سلطان البابوية واتساع نفوذها(١٠٣).

وفى الناحية الاقتصادية أدت الحروب الصليبية إلى تشجيع النشاط التجارى بين الشرق والغرب، إذ استغلت المدن الإيطالية هذه الحروب فى احتكار أحياء تجارية

---

(100) Eyre: op. cit. p. 194.

(101) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 598.

(102) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 330.

(١٠٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠١٠ - ١٠١٣.

بأكملها فى موانئ الشام ومدنها واتخذتها قواعد لمباشرة نشاطها التجارى(١٠٤)، على أن النشاط التجارى الذى أثارته الحروب الصليبية لم يقتصر على المدن الإيطالية وحدها بل أسهم فيه كثير من مدن غرب أوربا الأخرى مثل: مرسيليا وبرشلونة وبعض مدن الشمال، ولاشك فى أن هذه الثروة التى تدفقت على المدن الأوربية ساعدت على تقدم أساليب التجارة، والمحاسبة، ومسك الدفاتر، والأعمال المصرفية، وغيرها من النواحى المرتبطة بالنشاط التجارى(١٠٥).

ومن الناحية الاجتماعية ساعدت الحروب الصليبية على ظهور طبقات جديدة فى المجتمع الأوربى نتيجة لتناقص الأقنان وازدياد نفوذ البورجوازية وظهور نفوذ المدن، هذا إلى أن الثروة التى تدفقت على غرب أوربا كان لها أثرها فى زيادة السكان وتطور الحياة ولاسيما فى المدن حيث ظهر الاتجاه نحو الترف والتنعم، فأخذ الأوربيون مثلا يحاكون الشرقيين فى شغفهم بالاستحمام وعنايتهم بالحمامات كذلك يرجح أن أوربا عرفت عن طريق الحروب الصليبية حاصلات جديدة شرقية لم تسبق لها معرفتها(١٠٦).

ويميل بعض الكتاب إلى المبالغة فى النتائج الثقافية للحروب الصليبية فيقولون إن هذه الحروب ساعدت غرب أوربا على معرفة الكثير من علوم العرب فضلا عن معارف اليونانيين التى ترجمها العرب إلى لغتهم، على أننا مع اعترافنا بأهمية الحروب الصليبية فى ميدان التبادل الفكرى، إلا أنه ينبغى أن نذكر دائماً أن الصليبيين قدموا إلى الأراضى المقدسة محاربين لا طلاب علم، وأن ظروف إقامتهم فيها تطلبت اليقظة والحذر ممّا يستبعد معه تمتعهم بشىء من حياة الهدوء والاستقرار التى لا بد منها لمباشرة النشاط العلمى(١٠٧). وإذا كانت أوربا قد أخذت الكثير من علوم العرب فى عصر الحروب الصليبية فإنه من الأرجح أن تكون ميادين الاتصال فى إسبانيا وصقلية لا الأراضى المقدسة(١٠٨)، أمّا الحروب الصليبية فأثرها واضح فى أنها أتاحت للغربيين فرصة للوقوف على فن بناء الحصون العربية، وربما بعض أساليب الحياة العلمية عند المسلمين(١٠٩).

---

(104) Eyre: op. cit. p. 991.

(105) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 327 - 328.

(106) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 598 - 599.

(١٠٧) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٠٥ وما بعدها.

(108) Eyre: op. cit. p. 200.

(109) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 332.

الباب السابع عشر
إنجلترا بعد الغزو النورمانى

أثر الفتح فى إنجلترا:

تنظر الدراسات التاريخية الحديثة إلى الفتح النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦ على أنه أخطر من مجرد غزوة حربية قام بها فريق من المغامرين للسيطرة على بلد من البلاد وإدخاله تحت حكمهم، حقيقة أن غالبية هؤلاء المغامرين الذين نجحوا فى فتح إنجلترا وفدوا من نورمنديا، ولكنهم جروا فى ركابهم عددا كبيراً من الناطقين باللاتينية، وهؤلاء شاركوا فى عملية الفتح ثمّ أخذوا نصيبهم من الغنائم والأراضى المفتوحة وانتشروا فى البلاد ليتركوا أثرا أعمق من مجرد الأثر الحربى، هذا إلى أن النورمان أنفسهم الذين غزوا إنجلترا فى القرن الحادى عشر كانوا قد أصبحوا فعلاً قبل ذلك الغزو جزءا من الأمة الفرنسية الناشئة بعد أن استقروا فى نورمنديا وتأثروا بعوامل البيئة الجديدة وحضارتها، حتى صار الغزو النورمانى لإنجلترا فى حقيقة جوهره غزوا فرنسيا حضاريا[1]، ولاعجب فقد زود هذا الغزو إنجلترا بأسرة حاكمة فرنسية، وهيئة من النبلاء وكبار رجال الدين الفرنسيين، وطبقة من الناطقين بالفرنسية باشرت شئون الحكم والنشاط التجارى.

وهكذا نستطيع أن نقرر أن النتيجة الحقيقية للغزو النورمانى هى إخراج بريطانيا من عزلتها النسبية، وتقوية الصلات بينها وبين القارة، وجعلها عضوا عاملا فى تطور الحضارة الغربية، تتأثر بكل حركة حضارية مهمة تنشأ فى الغرب وتؤثر فيها، فالغزو النورمانى هو الذى أدى إلى تطور النظام الإقطاعى فى إنجلترا تطورا مشابها لما كان عليه الحال فى غرب أوربا وخاصة فى فرنسا، وبعبارة أخرى فإن هذا الغزو هو الذى أدى إلى تطور الأوضاع السياسية، والعسكرية، والاجتماعية فى إنجلترا تطورا مشابها لتلك الأوضاع التى عرفت فى غاليا[2].

وفى ركاب الحكّام والمحاربين النورمان، أتى رجال الكنيسة من المنتمين إلى أديرة فرنسا الشهيرة ليتركوا أثرا عميقا فى حياة الجزر البريطانية، وحسبنا أن لانفرانك

(1) Tout: France and England, p. 50.

(2) Idem: p. 56.

وأنسلم وثيوبالد ـ وهم الذين تولوا رئاسة أسقفية كانتربورى بالتتابع فى أوائل العصر النورمانى ـ كانوا جميعا ينتمون إلى دير بك Bec الشهير فى نورمنديا، هذا بالإضافة إلى أن حركة الإصلاح الكنسية التى ارتبطت باسم هلدبراند (جريجورى السابع) تدفقت مبادؤها ـ الخاصة بتحرير الكنيسة ورجالها من سيطرة الدولة وبتوسيع دائرة القانون الكنسى، واختصاصه ـ على إنجلترا عن طريق فرنسا، وقد نشأ من ذلك فى إنجلترا ـ بعد الفتح النورمانى ـ حركة إصلاحية كنسيّة واسعة، فأخذ كبار أساقفة كانتربورى يصطدمون بالملوك من خلفاء وليم الفاتح فى سبيل الاحتفاظ بكلمة الكنيسة وسيادته على شئونها، وبدأت روح جديدة تدب فى الديرية الإنجليزية وفق المثل التى سارت عليها الأديرة العظيمة فى فرنسا. وهكذا صار من اليسير أن تمتد حركة الإحياء الديرية ـ التى ظهرت فى أوائل القرن الثانى عشر ـ من فرنسا إلى إنجلترا على عهد هنرى الأول، فأَسست هيئتا السسترشيان، والكارثوسيان ـ وكلتاهما ولدت فى برجنديا ـ أولى مؤسساتهما الديرية فى إنجلترا بالذات(٣).

ومع الفتح النورمانى وصل إلى إنجلترا طراز فنى جديد هو الطراز الرومانسكى الذى عرفه الإنجليز باسم النورمانى، والذى حلّ محل الطراز الأنجلو سكسونى؛ وهكذا أخذت تنتشر فى أنحاء إنجلترا منذ القرن الحادى عشر الكنائس والأديرة الرومانسكية والقصور الرومانسكية الضخمة لتحل محل المبانى الأنجلو سكسونية الكئيبة المعتمة، وظل هذا الطراز الرومانسكى ـ أو النورمانى ـ سائدا فى إنجلترا حتّى ظهر الفن القوطى قرب منتصف القرن الثانى عشر لينتقل هو الآخر من فرنسا إلى إنجلترا(٤).

ويطول بنا الشرح لو حاولنا تتبع أثر الغزو النورمانى لإنجلترا فى مختلف الميادين كاللغة، والأدب، والحياة الاجتماعية، والنشاط الاقتصادى؛ ولذلك نكتفى بالإشارة إلى أن هذا الأثر كان عظيما، ففى الناحية اللغوية غدت الفرنسية لغة بلاط ملوك إنجلترا النورمان، وأخذت تتغلغل تدريجيا بين ثنايا لغة البلاد ذات الطابع السكسونى، حتّى نشأ عن الامتزاج بين اللغتين ـ فى أواخر القرن الرابع عشر ـ ما أصبح يعرف باللغة الإنجليزية، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الأثر الاجتماعى الذى نشأ عن الامتزاج بين

---

(3) Idem: p, 53.

(4) Idem: pp. 57 - 69.

الغزاة النورمان وأهالي البلاد الأصليين، مما ظهرت آثاره في نواحي الجنس، والتقاليد، والعادات.

ومهما يكن الأمر، فمن الواضح أن أعظم نتائج الفتح النورماني بالنسبة لإنجلترا ظهرت في الميدان السياسي، ويكفي أن هذا الفتح تمخض عن قيام أقوى دولة منظمة شهدتها أوربا في أوائل القرن الثاني عشر، ولا غرو، فقد استطاع النورمان أن يثيروا في جميع البلاد التي فتحوها ـ سواء كانت إنجلترا أو غير إنجلترا ـ قسطا من النشاط والحيوية ترك أثرا واضحا في تطورها التاريخي، وتبدو هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحا في تاريخ إنجلترا ذاتها، وهو التاريخ الذي تأثر إلى درجة عظيمة بالفتح النورماني سنة ١٠٦٦.

وليم الفاتح:

كان حكم وليم الفاتح لإنجلترا استبداديا مطلقا بكل معاني الكلمة بوصفه قائد الغزاة النورمان من جهة وحامي أهالي البلاد الأصليين من جهة أخرى، ومن ثمّ استطاع أن يؤكد سيطرته التامة على الفريقين(٥). والواقع أن أولى المهام التي واجهت وليم النورماني عقب نجاحه في غزو إنجلترا كانت العمل على توطيد نفوذه ودعم سلطان الملكية دعما قويا لم تعهده البلاد من قبل. ولتحقيق ذلك أخضع الثورات والفتن التي نشبت ضده وأهمها ثورة في شمال إنجلترا سنة ١٠٧٠ كما قام بإحصاء شامل لثروة البلاد وتوزيعها، وعدد الأفراد وممتلكاتهم، وهو الإحصاء الشهير المعروف باسم Domesday Book (٦)، وقد مكن هذا الإحصاء وليم الفاتح من الوقوف على أحوال بلاده بدرجة لم تتح لملك آخر من ملوك أوربا العصور الوسطى، كما يعتبر مصدرا أساسيا مهمًا في دراستنا التاريخية لأحوال إنجلترا في تلك العصور. وهكذا استطاع وليم الفاتح أن ينظم حكومة إنجلترا تنظيما إقطاعيا امتاز بالحيوية والقوة، فأعلن نفسه المالك لجميع أراضي البلاد بحق الفتح(٧)، وصادر أراضي من قاومه من أمراء السكسون، ووزعها على أتباعه النورمان في هيئة منح صغيرة مع مراعاة عدم تكتل أراضي أي أمير في منطقة واحدة(٨)، ومن هذا يبدو كيف حرص وليم الفاتح

(5) Orton: op. cit. p. 191.

(6) Adams: The Hist. of England, pp. 67 - 68.

(7) Stephenson: Med. Hist. p. 250.

(8) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 506.

على إضعاف نفوذ كبار الأمراء كما فرض على أفصال هؤلاء الأمراء أن يقسموا يمين الولاء والتبعية للملك مباشرة، وكان لملوك إنجلترا قبل الفتح النورمانى مجلس استشارى يضم بعض رجال الدين والنبلاء، ولكن هذا المجلس كان مفككا، فاستبدل به وليم الفاتح مجلس الملك Curia Regis الذى تألف من كبار الأمراء - وهم أفصال الملك الإقطاعيون - وجعل اختصاصه قضائيًا زيادة على بعض الأعمال الأخرى، وفقما تقضى التقاليد الإقطاعية السائدة فى نورمنديا[9]، ولمّا كان هذا المجلس الكبير يجتمع عادة فى فترات متقطعة متباعدة، فإن الملك أنشأ هيئة أخرى أصغر تجتمع بصفة مستمرة منتظمة، كما عين على رأس الجهاز القضائى موظفا دائما Justiciar .

أمّا عن موقف وليم الفاتح من الكنيسة فيلاحظ أنه على الرغم من المساعدة التى لقيها من البابوية إلا أنه رفض أن يقسم يمين التبعية للبابا جريجورى السابع، وأن يحكم إنجلترا كإقطاع من البابوية [10]، كذلك رفض وليم الأول نشر المراسيم البابوية أو السماح للبابا بتوقيع قرار الحرمان ضدّ كبار نبلائه دون استئذانه والحصول على موافقته؛ وهكذا مضى وليم الفاتح فى طريقه يعين الأساقفة ومقدمى الأديرة فى إنجلترا، غير عابئ بغضب البابوية واحتجاجاتها، على أنه من الإنصاف أن نذكر أن وليم شمل الكنيسة فى إنجلترا بعطفه ،عمل على دعمها، فخول المحاكم الكنسيّة حق الفصل فى المخالفات الدينية التى يرتكبها العلمانيون، بعد أن كانت دور القضاء المحلية هى التى تفصل فى هذا النوع من المخالفات[11]، كذلك عين لانفرانك - راهب ديربك Bec الشهير - رئيسا لأسقفية كانتربورى وساعده على تنفيذ الإصلاحات الدينية التى نادى بها هلدبراند، كما شجع الديرية وأسس مدارس جديدة يشرف عليها مدرسون من النورمان[12].

وليم الثانى وهنرى الأول:

أمّا وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠) فقد تطرف فى معاملة الكنيسة؛ ممّا هدد بوقوع صدام عنيف بين الطرفين، لولا وفاة لانفرانك، على أن أنسلم - رئيس أساقفة

(9) Stephenson: Med. Hist. p. 251.

(10) Adams: op. cit. p. 49.

(11) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 515 - 516.

(12) Adams: op. cit. pp. 43 - 46.

كانتربورى التالى - أصرّ على مبدأ سمو الكنيسة حتّى أنه فضل ترك البلاد بمحض اختياره على التنازل عن رأيه[١٣]. وهكذا أوشكت العلاقات بين الكنيسة والدولة فى إنجلترا أن تنذر بصدام عنيف يساير تيار الصدام الذى اشتد بين البابوية والإمبراطورية فى ذلك العصر حول التقليد العلمانى، وإذا كانت هذه المشكلة قد أمكن حلها بسهولة فى إنجلترا، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى هنرى الأول[١٤]، الذى تولى الحكم بعد ذلك (١١٠٠ - ١١٣٥) فدعا أنسلم إلى العودة إلى إنجلترا لمحاولة إصلاح الموقف. وقد أبى أنسلم عند عودته أن يقدم فروض التبعية للملك عن أراضى الكنيسة، كما رفض أن يعترف بالأساقفة الذين عينهم هنرى فى مناصبهم،وأخيرا تمّ الاتفاق على حلٍ صورى يتضمن اعتراف الأساقفة بالتبعية للملك فى الشئون الدنيوية، مقابل تنازل الملك عن حق تقليد الأساقفة مهام مناصبهم الدينية[١٥].

وكان هنرى الأول إداريا ممتازا وحاكما قويا، فأخضع ثورة قام بها البارونات فى إنجلترا، كما غزا نورمنديا وقبض على أخيه الثائر[١٦]، أمّا إنجلترا فتمتعت فى عهده بالسلام والأمن بعد أن عمل هنرى على تركيز الأداة الحكومية فى ظلّ إدارة مركزية قوية، ذلك أنه جعل للمجلس الملكى صفة مالية، وأصبح المشرفون الإداريون (Sheriff) الذين يمثلون الملك فى مختلف الأقاليم، يحضرون سنويا أمامه لتقديم حصيلة ما جمعوه من ضرائب، كذلك خصص هنرى الأول بعض أعضاء هذا المجلس للطواف فى أنحاء البلاد والإشراف على الموظفين الإداريين والعمل على توطيد سلطان الملكية[١٧].

هنرى الثانى:

وقد أعقبت وفاة هنرى الأول فترة نزاع وحروب أهلية سببها الخلاف حول وراثة العرش، حتّى انتهت بقيام هنرى الثانى فى الحكم (١١٥٤ - ١١٨٩). وامتاز هذا الملك الجديد بالذكاء، والطموح، وقوة العزيمة، فنشر الأمن فى إنجلترا ومنع الأمراء

---

(13) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 526.

(14) Tout: France and England, p. 54.

(15) Adams: op. cit. p. 147.

(16) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 184.

(17) Adams: op. cit. p. 147.

من شحن حصونهم بالمقاتلين دون إذنه، كما حطم كثيرا من هذه الحصون الإقطاعية، وقد وضع هنرى الثانى نظاما إداريا يستهدف إصلاح الإدارة لا فى إنجلترا فحسب، بل فى بقية ممتلكات إنجلترا أيضًا فى القارة(١٨). كذلك أدخل هنرى الثانى بعض الإصلاحات المالية والقضائية، وأهمها التوسع فى تحليف الأهالى عند الإدلاء بشهادتهم أمام القضاء، فكان اثنا عشر رجلا يقسمون مشتركين على التصريح بما يعرفونه عن الجرائم المحلية، ممّا يعتبر أصلا لنظام المحلفين الذين اشتهر به القضاء الإنجليزى(١٩).

على أن هنرى الثانى لم يصادف توفيقا فى حل المشاكل المترتبة على ازدياد نفوذ رجال الدين، ذلك أن الكنيسة فى إنجلترا استغلت فرصة الحروب الأهلية التى أعقبت وفاة هنرى الأول وضاعفت من نفوذها وممتلكاتها، وساعدها على ذلك ازدهار القانون الكنسى فى القرن الثانى عشر ممّا زاد من سلطان المحاكم الدينية، حتّى أصرّ رجال الدين على ألا يحاكموا إلا أمام المحكام الكنسية وحدها(٢٠)؛ لذلك اختار هنرى الثانى لمنصب رئيس أساقفة كانتربورى صديقه ومستشاره الوفى توماس بكت، مؤملا أن يؤدى هذا الاختيار إلى إحكام سيطرته على رجال الدين، على أن بكت لم يكد يتولى هذا المنصب حتى أظهر تمسكه الشديد بحقوق الكنيسة وسموها وسيادة القانون الكنسي، وقد استمر بكت يقاوم هنرى الثانى حتى أعياه الأمر فنزح أخيرا إلى فرنسا حيث أقام ست سنوات، وجد فيها تشجيعا من ملكها لويس السابع(٢١)، وأخيرا استرضى هنرى الثانى بكت فعاد إلى إنجلترا ليصدر فور وصوله قرار الحرمان ضدّ بعض الأساقفة الذين ناصروا الملك، وعندما علم هنرى الثانى بهذا الخبر اعتراه الغضب ودفعته ثورته إلى توجيه اللوم إلى فرسان بلاطه الذين لم ينتقموا له من «هذا القسيس المشاغب»، وكان أن استثارت تلك الألفاظ أربعة من فرسان الملك فهجموا على بكت وقتلوه فى كاتدرائية كانتربورى(٢٢)، وقد أثار مقتل بكت على هذه الصورة ثورة

(18) Tout: France and England, p. 68.

(19) Adams: op. cit. pp. 322 - 323.

(20) Stephenson: Med. Hist. p. 422.

(21) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 251.

(22) Adams: op. cit. p. 295.

الرأى العام الذى اعتبره قديسًا وشهيدًا، واضطر هنرى الثانى أن يحنى رأسه أمام الزوبعة فأقسم على أنه برىء من دم بكت ، كما وعد باحترام حقوق الكنيسة ورجالها وأن يسمح باستئناف القضايا أمام المحكمة البابوية[٢٣].

أمّا سياسة هنرى الثانى الخارجية فلم يوفق فيها هى الأخرى، ذلك أنه أجبر الولشيين فى ويلز على الاعتراف بسلطة الملك وسيادته ، ولكنه فشل فى السيطرة على نبلائه فى أيرلندا، وهم الذين رفضوا الاتحاد فى ظلّ حكومة مركزية، وواصلوا اعتداءاتهم على الأيرلنديين وإساءة معاملتهم ممّا جعل الجزيرة مسرحا للفوضى والاضطرابات [٢٤]، وقد ازداد نفوذ هنرى الثانى ازديادا كبيرا فى القارة بعد أن زوج بناته الثلاث من دوق سكسونيا، وملك قشتالة، وملك صقلية على التوالى، ممّا أدى إلى نتائج بعيدة المدى فى السياسة الأوربية[٢٥]. أمّا فيما يتعلق بأملاكه فى فرنسا فإن هنرى الثانى اضطر إلى إخضاع الأمراء الإقطاعيين الذين ثاروا بتحريض من لويس السابع ثم فيليب أوغسطس ملكى فرنسا، وقد لجأ هنرى الثانى إلى تقسيم ملكه بين أبنائه الثلاثة على أن تكون إنجلترا ونورمنديا لابنه الأكبر هنرى، وإكوتين لابنه الثانى ريتشارد، فى حين تزوج ابنه الثالث جيوفرى من وريثة بريتانى ممّا أدى إلى ربط هذا الإقليم الأخير بالتاج الإنجليزى[٢٦]، ولكن حدث سنة ١١٧٣ أن ثار أبناء هنرى الثانى وهم: هنرى، وريتشارد ،وجيوفرى ضدّ أبيهم، وشاركهم فى ثورتهم كثير من أمراء إنجلترا والممتلكات الإنجليزية فى فرنسا، ولكن هنرى الثانى أخضع أمراء إنجلترا الثائرين وقبض على ملك سكتلندا الذى ساندهم وأجبره على الدخول فى تبعية التاج الإنجليزى، أمّا أبناؤه فقد صالحهم حتى توفى اثنان من هؤلاء الأبناء فى حين عاد ريتشارد إلى الثورة سنة ١١٨٨ بتحريض من فيليب أوغسطس ملك فرنسا[٢٧]، ويبدو أن هذه الأحداث أثرت فى نفس هنرى الثانى فى وقت أدركه الكبر، ممّا عجل بوفاته فى العام التالى (١١٨٩)[٢٨].

---

(23) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 566.

(24) Adams: op. cit. pp. 279 - 299.

(25) Stephenson: Med. Hist. p. 523.

(26) Orton: op. cit. p. 248.

(27) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiere Partie, pp. 90 - 92.

(28) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 572.

ريتشارد الأول:

ثمّ كان أن خلف ريتشارد الأول أباه في الحكم (١١٨٩ - ١١٩٩) وعُرف هذا الملك الجديد بشجاعته وحبه لأعمال البطولة والقتال مع اتصافه بالعنف والقسوة. وفى خلال السنوات العشر التى تولى فيها الحكم لم يقض فى إنجلترا أكثر من سنة، إذ تردد عليها مرتين قضى فى كل مرة بضعة أشهر لجمع الأموال[٢٩]، ذلك أنه بعد الاحتفال بتتويجه الذى تمّ مصحوبا بسفك دماء اليهود القادمين لتقديم الهدايا له[٣٠]، أبحر ريتشارد إلى الأراضى المقدسة ليشترك فى الحملة الصليبية الثالثة، على أن سوء النوايا لم يلبث أن استحكم بين ريتشارد وفيليب أوغسطس فى الأراضى المقدسة، فعاد الأخير إلى فرنسا وعاد الأول إلى إنجلترا ليجمع الأموال ويستعد لمنازلة ملك فرنسا، عندما أكمل ريتشارد استعداداته أبحر إلى فرنسا حيث حارب ببطولة لإنقاذ ممتلكات التاج الإنجليزى فى فرنسا، حتّى انتهى الأمر بإصابته بجرح خطير فى ليموسان ووفاته متأثرا بجراحه سنة ١١٩٩[٣١].

الملك حنا والعهد الأعظم:

وقد خلف ريتشارد أخوه حنا (١١٩٩ - ١٢١٩) الذى استطاع غريمه فيليب أوغسطس سلبه معظم أملاكه فى فرنسا سنة ١٢٠٤ كما سبق أن ذكرنا وعلى الرغم ممّا عُرف به حنا من عنف، وقسوة، وسوء تدبير، وعدم مقدرة، وتهور إلا أن أخطاءه الكبرى جعلته يحتل مكانة بارزة فى التاريخ[٣٢]، ذلك أنه حدث سنة ١٢٠٥ أن انتهز رجال الدين فى إنجلترا فرصة شغور منصب رئيس أساقفة كانتربورى وتحايلوا ليتجنبوا تدخل الملك فى انتخابهم، فاختاروا - سرا - رئيسا لأساقفة كانتربورى، وأرسلوه - دون أن يعلم الملك - إلى روما ليقلده البابا أنوسنت الثالث مهام منصبه رسميا[٣٣]، وفى تلك الأثناء عيِن الملك حنا رجلا آخر لشغل هذا المنصب وأرسله أيضاً إلى روما حيث التقى مع منافسه، فأعرض البابا عنهما جميعا وعين ستفن لانجتون رئيسا لأساقفة

---

(29) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 266.
(30) Coulton: Life in the Middle Ages, Vil. 2, pp. 31 - 33.
(31) Adams: op. cit. pp. 378 - 386.
(32) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 218 - 219.
(33) Stephenson: Med. Hist. pp. 430 - 431.

كانتربورى، وكان أن رفض الملك قبول ستفن فى هذا المنصب، ممّا أثار سوء تفاهم بينه وبين البابوية، حتّى انتهى الأمر بأن أصدر البابا قرار الحرمان ضده سنة ١٢٠٨ لقسوته وقتله رجال الكنيسة(٣٤)، ولم يلبث البابا أنوسنت الثالث أن أعلن عزل الملك حنا وأباح لرعاياه التحرر من طاعته والولاء له، فردّ حنا على ذلك بالاستيلاء على جميع أملاك الكنيسة فى إنجلترا، وقد ظلّ الموقف معلقا بين الملك حنا والبابوية خمس سنوات، وكان من الممكن أن يستطيع حنا الثبات فى موقفه لو أنه محبوب من شعبه، ولكن أساليبه التعسفية جعلته مكروها لا يستطيع الاعتماد على أمرائه فى الداخل وفى ذلك الوقت أخذ فيليب أوغسطس يستعد لغزو إنجلترا بتحريض من البابوية وأعدّ لذلك أسطولاً ضخما من ألف وخمسمائة سفينة، (١٢١٢ - ١٢١٣) (٣٥) وهكذا اضطر الملك حنا إلى الإذعان أخيرا، (سنة ١٢١٣) لرغبة البابا فقبل ستفن لانجتون رئيسا لأساقفة كانتربورى، ورد أراضى الكنيسة المصادرة ، كما اعترف بسيادة البابوية تعهد بتقديم مبلغ سنوى لها رمزا لهذه التبعية(٣٦).

وبعد ذلك انضم حنا إلى الحلف الكبير الذى ألفه الإمبراطور أوتو الرابع وكونت فلاندرز ضدّ فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وعندما رفض أمراء إنجلترا مساعدة ملكهم فى حربه الجديدة، أبحر هو إلى فلاندرز على رأس طائفة من الجند المأجورين(٣٧)، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى بلاده بعد أن أنزل فيليب أوغسطس الهزيمة بجيوش الحلفاء فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ . وكان استياء البارونات الإنجليز قد بلغ أشده عندئذ، ولاسيما عندما طالب حنا بفرض ضريبة جديدة تساعده على استئناف الحرب ضدّ فرنسا(٣٨)؛ لذلك تكتل الأمراء وقدموا قائمة بمطالبهم إلى الملك حنا الذى أخذ يماطل فى أول الأمر حتّى استكشف عجزه عن إغراء رجال الكنيسة أو أهالى لندن بمساعدته، وعندئذ احتل البارونات لندن واضطروا الملك حنا إلى الموافقة على العهد الأعظم ودمغه بالخاتم الملكى فى ١٥ يونية سنة ١٢١٥ .

والواقع أن العهد الأعظم هذا لا يعتبر وثيقة جديدة فى موضوعها تحقق الحرية

(34) Adams: op. cit. p. 419.

(35) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 162.

(36) Stephenson: Med. Hist. pp. 431 - 432.

(37) Barraclough: op. cit. p. 213.

(38) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244 - 245.

للشعب، كما يبدو لأول وهلة، وحسبنا أن العهد الأعظم لم يتعرض لذكر أهل الريف الذين ألفوا ثلاثة أرباع سكان إنجلترا فى ذلك الوقت، وربما كان أقرب إلى الصواب أن نعتبر العهد الأعظم وثيقة إقطاعية تتجه فى جوهرها نحو تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الأمراء الإقطاعيين(٣٩). ذلك أنه أورد حقوق الأمراء القديمة مفصلة، كما نصَّ على احترام حقوق الكنيسة ولاسيما فيما يتعلق بانتخاب القساوسة، وحرم على الملك جمع إتاوات دون موافقة المجلس الكبير، باستثناء عدة حالات مثل أسر الملك أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارسا أو زواج كبرى بناته(٤٠)، أمّا لندن وغيرها من المدن فقد ضمن لها العهد الأعظم حقوقها وامتيازاتها القديمة، كما سمح للتجار بدخول البلاد ومباشرة نشاطهم دون أن يتعرضوا لشيء من الإزعاج والمضايقات، وفى حالة استيلاء الدولة على بعض الممتلكات للصالح العام، فإن أصحابها يجب أن يعوضوا تعويضا كافيا، أمّا فى الناحية القضائية فقد نص العهد الأعظم على عدم الاكتفاء بالشبهات والأقاويل لإلصاق تهمة بشخص معين، وإنما يتحتم أن يأتى الشهود بأدلة دامغة على هذه التهمة، كذلك نص على أن تتناسب العقوبة مع الجريمة مع إبطال بعض العقوبات الوحشية(٤١).

على أن أهم مادتين فى العهد الأعظم هما: المادة التاسعة والثلاثون والمادة الأربعون، أمّا المادة التاسعة والثلاثون فتنص على أنه لا يجوز القبض على أى شخص حر أو سجنه أو سلبه ممتلكاته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه أو إيذائه بأى وجه من الوجوه إلا بعد محاكمته أمام محكمة من أنداده وفق أحكام القوانين المعمول بها(٤٢)، وأمّا المادة الأربعون فيتعهد فيها الملك بألا يبيع حقا لأحد الأفراد أو ينكره أو يماطل فيه، وربما كان أهم من هذا كله ما يفهم ضمنا من العهد الأعظم من أن الملك خاضع للقانون، وأن القانون فوق الملك الذى لا يملك حق الخروج عليه، فإذا حاول الملك الخروج على القانون وجب استعمال القوة لإخضاعه(٤٣)، والواقع أنه على الرغم من عدم استطاعة البارونات استخدام القانون ضد الملك، وعلى الرغم من أن

---

(39) Idem: p. 438.

(40) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 269.

(41) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 245 - 246.

(42) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 269.

(43) Adams: op. cit. p. 439.

نظرية (القانون فوق الملك) كثيرا ما تتوسيت، إلا أنها ظلت دائما تمثل ركنا مهما فى الدستور البريطانى، كما ظلّ العهد الأعظم يذكر ملوك إنجلترا على الدوام بأن ملكيتهم «مقيدة»[٤٤].

على أنه لا الملك حنا ولا نبلاؤه أظهروا احتراما لشروط العهد الأعظم، فلم يلبث بارونات الشمال أن هاجموا الأراضى الملكية، وعندئذ شكا حنا للبابا الذى سانده، فأصدر قرار الحرمان ضدهم، وقد ظلّ الملك يحارب هؤلاء البارونات الخارجين حتّى توفى فى العام التالى - أى سنة ١٢١٦ - بسبب إفراطه فى الطعام والشراب![٤٥].

هنرى الثالث:

ثم خلف حنا ابنه هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) الذى كان عند وفاة أبيه فى التاسعة من عمره، فقامت عنه بأعباء الحكم مجموعة قديرة من البارونات وكبار الأساقفة، وعندما تولى هنرى الثالث السلطة الفعلية سنة ١٢٢٧، عادت إنجلترا مرة أخرى تعانى مساوئ حكم ضعيف، إذ أخذت تجبى أموالا طائلة من رجال الدين الإنجليز برسم الحروب الصليبية، ممّا جعل ثروة البلاد تتسرب إلى خزينة البابوية حتى أثار ذلك الوضع سخط الإنجليز جميعا من علمانيين ودينيين[٤٦]، أمّا الملك فكان أداة طيعة فى أيدى ندمائه وأصفيائه، وبدأ عجزه واضحا عن كبح شهواته وفى تحقيق مشروعاته الحربية الجوفاء وخاصة ضدّ ملك فرنسا[٤٧]، وزاد الطين بلة ترحيب هنرى الثالث بالأجانب وإغداقه عليهم، فأتى الكثيرون من بروفانس وسافوى وغيرهما إلى إنجلترا لينعموا على حساب أهالى البلاد، هذا فى الوقت الذى أخذ هنرى الثالث ينفق كثيرا من الأموال لرشوة الألمان حتّى ينتخبوا أخاه ريتشارد إمبراطورا، فضلا عن مساعدته للبابوية فى حربها ضدّ مملكة صقلية بعد أن وعدته البابوية بإعطاء عرش هذه المملكة لثانى أبنائه أدموند[٤٨]، وعندما اشتددت حاجة هنرى الثالث إلى المال، لم يجد مفرا من الالتجاء إلى البرلمان - وهو الاسم الذى بدأ يطلق على المجلس الكبير - طالبا منه المعونة (١٢٥٨).

---

(44) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 270.

(45) Adams: op. cit. pp. 441 - 447.

(46) Stephenson: Med. Hist. pp. 478 - 479.

(47) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiere Partie, pp. 228 - 288.

(48) Orton: op. cit. ps. 320 - 328.

ولم يلبث أن اضطر هنرى الثالث إلى أن يحنى الرأس أمام البرلمان، فوافق على طرد جميع الأجانب الدخلاء على المملكة - وعلى رأسهم آل لوزجنان - وأن يتولى شئون الحكم جماعة من البارونات، على أن يكونوا بمثابة وزراء مسئولين أمام البرلمان[٤٩]، وهكذا نهض البارونات بحكم البلاد فترة من الزمن تحت زعامة كبيرهم سيمون دى مونتفورت فعقدت معاهدة مع فرنسا لإنهاء حالة الحرب بين الدولتين سنة ١٢٥٩، كما تمّ وضع حد لكثير من المفاسد[٥٠].

وعندما تجددت الفتن والخلافات مرة أخرى، استطاع سيمون دى مونتفورت أن يهزم القوات التى التفت حول الملك، حتّى تمّ عقد البرلمان الشهير سنة ١٢٦٥ وهو الذى مثلت فيه المدن لأول مرة عن طريق اشتراك ممثلين عن كل مدينة، ممّا أعطى هذا البرلمان طابعا شعبيا قويّا وجعل سيمون دى مونتفورت صاحب الفضل الأول فى نشأة فكرة مجلس العموم[٥١]. ولكن حدث فى تلك السنة نفسها أن ثار بعض البارونات المتذمرين، وقتل سيمون دى منتفورت عندئذ، فأخذ نفوذ النبلاء يتناقص بعد أن نجحوا فى تحطيم قوة الاستبداد، وأخيرا مات هنرى الثالث سنة ١٢٧٢ فى الوقت الذى كان ابنه الأمير إدوارد - وهو الذى أصبح إدوارد الأول - متغيبا فى حملة صليبية.

إدوارد الأول:

تولى إدوارد الأول الحكم (١٢٧٢ - ١٣٠٧) وهو فى السابعة والثلاثين من عمره، فكان رجلا ناضجا واسع التجربة، على قسطٍ وافر من التعليم، يجمع بين القوة وحب العدالة والرغبة فى الإصلاح، ممّا جعله يحتل مكانا بارزا فى التاريخ الإنجليزى، فضلا عن أن إصلاحاته أثرت تأثيرا عميقا فى مستقبل إنجلترا[٥٢]، وقد اعتلى إدوارد الأول العرش عقب عودته من حملة صليبية، وكان يأمل فى القيام بحملة أخرى جديدة، ولكن الظروف الخارجية والداخلية التى أحاطت به حالت دون إمكان تحقيق هذه الأمنية، ذلك أن إدوارد الأول عمل على تحقيق الوحدة بين مختلف أجزاء الجزر البريطانية ليجعل منها دولة واحدة مترابطة، وكان أكبر نجاح أحرزه فى

(49) Tout: The History of England, pp. 98 - 102.
(50) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 283.
(51) Tout: The History of England, p. 122.
(52) Stephenson: Med. Hist. p. 488.

هذه الخطة هو ضم إمارة ويلز بعد أن غدت خطرا كبيرا تحت حكم آخر أمرائها ليلولين الكبير Lelwellyn (٥٣)، وعندما نجح إدوارد الأول فى إخضاع ويلز أصدر قانون سنة ١٢٨٤ الذى يقضى بضمها إلى التاج البريطانى، وأعقب ذلك تطبيق القوانين الإنجليزية فى ويلز تحت إشراف موظفين إداريين من الإنجليز، وفى سنة ١٣٠١ أضفى إدوارد الأول على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز، وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى إنجلترا منذ ذلك الوقت(٥٤).

على أن متاعب إدوارد الأول لم تقتصر على ثورة ويلز لأن الأوضاع فى إسكتلندا أدت إيضاً إلى زيادة تلك المتاعب، ذلك أن السلالة المباشرة للبيت المالك فى إسكتلندا انتهت سنة ١٢٩٠ بوفاة الأميرة مرجريت، وعندئذ تدخل إدوارد الأول فى مسألة اختيار وريث للعرش وأوفد إليها بعثة لهذا الغرض، وقد اختارت هذه البعثة حنا باليول John Balliol ملكا على إسكتلندا وفعلا قدم هذا الملك الجديد فروض الولاء والتبعية لإدوارد الأول ملك إنجلترا(٥٥)، ولكن عندما حاول إدوارد أن يجعل سيادته على إسكتلندا فعلية بالتدخل فى شئونها، عارضه باليول وأنكر حق المحاكم الإنجليزية فى استئناف الأحكام التى أصدرتها المحاكم الإسكتلندية، ثمّ اتخذ حنا باليول موقفا عدائيا صريحا من ملك إنجلترا فحالف فيليب الرابع ملك فرنسا ضدّ إدوارد الأول، ولكن الأخير غزا إسكتلندا غزوة موفقة وقبض على حنا باليول وأخمد الثورة وأقام حكومة موالية له(٥٦)، على أن الإسكتلنديين لم يستسلموا بسهولة، فانتهزوا فرصة وجود إدوارد الأول فى فلاندرز سنة ١٢٩٧، وثاروا من جديد تحت زعامة وليم ولاس وهزموا جيشا إنجليزيا عند جسر سترلنج (Stirling Bridge) وعندئذ عاد إليهم إدوارد الأول بعد أن عقد صلحا مع فيليب الرابع ملك فرنسا وهزمهم فى فالكرك Falkirk وأخضع إسكتلندا وأعدم ولاس، وقد ثارت إسكتلندا مرة أخرى تحت زعامة روبرت بروس Robert Bruce ولكن إدوارد الأول توفى سنة ١٣٠٧ وهو يستعد لإخماد الثورة(٥٧).

---

(53) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 514 - 517.

(54) Tout: The Hist. of England, p. 220.

(55) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 563 - 564.

(56) Stephenson: Med. Hist. p. 493.

(57) Tout: The Hist.of England, ps. 234 - 307.

أما تشريعات إدوارد الداخلية فتحتل مكانة عظيمة في تاريخ إنجلترا وتطورها السياسي. ذلك أنه وجد الكنيسة تمتلك نسبة كبيرة من الأراضي في البلاد تبلغ الثلث مع إعفاء هذه الأراضي من معظم الضرائب الإقطاعية؛ ولذلك أصدر تشريعا سنة ١٢٧٩ يحد من ازدياد أراضي الكنيسة عن طريق الهدايا والمنح، بوضع هذه المنح تحت الإدارة الملكية(٥٨). كذلك أصدر تشريعا جديدا سنة ١٢٩٠ ينظم تقديم الخدمات والالتزامات الإقطاعية للسيد الإقطاعي الكبير مباشرة دون وساطة عدد من الشخصيات الإقطاعية الصغيرة، وبعبارة أخرى فإن هذا التشريع حدد عدد الأفصال الذين يتوسطون بين الملك من جهة وصاحب الأرض أو الضيعة الفعلي من جهة أخرى، كما أجاز انتقال الأرض من يد لأخرى عن طريق البيع والشراء بعد أن كان الطريق الوحيد لحيازة الأرض هو الإقطاع(٥٩)، أمّا تشريع الأوقاف فقد سمح بحبس الأراضي ووقفها. وبذلك مكن البيوت الكبيرة القوية من الاحتفاظ بأملاكها وتكتيل أراضيها، ثم لاحظ إدوارد ازدياد نفوذ اليهود وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية في إنجلترا منذ أن رحب بهم وليم الفاتح ومنحهم قسطا وافرا من الحماية والطمأنينة. لذلك استغل وليم الأول كراهية الناس لليهود نتيجة لموقفهم العنيد من المسيحية والمسيحيين وأسلوبهم الاستغلالي المقيت، وبدأ يضطهدهم؛ ففرض عليهم زيًا خاصا الغرض منه تحقيرهم، ثمّ عاد فطردهم من بلاده سنة ١٢٩٠(٦٠)، ومنذ ذلك الوقت حتّى عهد كرمويل لم يستطع اليهود دخول إنجلترا.

على أن إصلاحات إدوارد الأول القضائية والإدارية فاقت كل ما عداها في الأهمية، ذلك أنه حدد اختصاص مجالس القضاء الكنسية بمقتضى قانون أصدره سنة ١٢٨٥، ولم يكد عهده ينتهي حتّى تفرعت ثلاث محاكم منفصلة عن المحكمة الملكية، أولاها خاصة بحسابات الدولة والقضايا المالية، وثانيتها خاصة بالدعاوى العامة المدنية بين الأهالي بعضهم وبعض، وثالثتها سُميت مجلس القضاء الملكي (King's Bench) وتفصل في جميع القضايا - مدنية كانت أو جنائية - التي تتصل بالملك(٦١).

(58) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 398 - 400.

(59) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 272.

(60) Tout: The Hist. of England, p. 175.

(61) Stephenson: Med. Hist. p. 490.

وقد دعا إدوارد الأول البرلمان إلى الانعقاد سنة ١٢٩٥ لحاجته إلى المال بعد حروبه في ويلز من جهة، ولمواجهة التحالف الفرنسي الإسكتلندى من جهة أخرى، وامتاز البرلمان الذى عُقد فى تلك السنة بأنه ضمّ جميع العناصر التى صار يتألف منها البرلمان الإنجليزى فيما بعد، من نبلاء، وأساقفة، ورؤساء أديرة، فضلا عن اثنين من فرسان كل مقاطعة وممثلين يمثلون أهالى المدن وغيرهم، حتّى أطلق عليه فى التاريخ البرلمان النموذجى Model Parliament [٦٢]، وفى هذا البرلمان جلس الفرسان مع النبلاء ممثلى المدن، فى حين اجتمع رجال الدين على حدة، ثمّ تطور الأمر بعد ذلك إلى حرمان صغار رجال الدين من عضوية البرلمان فانضم الفرسان إلى البرجوازيين وممثلى المدن ليؤلفوا مجلس العموم، فى حين انضم النبلاء إلى الأساقفة ليتكون منهم مجلس اللوردات، وكان أن أخذ النبلاء يواصلون ضغطهم على الملك لتحديد سلطاته، فطلبوا منه عند وجوده فى فلاندرز سنة ١٢٩٧ تأكيداً للعهود التى تحرم الملك من حق جمع الأموال دون موافقتهم[٦٣].

إدوارد الثانى:

ثمّ تولى عرش إنجلترا بعد ذلك إدوارد الثانى (١٣٠٧ - ١٣٢٧) الذى كان ضعيفا مولعًا بصحبة الأراذل حتّى صار أداة عمياء فى أيدى ندمائه. وعندئذ احتج أعضاء البرلمان على سوء حكومته وقبضوا على جافستور نديم الملك وقتلوه سنة ١٣١٠[٦٤]، وفى ذلك الوقت كان روبرت بروس قد طرد الإنجليز تقريبا من إسكتلندا؛ ممّا جعل إدوارد الثانى يصالح البارونات ويتجه على رأس جيش كبير إلى إسكتلندا لإخماد ثورتها، ولكنه منى بهزيمة كبيرة فى يونية ١٣١٤ عند بانوكبورن Bannockburn[٦٥] ، وفرّ عائدا إلى بلاده، وبذلك استردت إسكتلندا حريتها، ويبدو أن إدوارد الثانى لم يتعظ من هذه الأحداث، فاستأنف حياته الفاسدة ممّا أوقع البلاد فى فوضى كبيرة انتهت بأن عزله البرلمان وأعدمه سرا سنة ١٣٢٧[٦٦].

---

(62) Tout: The Hist. of England, p. 195.
(63) Idem: pp. 202 - 204.
(64) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 414.
(65) Stephenson: Med. Hist. p. 493.
(66) Tout: The Hist. of England, pp. 299 - 303.

إدوارد الثالث وحركة وكلف:

أمّا ابنه إدوارد الثالث (١٣٢٧ - ١٣٧٧) فكان فارسا ذا شخصية جذابة، وعلى الرغم من أنه يختلف عن أبيه كثيرا فى أسلوب حياته، إلا أن عهده الطويل امتاز بأهمية كبرى فى التاريخ الإنجليزى سواء فى التطور السياسى الداخلى أم الخارجى[٦٧]، وكانت أهم الأحداث التى شهدها ذلك العهد قيام حرب المائة عام، التى سنتكلم عنها بشىء من التفصيل فيما بعد مكتفين الآن بالإشارة إلى أنه لم يتبق لإدوارد الثالث من أملاكه في القارة عند نهاية حكمه سوى موانئ كاليه، وبرست وباسيون، وبوردو، فضلاً عمّا كان لهذه الحرب من نتائج داخلية خطيرة بالنسبة لإنجلترا، وفى ذلك العهد قامت منظمة السسترشيان بتحويل كثير من أراضى إنجلترا الضحلة المهملة إلى أرضٍ زراعية خصبة، كما اهتموا بغزل الأصواف التى غدت فيما بعد من أهم الصادرات الإنجليزية، وكان للوباء الأسود الذى اجتاح أوربا عند منتصف القرن الرابع عشر أثره الهدام فى إنجلترا، فقلت الأقوات وارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا واضطر كثير من الأقنان إلى الفرار من أراضيهم ممّا جعل البرلمان يصدر قانونا بتوقيع عقوبات مشددة على كل من يترك الأرض أو يطالب برفع الأجور [٦٨]، على أن المراسيم التى صدرت سنة ١٣٥١ وسنة ١٣٦٠ لتحديد الأجور وفرض العمل على كل رجل أو امرأة دون الستين من عمره لم تجدِ فى علاج الموقف بعد أن قلت الأيدى العاملة[٦٩]. وكان أن أدت الحرب الطويلة إلى عدم انتظام التجارة بين إنجلترا وفلاندرز التى كانت تستورد معظم الأصواف الإنجليزية لنسجها، الأمر الذى أدى إلى هجرة كثير من الغزالين والنسّاجين من فلاندرز إلى إنجلترا لمباشرة صناعة المنسوجات الصوفية قرب مراكز إنتاج الصوف الخام، هذا فى الوقت الذى أدى اشتداد تيار حرب المائة عام وما تطلبته من مغارم ونفقات إلى ازدياد نفوذ البرلمان الذى لم يكتف سنة ١٣٧٦ بالمطالبة بمراجعة الحسابات الملكية، وإنما وجه الاتهام إلى اثنين من الموظفين الملكيين وأدانهم، ومن ثمّ بدأ تقليد جديد هو محاسبة الموظفين العموميين وإقامة الدعوى عليهم[٧٠].

---

(67) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 397.

(68) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 443.

(69) Eyre: op. cit. p. 417.

(70) Tout: The Hist. of England, p. 435.

وفى ذلك العصر ساءت العلاقات بين البابوية وإنجلترا بسبب إقامة البابوات فى أفينون وما أثارته هذه الإقامة من ظنون حول مساندة البابا للملكية الفرنسية فى وقت اشتد العداء بين إنجلترا وفرنسا، وفى سنة ١٣٥١، أنكر البرلمان الإنجليزى شرعية تعيين البابا لكبار رجال الدين فى إنجلترا، كما أصدر تشريعا بعد ذلك بعامين يحرم استئناف القضايا أمام محاكم أجنبية؛ وبذلك حرمت البابوية من مورد مالى ضخم كانت تستمده من إنجلترا[٧١]. أمّا الجزية التى تعهد الملك حنا بدفعها سنويا للبابوية فقد عارض البرلمان فى دفعها، ولما أصرّ البابا على حقه، أجاب البرلمان بأنه لم يقر تصرفات الملك حنا ولذلك فإن البلاد لا ترتبط بهذه التصرفات[٧٢].

وفى ذلك العهد ظهر حنا وكلف John Wiclif (١٣٢٤ - ١٣٨٤) وهو أحد المصلحين الدينيين، فنادى بحق الدولة فى مصادرة ممتلكات الفاسدين من رجال الدين، كما نادى بعدم التقيد بالبابوية وبأن الإنجيل هو الدستور الوحيد الذى يجب أن يهتدى المسيحيون بهديه[٧٣]، وسنتعرض فيما بعد لآراء وكلف وأثرها بالتفصيل، ولكن نكتفى الآن بالإشارة إلى أن هذه الآراء كانت تسبق العصر الذى عاش فيه وكلف، بحيث بدت عنيفة فى نظر كثير من المعاصرين، حتّى أدت نتائجها المباشرة إلى إثارة كثير من الاضطرابات فى الداخل والخارج[٧٤].

ريتشارد الثانى

وبعد ذلك تولى حكم إنجلترا ريتشارد الثانى (١٣٧٧ - ١٣٩٩) الذى كان فى العاشرة من عمره فقام بالوصاية عليه وتصريف شئون البلاد مجلس وصاية من اثنى عشر عضوا[٧٥]، وكانت عصابات المستأجرين المسلحين وأتباع الأمراء قد عكروا صفو الأمن فى أواخر أيام إدوارد الثالث، كما استثير الفلاحون بمحاولة إرهاقهم بكثير من الالتزامات الإقطاعية القديمة، هذا فضلا عن استياء صغار العمال فى المدن بعد أن أضرت بهم القيود النقابية وغيرها من التشريعات التى سنت من أجل صالح فئة محدودة من المواطنين الأثرياء[٧٦]، أمّا الحكومة فقد دفعتها حاجتها إلى الأموال إلى

(71) Eyre: op. cit. p. 485.
(72) Tout: The Hist. of England, pp. 377 - 378.
(73) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 500.
(74) Eyre: op. cit. p. 522.
(75) Oman: The History of England, pp. 1 - 3.
(76) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 461 - 463.

التطرف فى جمع الضرائب مما أدى إلى نشوب «الثورة العظمى» سنة ١٣٨١، واشترك فى هذه الثورة العمال والفلاحون الذين اقتحموا لندن حيث استقبلهم الملك الصغير ووعدهم برفع المظالم التى شكوا منها(٧٧).

وكان ريتشارد الثانى جسورا محبا للسيطرة، حكم إنجلترا فى ظروف حرجة نظرا للخسائر التى أصيبت بها فى حروبها مع فرنسا وإسكتلندا، فضلا عن عدم استقرار الأوضاع بسبب المتاعب الداخلية(٧٨). ولم يلبث أن حدث احتكاك بين ريتشارد الثانى والبرلمان عندما رفض الملك الاعتراف بإشراف البرلمان على مصروفاته، ولكنه رجع فاستسلم سنة ١٣٩٦، على أن حبّ السيطرة والرغبة فى جمع الأموال دون رقيب جعلت الملك يخرج عن جادة الصواب فقبض على كثيرين بغير ذنب وجعل من نفسه دكتاتورا حتّى انتهى الأمر بعزله وقتله سرا سنة ١٣٩٩(٧٩).

هنرى الرابع:

أمّا عهد هنرى الرابع (١٣٩٩ - ١٤١٣) فكان مليئا بالمتاعب؛ ذلك أن البرسيين Percies فى نورثمبرلاند ثاروا عليه سنة ١٤٠٠ وتضامنوا مع الولشيين فى ويلز ضده(٨٠)، ولكن هنرى الرابع هزم البرسيين (١٤٠٣ - ١٤٠٨) كما أنزل الهزيمة بالولشيين، ثمّ زاد من المتاعب التى لاقاها هنرى الرابع فى أواخر عهده سوء حالته الصحية من جهة وتعجل ابنه وولى عهده الأمير هنرى فى أن يحل محل أبيه على وجه السرعة من جهة أخرى(٨١)، ويبد أن هذه المتاعب التى أحاطت بهنرى الرابع أتاحت فرصة طيبة للبرلمان لكى يوطد نفوذه وسلطانه فتقررت حرية المناقشة داخل البرلمان، كما أجبر الملك على الاحتفاظ بمجلس دائم من أفراد يرضى عنهم البرلمان ليكونوا بمثابة مجلس الوزراء (٨٢)، كذلك أصدر البرلمان قرارا سنة ١٤٠١ يعطى موظفى الحكومة سلطة مكافحة الهراطقة لا سيما أتباع وكلف(٨٣) الذين عرفوا باسم

---

(77) Stephenson: Med. Hist. p. 571.

(78) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 456 - 457.

(79) Oman: The History of England, pp. 148 - 149.

(80) Orton: op. cit. p. 393.

(81) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 375.

(82) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 483 - 484.

(٨٣) انظر الباب التاسع عشر فى هذا الكتاب.

اللولارديين Lollards والذين نشروا دعوته على مدى واسع ولا سيما بين الطبقات الفقيرة، وقد قضى هذا القرار بأن يسلم كل من يتهم بالهرطقة للكنيسة لمحاكمته، فإذا أدين أحرق بواسطة السلطة العلمانية(٨٤).

هنرى الخامس:

وقدْ استمر قمع تلك الحركة فى عهد هنرى الخامس (١٤١٣ - ١٤٢٢) الذى قبض على حنا أولد كاسل (Sir John Oldcastle) زعيم اللولارديين، ولكنه استطاع الفرار ليدبر ثورة كبيرة ضدّ الملك، على أن هنرى الخامس أخمد هذه الفتنة وأعدم زعيمها، وبذلك يمكن القول بأن أثر الحركة اللولاردية قد انتهى فى إنجلترا من الناحية السياسية(٨٥). ثمّ اختار هنرى الخامس أن يجدد الحرب مع فرنسا طمعا فى الحصول على نصر سريع من جهة وأملاً فى أن تؤدى هذه الحرب إلى توحيد رعاياه تحت رايته من جهة أخرى، لذلك انتهز فرصة الحروب والمنازعات الداخلية فى فرنسا وتقدم إليها بعدة شروط ومطالب، وهو واثق تماما من أنها لن تقبلها، وكان أن رفضت مطالبه، فعبر المانش ليحصل على نصر فى موقعة أزينكورت Azincourt سنة ١٤١٥، ثمّ عاد بسرعة إلى إنجلترا ليستعد لحرب أكبر(٨٦)، وعندما أبحر إلى فرنسا بعد ذلك بعامين كان مقدرا له أن يقضى بقية حكمه القصير - ما عدا شهرين - فى فرنسا، فاستولى على باريس وغيرها من المدن بمساعدة البرجنديين، على أن هذه الانتصارات الحربية التى أحرزها هنرى الخامس كانت قصيرة العمر محدودة النتائج، فلم تتناسب فائدتها مع ما استنفدته من أعباء وما تطلبته من ضرائب فى وقت كان الشعب الإنجليزى يئن من ثقل الأعباء المالية(٨٧).

هنرى السادس:

وكان هنرى السادس (١٤٢٢ - ١٤٦١) طفلا عند وفاة أبيه الذى كان قد أوصى بوضع هذا الطفل تحت وصاية حنا دوق بدفورد وهمفرى دوق جلوستر، على أن

---

(84) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 423 - 424.

(85) Oman: The History of England, pp. 236 - 238, 267.

(86) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie, pp. 346 - 370.

(87) Pirenne: Le Finde Moyen Age, pp. 434 - 438.

يظل الأول فى فرنسا لمباشرة مصالح إنجلترا ويواصل الحرب ضدها، ويبقى الثانى فى إنجلترا، وقد حاول بدفورد أن يستغل مقدرته للاحتفاظ بنفوذ إنجلترا فى فرنسا على الرغم من رجحان كفة الأخيرة فى ذلك الوقت(٨٨). أماجلوسستر فلم يصاحبه التوفيق فى إدارة شئون إنجلترا فى وقت أحسّ الأهالى بثقل الأعباء التى تطلبتها الحرب، وبدأ يساورهم الشك فى إمكان الانتصار على دولة مثل فرنسا كانت تفوق إنجلترا فى الثروة والسكان(٨٩). وكان أن مات بدفورد سنة ١٣٤٥، وحينئذ تخلى دوق برجنديا عن تحالفه مع إنجلترا، فأخذ مركز الإنجليز يتدهور سريعا فى فرنسا حتّى حلت بهم الهزيمة فى موقعة تلبوت Talbot وسقطت بوردو فى أيدى أعدائهم سنة ١٤٥٣، وبذلك انتهت حرب المائة عام بعد أن استنزفت من إنجلترا كثيرا من الأرواح والأموال(٩٠).

وعلى الرغم من طيبة هنرى السادس وتقواه إلا أنه كان ضعيفا، غير قادر على القبض على زمام الأمور فى بلاده، الأمر الذى مكن ريتشارد دوق يورك من المطالبة بالحكم على أساس أنه سليل إدوارد الثالث(٩١)، وقد أدى هذا الانشقاق إلى انقسام المملكة انقساما تمخض عن قيام حرب أهلية تعرف بحرب الوردتين؛ لأن فريق ريتشارد ويورك أتخذ الوردة البيضاء شعارا له، فى حين اتخذ فريق هنرى السادس شعاره الوردة الحمراء وكان أن قتل ريتشارد دوق يورك سنة ١٤٦٠ فتولى ابنه إدوارد الرابع الحكم فى العام التالى، فى حين فرّ هنرى السادس إلى إسكتلندا ثمّ عاد بعد قليل إلى إنجلترا حيث قُبض عليه وسجن(٩٢).

على أن سياسة إدوارد الرابع (١٤٦١ – ١٤٨٣) سرعان ما أدت إلى قيام ثورة انتهت بطرده من البلاد، وهكذا أضحت إنجلترا وأحد ملكوها فى السجن والثانى طريدا فى المنفى، وعلى الرغم من عودة هنرى السادس إلى العرش لمدة قصيرة، إلا أن إدوارد الرابع استطاع أن ينتصر على خصومه، فقتل هنرى السادس وحلّ محله فى

---

(88) Perroy: La Guerre de Cent Ans. pp. 236 - 243.

(89) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 390 - 391.

(90) Tout: France and England, p. 136.

(91) Oman: The History of England, pp. 352 - 353.

(92) Stephenson: Med. Hist. p. 536.

العرش، وقد قبض إدوارد الرابع بعد ذلك على زمام الأمور بيد من حديد حتّى حقق لإنجلترا قسطا وافرا من الطمأنينة والنظام كانت فى أشد الحاجة إليهما(٩٣).

ريتشارد الثالث وقيام أسرة تيودور:

عند وفاة إدوارد الرابع كان أبناؤه صغار السن، فتولى الوصاية عليهم عمهم ريتشارد الذى لم يلبث أن انتزع العرش لنفسه متخذا لقب ريتشارد الثالث (١٤٨٣ – ١٤٨٥)، وقد دأب بعض الكتّاب الذين عاصروا حكمه على تشويه سمعته فوصفوه بالقسوة والعنف ونسبوا إليه كثيرا من الجرائم والأعمال الوحشية، ولكن يبدو من دراسة أحوال المملكة عندئذ أن نسبة كبيرة من الشعب كانت تؤيد الملك فى مسلكه، وأن أحوال البلاد عندئذ تطلبت منه اتباع هذه السياسة(٩٤)، أمّا ما يقال من إنه قتل أبناء أخيه فى قلعة لندن فرواية ينقصها الدليل والإثبات، والراجح أن أمهم دبرت خطة لتهريبهم فى الفترة الواقعة بين وفاة ريتشارد الثالث ودخول هنرى السابع مدينة لندن، وأن الأخير هو الذى أعدمهم ليضمن عدم منافستهم له فى العرش(٩٥).

وحسبنا أن خصوم ريتشارد الثالث اعترفوا بأنه إلى جانب شدته امتاز بالقدرة، وأن البرلمان أصدر على عهده عدة قوانين عادلة ومفيدة، والواقع أن هناك عدة ملاحظات على عهد ريتشارد تستحق الإشارة والاعتبار، فالقوانين التى أصدرها البرلمان فى ذلك العهد صدرت لأول مرة باللغة الإنجليزية، كما أنها صدرت مطبوعة لأول مرة، كذلك دعم ريتشارد الثالث وظيفة القنصلية ذات الأهمية البالغة للتجارة والتجّار، ونظم البريد بوساطة الرسل والسعاة.

على أن مشكلة وراثة العرش استمرت تسبب حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار حتّى نجح هنرى تيودور فى إنزال الهزيمة بريتشارد الثالث سنة ١٤٨٥ وبذلك تسلم هنرى السابع التاج ليصبح أول ملوك أسرة تيودور(٩٦).

وبعد، فإنه على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية الكثيرة التى تعرضت لها

(93) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 436.

(94) Pirenne: Le Finde Moyen Age, Tome 2, p. 73.

(95) Oman: The History of England, pp. 481 - 482.

(96) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 382.

إنجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلا أنها أحرزت فى تلك الحقبة تقدما كبيرا فى الميدان الحضارى، وكانت أهم مظاهر هذا التقدم فى المجال التجارى لاسيما تجارة الصوف التى أخذ الإنجليز يباشرونها بأنفسهم فى ظل التنظيمات التجارية الجديدة، كذلك دخلت الطباعة إنجلترا على يد كاكستون حوالى سنة ١٤٧٤، أمّا الجامعات الإنجليزية فقد واصلت نشاطها بفضل ما لقيته من تشجيع مستمر وبيئة صالحة، وحسبنا ما قام به الملك هنرى السادس من تأسيس كلية الملك King's College وكلية المسيح Christ's College فى جامعة كمبردج زيادة على مدرسة أتون، وفى تلك الأثناء لم تتوقف حركة بناء الكاتدرائيات، والكنائس، والأديرة وفق الطراز القوطى ذى الطابع الإنجليزى الجميل. أمّا اللغة الإنجليزية فقد أخذت فى ذلك العصر تستقيم فى طريقها وتستكمل بناءها، فكتب بها شوسر قصص كانتربورى؛ ممّا مهد للنهضة الأدبية العظيمة التى تزعمها شكسبير فى القرن التالى، وأخيرا فإن البرلمان تمتع فى هذين القرنين - الرابع عشر والخامس عشر - بسلطة واسعة ظلّ الإنجليز يفخرون بها فى العصور التالية.

الباب الثامن عشر
حرب المائة عام

ظلَّ العداء يسود العلاقات بين إنجلترا وفرنسا على جانبى بحر المانش منذ الفتح النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦، ذلك أن ملوك إنجلترا النورمان احتفظوا بأملاكهم الواسعة فى غرب فرنسا، فى الوقت الذى عزَّ عليهم - فى وضعهم الجديد - أن يستمروا فى حكم هذه الممتلكات باعتبارهم أتباعا أو أفصالا لملك فرنسا، أمّا ملوك فرنسا فقد وجدوا فى تلك الممتلكات الإنجليزية على حدود أراضيهم الغربية خطرا عظيما هدد وحدة بلادهم وكيانها، وحال دون وصول الدولة الفرنسية إلى حدودها الطبيعية، وهى المحيط الأطلسى غربا وجبال البرانس جنوبا، ونهر الراين وجبال الألب شرقا.

وهكذا لم يهدأ ملوك فرنسا وظلوا يعملون على طرد ملوك إنجلترا من ممتلكاتهم فى صلب القارة، فى حين تمسك الأخيرون بهذه الممتلكات وناضلوا فى سبيل الاحتفاظ بها؛ ممّا جعل الحرب بين الطرفين لاتكاد تهدأ إلا لتشتعل نارها من جديد، وذلك حتّى منتصف القرن الخامس عشر، فحرب المائة عام إذاً - وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين إنجلترا وفرنسا (١٣٣٧ - ١٤٥٣) - ليست فصلا جديدا أو حدثا مفاجئا فى تاريخ العلاقات بين البلدين فى العصور الوسطى؛ لأنها ليست فى حقيقة أمرها إلا حلقة فى سلسلة النزاع الذى بدأ منذ أن امتلك أمراء نورمنديا إنجلترا، وبعبارة أخرى منذ أن أصبحت ممتلكات ملوك إنجلترا النورمان موزعة على جانبى المانش.

وإذا كان المؤرخون قد اصطلحوا على إطلاق اسم حرب المائة عام على هذا الفصل الأخير من فصول النزاع بين إنجلترا وفرنسا فى العصور الوسطى، فإن لنا على هذه الحرب عدة ملاحظات، أولها أنه إذا كان السبب الرئيسى لحرب المائة عام هو النزاع حول ممتلكات إنجلترا فى القارة، فقد وجدت أسباب أخرى أدت إلى إثارة العداء بين إنجلترا وفرنسا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى، أهمها التنافس الاقتصادى بين الدولتين، زيادة على تعارض مصالحهما السياسية فى القارة[1]، وثانيها أن هذه الحرب كانت ذات طابع ثابت لم يتغير من أولها لآخرها من ناحية أهدافها والأساليب

---

(1) Cam. Med. Hst. Vol. 7, p. 340.

التى استخدمت فيها، وثالثها أن تلك الحرب لم تستمر مائة عام تماما؛ لأن هذه التسمية لا تعدو أن تكون تقريبية تنطوى على كثير من التجاوز وعدم الدقة، وأخيرا يلاحظ أن حرب المائة عام لم تتخذ شكل قتال دائم مستمر بين الفريقين المتحاربين. وإنما اتخذت شكل مصادمات متباعدة زمنيا تخللتها الهدنة والصلح أكثر من مرة.

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسموا حرب المائة عام إلى ثلاث مراحل؛ وذلك لتسهيل دراستها وتمييزها: المرحلة الأولى تمتد بين سنتى ١٣٣٧، ١٣٨٠، وأهم حوادثها انتصار الإنجليز عند كريسى Crécy واستيلاؤهم على كاليه ثمّ انتصارهم عند بواتيه وما كان من ثورة باريس ومعاهدة بريتانى. أمّا المرحلة الثانية فتمتد من سنة ١٣٨٠ حتى سنة ١٤١٥ وتمتاز بمسحة عامة من الهدوء والسلام، وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة بين سنتى ١٤١٥، ١٤٥٣ وفيها تجددت الحرب على يد هنرى الخامس ملك إنجلترا وحليفه دوق برجنديا فانتصر الإنجليز عند أجينكورت (أزينكورت) وغزوا شمال فرنسا، ثمّ عادت برجنديا إلى محالفة فرنسا، حتّى انتهى الأمر بطرد الإنجليز نهائيا من صلب القارة[2].

وقد سبق أن رأينا كيف أدت سياسة لويس التاسع ملك فرنسا إلى عقد معاهدة باريس مع هنرى الثالث ملك إنجلترا سنة ١٢٥٩، وبمقتضى هذه المعاهدة تنازل الأخير عن جميع حقوقه الاسمية فى نورمنديا، وأنجو، ومين، وتورين، وبواتو، ولكنه تمسك بجوين، وجاسكونى، وليموسان، وكويرسى، وبريجورد، على أن يكون ملك إنجلترا تابعا لملك فرنسا فى حكمه لهذه الأجزاء الأخيرة، ومن الواضح أن هذا الحل كان غير عملى ولا يرجى له دوام، إذ كان على ملك إنجلترا - باعتباره دوق جاسكونى - أن يقاوم سياسة ملك فرنسا فى تركيز سلطانه وإضعاف نفوذ كبار الأمراء، وهى السياسة نفسها التى كان ملك إنجلترا يحاول تطبيقها فى بلاده، وبعبارة أخرى فإن ملك إنجلترا وجد نفسه بحكم هذا الوضع ملزما بتقوية نفوذ الملكية وإضعاف نفوذ الأمراء فى بلاده، فى الوقت الذى يعمل على تقوية نفوذ الأمراء وإضعاف الملكية فى فرنسا[3].

وقد سبق أن ذكرنا أنه إذا كانت دوقية جاسكونى هى السبب الرئيسى لحرب

---

(2) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 891.

(3) Tout: France And England, pp. 114 - 115.

المائة عام ، فإن هناك أسبابا أخرى فرعية، أهمها الصدام المستمر بين بحارة السفن الإنجليزية والفرنسية فى عصر لم يفرق بين الملاحة والقرصنة، وكذلك التعارض الشديد بين المصالح الإنجليزية والفرنسية فى إقليم فلاندرز[٤]، ثمّ كان تعقد الموقف بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٣٢٨ عندما مات آخر أبناء فيليب الرابع ملك فرنسا دون أن يترك وريثا ذكرا يخلفه فى العرش، فاستغل إدوارد الثالث الفرصة وطالب بعرش فرنسا على أساس أن أمه ابنة فيليب الرابع ، وعن هذا الطريق يبدو حقه فى عرش فرنسا، ولكن زعماء فرنسا، لم يوافقوا على مبدأ أحقية الابنة فى وراثة العرش، ولذلك اختاروا فيليب فالوا ـ الذى أصبح فيليب السادس (١٣٢٨ – ١٣٥٠) ـ ليؤسس أسرة جديدة حلت محل أسرة كابيه فى حكم فرنسا[٥].

وقد حدث فى ذلك العصر ـ عصر فيليب السادس فى فرنسا وإدوارد الثالث (١٣٢٧ – ١٣٧٧) فى إنجلترا ـ أن ثار أهالى فلاندرز ضدّ أميرهم لويس الذى كان تابعا لملك فرنسا، فاضطر لويس إلى الفرار؛ ممّا جعل فيلب السادس يسرع لحمايته فأعاده إلى بلده بعد أن أنزل بالفلمنكيين هزيمة ساحقة فى كاسل Cassel سنة ١٣٢٨[٦]، وفى سنة ١٣٣٦ قبض لويس أمير فلاندرز على جميع التجار الإنجليز فى بلاده ممّا جعل إدوارد الثالث ملك إنجلترا يرد على ذلك باستصدار قانون من البرلمان سنة ١٣٣٧ يمنع تصدير الصوف الإنجليزى إلى الخارج؛ وبذلك هدد صناعة الصوف ـ وهى الصناعة الرئيسية فى مدن فلاندرز عندئذ ـ بالتوقف، وهكذا ثبت أنه من المتعذر التوفيق بين مصالح فرنسا السياسيةومصالح إنجلترا الاقتصادية فى فلاندرز[٧].

على أن الفلمنكيين لم يلبثوا أن ثاروا تحت زعامة جاك (يعقوب) فان آرتفلد Jacques Van Artevelde فتحررت غنت من سيطرة كونت فلاندرز وجددت علاقتها التجارية مع إنجلترا سنة ١٣٣٨[٨]، وعلى الرغم من تهديد البابوية للفلمنكيين

(4) Painter: A Hist. of the Middle. Ages, p. 325.

(5) Stephenson: Med. Hist. pp. 516 - 517.

(6) Perroy: La Guerre de Cent Ans, p. 59.

(7) Tout: The History of England, p. 332.

(8) Lavisse: Hist. de France, Tome 4, Premiere Partie p. 43.

بضرورة الامتثال لملك فرنسا ومساعدته، إلا أن آرتفلد نادى بأن إدوارد الثالث ملك إنجلترا هو الذى يستحق لقب ملك فرنسا بحكم كونه ابن بنت فيلب الرابع، وبناء على ذلك عاد إدوارد الثالث إلى المطالبة بعرش فرنسا من جديد، واعترف به الفلمنكيون وأيدوه فى مطلبه، ثم كان أن حشد فيلب السادس ملك فرنسا أسطولا كبيرا فى ميناء سلوى (Sluys) لوقف التبادل التجارى بين الإنجليز بل مهاجمة إنجلترا نفسها(٩) ولكن أسطولا إنجليزياً دهم السفن الفرنسية ودمرها سنة ١٣٤٠ ممّا جعل البابا يتدخل لإعلان الهدنة بين الطرفين، أمّا آرتفلد فقد أخذ يعمل على تنظيم الحكومة فى فلاندرز، ولكن أضعف من أثر جهوده التنافس بين غنت، وبروجز، وأبريز Ypres لتصبح كل منهما عاصمة، هذا عدا ثورة العمال ضدّ الأثرياء من زعماء النقابات مما أدى إلى عودة كونت فلاندرز والى مقتل آرتفلد سنة ١٣٤٥، الأمر الذى ترتب عليه ضياع مكانة الإنجليز فى فلاندرز(١٠).

ثمّ كان أن توفى حنا الثالث دوق بريتانى سنة ١٣٤١ دون أن يترك وريثا ذكرا، فاشتد النزاع حول من يخلفه فى هذه الدوقية المهمة العظيمة، وهنا يظهر العداء والتنافس بين إنجلترا وفرنسا مرة أخرى فشايعت كل منهما أحد الفريقين المتنازعين، إذ انضم إدوارد الثالث إلى جانب حنا مونتفورت، فى حين شايع ملك فرنسا (فيليب السادس) ومعه حنا دوق نورمنديا جوان بنتيفر(١١)، وقد أعد إدوارد الثالث حملة كبيرة نزلت على شاطئ نورمنديا فى يوليو سنة ١٣٤٦، ومن ثمّ أوغل الإنجليز فى البر وأخذوا يدمرون البلاد ويحرقون القرى ويتلفون المحصولات، على أن موقف الإنجليز سرعان ما ساء لا سيما بعد أن دمر الفرنسيون الجسور الواقعة على السوم والسين(١٢)، وعندما أحسّ إدوارد الثالث باقتراب الجيش الفرنسى منه أخذ ينظم قواته عند كريسى Crésy حيث دارت موقعة حامية (أغسطس سنة ١٣٤٦) انتهت بهزيمة الفرنسيين نتيجة لسوء تنظيمهم حتّى بلغت خسائرهم فى الأرواح عشرين ألفا، فى حين قدرت خسائر الإنجليز بخمسين مقاتلا(١٣).

---

(9) Perroy: op. cit. p. 84.

(10) Stephenson: Med. Hist. p. 519.

(11) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 47 - 51.

(12) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 348.

(13) Perroy: op. cit. pp. 94 - 96.

وهكذا تمّ تدمير الجيش الفرنسي تدميرا شاملا، ممّا مكن الإنجليز من الزحف نحو كاليه والاستيلاء عليها فى يونية سنة ١٣٤٧ بعد حصار عدة أشهر؛ وبذلك أصبح لهم ميناء كبير يستطيعون منه غزو فرنسا وحماية تجارة الصوف مع فلاندرز، وقد دخل البابا من جديد فى تلك المرحلة لإعلان الهدنة بين الطرفين، وحينئذ عاد إدوارد الثالث إلى إنجلترا[١٤].

ثمّ كان أن أدى انتشار الوباء الأسود (١٣٤٨ - ١٣٤٩) إلى كارثة كبرى عمت أوربا وأصابت جميع بلدانها ـ بما فيها إنجلترا وفرنسا ـ بنقص فى الأرواح والأموال، زيادة على قلة الأيدى العاملة وارتباك الأحوال الاقتصادية؛ ممّا تعذر معه استئناف الحرب بين إنجلترا وفرنسا فى تلك الظروف[١٥]. وهكذا مات فيليب السادس سنة ١٣٥٠ قبل أن يتمكن الإنجليز من تجديد هجماتهم على بلاده، وبعد ذلك قام الأمير الأسود (The Black Prince) وهو الأمير إدوارد ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترا ـ بغارة عنيفة على جنوب فرنسا، تمكن فيها من نهب إقليم اللوار بجيش صغير يبلغ سبعة آلاف، دون أن يلقى مقاومة تذكر(١٣٥٦)[١٦]. وأخيرا التقى به حنا الثانى أوالطيب ملك فرنسا (١٣٥١ - ١٣٦٤) على رأس جيش كبير، وكان فى استطاعته إجبار الإنجليز على الاستسلام، ولكن سوء تنظيم الفرنسيين جعل الإنجليز يحرزون نصرا عليهم عند بواتيه سنة ١٣٥٦[١٧]، وعندئذ وجد الإنجليز أنفسهم أمام مشكلة كثرة عدد الأسرى الفرنسيين، ومن جملة هؤلاء الأسرى حنا الثانى نفسه ملك فرنسا وولداه، ولمّا كان عدد الإنجليز صغيراً لا يساعد على توفير حراسة كافية لهؤلاء الأسرى، فقد تخلص الإنجليز من معظم أسراهم بالقتل، ثمّ قفلوا بعد ذلك راجعين إلى بوردو، وفى سنة ١٣٥٧ أعلنت الهدنة بين الإنجليز والفرنسيين وحمل الإنجليز إلى بلادهم حنا الطيب ملك فرنسا حيث عاملوه معاملة طيبة فخصصوا قصرا مريحا وسمحوا له بالصيد والرياضة[١٨].

---

(14) Tout: The Hist. of England, pp. 366 - 368.
(15) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 350.
(16) Tout: The Hist. of England, p. 286.
(17) Tout: France And England, p. 132.
(18) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 107 - 108.

أمّا عن أحوال فرنسا الداخلية فى تلك الفترة، فقد عادت البلاد مسرحا للفوضى على الرغم من جهود شارل - ولى العهد - لإيجاد حالة من الاستقرار [١٩]، وكان مجلس طبقات الأمة قد وافق قبل موقعة بواتيه على إقرارالضرائب اللازمة لمحاربة الإنجليز، بشرط أن يشرف على توزيع هذه الضرائب وصرف الأموال المتحصلة منها، وكان زعيم مجلس طبقات الأمة عندئذ أتين مارسل الذى وضع برنامجا سنة ١٣٥٦ يرمى إلى جعل باريس مدينة حرة، كما وجه مجلس طبقات الأمة نحو الضغط على ولى العهد لطرد مستشاريه وتعيين وزراء يختارهم المجلس[٢٠] وعندما لجأ ولى العهد إلى تأجيل انعقاد مجلس طبقات الأمة، سلح مارسل أهالى باريس للقيام بثورة فى وجه الوصى، وعندئذ تراجع الأخير فطرد وزراءه ودعا مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد، واختار وزراءه الجدد من بين صفوفه وأعلن عدم أحقيته فى فرض ضرائب جديدة دون موافقة المجلس، على أن حنا ملك فرنسا الأسير - بعث من منفاه سنة ١٣٥٧ بعدم موافقته على هذه الأوضاع؛ ممّا جعل ولى العهد يستنجد بالأقاليم الفرنسية - خارج باريس - ضدّ مارسل ومجلس طبقات الأمة [٢١]، وهنا اقتحم مارسل ومعه جماعة من أتباعه المسلحين قصر اللوفر الملكى فى باريس،وقتلوا اثنين من مستشارى شارل ولى العهد، ففر شارل إلى كمبين Compiegne لا سيما بعد أن أخذ أتباع مارسل يجوبون شوارع باريس ويهددون من يقف فى وجههم، وقد انتهز الفلاحون فى شامبنى[٢٢] فرصة تلك الحوادث وثاروا معبرين عن سوء أحوالهم بسبب إغارات الإنجليز من جهة، وثقل الالتزامات المفروضة نحو النبلاء العاجزين عن حمايتهم من جهة أخرى[٢٣]. وامتازت حركة الفلاحين هذه بالفوضى وسوء النظام، ممّا جعل النبلاء يخمدونها فى سهولة بعد أن قتلوا وأحرقوا نحو عشرين ألفا من الثّوار[٢٤]، ومهما يكن من أمر فإن هذه الأحداث لم يكن لها من نتيجة سوى زيادة

---

(19) Perroy: op. cit. pp. 106 - 109.

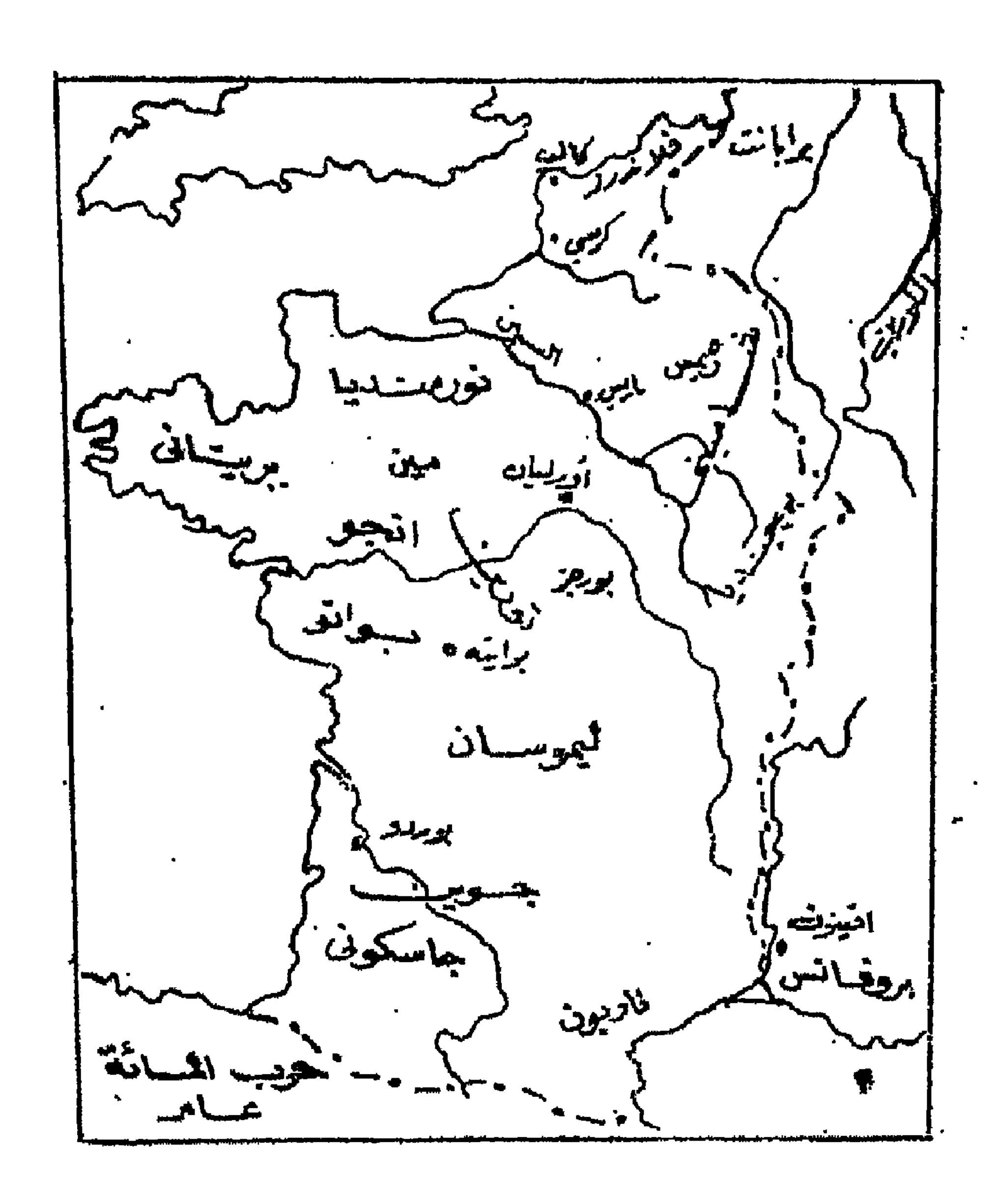
(20) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie p. 115.

(21) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 353.

(٢٢) وهم الذين عرفهم المعاصرون باسم (Les Jacques) أو(La Jacquerie) نسبة إلى زيهم، حيث أن لفظ Jacque يعنى الرداء القصير. انظر: Lavisse: op. cit.Tome 4, Premierepartie, p. 140.

(23) Perroy: op. cit. pp. 109 - 110.

(24) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 354 - 355.


برابانت
فلاندرز
كاليه
كرسي
ريمس
باريس
نورمنديا
بريتاني
ميين
أورليان
انجو
بورجز
بواتو
بواتيه
ليموسان
بوردو
جاسكوني
ناربون
افينيون
بروفانس

أحوال الريف الفرنسي سوءا فوق سوء؛ إذ انتشر البؤس وعمّ الشقاء وقلت الأقوات، ممّا أثر فى أحوال فرنسا بوجه عام، أمّا شارل فقد قوى مركزه عقب انتصار النبلاء، لاسيما بعد أن فشل مارسل فى تنظيم أتباعه حتّى انتهى الأمر بمقتل الأخير وعودة شارل إلى باريس[٢٥].

ثمّ كان أن قام إدوارد الثالث ملك إنجلترا بحملة غير مثمرة على فرنسا سنة ١٣٥٩ . وقد تراجع الفرنسيون أمامه نحو حصونهم حتى وجد الإنجليز أنفسهم عاجزين عن تحقيق أغراضهم فعقدوا معاهدة بريتانى سنة ١٣٦٠ ، وبمقتضاها وافق إدوارد الثالث على أن يتنازل عن مطالبه فى التاج الفرنسي مقابل اعتراف فرنسا بملكيته لجوين، وجاسكونى، وكاليه، وبونثيو Ponthieu[٢٦]، أمّا حنا ملك فرنسا الأسير فقد وافق الإنجليز على إطلاق سراحه مقابل فدية ضخمة، فعاد إلى بلاده تاركا خلفه فى إنجلترا بعض النبلاء الفرنسيين رهينة حتّى يتم سداد الفدية المتفق عليها[٢٧] . على أن الملك حنا سرعان ما سئم الحياة فى باريس فتذرع ببعض الأسباب للعودة إلى إنجلترا حيث قضى بقية حياته فى اللهو والصيد والمقامرة حتى توفى سنة ١٣٦٤[٢٨].

وعندما تولى حكم فرنسا شارل الخامس (١٣٦٤ – ١٣٨٠) وجد نفسه يحكم دولة ممزقة يسودها التفكك والانحلال، فبدأ بإخضاع فرق الجند المرتزقة ونجح فى التخلص من عبثهم بمساعدة أحد أعوانه من النبلاء واسمه برتراندى جويسكلين، الذى كوفئ على خدماته بتعيينه فى منصب كندسطبل فرنسا[٢٩]، وقد اطمأن شارل الخامس إلى أن جيشه غدا فى يد أمينة، فأخذ يعمل على إصلاح أحوال البلاد حتّى نظم الأسواق وأصلح الإدارة القضائية ومهد الطرق وأمنها وعنى بشئون العملة[٣٠]، ويلاحظ أن شارل الخامس قام بكل هذه الإصلاحات دون أن يتعسف فى جمع

---

(25) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie p. 140.

(26) Tout: The Hist. of England, pp. 396 - 397.

(27) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 357.

(28) Lavisse: Hist. de France Tome 4, Premiere Partie p. 169.

(٢٩) كانت وظيفة كندسطبل (كونوستابل) من وظائف الدولة الكبرى عندئذ، إذ صار صاحبها بمثابة رئيس البلاط الملكى وقائد عام الجيش، كما كانت له صفة قضائية فى الفصل فى المنازعات بين الفرسان... إلخ.

(30) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 353 - 362.

الضرائب أو يلجأ إلى الطرق البالية فى إرهاق رعاياه، وهكذا تمكن شارل من استعادة الرخاء فى فرنسا فانتعشت مالية البلاد وأصبح لها جيش وأسطول كبيران، فضلا عمّا كان من تحصين المدن لتقاوم الحصار[٣١].

أمّا بخصوص العلاقات مع إنجلترا فقد اتصل شارل الخامس سرا بنبلاء جاسكونى وحرضهم على التمرد والثورة ضدّ السيطرة الإنجليزية، ولم يكن هؤلاء النبلاء فى حاجة إلى مزيد من التحريض؛ إذ بلغ بهم الاستياء أشده نتيجة لثقل الضرائب والأعباء التى فرضها الإنجليز عليهم ، ممّا أدى إلى تجدد القتال بين الإنجليز والفرنسيين[٣٢] ، وكان أن غزا الأمير الأسود إقليم ليموسان سنة ١٣٦٩ فاضطر سكان هذا الإقليم من الفرنسيين إلى تدمير الزرع والضرع والانسحاب نحو الداخل للاحتماء بحصونهم، وفى العام التالى أحرز الأمير الأسود بضعة انتصارات، وإن كان ذلك لايخفى الحقيقة الواقعة وهى أن جيشه لم يعد مؤلفا من محاربين إنجليز وإنما من مأجورين[٣٣] ، أمّا دى جوسكلين قائد الجيش الفرنسى فقد هاجم جوين متحاشيًا الاصطدام بالأمير الإنجليزى فى معركة فاصلة[٣٤] ، وسرعان ما ساء موقف الإنجليز، ولاسيما بعد أن تحالف أسطول قشتالة مع الأسطول الفرنسى، ونجح الأسطولان فى تدمير أسطول إنجليزى قرب لاروشيل La Rochelie سنة ١٣٧٢[٣٥]، وهكذا اضطر الأمير الأسود إلى العودة إلى إنجلترا سنة ١٣٧٣ بعد أن ساءت حالته الصحية، وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الطرفين امتدت من سنة ١٣٧٤ حتّى سنة ١٣٧٧ ، وعلى الرغم من هذه الهدنة فإن هجمات الفرنسيين لم تتوقف فاجتاحوا معظم جاسكونى، حتى إذا ما انتهت الهدنة بوفاة إدوارد الثالث ملك إنجلترا سنة ١٣٧٧ ، عاود شارل الخامس الحرب العلنية ضدّ الإنجليز[٣٦]، ويبدو أن النجاح حالف الفرنسيين فى هذه المرحلة حتى أن شارل الخامس ومساعده العظيم دى جويسكلين لم يموتا سنة ١٣٨٠ إلا بعد أن

(31) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 200 - 217.

(32) Perroy: op. cit. pp. 132 - 136.

(33) Tout: The Hist. of England, pp. 408 - 412.

(34) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 361.

(35) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie p. 239.

هذا، ويقصد بالأمير الأسود الأمير إدوارد ـ أكبر أبناء إدوارد الثالث ملك إنجلترا.

(36) Com. Med. Hist. Vol, 7, pp. 365 - 366.

تقلصت أملاك الإنجليز على الشاطئ الفرنسي؛ بحيث لم يبق لهم سوى عدة موانئ مثل: كاليه ،وبوردو، وبايون(٣٧).

على أن وفاة شارل الخامس جاءت خسارة كبرى لفرنسا، إذ كان خليفته شارل السادس قاصرا في الثانية عشرة من عمره، ممّا أوقع البلاد في حالة شديدة من الفوضى بسبب الخلاف بين الأوصياء من جهة، والعودة إلى سياسة الإفراط في فرض الضرائب من جهة أخرى(٣٨)، وكان أن ثار الفلمنكيون سنة ١٣٨٢ وحاولوا عقد تحالف مع الإنجليز، ولكن الفرنسيين أخضعوا ثورتهم وحطموا قوتهم ودمروا كثيرا من مدنهم(٣٩).

ثم كان أن سار دوق أورليان في ركاب السياسة الفرنسية ورفض الاعتراف بهنري الرابع ملك إنجلترا (١٣٩٩ - ١٤١٣)، في الوقت الذي أخذ دوق برجنديا يناصر ملك إنجلترا حتّى تمكن من الاستيلاء على باريس سنة ١٤١١ بمساعدة بعض القوات الإنجليزية (٤٠)، وقد شجعت هذه العوامل هنري الخامس ملك إنجلترا (١٤١٣ - ١٤٢٢) على غزو فرنسا، فأنزل قواته سنة ١٤١٥ على الشاطئ الفرنسي وحاصر هارفلير واستولى عليها، ومنها زحف نحو كاليه، وهناك في موقعة أزينكورت Azincourt (٢٥ أكتوبر ١٤١٥) أنزل الإنجليز هزيمة ساحقة بجيش فرنسي يفوقهم عددا، فقتلوا ما يقرب من ستة آلاف فرنسي وأسروا ثمانمائة نبيل في حين لم تتعد خسائر الإنجليز المائة جندي(٤١)، وبعد ذلك عاد هنري الخامس إلى إنجلترا وحالف دوق برجنديا ليعاود غزو فرنسا من جديد بمساعدة البرجنديين، وفي تلك المرة غزا هنري الخامس نورمنديا، كما تمكن حلفاؤه من البرجنديين من الاستيلاء على باريس سنة ١٤١٨(٤٢)، وعلى الرغم من قسوة الشروط التي فرضها هنري الخامس على خصومه فإن الأخيرين اضطروا إلى قبولها، حتى اعترف

---

(37) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 368.
(38) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 368.
(39) Lavisse: op. cit. Tome 4, pp. 280 & 284 - 286.
(40) Oman: The Hist. of England. pp. 222 - 226.
(41) Perroy: op. cit. pp. 208 - 209.
(42) Lavisse: op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 374 - 375.

الفرنسيون فى اتفاقية ترُوى سنة ١٤٢٠ بادعاءات ملك إنجلترا فى فرنسا(٤٣)؛ وهكذا لم يمت هنرى الخامس سنة ١٤٢٢ إلا بعد أن ثبت نفوذه فى الأقاليم التى خولته اتفاقية ترُوى حق السيطرة عليها بحيث صارت نورمنديا، ومين، وتورين، وشامبنى ـ بل حتّى جزيرة فرنسا ile de France(٤٤)، وباريس ـ كلها فى أيدى الإنجليز وحلفائهم البرجنديين، ولم يبق فى أيدى الفرنسيين شمالى اللوار سوى إقليم أنجو، ومن المدن العظيمة الشأن سوى مدينة أورليان (٤٥).

وقد شاءت الظروف أن يموت شارل السادس ملك فرنسا هو الآخر سنة ١٤٢٢، وعندئذ اختار أهل أورليان ولى العهد شارل السابع ملكا، فى حين اختار الإنجليز هنرى السادس الصغير ملكا على فرنسا(٤٦)، وقد بدا شارل السابع ضعيفا عاجزا أمام الإنجليز الذين عاودوا هجماتهم وجددوا انتصاراتهم فى فرنسا، حتّى أخذوا يحاصرون أورليان سنة ١٤٢٨ ليشقوا طريقهم نحو ما تبقى خارج أيديهم من أقاليم فرنسا الشمالية(٤٧)، وفى ذلك الوقت الذى بدأ اليأس يدب فى قلب شارل السابع، حتّى نصحه بعض رجال بلاطه بالفرار إلى إسبانيا أو إسكتلندا، إذا بالقدر يسوق إلى الملك ـ بل إلى فرنسا ـ فتاة ريفية فى السابعة عشر من عمرها لتقوم بدور البطولة فى ذلك الفصل من فصول حرب المائة عام وتخلد اسمها ناصعا على صفحات التاريخ الفرنسى(٤٨).

أمّا هذه الفتاة فهى جان دارك Jeanne d'Arc التى يقال إنها أُخذت تسمع هاتفا يناديها بإنقاذ مليكها وبلادها، ممّا دفعها إلى الذهاب إلى شينون Chinon حيث بلاط الملك(٤٩)، وقد استطاعت جان دارك أن تقنع شارل السابع بتزويدها برداء حربى وبعض الجنود لإنقاذ أورليان(٥٠)، وكان أن انضم بعض المغامرين إلى جان دارك

---

(43) Idem: pp. 366 - 387.

(٤٤) جزيرة فرنسا إقليم فى فرنسا يشمل أجزاء من أحواض السين والمارن والسوم.

(45) Perroy: op. cit. pp. 220 - 221.

(46) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 232 - 233.

(47) Oman: The Hist. of England. p. 302.

(48) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 442 - 443.

(49) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 244.

(50) Perroy: op. cit. pp. 246 - 248.

وهي في طريقها إلى أورليان حتى دخلت المدينة سالمة عن طريق النهر ومعها بعض الإمدادات والمؤن. ولم يلبث ظهور جان دارك في أورليان أن ألهب حماسة المدافعين عن المدينة فقويت هممهم حتى خلصوا أورليان من هجمات الإنجليز واضطر الأخيرون إلى الانسحاب[٥١]، ولم تزل جان دارك تستحث شارل السابع حتى حضر بنفسه إلى ريمس حيث توج ملكا سنة ١٤٢٩ في كاتدرائيتها الكبرى، في حين وقفت جان دارك خلفه تبكي من شدة الفرح[٥٢]، على أن الحظ أخذ يفارق جان دارك بعد ذلك، فرغبت في العودة إلى قريتها لترعى أغنامها، ولكنها وقعت في أسر البرجنديين في مايو ١٤٣٠، وبعد ستة أشهر باعها دوق برجنديا مقابل عشرة آلاف فرنك ذهبي إلى الإنجليز الذين اتهموها بالهرطقة والشعوذة وأعدموها حرقا في ١٠ مايو سنة ١٤٣١ وسط ميدان السوق في مدينة روان[٥٣]،ولم يكن ذلك إلا سنة ١٤٥٥ عندما سمحت البابوية بإعادة النظر في قضيتها، فثبتت براءتها ممّا نسب إليها، ثم أعلن البابا بيوس العاشر سنة ١٩٠٩ ثمّ البابا بندكت الخامس عشر سنة ١٩١٩ تطويبها وتمجيدها في السماء لتصبح في عداد الشهداء[٥٤].

ولكن على الرغم من جهود جان دارك من جهة وانقسام الإنجليز على أنفسهم في بلادهم حول الاستمرار في الحرب من جهة أخرى، فإن سيطرة الإنجليز على فرنسا لم تضعف في سرعة، وفي سنة ١٤٣٥ عرض الفرنسيون تخليهم عن نورمنديا وجوين مقابل تنحي الإنجليز عن مطالبهم في التاج الفرنسي[٥٥]، ولكن الإنجليز رفضوا الاستجابة لهذا العرض، وأصروا على موقفهم في عناد على الرغم من احتجاج المندوب البابوي. ثمّ كان أن هيأت الظروف لشارل السابع بعض المخلصين من مستشاريه فأعفى دوق برجنديا ـ الذي فاق الملك في قوته ـ من التبعية الإقطاعية، وعقد معه حلفا بمقتضى اتفاقية أراس Arras سنة ١٤٣٥ وبذلك حرم الإنجليز من معونة البرجنديين[٥٦]، ويبدو أن هذه الاتفاقية أتاحت فرصة لشارل السابع حتّى

(51) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 247.
(52) Lavisse: op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie pp. 53 - 54.
(53) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 251.
(54) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 358.
(55) Oman: The Hist. of England. p. 321.
(56) Perroy: La Geuerre de Cent Ans, p. 260.

يتفرغ لمشاكله الداخلية ويعالج المسائل المتعلقة بالإدارة والجيش؛ وهكذا لم يلبث أن غدا الفرنسيون على جانب من القوة التى مكنتهم من الاستيلاء على باريس سنة ١٤٣٦ والوقوف من الإنجليز موقف الند للند(٥٧)، حتّى توسط دوقات برجنديا، وأورليان، وبريتانى - فضلا عن البابا - لعقد هدنة بين الطرفين سنة ١٤٤٤(٥٨)، وإذا كانت هذه الهدنة قد عاقت تقدم الفرنسيين فيما بين سنتى ١٤٤٤، ١٤٤٩ فإن الحرب سرعان ما استؤنفت عقب انتهائها مباشرة، وعندئذ أخذ الإعياء والملل يبدوان بوضوح على الإنجليز، فتعاقبت انتصارات الفرنسيين وأخذ أعداؤهم ينسحبون دون مقاومة تذكر، فى حين أقبل الفلاحون والمزارعون فى البلاد المستردة يرحبون بشارل السابع، وأخيرا بذل الإنجليز محاولة يائسة للاحتفاظ بمدينة بوردو، ولكن حتّى هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت بوردو فى أيدى الفرنسيين سنة ١٤٥٣(٥٩).

وهكذا انتهت حرب المائة عام، ولم يبق للإنجليز فى الأراضى الفرنسية سوى كاليه، فى حين عادت فرنسا عند وفاة شارل السابع سنة ١٤٦١ مملكة قوية متماسكة، بلغت فى نهاية القرن الخامس عشر درجة كبيرة من الاتساع وكثرة السكان(٦٠)، حقيقة أن كاليه لم تعد إلى أحضان الوطن الفرنسى إلا سنة ١٥٥٣، وأن ملوك إنجلترا ظلوا متمسكين عدة قرون تالية بلقب «ملوك فرنسا»، ولكن هذه الظواهر وأشباهها كانت ضربا من الشكليات التى لم تستطع أن تحجب حقيقة قيام الدولة الفرنسية الحديثة(٦١).

---

(57) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 252.

(58) Lavisse: op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie p. 85.

(59) Oman: The Hist. of England. pp. 359 - 360.

(60) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 273.

(61) Perroy: op. cit. p. 312.

الباب التاسع عشر
البابوية والحركات الدينية
أواخر العصور الوسطى

البابوية فى أوج عظمتها:

بلغ نفوذ البابوية الروحى، والفكرى والدنيوى، ذروته فى القرن الثالث عشر، عندما صار البابا بمثابة ملك عظيم يتمتع بسلطان زمنى فوق سلطانه الروحى، ويهيمن على كنيسة ضخمة ذات إدارة منظمة، لها قانونها ومحاكمها وتقاليدها، فإذا أراد البابا أمرا فإرادته هى النافذة يطيعها الملوك ويحرصون على تنفيذها، وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان والطرد من رحمة الكنيسة وما يتبع ذلك من متاعب لا قبل لهم بها داخل بلادهم وخارجها[١].

وتبدو لنا هذه الصورة أوضح ما تكون على عهد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى استطاع أن يلعب دوره بمهارة فى السياسة العالمية لغرب أوربا وأن يفرض كلمته على أعظم حكّام الغرب - بل الشرق - المسيحيين[٢]، ولعل ما ذكرناه فى أبواب الكتاب السابقة يكفى للدلالة على عظم نفوذ هذا البابا وعلو كلمته، فقد أسهم بقسط وافر فى توجيه سياسة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عندما ناصر أوتو ضدّ فيليب هوهنشتاوفن، فلما وصل أوتو الرابع إلى العرش وتنكر للبابوية اتجه أنوسنت الثالث بسرعة نحو فردريك الثانى واتخذه سلاحا للقضاء على خصمه[٣]، وفى فرنسا رأينا كيف أخذ أنوسنت الثالث يمد أنفه فى شئونها الداخليه على عهد ملكها فيليب أوغسطس، حتّى إذا ما أراد الأخير أن يقف موقفا حازما من البابوية، إذا بالبابا أنوسنت يوقع قرار الحرمان على بلاده سنة ١٢٠٠، وعندئذ تأرنب الأسد واضطر الملك العظيم فيليب أوغسطس إلى الإذعان وإصلاح أموره مع البابوية حرصا على مكانته ومكانة دولته[٤]، أمّا إنجلترا فلم تنج هى الأخرى من سيطرة البابا

---

(1) Cam. Med. Hst. Vol. 6, pp. 4 - 5.

(2) Eyre: op. cit. p. 202.

(3) Barraclough: op. cit. pp. 208 - 213.

(4) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiere Partie. pp. 145 - 147.

أنوسنت الثالث وعناده، وحسبنا ما أشرنا إليه من موقفه من الملك حنا حول تعيين رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧ وكيف أن البابا أصرَّ على رفض مرشح الملك وأصدر ضدّه وضدّ بلاده قرار الحرمان (١٢٠٧ - ١٢٠٩)، بل استحث فيليب أوغسطس على غزو إنجلترا، مما جعل الملك حنا يذعن أخيرا (سنة ١٢١٣) لرغبة البابا أنوسنت الثالث ويقبل شروطه وهو صاغر[٥].

هذا فى الغرب، أمّا فى الشرق فقد رأينا ما كان من موقف البابا أنوسنت الثالث من استيلاء رجال الحملة الصليبية الرابعة على زارا ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤، مما أدى إلى قيام الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية على أنقاض الدولة البيزنطية[٦]، وهكذا يتضح لنا كيف صارت البابوية فى تلك الحقبة تتحكم فى إسقاط أباطرة وإقامة آخرين، وكيف كان يحرص ملوك أوربا على الخضوع لكلمتها، حتّى أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الحاكم الفعلى للعالم المسيحى الغربى عند مستهل القرن الثالث عشر كان البابا أنوسنت الثالث[٧].

ومن أهم مظاهر السيادة البابوية فى ذلك العصر اتساع نشاط المحكمة البابوية فى روما (Cur'a Romana) حتّى صار الكثيرون يلجأون إلى روما فى القضايا الصغيرة والكبيرة على حد سواء ، ممّا جعل القانون الكنسى يتخذ صفة عالمية من جهة، كما جعل البابوية على صلة وثيقة ببقية أطراف العالم المسيحى من جهة أخرى[٨]، وقدْ توسعت البابوية فى ذلك العصر فى نظام المبعوثين أو المندوبين، فكان البابا يرسل مندوبا ـ أو أكثر ـ إلى أية جهة من جهات العالم المسيحى لحل مشكلة أو التحقيق فى مسألة أو إبلاغ رغبة بابوية، وعن طريق هؤلاء المبعوثين استطاع البابا أن يقف على أحوال الكنيسة المسيحية فى مختلف البلاد الأوربية من ناحية، وأن يضمن تحقيق مصالحه وتنفيذ رغباته من ناحية أخرى[٩].

على أنه من الواضح أن هذه الإدارة البابوية المترامية الأطراف كانت فى حاجة

(5) Adams: op. cit. pp. 409 - 423.

(6) Vasiliev: op. cit Tome, 2, pp. 97 - 101.

(7) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 295.

(8) Ullmann: The Growth of Papal Government. p. 325.

(9) Eyre: op. cit. p. 134.

إلى مالية ضخمة تسد مطالبها وتفى بمظاهرها . وهنا استطاع البابا أن يحصل من الأملاك والأراضى البابوية على العوائد والرسوم نفسها التى حصل عليها الملوك والأمراء فى أراضيهم، زيادة على الأموال التى حصلت عليها البابوية من الأديرة والملوك والأمراء الذين ينشدون حمايتها فى مختلف أنحاء أوربا(١٠)، كذلك اعتادت بعض البلاد الغربية ـ وحكامها ـ أن يدفعوا ضريبة سنوية معينة للبابوية، كما أدى ازدياد نشاط المحكمة البابوية إلى إضافة مورد مهم نتيجة للرسوم القضائية التى تفرض على المتقاضين(١١)، ثمّ جاءت الحروب الصليبية لتهيئ للبابوية موردا جديدا ضخما، إذ أخذ البابوات فى القرن الثالث عشر يفرضون ضريبة إيراد على رجال الكنائس لتمويل الحركة الصليبية، فإذا أضفنا إلى كل ذلك صكوك الغفران التى أكثرت البابوية من بيعها لطالبى التوبة والمغفرة، والرسوم التى كان يتقاضاها البابا عند تقليد رجال الدين مهام مناصبهم الجديدة، أدركنا فى النهاية أن البابوية لم تعدم وجود مصادر عديدة أمدتها بما احتاجت إليه من أموال تفى بمظاهرها ومطالبها(١٢).

الأسر البابلى:

ولكن إذا كان النفوذ البابوى قد بلغ ذروته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إلا أن البابوية سرعان ما تعرضت بعد ذلك لهزات عنيفة زلزلت عرشها وأضعفت مركز الكنيسة وهيبتها، ومهما تعددت الأسباب التى يحاول بها المؤرخون تفسير هذه الأزمات التى أدت إلى إضعاف مركز الكنيسة بوجه عام والبابوية بوجه خاص فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فإن هناك سببا واحدا جديرا بأن يسترعى منا العناية والاهتمام، ألا وهو تطور العقلية الأوربية والمجتمع الأوربى بوجه عام تطورا دنيويا (١٣). فالآفاق الجديدة التى أخذت تتفتح أمام الغرب نتيجة للنشاط التجارى والتطور السياسى وتدفق العلوم الجديدة التى احتضنتها الجامعات الناشئة، هذه التيارات جميعها جعلت الغرب الأوربى ينشغل عن الكنيسة وتعاليمها وقيودها، ويتجه نحو حياة أكثر أهمية من صالح الكنيسة، كما بدأ يسرى الشعور بأن واجب الفرد نحو دولته

---

(10) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 333.

(11) Idem, p. 329.

(12) Eyre: op. cit. pp. 206 - 208..

(13) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 408.

ووطنه ينبغي أن يسبق واجبه نحو كنيسته، ممّا جعل الاتجاه العلماني يشكل خطرا جسيما على السياسة الكنسية.

وثمة فترة في القرن الرابع عشر ظهر فيها تدهور نفوذ البابوية واضحا، بحيث لم يبق لها سوى القليل من سلطانها الواسع الذى كانت عليه فى القرن السابق، ونقصد بهذه الفترة الاثنتين والسبعين سنة الواقعة بين سنتى ١٣٠٥ - ١٣٧٧ التى يطلق عليها في تاريخ البابوية اسم «الأسر البابلى»[١٤]، حيث إن البابوية كانت مقيمة فى أفينون شبه أسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية، ذلك أن العلاقات الطيبة التى ربطت ملوك فرنسا بالبابوية أثناء النزاع بينها وبين الإمبراطور فردريك الثانى لم تلبث أن تغيرت عندما اعتلى عرش فرنسا فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) مما أدى إلى اشتباك هذا الملك الفرنسى مع البابا هنريوس الرابع (١٢٧٥ - ١٢٨٧) ثم مع البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢)[١٥]، وكان أن اجتمع الكرادلة سنة ١٢٩٤ لاختيار خليفة للبابا الأخير، ولم تكن مهمة اختيار بابا جديد عندئذ سهلة بعد أن سادت الفوضى مدينة روما وأصبح الكرادلة تحت رحمة النبلاء من أسرتى أورزينى Orsini وكولونا Colonna المتنافستين، الأمر الذى جعل اختيار البابا مصحوبا بقتال عنيف فى شوارع روما[١٦]، ومهما يكن من أمر فقذ أختير البابا كلستين الخامس ولكنه لم يعمر، فخلفه فى العام نفسه بونيفيس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣)[١٧]، وكان هذا البابا الأخير طاعنا في السن مغرورا، فلم يتورع عن استغلال أموال منصبه فى إثراء ذوى قرباه مما أضرّ بسمعته وسمعة البابوية، فضلا عن إيقاعه فى مشاكل لا حصر لها داخل روما وخارجها[١٨]، وزاد الموقف سوءاً أن فيليب الرابع ملك فرنسا وإدوارد الأول ملك إنجلترا كانا يستعدان عندئذ للدخول فى صراع ضدّ بعضهما البعض حول دوقية جاسكونى، فشعر كلاهما بحاجته إلى المال وبدأ يفرض ضرائب جديدة على رجال الكنيسة فى بلاده[١٩]، وهنا أصدر البابا بونيفيس الثامن مرسوما سنة ١٢٩٦ يحرم على رجال الدين دفع أية ضريبة للملوك والأمراء دون موافقة البابا، ممّا جعل فيليب

---

(14) Stephenson: Med. Hist. p. 503.

(15) Lavisse: op. cit. Tome 3, Premiere Partie. p. 128.

(16) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 4.

(17) Orton: op. cot. p. 350

(18) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 403.

(19) Tout: The Hist. of Englan, p. 220.

الرابع يرد على ذلك بتحريم تصدير الذهب والفضة خارج مملكته، ويتبع ذلك حرمان البابوية من مواردها التى كانت تأتيها من فرنسا(٢٠).

وبعد وفاة بونيفيس الثامن خلفه البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) الذى عمل فى عهده القصير على إصلاح الموقف بين البابوية وفيليب الرابع، ثمّ كان أن اختار الكرادلة بعد ذلك رئيس أساقفة بوردو ليلى منصب البابوية باسم البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤). ولا شك فى أن اختيار أحد رجال الدين الفرنسيين فى ذلك الوقت ليلى منصب البابوية أمر له مغزاه وأهميته إذ يبدو أنه جاء مقترنا بتدخل فيليب الرابع ملك فرنسا(٢١). ومهما يكن من أمر فإن البابا الجديد اختار عندما بلغه خبر انتخابه أن يبقى حيث هو فأرسل إلى الكرادلة يستدعيهم لمقابلته فى ليون، حيث تمت المراسم الخاصة بتوليه منصبه الجديد(٢٢).

ومن الواضح أنه كان مفروضا أن يذهب كلمنت الخامس إلى روما ليجرى المراسم الخاصة باعتلائه منصب البابوية، أو على الأقل يذهب بعد إجراء هذه المراسم إلى مقر كرسيه البابوى، ولكن الجديد فى الموضوع هو أنه اختار البقاء فى أفينون على نهر الرون ليتخذ هذه المدينة مقرا جديدا للبابوية(٢٣)؛ وهكذا أصبحت البابوية - وهى التى قهرت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وآل هوهنشتاوفن - فرنسية، بعد أن وليها بابا من أصل فرنسى، أحاطت به بطانة من الكرادلة الفرنسيين، وعاش فى بقعة تتكلم الفرنسية وتقع على الحدود الفرنسية(٢٤)، ولم يلبث أن غدا كلمنت الخامس يتصدر فى التاريخ قائمة من ستة بابوات فرنسيين اتخذوا أفينون مقاما لهم حتى عاد أخيرا البابا جريجورى الحادى عشر إلى روما سنة ١٣٧٧، وعندئذ انتهت فترة الأسر البابلى(٢٥).

ولاشك فى أن الحياة فى أفينون حينذاك كانت أسهل وأهدأ ممّا كانت عليه فى روما، فإذا كانت قد وقعت فريسة للمؤامرات والمنازعات حتّى غدت البابوية فى أواخر

(20) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie. p. 132.
(21) Prienne: La Fie du Moyen Ages; Tom 1, p. 53.
(22) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 405.
(23) Eyre: op. cit. pp. 470 - 471..
(24) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 405.
(25) Stephenson: Med. Hist. p. 502.

القرن الثالث عشر تحت رحمة كبار الأمراء، فإن أفينون كانت فى مأمن من كل ذلك ولاسيما بعد أن اشتراها البابا كلمنت السادس سنة ١٣٤٨ وصارت ملكا للبابوية(٢٦)، وهكذا قبع بابوات أفينون فى مقرهم الجديد حيث شيدوا قصرا للبابوية على ضفاف الرون وأصبح آية من آيات الفن المعاصر، كما أحاطوا مدينتهم الجديدة بسور منيع يكفل لهم الأمن والطمأنينة(٢٧).

على أن هذا الأمن والسلام اللذين تمتعت بهما البابوية فى أفينون كانا لا يعادلان بأى حال الخسارة الأدبية الكبرى التى لحقت بها لبعدها عن روما(٢٨)، فالبابوية استمدت نشأتها وأهميتها فى نظر العالم الغربى من كرسى القديس بطرس فى روما(٢٩)؛ ولذلك كان حرمان البابا من هذه الصفة - صفة كونه خليفة القديس بطرس فى كرسيه بروما - سببا فى قطع الصلة بينه وبين المنبع الأساسى الذى استمدت منه البابوية أولويتها على بقية أسقفيات الغرب، هذا إلى أنه من المبالغة أن نتصور أن البابوية تمتعت بحريتها كاملة أثناء إقامتها فى أفينون؛ لأن هذه المدينة - وإن لم تكن تابعة لفرنسا سياسيا - إلا أنها كانت محاطة بممتلكات ملوك فرنسا من أسرة كابيه، مما جعل بابوات أفينون يبدون فى نظر المعاصرين صنيعة لملوك فرنسا بل سجناء تحت سلطانهم، حتّى أطلق على هذه الفترة من تاريخ البابوية «الأسر البابلى»(٣٠).

كذلك يلاحظ أن إقامة البابوات فى أفينون حرمتهم من الجزء الأكبر من مواردهم المالية التى اعتادوا الاعتماد عليها فى روما؛ ولذلك حاولت البابوية فى مقرها الجديد الحصول على موارد جديدة عن طريق فرض ضرائب على نطاق واسع(٣١)، ولكن ضعف نفوذ البابوية فى تلك الفترة جعلها تتعرض لمعارضة شديدة من جانب الملوك والأمراء - ولاسيما فى إنجلترا - حيث كانت النظرة إلى بابوات أفينون على أنهم حلفاء الملكية الفرنسية(٣٢)، وهكذا صدر مرسوم فى إنجلترا سنة

---

(26) Cam. Med. Hist. Vol. 7,p. 272
(27) Stephenson: Med. Hist. pp. 502 - 503.
(28) Hearnshaw: Some Great Political Idealists p. 25.
(29) Ullmann: The Growth of Papal Government. p. 2.
(30) Eyre: op. cit. p. 471.
(31) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 408.
(32) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 277.

١٣٥١ ألغى حق البابا فى ملء الوظائف الكنسية الشاغرة فى إنجلترا، كما صدر مرسوم آخر بعد ذلك بسنتين حرم استئناف أى حكم أصدرته محكمة إنجليزية أمام محكمة أخرى أجنبية(٣٣)، وبعد ذلك بنحو عشرين سنة قام حنا وكلف فى إنجلترا بحركته المضادة للبابوية ونفوذها؛ مما يوضح مدى الخسائر الأدبية والمادية التى لحقت بالبابوية خلال فترة الأسر البابلى(٣٤).

على أنه من الإنصاف أن نشير إلى أن بابوات أفينون لم يكونوا من الناحية الشخصية دون غيرهم من البابوات السابقين أو اللاحقين، ذلك أنهم حافظوا على رسالة البابوية فى نشر السلام بين المسيحيين وتكتيل قواهم ضدّ المسلمين، وإرسال البعثات التبشيرية إلى الوثنيين، ومقاومة الهراطقة ومذاهبهم، هذا إلى أن بعضهم كانوا من رجال القانون فاهتموا بالقانون الكنسىّ وأضافوا إليه، وعملوا على تحسين الإدارة البابوية وتغذيتها بالمال اللازم(٣٥).

الانشقاق الدينى الأكبر (١٣٧٨ - ١٤١٧):

ولكن يبدو أن بابوات أفينون أحسوا من أول الأمر أن وضعهم غير طبيعى لأنه على الرغم من المزايا التى حصلوا عليها فى مقرهم الجديد، إلا أن طبيعة الوظيفة البابوية ارتبطت دائما بمدينة روما؛ لذلك فكر هؤلاء البابوات - الواحد بعد الآخر - فى العودة إلى مدينة القديس بطرس، هذا فى الوقت الذى أصيبت روما نفسها بخسارة اقتصادية فادحة كما ازدادت فيها الفوضى نتيجة لتغيب البابوات عنها(٣٦)، ممّا دفع أهلها إلى الإلحاح على البابوات لترك أفينون والعودة إلى مقرهم الطبيعى، وأخيرا قام البابا جريجورى الحادى عشر (١٣٧٠ - ١٣٧٨) برحلة إلى روما - وقد تكون لمجرد الزيارة، ولكن قدر له أن يموت فيها قبل أن يشرع فى العودة إلى أفينون(٣٧). وعندئذ أدرك أهالى روما أن فرصتهم قد حانت فضغطوا على الكرادلة لانتخاب أحد أبناء

(33) Tout: The Hist. of Englan, p. 377.
(34) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 408.
(35) Stephcnson: Med. Hist. p. 503.
(36) Eyre: op. cit. pp. 497 - 498.
(37) Pirnne : La Fin du Moyen Age, p. 95.

روما ـ أو على الأقل إيطاليا ـ لمنصب البابوية، حتى تمّ لهم ما أرادو واختير أوربان السادس (١٣٧٨ - ١٣٨٩) فى منصب البابوية(٣٨).

على أن الكرادلة الفرنسيين لم يرضوا عن تلك النتيجة، فاجتمع ثلاثة عشر منهم فى فوندى Fondi وأعلنوا أن انتخاب البابا أوربان السادس باطل؛ لأنه تمّ تحت تأثير ضغط خارجى، واختاروا كلمنت السابع (١٣٧٨ - ١٣٩٤) لمنصب البابوية، على أن يقيم البابا الجديد فى أفينون، وعلى هذا الوجه بدأ الانشقاق الدينى الأكبر بوجود سلسلة من البابوات فى روما وأخرى فى أفينون(٣٩).

وقد يبدو هذ الانشقاق قليل الأهمية فى نظرنا اليوم، ولكنه بالغ الأثر بالنسبة للعصور الوسطى وتفكيرها، فضلا عن وضع البابوية ونفوذها، ذلك أن العالم المسيحى الغربى سرعان ما انقسم إلى معسكرين كبيرين، فوقفت فرنسا، وإسبانيا، ونابلى وصقلية فى جانب البابا كلمنت السابع،فى حين شايعت إنجلترا ومعظم ألمانيا، وهنغاريا، وبولندا وأمراء شمال إيطاليا البابا أوربان السادس(٤٠)، هذا مع ملاحظة أن الإجماع لم يكن تاما على أحد البابوات فى أى من البلدان السابقة، لا سيما بعد أن لجأ كل بابا إلى تعيين أتباعه فى الوظائف الدينية المتعددة واستغلال جميع الوسائل ـ المشروعة وغير المشروعة ـ لجمع الأموال من الأهالى لنفسه دون خصمه(٤١)، وليت الأمر وقف عند قيام اثنين من البابوات وحزبين من الكرادلة واثنين من رجال الدين المتنافسين حول كل منصب دينى فى الغرب، بل إن كل فريق لجأ إلى تسفيه رأى الفريق الآخر وإظهاره بمظهر عدم اللياقة والصلاحية، واستصدار قرارات الحرمان ضده، مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس المعاصرين، الذين بدأوا يعيدون النظر فى حقيقة منصب البابوية وأهمية البابا ومصدر سلطته(٤٢). وهكذا ظهر من المفكرين فى القرن الرابع عشر من نادوا بأن الكنيسة الحقة إنما تتألف من جمهور المسيحيين، وأن التنظيم الكنسى وعلى رأسه البابا إنما هو من صنع البشر، وأنه كما يختار الناس حاكمهم السياسى لخدمتهم فكذلك ينبغى أن يكون الغرض الأساسى من وجود رجال الكهنوت

(38) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 290.
(39) Lodge: The Close of the Middle Ages, p. 186.
(40) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 961.
(41) Eyre: op. cit. p. 510.
(42) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 962 - 963.

جميعا هو خدمة الجمهور المسيحى، وبعبارة أخرى فإن السلطة العليا سواء فى المسائل الدينية أو الدنيوية يجب أن تترك للناس الذين يجتمعون فى مجامع عامة ليعبروا عن إرادتهم(٤٣).

ومن الواضح أن ظهور هذه الآراء أمر له مغزاه فى الوقت الذى عمّ الاستياء الناس بسبب مطالب البابوية الباهظة، وأخيرا فكر بعض الكرادلة فى إيجاد حل للموقف فعقدوا مجمعا فى بيزة سنة ١٤٠٩ وقرروا عزل كل من بابا روما وبابا أفينون وانتخاب بابا جديد يحل محلهما جميعا، على أن هذه المحاولة جاءت لتزيد الطين بلة إذ اختار الكرادلة فى بيزة البابا إسكندر الخامس الذى لم يلبث أن توفى فخلفه البابا حنا الثالث والعشرون (١٤١٠ – ١٤١٥)، هذا فى الوقت الذى لم يوافق بابا روما أو أفينون على التخلى عن منصبه؛ وبذلك صار للعالم المسيحى الغربى ثلاثة بابوات(٤٤).

ثمّ كان أن اعتلى سجسموند ملك هنغاريا عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤١١ – ١٤٣٧)؛ وهو الرجل الذى اعتقد اعتقادا راسخا فى أهمية الوظيفة الإمبراطورية ومسئولياتها، وقد أحسّ سجسموند بضرورة العمل السريع لوضع حد للانشقاق البابوى، لا سيما بعد أن أخذت حركة حنا هس ـ التى سنبحثها بعد قليل ـ تزداد خطورة وانتشاراً لتجذب بوهيميا خارج حظيرة الكاثوليكية(٤٥). لذلك دعا سجسموند لعقد مجمع دينى عام فى كونستانس سنة ١٤١٣ واستصدر من البابا حنا الثالث والعشرين قراراً بشرعية هذا المجمع، فوافق بابا روما ـ جريجورى الثانى عشر (١٤٠٦ – ١٤١٥) على إرسال مندوبين فى حين امتنع بابا أفينون ـ بندكت الثالث عشر (١٣٩٤ – ١٤٢٢) عن الاشتراك فيه (٤٦).

وكان مجمع كونستانس من أعظم المجامع الدينية وأخطرها، ليس فى العصور الوسطى فقط وإنما فى التاريخ عامة؛ لأن فيه التقى العالم القديم بالعالم الجديد(٤٧)، وليس فقط بسبب الظروف التى عقد فيها والمسائل التى عرضت عليه لمناقشتها، بل

---

(43) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 293 - 294.

(44) Pirnne : La Fin du Moyen Ages, pp. 318 - 322.

(45) Eyre: op. cit. p. 513.

(46) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 2.

(47) Lodge: op. cit. p. 211.

أيضاً نتيجة لتكوينه وأهمية الأعضاء المشتركين فيه، ذلك أنه اشترك فى هذا المجمع ثلاثة بطاركة وتسعة وعشرون كاردينالا وثلاثة وثلاثون من رؤساء الأساقفة، ومائة وخمسون أسقفا، ومائة من مقدمى الأديرة، فضلا عن ثلثمائة من فقهاء اللاهوت(٤٨). وقد بدأ مجمع كونستانس بمناقشة الهرطقة الهسية؛ ولذلك لم يبدأ فى بحث موضوع الانشقاق الدينى بصورة جدية إلا فى أوائل سنة ١٤١٥(٤٩)، على أن مناقشة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الهين، فاستمرت مدة طويلة، ظهر فى أثنائها كثير من التيارات المتعارضة، وإن كان الصالح العام قد تغلب دائما على روح المجمع، وهكذا أدين بابا بيزة - حنا الثالث والعشرون - وعزل من منصبه، سنة ١٤١٥.

أمّا بابا روما - جريجورى الثانى عشر - فقد اختار أسلم الطرق واستقال من منصبه(٥٠). وبهذا لم يبق سوى بابا أفينون - بندكت الثالث عشر - الذى أظهر تمسكا بوظيفته بعد أن زال منافساه من طريقه، ولكن مجمع كونستانس عزله هو الآخر سنة ١٤١٧(٥١). وعندئذ لم يستسلم بندكت الثالث عشر فى سهولة، واختار أن يعتصم بقلعة حصينة حيث ظلّ متمسكا بحقه حتّى مات سنة ١٤٢٢، وقد خلفه كلمنت الثامن (١٤٢٣ - ١٤٢٩)(٥٢)، ومع ذلك لم يعترف بهما أحد من ملوك أوربا أو كبار أمرائها حتّى زالت بابوية أفينون زوالا تلقائيا، أمّا البابا الوحيد الذى اختير ليرأس الكنيسة الغربية فكان مارتن الخامس (١٤١٧ - ١٣٤١)(٥٣).

وهكذا نجح مجمع كونستانس فى علاج الانشقاق الدينى الأكبر فعادت إلى البابوية وحدتها، كما نجح هذا المجمع أيضًا فى تأكيد فكرة سيادة مجمع دينى عام على البابوية. هذا زيادة على جهوده فى العمل على إصلاح الكنيسة ودعمها(٥٤).

---

(48) Painter: A Hist. of th Middle Ages, pp. 411 - 412.
(49) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 301 & Vol.8, p. 4.
(50) Eyre: op. cit. p. 519.
(51) Pirnne : La Fin du Moyen Age, p. 342.
(52) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 9 - 10 & 19.
(53) Idem: Vol, 7, p. 301.
(54) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 969.

البابوات أثناء الانشقاق الأكبر

بابوات روما

أوربان السادس	(١٣٧٨ - ١٣٨٩)
بونيفيس التاسع	(١٣٨٩ - ١٤٠٤)
أنوسنت السابع	(١٤٠٤ - ١٤٠٦)
جريجورى الثانى عشر	(١٤٠٦ - ١٤١٥)

بابوات أفينون

كلمنت السابع	(١٣٧٨ - ١٣٩٤)
بندكت الثالث عشر	(١٣٩٤ - ١٤٢٢)

بابوات مجمع بيزة

إسكندر الخامس	(١٤٠٩ - ١٤١٠)
حنا الثالث والعشرون	(١٤١٠ - ١٤٥١)

على أن مجمع كنستانس لم ينفض سنة ١٤١٧ إلا بعد أن وضع أساس عدة مجامع أخرى ليكمل البناء الذى شرع فيه كونستانس، وكان أول هذه المجامع التى عقدت بعد انفضاض مجمع كونستانس هو مجمع بافيا ـ سنة ١٤٢٣، وثانيها مجمع بازل سنة ١٤٣١(٥٥)، وبعد أن ناقش هذا المجمع الأخير بعض المسائل المتعلقة بالهرطقة الهسية، أصدر البابا أيوجنيوس الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) أمرا بفضه، ولكن أعضاء المجمع رفضوا الإذعان لأمر البابا وأعلنوا استمرار انعقاد المجمع حتّى أصدروا عدة قرارات إصلاحية(٥٦)، وبدراسة هذه القرارات يبدو واضحا أن البابوية كانت هدفها الأول، إذ نص بعضها على عدم دفع رسوم عند التعيين فى وظيفة كنسية وجعل هذا التعيين عن طريق الانتخاب (٥٧)، فى حين نص البعض الآخر على حرمان البابا من حق تعيين الأساقفة، وأخيرا لم يجد البابا أيوجنيوس وسيلة لفض مجمع بازل سوى الدعوة إلى مجمع آخر فى فرارا سنة ١٤٣٧، وقد عقد هذا المجمع الذى دعا إليه البابا فى فرارا ثمّ انتقل إلى فلورنسا (١٤٣٨ - ١٤٣٩) حيث كانت أهم مسألة عرضت عليه هى موضوع إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية(٥٨)، ذلك أن الإمبراطور البيزنطى لم يجد وسيلة يحمى بها نفسه وعاصمته من الخطر العثمانى حينذاك سوى الاتحاد مع غرب أوربا(٥٩)، وبعد نقاش طويل بين الجانبين، وافق مندوبو الكنيسة الشرقية على شروط البابا، وصدر مرسوم باتحاد الكنيستين، وإن كانت الكنيسة الشرقية نفسها لم تأخذ بهذا المرسوم بعد أن أعلن بطاركة الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس (سنة ١٤٤٣) معارضتهم لمشروع الاتحاد ومن ثمّ ظلّ هذا المرسوم عديم الأثر(٦٠).

أمّا عن البابوية فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر، فقد فقدت كثيرا من مظاهر عظمتها وهيبتها الأولى، فضلا عن ضياع ما كان لها من نفوذ سياسى وروحى تمتعت به فى أوائل القرن الثالث عشر؛ ذلك أن البابوات أصبحوا فى تلك الفترة

(55) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 415.
(56) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 24 - 30.
(57) Eyre: op. cit. p. 526.
(58) Lodge: op. cit. p. 236.
(56) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 35.
(60) Vasiliev: op. cit. Tome 2, pp. 372 - 374.

جماعة من المترفين الذين لا يعنيهم من أمر الكنيسة سوى الحصول على أكبر قدر ممكن من المال لتحقيق مصالحهم الخاصة، ومصالح أقاربهم وذويهم[٦١]. هذا إلى أن الأسر البابلى والانشقاق الأكبر أضعفا مركز البابوية بوجه خاص والكنيسة بوجه عام، وعلى الرغم من جهود المصلحين وصيحاتهم التى انبعثت من داخل الكنيسة وخارجها فإن البابوية أصمت أذنيها وأغلقت عينيها وانصرفت عن كل إصلاح، وأخيرا أخذت المبادئ الهرطقية تنتشر سرا فى كثير من البلاد الغربية، وجهراً فى بعضها؛ لتقضى على ما تبقى من نفوذ وهيبة لرجال الدين، وتضع الأساس لحركة الإصلاح الدينى فيما بعد[٦٢].

الحركات الهرطقية:

ليست الآراء الهرطقية بالأشياء الجديدة على المسيحية، فقد شهدت الكنيسة منذ ضحى تاريخها كثيرا من الآراء المنافية لتعاليمها، ممّا جعل البابوات والحكّام يكافحونها فى شدة وعنف، وقد بدأ كثير من هذه الآراء بمهاجمة رجال الكنيسة، وحياتهم المترفة، وثرائهم الفاحش، وبعدهم عن مثُل المسيحية وبساطتها، ثمّ لم يلبث أن تطور هذا الهجوم إلى انتحال آراء جديدة لا تخلو من تطرف وخطورة، من ذلك ما رأيناه فى القرن الثانى عشر من ظهور مذهبين من مذاهب الهرطقة، هما مذهب الألبيجنسيين (الكاثاريين) ومذهب الوالدنسيين، حتّى شنت البابوية عليهما جميعا حربا شعواء انتهت بالقضاء عليهما فى جنوب فرنسا[٦٣]، على أنه لم يكن من المنتظر أن تنتهى الآراء الخارجة على الكنيسة مادامت الكنيسة نفسها منصرفة عن إصلاح أوضاعها، وهنا وجدت الرغبة فى الإصلاح والعودة إلى حياة البساطة منفذا لها فى هيئات الإخوان والرهبان (الفرير) فظهرت عدة منظمات منها فى القرن الثالث عشر، أهمها منظمة الإخوان الفرانسسكان، ومنظمة الإخوان الدومينكان، وكلها تستهدف حياة البساطة، وحماية الكنيسة من الآراء الهرطقية، ودعم البابوية عن طريق إمدادها بأتباع مخلصين متفانين فى خدمة الدين[٦٤].

---

(61) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 171 - 173.

(62) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 428.

(63) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 20.

(64) Eyre: op. cit. pp. 242 - 245.

ثمّ كان أن تدهور مركز البابوية تدهورا واضحا منذ القرن الرابع عشر نتيجة للأسر البابلي، والانشقاق الديني الأكبر، والمجامع الدينية التي وقفت من البابوية موقفا عنيدا، مما ترتب عليه نمو الحركات الهرطقية، وازدياد عدد أتباعها، ولم تكن كل هذه الحركات التي ظهرت على المسرح الأوربي في القرن الرابع عشر جديدة، وإنما كان بعضها قديما، فالوالدنسيون الذين تمّ إخماد حركتهم في القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا قرب الحدود الإسبانية، ظلوا أقوياء في المناطق الواقعة شرقي الرون، حيث كان مركزهم الرئيسي حول مدينة ليون(٦٥)، وكذلك الكاتاريون الذين خبت حركتهم في غرب أوربا، اختفوا من إيطاليا وجنوب فرنسا لينشروا آراءهم شرقي البحر الأدرياتي، حتّى غزا العثمانيون البلقان وعندئذ فرّ من وجههم الكاتاريون لينتشروا في غرب أوربا مرة أخرى(٦٦)، وثمة حركة أخرى شهدها غرب أوربا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر هي حركة السياطين Flagellants، التي جاءت وليدة الذعر الذي أصاب الناس عند انتشار الوباء الأسود، فاعتقدوا أن هذا الوباء مظهر لغضب الله على عباده الآثمين، وأنه لا سبيل إلى النجاة من ذلك الغضب إلا بتعذيب النفس وضرب الجسد بالسياط (٦٧)، وقد بلغ هذا التعذيب درجة من التطرف جعلتهم يضربون أنفسهم بسياط ربطت أطرافها بقطع من الحديد، معتقدين أن من يواظب على هذه العملية ثلاثة وثلاثين يوما ونصف يوم فإنه يضمن تطهير نفسه من جميع ما علق بها من آثام(٦٨)، وهكذا انتشرت جماعات السياطين - رجالا ونساء - يوقعون على أنفسهم هذا الجزاء ويقتلون كل من يعارضهم من اليهود أو من رجال الكنيسة، حتى صدر قرار بابوي بالقضاء عليهم سنة ١٣٤٩، وإن استمرت لهم بقية حتى القرن الخامس عشر(٦٩).

ومهما يكن من أمر هذه الحركات وأشباهها، فإنه لايوجد شك في أن أهم رجلين في العصور الوسطى مهدا لحركة الإصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) فيما بعد - هما حنا وكلف، وحنا هس (٧٠). أما حنا وكلف

(65) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 417.

(66) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 103 - 104.

(67) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 419.

(68) Workman: The Evolution of Monsticism, p. 216.

(69) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 106 - 107.

(70) Thompson: op. cit. Vol 2, p. 963.

John Wycilf فهو إنجليزى ولد سنة ١٣٢٨ فى إحدى قرى يوركشير، ثم تلقى تعليمه فى جامعة أكسفورد، واكتسب شهرة واسعة فى علم اللاهوت، جعلت الملك إدوارد الثالث يختاره سنة ١٣٧٤ عضوا فى البعثة الملكية التى أوفدها إلى بروجز Bruges لمفاوضة مندوبى البابا جريجورى الحادى عشر فى بعض المسائل المختلف عليها بين الطرفين(٧١)، وبعد عودة وكلف من تلك المهمة عكف فى أكسفورد على وضع عدة بحوث مهمة حول العلاقات بين السلطتين العلمانية والكنسية(٧٢)، وتحتل مسألة الملكية ركنا مهماً من أبحاث وكلف، فهو يرى أن الرب وحده هو الذى له ملك السموات والأرض، وأن جميع الصالحين من عباده لهم حق فى ملكية الأرض، وأن هذه الملكية حق مشاع عام بينهم؛ لأن الملكية الفردية إنما جاءت نتيجة لخطيئة آدم(٧٣)، وعلى ذلك لا يصح أن تتردى الكنيسة فى الخطيئة نفسها بل يجب أن تسمو عن الملكية الفردية، كما يجب أن تتخلى عن جميع ممتلكاتها، على أنه يجوز للكنيسة أن تحتفظ ببعض أملاكها إذا استغلتها استغلالا طيبا، وفى هذه الحالة يجب على الملك أو الأمير أن يحدد الجزء الذى تحتفظ به الكنيسة من ممتلكاتها (٧٤)، ويفسر وكلف الثروة الواسعة التى تمتعت بها الكنيسة ورجالها بأنه مظهر من مظاهر انصراف رجال الدين عن مهمتهم الأساسية؛ لأنهم لو قاموا بواجبهم الأصلى ما صارت لهم حاجة إلى هذه الثروة، ثمّ يوضح كذلك أن ثروة الكنيسة عامل من عوامل إفقار الدولة، كما يعيب على رجال الدين عدم تفرغهم لواجباتهم واشتغالهم بالسياسة والإدارة، فى حين اعتبر الديريين فئة من المتعطلين الذين يعيشون عيالاً على المجتمع(٧٥)؛ ولهذا انصب جزء كبير من نقد وكلف على الهيئات الديرية المتباينة - وخاصة منظمات الإخوان الرهبان - بسبب ممتلكاتهم الواسعة من جهة، ولإخفاقهم فى المهمة الأساسية لرجل الدين - وهى العمل على إعلاء كلمة الله - من جهة أخرى(٧٦).

وقد صادفت آراء وكلف هذه هوى فى نفوس عدد من الأمراء الإنجليز الطامعين فى الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، فاستدعوه إلى لندن سنة ١٣٧٦ لشرح آرائه

(71) Winn: Wyclif. pp. XII - XX.

(72) Hearnshaw: Some Gteat Political Idealists of the Christian Era, pp. 35 - 36.

(73) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 497 - 498.

(74) Eyre: op. cit. pp. 521 - 522.

(75) Oman: The Hist. of England, p 69.

(76) Winn: Wyclif, pp. XXVI - XXVII.

على الملأ، مما أثار رجال الدين، وعندما بلغت تعاليم وكلف البابا جريجورى الحادى عشر - غداة عودته من أفينون إلى روما - أنكرها، وأرسل إلى إدوارد الثالث يطلب منه مكافحة هذه التعاليم وحبس وكلف، وإذا كان إدوارد الثالث قد توفى قبل وصول الأوامر البابوية، إلا أن الموقف انتهى بطرد وكلف وشيعته من أكسفورد ، فاعتزل بقية حياته فى إحدى القرى حتّى مات فى هدوء سنة ١٣٨٣[٧٧].

ولوكلف آراء كثير فى اللاهوت تقوم على أساس تعاليم القديس أوغسطين. من ذلك أنه اعتقد فى مبدأ القدر، ورأى أن البعض قدر له الخلاص والرحمة، والبعض الآخر قدر له الهلاك واللعنة الأبدية، «وقد يكون البابا من الفريق الأخير»[٧٨]. كذلك رأى وكلف أن أسلوب المسيحية فى الحياة يجب أن يستقى من الإنجيل نفسه لا من تعاليم رجال الكنسية، وأن الصلة بين الإنسان وخالقه يجب أن تكون مباشرة دون وساطة أحد من رجال الدين أيا كان مركزه فى الكنيسة[٧٩]؛ لهذا أدرك وكلف أن الإنجيل يجب أن يكون فى متناول كل مسيحى، فقام جماعة من أعوانه بترجمة الإنجيل إلى الإنجليزية تحت إشرافه، ممّا كان له أثر كبير فى حركة الإصلاح الدينى فيما بعد[٨٠]، ومن الواضح أن هذه الآراء فى مجموعها هرطقية - أى خارجة على آراء الكنيسة وتعاليمها - لأنها فى جانبها السياسى تحرم الكنيسة من أملاكها ومواردها المالية، وفى جانبها اللاهوتى تهدم السلطة الروحية للكنيسة[٨١].

ومهما يكن من أمر، فقد أخذت آراء وكلف تنتشر بسرعة فى إنجلترا أثناء حياته على أيدى بعض رجال أكسفورد، وبعض القساوسة، ذلك أن هذه الآراء صادفت قبولا كبيرا فى نفوس ثلاث فئات، أولاها رجال العلم من المفكرين الأحرار، ثم الفقراء من أهل الريف، وأخيرا الأمراء الطامعين فى الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، وقد أطلق على أتباع وكلف اسم اللولارديين Lollards الذين أخذوا يزدادون، حتى اضطر البرلمان الإنجليزى إلى إصدار قانون فى عهد هنرى الرابع (سنة ١٤١٠) يقضى

(77) Oman: The Hist. of England, p 80.
(78) Hearnshaw: Some Gteat Political Idealists , pp. 43 - 44.
(79)Winn: op. cit. p. 6.
(80) Idem: pp. 6 - 7.
(81) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 423.

بتسليم كل من يتهم باللولاردية إلى الكنيسة لمحاكمته، فإذا أُدين أحرق حيا بوساطة السلطة الزمنية(٨٢)، وبعد ذلك جاء هنرى الخامس فتطرف فى مطاردتهم والقضاء عليهم، حتّى اختفت اللولاردية فى الظاهر. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل بعض النبلاء يجهرون باعتناقهم اللولاردية نظرا لما فيها من تحقيق لمطامعهم فى أراضى الكنيسة(٨٣)، وكان زعيم اللولارديين حينئذ لورد كوبهام ـ حنا أولد كاسل ـ الذى أثار عدة ثورات فى أوائل عهد هنرى الخامس، ولكنها باءت بالفشل حتى انتهى الأمر بإعدامه سنة ١٤١٧، وبإعدام أولد كاسل انتهى النشاط السياسى للحركة اللولاردية(٨٤).

* * *

على أنه إذا كان قد تمّ القضاء فى سرعة على آراء حنا وكلف وأتباعه فى إنجلترا، إلا أن هذه الآراء سرعان ما انتشرت خارج البلاد حتّى تمخضت عن انفجار عنيف فى بوهيميا. ذلك أن الإمبراطور شارل الرابع (١٣٤٧ – ١٣٧٨) ترك عرش ألمانيا وبوهيميا من بعده لابنه ونسسلاس Wenceslas (١٣٧٨ – ١٤٠٠) فى حين زوج ابنته ـ الأميرة آن ـ لريتشارد الثانى ملك إنجلترا، وقد صحبت هذه المصاهرة بين البيتين المالكين فى بوهيميا وألمانيا من جهة، وإنجلترا من جهة أخرى، هجرة كثير من أهالى بوهيميا بصحبة أميرتهم إلى إنجلترا حيث التحق بعضهم بالجامعات وتأثروا بالآراء التى سادتها، ومن جملتها تعاليم وكلف(٨٥)، وعن هذا الطريق انتقلت آراء وكلف السياسية إلى بوهيميا فى أواخر القرن الرابع عشر، بل لم تلبث تعاليمه فى اللاهوت أن انتقلت هى الأخرى عند مستهل القرن الخامس عشر على يد جيروم البراغى، أحد أساتذة براغ المتحمسين لتعاليم وكلف(٨٦).

وفى ذلك الوقت كانت جامعة براغ التى تأسست عام ١٣٤٨ قد أصبحت مركزا عالميا للدراسات المتباينة (٨٧)، وسرعان ما وجد جيروم البراغى أنصارا أشداء لتعاليم

(82) Oman: The Hist. of England, p 171.
(83) Idem, p. 233.
(84) Idem, p. 267.
(85) Stephenson: Med. Hist. p. 546.
(86) Lodge: op. cit, p. 208.
(87) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 167 - 168.

وكلف بين رجال هذه الجامعة، وخاصة من التشك، الأمير الذى أفزع الكنيسة فأصدرت أمرا سنة ١٤٠٣ بإعدام هذه التعاليم واعتبار أصحابها من الهراطقة(٨٨)، وكان على رأس الأساقفة التشك الذين عارضوا هذا الإجراء حنا هس (John Huss) .

أمّا حنا هس هذا فقد ولد سنة ١٣٧٠ وحصل على إجازة الليسانس فى اللاهوت سنة ١٣٩٣ ثم على الماجستير فى الفلسفة بعد قليل، وبذلك جمع فى دراسته بين تعاليم الإنجيل وتعاليم أرسطو(٨٩). وقد عُرف هس بفصاحته وتحمسه للإصلاح الدينى، وقوته فى مهاجمة نواحى الضعف فى الكنيسة ومفاسد حياة رجال الدين، فاتخذ الوعظ والإرشاد وسيلتين قويتين لشنّ هجومه على هذه المفاسد حتى صار له أنصار عديدون فى مختلف الطبقات، ولكن يلاحظ أنه إذا كان هس قد تأثر بآراء وكلف حتى اعتبر تلميذا له، إلا أنه لم يعتنق كل هذه الآراء، إذ أعلن سنة ١٤١١ أنه لا يتفق مع وكلف، فى بعض المبادئ الرئيسية(٩٠)، والحق أن هس كان داعيا ومصلحا دينيا أكثر منه لاهوتيا أو عالما، فأخذ عن وكلف بعض الآراء التى احتاج إليها فى دعوته، ولم يهتم بالباقى، وهكذا استمر هس يواصل هجماته العنيفة ضدّ الأوضاع السائدة فى الكنيسة، الأمر الذى أفزع رئيس أساقفة براغ فأصدر أمرا بمنع أساتذة الجامعة من الوعظ والإرشاد، ووضع براغ نفسها تحت الحرمان(٩١).

على أن موقف هس لم يتأزم بشكل واضح إلا منذ سنة ١٤١٢ عندما اختلف البابا حنا الثالث والعشرون مع لادسلاس Ladislas ملك نابلى فأعلن البابا حملة صليبية ضدّ الملك، وعندئذ لجأت البابوية - كعادتها طوال الحركة الصليبية - إلى توزيع صكوك الغفران على كل من يسهم فى تلك الحملة أو يتبرع لها بالمال، فى الوقت الذى كان المصلحون - وعلى رأسهم هس - يهاجمون هذه البدعة وينادون بأن صكوك الغفران ليست من الدين فى شىء(٩٢)، وقد ذهب هس فى هجومه على صكوك الغفران إلى حد القول بأن الأوامر البابوية تعتبر باطلة المفعول لا قيمة لها إذا كانت تتعارض مع تعاليم المسيح(٩٣)، ولكن هذا الهجوم كان أقوى من أن تتحمله عقلية

(88) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 425.
(89) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 333.
(90) Eyre: op. cit, p. 522.
(91) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 47.
(92) Lodge: op. cit. p. 211.
(93) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 55.

المعاصرين، فأعلنت جامعة براغ مرة أخرى إعدام آراء وكلف، لاسيما تلك الآراء التى اعتمد عليها هس فى معارضة فكرة صكوك الغفران(٩٤) . أمّا البابا فقد وقع الحرمان على هس، فى حين اضطر الملك ونسسلاس إلى مسايرة التيار فطرد هس وأعوانه من الجامعة، بل من مدينة براغ كلها(٩٥)، وهكذا اضطر هس إلى الانسحاب - فى أواخر سنة ١٤١٢ - إلى جهة ريفية فى بوهيميا حيث استمر فى الدعوة لتعاليمه، كما عكف على كتابة بعض المؤلفات التى يبدو فيها تأثره العميق بآراء وكلف وإن كان أكثر تحفظا من وكلف فى كثير من النواحى(٩٦).

ثمّ كان أن اجتمع مجمع كونستانس - كما سبق أن رأينا - لينظر فى عدة مسائل مهمة، أهمها مسألة وضع حد للهرطقة الهسية؛ لذلك وجهت الدعوة إلى هس لحضور المجمع، فحذره أصدقاؤه من الذهاب، ولكنه وجد فى هذا المجمع فرصة طيبة لشرح آرائه أمام جمهور كبير من المسيحيين، فرحل إلى كونستانس بعد أن حصل على موثق من الملك سجسموند بعدم الاعتداء على حياته(٩٧)، وعندما وصل هس إلى كونستانس فى نوفمبر سنة ١٤١٤ ألقى القبض عليه فى الحال وزج به فى السجن، على الرغم من محاولات سجسموند للإفراج عنه(٩٨)، ثمّ طلب من هس أن يحدد موقفه من خمس وأربعين مسألة مستقاة من آراء وكلف، واثنتين وأربعين مسألة من آرائه هو ، وعندئذ أعلن هس أنه يتفق مع وكلف فى بعض آرائه ويختلف معه فى البعض الآخر، أما آراؤه هو فقد أصرّ عليها ولم يشأ أن يتنكر لها (٩٩). وأخيرا صدر القرار بإدانة هس، فأعدم حرقا سنة ١٤١٥، كما أعدم أيضًا - بعد عام - جيروم البراغى الذى أتى إلى كونستانس لمساندته(١٠٠).

على أن كثيرا من أهالى بوهيميا - على اختلاف طبقاتهم - نظروا إلى هس لاعلى

---

(94) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 459.

(95) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 56.

(96) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 338.

(97) Lodge: op. cit. p. 211.

(98) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 58.

(99) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 346 - 347.

(100) Eyre: op. cit. p. 556.

أنه مصلح دينى فحسب؛ بل على أنه من أئمة القومية التشيكية[١٠١]؛ لذلك حدث فى مايو سنة ١٤١٥ عندما كان هس سجينا ينتظر محاكمته، أن اجتمع جمهور كبير من نبلاء بوهيميا وكتبوا إلى مجمع كونستانس طالبين العفو عنه، ولكن المجمع لم ينظر إلى هذا الطلب بعين الاعتبار، وأمر بإحراق هس، الأمر الذى أثار الشعور العام فى بوهيميا، فاجتمع خمسمائة من نبلائها وأقسموا على عدم تنفيذ أى قرار من قرارات مجمع كونستانس[١٠٢]، وفى سنة ١٤١٩ استولت جموع الهسيين على براغ وذبحوا أعضاء مجلس المدينة، فاتجه إليهم سجسموند ـ الذى خلف أخاه ونسسلاس الرابع فى حكم بوهيميا ـ ولكنه هزم هزيمة ساحقة[١٠٣]، وقد قاد سجسموند عدة حملات صليبية ضدّ الهسيين ولكنه هزم فى كل مرة على أيدى فلاحى بوهيميا (١٤٢٠ - ١٤٢٢)[١٠٤].

على أن الهسيين سرعان ما انقسموا على أنفسهم شيعا بعد وفاة رائدهم؛ ممّا أوجد عدة فرق هرطقية، ومع اختلاف هذه الفرق بعضها مع بعض فى الآراء إلا أنها اتحدت جميعها فى وجه الخطر الخارجى حتّى تمكنت من التغلب على الجيوش العديدة التى أرسلت ضدها[١٠٥]، ولم يهدأ الموقف فى بوهيميا إلا حوالى سنة ١٤٣٤ عندما صفى النبلاء الهسيون والكاثوليك ما بينهم من خلافات، وارتضوا أن يكون سجسموند ملكا على بوهيميا بشرط الاعتراف بعقائد الهسيين المعتدلين (١٤٣٦)[١٠٦]، ومع ذلك فقد ظلت الأوضاع السياسية معقدة فى بوهيميا بقية القرن الخامس عشر، حتّى اعتلى عرشها أكثر من ملك يدين بالعقائد الهسية؛ وهكذا ظلت بوهيميا معقلا للهرطقة والهراطقة إلى ما بعد الحركة المضادة للإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر[١٠٧].

---

(101) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 333.
(102) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 327.
(103) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 69 - 79.
(104) Lodge: op. cit. p. 224.
(105) Pirnne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 356 - 357.
(106) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 82 - 83.
(107) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 428.

الباب العشرون
إسبانيا بين المسلمين والمسيحيين

إسبانيا بعد الفتح الإسلامى:

رأينا كيف غزا المسلمون إسبانيا سنة ٧١١ على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ – ٧١٥) فنجحوا فى القضاء على دولة القوط الغربيين وحاولوا التوغل فى جنوب غاليا حتّى أوقفهم شارل مارتل عند حدهم بعد أن هزمهم فى موقعة تور أو بواتييه (البلاط) سنة ٧٣٢[1]. وكان البربر هم الذين تحملوا العبء الأكبر فى فتح إسبانيا لأن معظم الكتائب التى أسهمت فى هذا الفتح كانت منهم ، ثمّ استمر البربر فى تدفقهم بعد ذلك من شمال أفريقية على تلك البلاد الجديدة، حتّى أوشكت الأندلس أن تصبح امتداداً لبلاد المغرب[2]، ويبدو أن البربر فى شمال أفريقية والأندلس أخذوا يشعرون بقوتهم منذ وقت مبكر، حتّى أشعلوا الثورة سنة ٧٢٩ فى وجه الخلافة الأموية دون أن يتمكن الأمويون من إخماد ثورتهم إلا بصعوبة.

ثمّ كان أن دالت دولة الأمويين، وقام العباسيون فى الخلافة ليثأروا من أبناء البيت الأموى ويقتلوا مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق سنة ٧٥٠. ولكن أحد أبناء البيت الأموى - وهو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام - استطاع الفرار إلى مصر ومنها إلى المغرب فالأندلس، فوصلها سنة ٧٥٠ حيث التف حوله جند الشام من أتباع الأمويين ومواليهم الذين سبق إرسالهم إلى الأندلس لإخماد ثورة البربر، وكان ذلك سنة ٧٥٦ عندما استولى عبد الرحمن - الذى لقب بالداخل - على قرطبة بعد مقاومة شديدة من أمير الأندلس حينذاك - وهو يوسف بن عبدالرحمن الفهرى - وبذلك أصبح عبد الرحمن الداخل أول أمراء بنى أمية بالأندلس[3].

وقد واجهت الأمير عبد الرحمن الأول متاعب عديدة فى دولته الجديدة، أهمها من ناحية البربر الذين لم يستسلموا أو يخضعوا له فى سهولة، بل قاموا بثورة جامحة فى الجهات الشمالية من الدولة، كذلك صادف عبد الرحمن الأول مقاومة شديدة من

(1) Cam. Med, Hst. Vol. 3, p. 309.

(2) Diehl, Marcais: Le Monde Orientale p. 396.

(3) Dozy: Spanish Islam, pp. 187 - 192.

جانب زعماء العرب اليمانيين فى الأندلس، حتّى يقال إن سليمان بن يقظان العربى الكلبى وحلفاءه أرسلوا إلى شارلمان سنة ٧٧٧ طالبين منه الزحف على الأندلس لطرد الأمير عبد الرحمن الداخل[٤]، أمّا مدن إسبانيا فقد ظلت أمدا طويلا مراكز للفتن والاضطرابات، وعلى رأس هذه المدن طليطلة التى كانت عاصمة القوط الغربيين من قبل والتى ظلّ جزء كبير من أهلها على الديانة المسيحية، وهؤلاء لم يستسلموا لحكم المسلمين فى سهولة، هذا إلى أن عبد الرحمن الداخل لم يكد يستقر فى قرطبة حتّى تبعه العلاء بن مغيث من أفريقية سنة ٧٦٣ ليرفع العلم العباسى الأسود فى الأندلس بعد أن عينه الخليفة المنصور العباسى والياً عليها[٥].

ولكن عبد الرحمن الداخل كان واسع الحيلة قوى العزيمة، لايتورع عن اتخاذ أى السبل مادامت توصله إلى هدفه، فأنزل الهزيمة بالعباسيين بعد أن خدع قائدهم[٦]، ثمّ تتابعت انتصاراته بعد ذلك فقضى عشر سنوات فى إخضاع ثورة البربر، كما شتت شمل اليمانية وقتل منهم ثلاثين ألفا[٧].

هذا فى حين لم يصادف شارلمان توفيقا فى حملته على إسبانيا سنة ٧٧٨[٨]، أمّا أهل إسبانيا الأصليون من المسيحيين فقد أخذ كثيرون منهم يقبلون على الإسلام ويعتنقونه فى حماسة واضحة، وهكذا بدأ عبد الرحمن الداخل يجنى ثمار جهوده، فغدت قرطبة عاصمة الدولة الأموية بالأندلس، وإن بقى الأمير عبد الرحمن الداخل وحيدا مكروها فيها لأن سياسته وأخلاقه صرفت الناس عنه.

ثمّ خلف عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٨ ابنه هشام الأول الراضى، الذى كان رجلا فاضلا محبا للخير، فأكرم الفقهاء ورجال الدين وزاد من نفوذهم حتّى أضحوا خطرا عليه وعلى دولته، وقد ظهر على رأس أولئك الفقهاء حينئذ رجل عظيم المواهب هو يحيى بن يحيى الليثى الذى رأى فى تقوى هشام فرصة لرفع فقهاء قرطبة إلى

---

(4) Watts: Spain, p. 32.

ابن الأثير: الكامل سنة ١٥٧هـ.

(٥) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٥٧ – ٥٨.

(6) Dozy: op. cit. p. 199.

(٧) لين بول : العرب فى إسبانيا ص ٦٠.

(8) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 413.

درجة عالية من النفوذ والحرمة، كل ذلك وهشام لا يرى خطرا فى هذه الفئة من رجال الدين حتّى توفى سنة ٧٩٦[٩]، على أن خطر الفقهاء ظهر فى صورة واضحة على عهد خلفه الأمير الحكم الأول المنتصر الذى كان مستهترا بعيدا عن التمسك بأحكام الدين؛ ممّا أثار الفقهاء ضدّه فاستغلوا نفوذهم الواسع فى القيام بثورة عاتية، هجموا فيها على قصر الأمير الحكم بقرطبة بحيث لم يستطع النجاة إلا فى صعوبة[١٠].

وعندما مات الحكم الأول سنة ٨٢٢ خلفه ابنه عبد الرحمن الثانى أو الأوسط الذى أمعن فى اللهو والعبث حتّى أوشكت قرطبة فى عهده أن تتحول إلى بغداد ثانية[١١]، ولعل هذا الوضع الذى انحدر إليه أمراء قرطبة كان من أقوى العوامل التى شجعت المسيحيين بالأندلس على الثورة فى أواخر القرن التاسع، ثمّ أعقبت ثورة المسيحيين عدة ثورات قام بها البربر وغيرهم، فى الوقت الذى تعاقب على كرسى الحكم عدة أمراء لا يرجى من ورائهم نفع، فى ذلك الوقت أخذ الفيكنج - الذين عرفهم مسلمو الأندلس باسم المجوس - يغيرون على إسبانيا فنزلوا على شاطئ غاليسيا قرب منتصف القرن التاسع وأغاروا على لشبونة، وقادس، وأشبيلية[١٢].

وهكذا يمكن القول بأن أحوال الأندلس بعد الفتح الإسلامى لم تستقر وتنتظم إلا فى عهد عبد الرحمن الثالث (٩١٢ – ٩٦١)، ذلك أن عبد الرحمن الثالث استغل الظروف المواتية من جهة وكفايته الشخصية من جهة أخرى فى إخضاع المدن والمنشقين عليه والخارجين على نفوذه، فأخضع ابن حفصون وجماعته، ودانت له أشبيلية التى اعتصم بها بعض زعماء القبائل العربية، أمّا طليطلة فقد اضطرت أخيرا إلى الاستسلام سنة ٩٣٠ بعد حصار طويل[١٣]، ولعل هذا التوفيق الكبير الذى صادفه عبد الرحمن الثالث كان العامل الأساسى الذى شجعه على اتخاذ لقب خليفة، فتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر، والمعروف أن حكّام الأندلس من بنى أمية ظلوا حتّى ذلك

---

(9) Idem: p. 414.

(10) Dozy: op. cit. pp. 250 - 252.

(١١) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٧١.

(12) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 416.

(13) Dozy: op. cit. p. 397.

الوقت يلقبون بالأمراء، ولم يتخذ أحدهم ـ قبل عبد الرحمن الناصر ـ لقب الخلافة ، على الرغم من عدم اعترافهم بخلافة العباسيين. ولكن يبدو أن تواتر الأخبار بضعف نفوذ الخلافة العباسية فى بغداد حينئذ شجع عبد الرحمن الناصرعلى اتخاذ هذه الخطوة، وهكذا قامت خلافة إسلامية ثالثة فى الأندلس، إلى جانب الخلافة العباسية فى المشرق والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية(١٤).

ولاشك فى أن اتخاذ عبد الرحمن الناصر لقب الخلافة أكسبه مكانة كبيرة ونفوذا واسعا فى الداخل والخارج، ففى الداخل هدأت الأحوال وبطلت الثورات وخضع المتمردون، وعلى الحدود بدأ التنافس شديدا بين الخلافة الأموية فى الأندلس والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية حول السيادة على الشطر الغربى من البحر المتوسط، كما أرسل عبد الرحمن الناصر بعض الحملات الحربية ضدّ نافارى وليون فى شمال إسبانيا فصادفت توفيقا(١٥)، أمّا فى الخارج فقد بلغ من شهرة عبد الرحمن الناصر أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع أرسل بعثة إلى قرطبة لتوطيد العلاقة مع الخليفة الأموى لمواجهة العدو المشترك فى الخلافة العباسية(١٦).

ومهما يكن من أمر فإن الخليفة عبد الرحمن الناصر يعتبر آخر عظماء بنى أمية بالأندلس، وقد خلفه فى الحكم ابنه الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله (٩٦١ – ٩٧٦) الذى استأنف سياسة أبيه، مع تركيز الجزء الأكبر من نشاطه فى جمع الكتب وتجليدها وحفظها(١٧)، وعندما توفى الحكم المستنصر سنة ٩٧٦ خلفه ابنه هشام المؤيد الذى كان عندئذ طفلا فى العاشرة من عمره، فقام بالوصاية عليه أحد اليمانية، ويدعى ابن أبى عامر، وكان رئيس الحكومة عندئذ هو المصحفى الحاجب، فأعان ابن أبى عامر على الترقى فى مناصب الحكم حتى ازدادت مكانة الأخير وخاصة بعد أن تمكن من كسر شوكة الصقالبة وتشتيتهم، ولكن لم يلبث ابن أبى عامر أن غدر بالمصحفى وسجنه وأماته مسموما؛ ليحل محله ويصبح «الحاجب» أى صاحب الكلمة العليا فى قرطبة، وذلك بفضل مواهبه الشخصية من جهة، وصداقته الوطيدة مع

---

(14) Diehl, Marcais: op. cit, p. 400.

(15) Cam. Med. Hist. Vol, 3. pp. 419 - 420.

(16) Diehl, Marcais: op. cit, p. 400.

(١٧) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ١٣٧.

صبح ـ أم الخليفة الناصر ـ من جهة أخرى(١٨). وسرعان ما أظهر الحاجب الجديد كفاية كبيرة فى رعاية شئون الدولة، فصدَّ هجمات الدويلات المسيحية فى شمال إسبانيا كما نظم الجيش وأدخل فيه كثيراً من البربر(١٩)، وبعد أن أنزل ابن أبى عامر الهزيمة بقوات التحالف الثلاثى الذى ألفه ملوك ليون، وقشتالة، ونافارى، اتخذ لنفسه لقبا مشابها لألقاب الخلفاء، فلقب نفسه المنصور بالله، ولم يلبث المنصور بالله أن قام بهجوم أوصله إلى قلب قطالونية، كما استولى على برشلونة وأحرقها سنة ٩٨٥(٢٠)، كذلك استولى سنة ٩٩٧ على كومبو ستلا Compostella ودمر كنيسة سانت جاك Saint Jacques (القديس يعقوب) وهى المركز الدينى العظيم فى شمال إسبانيا الذى اعتاد أن يتردد عليه الحجاج من مختلف أنحاء أوربا، ثمّ حمّل الأسرى المسيحيين أبواب الكنيسة وأجراسها على رؤوسهم حتّى وصلوا إلى قرطبة(٢١).

وهكذا استطاع المنصور بالله بن أبى عامر أن يحقق من الانتصارات ما عجز عنه الخلفاء، ويبدو أن شعوره بقوته ومكانته جعله يأنف من لقب «الحاجب» فاتخذ لنفسه لقبا جديدا سنة ٩٩٦ هو لقب «الملك الكريم»(٢٢). وعندما مات المنصور سنة ١٠٠٢ كان نفوذه قد غلب على نفوذ الخليفة، فصارت المراسيم والسكة تصدر جميعا باسمه، كما دعى له على المنابر بحيث لم يبق للخليفة الأموى سوى ظل من النفوذ الدينى، وقد خلف المنصور ابنه المظفر ليقوم بوظيفته، ثمّ خلف هذا الأخير عبد الرحمن، وهو ابن ثان للمنصور من أم مسيحية (أميرة نافارية)، ويبدو أن هذه الصفة التى لصقت بالأمير الأخير جعلته مكروها من المسلمين، لا سيما أن أهل الأندلس لم يكن من رأيهم أن يستأثر وزير بالحكم ـ مهما يكن صالحا ـ وأن الخليفة أو السلطان أو الملك يجب أن يباشر شئون الحكم بنفسه(٢٣)؛ لذلك انتهى الأمر بقتل عبد الرحمن سنة ١٠٠٩، وبذلك تخلصت الخلافة الأموية بالأندلس من تلك السلسلة من الأمراء الذين سيطروا عليها.

---

(18) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 424.

(19) Dozy: op. cit. pp. 492 - 495.

(20) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 425.

(21) Diehl, Marcais: op. cit. p. 401.

(22) Dozy: op. cit. p. 511.

ويلاحظ أنه على الرغم من نجاح المنصور، إلا أن سياسته عادت بأوخم العواقب على الحياة الاقتصادية في إسبانيا الإسلامية، ذلك أن تقويته للجيش واعتماده على عناصر البربر والصقالبة سرعان ما أدت إلى سلسلة من الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية في جوف الدولة، وفي تلك المدة تعاقب على عرش الخلافة عدة خلفاء ولكنهم كانوا جميعا أشبه شيء بالدمى في أيدى القرطبيين أو الصقالبة أو البربر، وظلّ الأمر على ذلك حتّى سنة ١٠٢٧، عندما تولى منصب الخلافة هشام الثالث الملقب بالمعتد وفي بعض المصادر بالمعتمد [٢٤]، وتعتبر الثورة التي أحاطت بهذا الخليفة الأخير سنة ١٠٣١ نهاية للخلافة الأموية بالأندلس إذ تفككت دولة المسلمين في إسبانيا بعد ذلك، وانقسمت إلى عدد من الوحدات والإمارات بحيث لم تقم لهم وحدة سياسية تربطهم وتجعل منهم دولة واحدة متماسكة، وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبي للدولة الإسلامية بالأندلس هو عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر.

* * *

وكان النفوذ الإسلامي في الأندلس يشمل في ذلك العصر ثلاثة أرباع شبه الجزيرة، فكان يحد دولة المسلمين من جهة الشمال الغربي نهر دورو ومن خلفه مملكتا ليون وقشتالة، وإلى الشرق منهما مملكة نافارى (نوارة)، أمّا في الشمال الشرقي فكانت توجد بين جبال البرانس ونهر أبرو مملكة أرغونة وقطالونية، بحيث كانت برشلونة على حدود الأراضي المسيحية. وقد أقام المسلمون في الأندلس نظام الثغور على الحدود بينهم وبين المسيحيين وهي شبيهة من حيث وظيفتها بالماركيات التي أقامها شارلمان على حدود دولته وتولى حكمها قادة يتمتعون بسلطات استثنائية[٢٥].

على أن نقطة الضعف الأساسية في دولة المسلمين بالأندلس هي أن هذه الدولة ضمت عناصر متباينة من ناحية الجنس والأصل، وظلّ أفراد كل عنصر متكتلين متعصبين لجنسهم[٢٦]، ومع أن العرب لم يكونوا أكثر العناصر عددا وأشدهم بطشا إلا أنهم كانوا أعلاها منزلة ودرجة، فاستولوا منذ البداية على خير الضياع والأراضي

---

(٢٣) لين بول: العرب في إسبانيا ص ١٥٣.

(24) Dozy: op. cit. p. 585.

(25) Diehl, Marcais: op. cit, p. 402.

(26) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 428.

الزراعية التى فلحها لهم أهالى البلاد الأصليون، فى حين سكن معظمهم المدن(٢٧)، أما البربر المهاجرون من شمال أفريقية فكانوا يكونون جالية كبيرة فى الأندلس، وقدّ استمر المغرب بمثابة المخزن الكبير الذى يمون دولة المسلمين فى الأندلس بالجند والمقاتلين كلما اشتد ضغط المسيحيين عليهم، حتّى ازدادت أعداد البربر وأصبحت كثرتهم عاملا من عوامل ضعف الدولة الأموية بالأندلس، وقد ظلّ هؤلاء البربر يحيون فى وطنهم الجديد حياتهم الخاصة التى اعتادوها فى بلادهم الأولى، مع بقاء النزعة الانفصالية الاستقلالية متغلبة عليهم. ذلك أنهم عاشوا وفق النظام القبلى، واستقلوا فى أول الأمر ببعض الولايات الغربية فى إسبانيا مثل إسترامادور Estramadura ، ولامانش La Mansha أو بعض جهات المناطق الجبلية فى ليون وغاليسيا وأستوريا Asturia (أشتوريش)؛ حيث احترفوا محاربة المسيحيين فى الجهات المحيطة بهم. واشتهر من هؤلاء البربر فى الأندلس أسرة ذى النون التى تألفت من موسى وأولاده الثلاثة يحيى، وفتح، ومطارف، وجميعهم عرفوا بالشر والقسوة واحتراف السلب حتّى عمّ ضررهم أنحاء البلاد(٢٨)، على أن المهم فى أمر هؤلاء البربر هو أنهم نظروا إلى العرب فى الأندلس نظرة الحقد والكراهية نفسها التى كان ينظر بها بنى جلدتهم فى شمال أفريقية إلى العرب، إذ اعتبروا موسى بن نصير وأعوانه من العرب متطفلين تمتعوا بثمار الجهود التى بذلها طارق بن زياد ورجاله الاثنا عشر ألفا من البربر فى فتح الأندلس ودحر القوط(٢٩).

أمّا فئة الصقالبة فكانت تشمل عددا كبيرا من جموع الأسرى والرقيق الذين يرجع أصلهم إلى مختلف العناصر الأوربية، فالصقالبة فى تاريخ الأندلس لايقصد بهم جماعات من عنصر السلاف فحسب، بل أيضًا من أهالى غاليسيا وعناصر الفرنجة واللمبارديين وكالبريا وغيرها، وكان المسلمون يحصلون على هؤلاء الصقالبة إمّا عن طريق أسرهم فى الحروب أو خطفهم من شواطئ البلاد التى يغيرون عليها ثمّ يستخدمونهم جنودا فى الجيش أو خدما فى قصر الخليفة، ولم تلبث أن ازدادت أعداد الصقالبة فى الأندلس حتّى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا فى قرطبة عند نهاية عهد

---

(27) Diehl, Marcais: op. cit, p. 403.

(٢٨) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٩٣ - ٩٤.

(29) Dozy: op. cit. p. 139.

عبد الرحمن الناصر[٣٠]، ولعل مصدر الخطر فى هذه الفئة هو أن الخلفاء استغلوها أداة للحد من نفوذ الأرستقراطية العربية فى إسبانيا ممّا جعلهم بدورهم خطرا على كيان الدولة[٣١].

وفيما عدا ذلك فقد وجد بدولة الأندلس الإسلامية عدد كبير من أهالى البلاد الأصليين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية مع تأثرهم بلغة العرب وعلومهم وعاداتهم، حتّى أُطلق عليهم اسم المستعربين[٣٢]، وقد تمتع هؤلاء المستعربون بقسط كبير من التسامح فى ظل حكم المسلمين، فباشروا طقوسهم فى كنائسهم ومارسوا حياتهم العادية فى المدن والأرياف دون أدنى تدخل من جانب حكّام البلاد، بل إنهم استقلوا بولاية الغرب (الجرف Algarve) فى جنوب غرب شبه الجزيرة، وملكوا عددا كبيرا من المدن المستقلة بالأندلس، ولعل هذا العطف الذى لمسوه من المسلمين هو الذى أدى بنسبة كبيرة من المستعربين إلى اعتناق الإسلام، فى حين اعترف الذين ظلوا على مسيحيتهم بأنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الفرنج أو القوط[٣٣]، واشتغل معظم هؤلاء المستعربين بفلاحة الأرض فى الأرياف وبالصناعة فى المدن وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة، كما أسهموا بقسط وافر فى الحياة العلمية التى تمثل جانبا واضحا من الحضارة الإسلامية الزاهرة فى الأندلس[٣٤].

أمّا اليهود فكانوا أول فريق من سكان إسبانيا رحب بالفتح الإسلامى بعد ما لقوه من عسف واضطهاد فى عهد القوط الغربيين[٣٥]، وسرعان ما وجد يهود إسبانيا فى الحكم العربى نوعا من التسامح والحرية لم ينعموا بهما منذ أمد بعيد، فانصرفوا إلى مباشرة نشاطهم الاقتصادى والعلمى فى سكينة واطمئنان[٣٦].

والواقع أن الرقى الحضارى الذى بلغته إسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى يعتبر أبرز ظاهرة فى تاريخها طوال العصور الوسطى، فبالفتح الإسلامى انتهى عصر

---

(30) Idem p. 430.

(31) Diehl, Marcais: op. cit, p. 404.

(32) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 438.

(٣٣) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٤١ – ٤٢.

(34) Diehl, Marcais: op. cit, p. 404.

(35) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 429.

الفوضى والاضطرابات والتدهور الذى أصاب شبه الجزيرة فى عهد القوط الغربيين، وأخذ المسلمون ينشرون فى البلاد جوا من الاستقرار والتسامح وينصرفون إلى الإنتاج واستثمار موارد البلاد فى صورة لم تعرفها البلاد من قبل، ولم تلبث أن تحولت مروج إسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى إلى حقول زراعية مثمرة انتشرت فيها أشجار التين والزيتون، والنخيل، فى حين أدخلت زراعة قصب السكر والأرز فى الأجزاء الشرقية، والقطن والكتان فى الأقاليم المحيطة بأشبيلية، والتوت وصناعة الحرير فى الجنوب حول غرناطة(٣٧)، هذا زيادة على المراعى الواسعة التى رُبيت فيها قطعان الماشية للاستفادة من أصوافها وألبانها ولحومها، وقد صحب هذا النشاط الزراعى فى الأندلس اهتمام كبير بالرى ووسائله، إذ أدخل العرب فى إسبانيا نظامهم فى الرى الذى لم يصل الإسبان إلى مثله من قبل ولا من بعد (٣٨)، حتّى أن كثيرا من المصطلحات المستخدمة فى الزراعة والرى فى إسبانيا الحديثة مازالت حتّى اليوم تحمل أسماء عربية أو ذات أصل عربى(٣٩). أمّا المدن فقد صارت مراكز لنشاط تجارى وصناعى واسع، إذ كان يتم فيها تصنيع وبيع وشراء الجزء الأكبر من المحاصيل الزراعية، وكانت أهم المصنوعات صناعة المعادن، والخزف، والزجاج، والمنسوجات القطنية والكتانية والحديدية، فضلا عن التطريز، وقد اشتهرت قرطبة بصناعة الخزف والفخار كما اشتهرت بالجلود التى نسبت إليها، فى حين عرفت طليطلة بالسيوف والأسلحة(٤٠).

والواقع أن قرطبة بلغت درجة كبيرة من الازدهار فى العصر الإسلامى بعد أن غدت مركزا تجاريا وصناعيا وعلميا عظيما، بالإضافة إلى أهميتها السياسية والدينية بوصفها عاصمة الخلافة الأموية بالأندلس، ذلك أن المسلمين أدركوا أهمية موقعها ومميزاتها التى تفوق تلك التى تمتعت بها طليطلة ـ عاصمة القوط الغربيين ـ فاتخذوها حاضرة لهم، وأقاموا فيها القصور، والمساجد، والأسواق ذات الطابع الإسلامى الرفيع، والتى مازال بعضها باقيا حتّى اليوم يشهد على عظمة حضارة المسلمين فى الأندلس، وقد أجمع المؤرخون على أنه لم توجد مدينة أخرى معاصرة فى أوربا ـ خلاف

(36) Dozy: op. cit. pp. 227 - 228 & 232.
(37) Diehl, Marcais: op. cit, p. 407.

(٣٨) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ١٢٢.

(39) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 432.

القسطنطينية - بلغت ما بلغته قرطبة فى العصر الإسلامى من تقدم الحضارة ورخاء الحياة(٤١)، ذلك أن عدد سكانها صار يتراوح بين مليون ونصف مليون، وبلغ عدد منازلها مائتى ألف ومساجدها ثلاثة آلاف وحماماتها العامة ثلاثمائة، حتّى طارت شهرتها بعيدا إلى جوف ألمانيا فذكرتها الراهبة الألمانية هورسويثا Horswitha فى شعرها وأطلقت عليها اسم «جوهرة الدنيا»(٤٢)، ويكفى قرطبة فخرا فى العصر الإسلامى أن أهلها كانوا يستطيعون السير فى طرقاتها بعد غروب الشمس فى ضوء المصابيح العامة، فى حين ظلت لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد بها مصباح عام واحد يضىء ظلمة شوارعها(٤٣)، وسرعان ما غدت قرطبة مركزا للشعراء والأدباء والعلماء، وخاصة منذ عهد الحكم المستنصر الذى أرسل فى شراء أمهات الكتب من القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية، فإذا تعذر شراؤها أرسل من يقوم بنسخها وإحضارها إلى قرطبة، حتّى أصبحت مكتبة قصر الخليفة تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد، وقد صحب هذا النشاط العلمى ازدياد عدد معاهد العلم، وعلى رأسها يأتى مسجد قرطبة الجامع الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٤ وأتمه ابنه هشام سنة ٧٩٣، ثمّ أصبح بمثابة جامعة علمية ضخمة من الطراز الأول، تدرس فيها جميع أنواع المعرفة من علوم دينية كالفقه، والحديث، والشريعة إلى الأدب شعرا ونثرا إلى علوم بحتة كالطب، والفلك، والجغرافيا، والطبيعة، والكيمياء، والفلسفة، وهكذا قصد قرطبة طلاب العلم من مختلف الجهات حتّى أخذت تنازع بغداد مكانتها كأعظم مركز للنشاط الفكرى فى العالم الإسلامى(٤٤). وقد اشتهر من علماء الفقه واللغة فى جامع قرطبة أبو علي القالي وأبوبكر بن معاوية القرشي وابن القوطية(٤٥) ومن علماء الطب والجراحة خلف بن عباس الزهراوى، وأبو مروان بن زهر، والحفيد أبو بكر بن زهر، ومن علماء النبات ابن البيطار ومن الفلاسفة ابن رشد.. وغير هؤلاء كثيرون(٤٦).

---

(40) Draper: A Hist. of th Intellectual Development Vol. 2, p. 29.

(٤١) لين بول : العرب فى إسبانيا ص ١٢٠.

(42) Dozy: op. cit. p. 446.

(43) Draper: op. cit. Vol. 2, p. 29.

(44) Cam. Med. Hist. Vol, 3. pp. 434 - 435.

(45) Dozy: op. cit. p. 455.

(٤٦) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ١٣٢ – ١٣٣ ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص ٤٧٨ وما بعدها.

على أنه ينبغى أن ندرك أن التعليم فى الأندلس لم يقتصر على قرطبة وجامعها. بل انتشر التعليم فى جميع أنحاء الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى حتّى كاد ينمحى الجهل بين الناس، وأصبح كل فرد يعرف القراءة والكتابة فى الوقت الذى ظلّ الجهل فاشيا فى جميع بلاد غرب أوربا المسيحية، حتى بين أرقى الطبقات وذوى المناصب السامية، بحيث لم يعرف القراءة والكتابة سوى قلة معظمها من رجال الدين(٤٧)، ومع ذلك فقد ظن الخليفة الحكم المستنصر أن التعليم فى بلاده أقل ممّا يجب أن يكون عليه، فأنشأ فى قرطبة سبعة وعشرين كتّابا لتعليم أبناء الفقراء بالمجان على حسابه الخاص(٤٨).

التوسع المسيحى فى الأندلس:

ولكن فتح المسلمين لإسبانيا واستقرارهم على حساب الشعوب المسيحية كان أمرا لايمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوربا المسيحية، فإسبانيا كانت من أولى بلاد غرب أوربا التى وصلتها المسيحية وصارت تحتل مكانة ظاهرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما كان فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف بلاد غرب أوربا؛ لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوربا تعمل منذ وقت مبكر على استرداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحى، وحسبنا ما كان من أمر شارلمان وحروبه الإسبانية التى خلدها الأدب فى أنشودة رولان الشهيرة، ولكن يبدو أن استقرار المسلمين فى الأندلس وازدياد قوتهم من جهة، واضطراب أحوال أوربا بعد شارلمان من جهة أخرى حال دون قيام العالم المسيحى الغربى بجهد جدى شامل ضدّ المسلمين فى الأندلس فى القرنين التاسع والعاشر؛ بحيث لم يتعد الأمر بعض الاشتباكات بين المسلمين فى الأندلس والممالك المسيحية فى شمال إسبانيا(٤٩).

ثمّ كان أن أخذت عوامل الضعف تسرى حثيثا فى جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادى عشر، حتّى أن وفاة الملك المنصور سنة ١٠٠٢ تعتبر نهاية المرحلة التى وصلت فيها تلك الخلافة أقصى درجات عظمتها وقوتها، بحيث لم تنته سنة ١٠٣١ إلا

(47) Dozy: op. cit. p. 455.

(48) Ibid.

(49) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 427.

(50) Dozy: op. cit. pp. 589 - 592.

كانت الخلافة الأموية فى الأندلس قد سقطت فعلا(٥٠)، وهنا نلاحظ أمرين مهمين: الأول هو أن انحلال النفوذ السياسى للمسلمين فى الأندلس فى أوائل القرن الحادى عشر لا يعنى بأى حال تدهور نفوذهم الحضارى بالسرعة نفسها، بل إن حضارة المسلمين الفكرية لم تبلغ ذروتها فى الأندلس إلا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر على عصر فيلسوف الأندلس الذائع الصيت ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨)(٥١)، وهو العصر الذى اشتد فيه أيضاً إقبال الأوربيين على ترجمة علوم المسلمين ونقلها من إسبانيا إلى مختلف أنحاء الغرب الأوربى(٥٢). أمّا الأمر الثانى فهو أنه فى الوقت الذى أخذ الانحلال السياسى يدب فى جسم الدولة الإسلامية بالأندلس، دخل غرب أوربا مرحلة جديدة من مراحل تاريخه، هى مرحلة اليقظة والإفاقة التى بدأت من القرن الحادى عشر، بعد أن انكشفت غمة العصور المظلمة وزالت معظم الأخطار العديدة التى ظلت تهدد الغرب الأوربى طوال الشطر الأول من العصور الوسطى، وبدأت تتفتح أمام الغرب آفاق جديدة بدت واضحة فى النشاط الاقتصادى، والاستقرار الاجتماعى والتنظيم السياسى(٥٣)، وبعبارة أخرى فإن الغرب الأوربى أخذ ينهض من سباته فى الوقت نفسه الذى بدأت دولة المسلمين فى إسبانيا تتعرض للانحلال والتفكك، ممّا أتاح الفرصة أمام المسيحية الغربية لاسترداد هذا الجزء الضائع من صميم الوطن الغربى.

وقد ظهر اتجاه يرمى إلى حث نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين بالأندلس منذ أوائل القرن الحادى عشر، عندما تبنى هذا الاتجاه أحد الرهبان الكلونيين، وفى ذلك الوقت كانت الكنيسة تسعى جاهدة لوقف الحروب بين الأمراء وإقرار السلام، فلم تجد وسيلة خيرا من أن توجههم نحو محاربة المسلمين، فى حين رأى رهبان الأديرة الكلونية فى ذلك فرصة طيبة لنشر نظامهم الديرى فى إسبانيا ودعمه ماديا ومعنويا، وكان أن صادفت هذه الدعوة قبولا فى نفوس كثير من الأمراء المغامرين، فنزح بعضهم إلى إسبانيا سنة ١٠١٨، ومعهم أتباعهم لمحاربة المسلمين، وفى سنة ١٠٣٣ توجهت إلى إسبانيا جماعة أخرى بقيادة بعض أمراء برجنديا. ثمّ تكرر تدفق هذه

---

(51) Eyre: op. cit. pp. 295 - 296.

(52) Barker: The European Inheritance; Vol. 1, p. 377.

(53) Eyre: op. cit. pp. 128 - 129.

الجموع الصليبية على إسبانيا سنة ١٠٦٣ وسنة ١٠٧٣ حتى كانت سنة ١٠٨٥، وهى السنة التى شهدت وصول قوة ضخمة إلى إسبانيا بزعامة بعض الأمراء البرجنديين وكونت تولوز(٥٤).

ومن الواضح أن المسلمين فى الأندلس لم يستطيعوا مطلقا فى وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه الجزيرة، وإنما ظلت بعض الجهات ـ وخاصة فى الشمال ـ خارجة عن النفوذ الإسلامى، فقامت بها دويلات مسيحية مستقلة، وفى الوقت الذى سقطت الخلافة الأموية فى قرطبة كانت هناك أربع دويلات مسيحية فى شمال إسبانيا، هى مملكة ليون ومملكة نافارى (نواره) وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة(٥٥). وكانت الزعامة فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر على هذه الدويلات المسيحية فى إسبانيا لمملكة نافارى، التى أخذ ملكها سانشو Sancho (شانجة) ٩٧٠ – ١٠٣٥، يوجه جهوده ضدّ جيرانه المسيحيين بدلا من المسلمين حتى اتخذ لقب إمبراطور، واستطاع قبل وفاته أن يسيطر على جميع إسبانيا المسيحية ما عدا المارك الإسبانى(٥٦)، وقد تقاسم أبناؤه هذه المملكة بعد وفاته فأخذ فردناند الأول مملكة قشتالة، وأخذ أخوه راميرو Ramiro المنطقة الجبلية التى اتسعت بعد ذلك وأصبحت نواة لمملكة أرغونة، كما امتدت فى عهد ملكها ألفونس الأول تجاه وادى نهر أبرو على حساب أمراء سرقسطة(٥٧)، ولم يلبث فردناند الأول ملك قشتالة أن ضمّ إليه مملكة ليون القديمة وأخذ يتوسع بسرعة فى حوض نهر دورو حتى أسس قبل وفاته ـ سنة ١٠٦٥ ـ إمارتين تابعتين له هما كونتية أبورتو Oporto وكونتية مونديجو Mondego (٥٨). على أن التوسع المسيحى فى إسبانيا لم يبلغ درجة خطيرة تسترعى الانتباه إلا فى عهد ألفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ – ١١٠٩) الذى أوغل فى وادى نهر تاجة وأخذ يتأهب للاستيلاء على طليطلة، ويبدو أن ألفونس السادس تخوف فى أول الأمر من الاشتباك فى حرب علنية ضدّ أمير طليطلة، ولكنه تشجع عندما وجد حليفا قويا فى شخص أمير أشبيلية المسلم(٥٩). وهكذا شغل الأميران المسلمان بالحرب فى ما بينهما وتركا الجو خاليا لألفونس السادس ليستولى على

(54) painter: A Hist, of the Middle Ages; p. 193.
(55) Tout: The Empire and the Papacy, p. 466.
(56) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 428.
(57) Chapman: A Hist. of Span p. 58.
(58) Tout: The Empire and the Papacy, p. 367.
(59) Cam. Med. Hist. Vol, 6. p. 367.

أطراف نهر تاجة ويصبح سيد مدريد، عاصمة إسبانيا الحديثة. وقد استمر ألفونس فى توسعه حتّى سقطت طليطلة نفسها في يده سنة ١٠٨٥، وبذلك خسر المسلمون معقلا من أعظم معاقلهم فى الأندلس(٦٠)، وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل فى جميع أنحاء العالم المسيحى، على الرغم من أن ألفونس السادس لايستطيع أن يفخر بأنه استولى عليها بفضل شجاعته وقوة سلاحه، إذ سقطت المدينة في الواقع نتيجة لمساومة سياسية بين القشتاليين وحاكمها المسلم(٦١).

وهنا نسجل ظاهرة بدت واضحة فى حروب ألفونس السادس ومحالفاته حتّى ذلك الوقت، وهى أن تلك الحروب والمحالفات غلب عليها طابع التوسع السياسى، أو بعبارة أخرى لم تتحكم فيها أو تسيطر عليها روح التعصب الدينى فى تلك المرحلة الأولى(٦٢)، بل إن أشهر جنود ألفونس السادس - وهو السيد القمبياطور(٦٣) - الذى يميل القصص إلى تصويره فى صورة الصليبى المدافع عن المسيحية، لم يكن فى الواقع إلا مغامرا شجاعا عديم المبدأ، لم يتردد فى بيع خدماته للمسيحيين والمسلمين سواء.

ومهما يكن من أمر فإن سقوط طليطلة فى أيدى المسيحيين أثار شعور المسلمين الذين هزتهم الصدمة وانتابتهم بسببها المخاوف، وأخذوا يفكرون فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من جهة واسترداد ما فقدوه من أراض وبلاد من جهة أخرى، ولم يتردد ملوك الطوائف فى هذا الموقف من الاستعانة بالمرابطين فى شمال أفريقية، وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تنشل مسلمى إسبانيا من الهوة التى انحدروا إليها(٦٤)، ولذا كان يوسف بن تاشفين ملك المرابطين قد تردد أول الأمر فى قبول

---

(60) Chapman: op. p. 72.

(61) Watts: Spain. p. 66.

(62) Tout: The Empire and the Papacy, p. 467.

(٦٣) اسمه الأصلى لذريق (Rodrigo) ولد فى برغش قرب حاضرة قشتالة فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ودخل فى خدمة ألفونس السادس وأبلى بلاء حسنا فى محاربة المسلمين، ولكن حساد لذريق أوغروا صدر ألفونس ضده فطرده وعندئذ لم يتردد فى الدخول في خدمة المسلمين، وظلّ على ذلك يتقلب بين الجانبين أكثر من مرة، وقد أسماه المسلمون السيد، أما القمبياطور فمعناه البطل المبارز، وأهم المعارك الحربية التي اشترك فيها معركة بلنسية سنة ١٠٧١، كما حاصر بلنسية واستولى عليها سنة ١٠٩٤ ونكل بأهلها المسلمين تنكيلا قاسيا، وأخيرا كانت وفاته سنة ١٠٩٩.

انظر: (Cam. Med.Hist. Vol, 6, pp. 400 - 401)

(64) Dozy: op. cit. pp. 694 - 695.

الدعوة، إلا أنه عاد فعبر مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس عدد ضخم من رجاله البربر الأشداء الذين اجتاحوا الأندلس(٦٥)، وكان ألفونس السادس يحاصر سرقسطة عندما بلغه خبر وصول المرابطين، فترك الحصار واتجه جنوبا لمواجهة هذا الخطر الجديد، فى حين أمد ملك أرغونة ونافارى بإمدادات قوية لدعم الجبهة المسيحية(٦٦)، وعندما التقى الفريقان فى موقعة الزلاقة (أكتوبر سنة ١٠٨٦) نزلت الهزيمة ساحقة بالقشتاليين، ففرّ ألفونس السادس فى شرذمة قليلة من جنده تاركا خلفه بضعة آلاف من القتلى والأسرى (٦٧).

ولم تلبث أن أتيحت الفرصة من جديد لألفونس السادس، وذلك بعد عودة يوسف بن تاشفين إلى شمال أفريقية من جهة، وتجدد الخلاف بين المسلمين فى الأندلس من جهة أخرى، ذلك أن ملوك الطوائف ـ مع ضعفهم ـ عزّ عليهم أن يخضعوا لملك من ملوك البربر، فى حين سخر الأندلسيون من جهل المرابطين وضعف مستواهم الحضارى. ويبدو أن يوسف بن تاشفين أدرك حقيقة أمر ملوك الطوائف بعد أن وجد علاقاتهم بعضهم مع بعض من جهة ومعه من جهة أخرى تقوم على أساس من الخيانة والغدر وعدم الثقة؛ لذلك انتهز ابن تاشفين فرصة استنجاد ملك أشبيلية به ضدّ هجمات المسيحيين سنة ١٠٩٠ ليشنّ حربا على ملوك الطوائف المسلمين فضلا عن القشتاليين المسيحيين(٦٨)، ولم يلبث المرابطون أن استولوا على الأندلس الإسلامية بأجمعها ـ ما عدا بلنسية وطليطلة ـ عند نهاية القرن الحادى عشر، ثمّ سقطت بلنسية فى أيديهم سنة ١١٠٢ عقب وفاة السيد القمبياطور الذى استمر يدافع عنها حتّى وفاته سنة ١٠٩٩ وبذلك لم يبق خارج سلطة المرابطين سوى طليطلة(٦٩)، وفى تلك الأثناء كان ألفونس السادس قد انتهز فرصة انشغال ابن تاشفين فى القضاء على نفوذ ملوك الطوائف واستولى على لشبونه بعد أن اجتاح وادى نهر تاجة من طليطلة حتى البحر. ولكن لم يكد يوسف بن تاشفين يفرغ من أمر الأندلسيين حتى عاد إلى ألفونس فطرده من لشبونة وبقية الجهات التى استولى عليها فى الفترة الأخيرة، وبذلك لم يستطع

---

(65) Cam. Med. Hist. Vol, 6. pp. 398 - 399.

(66) Watts: op. cit. p. 67.

(67) Chapman: op. cit. pp. 70 - 71 & Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 393.

(68) Watts: op. cit. pp. 68 - 69.

(٦٩) ليون بول: العرب فى إسبانيا ص ١٦٢ – ١٦٣.

ألفونس الثبات والمقاومة إلا فى طليطلة، وأخيرا توفى يوسف بن تاشفين سنة ١١٠٦ فى حين لحق به ألفونس السادس(١١٠٨ – ١١٠٩)[٧٠].

ويبدو أن وفاة يوسف بن تاشفين لم تؤثر كثيرا فى الموقف بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا ، إذ لم يستطع المسيحيون استغلال هذه الفرصة بسبب الخلافات الحادة بين قشتالة وليون، على أن المرابطين أنفسهم سرعان ما اعتراهم الوهن نتيجة لانحلال أخلاقهم فى بيئتهم الجديدة المترفة، ففقدوا فى الأندلس صفات البربر الأولى وصبرهم على المشاق والقتال[٧١]. وجرفهم تيار الرذيلة فى طريقه حتى غدوا وليست لهم صناعة إلا معاقرة الخمر ومصاحبة النساء، وقطع الطرق ونهب المدن، بل حرقها كما فعلوا سنة ١١٣٣ بقرطبة وإشبيلية وقرمونة[٧٢]، وعلى الرغم من اشتداد الصراع بين الدولة المسيحية فى إسبانيا عندئذ ـ أى بعد وفاة ألفونس السادس ـ فإن المرابطين لم يستطيعوا انتهاز الفرصة لتحقيق مكاسب جديدة بسبب ما وصلوا إليه من ضعف[٧٣].

ولم تلبث أن عصفت الأحوال بشمال أفريقية عندما ثارت قبائل أطلس (١١٢١ – ١١٢٥) لتقضى على دولة المرابطين وتقيم محلها دولة الموحدين[٧٤]، وبعد أن تمت للموحدين السيادة على شمال أفريقية فكروا فى ضمّ الأندلس بوصفهم ورثة المرابطين فى ملكهم، فعبروا إلى إسبانيا سنة ١١٤٦ واستولوا على أشبيلية ومالقة ثم على قرطبة بعد أربع سنوات، حتى دانت لعبد المؤمن ـ قائد الموحدين ـ معظم بلاد الأندلس الإسلامية[٧٥]. على أن الموحدين لم يتخذوا الأندلس قاعدة لحكمهم؛ وإنما اكتفوا بإرسال نواب ينوبون عنهم فى حكم البلاد فى حين بقى ملوك الموحدين بشمال أفريقية ليرسلوا الجند بين حين وآخر كلما اشتد خطر المسيحيين على ممتلكاتهم فى

---

(70) Tout: The Empire and the Papacy, p. 469.

(71) Cam. Med. Hist. Vol, 6. p. 405.

(٧٢) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(73) Dozy: op. cit. p. 724.

(74) Idem: p. 725.

(75) Cam. Med. Hist. Vol, 6. p. 407.

(٧٦) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ١٨٤ .

إسبانيا(٧٦).

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون قد وجدوا بطلا جديدا فى شخص ألفونس الأول ملك أرغونة، الملقب بالمحارب (The warrior The Battler) والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه المملكة (١١٠٤ - ١١٣٤)، وبعد أن استطاع ألفونس الأول أن يسترد لأرغونة عاصمتها الطبيعية ـ سرقسطة ـ سنة ١١١٨(٧٧)، أخذ يشن غاراته فى جوف بلاد الأندلس الإسلامية، وكان يعود من تلك الغارات مصطحبا معه كثيرا من المستعربين ـ وهم المسيحيون الذى خضعوا لحكم المسلمين وتأثروا بهم ـ ليعيشوا وسط إخوانهم المسيحيين فى الشمال، وأخيرا توفى ألفونس الأول أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤، بعد أن غدت أرغونة ثانية ممالك إسبانيا المسيحية بعد قشتالة(٧٨)، ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها، إذ استطاع ريموند برنجار الرابع كونت برشلونة أن يغزو طرطوشة (Tortosa) سنة ١١٤٨(٧٩)، أمّا فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة فقد اتحدت كونتية أبورتو مع غيرها من الكونتيات القريبة المجاورة لتتكون منها جميعا كونتية البرتغال سنة ١٠٥٩(٨٠)، وكان أشهر حكام هذه الكونتية الأخيرة ألفونس الأول (Alffonso Henriquez) المؤسس الحقيقى لعظمة البرتغال، والذى أوغل سنة ١١٣٩ داخل الأراضى الإسلامية خلف نهر تاجة وأحرز عدة انتصارات مكنته من اتخاذ لقب «ملك البرتغال» فى العام التالى(٨١)، وقد استعان ألفونس الأول هذا سنة ١١٤٧ بأسطول صليبى يحمل جماعة من الإنجليز والفلمنكيين والألمان إلى الأراضى المقدسة للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية، وبمساعدة هذا الأسطول تمكن من طرد المسلمين من لشبونة التى أصبحت منذ ذلك الحين عاصمة المملكة البرتغالية الناشئة(٨٢).

وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية على المشرق والأراضى المقدسة، بل شمل أيضاً المغرب وإسبانيا(٨٣)، فأخذ الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا يساهمون

---

(77) Watts: op. cit. p. 105.

(78) Tout: The Empire and the Papacy, p. 470.

(٧٩) عند مصب نهر أبرو على الجانب الشرقى لإسبانيا.

(80) Stephenson: Portugal, pp. 18 - 19.

(81) Chapman: op. cit. p. 76.

(82) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 194.

(83) Stephenson: Med. Hist., p. 248.

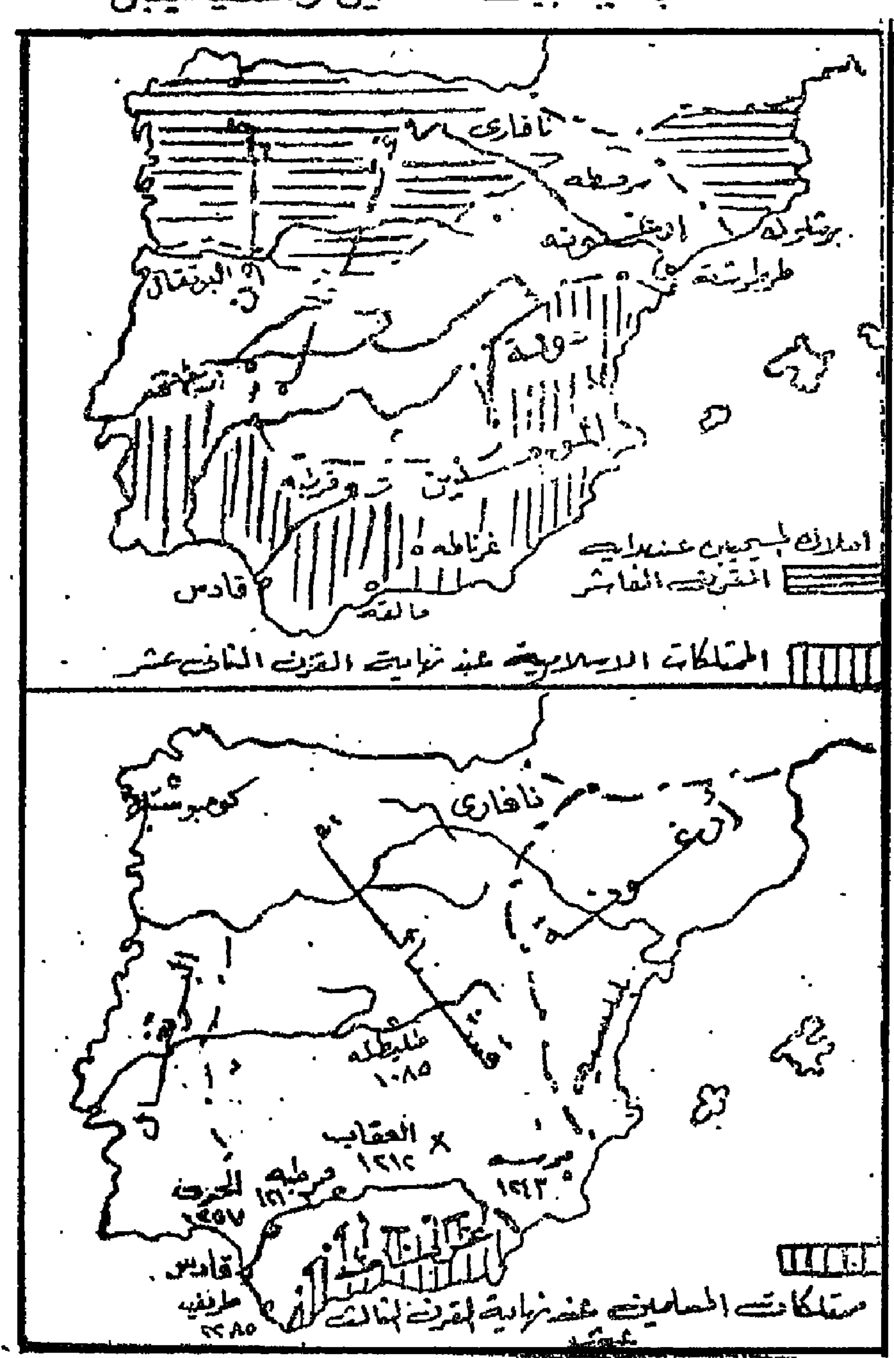
فى فتح لشبونة، كما اشترك الصليبيون الفرنسيون فى مساعدة ريموند برنجار كونت برشلونة وبروفانس، هذا فى حين مدّ فرسان الداوية والاسبتارية نشاطهم إلى وادى نهر أبرو بإسبانيا فضلا عن الشام، ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لها مركزا سنة ١١٤٩ فى إسبانيا، حيث كانوا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من جهة ولمحاربة المسلمين من جهة أخرى، ثمّ تكاثرت بعد ذلك فى إسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية مثل هيئة القديس جوليان التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢، والتى اتخذت بعد ذلك - سنة ١٢١٨ - اسم منظمة القنطرة، بعد أن استولى المسيحيون على هذه البلدة الواقعة على نهر تاجة ونقلوا إليها نشاطهم [٨٤]، ولم تتردد البابوية فى تشجيع هذه المنظمات التى قامت فى إسبانيا بالدور نفسه الذى قامت به الاسبتارية والداوية والتيتون فى الأراضى المقدسة، بل إن البابا إسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث لهما الفضل فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها إسبانيا؛ وهى منظمة سنتياجو Santiago (سنتياجو)، وبفضل تكاثر هذه الهيئات وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين فى حرب الأندلسيين، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليجعلها حربا صليبية مقدسة لا تقل أهمية فى نظر الغربيين المعاصرين عن الحروب الصليبية الدائرة فى المشرق[٨٥]، وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا لم يعد فيها هذا الصراع مجرد حروب محلية متفرقة بين زعماء الفريقين؛ وإنما أصبح صراعا عاما شاملا بين حضارتين متباينتين وديانتين مختلفتين ظلتا تتقاسمان النفوذ وتتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون[٨٦].

وفى تلك الحرب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة منذ البداية، حتّى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة فى موقعة الأرك (Alarcos) سنة ١١٩٥ (٥٩١هـ)، وهى الموقعة التى انتهت بمقتل آلاف من المسيحيين وحصول الموحدين على أعداد من الأسرى وكميات من الغنائم لا حصر لها[٨٧]. ويبدو أن هذه الضربة

---

(84) Tout: The Empire and the Papacy, p. 471.
(85) Chapman: op. cit. pp. 94 - 96.
(86) Tout: The Empire and the Papacy, p. 471.
(87) Cam. Med. Hist. Vol, 6. p. 409.

أسبانيا بين المسلمين والمسيحيين



كان لها أثرها فى وقف تقدم المسيحيين، هذا فضلا عن أثر الحروب المستمرة بين ليون وقشتالة ونوارة (نافارى) وأرغونة (أراغون) فى أواخر القرن الثانى عشر، والواقع أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى سبق أن أشرنا إلى عظمة البابوية فى عهده، كان صاحب الفضل فى إثارة الحماسة الصليبية فى إسبانيا وتشجيع جماعات عديدة من أهالى البلاد الغربية على عبور جبال البرانس (ألبرت) للمشاركة فى الحرب المقدسة ضدّ المسلمين[٨٨]، وفى ذلك الوقت كان ألفونس التاسع (١١٥٨ - ١٢١٤) ملك قشتالة يسعى فى أواخر عهده لتحقيق بعض الانتصارات الكفيلة بمحو الهزيمة التى حلّت به فى موقعة الأرك، وعندما أعلن البابا الحرب الصليبية ضدّ مسلمى الأندلس اجتمع فى شمال إسبانيا عدد كبير من فرسان أوربا تحت زعامة رئيس أساقفة ناربون[٨٩]، ويبدو أن هؤلاء الصليبيين الذين اجتمعوا فى طليطلة لم يجدوا أول الأمر ما يفعلونه لإشباع حماستهم الصليبية سوى ذبح يهود المدينة فى صورة وحشية[٩٠]، وكانت سياسة البابا أنوسنت الثالث عندئذ تستهدف حشد القوى المسيحية ضدّ المسلمين، فأخذ يحث ملك أرغونة وملك نافارى (نوارة) على مشاركة ألفونس التاسع ملك قشتالة فى حربه المقبلة ضدّ المسلمين؛ وبذلك لم يتخلف عن هذه الحرب سوى ملك ليون، وأخيرا دارت موقعة العقاب (Les Navas de Tolosa) الشهيرة سنة ١٢١٢ (٦٠٩هـ) بين الحلفاء المسيحيين وجيش الموحدين[٩١]، وفى هذه الموقعة حلت الهزيمة بالموحدين، فلم تقم لهم قائمة بالأندلس بعد ذلك، وأخذت المدن الإسلامية تتساقط فى أيدى المسيحيين واحدة بعد أخرى؛ بحيث لم يتبق للمسلمين فى إسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة[٩٢].

ذلك أن جيمس الأول (جايم) ملك أرغونة (١٢١٣ - ١٢٧٦) وفردناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ - ١٢٥٢) أكملا العمل الذى بدأه ألفونس التاسع، فاستولى الأول

---

(88) Orton: op. cit. p. 261.

(89) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 195.

(90) Tout: The Empire and the Papacy, p. 472.

(91) Cam. Med. Hist. Vol, 6. p. 416.

(٩٢) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ١٨٤.

(93) Chapman: op. cit. pp. 81 - 82.

على بلنسية سنة ١٢٣٨ وبذلك وصلت مملكة أرغونة إلى حدودها التى ظلت عليها حتّى زوالها كوحدة سياسية مستقلة، فى القرن الخامس عشر(٩٣). أمّا الثانى، وهو فردناند الثالث ملك قشتالة - الملقب بالقديس - فقد استطاع أن يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠، وبعد ذلك فتح قرطبة - مقر خلفاء بنى أمية بالأندلس فى سالف الزمان - سنة ١٢٣٦ وحول مسجد قرطبة الجامع إلى كاتدرائية(٩٤)، وفى سنة ١٢٤٤ استولى فردناند الثالث على أشبيلية، كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠ وبذلك وصل إلى شاطئ الأطلنطى، فى حين استولى خليفته ألفونس العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦ بمساعدة جيمس (جايم) الأول ملك أرغونة(٩٥). هذا فى الوقت الذى وصلت البرتغال سنة ١٢٦٢ إلى حدودها الحديثة بعد أن انتزعت إقليم الجرف (الغرب) من المسلمين. وهكذا لم يبق للمسلمين فى إسبانيا سوى مقاطعة غرناطة - بين جبال نيفادا وساحل البحر - وفى هذه الرقعة الضيقة قدر لهم أن يعيشوا فترة أخرى بلغت نحو قرنين ونصف قرن من الزمان(٩٦).

التطورات السياسية فى أيبريا أواخر العصور الوسطى:

يبدو لنا من العرض السابق للصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس أن منتصف القرن الثالث عشر يمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ إسبانيا (٩٧). ذلك أن طرد المسلمين من معظم بلادهم فى الأندلس، واقتصار نفوذهم على منطقة غرناطة الحصينة فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة، أوجد أمام ملوك إسبانيا وأمرائها المسيحيين مشكلة جديدة، هى مشكلة سد الفراغ الواسع الذى تركه المسلمون خلفهم، وتنظيم هذه الأسلاب والبلاد الفسيحة تنظيماً يتفق مع أطماع كل منهم من جهة، وأغراض الكنيسة من جهة أخرى(٩٨)، وهنا نلاحظ أن المسيحيين أخذوا ينتشرون تدريجيا من شمال شبه الجزيرة إلى الجهات الوسطى والجنوبية منها، وشارك فى هذه الهجرة والانسياح فى أراضى إسبانيا المستردة من المسلمين بعض أهالى بلاد غرب أوربا، وخاصة جنوب فرنسا الذى نزحت منه أعداد كبيرة لتستوطن إسبانيا، أمّا

---

(94) Tout: The Empire and the Papacy, p. 478.

(95) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 415.

(٩٦) لين بول : العرب فى إسبانيا ص ١٨٥.

(97) Lodge: The Close of the Middle Ages, p. 468.

(98) Cam. Med. Hist. Vol, 7. pp. 567 - 568.

الهيئات الدينية العسكرية التى أبلت بلاء حسنا فى محاربة المسلمين فقد فازت هى الأخرى بنصيب الأسد من الغنيمة والأراضى(٩٩).

ولعل أبرز ما يميز الحياة العامة فى إسبانيا المسيحية بعد طرد المسلمين إلى معقلهم فى أقصى الجنوب أن الروح الدينية طغت على تصرفات العامة والخاصة من الأفراد، بل على كل مظاهر الحياة فى البلاد، ذلك أن الأمر لم يقف عند حد التعصب الدينى الذى دفع المسيحيين إلى إحراق آثار المسلمين العلمية والفنية، وهدم بعض المنشآت العامة النافعة التى أفادت منها البلاد، بل ظهر أثر النفوذ الدينى أيضًا فى السلطة العظيمة والثروة الواسعة التى صارت لرجال الكنيسة فى البلاد(١٠٠)، حتى لجأ ملوك إسبانيا إلى الحصول على اعتراف بمكانتهم من البابوية حتى يطمئنوا على سلامة كيانهم فى بلادهم بفضل التأييد الدينى.

ويلاحظ عند دراسة الخطوط العريضة للتاريخ الإسبانى أن هذا التاريخ اتخذ طابعا جديدا بعد استرداد شبه الجزيرة - أو معظمها - من المسلمين، ذلك أن التطور الداخلى فى ممالك إسبانيا الرئيسية الثلاث - وهى قشتالة وأرغونة والبرتغال - أخذ يسير فى الاتجاه نفسه الذى سلكته بقية الممالك الأوربية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى، ولتفسير ذلك يصح أن نلقى نظرة عاجلة على كل مملكة من هذه الممالك الإسبانية الثلاث فى تلك الفترة(١٠١).

مملكة قشتالة:

أمّا قشتالة فقد أضحت منذ اتحادها مع ليون سنة ١٢٣٠ أعظم ممالك إسبانيا وأكبرها، ومن الواضح أن نشأة قشتالة ارتبطت فى التاريخ بالحرب التى نشبت بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا، ممّا أثر أثرا واضحا فى دستورها ونظمها، فالملوك وصلوا إلى مكانتهم كقادة حربيين لاكزعماء سياسيين، ومن ثمّ ظلت هذه الصفة غالبة عليهم، والنبلاء والمدن تمتعوا بقسط وافر من الاستقلال الذاتى حتّى يتسنى لهم مواجهة أى خطر مفاجئ من جانب أعدائهم المسلمين، ورجال الكنيسة حظوا بنفوذ

---

(99) Tout: The Empire and the Papacy, p. 474.

(100) Chapman: op. cit. pp. 164 - 165.

(101) Lodge: op. cit. p. 469.

واسع نظرا لأنهم كانوا مسئولين عن إثارة الشعور الدينى لمواصلة الحرب ضدّ أعداء الدين (١٠٢). وكان لقشتالة مجلس وطنى (Cortes) يتألف من ثلاث طبقات، هى طبقة رجال الدين، وطبقة النبلاء، وطبقة أهالى المدن من البورجوازيين، على أن العامل الأساسى الذى حدّ من نفوذ الملكية لم يكن هذا المجلس الوطنى بقدر ما كان قوة كبار النبلاء الذين صاروا أشبه بأمراء مستقلين فى ضياعهم يعتمدون على أتباعهم فى مواصلة الحروب التى قد تنشب فيما بينهم، أو بينهم وبين الملك، أمّا المدن فى قشتالة فقد ألفت نفسها فى حاجة إلى تأليف أحلاف عسكرية Hermandad للمحافظة على حقوقها من جهة ومقاومة خطر كبار النبلاء من جهة أخرى (١٠٣)، ولعله من حسن حظ الملكية فى قشتالة أن يؤدى التنافس وتعارض المصالح بين مختلف الفئات والطبقات إلى عدم اتحادها لتكون جبهة موحدة ضدّ الملك(١٠٤).

وكان أبرز ملوك قشتالة فى القرن الثالث عشر هو ألفونس العاشر (١٢٥٢ – ١٢٨٤) الذى يميل بعض المؤرخين إلى اعتباره من أعظم ملوك أوربا المعاصرين قاطبة، حتّى وضعوه على قدم المساواة مع لويس التاسع وفردريك الثانى وإدوارد الأول(١٠٥)، وقد اكتسب ألفونس العاشر فى التاريخ لقب «الحكيم» (The Wise) وذلك لسعة اطلاعه وحسن تذوقه للأدب والشعر والتاريخ، زيادة على مهارته فى التشريع(١٠٦)، وإذا كان قد تمّ فى عهده الاستيلاء على مرسية بمساعدة أرغونة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلا أنه سرعان ما ترك حرب المسلمين ووجه جهوده نحو الفوز بلقب الإمبراطورية أثناء فترة الشغور المعروفة فى التاريخ الألمانى(١٠٧). أمّا الفترة الأخيرة من حكمه والتى امتدت إلى عصر خليفته شانجة الرابع (سانشو-San-cho)، ١٢٨٤ – ١٢٩٥، ثم فردناند الرابع (١٢٩٥ – ١٣١٢) فأهم ما كان فيها النزاع بين الأبناء حول الاستئثار بعرش قشتالة فضلا عن الحرب بين كبار النبلاء(١٠٨).

---

(102) Chapman: op. cit. p. 85.
(103) Idem: p. 92
(104) Lodge: op. cit. p. 470.
(105) Tout: The Empire and the Papacy, p. 475.
(106) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 569.
(107) Barraclough: op. cit. p. 244.
(108) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 166.

ولعل هذه الفوضى التى أمست فيها قشتالة جاءت عاملا مشجعا للمسلمين على محاولة استرداد نفوذهم المفقود فى الأندلس، وكانت الدولة التى قنع المسلمون بإقامتها فى غرناطة هى دولة بنى نصر، التى عرف مؤسسها ابن الأحمر(١٠٩) بقوة المراس. وهكذا اقتصر نفوذ المسلمين على منطقة غرناطة فانصرفوا - كعادتهم - إلى النشاط الحضارى ومباشرة الشئون العلمية والزراعية، ومازال قصر الحمراء(١١٠) بهندسته الرائعة وزخارفه الفائقة يشهد على عظمة حضارة المسلمين، حتّى فى تلك الحقبة الأخيرة من تاريخهم فى الأندلس، على أن ضعف قشتالة فى أوائل القرن الرابع عشر لم يلبث أن حرك آمال المسلمين فى استعادة مجدهم المفقود، فعبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير، ثمّ انضم إليه أمير غرناطة وبدأ المسلمون يحاصرون طريف (Tarifa) (١١١)، وعندئذ أحستْ قشتالة بالخطر ، فأسرع ملكها ألفونس الحادى عشر (١٣١٢ -- ١٣٥٠) إلى تهدئة الموقف الداخلى فى بلاده من جهة، ومع ملك البرتغال الذى ثار عندما طلق ألفونس ابنته ليتزوج غيرها من جهة أخرى(١١٢)، وفى سنة ١٣٤٠ تقدم ألفونس الحادى عشر لمحاربة المسلمين فنجح فى إنزال الهزيمة بهم واستولى على بعض معاقلهم فى حين انسحب أمير فاس يجر أذيال الفشل إلى أفريقية(١١٣) . وكان ألفونس الحادى عشر يطمع فى الاستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول إمدادات فى المستقبل من مسلمى أفريقية إلى إخوانهم فى غرناطة .وفعلا أخذ يستعد لحصارها عندما دهم الوباء الأسود البلاد سنة ١٣٥٠ ؛ ممّا اضطره إلى ترك الحصار ليموت بعد قليل(١١٤) .

وبعد وفاة ألفونس الحادى عشر خلفه فى حكم قشتالة ابنه بطرس الأول الملقب بالقاسى (١٣٥٠ – ١٣٦٩)، وإذا صرفنا النظر عن تصرفاته الشخصية التى أكسبته هذا اللقب فى التاريخ، فإننا نجد أن أهم الأعمال التى شغلت حكمه كانت إخضاع ثورة قام بها النبلاء فى بلاده سنة ١٣٥٦ ، وعندئذ انتقم منهم بطرس الأول أشدّ انتقام،

(١٠٩) محمد بن يوسف بن نصر وعرف بابن الأحمر لشقرة فيه.
(١١٠) سمى كذلك تبعا للون التربة التى شيد عليها.

(111) Lodge: op. cit. p. 471.

(112) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 474.

(113) Watts: op. cit. pp. 182 - 183.

(114) Chapman: op. cit. p. 117.

ولكن يبدو أن عامة أهالى الدولة لم يكن لهم نصيب من قسوة بطرس الأول، وأنه اختص النبلاء واليهود وحدهم بهذه القسوة (١١٥)، كذلك أدى النزاع حول وراثة عرش قشتالة فى عهد بطرس الأول إلى تدخل فرنسا وإنجلترا (١٣٦٢ - ١٣٦٩) أثناء تلك المرحلة من مراحل حرب المائة عام فى شئون قشتالة، حتّى انتهى الأمر بهزيمة بطرس الأول وحلفائه الإنجليز وانتصار غريمه هنرى وحلفائه الفرنسيين، ومن ثمّ اعتلى الأخيرعرش قشتالة باسم هنرى الثانى (١٣٦٩ - ١٣٧٩) (١١٦).

ولكن لم يكد هنرى الثانى يعتلى عرش قشتالة حتّى وجد نفسه أمام منافسين أقوياء أهمهم فردناند ملك البرتغال الذى ادعى أحقيته فى عرش قشتالة بحكم كون جدته ابنة شانجة (سانشو) الرابع ملك قشتالة (١٢٨٤ - ١٢٩٥)(١١٧).

ولكن هنرى الثانى صمد أمام أعدائه العديدين ـ أرغونة، ونافارى، والبرتغال وإنجلترا ـ حتّى تمكن بمساعدة الفرنسيين من مهاجمة لشبونة وإجبار ملك البرتغال على عقد الصلح(١١٨)، وبعد ذلك استطاع هنرى الثانى أن يرد الجميل لفرنسا بمساعدتها أثناء حرب المائة عام، فأرسل الأسطول القشتالى لقطع المواصلات البحرية بين إنجلترا وجاسكونى(١١٩).

ومع أن الحرب تجددت بعد وفاة هنرى الثانى بين قشتالة والبرتغال عندما تعرض ابنه وخليفته حنا الأول (١٣٧٩ - ١٣٩٠) لغزو البلاد البرتغالية سنة ١٣٨٥، إلا أن الأزمة انتهت بالصلح بعد قليل، وبعد وفاة حنا الأول خلفه ابنه هنرى الثالث (١٣٩٠ - ١٤٠٦)، الذى كان من أقدر ملوك قشتالة؛ فنشر الأمن والنظام فى بلاده ووقف من النبلاء موقفا حازما(١٢٠)، ولم يعش هنرى الثالث طويلا بسبب سوء صحته فمات سنة ١٤٠٦ تاركا ابنه حنا الثانى فى الثانية من عمره(١٢١) وقد ظلّ حنا الثانى

---

(115) Lodge: op. cit. p. 472.

(116) Tout: The Hist, of England. pp. 403 - 405 & Lavisse: Hist. de France, Tome 4, Premiere Partie, 177 - 181.

(117) Cam. Med. Hist. Vol, 7. pp. 573 - 579.

(118) Chapman: op. cit. pp. 120 - 121.

(119) Tout: The Hist, of England. p. 415.

(120) Lodge: op. cit. p. 474.

(121) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 581 & Vol. 8, p. 479.

شطرا كبيرا من حكمه تحت الوصاية، ومع ذلك فإن أحوال قشتالة انتظمت فى تلك الفترة بفضل الوصاية الرشيدة التى قامت بها أمه على خير وجه، ولكن عندما بلغ حنا الثانى سن الرشد وباشر مهام الملك بنفسه، ظهر سوء تصرفه وعدم كفايته ، فاتصف عهده بالثورات والمؤامرات التى تركت أثرا خطيرا فى أحوال قشتالة[١٢٢]، ثمّ خلف حنا الثانى ابنه هنرى الرابع (١٤٥٤ - ١٤٧٤) الذى ورث أباه فى ضعفه وعدم مقدرته حتى لقبه رعاياه «بالضعيف»، وقد أدت سياسته فى الحكم إلى مولد ثورة خطيرة سنة ١٤٦٥ ، وعندئذ عرض الثائرون تاج قشتالة على أخيه - غير الشقيق - ألفونس، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن توفى سنة ١٤٦٨[١٢٣]، وعندما اتجه الثائرون بعد ذلك إلى أخته إيزابلا - شقيقة ألفونس - رفضت أن تقحم نفسها فى ثورة ضدّ العرش، واكتفت بأن أخذت على هنرى الرابع موثقا بأن تكون لها ولاية العهد[١٢٤]؛ وبذلك هدأت الفتنة واستطاعت إيزابلا أن تتزوج فى العام التالى من فردناند وريث عرش أرغونة، وقد حاول هنرى الرابع أن ينقض العهد ويحرم أخته غير الشقيقة من ولاية العهد، ولكنه توفى سنة ١٤٧٤ قبل أن يحقق غرضه، وهكذا استطاعت إيزابلا أن تجتاز جميع الصعاب التى واجهتها ، وأن تعتلى عرش قشتالة لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ قشتالة، بل فى تاريخ شبه جزيرة أيبريا[١٢٥].

مملكة أرغونة:

أمّا المملكة الثانية فى إسبانيا المسيحية فكانت مملكة أرغونة التى تألفت من ضمّ ثلاثة أقاليم هى: أرغونة، وقطالونية، وبلنسية، ويبدو أن الاتحاد بين هذه الأجزاء الثلاثة لم يكن متيناً بسبب تمسك كل منها بقوانينه ونظمه وعدم رغبته فى التخلى عنها فى سبيل وحدة المملكة، أمّا سلطة الملكية فى أرغونة فكانت أكثر تحديدا وأضيق أفقا منها فى قشتالة، فى حين تمتع كبار النبلاء (Ricos Hombres) بنفوذ واسع جعل منهم شبه أنداد للملك [١٢٦]، ولعل هذه الامتيازات هى التى جعلت هؤلاء النبلاء يتكاتفون ويتحدون للمحافظة عليها، بعكس ما كان عليه نبلاء قشتالة من تفرق الكلمة

---

(122) Chapman: op. cit. p. 122.
(123) Lodge: op. cit. p. 477.
(124) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 480.
(125) Chapman: op. cit. p. 124.
(126) Watts: op. cit. p. 157.

وانعدام الوحدة، حتّى عبر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله: «إن تفريق نبلاء أرغونة أمر لا يقل صعوبة عن توحيد نبلاء قشتالة[١٢٧]، وكان لأرغونة هى الأخرى مجلس وطنى (Cortes) مثلت فيه المدن منذ سنة ١١٣٣ أى قبل أن تمثل فى قشتالة بأكثر من ثلاثين سنة، وقبل أن تمثل بانتظام فى إنجلترا بأكثر من قرن، ولم يكن هذا المجلس عاما لكل المملكة، وإنما كان لكل إقليم من أقاليم المملكة الثلاثة مجلس يتمتع داخل نطاق الإقليم بسلطة عليا فى النواحى القضائية، والتشريعية، والمالية [١٢٧]، وعندما ينعقد هذا المجلس بصفته القضائية كان يرأسه كبير القضاة (Justiciar) الذى لم يتمتع بنفوذ سياسى فى أول الأمر، ولكنه أصبح بمرور الزمن الحكم الأول فى جميع الخلافات التى تنشأ بين الملك ورعاياه وهكذا صارت لهذه الوظيفة مكانة كبرى فى أرغونة على أساس أن صاحبها حامى الحريات والتقاليد الدستورية والمدافع عنها ضدّ الطغيان والاستبداد [١٢٩].

ويلقب جيمس (جايم) الأول ملك أرغونة (١٢١٣ - ١٢٧٦) بالفاتح لأنه استولى على جزر البليار ثمّ على بلنسية من المسلمين، وكذلك يرجع إليه الفضل فى الاستيلاء على مرسية، وإن كان قد سلمها بعد ذلك لملك قشتالة (سنة ١٢٦٦)، وكانت أهم نتيجة لهذه الجهود التى بذلها جيمس الأول، أن أحسّ خلفاؤه بنوع من الاطمئنان فى الداخل جعلهم يتفرغون لمشكلة صقلية وإيطاليا.

ذلك أن بطرس الثالث Pedro III ملك أرغونة (١٢٧٦ - ١٢٨٥) كان قد تزوج من الأميرة كونستانس ابنة مانفرد ملك صقلية ووريثته، وبذلك صار من حقه أن يرث الهوهنشتاوفن فى نابلى وصقلية، وكانت البابوية قد خرجت عندئذ ظافرة من نزاعها الطويل الذى استمر عدة قرون مع أباطرة الدولة الرومانية المقدسة من أسرة هوهنشتاوفن، وبالتالى اعتبرت البابوية نفسها قيمة أو وصية على أراضى هؤلاء الأباطرة فى جنوب إيطاليا وصقلية [١٣٠]، ولما كان مانفرد ملك صقلية أحد أعضاء البيت الإمبراطورى المهزوم، فإنه رفض أن يعترف بمطالب البابوية ، ممّا جعل البابا

---

(127) Lodge: op. cit. p. 478.

(128) Watts: op. cit. pp. 152 - 155.

(129) Lodge: op. cit. pp. 478 - 479.

(130) Lodge: op. cit. pp. 479 - 480.

يعرض مملكة صقلية على أحد الأمراء الفرنسيين ـ وهو شارل الأنجوى Charles of Anjou ليحكمها تابعا للبابا[١٣١]، وقد قبل شارل عرض البابوية وغزا صقلية ليقتل مانفرد ويحكم الجزيرة حكما تعسفيا جائراً. الأمر الذى أثار ثورة جامحة فى صقلية سنة ١٢٨٢، وعندئذ أسرع الصقليون إلى دعوة بطرس الثالث ملك أرغونة لمساعدتهم، فوجد بطرس الفرصة سانحة للمطالبة بحقوق زوجته فى عرش الجزيرة، وغزا صقلية فى العام نفسه، ولم تمض مدة طويلة حتّى كان بطرس الثالث سيد الجزيرة، كما تمكن ـ عن طريق أمير أسطوله روجر دى لوريا Roger de Lauria ـ من بسط سيطرته على جزء من الشاطئ الإيطالى[١٣٢].

على أن بطرس الثالث لم يهنأ بصقلية طويلا؛ لأن موقفه أثار البابوية وهى فى أوج سلطانها فى القرن الثالث عشر، فلم يلبث البابا مارتن الرابع (١٢٨١ – ١٢٨٥) أن أصدر قرار الحرمان ضدّه، ونادى بعزله من مملكة أرغونة، وإعطاء عرشه لشارل فالوا ثانى أبناء ملك فرنسا (١٢٨٣) [١٣٣]. بل إن البابا ذهب إلى حد إعلان حملة صليبية ضدّ بطرس الثالث ملك أرغونة، وفعلا تأهبت الجيوش الفرنسية للغزو واجتاحت جزءا كبيرا من قطالونية. وعندما أظلم الموقف أمام بطرس الثالث ملك أرغونة، لاح بصيص من النور إذا أحرز قائده البحرى روجر دى لوريا نصرا كبيرا على الأعداء فى حين انتشر وباء فتّاك بين الجنود الفرنسيين الغزاة، وفى العام نفسه فى (سنة ١٢٨٥) توفى بطرس الثالث ولكن بعد أن عرض إعادة صقلية إلى البابوية ليخلص من هذه المشاكل[١٣٤].

وبعد ذلك خلفه ابنه ألفونس الثالث فى عرش أرغونة (١٢٨٥ – ١٢٩١) الذى لم يشأ أن يتخلى عن صقلية، واختار لها أن تكون مملكة منفصلة تحت حكم أخيه جيم (Jaime)، وبذلك تجدد النزاع بين أرغونة من جهة وفرنسا من جهة أخرى، ويبدو أن ألفونس الثالث اعتمد فى موقفه من البابوية وفرنسا على مساعدة إدوارد الأول ملك إنجلترا الذى وضع مشروعا لزواج ابنته من ألفونس[١٣٥]، على أن ألفونس الثالث لم

---

(131) Cam. Med. Hist. Vol, 7. pp. 582 - 583.

(132) Chapman: op. cit. p. 172.

(133) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 114.

(134) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, pp. 116 - 117.

(135) Watts: op. p. 191.

يكن على شىء من مقدرة أبيه وكفايته، فلم يلبث أن تراجع أمام البابوية ونزل عند مطالبها سنة ١٢٩١[١٣٦].

وربما كان السبب فى موقف ألفونس الثالث الضعيف من البابوية هو أنه كان مشغولا فى الداخل فى صراع مع نبلاء إقليمى أرغونة وبلنسية الذين اتحدوا للحصول على مزيد من الامتيازات من الملك، وأخيرا اضطر ملك أرغونة إلى النزول على رغبة الأمراء فمنحهم مطالبهم سنة ١٢٨٧[١٣٧]، وقد حاول خليفته وأخوه جيم الثانى (Jaime II) (١٢٩١ – ١٣٢٧)، أن يقلل من أثر هذه الامتيازات الجديدة التى منحها ألفونس الثالث للنبلاء، ولكن أهمية عهد جيم الثانى تبدو فى سياسته الخارجية أكثر منها فى الأحوال الداخلية لمملكة أرغونة[١٣٨]؛ ذلك أنه أظهر تمسكا بصقلية فى أول الأمر ـ بعد أن كان حاكما عليها قبل أن يعتلى العرش، وأرسل إليها ابنه فردريك (Fradrique) لينوب عنه فى حكمها، ولكنه عاد فعدل عن رأيه وعقد اتفاقية مع البابا بونيفيس الثامن سنة ١٢٩٥ تشبه تلك التى سبق أن عقدها ألفونس الثالث فتنازل للبابا عن صقلية، على أن يسمح له بغزو سردينيا وكورسيكا ليحكمها نائبا عن البابا[١٣٩]، ولم يرض الصقليون عن هذه الاتفاقية التى لم يمثلوا فيها، فثاروا حتى تمّ الاتفاق أخيرا، سنة ١٣٠٢ بعد حرب طويلة، على أن يتزوج فردريك من ابنة الأمير الأنجوى الذى رشحته البابوية لحكم صقلية، وأن يرث فردريك حماه فى حكم الجزيرة[١٤٠]، وفى أواخر عهد جيم الثانى نجح أكبر أبنائه فى غزو سردينيا سنة ١٣٢٤، كما حدث فى ذلك الوقت أن استطاع أهل قطالونية من الجند المرتزقة أن يبسطوا سيطرتهم على دوقية أثينا ويلعبوا دورا مهماً فى تاريخ الجزء الشرقى من البحر المتوسط[١٤١].

أمّا ألفونس الرابع الذى تولى حكم أرغونة بعد ذلك (١٣٢٧ – ١٣٣٦) فليس لعهده أهمية سوى الحروب التى دارت حينئذ مع بيزة وجنوة حول امتلاك سردينيا،

---

(136) Chapman: op. cit. p. 127.
(137) Lodge: op. cit. p. 481.
(138) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 586.
(139) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1. p. 172.
(140) Chapman: op. cit. p. 128.
(141) Vasiliev: op. cit. Tome 1. pp. 284 - 290.

وبعد ذلك خلفه فى حكم أرغونة بطرس الرابع (١٣٣٦ - ١٣٨٧) الذى كرّس كل جهوده فى تحرير الملكية من بعض القيود التى رزحت تحتها، حتّى غدا حكمه سلسلة متصلة الحلقات من الصراع بينه وبين كبار النبلاء[١٤٢]، وقد بدأ اصطدامه بالنبلاء عندما حاول إحلال ابنته كونستانس محل أخيه جيمس فى ولاية عهد المملكة؛ لأن بطرس الرابع لم يرزق ولدا ذكرا يخلفه في الحكم [١٤٣]، وعلى الرغم من أنه لا يوجد تقليد أو قانون فى أرغونة يمنع الإناث من ولاية الحكم. إلا أن الشعور العام اتجه دائما نحو تولية الذكور حتّى ولو كانوا أبعد قرابة من الإناث[١٤٤]. وقد استغل نبلاء أرغونة ومدنها هذه الفرصة لممارسة الحقوق التى حصلوا عليها سنة ١٢٨٧ بطريقة عملية، فقاوموا رغبة الملك واضطروه إلى الإذعان لمطالبهم سنة ١٣٤٧، على أن بطرس الرابع لم يكن بالرجل الذى يستسلم للهزيمة، فعاود النزاع مع النبلاء فى العام نفسه ووقفت إلى جانبه مدن إقليم قطالونية ونبلاؤه، وهم الذين أدركوا أن مصالحهم التوسعية فى البحر المتوسط تتطلب حاكما قويا، فى حين عارض الملك نبلاء إقليمى بلنسية وأرغونة ومدنهما[١٤٥].

ومهما يكن من أمر فقد انتهت الأزمة بانتصار بطرس الرابع على خصومه فى موقعة إيبيلا Epila سنة ١٣٤٨، فأنزل بهم أشد أنواع التنكيل، وبذلك خسرت الأرستقراطية الإقطاعية كثيرا من نفوذها فى أرغونة، أمّا فى الناحية الخارجية فقد قام بطرس الرابع سنة ١٣٤٣ بغزو جزر البليار وضمها تحت نفوذه بعد أن كان قد استقل بها منذ سنة ١٢٧٤ أحد أبناء جيم الأول الفاتح، ثمّ سلالته من بعده ،وتلقبوا بلقب ملوك ميورقة[١٤٦]، كذلك استولى بطرس الرابع على ممتلكات ملوك ميورقة فى جنوب فرنسا، كما ذهب بنفسه إلى سردينيا لإخماد ثورة فى الجزيرة وتنظيم أمورها[١٤٧]، فى الوقت الذى أخذ يعمل على تشجيع العلاقات التجارية بين بلاده

---

(142) Watts: op. cit. p. 193.
(143) Cam. Med. Hist. Vol, 7. p. 591.
(144) Lodge: op. cit. p. 184.
(145) Chapman: op. cit. p. 130.
(146) Pirenne: La Fin du Moyen Age . pp. 174 - 175.
(147) Cam. Med. Hist. Vol, 7. pp. 589 - 590.

والجهات الشرقية من البحر المتوسط، وفى سنة ١٣٨١ قبل بطرس الرابع عرضا من دوقية القطلان فى أثينا لتصبح هذه الدوقية تحت سيادته.

أمّا مشكلة وراثة العرش فقد انتهت عندما رزق بطرس الرابع بولدين هما: حنا الأول (١٣٨٧ - ١٣٩٥)، ومارتن الأول (١٣٩٥ - ١٤١٠) اللذان خلفا أباهما فى عرش أرغونة على التوالى (١٤٨)، وأهم ما يميز عصر هذين الملكين هو إعادة الاتحاد بين أرغونة وصقلية، ذلك أننا رأينا كيف أعطى جيم الثانى حكم الجزيرة لأخيه فردريك بمقتضى الاتفاقية التى عقدت بين جميع الأطراف المعنية سنة ١٣٠٢، وقد أدى هذا الارتباط العائلى بين صقلية وأرغونة إلى الربط بين البلدين، وذلك عندما ورث مارتن الصغير - ملك صقلية - حق أبيه فى عرش أرغونة سنة ١٤٠٩(١٤٩)، على أن وفاة مارتن الصغير ثمّ مارتن الأول الكبير ملك أرغونة سنة ١٤١٠، جعلت المشكلة أشد تعقيدا؛ إذ تنازعت التركة عدة أطراف حتّى انتهى النزاع سنة ١٤١٢ باختيار فردناند الوصى على عرش قشتالة ليصبح فردناند الأول ملك أرغونة (١٤١٢ - ١٤١٦)(١٥٠).

ولم يعش فردناند الأول طويلا ليظهر فى أرغونة شيئا من كفايته الإدارية التى ظهرت أثناء قيامه بالوصاية على عرش قشتالة، فخلفه ابنه الأكبر ألفونس الخامس (١٤١٦ - ١٤٥٨) الذى كان أشد ارتباطا بتاريخ صقلية وإيطاليا منه بتاريخ إسبانيا، ذلك أنه ورث عن أبيه صقلية وسردينيا فضلا عن أرغونة، ومن ثمّ أخذ يتطلع إلى ضم الجزء الجنوبى من إيطاليا - أى نابلى، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض الأخير دخل ألفونس الخامس فى صراع ضدّ البيت الأنجوى الذى نافسه السيطرة على نابلى، حتّى انتهى الأمر بانتصار ألفونس الخامس الذى ظلّ يحكم نابلى حتّى وفاته سنة ١٤٥٨(١٥١).

ولم يترك ألفونس الخامس ولدا شرعيا يرثه فانتقل حكم أرغونة، وصقلية، وسردينيا بعد وفاته إلى أخيه حنا الثانى (١٤٥٨ - ١٤٧٩) فى حين انتقلت نابلى إلى

(148) Lodge: op. cit. p. 482.

(149) Watts: op. cit. pp. 229 - 230.

(150) Chapman: op. cit. p. 132.

(151) Cam. Med. Hist. Vol, 8. pp. 149 , 484.

فردناند الأول (Ferdinand I)؛ وهو ابن غير شرعى لألفونس الخامس [١٥٢]، وقد نجح حنا الثانى فى دعم العلاقات الودية مع مملكة نافارى (نوارة) وهى المملكة الصغيرة التى امتدت أراضيها على جانبى البرانس والتى ظلت مدة طويلة أكثر ارتباطا بفرنسا منها بإسبانيا، وكان حنا الثانى قد تزوج ـ قبل ارتقائه عرش أرغونة ـ من الأميرة بلانش ابنة شارل الثانى صاحب نافارى ووريثته (١٣٨٧ - ١٤٢٥)[١٥٣]، وأنجبت هذه الرابطة الزوجية شارل فيانا الذى أصبح من المنتظر أن يرث أمه فى نافارى وأباه فى أرغونة، ولكن حدث عقب وفاة بلانش سنة ١٤٤٢ أن تزوج حنا الثانى من جوانا ابنة أمير أسطول قشتالة التى أثرت فى زوجها ليحرم ابنه حقوقه المشروعة فى نافارى، وهكذا قامت حرب بين شارل فيانا من جهة وأبيه حنا الثانى وزوجة أبيه جوانا من جهة أخرى، انتهت سنة ١٤٥٢ بوقوع الابن أسيرا فى يد أبيه[١٥٤] وعلى الرغم من أن حنا الثانى أطلق سراح ابنه بعد قليل، إلا أن مركز الأخير ضعف وساء ولاسيما بعد أن أنجب الأب ابنا آخر ـ وهو فردناند الكاثوليكى ـ من زوجته الثانية جوانا، ولكن سلوك الأب أثار الشعور العام ضدّه، فقامت ثورة فى قطالونية أخمدها حنا الثانى بتعيين ابنه شارل فيانا حاكما عليها، حتّى تخلص منه بالسم بعد قليل، وسرعان ما أدى هذا العمل إلى تجدد الثورة ممّا دفع حنا الثانى إلى الاستعانة بلويس الحادى عشر ملك فرنسا، مقابل إعطائه مقاطعتى روسيلون Roussillon وكردان Cerdagne على الجانب الشرقى شمالى البرانس[١٥٥]، وهكذا ظلّ حنا الثانى يقاوم حتى أخضع ثورة قطالونية سنة ١٤٧٢، ثمّ توفى هو سنة ١٤٧٩ ليخلفه ابنه فردناند الكاثوليكى فى العام نفسه فى أرغونة، وصقلية، وسردينيا[١٥٦].

عصر فردناند وإيزابلا:

يُعتبر فردناند الكاثوليكى ملك أرغونة (١٤٧٩ - ١٥١٦) من أعظم الملوك المعاصرين؛ لا لأنه تزوج من إيزابلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ - ١٥٠٤) وبذلك تمّ الربط

---

(152) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2. p. 96.

(153) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 485.

(154) Lodge: op. cit. p. 485.

(155) Lavisse: op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie, pp. 391 - 392.

(156) Watts: op. cit. p. 276.

بين أقوى مملكتين فى إسبانيا فحسب، بل أيضًا للتطورات العظمى - الداخلية والخارجية - التى طرأت على إسبانيا فى تلك الفترة[١٥٧]، ذلك أن هذا العصر يعتبر نقطة تحول مهمة فى انتقال إسبانيا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة؛ لأن توحيد قشتالة وأرغونة إنما يعنى فى الواقع مولد إسبانيا فى التاريخ الحديث، هذا إلى أنه استطاع القضاء على الاتجاهات الانفصالية التى طالما حالت دون توحيد البلاد وتقوية نفوذ الملكية، وبذلك أخذت الحياة العامة تتطور فى إسبانيا لتجعل منها دولة من دول أوربا العظمى[١٥٨]، والواقع أن الكلام عن حكم فردناند وإيزابلا بالتفصيل لايدخل معظمه ضمن موضوع هذا الكتاب؛ لأنه يرتبط بإسبانيا العصور الحديثة أكثر منه بإسبانيا العصور الوسطى؛ ولذا نكتفى بالإشارة إلى المعالم الرئيسية لذلك العهد الانتقالى.

ذلك أن إيزابلا استغلت الطبقة البورجوازية فى الضرب على أيدى كبار النبلاء القشتاليين ووضع حد للفوضى التى بلغت ذروتها فى عهد أخيها هنرى الرابع - ملك قشتالة السابق[١٥٩]؛ ولذلك استصدرت من المجلس الوطنى تشريعا سنة ١٤٧٦ بإنشاء هيئة «الإخوة المقدسة Santa Hermandad» لتقوم بعمل الشرطة على نطاق واسع، كما كونت جيشا صغيرا من ألفى فارس لتنفيذ أوامر الموظفين المحليين وتعليماتهم[١٦٠]، كذلك حرمت كبار النبلاء من الأراضى والمعاشات السخية التى حصلوا عليها فى السنوات الأخيرة، وهدمت قلاعهم التى طالما استغلت كمراكز للنهب والسلب، وفى الوقت نفسه أظهرت إيزابلا روح الملكية المستنيرة فعملت على تنظيم القوانين العديدة التى صدرت منذ عهد ألفونس العاشر[١٦١]، كذلك اهتمت بحماية المصالح الاقتصادية لشعبها، وشجعت التجارة والصناعة عن طريق إعادة توزيع الضرائب توزيعا عادلا، وإصلاح العملة، وإزالة العوائق التى تعترض طريق التجارة بين قشتالة وأرغونة، وهكذا يقال إن الدخل الملكى تضاعف ثلاثين مرة فى المدة

---

(157) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 487.

(158) Chapman: op. cit. p. 202.

(159) Lodge: op. cit. p. 488.

(160) Watts: op. cit. p. 284.

(161) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2. pp. 88 - 89.

الواقعة بين ارتقاء إيزابلا العرش سنة ١٤٧٤ ووفاتها سنة ١٥٠٤ دون إثقال كاهل الشعب بأية أعباء جديدة(١٦٢).

على أنه إذا كان الحكّام العظام فى التاريخ لايخلون عادة من نقائص وعيوب، فإن عيب إيزابلا كان تعصبها الدينى الشديد وخاصة ضدّ الهراطقة، ولايوجد هناك شك فى أن إيزابلا مسئولة إلى حد بعيد عن ظهور محاكم التفتيش فى إسبانيا منذ سنة ١٤٨٣(١٦٣)، فبدأت هذه المحاكم فى قشتالة ثمّ امتدت إلى أرغونة حيث صادفت معارضة شديدة من الأهالى المحبين للحرية، ولكنها ظلت فى عملها بفضل إرادة فردناند الخامس القوية (١٦٤). وسرعان ما ظهر أثر هذا على السياسة - سياسة التعصب الدينى - فى خطوتين: الأولى طرد اليهود والثانية طرد المسلمين من إسبانيا.

أمّا اليهود فقد صدر مرسوم سنة ١٤٩٢ بطردهم من إسبانيا، الأمر الذى ترتب عليه تشريد أكثر من مائة وخمسين ألف يهودى، فى حين اعتنق خمسون ألف يهودى المسيحية، وقد ذهب يهود إسبانيا المهاجرون إلى البرتغال وشمال أفريقيا وإيطاليا وفرنسا، حيث صادفوا مقابلة أسوأ ممّا كانوا يتوقعون حتّى اختار بعضهم العودة إلى إسبانيا واعتناق المسيحية، وقد يكون هذا الإجراء جائرا من جانب إيزابلا، ولكن يبدو أن أثره لم يكن سيئا على الاقتصاد الإسبانى بالدرجة التى يصورها بعض المؤرخين، بل لعله مما يثير الدهشة أن طرد اليهود من إسبانيا أعقبته فترة من الازدهار والرخاء الاقتصادى لا مثيل لها فى التاريخ الإسبانى(١٦٥).

وأما المسلمون فقد وجدوا فى ضعف قشتالة طوال القرنين الأخيرين خير ضمان لبقائهم فى غرناطة، فظلوا قابعين فى ذلك الركن الجنوبى من شبه الجزيرة يسالمون جيرانهم المسيحيين ويدفعون لهم الجزية اتقاء لخطرهم(١٦٦)، ولكن الموقف أخذ يتبدل عقب توحيد قشتالة وأرغونة، وما نشأ عن ذلك الاتحاد من قيام قوة مسيحية شامخة على حدود غرناطة، ويبدو أن مسلمى غرناطة غرهم الهدوء النسبى الذى ساد الحدود

(162) Lodge: op. cit. p. 489.
(163) Watts: op. cit. pp. 238 - 239.
(164) Chapman: op. cit. pp. 213 - 214.
(165) Chapman: op. cit. pp. 213 - 214.
(166) Watts: op. cit. p. 291.

الفاصلة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين، فانقسموا على أنفسهم وبددوا جهودهم فى محاربة بعضهم بعضا، دون أن يدروا بالقوة الجديدة التى نشأت على مقربة منهم. وفى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين أبى عبد الله الزغيبى من جهة وأبيه أبى الحسن وعمه الزغل من جهة أخرى، حتّى ارتمى أبو عبد الله الزغيبى بين أحضان المسيحيين وقصد قرطبة حيث تحالف مع فردناند الخامس وإيزابلا ، فى الوقت كان الملكان الكاثوليكيان يعدان العدة للهجوم على المسلمين فى غرناطة(١٦٧).

وكان أن بدأ الهجوم المسيحى على غرناطة سنة ١٤٨١ ، فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد الأخرى، ولم يتحرج أبو عبد الله الزغيبى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الأندلس، من محالفة الأعداء والعمل على إحباط الجهود الجبارة التى بذلها عمه الزغل فى مقاومة الغزو المسيحى(١٦٨) ، وكان استخدام البارود والأسلحة النارية قد أخذ ينتشر حينذاك فى أوربا، فاستخدم المسيحيون هذا السلاح الجديد فى الاستيلاء على حصن لوره وغيره من الحصون سنة ١٤٨٤ ، ثمّ على لوشة سنة ١٤٨٦ بعد معركة اشترك فيها متطوعون من مختلف جنسيات أوربا كالسويسريين، والإنجليز، والألمان(١٦٩)، أمّا مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل قوة مراس قائدها حامد الزغل، حتى لجأ المسيحيون إلى بث الألغام تحت أسوارها، وحضرت إيزابلا بنفسها لتبث الشجاعة فى قلوب رجالها، حتى نفدت الأقوات فى المدينة فاستسلمت للغزاة(١٧٠)، وفى سنة ١٤٨٨ جدد فردناند الخامس هجماته على المسلمين فهاجم بسطة (Baza) التى استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت خلالها كثيرا من الخسائر بالمهاجمين حتى سقطت أخيرا سنة ١٤٨٩(١٧١)، وبسقوط بسطة أدرك الزغل أنه لا فائدة من المقاومة وأن دولة المسلمين بالأندلس قد دالت، فعبر البحر إلى فاس حيث أساء إليه سلطانها وعذبه تعذيبا وحشيا ثمّ سمل عينيه وتركه يهيم فى الأرض بائسا طريدا(١٧٢).

---

(١٦٧) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(168) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 489.

(169) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2. p. 91.

(170) Watts: op. cit. pp. 296 - 297.

(171) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 489.

(١٧٢) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٢٠٩.

وهكذا لم يبق للمسلمين فى الأندلس سوى غرناطة التى تشقى أميرها أبو عبد الله الزغيبى فى عمه وعدوه القديم أبى عبد الله الزغل، غير دارٍ بأن الدوائر لن تلبث أن تدور عليه فى القريب العاجل، وكان الزغيبى أضعف من أن يواجه جيوش فردناند وإيزابلا ـ حليفيه القديمين ـ ولكن أهل غرناطة بزعامة الفارس موسى بن أبى الغسان صمموا على المقاومة، حتّى اضطرت غرناطة إلى إلقاء السلاح أخيرا قرب نهاية ١٤٩١ بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط بحر من المسيحيين، وبعد أن طال انتظارها دون جدوى لوصول النجدة الموعودة من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين(١٧٣).

على أن سقوط دولة المسلمين سياسيا فى الأندلس لا يعنى خاتمة هذه القصة المثيرة، فعلى الرغم من أن شروط تسليم غرناطة نصت على عدم الانتقام من المسلمين أو الإساءة إليهم، إلا أن هذه الشروط كان من الصعب تنفيذها فى عصر طفح بروح التعصب الدينى، وفى بلد عرف حكّامه بالتطرف فى هذا التعصب (١٧٤)، وهكذا أعقب سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشى الذى حلّ بمن بقى فى البلاد من المسلمين(١٧٥)، ولم تنته هذه الموجة إلا فى القرن السابع عشر بعد أن عذب منهم من عذب، وشرد من شرد، وقتل من قتل، حتى لقد ثبت أن جملة من نفوا من مسلمى الأندلس فى المدة الواقعة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر بلغت ثلاثة ملايين نسمة(١٧٦)، وبذلك «حرمت إسبانيا من جهود عنصر مسالم منتج، فى وقت كانت أحوج ما تكون إلى جهوده الإنشائية»(١٧٧).

البرتغال وحركة الكشوف الجغرافية:

وبعد أن رأينا نشأة إسبانيا الحديثة فى ضوء تطور أرغونة وقشتالة واتحادهما فى نهاية الأمر، ننتقل إلى مملكة أخرى، قدر لها أن تظل حتى اليوم تقتسم مع إسبانيا شبه جزيرة أيبريا، وأن تتفق معها فى المظاهر العامة لنشأتها فى العصور الوسطى، وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة البرتغال وأوضحنا أنها هى الأخرى شقت سبيلها ـ مثل

---

(١٧٣) المرجع نفسه ص ٢١٣.

(174) Chapman: op. cit. p. 205.

(175) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 490.

(١٧٦) لين بول: العرب فى إسبانيا ص ٢٢٢.

(177) Lodge: op. cit. p. 490.

بقية دول إسبانيا المسيحية ـ على طريق النضال ضدّ المسلمين. ولم تلبث الظروف الجغرافية أن شجعت على تقوية النزعة الانفصالية، وساعدت على تكوين شخصية مستقلة لهذه الدولة الجديدة، وإن كان أهلها لايختلفون من الناحية العنصرية أو اللغوية عن بقية أهل إسبانيا المسيحيين(١٧٨).

على أن هذه الشخصية المستقلة لم تكتمل للبرتغال إلا بعد صراع طويل انقسمت فصوله إلى قسمين: أما القسم الأول فكان ضدّ المسلمين وانتهى بالانتصارات التى أحرزها ألفونس الأول (١١١٢ - ١١٨٥) وهوالذى نبذ لقب كونت واتخذ لقب ملك(١٧٩)، وبعد الجهود التى بذلها ألفونس الأول فى تأسيس دولة البرتغال استطاعت دولته فى عهد ملكها ألفونس الثالث (١٢٤٨ - ١٢٧٩) أن تسيطر على ولاية الجرف (الغرب)، فضلا عن جهود هذا الملك فى بناء المدن وتشجيع التجارة والصناعة والزراعة (١٨٠)، وأمّا القسم الثانى من صراع البرتغال فكان ضدّ مملكة قشتالة التى حاولت التهام دولة البرتغال الناشئة، ولكن محاولتها باءت فى نهاية الأمر بالفشل بفضل مقاومة البرتغاليين وجهود حنا الأول ملك البرتغال (١٣٨٣ - ١٤٣٣)(١٨١).

ولعهد حنا الأول هذا أهمية كبيرة فى التاريخ، لا بسبب جهوده فى دعم دولته فى الداخل والخارج فحسب؛ بل أيضاً لأن البرتغال بدأت فى ذلك العهد تهتم بكشف سواحل أفريقية الغربية، وهى الحركة التى سرعان ما عادت على البرتغال بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة، وكان ثالث أبناء حنا الأول ـ وهو المشهور باسم الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠) ـ مؤمناً بإمكان الطواف حول أفريقية وبأنه من الممكن الوصول إلى الهند عن هذا الطريق، وبالتالى الحصول على الأرباح الطائلة التى تستأثر بها مدن إيطاليا البحرية لاحتكارها التجارة مع الشرق(١٨٢). ومن المعروف أن الدافع الأساسى لهنرى الملاّح فى جهوده الاستكشافية لم يكن اقتصاديا بحتا، وإنما كان دينيا أيضًا على أساس أنها تتيح فرصة لتحطيم سيطرة المسلمين على طرق التجارة مع الشرق، وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن هنرى الملاح كان رئيسا لمنظمة اليسوعيين

(178) Stephens: Portugal; p. 2.

(179) Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 508.

(180) Tout: The Empire and the Papacy, p. 475.

(181) Lodge: op. cit. pp. 490 - 491.

(182) Cam. Med. Hist. Vol, 1. p. 10.

(الجزويت) التى ورثت الداوية فى أملاكها، وبالتالى كان يهمه العمل على كسب أراض وميادين جديدة للمسيحية(١٨٣).

حقيقة أن آمال هنرى الملاّح لم تتحقق فى حياته، ولكن يكفى أنها ساعدت بعد مماته فى تحقيق الوصول بحرا إلى الهند، ويكفيه أنه أمضى أربعين عاما فى إعداد الحملات الاستكشافية وإرسالها إلى شواطئ أفريقية الغربية، حتى تمّ كشف بعض الجزر المهمة فى المحيط الأطلسى مثل جزيرة ماديرا Madeira (سنة ١٤٢٠) وجزر كانارى وجزر آزور (١٤٣١ - ١٤٤٤)، هذا زيادة على بعض المراكز على شاطئ أفريقية مثل الرأس الأبيض (سنة ١٤٤١) والرأس الأخضر (١٤٤٦) (١٨٤).

وقد أثرت وفاة الأمير هنرى الملاح سنة ١٤٦٠ فى حركة الكشف الجغرافى(١٨٥)، ولكنها لم توقف هذه الحركة بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين أن أفريقية تهيىء لهم موردا غنيا بالرقيق فى وقت وجد البرتغاليون فى تجارة الرقيق بالذات مصدرا مهمًا للثروة، حتّى أن هنرى الملاح يعتبر مؤسس هذه التجارة فى أوربا(١٨٦)؛ وهكذا ازدادت الرحلات البحرية إلى شواطئ أفريقية وكلما كثرت الخبرة، ازدادت الرحلات طولا ولاسيما بعد أن أخذت الرغبة تشتد فى العثور على طريق آخر جديد إلى الهند نتيجة لاتساع نفوذ العثمانيين وسيطرتهم على طريق أعالى الفرات والقسطنطينية من جهة، ولتحكم المماليك فى طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى؛ لذلك أخذت مخاوف أوربا تشتد كلما تقدم الوقت بالقرن الخامس عشر، وبات الأوربيون فى خطر من منع المحصولات الشرقية عنهم فى وقت اشتدت حاجتهم إلى هذه المحصولات(١٨٧)، وكان أن اشتد التنافس بين مختلف دول أوربا وعناصرها حول استكشاف طريق بحرى مباشر يربط أوربا بالهند حتى حازت البرتغال أخيرا قصب السباق، ذلك أن بارثلميو دياز استطاع الوصول سنة ١٤٨٦ إلى خليج ألجوا Algoa على الشاطئ الجنوبى الشرقى لأفريقية بعد أن دار حول الرأس

(183) Stephenson: Med. Hist. p. 582.

(184) Cam. Med. Hist. Vol, 1. pp. 14 - 16.

(185) Eyre: op. cit. p. 569.

(186) Stephens: op. cit. pp. 148 - 149.

(187) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2. p. 154.

التى أسماها «الرأس العاصف Cabo Termentoso» والتى أصرّ مليكه حنا الثانى على تسميتها رأس الرجاء الصالح [١٨٨]، وبعد هذه الخطوة باثنتى عشرة سنة تمكن فاسكودى جاما سنة ١٤٩٨ من إتمام الرحلة من لشبونة إلى كلكتا بمساعدة بعض الملاحين العرب الذين أرشدوه إلى الطريق. ثمّ عاد إلى لشبونة فى سبتمبر سنة ١٤٩٩، وبذلك حققت أوربا غرضها ووصلت إلى الهند عن طريق البحر[١٨٩].

ثمّ كان أن تنازلت البرتغال لقشتالة سنة ١٤٧٩ عن جزر كانارى مقابل احتفاظها بحقها فى جميع الاستكشافات على شواطئ أفريقية فى الماضى والمستقبل، وهكذا اتجهت البرتغال فى حركتها الاستكشافية جنوباً على امتداد الساحل الأفريقى، فى حين اتجهت إسبانيا غربا فى المحيط الأطلسى، وهنا فكر كريستوفر كولمبس - وهو أحد الجنوية الذين دخلوا خدمة قشتالة - فى الوصول إلى آسيا والهند عن طريق الاتجاه غربا فى المحيط الأطلسى، حتى وصل سنة ١٤٩٢ إلى أرض أصرّ على تسميتها الهند الغربية دون أن يعلم أنها جزء من العالم الجديد[١٩٠].

ولعل هذين الكشفين - كشف أمريكا وكشف الطريق البحرى إلى الهند - هما أعظم ما تمخض عنه القرن الخامس عشر من أحداث، ذلك أنهما أثارا فى وجه العالم القديم مشاكل جديدة، وفتحا أمامه آفاقا جديدة، أدت جميعها إلى نقله من طور إلى آخر، وعلى وجه التحديد من طورالعصور الوسطى إلى طور العصور الحديثة، على أن هذه الاستكشافات الجغرافية لم تكن العامل الوحيد فى هذا التطور، وإنما كانت فى الواقع تمثل جانبا واحداً مهما من جوانب حركة كبرى شاملة نعرفها فى التاريخ باسم حركة النهضة.

---

(188) Stephens: op. cit. p. 156 & Cam. Med. Hist. Vol, 8. p. 512.

(189) Eyre: op. cit. p. 569.

(190) Cam. Med. Hist. Vol, 1. pp. 22 - 23.

الباب الحادى والعشرون
ألمانيا وغرب أوربا
أواخر العصورالوسطى

يتصف تاريخ ألمانيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بتداخل الأحداث والتعقيد، بعد أن اختفت إماراتها الكبرى التى قامت على أساس قبلى عنصرى، وظهر على المسرح عدد كبير من صغار الأمراء الذين اشتبكوا بعضهم مع بعض فى منازعات لا حصر لها بدافع من الأغراض الشخصية البحتة، هذا فى الوقت الذى أخذت المدن تتحرر من سيطرة أمراء الإقطاع لتعزيز نفوذها وامتيازاتها فى ضوء مصالحها الخاصة، أمّا الإمبراطور فقد صار نفوذه اسميا، ولا همّ له إلا استغلال جلال وظيفته من أجل تحقيق مصالح شخصية خاصة لأفراد البيت الإمبراطورى(١).

والواقع أن الارتباط الذى تمّ منذ سنة ٩٦٢ بين وظيفتى الملكية الألمانية والإمبراطورية الرومانية عاد بأوخم العواقب على كل منهما؛ لأن وظيفة الإمبراطورية العالمية أضحت سطحية وغير واقعية، فى حين أدت مظاهر الإمبراطورية ومطالبها إلى انصراف الأباطرة عن شئون ألمانيا نفسها إلى غيرها من الشئون الخارجية وخاصة فى إيطاليا، ممّا أضعف نفوذ الملكية الألمانية وعاد عليها بأوخم العواقب(٢)، وحسبنا ما أدت إليه السياسة الإمبراطورية من صدام بين البابوية وحكّام ألمانيا، وهو الصدام الذى زعزع الأباطرة وبدد جهودهم وأموالهم، بل أدى إلى تغيبهم عن ألمانيا نفسها وقضاء معظم سنوات حكمهم فى حروب لا طائل من ورائها فى إيطاليا، حتى ألفى أمراء ألمانيا أنفسهم وقد تحرروا من كل أثر لسيطرة الأباطرة ورقابتهم، فانصرفوا إلى توطيد نفوذهم وسلطانهم الإقطاعى على حساب الإمبراطورية المتداعية(٣)، وثمة عامل آخر أسهم فى إضعاف الإمبراطورية الألمانية، هو أنها ظلت انتخابية بوجه عام فى تقاليدها وفكرتها، وبذلك حرمت الملكية الألمانية من مميزات التقليد الوراثى الذى استغله ملوك إنجلترا وفرنسا المعاصرون فى التمكين لأنفسهم

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 929.

(2) Lodge: op. cit. p. 1.

(3) Eyre: op. cit. pp. 158 - 162.

ودعم سلطاتهم المركزية[٤]، حقيقة أن الحياة دبت فى الملكية الألمانية من جديد عقب انتهاء فترة الشغور (١٢٥٠ – ١٢٧٢)، ولكن بقاء هذه الملكية لا وراثية حرمها من أية فرصة جديدة لفرض نفوذ السلطة المركزية على الأمراء المحليين،وهكذا ظلت ألمانيا بعد سنة ١٢٧٢ عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة، مع بقاء إمبراطور أو ملك على رأس الدولة يتمتع بسلطة اسمية، حتى سميت الفترة بين سنتى ١٢٧٢ ، ١٥١٩ فى التاريخ الألمانى باسم «عصر الأمراء»[٥]؛ هذا فى الوقت الذى أخذت - إنجلترا وفرنسا - تمران بدور حاسم من أدوار التنظيم القومى المركزى تحت زعامة سلطة ملكية قوية، وإذا كانت ألمانيا قد استطاعت البقاء على قيد الحياة فى ذلك الدور من أدوار تاريخها - على الرغم من تفككها - فإن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع قبل كل شىء إلى انشغال إنجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام[٦].

من هذا يتضح أنه من العسير معالجة تاريخ ألمانيا فى تلك الحقبة على أساس تسلسل الحوادث التاريخية أو على أساس تسلسل الحكام؛ لأنه لا توجد حادثة واحدة أو سلسلة متكاملة من الحوادث التاريخية يتبلور حولها التاريخ الألمانى فى هذا الجزء الأخير من العصور الوسطى، كما أنه لا توجد أسرة حاكمة بعينها يدور حولها التاريخ الألمانى فى ذلك العصر[٧]، ولعله من الأصلح علاج تاريخ ألمانيا فى ذلك العصر على أساس دراسة المشاكل والأحداث الكبرى المتفرقة مثل قيام بيت هابسبورج فى الحكم، ولودويج الرابع والبابوية، وشارل الرابع والمرسوم الذهبى، والدور الذى قامت به العصبة الهانزية فى تاريخ ألمانيا، على أن نتعرض بعد ذلك لنشأة أهم الدول الغربية فى أواخر العصور الوسطى وخاصة تلك التى تفرعت عن الإمبراطورية - مثل سويسرا والأراضى المنخفضة.

قيام أسرة هابسبورج فى الحكم:

يبدو لنا من عرضنا لتاريخ ألمانيا فى الأبواب السابقة أن الملكية الألمانية بدأت تتدهور فعلا منذ القرن الحادى عشر، على الرغم من الجهود الإحيائية التى قام بها

---

(4) Lodge: op. cit. p. 2.

(5) Barraclough: op. cit. p. 249.

(6) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 286 - 287.

(7) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 951.

الأباطرة العظام من أسرة هوهنشتاوفن، مثل فردريك بربروسا وهنرى السادس وفردريك الثانى(٨)، وبسقوط أسرة هوهنشتاوفن انحدرت الإمبراطورية والملكية الألمانية إلى الدرك الأسفل، فسادت الفوضى والمنازعات ألمانيا أثناء فترة الشغور (١٢٥٠ – ١٢٧٢)، وادعى أحقيته فى العرش كل من ريتشارد الكورنوولى (Richard of Cornwall) الإنجليزى وملك قشتالة ألفونس العاشر، دون أن يحاول أحدهما حكم البلاد فعليا(٩)، وكان أن استغل الأمراء الإقطاعيون هذه الفرصة لتقوية نفوذهم والإمعان فى منازعتهم؛ ممّا ظهر أثره واضحا فى العصر الذى أعقب فترة الشغور(١٠).

ذلك أن وفاة ريتشارد الكورنوولى سنة ١٢٧٢ جعلت أنصاره يفكرون فى اختيار خليفة له يرث حقه فى عرش ألمانيا، وفى ذلك الوقت أخذ البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ – ١٢٧٦) يعمل حسابا لاتساع نفوذ البيت الأنجوى فى إيطاليا، كما ساورته المخاوف من أن يؤدى انحلال ألمانيا إلى توسع فرنسا فى الجهات الواقعة شمالى جبال الألب، ومن ثمّ أصبحت للبابوية مصلحة واضحة فى بعث الملكية الألمانية (١١)، وكان أن تمّ انتخاب رودلف ـ كونت هابسبورج ـ ملكا ، فتم تتويجه فى أكتوبر سنة ١٢٧٣ فى آخن، وبذلك انتهت فترة الشغور وقامت أسرة هابسبورج ـ لأول مرة ـ فى حكم ألمانيا.

ومن الثابت أن آل هابسبورج ينسبون إلى قلعة هابس (Habs - burg) أى قلعة الصقر، وهى قلعة فى سويسرا الألمانية التى كانت فى العصور الوسطى جزءا من سوابيا الجنوبية(١٢)، ومع أن شجرة بيت هابسبورج تمتد جذورها إلى القرن العاشر، إلا أن أهميتهم لم تتضح إلا منذ أن منحهم الإمبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢ – ١١٩٠) ولاية الألزاس وكونتية زيورخ، ولم يلبث أن اتسع نفوذ آل هابسبورج فضموا إلى ممتلكاتهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بعض

---

(8) Lodge: op. cit. p. 6.

(9) Barraclough: op. cit. pp. 244 - 245.

(10) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 130.

(11) Eyre: op. cit. pp. 452 - 453.

(12) Baring - Gould: Germany. p. 148.

الضياع والأديرة المجاورة فى سويسرا؛ مما رفع شأنهم وساعد على اختيار رودلف ملكا على ألمانيا سنة ١٢٧٣(١٣).

ولكن رودلف لم يكن فى مركز يحسد عليه عندما اختير وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ليعتلى عرش ألمانيا فى أصعب عصر من عصور تاريخها الوسيط(١٤)، ذلك أنه وجد نفسه أمام مشاكل خارجية وداخلية شائكة، منها تحديد موقفه من ألفونس ملك قشتالة الذى أبى إلا أن يحتفظ بلقب الإمبراطورية، وكذلك تحديد موقفه من البابوية وحقوق الإمبراطورية السابقة فى إيطاليا، هذا علاوة على ضرورة إخضاع أوتوكار الثانى Ottokar II ملك بوهيميا الذى خرج على رودلف(١٥).

وقدْ وجد رودلف أن المشكلة الأخيرة أهم المشاكل التى تتطلب منه موقفا حازما؛ لأنها تمس سلطانه داخل ألمانيا نفسها، وفى هذا تفسير لسياسة رودلف الحكيمة وبعد نظره، إذ يظهر أنه أدرك عبث اقتفاء أثر الهوهنشتاوفن فى أطماعهم وأحلامهم، والجرى وراء مشروعاتهم الإيطالية التى عادت على ألمانيا بالخسران المبين،و وأنه أجدى عليه وعلى بلاده أن يجعل أفقه مقصورا على ألمانيا وحدها(١٦)؛ لذلك سعى رودلف نحو اكتساب البابوية وتأييدها، فتمّ الاتفاق بين الطرفين بعد مقابلة شخصية بين رودلف والبابا جريجورى العاشر فى لوزان ١٢٧٥، وبمقتضى هذا الاتفاق تنازل رودلف للبابوية عن كل حقوق الإمبراطورية وأملاكها فى إيطاليا، كما اعترف بمملكة الإنجويين فى نابلى وصقلية، وهكذا طلق رودلف سياسة فردريك الثانى إلى حيث لا رجعة ليضمن تمتع ألمانيا وحدها بجهود ملوكها(١٧).

وبعد ذلك صار فى وسع رودلف أن يتجه - وهو آمن - نحو المشكلة الكبرى التى واجهته عند اعتلائه العرش، وهى مشكلة عصيان أوتوكار الثانى ملك بوهيميا، ذلك أن أوتوكار هذا طالب سنة ١٢٧٢ بأن يكون له صوت فى انتخاب ملك ألمانيا الجديد،

---

(13) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 921 - 923.
(14) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 78.
(15) Lodge: op. cit. p. 8.
(16) Stephenson: Med. Hist. p. 483.
(17) Eyre: op. cit. p. 453.

ولكن أحدا لم يستجب لطلبه أو يحقق رجاءه؛ مما جعله يرفض الاعتراف بالملك الذى وقع عليه الاختيار وهو رودلف، وكان رودلف قد أصبح فى مركز قوى بعد أن اكتسب رضاء البابوية من جهة والأمراء الألمان من جهة أخرى، فاستدعى أوتوكار إلى مجلس عقد سنة ١٢٧٤ وآخر عقد سنة ١٢٧٥ ليبرر احتلاله لأقاليم أوستريا (النمسا) وستيريا Styria وكارنثيا وكارنيولا Carniola ، ولكنه رفض الحضور[١٨] ، وأخيرا خرج رودلف على رأس جيش إمبراطورى سنة ١٢٧٦ إلى النمسا حيث التف حوله الأمراء الألمان ليقوموا بحركة قومية ضدّ حكم السلاف، وعندما استسلمت فينا لرودلف، أدرك أوتوكار عدم جدوى المقاومة فعقد الصلح مع الملك فى نوفمبر من العام نفسه. على أن تبقى له بوهيميا ومورافيا ويتخلى عما عدا ذلك من الأقاليم الألمانية، ولتأكيد هذا الصلح رؤى أن يزوج أوتوكار ابنته لابن رودلف، مقابل زواج ابن أوتوكار من إحدى بنات رودلف العديدات[١٩] ، وعلى الرغم من ذلك فإنه يبدو أن القلوب لم تصف فتجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى سنة ١٢٧٨ ، وفى تلك المرة خسر رودلف جزءا كبيرا من مساعدة أعوانه، إذ كان حليفه البابا جريجورى العاشر قد توفى سنة ١٢٧٦ ، وتخلف عنه كثير من كبار الأساقفة والنبلاء، ومع ذلك فقد استطاع الانتصار على خصمه فى النهاية فى موقعة مارشفيلد Marchfeld ـ قرب فينا ـ حيث سقط أوتوكار قتيلا فى المعركة سنة ١٢٧٨[٢٠]، وهكذا ضمّ رودلف دوقية أوستريا إلى أملاكه الخاصة، زيادة على ستيريا وكارنثيا، حتى أصبحت هذه الأجزاء منذ ذلك الوقت مصدر نفوذ آل هابسبورج[٢١] ، وهنا نلاحظ أن هذا النصر الذى أحرزه رودلف لم يتم إلا بمعونة فردريك هوهنزلرن وأسقف بازل ولادسلاوس الرابع ملك هنغاريا، بالإضافة إلى موقف نبلاء أوستريا وستيريا[٢٢]، ومهما يكن من أمر فقد أخذت الدلائل تشير إلى استقرار الأمور بالنسبة لبيت هابسبورج فقام رودلف بتوزيع الأراضى

---

(18) Lodge: op. cit. p. 9.

(19) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 79.

(20) Orton, op. cit. p. 330.

(21) Baring - Gould: op. cit. p. 150.

(22) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 79.

الإمبراطورية فى النمسا (أوستريا) وستريا وكارنيولا بين ولديه ألبرت ورودلف ليمكن لنفسه ولبيته ، كما زوج ابنه البكر من وريثة دوقية أوستريا (النمسا) وابنه الثانى من وريثة بوهيميا(٢٣).

والواقع أن قيام بيت هابسبورج فى النمسا كان حدثا عظيما فى التاريخ الألمانى، كما يعتبر - بالنسبة لحوادث المستقبل - أهم ما تمخض عنه حكم رودلف، وقد مات رودلف هابسبورج سنة ١٢٩١ فى الثالثة والسبعين من عمره، بعد أن قام بعدة محاولات غير مجدية لتقوية السلطة المركزية ونشر السلام فى ألمانيا عن طريق الحد من الحروب المحلية الخاصة(٢٤). وعند وفاة رودلف تقدم ابنه ألبرت ليحل محله فى منصبه، ولكنه فشل فى الانتخابات بسبب تخوف الأمراء من سطوته بعد أن اتسعت أملاكه، فى سوابيا فضلا عن الجهات الشرقية، وهكذا تمّ انتخاب أحد النبلاء «المتواضعين» وهو أدولف كونت ناسو Nassau سنة ١٢٩٢، بعد أن بذل الوعود للأمراء وكبار الأساقفة(٢٥)، ولكن لم يكد أدولف يتوج فى آخن حتى ظهرت أطماعه، فقاد حملة ضدّ ألبرت وأجبره على تقديم فروض التبعية وتسليم الشعار الملكى الذى احتفظ به بعد وفاة أبيه، كما عمل فى الوقت نفسه على محالفة المدن وصغار النبلاء لاستغلال هذه القوة فى الضرب على أيدى كبار الأمراء.

ولم تقف أطماع أدولف عند هذا الحد، بل امتدت لتمس المصالح الفرنسية، وهنا نلاحظ أن ملوك ألمانيا الذين انتخبهم الأمراء نكاية فى أسرة هابسبورج كانوا جميعا من المعارضين لفرنسا، كما يبدو ذلك فى حالة أدولف، وهنرى لكسمبورج (١٣٠٨ - ١٣١٤)، ولويس البافارى (١٣١٤ - ١٣٤٧)(٢٦)، وكان محك النزاع بين ألمانيا وفرنسا حينئذ مملكة آرل أو برجنديا التى آلت إلى كونراد الثانى ملك ألمانيا سنة ١٠٣٢، كما مرّ بنا، ولكن ضعف الملكية الألمانية بعد ذلك جعل نفوذها اسميًا فى مملكة آرل، التى سرعان ما انقسمت إلى عدة أقاليم شبه مستقلة كونتيات برجنديا وسافوى، ودوفنيه Dauphiné، وليونيه Lyonais، وبروفانس(٢٧). وإذا كانت هذه

---

(23) Painter: A Hist. of th Middle Ages, p. 397.

(24) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 80.

(25) Barraclough: op. cit. p. 303.

(26) Idem, p. 296.

(27) Lodge: op. cit. p. 12.

الأقاليم قد ظلت من الناحية النظرية البحتة تابعة للإمبراطورية الألمانية، إلا أنها من الناحية العملية سرعان ما تعرضت لمطامع فرنسا التوسعية، ولا سيما في عهد ملكها فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤)، هذا في الوقت الذي أراد أدولف ملك ألمانيا أن يجعل من نفسه بطلا لوحدة الإمبراطورية الألمانية؛ لذلك استغل أدولف فرصة حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا، وعقد سنة ١٢٩٤ معاهدة مع إدوارد الأول ملك إنجلترا، تعهد فيها الطرفان بمواصلة الحرب ضدّ فرنسا حتى تتخلى عن الأراضي التي تحاول اغتصابها من ألمانيا وإنجلترا جميعا[٢٨]، على أن هذه الحرب التي أعقبت التحالف بين إنجلترا وألمانيا لم يكن لها ثمرة سوى إظهار تفكك ألمانيا وضعفها، إذ لم يهتم أمراء ألمانيا بالمساهمة فيها قدر اهتمامهم بمصالحهم الخاصة وتأكيد استقلالهم في مناطقهم، هذا في الوقت الذي انتهز فيليب الرابع ملك فرنسا الفرصة لتحريك عوامل الانشقاق والتفكك ضدّ أدولف داخل ألمانيا[٢٩]، وأخيرا تدخل البابا بونيفيس الثامن لإقرار الصلح بين الطرفين سنة ١٢٩٨، وإن كان هذا الصلح لم يشبع شيئا من رغبات ألمانيا ومطالبها في آرل.

ثم كان أن أدت سياسة أدولف الخاصة بالتحالف مع المدن وصغار النبلاء إلى إثارة مخاوف كبار الأمراء والناخبين، وعندئذ لجأ كبار الأمراء إلى ألبرت هابسبورج في النمسا - الذي سبق أن رفضوا اختياره للعرش عقب وفاة أبيه - ليعاونهم في القضاء على أدولف[٣٠]، وكان نفوذ ألبرت قد ازداد في ذلك الوقت بعد أن تحالف مع ونزل الثاني Wenzel II ملك بوهيميا، كما اتصل بملك فرنسا ضدّ عدوهما المشترك، ولم يلبث أن عقد رئيس أساقفة مينز مؤتمرا ضمّ الأمراء، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام ألبرت ليتولى الحكم ويعيد سيادة أسرة هابسبورج[٣١].

وكان ألبرت الأول ملك ألمانيا (١٢٩٨ - ١٣٠٨) حاكما كفئا، امتاز بالمهارة والمقدرة الحربية، وقام بكثير من الأعمال في حكمه القصير البالغ عشر سنوات، وربما قام بأعمال أعظم أثرا لولا مقتله المفاجئ الذي وضع حدا لحكمه ، وإذا كان قد اتصف

(28) Tout: The Hist. of England, pp. 192 - 193.

(29) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie . pp. 312 - 313.

(30) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 88 - 89.

(31) Barraclough: op. cit. pp. 304 - 305.

فى التاريخ بالقسوة والفظاظة، فإن ذلك مرده إلى حزمه ومظهره الصارم، فضلا عن أنه فقد إحدى عينيه مما أكسبه صورة بشعة تبعث على الرهبة والخوف(٣٢)، وقد رفض البابا بونيفيس الثامن الاعتراف بألبرت الأول ملكا على ألمانيا، فلجأ الأخير إلى عقد معاهدة مع فيليب الرابع ملك فرنسا - الذى كان فى نزاع هو الآخر مع البابوية - وبذلك تخلى ألبـرت عن مطامع سلفـه أدولف فى برجنديا(٣٣). ولم يلبث أن ازداد حسن التفاهم بين ألبرت وفيليب عندما تقابل العاهلان فى نهاية عام ١٢٩٩، واتفقا على زواج الأميرة الفرنسية بلانش من رودلف أكبر أبناء ألبرت(٣٤)، أمّا فى سياسته الداخلية فقد لجأ ألبرت إلى مناصرة المدن ضدّ الأمراء، حتّى أنه أصدر مرسوما بإلغاء جميع الضرائب والمكوس التى استحدثت فى منطقة الراين بعد وفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠، وكان أن أحس كبار أساقفة الراين وأمراؤه عندئذ بالخسارة التى لحقت بهم، فكونوا حلفا ضدّ الملك ألبرت بعد عامين من اختياره للحكم. ولكن ألبرت لم يكن ضعيفا، فاعتمد على مساعدة المدن من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى، وقام بتوجيه ضربته بين سنتى ١٣٠٠، ١٣٠٢ ضدّ المتمردين، وخاصة رؤساء أساقفة مينز، وكولونيا، وترير وناخب بلاتينات الراين(٣٥)، حتّى أجبرهم على إلغاء المكوس والاعتراف بحق المدن فى منح امتيازاتها وحقوقها للجماعات المقيمة خارج أسوارها.

ثمّ كان أن شغل ألبرت نفسه فى الفترة الباقية من حكمه - أى بعد سنة ١٣٠٢ - بالمشاكل المتعلقة بوراثة العرش فى هنغاريا وبوهيميا، حتّى انتهى الأمر بمقتله على يد ابن أخيه حنا سنة ١٣٠٨(٣٦)، ومن الواضح أن مقتل ألبرت المفاجئ كان خطير الأثر بالنسبة لمستقبل ألمانيا من جهة وأسرة هابسبورج من جهة أخرى، ذلك أن ألبرت كان سيستطيع - لو أتيحت له مهلة أطول فى العمر - أن يمكن لأسرته فى ألمانيا بصورة تحول دون ظهور أسرة لكسمبورج ووصولها إلى الحكم(٣٧)، ولكن مقتل ألبرت

---

(32) Lodge: op. cit. p. 14.
(33) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 88.
(34) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie . pp. 313 - 314.
(35) Barraclough: op. cit. p. 306.
(36) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 92.
(37) Lodge: op. cit. p. 19.

قبل أن يستكمل تنفيذ مشروعاته، أدى إلى اختيار هنرى السابع أمير لكسمبورج ملكا على ألمانيا فى أكتوبر سنة ١٣٠٨، وبذلك ظهر على مسرح التاريخ بيت جديد منافس لبيت هابسبورج الذى لم يجد أفراده بدا من الاعتراف بحكم الملك الجديد بشرط إقرارهم على ما تحت أيديهم من ضياع وممتلكات(٣٨).

على أن هنرى السابع (١٣٠٨ - ١٣١٤) اعتبر نفسه غريبا عن ألمانيا منذ أول الأمر، فارتكب حماقة كبرى باتجاهه نحو إيطاليا، حتّى صار حكمه أكثر ارتباطا بتاريخ إيطاليا منه بتاريخ ألمانيا(٣٩)، ذلك أن ضعفه جعله يتملق كبار الأمراء عن طريق إلغاء الامتيازات التى منحها سلفه ألبرت للمدن(٤٠)، وذلك قبل قيامه برحلته إلى إيطاليا حيث توج فى روما سنة ١٣١٢. وفى تلك الأثناء قامت ثورة فى بوهيميا انتهت بعرض تاجها على حنا بن هنرى السابع بشرط أن يتزوج من أليصابات (اليزابيث) ابنة ونزل الثانى Wenzel II ملك بوهيميا الأسبق، أمّا هنرى السابع ملك ألمانيا فقد مات فى إيطاليا سنة ١٣١٤ قبل أن يتمكن من العودة إلى بلاده، وبذلك ترك مصالح الملكية الألمانية نهبة بين كبار الأمراء من جهة وأطماع فيليب الرابع ملك فرنسا الذى استولى على ليون سنة ١٣١٠ من جهة أخرى(٤١).

لودويج (لويس) الرابع والبابوية:

أدت وفاة هنرى السابع ١٣١٤ إلى دور من أدوار الفوضى والنزاع حول ولاية الحكم فى ألمانيا، ذلك أن عدم وجود سلطة مركزية قوية تسيطر على أهواء الأمراء من جهة، وعدم وجود تقاليد مرعية وقواعد ثابتة لاختيار الملك من جهة أخرى، أدت جميعا إلى ما اتصف به التاريخ الألمانى فى ذلك الشطر الأخير من العصور الوسطى من قلق وعدم استقرار (٤٢)، ويبدو هذا القلق أشد ما يكون وضوحا عندما اختار فريق من أمراء ألمانيا فردريك بن ألبرت الأول وريث الهابسبورج ملكا، حتى توج فردريك فعلا فى بون Bonn سنة ١٣١٤، فى حين اختار فريق آخر لودويج - أو لويس - دوق

(38) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 93.

(39) Orton: op. cit. p. 331.

(40) Barraclough: op. cit. p. 307.

(41) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie . p. 316.

(42) Lodge: op. cit. cit p. 98.

بافاريا وتوجوه هو الآخر فى آخن فى العام نفسه، ومن الواضح أن مثل هذه الأزمة كانت لا يمكن أن تحل إلا بالحرب وقوة السلاح، حتى انجلى الموقف أخيرا سنة ١٣٢١ - أى بعد حرب سبع سنوات - بانتصار لودويج البافارى(٤٣).

وكانت أبرز ناحية فى حكم لودويج الرابع (١٣١٤ - ١٣٤٧) هى اشتباكه فى نزاع مع البابوية، ذلك أن البابوية استغلت فرصة الحرب الأهلية فى ألمانيا لتقوية الجلفيين فى إيطاليا، وهى واثقة من أن الجبلينيين لن يستطيعوا فى تلك الظروف الحصول على مساعدة من ألمانيا، وهكذا لم يكد البابا كلمنت الخامس يسمع بوفاة هنرى السابع ملك ألمانيا حتّى طفق يتدخل فى الشئون الإدارية، فعين روبرت ملك نابلى فى وظيفة النائب الإمبراطورى بإيطاليا، ثمّ جاء البابا حنا الثانى والعشرون سنة ١٣١٦ ليستأنف سياسة كلمنت الخامس ويؤكد حقوق البابوية، وقد انتهز هذا البابا الأخير فرصة الخلاف بين لودويج الرابع وفردريك هابسبورج ليظهر سيادة البابوية، فرفض الاعتراف بالخصمين المتنازعين جميعا، وعين روبرت الأنجوى نائبا إمبراطوريا سنة ١٣١٧(٤٤). وعندما انتهى النزاع فى ألمانيا بانتصار لودويج البافارى طلب البابا منه عرض قضيته على المحكمة البابوية فى روما Roman Curia سنة ١٣٢٣(٤٥). ولما رفض لودويج الرابع ذلك أعلن البابا عزله، بل أصدر قرار الحرمان ضدّه، وهكذا بدأ نزاع جديد بين الإمبراطورية والبابوية استمر فى عهد البابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤ - ١٣٤٢)، وكلمنت السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٢) ولم ينته إلا بعد وفاة لودويج الرابع سنة ١٣٤٧(٤٦).

وقدْ يبدو هذا النزاع إحياء أو امتدادا للنزاع القديم بين البابوية والإمبراطورية، ولكننا لو أمعنا النظر إليه لوجدناه يختلف فى معالمه وجوهره عن النزاع الأساسى السابق، فبابوات أفينون فى القرن الرابع عشر لم يكونوا على شىء من قوة النفوذ وسعة السلطان التى كانت لأسلافهم من شاكلة جريجورى السابع وأنوسنت الثالث، هذا

(43) Baring - Gould: op. cit. pp. 155 - 157.

(44) Eyre: op. cit. p. 477.

(45) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 75.

(46) Barraclough: op. cit. p. 310.

بالإضافة إلى أن لودويج الرابع نفسه لم يكن على شيء من القوة التى كانت لفردريك بربروسا أو فردريك الثانى[٤٧]. حقيقة أننا نجد أحيانا فى أسلوب البابوية فى القرن الرابع عشر شبها واضحا لما كان عليه هذا الأسلوب فى القرن الثانى عشر، فيسرع البابا إلى عزل الملك وإصدار قرار الحرمان ضدّه، ولكن هذه القرارات البابوية لم يصبح لها الأثر عينه الذى كان لها أيام مجد البابوية وسطوتها، ولم تعد تعبر إلا عن مظاهر جوفاء صادرة عن بابوية ضعيفة[٤٨].

وإذا كانت الخلافات الدينية والحركات الهرطقية داخل الكنيسة الغربية قد أضعفت مركز البابوية فى نزاعها مع لودويج الرابع[٤٩]، فإن ثمة عاملا قويا ساند ملك ألمانيا ومكنه من الصمود والمقاومة، ففى جميع أدوار النزاع السابق القديم بين البابوية والإمبراطورية كان البابوات لا يعدمون وجود حلفاء لهم داخل ألمانيا نفسها من خصوم الإمبراطور، أمّا فى تلك المرة - على عهد لودويج الرابع - فقد وجد ملك ألمانيا نفسه - لأول مرة فى تاريخ بلاده مسنودا بشعور قوى متدفق من قلوب رعاياه، يشبه ذلك الشعور الذى ساند فيليب الرابع ملك فرنسا فى نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن، ولعل مصدر هذا الارتباط الذى بدا وثيقا بين ملك ألمانيا وأمرائها وشعبها هو وقوع البابوية فى الأسر البابلى وبقاؤها فى أفينون تحت رقابة الملكية الفرنسية، وهكذا اجتمع الناخبون فى ألمانيا سنة ١٣٣٨ فى رنز Rense على الراين، وقرروا أن السلطة الإمبراطورية مستمدة من الله مباشرة، وأن الأمير الذى يختار ملكا أو إمبراطورا بواسطة الناخبين يصبح حاكما شرعيا دون حاجة إلى أية وساطة أو إجراءات دينية أخرى[٥٠]، وثمة أهمية أخرى لهذا المؤتمر فى التاريخ الدستورى لألمانيا؛ لأنه أول اجتماع يتعاون فيه الناخبون لحل مشكلة من مشاكل الدولة لا ترتبط باختيار حاكم جديد، وبعد ذلك عقد اجتماع آخر فى فرانكفورت لتأييد قرارات مؤتمر رنز من جهة وإصدار عدة قرارات أخرى استهدفت تقوية السلطة المركزة وإقرار الأمن والسلام فى البلاد من جهة أخرى[٥١].

---

(47) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 119 - 121.

(48) Eyre: op. cit. p. 432.

(49) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie . pp. 149 - 151.

(50) Barraclough: op. cit. p. 312.

(51) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 131 - 132.

على أنه مع توافر جميع هذه العوامل المساندة للإمبراطور إلا أن الموقف بينه وبين البابوية انتهى بانتصارها وخضوع لودويج الرابع؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أن لودويج لم يقدر الأمور حق قدرها ، واستمع إلى نصيحة مستشاريه من الفرانسيسكان ليقوم بحملة على إيطاليا سنة ١٣٢٧ (٥٢)، وقد استطاع لودويج أن يثبت نفوذه فى شمال إيطاليا ووسطها فى حين فرَّ أتباع البابا نحو الجنوب ، فدخل روما فى يناير سنة ١٣٢٨ حيث توج إمبراطورا بواسطة اثنين من الأساقفة، أمّا البابا حنا الثانى والعشرون (١٣١٦ – ١٣٣٤) فقد أصدر من مقره فى أفينون قرار الحرمان ضدّ الإمبراطور وأعوانه، فردّ الأخيرون على البابا باتهامه بالهرطقة وإعلان عدم شرعية انتخابه، ثم اختار الإمبراطور أحد الإخوان الفرنسيسكان ـ من أعوانه ـ ليتولى منصب البابوية تحت اسم نيقولا الخامس(٥٣) .

وهكذا يبدو أن لودويج أقحم نفسه فى صراع دون أن يمتلك الأدوات المادية أو المعنوية التى تساعده على الاستمرار فيه، وسرعان ما بدأ عجزه واضحا أمام أهالى إيطاليا من جهة وروبرت ملك نابولى من جهة أخرى، فتراجع إلى إلمانيا سنة ١٣٣٠ تاركا البابا الإمبراطورى نيقولا الخامس ليستقيل من منصبه ويندم على عدم خضوعه لغريمه حنا الثانى والعشرين(٥٤) . وقد أتيحت بعد ذلك فرصة أمام لودويج الرابع لإصلاح مركزه معتمدا على الشعور القومى فى ألمانيا من جهة وعلى محالفة إدوارد الثالث ملك إنجلترا من جهة أخرى، ممّا يمكنه من الثبات فى وجه البابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤ – ١٣٤٢) وفيليب السادس ملك فرنسا جميعا، ولكن لودويج الرابع اختار أن يتراجع، فنبذ فجأة تحالفه مع إنجلترا سنة ١٣٤٠ ليعقد صلحا مع فيليب السادس مؤملا أن يستغل الأخير نفوذه لإصلاح الموقف مع البابوية(٥٥) . ويبدو أن هذا المسلك من جانب الإمبراطور أثار الشعور ضده فى ألمانيا، ومع ذلك فقد ظلّ محتفظا بمركزه حتّى وفاته سنة ١٣٤٧ بفضل التنافس بين آل هابسبورج وآل لكسمبرج من جهة، وانشغال فيليب السادس ملك فرنسا بمحاربة إنجلترا من جهة أخرى، وربما

(52) Lodge: op. cit. cit p. 104.

(53) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome I, p. 76.

(54) Eyre: op. cit. p. 433.

(55) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 132 - 133.

كانت أخطر ضربة وجهتها البابوية نحو لودويج الرابع قبل وفاته ببضعة أشهر هى أنها هيأت الجو لاختيار شارل لكسمبرج ـ حفيد هنرى السابع ـ ملكا على ألمانيا (١٣٤٧ - ١٣٧٨)(٥٦).

شارل الرابع، الوباء الأسود والمرسوم الذهبى:

وقد اجتاح أوربا فى ذلك العصر (١٣٤٨ - ١٣٤٩) وباء خطير عُرف باسم الوباء الأسود Black Death ، والمعروف أن هذا الوباء زحف من آسيا على امتداد طريق التجارة البرى الرئيسى بين الشرق والغرب ومن ثمّ تطرق إلى شرق أوربا فغربها، فضلا عن بلاد الشرق الأدنى(٥٧)، وليس هذا مجال الكلام عن أعراض هذا الوباء وخطورته وشدة فتكه بالبلاد التى انتشر فيها، فقد أفاضت المصادر والحوليات المعاصرة فى وصف هذه الجوانب(٥٨)، وإنما الذى يهمنا هو النتائج الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التى ترتبت عليه، ذلك أن أوربا فقدت بسبب هذا الوباء نسبة ضخمة من سكانها تتراوح بين الثلث والنصف، ممّا أثر فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية تأثيرا خطيرا، بعد أن قلت الأيدى العاملة وتعطلت الأشغال وارتفعت الأسعار(٥٩)، وتوقفت التجارة، واختل كثير من المقاييس الاقتصادية والاجتماعية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى(٦٠)، ولم يسع الناس وسط تلك المحنة سوى الهروع نحو الكنائس والأديرة متضرعين سائلين كشف هذه الغمة، طالبين رحمة الكنيسة

---

(56) Barraclough: op. cit. pp. 313 - 314.

(57) Stephenson: Med. Hist. p. 520.

(٥٨) وخير وصف أمامى بالعربية لأعراض هذا الوباء وآثاره فى البلاد التى انتشر فيها، قول المقريزى: «... وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس فى كل يوم... وكانت الحفر يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر ، وكان الموت بالطاعون يبصق الإنسان دما ثمّ يصيح ويموت، وعمّ مع ذلك غلاء الدنيا جميعا، ولم يكن هذا الوباء كما عهد فى إقليم دون إقليم بل عمّ الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، جميع أجناس بنى آدم وغيرهم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر، وأول ما بدأ الوباء، كان يخرج خلف أذن الإنسان بثرة فيخر صريعا، فاشتد الهول من كثرة الموت حتى أنه كان أكثر من يعيش بعد نفث الدم نحو خمسين ساعة، وصارت الأموات على الأرض لا يوجد من يدفنها، وعمّ الوباء جميع تلك الأراضى، ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع، وزهد أرباب الأموال فى أموالهم».

(59) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 463 - 733.

(60) Orton: op. cit. p. 379.

وحمايتها ، وسرعان ما انتشرت شائعة بين الناس فحواها أن اليهود هم الذين تسببوا في نشر هذا الوباء بتسميم الآبار ، وعندئذ لم يجد الناس وسيلة لتصريف همهم المكبوت سوى اضطهاد اليهود حتى قتلوا منهم عدة آلاف في مختلف أنحاء أوربا(٦١) ، ثمّ نادى فريق آخر من الناس بأن هذا البلاء ليس إلا نتيجة لغضب الله على عباده ، وأن المخرج الوحيد من الأزمة هو التوبة بتعذيب النفس ، ومن ثمّ ظهرت طائفة السياطين Flagellants التي سبقت الإشارة إليها، والمهم هو ما نلاحظه من أن أثر الوباء الأسود لم ينته بزواله عند منتصف القرن الرابع عشر، وإنما استمرت نتائجه - ممثلة في قلة الأيدي العاملة وارتفاع الأجور والأسعار- تؤثر في أحوال أوربا حتّى نهاية ذلك القرن، بحيث أن الثورة العظمى في إنجلترا سنة ١٣٨١ إنما تعتبر في الواقع نتيجة مباشرة لهذا الوباء(٦٢) .

وفيما عدا انتشار الوباء الأسود، فإن أهم حدث في عهد شارل الرابع كان إصدار المرسوم الذهبي Golden Bull سنة ١٣٥٦ ، وهو المرسوم الذي سمي بهذا الاسم لأن الخاتم الذي ختم به حفظ بعد ذلك في صندوق من الذهب، ذلك أن شارل الرابع وجد أن المنازعات التي تقوم في الإمبراطورية حول عملية اختيار كل إمبراطور جديد تسبب كثيرا من الفوضى والمتاعب ، فوضع هذا المرسوم المهم لتنظيم عملية انتخاب الأباطرة - ملوك ألمانيا - وتحديد قواعدها(٦٣) . وبمقتضى المرسوم الذهبي تحدد عدد الناخبين - الذين لهم حق انتخاب الإمبراطور- بسبعة، هم رؤساء أساقفة مينز، وكولونيا، وتريف، وملك بوهيميا ودوق بافاريا ودوق سكسونيا، وأمير براندبرج(٦٤) . كذلك نص المرسوم على أن يجرى الانتخاب في فرانكفورت، على أن يتم تتويج الإمبراطور في أكس لاشابل (آخن) ، وكل بيت من بيوت الناخبين له صوت واحد يعبر عن رأيه، على أن تنتقل جميع أراضي الأمير وامتيازاته إلى ابنه الأكبر بالوراثة دون أن ينازعه بقية الأبناء أو الورثة، حفظا لكيان الإمارات الكبرى من الانقسام ومنعا لتفتت الدولة(٦٥) .

---

(61) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 658 - 661.
(62) Stephenson: Med. Hist. p. 571.
(63) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 926 - 929.
(64) Eyre: op. cit. p. 553.
(65) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 144 - 145.

وهكذا يبدو لنا أن المرسوم الذهبى كان بمثابة إطار إقطاعى، حدد الحياة السياسية فى ألمانيا فى أواخر العصور الوسطى، وجعل من الأمراء القوة الفعالة فى هذه الحياة(٦٦) ، ذلك أن المواد الواضحة التى نص عليه هذا المرسوم ظلت معمولا بها حتّى انقضى آخر طيف للإمبراطورية المقدسة سنة ١٨٠٦ ، ولكن من الواضح أن المرسوم الذهبى أغفل أية إشارة إلى البابوية وحقها فى التصديق على نتيجة انتخاب الإمبراطور أو الاعتراض على هذه النتيجة، وبعبارة أخرى فإن المرسوم الذهبى حقق الرغبة العامة التى ظهرت فى مؤتمر رنز من قبل واعتبر انتخاب الإمبراطور مسألة داخلية خاصة بالأمة الألمانية، فلا حق للبابوية أو غيرها فى التدخل فيها؛ لذلك أسرع البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢) إلى إعلان استيائه من هذا المرسوم(٦٧) ، ولكن شارل الرابع وقف من البابوية موقفا صلبا جعل البابا يتراجع عن معارضته للمرسوم الذهبى، وبذلك انقطعت آخر الخيوط التى كانت تقيد الإمبراطورية بإرادة البابوية(٦٨) .

وإذا كان المرسوم الذهبى يعتبر فى حد ذاته محاولة فعّالة لوقف تفتيت الإمارات الكبرى، إلا أن شارل الرابع نفسه لجأ قبل وفاته إلى تقسيم أملاك أسرته بين أبنائه، فجعل بوهيميا وسيلزيا لأكبر أبنائه ونسلاس، وبراندبرج لابنه الثانى سجسموند، فى حين أنشأ دوقية جديدة فى لوسيتز Lausitz لثالث أبنائه حنا(٦٩)، هذا بالإضافة إلى بقية أملاك أسرة لكسمبرج التى ظلت بأيدى إخوة شارل الرابع وأقاربه؛ وهكذا أدى هذا التفتيت فى الأملاك إلى إضعاف بيت لكسمبرج بحيث لم يصل مرة أخرى إلى مرتبة الزعامة فى الإمبراطورية(٧٠) .

ألمانيا فى القرن الخامس عشر:

حدثَ عند وفاة شارل الرابع سنة ١٣٧٨ أن خلفه ابنه ونسلاس بعد أن مهد أبوه لذلك فى حياته، حتى تمّ انتخابه وتتويجه فى آخر سنة ١٣٧٦ . على أن ونسلاس لم يستمر مدة طويلة فى الحكم إذ عزل سنة ١٤٠٠ نتيجة لعبثه وإفراطه فى

(66) Barraclough: op. cit. p. 381.

(65) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 148.

(68) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 82.

(69) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 150.

(70) Lodge: op. cit. p. 123.

الشراب[٧١]، وقد أعقبت ذلك فترة من النزاع حول شغل منصب الإمبراطورية استمرت عشر سنوات، وانتهت سنة ١٤١١ بتولية سجسموند ثانى أبناء شارل الرابع، وذلك بفضل مساعدة فردريك هوهنزولرن صاحب نورمبرج الذى كافأه سجسموند على مساعدته بتوسيع سلطانه[٧٢]. وهكذا أخذ يظهر اسم آل هوهنزلرن الذين اشتقوا لقبهم من قلعة زولرن فى سوابيا، والذين عرفوا بمقدرتهم على تنظيم ممتلكاتهم وتوسيعها، وقد حاول سجسموند (١٤١١ - ١٤٣٧) أن يشنّ حربا صليبية على العثمانيين سنة ١٣٩٦، بوصفه ملكا على هنغاريا ولكنه لم يوفق فيها، على أنه كان مخلصا فى العمل على إصلاح الكنيسة وإزالة الانشقاق الدينى فى غرب أوربا، حتى كان له دور ملحوظ فى مجمع كونستانس سنة ١٤١٤ كما مرّ بنا[٧٣].

ولم يعقب سجسموند ذرية من الذكور ترثه فى الحكم، فخلفه ألبرت الثانى هابسبورج ليبقى فى منصب الإمبراطورية سنة واحدة توفى بعدها (١٤٣٨ - ١٤٣٩)، فخلفه ابنه فردريك الثالث (١٤٣٩ - ١٤٩٣)[٧٤]، ومن الواضح أن المدة الطويلة التى قضاها فردريك الثالث فى الحكم مكنته من دعم نفوذه وسلطان بيته؛ بحيث ظلّ بيت هابسبورج يحتكر المنصب الإمبراطورى بعد ذلك حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى أوائل القرن التاسع عشر[٧٥].

على أنه يلاحظ أن الفوضى ظلت ضاربة أطنابها فى ألمانيا على الرغم من وحدة اللغة والتقاليد، حقيقة أنه كان هناك بلاط إمبراطورى، ولكنه استمر عديم النفوذ والسلطان، وهكذا وجد بألمانيا فى أواخر العصور الوسطى أكثر من ثلاثمائة إمارة منفصلة، لا هم لأمرائها سوى إشعال الحروب والمنازعات المحلية فيما بينهم، والإغارة على المناطق المجاورة وسلب المسافرين، حتى أطلق على أمراء ألمانيا فى ذلك العصر اسم «الفرسان اللصوص Robber Knights»[٧٦]، أمّا المدن الكبرى فقد

---

(71) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 119 - 120.
(72) Barraclough: op. cit. p. 358.
(73) Eyre: op. cit. pp. 524 - 525.
(74) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 186.
(75) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 935 - 936.
(76) Baring - Gould: op. cit. pp. 136 - 140.

اتجهت وفق ما تمليه مصالحها والزود عن حقوقها(٧٧)، ومن الواضح أن هذه العوامل اجتمعت لتجعل من المتعذر إقرار الأمن والنظام فى البلاد الألمانية؛ لأن كبار الأساقفة من جهة، والمدن من جهة ثانية، وكبار الأمراء من جهة ثالثة أجمعوا على التمسك بنفوذهم وعدم التخلى عن سلطانهم من أجل قيام سلطة مركزية قوية، هذا فى الوقت الذى تمسك صغار الفرسان بحياة القتال، والسلب، والنهب مفضلين إياها على حياة السكينة والفقر(٧٨)؛ وهكذا أمسى تاريخ ألمانيا فى ذلك الجزء الأخير من العصور الوسطى عبارة عن سلسلة من المنازعات والحروب بين الأمراء، وهى حروب كان محورها الأساسى البحث عن المال والحصول عليه لسد مطالب التنظيمات الجديدة التى دخلت حكومات هؤلاء الأمراء فى القرن الخامس عشر(٧٩).

العصبة الهانزية:

على أن التجّار الذين لم تتح لهم فرصة لتقوية نفوذهم فى ميدان السياسة انصرفوا إلى ميدان آخر أكثر نفعا وأوفر ربحا، فتركوا الملوك والأباطرة يكافحون الأمراء ورجال الكنيسة وينازعونهم السلطان، وانصرفوا نحو دعم نشاطهم الاقتصادى الذى أكسبهم قوة خطيرة فى نهاية الأمر(٨٠)، وقد أسهمت مختلف المدن الألمانية وخاصة فى الشمال فى ذلك النشاط التجارى منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر، فانصرف تجار مدن الشمال الغربى ـ وعلى رأسها كولونيا ـ نحو الغرب واتخذوا من بروجز Bruges بفلاندرز، ولندن بإنجلترا مراكز أساسية لعمليات التبادل التجارى، فى حين اتجه تجار مدن الشمال الشرقى ـ وعلى رأسها هامبورج وليوبك ـ شرقا وأسسوا مراكز تجارية لعملياتهم فى نوفجرود بروسيا وبرجن بالنرويج ووتن Witten بالسويد وويزبى Wisby بجزيرة جوتلاند بالبحر البلطى(٨١)، وكانت هذه المراكز أشبه بالنقابات، ومن أمثلتها الواضحة أن بعض التجار الألمان الذين ينتمون إلى مدينة كولونيا أسسوا فى لندن حوالى القرن الثانى عشر نقابة شهيرة هى التى عرفت فى

---

(77) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 153.
(78) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 140 - 148.
(79) Barraclough: op. cit. pp. 343 - 344.
(80) Orton: op. cit. p. 427.
(81) Idem: pp. 427 - 428.

القرن الخامس عشر باسم «نقابة تجار القبان Merichants of the Steel Tards وعندئذ ضمت إليها نقابات التجار المشابهة فى بقية المدن الإنجليزية مثل يورك وبريستول؛ لتحتكر التجارة الألمانية فى إنجلترا(٨٢).

على أن التجار الألمان سرعان ما ألفوا أنفسهم فى حاجة إلى الاتحاد لحماية مصالحهم التجارية وسط مظاهر الفوضى السياسية التى عمت ألمانيا فى الشطر الأخير من العصور الوسطى، فأخذوا ينتظمون ـ على خلاف المدن التى ينتمون إليها ـ فى هيئة اتحادات تجارية كبيرة (٨٣)، ويبدو أن المدن الواقعة في حوض الراين كانت أسرع من غيرها إلى الاتحاد، وذلك بحكم تعرضها أكثر من غيرها للنهابة من الأمراء الذين لاتزال بعض قلاعهم الباقية فى هذا الجزء من أوربا تشهد على شدة بأسهم وعظم خطرهم(٨٤). وهكذا تمّ التحالف سنة ١٢٣٠ بين مدينتى ليوبك وهامبورج، ثمّ انضمت إلى هذا التحالف بعد قليل بعض المدن المجاورة مثل ويزمار وروستوك، حتّى أخذ التحالف ينمو تدريجيا بعد أن وجد كثير من المدن الشمالية أن صالحها العام يتطلب الانضمام إلى هذه العصبة التى تزعمتها ليوبك، وأخيرا ارتبطت هذه المدن كلها بالاتحادات الخارجية التابعة لها؛ ممّا أدى إلى نشأة ما يعرف باسم العصبة الهانزية (حوالى ١٣٥٠ – ١٣٧٠) (٨٥)؛ وهى العصبة التى أصبح لها أربعة مراكز كبرى فى نوفجرود، ولندن، وبروجز، وبرجن(٨٦).

وعلى الرغم ممّا أظهر أحيانا بين مدن هذه العصبة من خلافات، إلا أنها أثبتت جدارتها، ومقدرتها على حماية مصالحها والوقوف فى وجه التيارات المعادية، لا سيما قراصنة الدول السكندناوية، التى كانت لاتزال تحتفظ ببقية من روح الفيكنج القديمة، وقد دخل والدمار الرابع ملك الدانمارك (١٣٤٠ – ١٣٧٥) فى صراع عنيف ضدّ العصبة الهانزية وتمكن فعلا من انتزاع ثغر ويزبى منها(٨٧)، ولكنه أدرك بعد ذلك أنه

---

(82) Eyre: op. cit. p. 726.

(83) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 220.

(84) Zimmern: The Hansa Towns, p. 45.

(٨٥) نسبة إلى لفظ (Hansa) بمعنى اتحاد أو مجموعة من الرجال وخاصة إذا كانوا من التجار أو المحاربين.

(86) Barraclough: op. cit. p. 266.

(87) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 221.

يناطح قوة جبارة يصعب التغلب عليها، فلم تحل سنة ١٣٧٠ إلا وكانت العصبة الهانزية قد استردت جميع امتيازاتها بل صار لها صوت مسموع فى اختيار الملوك فى ذلك الركن الشمالى الغربى من أوربا[٨٨].

وهكذا نمت العصبة الهانزية حتى غدت تتحكم فى عدد كبير من السفن والأساطيل، كما صارت لها السيطرة على تجارة شمال أوربا، وخاصة البحر البلطى الذى كان مركز قوتها ومحور نشاطها[٨٩]، وإذا كان تجارها فى لندن وبروجز قد خضعوا لقوانين البلاد التى أقاموا فيها، إلا أن العصبة مارست فى روسيا والدول السكندناوية نفوذا سياسيا زيادة على نفوذها الاقتصادى، هذا إلى أن انتشار التجارة الألمانية على امتداد الشاطئ الشرقى للبحر البلطى، وتأسيس مدن ألمانية جديدة فى تلك الجهات أدى إلى اتساع النفوذ السياسى للعصبة الهانزية، فضلا عما فى ذلك من مظهر لحركة التوسع الألمانى فى تلك الجهات[٩٠]. أمّا الأهداف الأساسية للعصبة الهانزية فكانت تتلخص فى حماية تجارتها من الأعداء من جهة والمنافسين من جهة أخرى، بالإضافة إلى التوسع فى الحصول على مزيد من الامتيازات، ولتحقيق هذه الأهداف أنشأت العصبة الهانزية قوة بحرية ضخمة، حتى غدا كبار ملوك أوربا يخشون بأسها وينشدون محالفتها[٩١]، ممّا مكنها لا من رعاية مصالحها فحسب بل من النهوض بمستوى الحضارة فى شمال أوربا أيضًا عن طريق رصف الطرق وتأمينها وشق القنوات والترع، هذا غير ما أصابته من الرقى بنظم التجارة والمعاملات المالية عن طريق التوسع فى استخدام الحوالات والأوراق المالية، والعناية بتشييد الكنائس الفخمة وتشجيع العلوم والآداب[٩٢].

ولكن لم تلبث أن تعرضت العصبة الهانزية فى القرن الخامس عشر للضعف ثمّ الانهيار وذلك نتيجة لأسباب عديدة متباينة؛ منها ما يرجع إلى روح الأنانية والكبرياء التى سيطرت عليها ومنها ما يرتبط بعوامل أخرى خارجية لايد لها فيها.

---

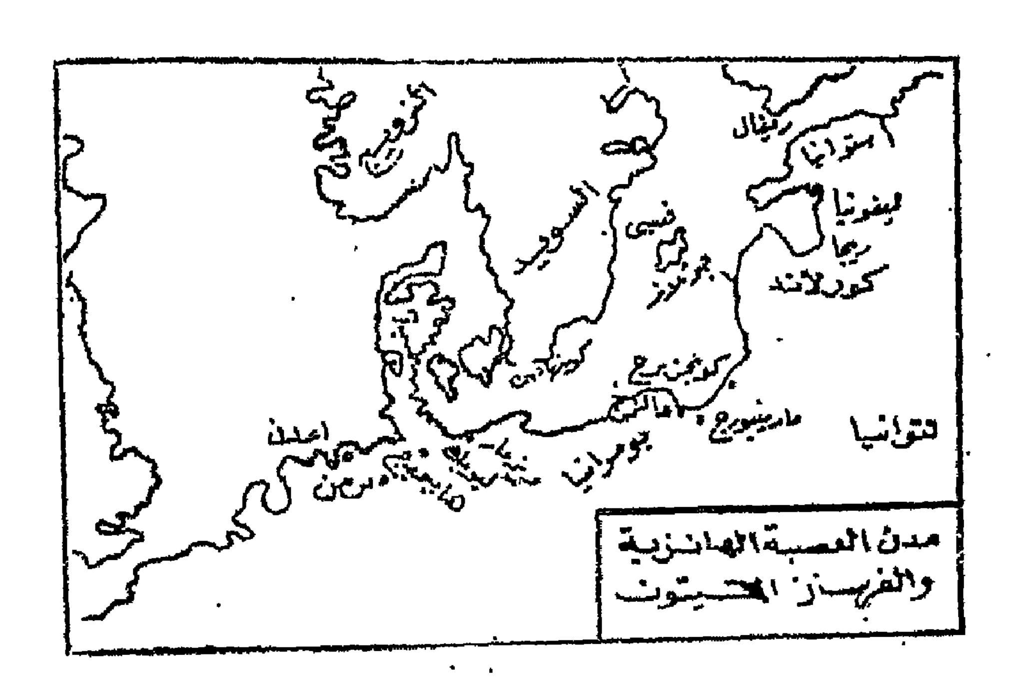
(88) Zimmern: op. cit. pp. 53 - 55.

(89) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 226.

(90) Barraclough: op. cit. p. 266.

(91) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 239.

(92) Zimmern: op. cit. pp. 107 - 111.



مدن العصبة الهانزية والفرسان التيوتون

من ذلك أن العصبة الهانزية رفضت قبول تجار المدن الأخرى فى الوقت الذى كانت هذه المدن تسمح للتجار الهانزيين بالتردد عليها؛ ممّا أدى إلى إثارة العداوة بين الطرفين حتّى انتهى الأمر إلى الصراع المسلح[٩٣]، هذا إلى أن الدول الخارجية التى كانت للعصبة الهانزية مراكز وامتيازات اقتصادية أو سياسية فيها، أخذت فى القرن الخامس عشر تدخل دورا جديدا من الاستقرار والتنظيم السياسى، فانحل النظام الإقطاعى وظهرت الملكيات القوية، وتبع ذلك زوال المبررات التى من أجلها قامت العصبة الهانزية ، وأهمها تأمين الطرق وتحقيق العدالة[٩٤] ، وكان أن تمسكت العصبة الهانزية بامتيازاتها القديمة ورفضت أن تتماشى مع روح العصر وتتخلى عنها مما أوقعها فى صراع آخر، أمّا العوامل الخارجة عن إرادة العصبة فأهمها أنها كانت تستمد جزءا كبيرا من أرباحها من مصايد سمك الرنجة Herring فى البحر البلطى[٩٥]، حتى أدت أسباب طبيعية مجهولة إلى هجرة هذا النوع من السمك من البحر البلطى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر (حوالى سنة ١٤٢٥)، الأمر الذى سبب للعصبة الهانزية خسارة فادحة[٩٦]، هذا كله بالإضافة إلى استكشاف الطريق البحرى إلى الهند من جهة وأمريكا من جهة أخرى ممّا أحدث انقلابا خطيرا وثورة عنيفة فى اتجاهات التجارة الأوربية، فأصبحت هذه التجارة تتجه نحو الغرب والجنوب دون أن تستطيع العصبة الهانزية مسايرة هذه التطورات الجديدة[٩٧] .

نشأة سويسرا:

كانت البلاد المعروفة اليوم باسم سويسرا مقسمة فى العصور الوسطى بين مملكة برجنديا ودوقية سوابيا، حتّى أضحت فى القرن الثانى عشر تحت سيطرة أمراء زايرنجن Zearingen (١٠٥٠ – ١٢١٨)[٩٨]. وعندما تفككت أملاك هؤلاء الأخيرين سنة ١٢١٨ استولى آل هابسبورج على معظم المقاطعات المتحدثة بالألمانية واستولى إمبراطور ألمانيا على جزء آخر يشمل منطقة أورى الجبلية Uri ومدينة برن، فى حين

(93) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 241 - 247.
(94) Zimmern: op. cit. p. 212.
(95) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 212.
(96) Zimmern: op. cit. p. 49.
(97) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 247.
(98) Hug, Stead: Swizerland, pp. 65 - 100.

احتل بطرس الثانى صاحب سافوى الجزء الذى تسوده اللغة اللاتينية Vaud(٩٩) . وقد دفع حرص الإمبراطور فردريك الثانى على الاحتفاظ بالطريق الموصل بين ألمانيا وإيطاليا إلى منح مقاطعتى أورى وسويز - وهما المقاطعتان اللتان تتحكمان فى ممر سانت جوتارد - شيئًا من الامتيازات والحرية، الأمر الذى ضايق آل هابسبورج باعتبارهم أصحاب السيطرة على هذه الجهات(١٠٠) .

ثمّ كان أن اعتلى آل هابسبورج عرش الإمبراطورية سنة ١٢٧٣ ، وعندئذ بدأت المقاطعات السويسرية توجس خيفة ورأت أن تترابط وتتكاتف لمقاومة أية محاولة للانتقاص من حقوقها وامتيازاتها.

ولتحقيق هذا الغرض تمّ عقد «الحلف الدائم» سنة ١٢٩١ بين مقاطعات أورى Uri وسويز Schwyz (١٠١)وإنتر والدن Unter Walden فأعلنت هذه المقاطعات استقلالها وخروجها عن سلطان بيت هابسبورج، ثمّ انضمت إليها بعد قليل الولايات الأخرى بقصد مقاومة الأمير ألبرت هابسبورج الذى أصبح فيما بعد إمبراطورا (١٢٩٨ - ١٣٠٨)(١٠٢) .

ويبدو أن موقف هذه الولايات المناوئ من بيت هابسبورج هو الذى جعل خصوم هذا البيت يعطفون عليها ويشجعونها، من ذلك أنه عندما تولى هنرى لكسمبرج عرش الإمبراطورية (١٣٠٨ - ١٣١٤) ، زاد من الامتيازات التى تمتعت بها هذه الولايات السويسرية، واعترف بأن الولايات الثلاث المتحالفة السابقة تكون وحدة سياسية، وذلك من باب النكاية فى بيت هابسبورج(١٠٣) ، وهكذا يمكن القول بأن هذا التحالف السويسرى الصغير يعتبر نواة لنشأة دولة جديدة احتلت مكانها على المسرح الأوربى(١٠٤) .

---

(99) Orton: op. cit. p. 418.

(100) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 186 - 187.

(١٠١) وهى التى اشتق منها اسم سويسرا.

(102) Eyre: op. cit. p. 418.

(103) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 937.

(104) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 189.

على أن آل هابسبورج اختاروا ألا يعترفوا في سهولة بهذا الوضع، لا سيما بعد أن أخذت الولايات السويسرية المتحدة تغير على أراضيهم وأملاكهم وعندما هبّ الهابسبورجيون لتأديب هذه الولايات السويسرية حلت بهم الهزيمة سنة ١٣٥١ في موقعة مورجارتن Morgarten (١٠٥) ولم تلبث بقية المدن السويسرية أن أخذت تتطلع للتحرر من نير آل هابسبورج، لا سيما بعد أن اغتنت هذه المدن من وراء اشتغالها بالتجارة، شأنها شأن كثير من مدن أوربا في تلك الحقبة؛ وهكذا انضمت إلى الحلف لوسرن Lucerne سنة ١٣٣١، وزيورخ سنة ١٣٥١، وجلاروس Glarus وزوج Zug سنة ١٣٥٢، وبرن سنة ١٣٥٣، حتّى صار الحلف السويسري يتألف من ثماني ولايات ضمت عددا كبير من المدن المهمة(١٠٦)، وفي سنة ١٣٦١ أصدر شارل الرابع مرسوما إمبراطوريا اعترف فيه بالحلف السويسري، في حين ظلّ بيت هابسبورج ينكر الاعتراف بهذا الحلف حتى أنزل الحلفاء هزيمتين بالهابسبورجيين الأولى عند سمباخ Scmpach سنة ١٣٨٦ والثانية عند نايفلز Naifels سنة ١٣٨٨، وعندئذ اضطر آل هابسبورج إلى الاعتراف بالحلف السويسري، وبأن هذا الحلف يتبع الإمبراطور تبعية مباشرة(١٠٧).

ولم يلبث السويسريون أن انتقلوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم فأخذوا يوسعون أملاكهم وأراضيهم، حتّى انتهزوا فرصة النزاع بين لويس الحادي عشر وشارل صاحب برجنديا وانتزعوا نصيب لويس في سويسرا، كما هزموا شارل سنة ١٤٧٦ ثم سنة ١٤٧٧، وهكذا سلك السويسريون طريقا مستقلا عن الإمبراطورية منذ أواخر القرن الخامس عشر(سنة ١٤٩٥) (١٠٨) بحيث لم يبق أمامهم سوى آخر الخيوط التي تربطهم بالإمبراطورية وإعلان استقلالهم عنها، وعندما أخذ الإمبراطور مكسمليان الأول (١٤٨٦ – ١٥١٩) يسعى لضم شمل الإمبراطورية، حاول فرض كلمته على الحلف السويسري سنة ١٤٩٥، ولكن السويسريين أبوا بعناد الموافقة على مشاريع الإمبراطور؛ ممّا أدى إلى حرب بين الطرفين استمرت ستة أشهر، وانتهت

---

(105) Hug, Stead: Swizerland, pp. 131 - 137.

(106) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 938.

(107) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 296.

(108) Barraclough: op. cit. p. 360.

بصلح بازل سنة ١٤٩٩، دون أن ينجح الإمبراطور فى تحقيق غرضه[١٠٩]. وهكذا تمّ الاعتراف باستقلال الحلف السويسرى ضمنيا، وظهرت دولة جديدة لتضرب للعالم مثلا رائعا فى مزايا سياسة الحياد.

نشأة دولة الأراضى المنخفضة:

أمّا دولة الأراضى المنخفضة فقد تفرعت هى الأخرى فى أواخر العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكنها اختلفت عن سويسرا فى أنها اشتملت على جزء من فرنسا ممّا جعلها تتجه نحوها وتنزع إليها، أما النواة التى نشأت منها دولة الأراضى المنخفضة فتبدو فى البقعة التى كان يسكنها الفرنجة الساليون فى أوائل العصور الوسطى، ومن ثمّ وجدت رابطة عنصرية قوية تربطها بفرنسا، هذا على الرغم من الحقيقة الثابتة وهى أن الأراضى المنخفضة تتمثل داخلها لغة الفلمنكيين ذات الأصل الألمانى، جنبا إلى جنب مع لغة الوالون ذات الأصل اللاتينى[١١٠].

ومهما يكن من أمر فقد انقسمت الأراضى المنخفضة عند تقسيم إمبراطورية شارلمان إلى جزءين، فأصبح إقليم فلاندرز المرتبط ببحر الشمال والمانش إقطاعا فرنسيا، فى حين انضم الجزء الشرقى من حوض الشلد - تحت اسم اللورين الأدنى - إلى ألمانيا ليخضع لمؤثرات ألمانية قوية[١١١]، وكان أن ظهرت الأراضى المنخفضة فى القرن الرابع عشر وقد سادها نظام اجتماعى وطيد الأركان، كما كانت أبرز صناعة فيها غزل الصوف الذى أصبح العماد الرئيسى لتجارة فلاندرز، هذا إلى أنّ مدن تلك الإقليم مرت هى الأخرى بدور التحرر، فصارت قومونات شأنها شأن كثير من المدن فى جنوب أوربا وشمالها[١١٢]، وإذا كان النبلاء قد اضطروا فى أول الأمور إلى الخضوع لأرستقراطية التجار الأثرياء، إلا أن هذه الطبقة الأرستقراطية لم تلبث أن خضعت بدورها فى القرن الرابع عشر لنقابات أصحاب الحرف التى أسهمت بقسط وافر فى كثير من الحركات الشعبية، وسرعان ما أدت هذه العوامل إلى نوع من الفوضى وعدم الاستقرار ممّا جعل النبلاء، والتجار، والعمال يتحدون جميعا لمواجهة

---

(109) Hug, Stead: op. cit. pp. 232 - 236.

(110) Orton: op. cit. p. 420.

(111) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 832.

(112) Idem: op. cit. pp. 334 - 335.

هذه الحركات التى هددت مصالحهم المشتركة.

وهكذا سارت أحوال الأراضى المنخفضة، حتّى أمدتها الظروف الطيبة بأسرة حاكمة استطاعت أن تقيم فى البلاد ملكية عادلة متزنة، أمّا مؤسس هذه الأسرة فكان أحد أمراء البيت البرجندى؛ وهو فيليب الجسور (١٣٤٢ - ١٤٠٤) الذى خلفه ابنه حنا الشجاع (١٤٠٤ - ١٤١٩) فى برجنديا وفلاندرز فى حين خلفه ابنه الأصغر فى دوقية برابانت[١١٣]، وقد ظلّ الوضع على ذلك حتّى جاء فيليب الطيب (١٤١٩ - ١٤٦٧) ابن حنا الشجاع فوحد برابانت وفلاندرز تحت حكمه سنة ١٤٢٠، وبذلك نشأت دولة الأراضى المنخفضة كوحدة سياسية ذات شخصية مستقلة فى التاريخ، ولم تقتصر هذه الدولة على الإقليمين السابقين فحسب، بل تعدتهما إلى ضمّ هينولت Hainault وإقليم هولاند شمالى الراين سنة ١٤٣٣ كما ضمت لكسمبرج سنة ١٤٥١، وبذلك لم يبق خارجا عن نطاقها سوى أسقفية لييج[١١٤].

ولاشك فى أن توحيد هذه الأقاليم المتقاربة أعطاها طابع الدولة وأعطى أهلها طابع الأمة، وقد أخذ حكّام هذه الدولة من أمراء البيت البرجندى يدعمون سلطتهم الملكية فى الوقت الذى سمحوا لرعاياهم من أهالى الأراضى المنخفضة بقسط وافر من الحرية[١١٥]، وهكذا اتجهت الأراضى المنخفضة نحو الابتعاد سريعا عن كل من فرنسا والإمبراطورية لتكسب حضارتها طابعا محليا قويا، حقيقة أن هذه الحضارة التى شكلت تاريخ الأراضى المنخفضة كانت فرنسية فى أصلها وعناصرها، ولكنها أخذت تتشرب عناصر جديدة ألمانية وبورجوازية لتكتسب شخصية مستقلة قائمة بذاتها فى الميدان الحضارى[١١٦].

ولم تلبث الأراضى المنخفضة أن احتلت عند مُستهل العصور الحديثة مكانة مرموقة بين دول أوربا فى ميادين الإنتاج الزراعى، والصناعى، والتجارى، والفنى، هذا فضلا عن النشاط الفكرى، حتّى غدا أبناؤها يغذون أوربا بكثير من ثمرات جهودهم وإنتاجهم.

---

(113) Lodge: op. cit. pp. 320 - 322.

(114) Rogers: Holland, pp. 22 - 26.

(115) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 356.

(116) Orton: op. cit. p. 421.

الدولة السكندناوية :

وأخيرا نرى أنه لابد - لاستكمال الصورة التى كان عليها غرب أوربا فى أواخر العصور الوسطى - من الإشارة إلى الدول السكندناوية، وإن كانت هذه الدول لم تتفرع - مثل سويسرا والأراضى المنخفضة - عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن كانوت ملك الدانمارك تمكن من إقامة دولة سكندناوية كبرى ضمت النرويج وإنجلترا بالإضافة إلى الدانمارك نفسها، على أن كانوت سرعان ما وجد هذه الإمبراطورية أوسع من أن يستطيع حكمها بسهولة ففصل حكومة النرويج وأعطاها لابنه سوين Sweyn فى حياته(١١٧)، ثمّ لم يلبث بقية الإمبراطورية أن تفتتت عقب وفاته سنة ١٠٣٥، فاستقلت النرويج، وانفصلت إنجلترا بعد الغزو النورمانى، وبدأت الظواهر تشير إلى أن عصر غزوات الفيكنج وهجراتهم قد انتهى وأدبر.

وتحتل الكنيسة الغربية جزءا مهمًا فى تاريخ الممالك السكندناوية منذ القرن الحادى عشر، إذ ظلت الكنيسة بمثابة الرباط القوى الذى ربط هذه الأطراف الشمالية بالغرب الأوربى، وكان نفوذ الكنيسة الغربية قد أخذ يتطرق فى أول الأمر إلى الأراضى الشمالية عن طريق ألمانيا. إذ كانت هذه الجهات تتبع كرسى رئيس أساقفة هامبورج(١١٨)؛ ولكن مشكلة النزاع بين البابوية والإمبراطورية، وهى المشكلة التى لعبت فيها الكنيسة الألمانية دورا مهما سبق بيانه، أتاحت فرصة لقيام كنيسة قومية فى سكندناوة فتأسست أسقفية دانماركية فى لوند سنة ١١٠٥، وأخرى نرويجية فى دورنهايم سنة ١١٥٢، وثالثة سويدية فى أوبسالا سنة ١١٦٤، ولم تلبث الكنيسة فى البلاد الشمالية أن ازدادت قوة وثروة بفضل تشجيع الملوك الوطنيين، مقتفية أثر الكنيسة الغربية فى نظمها وتشكيلها، بما فى ذلك اعتمادها على الديرية ومؤسساتها من جهة وخضوعها للبابوية من جهة أخرى(١١٩).

وسرعان ما أدى هذا التطور فى النرويج إلى مظهر جديد من مظاهر الصراع الكبير بين الكنيسة والدولة، بعد أن حصل الأساقفة سنة ١١٦٤ على حقوق واسعة

(117) Boyesen: A Hist of Norway, p. 225.

(118) Stephenson: Med. Hist. p. 411.

(119) Eyre: op. cit. 170.

جعلتهم أصحاب الرأى الأول فى اختيار كل ملك جديد، وذلك مقابل ما يقدمونه من مساعدات فى الحروب التى لم تنقطع من أجل الفوز بالعرش(١٢٠)، ولكن هذا الوضع كان أثقل من أن يحتمله الشماليون، ولذلك تزعم سويرى Sverri ملك النرويج (١١٨٢ - ١٢٠٢) حركة واسعة النطاق استهدفت مقاومة الأساقفة والبابوية جميعا(١٢١)، وقد نجح هذا الملك فى تحدى البابا أنوسنت الثالث حتّى وفاته، ممّا اضطر الكنيسة إلى عمل اتفاقية سنة ١٢٤٧ مع هاكون الخامس (١٢١٧ - ١٢٦٣). مع أن الكنيسة حصلت بمقتضى هذا الاتفاق على قدر من الحرية يعادل ما كانت تتمتع به فى ألمانيا، إلا أنه نجح فى وضع حدّ لتدخل الكنيسة فى شئون الدولة وضمن للأخيرة استقلالها عن نفوذ الكنيسة(١٢٢).

وفى الوقت الذى ظلّ عامة الناس من الأحرار محتفظين بكيانهم القديم فى النرويج، حتى أنهم ساعدوا ملوكهم فى صراعهم ضدّ الكنيسة، إذ بالفلاحين فى السويد يسيرون تدريجيا فى طريق الضعف والانحلال(١٢٣)، ذلك أن اتساع رقعة الأراضى الزراعية، وسهولة الاتصال والربط فيما بينها من شأنه أن يؤدى إلى انتشار النظام الإقطاعى واتساع نطاق الرق والاستعباد، وما شابهها من النظم التى وصلت إلى البلاد الشمالية عن طريق ألمانيا(١٢٤). وقد أتاحت الأحداث التى تعرضت لها السويد فى القرن الثانى عشر فرصة لاشتداد التنافس بين الأسر الكبيرة للاستئثار بالعرش،الأمر الذى مكن النبلاء وكبار رجال الدين من الحصول على نفوذ واسع هدد كيان السلطة المركزية(١٢٥)، ومع ذلك فقد أظهر شعب السويد فى تلك الحقبة نشاطا مكنه من غزو فنلاند واستعمارها استعمارا جزئيا(١٢٦).

أمّا فى مملكة الدانمارك فقد ساء موقف الفلاحين أيضاً نتيجة لانتشار النظام الإقطاعى وما ارتبط به من ازدياد نفوذ النبلاء من جهة واستبعاد نفوذ الفلاحين من

---

(120) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 373.
(121) Boyesen: op. cit. p. 357, f.
(122) Orton: op. cit. p. 426 & Boyesen: op. cit. pp. 428 - 429 .
(123) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 533.
(124) Stephenson: Med. Hist. p. 411.
(125) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 369 - 370.
(126) Orton: op. cit. p. 426.

جـهـة أخـرى (١٢٧)، كـذلك تكرر مـا حـدث فى السـويد من ازياد نـفوذ النبلاء وكـبـار الأساقفة، ولو أن البيت المالك تمكن فترة من الوقت من السيطرة على زمام الموقف والاتجاه بالشعب الدانماركى نحو التوسع وكان توسع الدانيين تلك المرة فى الجانب الشرقى للبحر البلطى؛ حيث تقطن قبائل وثنية غدت فريسة سهلة لجيرانها من المغامرين(١٢٨)، وهكذا اتجه السويديون لغزو عناصر الفن فى الشمال، فى حين تمكن الدانيون تحت زعامة والدمار الأول (١١٥٧ - ١١٨٢) وكانوت السادس (١١٨٢ - ١٢٠٢) ثمّ والدمار الثانى (١٢٠٢ - ١٢٤١) من غزو السلافية والأستونياويين Esthonians (١٢٩) شرقا، ولم تلبث الدانمارك أن سيطرت على ولاية هولشتين وذلك عندما تزعزعت سيادة ألمانيا على هذا الإقليم عقب وفاة الإمبراطور هنرى السادس سنة ١١٩٧، ولكن أمراء ألمانيا المجاورين اتحدوا للقضاء على سيطرة والدمار الثانى على الجهات المجاورة لهم بين سنتى (١١٢٢ - ١٢٢٧)، وبذلك لم يبق من فتوحات الدانيين سوى أستونيا وروجن Rugen(١٣٠).

وبعد ذلك أخذت رفاهية الدانمارك وقوة ملكيتها فى التناقص السريع. ذلك أن الأساقفة والنبلاء حرصوا على اكتساب سلطات جديدة عند تولية كل ملك جديد، هذا بالإضافة إلى كثرة المنازعات بين أعضاء البيت المالك وهكذا بلغت مملكة الدانمارك درجة من الضعف مكنت جيرهارد Gerhard العظم أمير هولشتين الألمانى من غزوها فى سهولة فى القرن الخامس عشر(١٣١).

* * *

أمّا أهم المحاولات التى بذلت لإصلاح هذا الوضع السيىء الذى انحدرت إليه الدول السكندناوية، فتتمثل فى اتحاد كالمار Kalmar وفى الجهود التى بذلها بعض الملوك الذين يرجعون إلى أصل ألمانى(١٣٢).

---

(127) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 533.
(128) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 378.
(129) Boyesen: op. cit. ps. 135 - 196.
(130) Orton: op. cit. p. 427.
(131) Lodge: op. cit, p. 444.
(132) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 545.

وقد جاء اتحاد كالمار نتيجة لانقراض البيوت الحاكمة فى الممالك السكندناوية، فعند وفاة والدمار الرابع ملك الدانمارك سنة ١٣٧٥ كانت ابنته مرجريت زوجة لهاكون السادس ملك النرويج الذى كان هو نفسه الوريث الشرعى لعرش السويد، وإن كان قد أبعد عن هذا العرش نتيجة لعزل والده واختيار ألبرت الألمانى بدله (١٣٦٣ - ١٣٨٩) [١٣٣]، على أن مرجريت كانت على درجة كافية من المهارة مكنتها من تنصيب ولدها الصغير أولاف ملكا على الدانمارك، وبذلك غدت بعد وفاة زوجها هاكون السادس سنة ١٣٨٠ وصية على عرشى الدانمارك والنرويج جميعا[١٣٤]، ولكن أولاف توفى سنة ١٣٩٨ فخلفته أمه فى العرش، وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت الأحوال فى السويد بسبب الخلاف بين النبلاء السويديين وملكهم الألمانى، ولم يتردد النبلاء عندئذ فى دعوة مرجريت للتدخل ومساعدتهم ضدّ الملك المغتصب، باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى عرش السويد، فتدخلت مرجريت وانتصرت، وبذلك أتيحت فرصة ذهبية لتوحيد الممالك السكندناوية الثلاث، وبمقتضى اتحاد كالمار سنة ١٣٩٧ رضيت النرويج والسويد والدانمارك بأن يحكمها جميعا ملك واحد على الدوام[١٣٥].

على أن الفوارق الطبيعية والحزازات المتبادلة بين الدول الثلاث، فضلا عن الانقسامات والمنازعات الداخلية، جعلت من الصعب استمرار اتحاد كالمار، على الرغم من أنه استمر فى صورة اسمية ما يقرب من قرن[١٣٦]، ذلك أن مرجريت نفسها لم تلبث أن أغضبت السويديين برغبتها الملحة فى استرداد شلزويج للدانمارك مرة أخرى، ولاسيما بعد أن فشلت الحرب التى شنتها مرجريت ثم خليفتها إرك Eric (١٤١٢ - ١٤٣٩) ضدّ هولشتين والعصبة الهانزية[١٣٧]، هذا علاوة على أن سياسة إرك أثارت سخطا عاما نظرا لمحاولاته مضاعفة نفوذه من جهة وزيادة الضرائب من جهة أخرى. وهكذا تجمعت عدة عوامل لتدفع السويد نحو الانفصال واختيار حاكم

---

(133) Orton: op. cit. p. 430.

(134) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 402.

(135) Boyesen: op. cit. pp. 469 - 470.

(136) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 545.

(137) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 403 - 404.

(138) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 547 - 458.

عليها من أبنائها سنة ١٤٢٥[١٣٨]، كذلك أعلنت الدانمارك عزل إرك سنة ١٤٣٩ واختارت بدله كرستوفر البافارى (١٤٣٩ - ١٤٤٨)[١٣٩]. وبعد كرستوفر هذا اختار الدانماركيون كرستيان الأول (١٤٥٠ - ١٤٨١) أمير أولدنبرج ووريث شلزويج هولشتين[١٤٠]، وقد دأب كرستيان الأول على تحسين مركزه فى النرويج، كما ورث شلزويج - هولشتين سنة ١٤٦٠. أما السويد فقد استمرت على موقفها العنيد من الاتحاد، فاختارت أحد أبنائها وهو شارل الثامن ملكا عليها، ولكن كرستيان الأول استطاع التخلص من هذا المنافس ليضمن بقاء الاتحاد الأسمى الذى يحقق له نفوذا صوريا فى السويد[١٤١]، ومع ذلك لم يرض السويديون بالهزيمة فثاروا ثورة جامحة وأجبروا كرستيان على تنصيب أحد أبناء السويد نائبا عنه على أن تكون بيده السلطة الفعلية فى البلاد[١٤٢].

ومن هذا يبدو أن اتحاد كالمار أضحى فى الواقع مقصورا على الدانمارك وشلزويج هولشتين والنرويج[١٤٣]، وليس لهذه الفترة من أهمية فى تاريخ البلاد سوى أن الملك كرستوفر ثمّ كرستيان الأول دأبا على تشجيع التجار الوافدين من إنجلترا والأراضى المنخفضة؛ ممّا أدى إلى تحرير سكندناوة من الاحتكار الاقتصادى للعصبة الهانزية[١٤٤].

---

(139) Lodge: op. cit. p. 445.
(140) Boyesen: op. cit. p. 478.
(141) Orton: op. cit. p. 431.
(142) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 407 - 408.
(143) Lodge: op. cit. pp. 447 - 448.
(144) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 550 - 551.

الباب الثانى والعشرون
شرق أوربا

يرجع السلاف ـ أو الصقالبة ـ فى أصلهم إلى الجنس الآرى Arenys أو الهند أوربى Indo-Européene [(١)]. والمعروف أنهم أخذوا يتوسعون حتى القرن العاشر توسعا مطردا فى أوربا نحو الغرب والجنوب، وإن ظلّ مستواهم الحضارى فى ذلك الدور ضعيفا نوعا ما بحيث لم يكن فى استطاعتهم مواصلة التقدم عندما يصطدمون بحضارات أخرى أكثر رقيا. وكل ما كان يحدث لهم فى هذه الأحوال هو أن يتحولوا إلى أقنان أو أتباع للعناصر الأرقى التى يحتكون بها؛ وذلك بحكم ما هو معروف عنهم من جنوح للمسالمة وعدم مقدرة سياسية، ولكن لم يلبث أن طرأ تغيير ملحوظ على طبيعة السلاف، فتحولوا تدريجيا إلى شعب محارب وأسسوا دولا تزعمها بعض القادة الأجانب، كما تشربوا بعض الحضارات المجاورة واعتنقوا المسيحية[(٢)].

ومع مضى الزمن ازدادت حركة السلاف اتساعا وازداد تباعد قبائلهم، ولم يلبثوا أن انقسموا إلى ثلاثة أقسام كبرى: أولها السلاف الجنوبيون أو اليوجوسلاف فى الجنوب والوسط ويشملون البلغار[(٣)]، والصرب، والكروات، والسلوفين Slovénes، وثانيها السلاف الغربيون فى بولندا وبعض ألمانيا، وبوهيميا، ومورافيا وسلوفاكيا، وتسمى عناصرهم التى تسكن هذه الجهات بالبولنديين والتشك (أو البوهيميين) والسلوفاك Slovaques وثالثها السلاف الشرقيون أوالروس وينقسمون إلى الروس الكبار فى الوسط والشمال والروس الصغار فى الجنوب والروس البيض فى الغرب[(٤)]. ومن الواضح أن كل قسم من هذه الأقسام الكبرى الثلاثة وقع تحت مؤثرات وظروف خاصة ، مما جعل منهم ثلاثة عناصر متباينة يحسن أن نتكلم عن كل منها على حدة.

---

(1) Morfill: Russia, p. 4.

(2) Orton: op. cit. p. 300.

(٣) أجمع الباحثون على اعتبار البلغار ضمن المجموعة السلافية على الرغم من اختلافهم عن السلاف فى أصل والعرق، حيث إن البلغار تأثروا إلى حد كبير بنظم السلاف وأساليبهم فى الحياة وعاداتهم، ويرجع بعض الباحثين ـ مثل بارتولد ـ أن البلغار نتاج الاختلاط الجنسى بين السلاف والترك.

(4) Morfill: Russia, pp. 4 - 7.

السلاف الجنوبيون والهنغاريون:

أمّا السلاف الجنوبيون فقد تداخل تاريخهم فى تاريخ الدولة البيزنطية، وقبل أن نعرض لتاريخ هذا الفريق من الشعوب السلافية يصح أن نشير إلى البلغار، وهم قوم آسيويون قريبون من الهون، اندمجوا مع بعض القبائل السلافية فى البلقان، وتأثروا بحضارة السلاف ولغتهم، وعلى الرغم من أن البلغار يرجعون إلى أصل غير سلافى خالص، إلا أن تشربهم عادات السلاف ولغتهم وحضارتهم جعلتهم يتقاربون من العناصر السلافية المحيطة بهم وقد استقر هؤلاء البلغار على الدانوب حيث كونوا إمبراطوريتهم الأولى بين سنتى (٨٩٣، ١٠١٨)، وبلغت هذه الإمبراطورية ذروة مجدها وقوتها على عهد قيصر البلغار سيمون (٨٩٣ – ٩٢٧) الذى استغل حكمه الطويل فى القيام بحركة توسعية فى البلقان على حساب الدولة البيزنطية من جهة والشعوب الأخرى المجاورة من جهة أخرى[٥]، على أن عظمة الإمبراطورية البلغارية فى عهد سيمون لم تقتصر على التوسع الحربى، إذ شهد هذا العهد عصرا ذهبيا للأدب البلغارى بفضل تشجيع سيمون ورعايته، ولا عجب، فقد تلقى سيمون تعليمه ـ قبل أن يلى عرش البلغار ـ فى القسطنطينية حيث تذوق طعم الحضارة، فعاد إلى بلاده ليشرف على ترجمة الإنجيل وكتابات القديسين إلى لغة قومه[٦]. وإذ كانت إمبراطورية البلغار قد سقطت وخضعت لسيطرة الإمبراطورية البيزنطية(١٠١٨ – ١١٨٦) بعد أن نجح الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥)، «سفاح البلغار» فى القضاء سنة ١٠١٨ على مقاومتهم والانتقام منهم أفظع انتقام[٧]، إلا أن دولة البلغار سرعان ما رفعت رأسها وأقامت ما يعرف باسم إمبراطورية البلغار الثانية (١١٨٦ – ١٣٩٨)، وهى الإمبراطورية التى ظلت قائمة حتى الغزو العثمانى للأراضى البلغارية[٨].

وإلى الغرب من البلغار ـ فى الرقعة ما بين بلغراد وشاطئ البحر الأدرياتى ـ استقر الصرب الذين أقاموا مملكة على شىء من الأهمية، بلغت ذروتها على عهد قيصر الصرب المعروف ستفن دوشان Stephen Dusan (١٣٣١ – ١٣٥٥) الذى قام

(5) Miller: The Balkans, pp. 135 - 137.

(6) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 327.

(7) Vasiliev: Tom 1, p. 423.

(8) Miller: op. cit. pp. 187 - 194.

بفتوح واسعة فى البلقان حتّى أصبح يحلم بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها(٩)، لاسيما بعد أن توج نفسه إمبراطورا سنة ١٣٤٦(١٠)، أمّا فى الداخل فقد وضع مجموعة من القوانين صدرت سنة ١٣٤٩ وتعطينا فكرة واضحة عن نظم المجتمع البلغارى، هذا كله بالإضافة إلى جهود دوشان فى حماية التجار وتشجيع الآداب والعلوم(١١).

ونلاحظ على هذه العناصر السلافية السابقة فى الجانب الشرقى من البلقان وجود عامل مشترك ربط بينها جميعا، هو أنها تبعت الكنيسة الشرقية حتّى بدت ـ فى وقت ما ـ الوريثة الطبيعية للإمبراطورية البيزنطية، هذا على العكس من أقاربهم الكروات الذين امتدت مواطنهم على طول السواحل الشرقية التى بدت ـ فى وقت ما ـ الوريثة الطبيعية للإمبراطورية البيزنطية. الرومانية إلى أن سقطوا تحت سيطرة الهنغاريين سنة ١١٠٢(١٢).

أمّا الهنغاريون، فهم شعب آسيوى خشن، ظهروا فى شرق أوربا فى القرن التاسع ليعيدوا إلى الأذهان ذكرى أتيلا وحروبه المدمرة فى أوربا، ذلك أنهم امتازوا بالخشونة المفرطة والقسوة البالغة حتى يقال إنهم كانوا يأكلون لحم الحيوان نيئا ويشربون دماء أعدائهم(١٣). ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا تدريجيا عن طبيعتهم الرعوية الخشنة نتيجة لاختلاطهم بشعوب أكثر رقيا، وذلك بعد أن أقاموا حوالى سنة ٨٦٠ بين نهرى الدون ودنيبر، حتّى استقروا فى أواخر القرن التاسع فى المنطقةالتى تطابق حدود هنغاريا الحالية تقريبا(١٤)، وعندئذ اعتنق الهنغاريون المسيحية فى القرن العاشر، واستغلوا قدرتهم على التنظيم فى محاكاة الحضارة الإقطاعية تحت زعامة ملكهم ستفن (٩٩٧ – ١٠٣٨) وملكهم لادسلاس (١٠٧٧ – ١٠٩٥)(١٥). ولعل أهم أثر تركه الهنغاريون فى تاريخ أوربا فى ذلك العصر هو إغارتهم التى بدأت تشتد على ألمانيا فى أوائل القرن العاشر(١٦)..

(9) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 216.
(10) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 542.
(11) Miller: op. cit. pp. 272 - 282.
(12) Orton: op. cit. p. 301.
(13) Miller: op. cit. pp. 30 - 31.
(14) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 17.
(15) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 213 - 216.
(16) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 18 - 20.

السلاف الغربيون:

أما السّلاف الغربيون فأهم شعوبهم المورافيون، والبوهيميون، أو التشك الذين امتازوا جميعًا بمقدرتهم على التكتل والترابط، حتّى أسس المورافيون فى النصف الثانى من القرن التاسع مملكة قوية امتدت فى عهد ملكهم راستسلاس Rastislas (٨٤٥ – ٨٧٠) من إقليم بانونيا وبوهيميا غربا حتّى غاليسيا الشرقية والدانوب شرقا، ولم تلبث المسيحية أن انتشرت فى تلك الأنحاء على أيدى مبشرى الدولة البيزنطية وعلى رأسهم القديسان كيرلس وميثيوديوس المعروفين باسم «رسل السلاف»[١٧]، وإن كان معظم السلاف الغربيين قد دخلوا فى فلك الكنيسة الغربية، ثمّ كان أن سقطت مملكة المورافيين سنة ٩٠٥ أمام الغزو الهنغارى؛ وبذلك انقطعت عنها المؤثرات الشرقية فى حين أدى جوارها لألمانيا إلى تقبلها مذهب الكنيسة اللاتينية[١٨].

وعندما تضاءلت أهمية المورافيين عقب سقوط دولتهم تحت ضغط الهنغاريين (٩٠٥ – ٩٠٦)[١٩]، حلّ محلهم على خريطة أوربا البوهيميون أوالتشك الذين أقاموا دولتهم فى القرن العاشر، وأهم ما يميز تاريخ أهل هذه الدولة هو أنهم تعرضوا لجذب تيارين متعارضين أحدهما يجذبهم نحو الحضارة الألمانية الخلابة، والثانى يدفعهم نحو مقاومة السيطرة الألمانية[٢٠]. ويبدو أن التيار الأول كان أقوى أثرا حتّى أصبح أمراء بوهيميا وملوكها أكثر تأثرا بالطابع الألمانى فى بلاطهم وحياتهم، هذا إلى أن أساقفة بوهيميا الألمان ربطوها بالدولة الألمانية، فضلا عمّا كان من احتلال المواطنين الألمان لما يقرب من ثلث بوهيميا، ومع ذلك فإن الأقوياء من ملوك بوهيميا فى القرن الثالث عشر ـ مثل أوتوكار الثانى (١٢٥٣ – ١٢٧٨) ـ اختاروا أن يوجهوا سياستهم الخارجية نحو التوسع على حساب الأراضى الألمانية[٢١].

وهناك فريق آخر من السلاف الغربيين هم الونديون، والمعروف أن الجرمان أطلقوا لفظ «الونديين» أول الأمر على العناصر السلافية جميعا دون تحديد ، وكان المقصود بهذا اللفظ «الدخلاء أو الأجانب»[٢٢]، ولكن اصطلاح الونديين أخذ يتحدد بعد

(17) Idem: p. 16.
(18) Orton: op. cit. p. 301.
(19) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 19 - 20.
(20) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 422.
(21) Orton: op. cit. p. 302.

ذلك ليقتصر على قبائل السلاف التى انتشرت بين جبال الكربات والبحر البلطى، وقد أثبت الونديون عدم مقدرتهم على الاتحاد كما أظهروا نفورا من الحضارة الألمانية والمسيحية على حد سواء، ويبدو أن الفرنجة عانوا فى أول أمرهم كثيرا من المتاعب بسبب إغارات هؤلاء الونديين، حتّى اضطر الملك كلوثر الأول أن يفرض ضريبة على السكسون سنة ٦٣١ قدرها خمسمائة بقرة برسم الدفاع عن البلاد ضدّ الونديين[٢٣]، ومهما يكن من أمر، فإن المملكة التى أقامها الونديون فى القرن السابع كانت قصيرة العمر سريعة الزوال إذ لم تلبث القبائل الوندية أن اعتراها التفكك والتباعد حتّى أضحى مصيرها منذ القرن العاشر فصاعدا مرهونا بتوسع الألمان[٢٤]. ومع ذلك استمر الونديون الوثنيون يهددون الحدود الشرقية لألمانيا وذلك باغاراتهم المدمرة التى لم تسلم منها المزارع، والأديرة، والكنائس، مثلما حدث فعلا سنة ٩٨٣، وسنة ١٠١٨، وسنة ١٠٦٦ . ثمّ كان أن ظهر القديس برنارد قبل منتصف القرن الثانى عشر ليدعو فى ألمانيا لحملة صليبية جديدة، وعندئذ ردّ عليه السكسون - أعداء الونديين الألداء[٢٥] - بأنه أولى أن تتجه هذه الحملة الصليبية ضدّ الونديين الوثنيين، وهكذا كانت الحملة الصليبية المعروفة بالوندية Wendish Crusade سنة ١١٤٧، وهى التى قضت على الوثنية فى تلك البلاد السلافية ونشرت النفوذ الألمانى شرقا، بحيث لم ينتصف القرن الثالث عشر إلا كانت جميع الأراضى فيما بين نهرى الألب والأودر سادها الطابع الألمانى[٢٦].

وإلى الشرق من هؤلاء - أى بين نهرى الأودر والفستولا - أسس البولنديون مملكة ذات طابع سلافى أنقى من الطابع الذى كانت عليه مملكة بوهيميا، وقد اعتنق هؤلاء البولنديون المسيحية الغربية فى القرن العاشر تحت تأثير الألمان، وإن استطاع ملكهم بولسلاس الأول Boleslas 1 (٩٩٢ – ١٠٢٥) الاحتفاظ لمملكته بطابع مستقل عن جيرانها فى النواحى الدينية والدنيوية[٢٧]،. وعلى الرغم من افتقار البولنديين إلى

(22) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 200 - 213.
(23) Idem, p. 200.
(24) Orton: op. cit. p. 302.
(25) Barraclough: op. cit. pp. 252 - 253.
(26) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 513 - 514.
(27) Morfill: Poland, pp. 26 - 28.

موهبة النظام، إلا أن مملكتهم هذه احتفظت بكيانها قرنا كاملا، حتى أفل نجمها أمام ضغط الأباطرة الألمان من أسرة هوهنشتاوفن، ولم تلبث أن تفككت هذه المملكة البولندية، فسادتها الحروب الأهلية بين الأمراء، كما انشقت بوميرانيا وسيلزيا لتصبحا ضمن نطاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة(٢٨). وهكذا غدت تجارة بولندا فى القرن الثالث عشر فى أيدى التجار الألمان بعد أن فقدت شواطئها على البحر البلطى وصارت فى شبه عزلة تسودها المنازعات والحروب(٢٩). وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت بولندا أن تنهض تدريجيا بعد أن أفاقت من الغزو المغولى لأوربا فى القرن الثالث عشر، وسنعود إليها بعد الكلام عن هذا الغزو.

السلاف الشرقيون:

وبينما اعتنق السلاف الغربيون المسيحية فى قالبها الغربى أو اللاتينى، وبالتالى صاروا يمثلون مراكز أمامية للحضارة الغربية، إذا بالسلاف الشرقيين أو الروس يرتبطون بالكنيسة اليونانية أو الأرثوذكسية ويظلون شديدى الارتباط بالعالم البيزنطى(٣٠). وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان من توغل السويديين فى القرن التاسع - أى عند بداية عصر غزوات الفيكنج - على امتداد الطريق التجارى الممتد من البحر البلطى إلى القسطنطينية؛ حيث اختلطوا بالأهالى الأصليين من السلاف الشرقيين، وأسسوا حوالى سنة ٨٦٠ دولة روسية مركزها نوفجرود Novgorod - أى المدينة الجديدة - وكييف، وذلك على أيدى زعيمهم روريك(٣١). ولم تلبث أن انتعشت أحوال الروس تحت حكم سلالة روريك ، فامتدت مملكتهم بين نوفجرود وكييف وخضع لهم الخزر شمالى البحر الأسود(٣٢). ومن الطبيعى أن تتوثق العلاقات بين الروس والإمبراطورية البيزنطية؛ نظرا لأن الطريق التجارى بين البحر البلطى والقسطنطينية يمر بأراضيهم، ولكن هذه الصلات بين الروس والدولة البيزنطية لم تكن سلمية على طول الخط إذ حدث أن حاولوا الإغارة على القسطنطينية ثلاث مرات فى سنوات

---

(28) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 462 - 463.
(29) Morfill: Poland, pp. 36 - 37.
(30) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 207.
(31) Morfill: Russia, p. 19.
(32) Rambaud: Hist. du la Russie, pp. 44 - 55.

٨٦٠، ٩٠٧، ٩٤١، ولكنهم فشلوا فى تحقيق أطماعهم[٣٣]، ولم يلبث فلاديمير الأول أمير كييف (٩٧٨ – ١٠١٥) أن اعتنق الديانة المسيحية فى قالبها الشرقى سنة ٩٩٠ وجعلها ديانة رسمية لدولته، مما عجل بقيام كنيسة روسية تابعة للكنيسة البيزنطية[٣٤]. ولكن على الرغم من قرب الروس من الحضارة البيزنطية ومحاكاتهم لها إلا أنهم ظلوا مفتقرين إلى وسائل التنظيم الكافية لتحقيق الترابط والوحدة بين أملاكهم الواسعة. وكان فلاديمير الثانى مونوماخ (١١١٣ – ١١٢٥) آخر واحد من أمراء كييف حكم جميع قبائل الروس، إذ أعقبته حالة من الفوضى والانقسام سادت جميع أنحاء البلاد[٣٥]. أمّا كييف فقد بدأت تفقد أهميتها بعد فلاديمير الثانى لتحل محلها فى الأهمية مدينة سوزدال Suzdal فى الشمال الشرقى من روسيا[٣٦]، ثمّ كان أن انقسم الروس إلى مجموعتين كبيرتين: الروس الصغار فى الجنوب والروس الكبار فى الشمال، واستطاع الفريق الأخير أن يتوسع شمالا ويكتسب أراضى جديدة، حتّى جاءت غزوات المغول فأوقفت تطور الروس إلى حين[٣٧].

والواقع أن هناك حركتين كبيرتين بدأتا فى القرن الثالث عشر، وكان لهما أثر بعيد فى تطور تاريخ أوربا، وخاصة بولندا وروسيا، أمّا هاتان الحركتان فهما غزوات المغول من جهة، وتوسع الفرسان التيتون فى شمال أوربا من جهة أخرى، الأمر الذى يتطلب الكلام عنهما أولا قبل استئناف دراسة تاريخ بولندا وروسيا فى المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى.

المغول وأوربا:

أمّا المغول فقد ظلوا حتّى القرن الثانى عشر لا يحتلون سوى مكانة ضئيلة فى التاريخ العام باعتبارهم رعاة رحل يقطنون فى المنطقة التى أخذت عنهم اسم منغوليا أو بلاد المغل بعيدا عن التيارات الحضارية الكبرى فى العالم. ولكن شاءت الظروف أن يتولى حكم كبرى قبائلهم سنة ١١٧٥ فتى ـ هو الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان (الخان الأعظم) ـ خلد اسمه فى قائمة كبار الغزاة المحاربين الذين شهدهم

(33) Vasiliev: op. cit. Tome 1, ps. 360 - 424.

(34) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 60.

(35) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 607 - 608.

(36) Morfill: Russia, p. 36 & Cam Med. Hist. Vol. 7, p. 609.

(37) Orton: op. cit. p. 303.

التاريخ(٣٨). ومهما تكن أسباب الغزوات الواسعة التى قام بها المغول تحت قيادة جنكيزخان، وسواء كانت هذه الأسباب ترجع فى جوهرها إلى عوامل طبيعية مثل: زيادة السكان، ونقص الأقوات، وضعف المرعى، أو غير ذلك من العوامل، فالمهم هو أن جنكيزخان قضى ثلاثين عاما فى قتال عنيف حتّى جعل من نفسه سيدا مطلقا على جميع قبائل المغول، فضلا عن قبائل الأتراك فى مناطق الاستبس الشمالية، الأمر الذى مكنه من استئناف الغزو - خارج نطاق المغول - على مقياس أوسع، وكان أن غزا جنكيزخان إمبراطورية الصين فيما بين سنتى ١٢١٠ ، ١٢١٦(٣٩) ثم اتجه غربا فأخضع جرخانات Gur-khans تركستان الشرقية، وفى سنة ١٢٢٠ جاء دور أتراك خوارزم الذين كانوا قد فرغوا عندئذ من فتح بلاد فارس بأكملها، فخضعوا جميعا لقوة جنكيز خان وإن ظلوا يبدون بعض المقاومة حتّى سنة ١٢٣١(٤٠). ومن الخطأ أن نرجع انتصارات جنكيز خان إلى كثرة رجاله فحسب، دون أن نعمل حساباً لمهارة المغول فى الفروسية واستخدام الخيل فى الحرب، فضلا عن براعتهم فى التكتيك الحربى واستعمال العدد الحربية بطريقة لم تعرفها بقية الجيوش التى اصطدم بها المغول فى ذلك العصر(٤١).

وكان حريم جنكيز خان يتألف من خمسمائة امرأة وعدد لا حصر له من الأبناء، ولكن برز من جميع هؤلاء أربعة قاموا بالمهام الرئيسية فى دولة أبيهم، ثم خلفوه فى اقتسام إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته سنة ١٢٢٧(٤٢). ويهمنا من هؤلاء الأبناء أوكتاى الذى خلف أباه فى زعامة إمبراطورية المغول وتولى منصب الخان الأعظم بإجماع الآراء، وتولى (تولوى) الذى كان نصيبه الجزء الغربى من إمبراطورية المغول شمالى بحر قزوين؛ وهى القبائل المغولية التى سميت بالقفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبى الذى امتازت به مخيماتهم، ولكن «تولوى» توفى فى السنة نفسها قبل أبيه، فقسمت أملاكه بين أبنائه الأربعة عشر، وظهر من هؤلاء الأبناء الابن الثانى باطو الذى نادت به قبائل القسم الغربى من المملكة - غربى نهر الفولجا -

(38) Gibbon: The Hist. of the Decline and Fall, of the Roman Empire, Vol. 7, p. 2.
(39) Idem: pp. 6 - 7.
(40) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 1004 - 1005.
(41) Orton: op. cit. pp. 384 - 385.
(42) Gilbbon: op. cit. Vol. 7, p. 10.

خانا عليهم، ولم يلبث أن قام باطو بغزوات واسعة النطاق فى روسيا، وبولندا، والمجر، ودلماشيا، مما ترك أثرا كبيرا فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى(٤٣)، ففى تلك الفترة بين سنتى ١٢٣٧، ١٢٤٠ اجتاح المغول كل الإمارات الروسية، وأخضعوها وألزموها بدفع الجزية(٤٤)، بعد أن أحرقوا عدة مدن مهمة مثل مدينة موسكو التى نسمع عنها للمرة الأولى فى التاريخ خلال هذه الأحداث(٤٥). وفى سنة ١٢٤١ اتجهت جيوش المغول نحو بولندا وهنغاريا، فانقسم الجيش المغولى إلى قسمين، أحدهما قضى على مقاومة البولنديين وأنزل بهم الهزيمة فى ليجنتز Liegnitz ثمّ اخترق مورافيا ليلحق بالقسم الرئيسى الذى كان تحت قيادة باطو نفسه والذى حطم قوة الهنغاريين عند موهى Mohi واحتل كل بلادهم(٤٦). هذا فى الوقت الذى قامت بعض جموع المغول بتدمير الصرب والبلغار، بحيث لم ينقذ أوربا من المغول عندئذ إلا وفاة أوكتاى - خان المغول الأعظم - ممّا استدعى عودة باطو شرقا إلى مركز المغول فى جوف آسيا للاشتراك فى انتخاب زعيم جديد(٤٧)، وهكذا تمّ إنقاذ بقية غرب أوربا نتيجة لانشغال المغول بأوضاعهم الداخلية وعدم تمكنهم من معاودة الهجوم على غرب أوربا، أما بخصوص البلاد الأوربية التى دمرها المغول، فقد استطاعت بولندا وهنغاريا الإفاقة بسرعة نسبية من الضربة التى نزلت بهما، فى حين ظلت روسيا - بحكم موقعها المتطرف شرقا - ما يقرب من قرنين تحت وطأة القبيلة الذهبية، فى عزلة شبه تامة عن التاريخ الأوربى(٤٨).

أمّا ايلخانات فارس فقد أغار زعيمهم هولاكو (١٢٥٦ – ١٢٦٥) على العراق، وأسقط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٢٥٨، ثمّ تقدم للإغارة على أطراف الدولة المماليكية فى الشام، لولا أن نجح سلاطين المماليك فى إيقاف المغول عند حدهم بعد أن أنزل بهم السلطان قطز الهزيمة فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠(٤٩). وفى

---

(43) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 652.
(44) Rambaud: Hist. de la. Russie, pp. 129 - 131.
(45) Morfill: Russia. p. 39.
(46) Thompson: op. cit. Vol, 2. p. 1006.
(47) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 637 - 638.
(48) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 458.
(49) Idem, Vol. 4, p. 613.

الوقت نفسه بسط هولاكو سيطرته على سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وبذلك تكون إمبراطورية المغول قد بلغت أقصى اتساعها عند نهاية القرن الثالث عشر(٥٠). على أن دولة مغول فارس لم تلبث أن تفتتت بعد قليل وانقسمت بين عدة زعماء، حتّى اعتنق هذا الفرع من المغول الإسلام أسوة بأقربائهم مغول القبيلة الذهبية، وإن كانت هذه الخطوة لم تتم إلا بعد أن أفسدوا البلاد التى نزلوا فيها فسادا صعب إصلاحه.

الفرسان التيتون:

حدث عندما غرق الإمبراطور فردريك بربروسا فى أحد أنهار آسيا الصغرى، وهو فى طريقه للمساهمة فى الحملة الصليبية الثالثة، أن تشتت جنوده ، ولم يصل منهم إلى الأراضى المقدسة سوى عدد صغير ليشتركوا فى حصار عكا سنة ١١٨٩(٥١). على أن المرض سرعان ما فشا بين هؤلاء الجند بسبب صعوبة الأحوال الجوية التى لم يعتادوها، وحينذاك لم يجدوا حولهم من يعنى بهم فى مرضهم، الأمر الذى دفع بعض التجار الوافدين من ليوبك وبرمن إلى التعاون لرعاية هؤلاء المرضى من جند الألمان(٥٢). وهكذا نشأت هيئة جديدة هى منظمة الفرسان التيتون الذين استقوا معظم مبادئهم من الهيئات الأخرى التى سبق قيامها بالأراضى المقدسة مثل الاسبتارية وفرسان القديس حنا. ولم يلبث أن أصدر البابا كلمنت الثالث مرسوما سنة ١١٩١ بالاعتراف بمنظمة الفرسان التيتون، التى اتخذت مركزها الرئيسى فى عكا بعد أن استولى عليها الصليبيون(٥٣).

وقد ظلت هذه المنظمة الجديدة محتفظة بطابعها الألمانى فى الأراضى المقدسة، فكان أعضاؤها ألمانيى المولد واللغة، كما أن ازدياد نشاطها أدى إلى تضاعف ثروتها وممتلكاتها التى جاد بها الخيرون فى غرب أوربا فضلا عن الشام، على أن الروح الصليبية سرعان ما خبت حماستها فى قلوب الأوربيين فى القرن الثالث عشر فأخذ يقل عدد الحجاج الصليبين الوافدين من غرب أوربا على الأراضى المقدسة، كما أخذت الإمارات الصليبية بالشام تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى سلاطين

---

(50) Thompson: op. cit. Vol, 2. pp. 1005 - 1007.

(٥١) سعيد عاشور. الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٦٥ وما بعدها.

(52) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 332.

(53) Lodge: op. cit. p. 452.

المماليك[٥٤]. وعندئذ صار لزاما على المنظمات الصليبية المتعددة بالشام أن تبحث لها عن ميادين أخرى تستنفد فيها إمكاناتها المادية وحماستها الدينية[٥٥]. وعندئذ وجد الفرسان التيتون ميدانا صالحا لنشاطهم فى شمال أوربا حيث كانت تنتشر فى البقعة الواقعة بين وادى الفستولا وخليج فنلاند مجموعة من الشعوب السلافية - البروسيون، واللتوانيون، والاستونياويون واللفونياويون - الذين ظلوا جميعا يعيشون عيشتهم البدائية الأولى، معتمدين على القنص والرعى، محتفظين بتقاليدهم البدائية وديانتهم الوثنية[٥٦].

وقد حاول القديس أدالبرت أسقف براغ نشر المسيحية بين البروسيين فى القرن العاشر؛ ولكنه لقى مصرعه على أيديهم، ومنذ ذلك الوقت لم تبذل أية محاولة جدية لتنصير تلك الشعوب على الرغم من وجود أسقفية اسمية على الشاطئ الشرقى للبحر البلطى[٥٧]. ولكن ذلك الوضع كان لايمكن أن يستمر بعد أن انتشرت المسيحية فى جميع أرجاء أوربا؛ لذلك بدأت محاولة جديدة فى القرن الثالث عشر لتحويل ذلك القسم من السلاف الشرقيين إلى المسيحية، ذلك عندما أسس أسقف ريغا حوالى سنة ١٢٠٠ «منظمة السيف» ليجبر أهالى ليفونيا على اعتناق المسيحية[٥٨]. وبعد ذلك بقليل بدأ كرستيان - وهو أحد الرهبان السسترشيان من مدينة أولفا Oliva - يبشر بالديانة المسيحية بين البروسيين حتّى منحه البابا لقب «أسقف بروسيا» كما ساعده فى مهمته أحد الأمراء البولنديين وهو كنوراد دوق ماسوفيا[٥٩]. ولكن هذه المهمة كانت أخطر ممّا توقع الأسقف والدوق، إذ ثار البروسيون وغزوا ماسوفيا نفسها؛ مما جعل أميرها كونراد يبعث رسالة سنة ١٢٢٦ إلى مقدم الفرسان التيتون - بإيطاليا عندئذ - طالبا منه حماية أراضيه من البروسيين مقابل إعطائه منطقة كولم Kulm - على الحدود بين ماسوفيا وبروسيا[٦٠].

---

(54) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 216 - 217.

(55) Stephen: Med. Hist. p. 485.

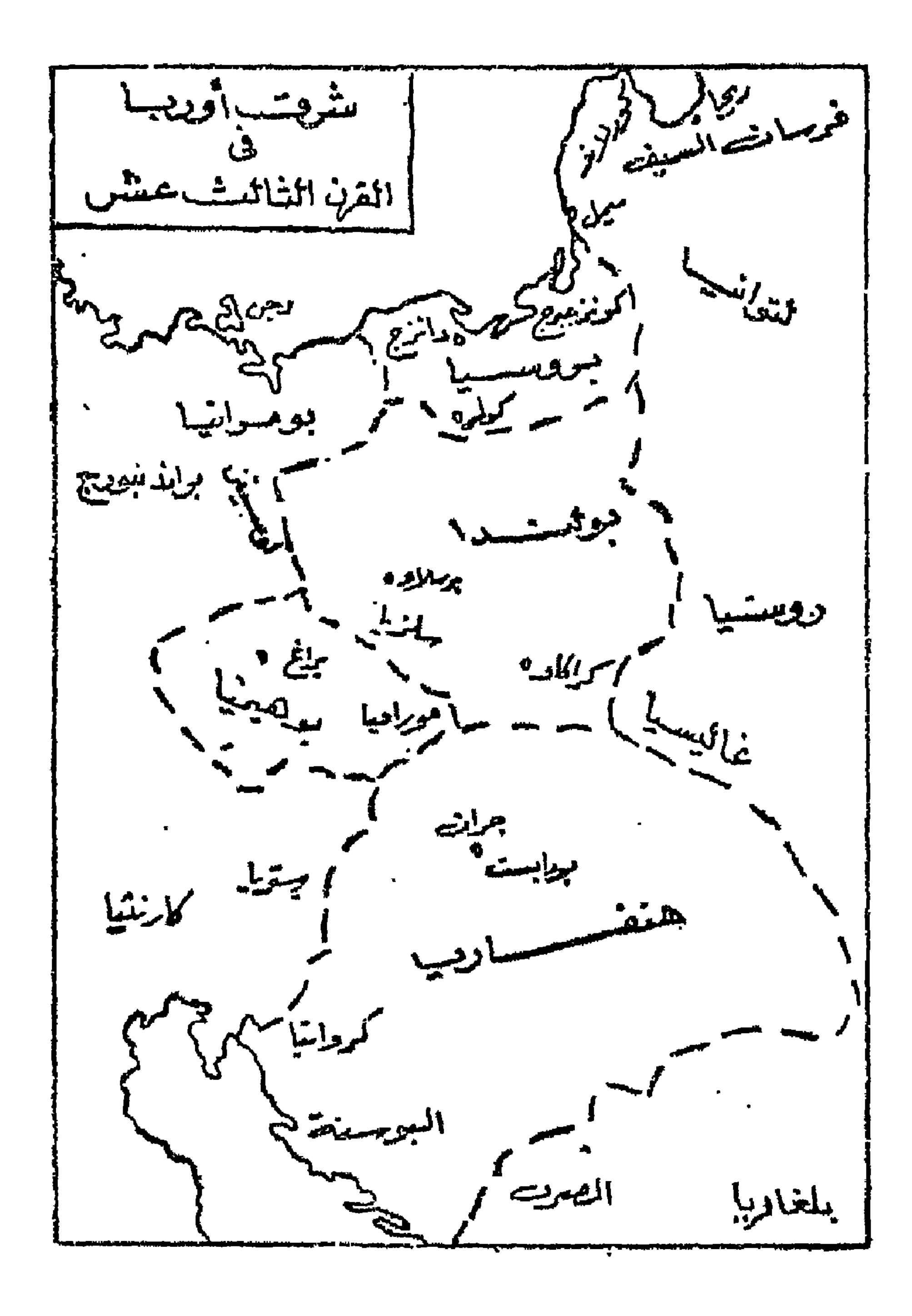
(56) Lodge: op. cit. p. 453.

(57) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 249.

(58) Barraclough: op. cit. p. 267.

(59) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 253 - 267.

(60) Lodge: op. cit. p. 454.


شرق أوروبا
في
القرن الثالث عشر
فرسان السيف
ليتوانيا
بروسيا
بولندا
روسيا
غاليسيا
براغ
كراكاو
بوهيميا
مورافيا
بودابست
هنغاريا
كرواتيا
البوسنة
الصرب
بلغاريا
كارنثيا

وكان أن رحب هرمان فون سالزا Hermann Von Salza مقدم هيئة الفرسان التيتون بهذا العرض بعد أن وجد فيه فرصة لتأسيس دولة مسيحية بشمال أوربا تغنى منظمته عن الشام ومتاعبها [٦١]. ولكن هرمان كان حريصا فى أول الأمر على ألا يعمل لحساب أحد وأن يضمن استقلال الفرسان التيتون فى مقرهم الجديد، فحصل من الإمبراطور فردريك الثانى على شهادة رسمية باستيلاء المنظمة على منطقة كولم، زيادة على بقية الأراضى التى تفتحها المنظمة فى المستقبل، على أن يتمتع الفرسان التيتون فى هذه الأجزاء بسلطة تامة فى النواحى الاقتصادية وخاصة سك العملة وفرض الضرائب[٦٢] . وكذلك عقد مقدم الفرسان التيتون اتفاقيات مشابهة مع دوق ماسوفيا والأسقف كرستيان، أمّا البابا جريجورى التاسع فقد أقر ـ هو الآخر ـ هذا الوضع من جانبه سنة ١٢٣٤ ، فوافق على استقلال الفرسان التيتون بكل ما يفتحونه من بلاد الوثنيين مقابل دفع ضريبة اسمية للبابوية[٦٣] .

وهكذا أخذ الفرسان التيتون يتزحون إلى بروسيا منذ سنة ١٢٣١ وبدأوا يغزون الأراضى الوثنية المجاورة بنجاح كبير؛ لأنهم على الرغم من قلة أعدادهم نسبيا امتازوا بقوة أسلحتهم ودرايتهم بشئون الحرب[٦٤]، على أن غزو بروسيا لم يتم دون متاعب جمة، إذ ثار اللتوانيون ضدّ «منظمة السيف» سنة ١٢٣٦ وأنزلوا بهم هزيمة كبرى[٦٥]، كما قامت ثورة بين البروسيين السلاف ضدّ الفرسان التيتون سنة ١٢٦١ ، واستمرت هذه الثورة حتّى أضحى الفرسان التيتون فى عشر السنوات التالية فى خطر من ضياع الأراضى التى أجهدوا أنفسهم فى فتحها، ولكنهم مع ذلك ثابروا حتّى أخضعوا البلاد تماما سنة ١٢٨٠ ، وربما ساعد الفرسان فى مهمتهم الطريقة التى اتبعوها، وهى إقامة قلعة فى كل منطقة يفتحونها حتّى تكون مركزا لنفوذهم ولحفظ الأمن والنظام، بالإضافة إلى اتخاذها قاعدة للعمليات الحربية التالية[٦٦]، ومن الواضح أن كثيرا من البروسيين لاقوا حتفهم فى ذلك الصراع المرير، فى حين آثر غيرهم

---

(61) Thompson: op. cit. Vol, 2. p. 634.
(62) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 129.
(63) Thompson: op. cit. Vol, 2. p. 952.
(64) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 254.
(65) Barraclough: op. cit. p. 267.
(66) Thompson: op. cit. Vol, 2. p. 952.

الهجرة شرقا لينعموا بالاستقلال فى لتوانيا ممّا جعل الفرسان التيتون أمام مشكلة تعمير تلك الأراضى، فشجعوا الفلاحين والتجّار الألمان على الهجرة إلى بروسيا والاستقرار فيها، حتّى غدت بروسيا غنيمة للألمان من جهة وكسبا للكنيسة من جهة أخرى[٦٧]. أمّا من بقى من العناصر السلافية فى بروسيا فلم يكن أمامه سوى اعتناق ديانة الغزاة الألمان ولغتهم، بل حرم على الأهالى التحدث بلغة غير الألمانية ووضعت رقابة شديدة لقطع كل صلة تربط بروسيا بالماضى ممّا جعل منها إقليما ألمانيا بحتا[٦٨].

ثمّ كان أن أفاق البولنديون لتصدمهم الحقيقة المرة، وهى أن استقلال الفرسان التيتون بإقليم بروسيا معناه قيام دولة ألمانية تفصل بينهم وبين البحر البلطى، وهنا تغلبت العصبية العنصرية على الشعور الدينى، فأدرك كونراد أمير ماسوفيا قصر نظره، وأسرع ـ بالاشتراك مع البولنديين ـ إلى إرسال المعونة إلى السلاف الوثنيين فى بروسيا، وإن كانت هذه المعونة لم تصل إلا بعد فوات الأوان[٦٩]. أمّا البابوية فلم تكف فى تلك المرحلة عن الدعوة لهذه الحروب الصليبية ضدّ الوثنيين فى شمال أوربا، وأصدرت ـ كعادتها ـ صكوك الغفران لكل من يشارك فى محاربة البروسيين، حتى دخل كثير من المسيحيين تحت لواء الفرسان التيتون، كذلك أسهم أوتوكار الثانى Ottokar II ملك بوهيميا (١٢٥٣ – ١٢٧٨) ـ وأقوى الأمراء الألمان فى عصره ـ فى مساعدتهم حتّى أسست مدينة كونجزبرج Konigsberg سنة ١٢٥٥ تشريفا لملك بوهيميا[٧٠].

وفى سنة ١٢٩١ سقطت عكا ـ آخر البقايا الكبرى للصليبيين بالشام ـ فى أيدى المسلمين، وحينئذ ركز الفرسان التيتون كل نشاطهم فى الشمال؛ حيث نطاق العمل أوسع ومجال الاستقلال أعظم، بعيدا عن سيطرة البابوية وتدخلها؛ لذلك نقل مقدم الفرسان التيتون مقره من البندقية إلى مارنبورج Marienburg سنة ١٣٠٩. ومنذ ذلك الوقت غدت هذه المدينة حاضرة الفرسان التيتون ومقر قيادتهم[٧١]، على أن

---

(67) Stephen: Med. Hist. p. 487.
(68) Barraclough: op. cit. p. 268.
(69) Lodge: op. cit. p. 455.
(70) Cam. Med. Hist. Vol. 6, ps. 438 - 457.
(71) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 333.

قطع الصلة بين الفرسان التيتون من جهة والأراضى المقدسة وجنوب أوربا من جهة أخرى كانت له نتائج بعيدة المدى، إذ أدى إلى إضعاف صلة هؤلاء الفرسان بالبابوية وتقوية الروابط التى تربطهم بألمانيا والإمبراطورية(٧٢)؛ ولذلك أسرع الإمبراطور هنرى السابع إلى عرض حمايته على الفرسان التيتون بعد أن أكد اعترافه بجميع حقوقهم وامتيازاتهم، وهكذا غدت حركة التيتون التوسعية فى شمال أوربا تعمل من أجل صالح ألمانيا والألمان بعد أن كانت تسير باسم الكنيسة والبابوية(٧٣)، وقد استمرت هذه الحركة بنشاط فى القرن الرابع عشر، فاستغل الفرسان التيتون فرصة النزاع بين بولندا وبراندبرج ليستولوا على إقليم بومرليا Pomerelia بما فيه مدينة دانزج الخطيرة الأهمية سنة ١٣١١(٧٤). ولكن إذا كان الاستيلاء على هذا الإقليم المسيحى قد قوى مركز هيئة الفرسان التيتون على الجانب الغربى أو الألمانى لنهر الفستولا، إلا أنه فى الوقت نفسه فتح بابا واسعا للشقاق والخلاف الذى أثر تأثيرا واضحا فى مستقبل تلك الهيئة، ذلك أنه أظهر أغراض الفرسان التيتون وأهدافهم فى صورة دنيوية لادينية؛ وأدى إلى صراع طويل مع بولندا التى كانت لايمكن أن ترضى بذلك الوضع، هذا زيادة على فتح باب النزاع بين الفرسان التيتون والبابوية(٧٥).

أما عن الحرب بين بولندا ومنظمة الفرسان التيتون فى القرن الرابع عشر، فقد وقفت البابوية فيها إلى جانب بولندا بعد أن كانت فى القرن الثالث عشر تبارك جهود التيتون وتدفعهم دفعا إلى الأمام(٧٦)، وقد انتهى الدور الأول من مراحل الحرب بانتصار الفرسان التيتون، فعقد معهم كازمير العظيم (Casimir) ملك بولندا صلح كاليش Kalish سنة ١٣٤٣، وبمقتضاه تنازلت بولندا عن إقليم بومرليا وغيره من الأجزاء المتنازع عليها قرب وادى الفستولا(٧٧)، ولم تلبث الدانمارك هى الأخرى أن تنازلت لهم سنة ١٣٤٦ عن مطالبها فى إقليم استونيا، وبذلك أصبح الفرسان التيتون يسيطرون على كل الأجزاء السلافية فى الجنوب الشرقى لحوض البحر البلطى، وإذا

---

(72) Lodge: op. cit. p. 457.
(73) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 263.
(74) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 201.
(75) Lodge: op. cit. p. 458.
(76) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 457 - 459.
(77) Morfill: Poland. p. 46.

كان اللتوانيون وحدهم هم الذين أصروا فى عناد على الاحتفاظ بوثنيتهم واستقلالهم، فإن الفرسان التيتون شنوا عليهم حربا مثمرة فيما بين سنتى ١٣٥١، ١٣٨٢، وهى الفترة التى بلغت فيها منظمة الفرسان التيتون ذروة قوتها ونفوذها(٧٨).

على أنه حدث عند وفاة لويس العظيم ملك هنغاريا وبولندا سنة ١٣٨٢ أن أدى تعصب نبلاء بولندا لعنصرهم السلافى إلى رفض الاتحاد مع هنغاريا فى ظل حكم ملوك أجانب، فعرضوا تاج بولندا على جاجلو Jagello أمير لتوانيا بشرط أن يعتنق المسيحية ويتزوج من ابنة الملك الراحل لويس العظيم . وقد رحب جاجلو بهذه الصفقة التى تتيح له عروسًا وعرشًا دون عناء. فتمّ تعميده، وتوج باسم لادسلاس الثانى Ladislas 11 سنة ١٣٨٦، وبذلك بدأت الوحدة بين بولندا ولتوانيا، وقد بلغت بولندا فى عهد هذه الأسرة اللتوانية أقصى درجات القوة ، ممّا عاد بالخسارة على الفرسان التيتون، ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندا كان معناه اتحاد أكبر خصمين للفرسان التيتون(٧٩)، هذا فضلا عن أن اعتناق اللتوانيين للديانة المسيحية حرم هؤلاء الفرسان من سند قوى كانوا يعتمدون عليه بدعوى نشر المسيحية ومحاربة الوثنيين(٨٠). وهكذا لم يعد هناك مبرر لبقاء الفرسان التيتون فى بروسيا ولا داعى لحروبهم بعد أن أصبحت بروسيا نفسها محاطة من جميع النواحى بشعوب ودول مسيحية، الأمر الذى ترتب عليه انقطاع وفود المسيحيين والصليبيين بعد أن ظلوا أمداً طويلا يتدفقون من مختلف أنحاء أوربا للعمل تحت قيادة الفرسان التيتون باسم الصليب(٨١).

والواقع أن القرن الخامس عشر شاهد تطورا خطيرا فى ميزان القوى بين الألمان من جهة والعناصر السلافية والسكندناوية من جهة أخرى. فبعد مضى ثلاثمائة سنة ذاقت طوالها العناصر السلافية الأمرين من عسف الألمان وضغطهم، حتّى جاءت فى النهاية العصبة الهانزية من جهة ومنظمة الفرسان التيتون من جهة أخرى ليجعلوا من البحر البلطى بحيرة ألمانية، إذ بالأوضاع تتغير فى القرن الخامس عشر فتتعرض العصبة الهانزية لخطر يهددها من جانب اتحاد كالمار، فى حين تعرض الفرسان

---

(78) Lodge: op. cit. p. 458.

(79) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, pp. 211 - 212.

(80) Stephenson: Med. Hist. p. 553.

(81) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 412.

التيتون لخطر من جانب اتحاد بولندا ولتوانيا[٨٢]، وكان أن بدأ القتال بين قوات بولندا ولتوانيا من جهة وقوات هيئة الفرسان التيتون من جهة أخرى سنة ١٤٠٩، وفى موقعة تاننبرج Tannenberg فى العام التالى، انتصر الفريق الأول انتصارا حاسما، وسقط مقدم التيتون قتيلا فى الميدان، ممّا جعل بروسيا تبدو فريسة سهلة أمام الغزاة المنتصرين[٨٣]. على أن المقاومة التى أبدتها قلعة مارينبورج Marienburg - حاضرة الفرسان التيتون ومعقلهم - جعلت تقدم البولنديين يبدو صعبا، ومن ثمّ انتهى الموقف بعقد صلح ثورن Thorn الأول سنة ١٤١١، وبذلك أتيحت فرصة لمنظمة التيتون لكى تعيش نصف قرن آخر من الزمان.

ويبدو أن الهزيمة التى لحقت بالتيتون فى تاننبرج جاءت مصحوبة بانحلال داخلى فى نظامهم وانقسام فى حكومتهم، هذا فى الوقت الذى أثارت سياسة الفرسان التيتون الاقتصادية غضب تجار العصبة الهانزية بسبب تطرفهم فى فرض ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الموقف الحربى[٨٤]. وقد حاول الفرسان التيتون إصلاح وضعهم ولكنهم لجأوا فى تحقيق ذلك إلى الشدة والتطرف فى معاملة رعاياهم، مما أضاع الثقة بين الحكام والمحكومين وأدى إلى قيام حرب أهلية داخلية فى بروسيا سنة ١٤٥٣. وكان أن استنجد الثوار داخل بروسيا ببولندا، فأعلن كازمير الرابع ملك بولندا ضم بروسيا إلى بلاده وخرج بنفسه على رأس جيشه لمساعدة الثائرين، ويضيق بنا المقام عن تتبع هذا الدور من أدوار الحرب بين بولندا والفرسان التيتون. ولكن يكفى القول بأنها كانت مريرة استمرت اثنى عشر عاما، قاوم فيها التيتون دفاعا عن كيانهم مقاومة باسلة على الرغم من الهزائم المتلاحقة التى نزلت تترى عليهم، حتّى اضطروا أخيرا - سنة ١٤٦٦ - إلى الاعتراف بالأمر الواقع فعقدوا صلح ثورن الثانى مع بولندا[٨٥]، وبمقتضى هذ الصلح استولت بولندا على كل بروسيا الغربية بما فيها إقليم بومرليا ودانزج وثورن وإلبنج Elbing وكولم حتّى عاد وادى الفستولا مرة أخرى إلى أيدى السلاف، أما بروسيا الشرقية فقد بقيت فى أيدى منظمة الفرسان التيتون بشرط

(82) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 265.
(83) Morfill: Poland. p. 52.
(84) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 953.
(85) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 266.

أن يعترفوا فى حكمهم بالتبعية لبولندا وحدها دون عداها(٨٦). وهكذا بدأ فصل الختام فى تاريخ دولة الفرسان التيتون بشمال أوربا، حتّى انتهى ذلك الفصل سنة ١٥٢٥ عندما غدت بروسيا الشرقية دوقية تابعة لبولندا(٨٧).

بولندا بعد الغزو المغولى:

الواقع أن بولندا تأتى - عند دراستها - بين هذا الباب والباب السابق؛ لأنها بحكم موقعها وتاريخها تحتل مكانا وسطا بين شرق أوربا وغربها وإن كان البولنديون أنفسهم يرجعون فى أصلهم إلى العنصر السلافى الذى جعلهم فى طابعهم العام أقرب إلى شرق أوربا منهم إلى غربها.

وعلى الرغم من أن بولندا لم تخضع لمغول القبيلة الذهبية خضوعا تاما مستمرا إلا أنها أضحت بعد الغزو المغولى فى حال يرثى له من الدمار والخراب، وكان طريق النقاهة من الغزو يبدو فى أول الأمر شاقا عسيرا، إذ غدت البلاد مقسمة إلى عدد كبيرمن الإمارات المستقلة، كل منها أشبه بدويلة صغيرة تسودها فوضى النزاع بين النبلاء (٨٨)، وقد استمر هؤلاء منقسمين إلى مرتبتين، الأشراف فى المرتبة الأولى ثمّ الأعيان فى المرتبة الثانية. وبعد ذلك يأتى الأقنان من عامة الفلاحين(٨٩)، أمّا فى الناحية الخارجية فإن موقف بولندا كان لا يقل صعوبة وحرجا، فالفرسان التيتون أقاموا حاجزا بينها وبين البحر البلطى، فى حين أخذ الألمان الذين استقروا فى سيلزيا يحولونها إلى أرض ألمانية، كما أخذوا يكونون فى بولندا طبقة متوسطة تسيطر على المدن والتجار مع كونهم أجانب دخلاء على البلاد(٩٠). ثمّ زاد الطين بلة قيام أحد أبناء بوهيميا وهو ونسسلاس Wenceslaus (١٢٩٥ - ١٣٠٥) فى عرش بولندا سنة ١٣٠٠، فاستفاد الرعايا الألمان وحدهم من هذه الخطوة، كما أن تبعية سيلزيا لهذا الملك البوهيمى ساعدت على تقوية صبغتها بالطابع الألمانى (٩١).

---

(86) Stephenson: Med. Hist. p. 554.

(87) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 953.

(88) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 200.

(89) Orton: op. cit. p. 497.

(90) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 201.

(91) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 83 - 84.

على أن كراهية البولنديين للألمان سرعان ما أثارت فيهم الشعور القومى، فثار لادسلاوس لوكتيك (الأول) Ladislaus Loketick 1 (١٣٢٠ - ١٣٣٣) أمير كوجافيا فى حوض الفستولا الأدنى، وجمع معظم الإمارات البولندية تحت زعامته، كما عقد أول مجلس نيابى قومى سنة ١٣٣١ . وقد أصدر هذا الملك عدة تشريعات ناجحة ضدّ الرعايا الألمان فى بولندا ليجعل السيادة فى المدن البولندية للعنصر السلافى، ومع ذلك فإنه لم يوفق فى استرداد سيلزيا التى تمسكت بها بوهيميا كما عجز عن استعادة بومرليا من الفرسان التيتون فعقد معهم صلحا سنة ١٣٣١[٩٢].

ثم خلف لادسلاوس الأول ابنه كازمير الثالث أو العظيم (١٢٣٣ - ١٣٧٠) الذى رأى صعوبة فى استعادة الأقاليم التى فقدتها بولندا، فأقر بوهيميا على تملك سيلزيا، كما أقر الفرسان التيتون فى تملكهم لبومرليا[٩٣]؛ ولكنه أراد أن يعوض هذه الخسارة بالاتجاه شرقا ليكوّن قوة غير ألمانية، وفعلا نجح سنة ١٣٤٠ فى ضم مملكة الروس الحمر إلى غاليسيا على الرغم من جهود هنغاريا ولتوانيا لمنع هذه الخطوة[٩٤]. هذا بالإضافة إلى عنايته بالتخلص من بقايا النظم القبلية العتيقة، فنظم الجهاز الإدارى وركزه وعنى بالجيش والخدمة العسكرية كما اهتم بتشجيع التجارة والصناعة، وفى ذلك العهد انضمت كراكاو ودانزج إلى العصبة الهانزية، كما بدأ نجم وارسو فى الصعود لتخلف كراكاو التى كانت عاصمة البلاد منذ سنة ١٣١٢[٩٥]. أمّا الروح العلمية التى سادت القرن الرابع عشر فقد وجدت مركزا قوميا لها فى جامعة كراكاو. وهكذا قدر لبولندا أن تحقق قسطًا وافرا من الوحدة والتقدم تحت قيادة الملك كازمير[٩٦].

ويبدو أن تخوف كازمير من نشوب حرب أهلية من بعده بسبب وراثة العرش جعله يختار ابن أخته لويس ملك هنغاريا (١٣٧٠ ١٣٨٢) وريثا له[٩٧]، وبذلك أصيب النظام الملكى فى بولندا بضربة قاسية لأن لويس اضطر إلى إصدار منحة كاسا Kassa

---

(92) Morfill: Poland. p. 38.

(93) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 260 - 261.

(94) Orton: op. cit. p. 498.

(95) Morfill: Poland. pp. 38 - 40.

(96) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 954, Cam Med. Hist. Vol. 8, p. 562..

(97) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, pp. 210 - 211.

سنة ١٣٧٤ التى حررت النبلاء من معظم التزاماتهم نحو الملك[٩٨] . وهكذا آلت السلطة فى بولندا - بعد وفاة لويس - إلى أشرافها الذى أصروا على اختيار ابنته الثانية هدويج ملكة عليهم بعد أن أجبروها على الزواج من جاجلو Jagello أمير لتوانيا، وبذلك فصلوا بولندا عن هنغاريا وبوهيميا[٩٩] .

أمّا لتوانيا هذه - التى قدر لها نتيجة لهذا الزواج - أن ترتبط ببولندا فكان أهلها يكونون شعبا قائما بذاته يعيش فى شبه عزلة، محتفظا بوثنيته دون أن يتأثر كثيرا بما يحيط به من تيارات حضارية[١٠٠]، وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت باللتوانيين على أيدى الفرسان التيتون، إلا أنهم أظهروا مقدرة سياسية واضحة، حتّى قام بعض أمرائهم بغزو روسيا، ومن هؤلاء الأمراء مندوج Mindovg (١٢٤٠ - ١٢٦٣) ثمّ جدمين Gédimine (١٣١٥ - ١٣٤٠) الذى وصل فى تقدمه داخل روسيا حتى كييف، ثمّ أولجرد Olgerd (١٣٤٥ - ١٣٧٧) الذى سيطر على حوض الدنيير بأكمله وثبت نفوذه على شاطئ البحر الأسود[١٠١]، وبعد هؤلاء جاء جاجلو (١٣٧٧ - ١٤٣٤) الذى أعرض عن الاتجاه السابق واتجه نحو بولندا والحضارة الغربية، حتّى كان زواجه من هدويج البولندية بعد اعتناقه المسيحية، الأمر الذى أدى بشعبه إلى أن يتبع المذهب الكاثوليكى الغربى، ممّا وضع فاصلا بينه وبين رعاياه الروس الأرثوذكس[١٠٢] .

ويُعتبر اعتلاء هذا الأمير اللتوانى عرش بولندا، وما ترتب على ذلك من اتحاد بولندا ولتوانيا فى ظل ملكية واحدة . أمرا على جانب عظيم من الأهمية؛ نظرا لما ترتب عليه بالنسبة لتوسع الألمان فى شمال بولندا[١٠٣] . وقد اتخذ جاجلو عند تعميده اسم لادسلاس الثانى ملك بولندا (١٣٨٦ - ١٤٣٤)، وكان من الطبيعى ألا يتخذ أى إجراء لمقاومة أرستقراطية الأشراف التى نصبته ملكا[١٠٤]، وفى الوقت نفسه أخذ

(98) Morfill: Poland. p. 47.
(99) Lodge. op. cit. pp. 190 - 191.
(100) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 559.
(101) Rambaud: Hist. de la Russie, pp. 147 - 150.
(102) Cam. Med. Hist. Vol. 7, ps. 226 - 259.
(103) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 409.
(104) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 568.

يطبق النظم البولندية على لتوانيا، كما منح الأسر الكبيرة الامتيازات نفسها التى كانت تتمتع بها مثيلاتها فى بولندا، وكان يبدو أن هذه الأسر الجديدة التى قامت فى عرش بولندا آمنت من أول الأمر بأن رسالتها الأولى تنحصر فى إزالة الآثار المترتبة على التوسع الألمانى شمالا فى الفترة السابقة [١٠٥]، ولم تلبث أن أثمرت هذه السياسة فانتصر البولنديون على الفرسان التيتون فى موقعة تاننبرج سنة ١٤١٠، مما جعل بولندا تتطلع لزعامة شرق أوربا[١٠٦]، لولا أن شاء سوء الطالع أن يقتل ملكها لادسلاس الثالث (١٤٣٤ - ١٤٤٤) فى موقعة فارنا ضدّ العثمانيين (سنة ١٤٤٤)[١٠٧]، وقد لمع فى تلك الفترة اسم أسقف كراكاو زبجنيو أولزنيكى Zbigniew Olesnicki حتّى جاء وقت أصبح هو المتحكم فى سياسة الدولة البولندية، وتبدو سياسته واضحة فى القضاء على الهرطقة الهسية فى بولندا من جهة، وفى التأثير على ملكية لادسلاس للقيام بحملته الصليبية ضدّ العثمانيين من جهة أخرى[١٠٨]، ومهما يكن من أمر، فإن مقتل لادسلاس الثالث فى تلك الحملة، جعل خليفته كازمير الرابع (١٤٤٥ - ١٤٩٢) يبدأ البناء من جديد، وكان أهم ما فعله هذا الملك هو القضاء على قوة هيئة الفرسان التيتون، وهو الأمر الذى تمّ بمقتضى صلح ثورن الثانى سنة ١٤٦٦، والذى ترتب عليه ضمّ بروسيا الغربية لبولندا، وهكذا شقت بولندا طريقها نحو البحر البلطى وامتلكت ميناء دانزج، ولم تعد تحت رحمة الألمان وضغطهم[١٠٩].

على أن هذا النجاح فى الميدان الخارجى قللت من أثره الظروف الداخلية فى مملكة بولندا الواسعة، ذلك أن كازمير الرابع صمم منذ اعتلائه العرش على سلب أرستقراطية الأشراف سلطانها ونفوذها، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض بعد نضال عنيف، ولكن الفئة التى جنت ثمار هذا النصر كانت طبقة الأعيان الذين يلون

---

(105) Lodge. op. cit. p. 183.

(106) Morfill: Poland. p. 52.

(107) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 577.

(108) Morfill: Poland. pp. 54 - 55.

(109) Pirenne: La Fin du Moyen Age. Tome 2, pp. 115 - 116.

(110) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 557 - 578.

الأشراف في المرتبة (١١٠)، وهكذا غدا ممثلو الأعيان هم المسيطرون على المجلس الوطني، حتى أوشكت بولندا عند نهاية العصور الوسطى ومستهل الحديثة أن تصبح جمهورية من النبلاء في صورة ملكية انتخابية مقيدة(١١١).

روسيا والغزو المغولي:

فإذا تركنا بولندا ، فإننا نلمس أثر الحضارة الغربية يتناقص في الشعوب السلافية كلما أوغلنا شرقا، فبينما اتبعت بولندا الكنيسة الغربية وغلب عليها طابع الإقطاع الذي ساد غرب أوربا، إذا بمعظم لتوانيا أرثوذكسية المذهب وإن كانت أرستقراطيتها ذات نزعة إقطاعية غربية، هذا في حين ارتبطت البلاد الروسية ارتباطا تاما بالمشرق وحضارته حتّى غدت الوريثة الطبيعية للدولة البيزنطية(١١٢).

وعلى الرغم ممّا صاحب الغزو المغولي لروسيا من ذبح آلاف الأهالي وتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم، إلا أن هذا الغزو لم يغير الطابع العام للبلاد، ذلك أن خانات القبيلة الذهبية لم يحاولوا تغيير النظم السائدة(١١٣)، وهكذا ظلت روسيا مقسمة إلى عدة ولايات أو إمارات أهمها كييف وروتنيا Ruthénie ونوفجرود الكبرى في الشمال(١١٤)، وكان يحكم هذه الولايات أمراء من الروس على أن يختار خان المغول أحدهم ليكون أميرا أعظم، والواقع أننا نستطيع أن نحدد العلاقة بين الروس وسادتهم المغول في ذلك العصر بعدة روابط أساسية: أولها أنه كان على الأمراء الروس أن يترددوا بين حين وآخر على مقر القبيلة الذهبية، إمّا لتقديم ولائهم وخضوعهم وإمّا لحل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض، ويبدو أن الأمر لم يقتصر على ذهاب الأمراء الروس إلى مقر القبيلة الذهبية، وإنما كانوا يضطرون أحيانا إلى الذهاب حيث خان المغول الأعظم في جوف القارة الآسيوية، وهناك كان يلتقي الأمراء الروس بمبعوثي بعض القوى الإسلامية، والبابا وملك فرنسا وغيرهم من حكام الشرق والغرب(١١٥)، وثاني هذه الروابط أنه كان على الروس - شأنهم شأن بقية الشعوب الخاضعة للمغول - دفع ضريبة

---

(111) Morfill: Poland. p. 56.

(112) Orton: op. cit. pp. 500 - 551.

(113) Pirenne: La Fin du Moyen Age. p. 218.

(114) Idem: pp. 218 - 219.

(115) Rambaud: Hist. de la Russie, pp. 147 - 150.

الرأس، دون تمييز بين الأثرياء والفقراء فى دفع هذه الضريبة، ولم يشترط أن تدفع هذه الضريبة نقدا وإنما كانت تدفع عينا فى بعض الأحيان، ومن يعجز عن دفعها يفقد حريته ويستعبد(١١٦)، أمّا الرباط الثالث فإنه كان على الروس دفع ضريبة الدم (L'impot du sang) ويقصد بها تقديم الرجال المطلوبين للعمل فى جيوش سادتهم المغول، وكان الأمراء الروس يختارون صفوة شبابهم فى القرن الثالث عشر لتقديمهم إلى المغول ، حتّى إننا نسمع عن كثير من الروس الذين حاربوا فى صفوف المغول ضدّ شعوب القوقاز سنة ١٢٧٦ (١١٧)، ورابع هذه الروابط أن أى أمير روسى لايمكن أن يتولى الحكم فى إمارته إلا بموافقة الخان وتسليمه أمر اعتماد أو تقليد منه(١١٨)، وأخيرا فقد كان محرما على أية إمارة روسية أن تشن حربا على جارتها إلا بترخيص من الخان، ومن ذلك ما نسمعه عن أن نوفجرود طلبت ترخيصا من المغول سنة ١٢٦٩ بمحاربة ريفل(١١٩).

وقد ظهر من أمراء روسيا فى القرن الثالث عشر إسكندر نفسكى أمير نوفجرود الذى استطاع أن يدافع عن إمارته، فأنزل هزيمة بالسويديين عند نهر نيفا سنة ١٢٤٠ ، ثمّ بمنطقة السيف الألمانية قرب بحيرة بيبوس سنة ١٢٤٢، ثمّ كان أن استطاع أحد أبناء إسكندر هذا الوصول إلى إمارة موسكو التى نبتت منها الإمبراطورية الروسية(١٢٠).

والواقع أن أمراء موسكو أظهروا على الدوام مقدرة وكفاية تفوق ما كان عليه بقية أمراء روسيا، كما أنهم لم يتقيدوا بالتقاليد الأرستقراطية العتيقة التى سادت مختلف أنحاء روسيا والتى انطوت على كثير من مظاهر الفوضى وعدم النظام، وقد ساعدت الظروف أمراء موسكو على توطيد سلطانهم المطلق بصورة ليس لها مثيل فى أى مكان آخر من روسيا(١٢١). ذلك أن هذه الإمارة أحاطت بها مجموعة قوية من الجيران، كما تعرضت للكثير من بطش المغول، ممّا جعل أهاليها يعتمدون على

(116) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 621.
(117) Rambaud: op. cit. pp. 141 - 142.
(118) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 621.
(119) Rambaud: op. cit. p. 142.
(120) Morfill: Russia, p. 42.
(121) Orton: op. cit. pp. 501 - 502.

أميرهم اعتمادا تاما فى حمايتهم وتحقيق سلامتهم، ولم يلبث مغول القبيلة الذهبية أن أدركوا أهمية إمارة موسكو لهم، فأضفوا على صاحبها لقب «الأمير الأعظم»، كما عهدوا إلى أميرها إيفان الأول (١٣٢٨ - ١٣٤١) بمهمة جمع الجزية المفروضة على بقية الإمارات الروسية المجاورة[١٢٢]، وهكذا ازدادت أهمية أمير موسكو وتضاعفت ثروته وظهر فى مظهر حامى الشعب الروسى، والوسيط بينه وبين سادته المغول، كما أتيحت له فرصة الاستعانة بقوى المغول للتغلب على منافسيه وجيرانه، هذا فى الوقت الذى أصبحت موسكو المركز الروحى لروسيا، بعد أن انتقل إليها - من كييف - رئيس أساقفة روسيا[١٢٣]، ولم يلبث الرهبان الروس أن انصرفوا إلى استصلاح الأراضى وفلاحتها وتأسيس المستوطنات فيها، وهى المستوطنات التى أخذ أهلها ينظرون إلى موسكو على أنها حاضرتهم ومركزهم الروحى.

ثم كان أن أخذت قوة القبيلة الذهبية تتفكك بسرعة، وعندئذ بدأ ديمترى دونسكوى Dimitri Donskoi أمير موسكو (١٣٦٣ - ١٣٨٩) يعتقد أن الوقت مناسب لمقاومة المغول والتخلص من سيادتهم، ولكن إذا كان الروس قد تمكنوا من إحراز انتصارين على المغول حوالى سنة ١٣٨٠ ممّا أثار فيهم روح الحماسة القومية[١٢٤]، إلا أن خان المغول طقطمش لم يلبث أن وحد القبيلة بمساعدة تيمورلنك؛ وعندئذ تغلب على الروس وأحرق موسكو، واضطر الروس إلى إعادة دفع الجزية وهم صاغرون[١٢٥]. ولم يلبث الخلاف أن دبّ بين طقطمش وتيمورلنك، ممّا جعل الأخير يقضى على قوة الأول سنة ١٣٩٥ وبالتالى قضى على قوة القبيلة الذهبية، وعلى الرغم من أن أمير موسكو الأعظم رأى أن يحتاط ولا يتسرع فى تحديد موقفه من المغول تلك المرة، إلا أن أملاكه أخذت فى الاتساع والنمو المستمر كما أخذت روسيا تظهر تعصبا لطابعها الشرقى وتمسكا بمذهبها الأرثوذكسى[١٢٦].

وأخيرا قدر لإيفان الثالث أو العظيم (١٤٦٢ - ١٥٠٥) أن يتوج عمل أسلافه

---

(122) Rambaud: op. cit. pp. 163 - 167 & Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 625.

(123) Morfill: Russia, p. 49 & Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 626.

(124) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 627.

(125) Rambaud: op. cit. pp. 174 - 175.

(126) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 629.

أمراء موسكو بإخضاع بقية الإمارات الروسية لنفوذه، وكان أن أخضع نوفجرود سنة ١٤٧٩ وحول هذه الجمهورية التجارية الغنية إلى مدينة إقليمية، وعندما حقدت الدولة البولندية اللتوانية على روسيا وتحالفت مع مغول القبيلة الذهبية المنحلة ضدّ الروس، استطاع إيفان الثالث أن يحطم ذلك الحلف فتحالف مع مغول القرم للقضاء على القبيلة الذهبية(١٢٧).

ومع أن روسيا نجحت أخيرا فى التحرر من سيطرة المغول إلا أن خضوعها لهم تلك السنوات الطويلة ترك أثرا واضحا فى تاريخها ومستقبلها، ونستطيع أن نجمل الأثر الذى تركه حكم المغول لروسيا فى ثلاث نواحى مهمة: أولها أن الحكم المغولى عمل على فصل روسيا عن غرب أوربا وجعلها تعتمد سياسيا على آسيا مما كان له أبعد الأثر فى تاريخها الحديث. وثانيها أن سيطرة المغول على روسيا شجعت على تثبيت روح الحكم الاستبدادى فى البلاد الروسية، التى أضحى أمراؤها مسئولين أمام خان المغول وممثلين له فى سلطانه المطلق، ومن ثمّ لم يشأ هؤلاء الأمراء - ومن بعدهم القياصرة - أن يتخلوا عن سلطتهم الاستبدادية بعد زوال حكم المغول(١٢٨). ومازال العنف والاستبداد والدموية من الصفات المتأصلة فى الروس ممّا يعتبره الباحثون جزءاً من ميراث المغول. أمّا الأثر الثالث الذى تركه حكم المغول لروسيا فهو أنه أدى إلى ازدياد نفوذ الكنيسة وثروتها؛ ذلك أن المغول - على الرغم من قسوتهم ووحشيتهم - كانوا متسامحين إلى حد كبير فى النواحى الدينية فتركوا للشعوب التى خضعت لهم حرية العبادة، ولم يحاولوا التدخل فى شئون الكنيسة الروسية، وإنما أباحوا لها حرية التصرف ومباشرة حقوقها القضائية وغير القضائية على أوسع مدى، ومن ذلك أن أوزبك خان ثبت سنة ١٣١٣ لبطرس رئيس أساقفة موسكو جميع الامتيازات التى تتمتع بها الكنيسة وضمن له حماية ممتلكاتها، وهكذا ظلت الكنيسة الروسية مرفوعة الرأس تباشر حقوقها فى حرية تامة وتجمع الأموال والأراضى وغيرها مما يجود به الخيرون من أبناء البلاد، فى الوقت الذى خضع أمراء روسيا لسادتهم المغول وتضاءل نفوذهم السياسى تبعا لذلك(١٢٩).

---

(127) Morfill: Russia, pp. 57 - 58.

(128) Rambaud: op. cit. p. 145.

(129) Idem, pp. 145 - 146.

ومهما يكن من أمر، فقد تحررت روسيا أخيرا من حكم المغول لتصبح تحت حكم ملكيـة مطلقـة، فى الوقت الذى أخـذ الروس يتـوسـعـون ويمدون حـدود بلادهم فى الاتجاهين الشرقى والشمالى، هذا إلى أن موسكو أضحت بسقوط القسطنطينية فى أيدى العثـمانيين سنة ١٤٥٣ـ المركز الحقيقى للكنيسـة الأرثوذكسيـة ـ بل أصبـحت رومـا الثـالثـة[١٣٠]، كـمـا تزوج إيفـان الثـالث من أمـيـرة يونانيـة ليـصـبح وريث الأباطرة البيزنطيين[١٣١]، على أن هذه الدولة الروسية ظلت أمدا طويلا متباعدة عن الغرب، محتفظة بطابعها الشرقى ونظامها الاستبدادى.

---

(130) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 631.

(131) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 266 - 267.

الباب الثالث والعشرون
نهاية الدولة البيزنطية

أسرة كومنين:

استطاعت الأسرة الكومنينية - بعد أن ثبت دعائمها ألكسيوس الأول كومنين - أن تحتفظ بعرش الإمبراطورية البيزنطية أكثر من قرن من الزمان (١٠٨١ - ١١٨٥)، ونستطيع من الإلمام بأبواب الكتاب السابقة أن نقف على العوامل الرئيسية التى تحكمت فى السياسة الخارجية للإمبراطورية الشرقية فى تلك الفترة، إذ كان على أباطرة هذه الأسرة تحديد موقفهم من الأتراك السلاجقة من جهة ومن الصليبيين المارين بأراضى الدولة نحو الأرض المقدسة من جهة ثانية، ثمّ من الإمارات الصليبية التى قامت فى الشرق على أرض كانت الدولة البيزنطية تعتبرها أجزاء من كيانها من جهة ثالثة، هذا بالإضافة إلى ملوك النورمان بجنوب إيطاليا وصقلية، وهم الذين أرادوا أن يتخذوا هذا المقر الجديد نقطة ارتكاز يقفزون منها على أراضى الدولة البيزنطية فى البلقان[١].

ومن الواضح أن هذه القوى السابقة كانت جميعها معادية للإمبراطورية الشرقية، ولا يستثنى من ذلك الصليبيون الذين رأت فيهم الإمبراطورية خطرا فاق خطر السلاجقة والنورمان جميعا؛ ممّا جعل الإمبراطورية البيزنطية تجد نفسها منذ أواخر القرن الحادى عشر وسط محيط متلاطم من الأعداء الطامعين فيها وفى أراضيها، وإذ كان الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨) قد استطاع - بفضل مهارته السياسية وقوته - أن يسير بسفينة الإمبراطورية وسط هذه الأمواج المتلاطمة إلى بر الأمان، وأن يعيد بناء الإمبراطورية على قواعد جديدة، فإنه لم يستطع الوصول إلى هذه النتيجة دون ثمن مرتفع، فضلا عن أن النجاح الذى حصل عليه كان سطحيا ومؤقتا[٢]، ذلك أن الصليبيين الغربيين الكاثوليك الذين وفدوا إلى الشرق نتيجة لتوسلات ألكسيوس وأسلافه من الأباطرة، والذين مكنوه من استرداد جزء كبير من بلاده المفقودة فى آسيا الصغرى، استقروا بالأراضى الشامية ليثيروا خطرا مستمرا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 322 - 325.

(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 319

فى وجه الإمبراطورية البيزنطية نتيجة لتفوقهم الحربى وأطماعهم السياسية من جهة، وللعداء المذهبى بينهم وبين البيزنطيين الأرثوذكس من جهة أخرى(٣) .

والواقع أن خطر الصليبيين على الدولة البيزنطية لم يكن حربيا فحسب بل إنهم أنزلوا بهذه الدولة ضررا اقتصاديا أشد وأنكى من الضرر الحربى، ذلك أنه إذا كانت الحركة الصليبية قد بدت فى مظهرها الخارجى دينية حربية، إلا أنها تضمنت فى باطنها نشاطا سياسيا واقتصاديا واسعا، وحسبنا ما فعلته مدن إيطاليا التجارية - وعلى رأسها بيزة والبندقية وجنوة - من استغلال الحروب الصليبية للسيطرة على التجارة بين الشرق والغرب، والحصول من وراء ذلك على أرباح واسعة ومغانم عظيمة(٤)، وهكذا أخذت عكا وغيرها من موانئ الصليبيين بالشام تنافس القسطنطينية فى مكانتها الاقتصادية كما حلّ التجار الإيطاليون محل البيزنطيين فى الهيمنة على تجارة الشرق، ممّا عاد بخسارة بالغة على الإمبراطورية البيزنطية هددت مواردها الأساسية، وقد حاول الإمبراطور ألكسيوس علاج هذا الوضع، ولكن علاجه أدى إلى كارثة محققة؛ لأنه لجأ إلى منح البنادقة إعفاءات من الضرائب فى موانئ الإمبراطورية ليعيد الحياة إلى هذه الموانئ، كما منحهم حيا تجاريا خاصا فى القسطنطينية تمتعوا فيه بالاستقلال التام فى شئونهم القضائية والدينية(٥)، ولم تلبث بيزة هى الأخرى أن حصلت على مثل هذه الامتيازات سنة ١١١١ ولكن على نطاق ضيق، الأمر الذى جعل التجار الإيطاليين يباشرون تجارتهم فى الدولة البيزنطية فى حرية وعلى نطاق واسع، مما عاد بعواقب وخيمة على الاقتصاد الوطنى(٦). هذا فضلا عن أن استقرار هؤلاء الإيطاليين فى القسطنطينية لمباشرة نشاطهم التجارى، مهد الطريق لسيطرتهم على مقاليد الحكم فى الإمبراطورية نفسها؛ لأنه من المبادئ المعروفة منذ أقدم العصور أن التغلغل الاقتصادى كثيرا ما يكون مقدمة للهيمنة السياسية، حقيقة أن قيام عدد من أباطرة أسرة كومنين الأكفاء فى الحكم قد أجل وقوع هذه الكارثة، ولكن عندما أتيحت الفرصة لحدوث انشقاق بين المطالبين بالعرش، استطاع البنادقة أن

---

(3) Grousset: op. cit. Tom 1, pp. 418 - 419.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٩، ٣٢٤، ٤٤٩ الطبعة الرابعة) .

(5) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 10.

(6) Ostrogorsky: op. cit. p. 325

ينفذوا إلى الحكم وأن يحققوا مطامعهم السياسية، بالضبط مثلما فعلت شركات الهند الإنجليزية والفرنسية والهولندية فى العصور الحديثة(٧).

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التطور جاء بطيئا وتدريجيا فى الإمبراطورية البيزنطية بفضل عناصر الحيوية الكامنة فى هذه الإمبراطورية؛ ممّا مكن ألكسيوس الأول كومنين من قضاء بقية حكمه فى تثبيت دعائم أسرته وفى حماية الدولة من الأخطار الخارجية التى أحاطت بها(٨)، وعند وفاة ألكسيوس خلفه ابنه حنا الثانى كومنين (١١١٨ - ١١٤٣) الذى يعتبر من أمهر الأباطرة الذين اعتلوا عرش الإمبراطورية(٩)، وقد امتاز حنا الثانى بمجموعة من الصفات الكريمة التى أكسبته لقب «الطيب» والتى جعلته محبوبا من رعاياه، فقضى حكمه دون أن يتعرض لمتاعب أو ثورات داخلية - اللهم إلا من ناحية أخته آنا Anna وأخيه إسحق؛ لذلك قضى حنا الثانى معظم سنوات حكمه فى دعم حدود دولته ودفع خطر جيرانها، فحارب العناصر السلافية، والبلغارية الرابضة على الحدود الغربية فى البلقان، كما حارب الأتراك السلاجقة والأرمن فى آسيا الصغرى، وقد استغل الإمبراطور البيزنطى حنا الثانى سيطرته التامة على قيليقية ليجبر ريموند أمير أنطاكية على الاعتراف له بالتبعية(١٠)، كذلك حاول حنا الثانى إصلاح الأحوال الاقتصادية والمالية فى إمبراطوريته، ولجأ فى سبيل تحقيق ذلك، إلى العمل على التخلص من سيطرة البنادقة الاقتصادية، ولكن هذه المحاولة جرته إلى حرب معهم وكان أن ظهر عجز الإمبراطور أمام جبابرة البحر والتجار فاضطر إلى مصالحتهم وإعادتهم إلى سابق الامتيازات التى تمتعوا بها بمقتضى اتفاقية سنة ١٠٨٢، هذا فى الوقت الذى تمتعت بقية مدن إيطاليا التجارية - مثل بيزة وجنوة - بمميزات اقتصادية ، وإن كانت دون تلك التى حصلت عليها البندقية(١١).

ثم خلف حنا الثانى ابنه مانويل الأول كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠) الذى شابه

(7) Tout: The Emprie and the Papacy p. 338.

(8) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 350.

(9) Ostrogorsky: op. cit. p. 334

(10) Grousset: op. cit. Tom 2, p. 94.

(11) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 50 - 51.

معاصريه من حكّام الغرب وأمرائه فى ولعه بحياة القوة والفروسية. وفى عهد مانويل الأول هذا مرت الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) بأراضى الإمبراطورية، ونجت الإمبراطورية من هذه الأزمة بسلام؛ ليتفرغ الإمبراطور بعدها لعدة حروب استهدفت تحقيق مجد شخصى، لصالح الإمبراطورية العام[١٢]، وكان النجاح هو الطابع العام الذى امتازت به هذه الحروب، فمدّ الإمبراطور مانويل نفوذه على دول الدانوب حتّى الحدود الألمانية، وقضى على محاولات روجر ملك صقلية وابنه وليم فى غزو أراضى الإمبراطورية، كما شنّ حربا طويلة على البندقية، وعندما عجز الإمبراطور أمام البندقية استعان بجنوة وبيزة فعقد حلفا مع الأولى سنة ١١٦٩ ومع الثانية سنة ١١٧٠، وزاد امتيازاتهما فى دولته ليخفف من غلواء البندقية، الأمر الذى أساء بصورة واضحة إلى العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والبندقية[١٣].

ثمّ مات مانويل كومنين بعد أن أدت حروبه إلى إضعاف مالية الدولة وزيادة موقفها سوءا، فخلفه ابنه ألكسيوس الثانى (١١٨٠ - ١١٨٣) الذى كان طفلا فى الثانية عشرة من عمره، فلم يستطع تحت وصاية أمه مقاومة المؤامرات التى حاكها أعضاء البيت الحاكم حتّى انتهى الأمر بعزله وقيام أندرونيق كومنين فى الحكم (١١٨٣ - ١١٨٥)، وكان هذا الإمبراطور الجديد قويا شجاعا مع شىء من القسوة وميل إلى سفك الدماء، فامتاز عهده بكثرة الثورات فى أنحاء الإمبراطورية وولاياتها، وهكذا استقلت قبرص تحت حكم اسحق كومنين الذى نادى بنفسه إمبراطورا فى الجزيرة، كما غزا النورمان مقدونيا واستولوا على سالونيكا سنة ١١٨٥[١٤]، وكان لاستيلاء النورمان على سالونيكا - وهى ثانى مدن الإمبراطور بعد القسطنطينية - ردّ فعل قوى فى العاصمة؛ فثار الأهالى واتهموا الإمبراطور بالتقاعس والإهمال فى الدفاع عنها، حتى انتهى الأمر بعزل الإمبراطور أندرونيق الأول وإحلال اسحق أنجيلوس محله سنة ١١٨٥، وبذلك انتهى بيت كومنين وبدأت أسرة جديدة فى حكم الإمبراطورية البيزنطية[١٥].

---

(12) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 372 - 378.

(13) Ostrogorsky: op. cit. p. 345

(14) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 82.

(15) Idem. p. 83.

أسرة أنجيلوس:

كان إسحق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ – ١١٩٥) ضعيفا جبانا ولا يرجع نجاحه فى الوصول إلى عرش الإمبراطورية إلى كفايته ومقدرته بقدر ما يرجع إلى كراهية جميع الطبقات لسلفه أندرونيق كومنين؛، لذلك شهد عهد إسحق الثانى تدهورا مستمرا فى أوضاع الإمبراطورية، فى حين شغل الإمبراطور نفسه ببناء الكنائس والقصور وجمع المخلفات الدينية والأيقونات، وأخطر ما فى ذلك هو أن حاجته إلى المال دفعته إلى بيع الوظائف الكبرى لمن يدفع فيها مبالغ أكبر، الأمر الذى أدى إلى فساد الإدارة الإمبراطورية من جهة، وإلى إنزال المظالم بأهالى الولايات من جهة أخرى؛ لأن هؤلاء الموظفين كانوا يحاولون استعادة ما دفعوه للإمبراطور من الأهالى المحكومين[16].

أمّا فى الخارج فقد حالف الفشل جيوش الإمبراطورية؛ إذ ثار البلغار بسبب قسوة الضرائب، ونفضوا أيديهم من ولائهم للإمبراطورية بعد أن ظلوا خاضعين لها مائتى سنة منذ أيام باسل الثانى[17]، ولم يكن عجز إسحق الثانى عن إخضاع بلغاريا هو كل ما أصاب الإمبراطورية من فشل فى سياستها الخارجية عندئذ، إذ وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق سنة ١١٩٨ ولجأ أحد زعمائها - وهو فردريك بربروسا - إلى عدم رعاية شعور الدولة البيزنطية ومصالحها، فاتصل بأعدائها من المسلمين والبلغار بل السلاجقة، وتحالف معهم جميعا لتسهيل مهمته فى طريقه إلى الأراضى المقدسة، وقد أساء مسلك الصليبيين هذا الشعور العام بالقسطنطينية وأثار قلق الدولة البيزنطية، ممّا دفع الإمبراطور البيزنطى إلى الارتماء بين أحضان صلاح الدين[18]، وفى ذلك الوقت استولى زعيم آخر من زعماء الحملة الثالثة - وهو ريتشارد قلب الأسد - على جزيرة قبرص وفصلها نهائيا عن جسم الإمبراطورية[19]، ولم يلبث أن ظهر صدى هذه الأحداث فى موقف الإمبراطور إسحق الثانى، إذ أدى اتفاقه مع صلاح الدين من جهة، واضطراره إلى شراء مسالمة السلاجقة من جهة أخرى إلى تدبير مؤامرة لخلعه وقيام أخيه ألكسيوس محله فى الحكم.

---

(16) Tout: The Emprie and the Papacy p. 341.

(17) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 518 - 519.

(18) Ostrogorsky: op. cit. pp. 360 - 361

(19) Grousset: op. cit. Tom 3, pp. 47 - 49.

على أن ألكسيوس الثالث أنجليوس (١١٩٥ – ١٢٠٣) لم يكن خيرا من أخيه، فبلغت الفوضى ذروتها فى تلك الفترة التى شهدت تجمع جيوش الحملة الصليبية الرابعة فى البندقية فى انتظار السفن التى تحملها إلى الشرق، ثمّ كان أن تلاحقت الحوادث التى تمخضت عن استيلاء الصليبيين على زارا سنة ١٢٠٢ ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ كما سبق أن شرحنا ، فسقطت الإمبراطورية البيزنطية وقامت على حطامها إمبراطورية لاتينية (١٢٠٤ – ١٢٦١).

وهكذا قدر للقوتين اللتين كانتا تتنازعان مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة أن تسقطا جميعا فى القرن الثالث عشر؛ لأن سقوط بيت هوهنشتاوفن وبداية فترة الشغور تعتبر نهاية فعلية للإمبراطورية الغربية، فى حين جاء سقوط القسطنطينية فى أيدى الصليبيين ضربة لم تستطع الإمبراطورية الشرقية أن ترفع رأسها من بعدها[٢٠].

الإمبراطورية اللاتينية فى الشرق البيزنطى:

دخل الصليبيون الغربيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ليفعلوا فيها الشيء الكثير من ضروب السلب، والنهب، والتخريب، ممّا ترك لطخة سوداء فى تاريخ الحروب الصليبية، ويبدو أن هذا التحول فى طريق الحملة الصليبية الرابعة واتجاهها لم يزعج البابا العظيم أنوسنت الثالث؛ لأنه رأى فيه فرصة لطى الكنيسة الشرقية تحت لواء البابوية[٢١].

ومهما يكن من أمر، فإن الغزاة الصليبيين الذين نجحوا فى الاستيلاء على القسطنطينية وأخذوا يفكرون فى تقسيم الغنيمة فى جو مشبع بروح التباغض والتحاسد بين البنادقة من جهة وبقية الصليبيين الغربيين من جهة أخرى. وعندئذ استقر الرأى على اختيار إمبراطور وبطرك جديدين للقسطنطينية من بين الصليبيين أنفسهم، ومن الواضح أن التنافس كان شديدا بين زعماء الصليبيين حول الفوز بمنصب الإمبراطورية، حتى انتهى الأمر - بعد خلاف شديد - إلى اختيار بلدوين - كونت فلاندرز - إمبراطورا، فتوج فى كنيسة آيا صوفيا فى مايو سنة ١٢٠٤ . أمّا منصب

---

(20) Lodge: op. cit. p. 494.

(21) Tout: The Emprie and the Papacy p. 347.

(22) Ostrogorsky: op. cit. p. 375.

البطركية فقد اختير له أحد البنادقة ـ وهو توماس موروسينى ـ الذى كان أول رجل لاتينى كاثوليكى غربى يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية(٢٢).

على أن اختيار إمبراطور للدولة ورأس للكنيسة كان أسهل بكثير من مهمة تقسيم الغنائم من أشلاء الإمبراطورية الساقطة، وكان أن لجأ الغزاة الغربيون إلى إقامة دولة إقطاعية على حطام النظام البيزنطى، فأصبح للإمبراطور بلدوين الرئاسة العليا على بقية الزعماء الصليبيين، على أن تشمل أملاكه القسطنطينية نفسها ـ ما عدا الحى البندقى ـ والجزء الأكبر من تراقيا بما فيه أدرنة، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر إيجة ـ وهى جزر ساموتريس، وكوس، ولسبوس، وساموس وخيوس، فى حين ثبت بونيفيس دى مونتفرات نفوذه فى مقدونيا وتساليا(٢٣). أمّا البنادقة فقد فازوا بنصيب الأسد من هذه الغنيمة؛ إذ أضافوا إلى حصتهم فى القسطنطينية معظم الجزائرالقريبة من الشواطئ بما فيها جزيرة أيوبيا، هذا زيادة على بعض المواضع الساحلية فى شبه جزيرة المورة وجزء كبير شمالى خليج كورنثة، كذلك ضمّ البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس مونتفرات، أما بقية الأمراء الصليبيين فقد نالوا إقطاعات كبيرة متفرقة، كما ظلّ الباب مفتوحا أمامهم للتوسع على حساب جيرانهم(٢٤).

وهكذا غدت الإمبراطورية اللاتينية التى قامت فى الشرق البيزنطى تمثل دولة إقطاعية كبيرة، تعرضت لجميع مساوئ النظام الإقطاعى، ولاسيما فيما يتعلق بالمنازعات بين الأمراء والأحقاد المستمرة بين الأفصال وأمرائهم (٢٥)، وإذا كانت الإمبراطورية اللاتينية قد نجحت إلى حد ما فى مقاومة هذه المساوئ فإن هناك أخطاراً أخرى كان من الصعب عليها مواجهتها والتغلب عليها، ومن ذلك أن زعماء الحملة الصليبية استأثروا وحدهم بالغنيمة ممّا ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل. هذا بالإضافة إلى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصر والأجناس التى تألفت منها الحملة الصليبية الرابعة، كما ظهر ذلك فى

---

(23) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 421 - 422.

(24) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 113 - 114.

(25) Tout: The Empire and the Papacy, p. 340.

(26) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 423.

المنازعات بين الألمان والبرجنديين، وبين اللمبارديين والفلمنكيين، وبين جميع هؤلاء والبنادقة(٢٦).

أمّا فيما يتعلق بالموقف بين هذه الجموع الغربية اللاتينية من جهة والبيزنطيين الشرقيين من جهة أخرى، فلم تبذل أية محاولة للتقريب بين الطرفين، ومن ثمّ ظلّ التباعد سائدا، ويبدو أن الغزاة الغربيين كانوا على درجة من الجمود والكبرياء بحيث لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها، وفى حين احتقر البيزنطيون أولئك «البرابرة» الغربيين الذين ادعوا لأنفسهم الحق فى وراثة روما وحضارتها، وحتى إذا لم تكف الفوارق العنصرية والحضارية لتحقيق التباعد بين الطرفين، فإن الخلاف الكنسى المذهبى كان كفيلا وحده بتحقيق هذا الانشقاق(٢٧)، وإذا كان البابا أنوسنت الثالث قد ارتاح للنتائج التى تمخضت عنها الحملة الصليبية الرابعة، وظنّ أن فى ذلك تحقيقا للوحدة بين الكنيستين فى ظلّ البابوية، فإن حقيقة الموقف كانت أبعد من أن تساعد على تحقيق هذه الأمنية(٢٨)، ذلك أن استيلاء الغربيين على القسطنطينية وإسقاطهم الإمبراطورية البيزنطية، ومسلكهم المشين تجاه أهلها، زاد من حدة نفور البيزنطيين من الغرب وأهله وكنيسته، وجعل الشعور القومى فى الشرق اليونانى يتبلور بدرجة لم تعهد من قبل، وهكذا لم يستسلم البيزنطيون؛ وإنما أقاموا ملكيات وإمارات تتصف بالطابع القومى ، بعد أن فرّ كثيرون إلى جبال ألبانيا وأبيروس حيث خضعوا لسيطرة أحد أفراد بيت أنجيلوس(٢٩)، وفى الوقت الذى قامت دويلات يونانية صغيرة متناثرة فى تراقيا والمورة، لم يستطع الصليبيون أنفسهم التوغل داخل آسيا الصغرى وفرض سيادتهم على ذلك الشطر المهم من الدولة البيزنطية، وقد مكن ذلك بعض أفراد بيت كومنين من أن يستقلوا فى طرابيزون ويتخذوا لأنفسهم لقب أباطرة، هذا فى حين استطاع أحد أفراد الجيش البيزنطى - واسمه تيودور لاسكاريس - أن يعلن نفسه إمبراطورا فى نيقية، ويبسط سلطانه على الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى(٣٠)، أمّا البلغار فى البلقان فقد أعلنوا استقلالهم ومدوا حدود دولتهم على حساب أراضى الإمبراطورية وبعبارة أخرى فإن الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وجدت

(27) Ibid.
(28) Ostrogorsky: op. cit. p. 377.
(29) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 424 - 425.
(30) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 175.

نفسها أمام منافسين خطيرين؛ بحيث إنها لم تستطع الحياة أكثر من نصف قرن إلا بفضل الموقع الحربى الفريد الذى امتازت به القسطنطينية من جهة وسيطرة البنادقة على مياه البحار من جهة أخرى.

والواقع أن الإمبراطورية اللاتينية التى قامت فى القسطنطينية سنة ١٢٠٤ كان عليها منذ البداية أن تصارع عوامل الانقسام فى الداخل وأخطار الغزاة فى الخارج[٣١]. ذلك أن بونيفيس ملك سالونيكا تزوج من أرملة إسحق أنجيلوس، ورفض الخضوع لإمبراطور القسطنطينية، كما أعلن نفسه حاميا للبيزنطيين؛ ممّا أثار الحرب بين الفلمنكيين فى القسطنطينية واللمبارديين فى سالونيكا، وفى هذه المرحلة من مراحل النزاع أغار البلغار على دولة الصرب اللاتينية فغزوا تراقيا سنة ١٢٠٥ وأنزلوا الهزيمة بالصليبيين فى موقعة أدرنة، حتّى انتهى الأمر بمقتل الإمبراطور بلدوين نفسه بعد أن وقع فى الأسر[٣٢].

وقد تولى عرش الإمبراطورية اللاتينية بعد مقتل بلدوين أخوه هنرى (١٢٠٦ - ١٢١٦) الذى اتصف بالشجاعة وحسن السياسة، ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع أن يغزو آسيا الصغرى أو يهزم البلغار أو حتّى ينجح فى استرضاء رعاياه البيزنطيين، وإذا كان الإمبراطور قد نجح فى عقد معاهدة مع تيودور لاسكاريس، فإن هذه المعاهدة لم تمكنه من السيطرة إلا على الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى[٣٣]، وفى ذلك الوقت هلك بونيفيس مونتفرات سنة ١٢٠٧ على أيدى البلغار، فاستغل حاكم أبيروس البيزنطى الفرصة لضمّ أملاكه، ممّا جعل أمراء مملكة سالونيكا اللاتينية يستنجدون بالإمبراطور هنرى فى القسطنطينية. وعندئذ انتهز هنرى الفرصة ليجعل الوصى على مملكة سالونيكا يعترف له بالتبعية، كما دان بالتبعية للإمبراطور اللاتينى أمراء البنادقة فى جزر الأرخبيل، بل إن حاكم أبيروس اعترف له أيضًا بالسيادة[٣٤].

وعندما توفى الإمبراطور هنرى سنة ١٢١٦ خلفه بطرس كونت أوكسر (Auxerre) وحفيد لويس السادس ملك فرنسا، وكان هذا الأمير فى الغرب عندما بلغه

(31) Ostrogorsky: op. cit. p. 376.

(32) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 179.

(33) Idem: p. 188.

(34) Tout: The Emprie and the Papacy p. 352.

خبر اختياره إمبراطورا (١٢١٦ - ١٢١٩)، فأسرع إلى القسطنطينية لتولى منصبه الجديد، ولكنه اختار أن ينزل فى دورازو ويسلك طريق مقدونيا وتراقيا الجبلى، فهلك فى الطريق، وخلفه ابنه الصغير روبرت (١٢١٩ - ١٢٢٨) تحت وصاية أمه يولاند[٣٥]. وقد شهد ذلك العهد تدهور الإمبراطورية اللاتينية تدهورا سريعا، إذ استولى تيودور أنجيلوس على مملكة سالونيكا اللاتينية، وبذلك أصبح يحكم الرقعة الواقعة بين البحر الأدرياتى وبحر إيجة دون منافس، كما اتخذ لقب إمبراطور مثلما فعل حكام نيقية وطرابيزون[٣٦]، وكذلك اختارإمبراطور نيقية فى ذلك الوقت أن يجدد الحرب ضدّ إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية التى اقتصرت على العاصمة وضواحيها فقط، مما جعل الإمبراطور روبرت يفكر فى القيام برحلة إلى الغرب لطلب المعونة، وعند موت الإمبراطور أثناء هذه الرحلة سنة ١٢٢٨، خلفه أخوه الصغير بلدوين الثانى (١٢٢٨ - ١٢٣١) الذى كان حينئذ فى الحادية عشرة من عمره، فاختير حنا بريين - ملك بيت المقدس السابق - وصيًا عليه، ولكن يبدو أن ازدياد خطر البلغار على الإمبراطورية اللاتينية فى تلك الآونة كان الدافع الأساسى لاختيار حنا بريين على الرغم من كبر سنه - إمبراطورا، وقد نجح حنا بريين (١٢٣١ - ١٢٣٧) فى مقاومة الأخطار العديدة التى أحاطت بالقسطنطينية فى تلك الفترة[٣٧]، ولكن لم تلبث هذه الأخطار أن اشتدت بحيث لم ينقذ الإمبراطورية سوى التنافس بين بيت أنجيلوس فى سالونيكا وبيت دوقاس الذى آل إليه عرش إمبراطورية نيقية بعد وفاة تيودور لاسكاريس حتّى انتهى الأمر بنجاح حنا الثالث دوقاس فى غزو سالونيكا سنة ١٢٤١[٣٨]. وهكذا ألفت الإمبراطورية اللاتينية نفسها أمام قوة بيزنطية موحدة أحاطت بالقسطنطينية من الجانبين الآسيوى والأوربى.

وكان حنا الثالث دوقاس (١٢٢٢ - ١٢٥٤) إدارياً ممتازا ومحاربا شجاعا، فحاول الاستيلاء على القسطنطينية لإحياء الإمبراطورية البيزنطية، كما استولى على بعض الجزر المهمة مثل: خيوس، ولسبوس، وساموس، ولكن تفوق البنادقة فى البحر حال دائما دون تحقيق هذه الغاية[٣٩]، أمّا بلدوين الثانى فقد قضى طول حكمه

(35) Ostrogorsky: op. cit. p. 384 - 385.
(36) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 193 - 194.
(37) Ostrogorsky: op. cit. pp. 383 - 389.
(38) Tout: The Emprie and the Papacy p. 353.
(39) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 196 - 197.

يستجدى معونة الغرب دون مجيب، حتّى اشتدت حاجته إلى المال، فرهن ابنه عند صيارفة الغرب وباع أثمن ما فى القسطنطينية من مخلفات دينية، إلى القديس لويس التاسع ملك فرنسا[٤٠]. وكان أن توفى حنا الثالث دوقاس سنة ١٢٥٤، فخلفه حفيده الصغير تحت وصاية ميخائيل باليولوجس الذى لم يلبث أن استأثر بالإمبراطورية لنفسه (١٢٥٩ - ١٢٨٢). وقد أظهر ميخائيل الثامن هذا مقدرة حربية كبيرة وشجاعة فائقة، فاستغل تغيب الأسطول البندقى عن القسطنطينية وهاجم المدينة واستولى عليها سنة ١٢٦١، فى حين لاذ بلدوين الثانى وأتباعه بالفرار، وعلى هذا الوجه انتهت الإمبراطورية اللاتينية، وعادت الإمبراطورية البيزنطية إلى عاصمتها القديمة[٤١].

أمّا البندقية فقد هلعت لسقوط الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية، واشتدّ هلعها عندما منح الإمبراطور ميخائيل الثامن منافستها جنوة جميع الامتيازات التى تمتع بها البنادقة فى القسطنطينية[٤٢]؛ لذلك قامت البندقية تنادى بحملة صليبية ضدّ ميخائيل الثامن، وساندها فى هذه الدعوة البابا أوربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤)، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق بعد أن انتهى عصر الحماسة الصليبية وأصبحت البقايا الصليبية فى الشام نفسها تعانى الأمرين من ضغط سلاطين المماليك، دون أن تصادف من الغرب معونة تذكر، ومن ذلك فقد استمر البنادقة يسيطرون على جزر الأرخبيل وغيرها من الجهات الساحلية ونجحوا فى الدفاع عن هذه الجزر ضدّ البيزنطيين ثمّ العثمانيين.

الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيون:

من الواضح أن ما نسميه إحياءً للإمبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦١ لا يعدو أن يكون فى حقيقة الأمر استرداداً للقسطنطينية على يد أحد حكام نيقية للبيزنطيين[٤٣]. ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية فى عهد ميخائيل الثامن وخلفائه كانت محدودة المساحة، لا تتعدى القسطنطينية نفسها وبعض المناطق القريبة، فمن جهتى الشمال والغرب كانت تحدها مملكتا البلغار والصرب، فى حين كانت شبه جزيرة المورة

---

(40) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 429.

(41) Ostrogorsky: op. cit. p. 399 - 400.

(42) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 270.

(43) Lodge: op. cit. p. 494.

مقسمة إلى دويلات صغيرة بين بعض الأمراء اللاتين والبنادقة الذين سيطروا أيضاً على جزو كورفو وكريت ونجروبونت ، وغيرها من جزر بحر إيجة (٤٤)، وإذا كان الأباطرة البيزنطيون من أسرة باليولوجس قد نجحوا فى الاحتفاظ بالجزء الأكبر من الساحل الغربى لآسيا الصغرى، مع بعض المدن المهمة على شاطئ البحر الأسود، فإن بقية شبه الجزيرة ظلّ بأيدى سلاطين كونية الأتراك، باستثناء شريط ضيق من الأرض عند الركن الجنوبى الشرقى للبحر الأسود حيث قامت إمبراطورية طرابيزون، فى الوقت الذى كان البيزنطيون أضعف من أن يقوموا بمحاولة جدية لاسترداد هذه الأجزاء المفقودة(٤٥)، وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد استطاعت الحياة نحوا من قرنين منذ بعثها سنة ١٢٦١ حتى سقوطها فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣، فإن الفضل فى ذلك لايرجع إلى قوتها أو إلى كفاية حكامها وبطولة شعبها بقدر ما يرجع إلى الملابسات التى صرفت أعداءها عنها طوال هذه الفترة، زيادة على حصانة القسطنطينية نفسها ومتانة موقعها(٤٦)، وليس فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة ما يستحق العناية أو يسترعى اهتمام الباحث سوى ظاهرة واحدة، هى أن ضعف الإمبراطورية فى عصرها الأخير ساعد على نمو دولة الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى نموا سريعا.

أمّا عن هؤلاء الأتراك العثمانيين فهم قبيلة تركمانية من البدو كانوا يعيشون عند بداية القرن الثالث عشر فى خراسان،ولكنهم اضطروا إلى تركها والاتجاه غربا حوالى سنة ١٢٢٠ تحت ضغط المغول، فاخترقوا أذربيجان وأرمينية ووصلوا آسيا الصغرى فى الوقت الذى كان علاء الدين الأول (١٢١٩ - ١٢٣٥) يحكم سلطنة الروم (قونية)(٤٧)، ونسمع عن هؤلاء العثمانيين لأول مرة عندما انبرى زعيمهم أرطغرل لمساعدة سلطنة قونية ضدّ مهاجميها من المغول، هذا وإن كان من غير الثابت فى التاريخ إذا كان العثمانيون قد استقروا فى آسيا الصغرى على أساس التبعية لسلطنة قونية أو مستقلين عنها (٤٨)، ومهما يكن من أمر فقد ساعد أرطغرل السلطان علاء

(44) Ostrogorsky: op. cit. p. 425.

(45) Gibbons: The Foundation of the Ottoman Empire p. 13.

(46) Lodge: op. cit. pp. 495 - 496.

(47) Pirenne: La Fin du Moyen, Tome, 1, p. 195.

(48) Gibbons: op. cit. p. 17.

الدين، وردّ السلطان السلجوقى على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى. وعندما انهارت سلطنة قونية بوفاة سلطانها علاء الدين الثالث سنة ١٣٠٧، كان عثمان (١٢٩٩ – ١٣٢٦) ابن أرطغرل أحد زعماء القبائل التركية الكثيرة التى استقلت فى آسيا الصغرى، وقد أخذ العثمانيون منذ ذلك الوقت يتوسعون فى سرعة تسترعى الانتباه، فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم كما دفن فيها عثمان نفسه مؤسس الأسرة التى نسبت إليه؛ ممّا جعل لهذه المدينة مكانة خاصة عند العثمانيين(٤٩)، ثمّ خلف عثمان ابنه أورخان (١٣٢٦ – ١٣٥٩) الذى هاجم نيقية، وهى المدينة التى كانت بمثابة العاصمة الثانية للإمبراطورية البيزنطية، وقد أسرع الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثالث باليولوجس (١٣٢٨ – ١٣٤١) إلى الدفاع عن نيقية، ولكن الهزيمة حلت به سنة ١٣٢٩ فاستولى العثمانيون على المدينة فى العام التالى، وهكذا استغل أورخان ضعف الإمبراطورية البيزنطية وأخذ يتوسع توسعًا سريعًا فى آسيا الصغرى بحيث لم يبق للإمبراطورية سوى شريط ساحلى ضيق على البسفور، وهنا نلاحظ أن توسع العثمانيين فى آسيا الصغرى لم يكن على حساب الدولة البيزنطية وحدها، وإنما كان أيضًا على حساب بقية الإمارات التركية الصغرى التى قامت على أنقاض سلطنة قونية(٥٠)، وثمة أهمية أخرى لعهد أورخان هى إنشاء جيش جديد (انكشارية) من أبناء المسيحيين فى البلاد المفتوحة، بعد أن يحولهم إلى الإسلام ويربيهم تربية فكرية وجثمانية خاصة، وبفضل قوات الانكشارية تمكن العثمانيون فيما بعد من إحراز أعظم انتصاراتهم فى أوربا وآسيا وأفريقية(٥١).

وزاد الموقف سوءا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية أن وفاة أندرونيق الثالث سنة ١٣٤١ أعقبتها حرب أهلية داخلية، لم يتردد خلالها المتنازعون من الاستعانة بالعثمانيين؛ ممّا أعطى الأتراك سلاحا خطيرا من جهة كما مكن ستفن دوشان (١٣٣٣ – ١٣٥٥) ملك الصرب من انتهاز الفرصة والاستيلاء على ألبانيا وأبيروس

---

(49) Ostrogorsky: op. cit. p. 447.

(50) Pirenne: La Fin du Moyen, Tome, 1, p. 196.

(51) Gibbon: The Decline and Fall. Vol. 7, pp. 26 - 27.

(52) Miller: The Balkans, pp. 274 - 278.

وتساليا، فضلا عن اتخاذ لقب إمبراطور من جهة أخرى(٥٢)، وزاد من عوامل الفوضى فى الإمبراطورية البيزنطية احتدام التنافس بين جنوة والبندقية فى أنحاء الإمبراطورية وأراضيها حتّى انتهى الأمر بهزيمة البندقية سنة ١٣٥٣(٥٣).

وفى سنة ١٣٥٤ كان حنا الخامس باليولوجس قد تخلص من منافسه وأصبح لاينازعه منازع فى حكم الإمبراطورية البيزنطية (١٣٤١ - ١٣٩١) على أن هذه السنة - ١٣٥٤ - لها أهمية أخرى فى التاريخ إذ استولت فيها جيوش السلطان أورخان العثمانى على غاليبولى وحصنتها لتكون أول مركز ثابت للعثمانيين فى أوربا(٥٤). وعندما توفى أورخان سنة ١٣٥٩، أخذ خليفته السلطان مراد الأول يبتلع مدينة بعد أخرى فى الجانب الأوربى حتّى استولى على أدرنة سنة ١٣٦١ لتصبح أعظم مركز للعثمانيين على الأرض الأوربية حتّى استيلائهم على القسطنطينية فى القرن التالى(٥٥). على أن وصول العثمانيين إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية البيزنطية فى البلقان، جرهم إلى الاشتباك فى حروب ضدّ بلغاريا والبوسنة والصرب، وهنا أيضاً صادف العثمانيون توفيقا كبيرا حتى نجحوا فى إخضاع أجزاء واسعة من هذه البلاد وأجبروا أهلها على دفع الجزية(٥٦).

وفى تلك الأثناء لم يجد الإمبراطور حنا الخامس وسيلة لحماية ما تبقى من دولته سوى الاستنجاد بالغرب الأوربى، ومن أجل هذا الغرض سافر حنا الخامس إلى روما سنة ١٣٦٩ حيث قابل البابا أوربان الخامس ليعلن اعتناقه للمذهب الكاثوليكى، كما كتب له اعترافا بقبول وجهة نظر الكنيسة الرومانية فى جميع أوجه الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية(٥٧). ومن البديهى أن مثل هذه الاتفاقيات كانت عديمة الجدوى؛ لأن الإمبراطور كان لا يستطيع تغيير عقيدة رعاياه من جهة، كما أن البابوية كانت عند منتصف القرن الرابع عشر أضعف من أن تحيى الحماسة الصليبية بعد موتها من جهة أخرى(٥٨). وعندما يئس الإمبراطور حنا الخامس من مساعدة

(53) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 666.
(54) Gibbons: op. cit. pp. 101 103.
(55) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 308.
(56) Miller: The Balkans, pp. 284 - 286.
(57) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 369 - 370.
(58) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, p. 197.

الغرب لم يجد أمامه سبيلا سوى الدخول في تبعية السلطان العثماني على أن يدفع له جزية سنوية، كما سمح له باحتلال سالونيكا(٥٩).

أما الممالك السلافية في شمالي القسطنطينية وغربيها فقد أظهرت عنادا في مقاومة العثمانيين أكثر مما فعل البيزنطيون أنفسهم، حتى كونت فيما بينها حلفا دفاعيا سنة ١٣٨٧ تحت زعامة ملك البوسنة(٦٠). وقد نجح هذا الحلف في أول الأمر في وقف تقدم العثمانيين، ولكن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بقوى الحلف في كوسوفا Kossova سنة ١٣٨٩، وخرّ ملك الصرب نفسه قتيلا في المعركة، في حين قتل السلطان مراد هو الآخر بيد أحد نبلاء الصرب بعد الموقعة(٦١)، وسرعان ما اتضح أن مقتل مراد الأول لم يؤثر في الموقف بأي حال من الأحوال؛ لأن ابنه بايزيد الأول خلفه في الحكم فأجبر الصرب على دفع الجزية، كما أخضع ولاشيا وبلغاريا، وبذلك امتدت الأملاك العثمانية حتى الدانوب، وعندما حاول الأوربيون عمل حلف جديد من بعض الأمراء الفرنسيين وملك هنغاريا ضدّ العثمانيين، أنزل بهم بايزيد الأول هزيمة ساحقة في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦(٦٢).

وفي تلك الأثناء توفي الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس سنة ١٣٩١، فخلفه ابنه مانويل الثاني الذي اضطر هو الآخر إلى الاعتراف بالتبعية للعثمانيين(٦٣)، على أن انضمام مانويل الثاني إلى الحلف الأوربي السابق، جعل السلطان بايزيد لايثق فيه كثيرا، فصمم بعد انتصاره على قوى الحلف في نيقوبوليس على تأديب الإمبراطور وغيره من الأمراء الذين ساعدوه؛ لذلك استغل بايزيد فرصة بعض الخلافات الداخلية في القسطنطينية سنة ١٣٩٧ وأخضع أبيروس وتساليا، مما جعل مانويل يصفي مشاكله الداخلية في ذلك الوقت ويقوم بجولة في غرب أوربا سنة ١٣٩٩، فزار إيطاليا وفرنسا، وإنجلترا طالبا المعونة ضدّ العثمانيين المسلمين(٦٤). وقد قام بايزيد أثناء غياب

---

(59) Ostrogorsky: op. cit. p. 482.
(60) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 672.
(61) Lodge: op. cit. p. 503.
(62) Atiya: The Crusade. pp. 435 - 467.
(63) Gibbons: op. cit. pp. 198 - 199.
(64) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 320 - 322.

الإمبراطور بحصار القسطنطينية، وكان من الممكن أن ينجح فى فتحها عندئذ لو لم يقطع عليه تيمورلنك مشروعه[٦٥]. ذلك أن تيمورلنك اجتاح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى على رأى جموع غفيرة من المغول، الأمر الذى اضطر بايزيد إلى ترك حصار القسطنطينية والعودة مسرعا إلى آسيا الصغرى؛ حيث أنزل به تيمورلنك هزيمة ساحقة فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢، ومات بايزيد فى الأسر فى العام التالى[٦٦].

ومن الواضح أن هزيمة أنقرة جاءت ضربة قاسية نزلت بالدولة العثمانية الفتية، فتمكن الإمبراطور مانويل الثانى من العودة إلى عاصمته واسترداد سالونيكا وبعض أجزاء تساليا وأبيروس، كما استطاعت القسطنطينية أن تعيش خمسين سنة أخرى بعد أن كانت قد أوشكت على السقوط فى أيدى العثمانيين، أمّا أمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى فقد تحرروا من السيطرة العثمانية وعادوا إلى استقلالهم السابق، هذا فى الوقت الذى اشتد الصراع بين أبناء بايزيد الأربعة حول وراثة منصب السلطنة[٦٧]. على أن الظروف سرعان ما ساعدت الدولة العثمانية على استعادة مكانتها، إذ اضطر تيمورلنك - بحكم الأحداث الدائرة فى جوف الدولة المغولية - إلى العودة شرقا فى جوف آسيا سنة ١٤٠٥، كما نجح السلطان محمد الأول العثمانى فى توحيد أملاك أبيه سنة ١٤١٣[٦٨]، وعندئذ لم يسع الإمبراطور البيزنطى وغيره من الأتباع الأوربيين سوى تقديم فروض الولاء مرة أخرى للسلطان العثمانى[٦٩].

وعندما توفى محمد الأول خلفه ابنه السلطان مراد الثانى سنة ١٤٢١، وعندئذ تشجع الإمبراطور مانويل الثانى باليولوجس وأخذ يساعد أحد أبناء بايزيد ضدّ السلطان الجديد، ولكن مراد الثانى نجح فى القضاء على هذا المنافس، ومن ثمّ بدأ يفرض حصارا جديدا على القسطنطينية سنة ١٤٢٢ لمعاقبة الإمبراطور على مسلكه[٧٠]، وعلى الرغم من المتاعب التى تعرض لها السلطان أثناء ذلك الحصار فإنه استطاع أن يواصل سياسة الضغط على القسطنطينية حتّى اضطر الإمبراطور مانويل إلى زيادة

(65) Gibbon: op. cit. Vol. 7, pp. 43 - 44.

(66) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 682 - 684.

(67) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 493 - 494.

(68) Gibbons: op. cit. pp. 262.

(69) Ostrogorsky: op. cit. p. 495.

(70) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, p. 494.

الجزية التى يدفعها للعثمانيين، فضلا عن إعطائهم عدة مدن فى تراقيا، ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن حصار القسطنطينية سنة ١٤٢٢ يعتبر بداية للحلقة الأخيرة فى سلسلة الصراع الذى انتهى بسقوط الإمبراطورية البيزنطية(٧١).

ثمّ كان أن خلف مانويل الثانى ابنه حنا السادس فى حكم الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٤٢٥، ولعل أهم حادث فى عهد هذا الإمبراطور الجديد هو تلك المحاولة التى بذلت (١٤٣٨ - ١٤٣٩) فى فرارا ثمّ فى فلورنسا لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية(٧٢). وقد وقع الإمبراطور فعلا على اتفاقية التوحيد، ولكن مقاومة البيزنطيين جعلتها تبقى حبرا على ورق ممّا زاد موقف الإمبراطور البيزنطى سوءا لأنه وجد نفسه لا يستطيع الاعتماد على ولاء رعاياه أو مساعدة الغرب(٧٣)، ومع ذلك فقد شاءت الظروف أن تتمتع الإمبراطورية بقسط من السلام فى عهد هذا الإمبراطور، إذ انصرفت معظم جهود العثمانيين عندئذ ضدّ الصرب والبلغار، وذلك إذا استثنينا استيلاء مراد الثانى على سالونيكا سنة ١٤٣٠.

ذلك أن الصرب وولاشيا والبوسنة حاولت أن تتخلص من تبعيتها للدولة العثمانية، واستعانت فى ذلك بسجسموند ملك هنغاريا؛ ممّا جعل السلطان مراد الثانى يشن حربا طويلة ناجحة ضدّ قوى هذا الحلف،وقد استطاعت القوات المجرية والسلافية الثبات فى أول الأمر أمام الجيوش العثمانية(٧٤)، بل أحرزت هذه العناصر بعض النجاح عندما انتصرت على العثمانيين سنة (١٤٤٢ - ١٤٤٣)، ممّا جعل الغرب الأوربى يهلل لهذا النجاح كما بارك البابا أيوجنيوس الرابع تلك الجهود(٧٥)، ولكن لم يلبث السلطان مراد الثانى أن أنزل هزيمة كبرى بالجيش الهنغارى الذى عبر الدانوب إلى بلغاريا، وذلك عند فارنا Varna سنة ١٤٤٤، ومن الواضح أن هذه الحرب التى اعتبرها بعض الأوربيين حربا صليبية، وناب عن البابا فيها أحد الكرادلة، لم تكن سوى حلقة فى سلسلة الصراع بين العثمانيين والهنغاريين فى القرن الخامس

---

(71) Ostrogorsky: op. cit. p. 497.
(72) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 621 - 622.
(73) Vasilliev: op. cit. Tome 2, pp. 370 - 372.
(74) Miller: The Balkans: pp. 293 - 294.
(75) Lodge: op. cit. pp. 507 - 508.

عشر[٧٦]. أما السلطان مراد الثانى فقد قضى السنوات الأخيرة من حكمه فى إخماد بعض الثورات فى آسيا الصغرى وألبانيا حتى توفى سنة ١٤٥١، وعندئذ اعتلى عرش السلطنة ابنه محمد الثانى أو الفاتح الذى احتفظ لنفسه فى التاريخ بشرف فتح القسطنطينية.

وقد أحسّ الامبراطور البيزنطى حينذاك - وهو قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ - ١٤٥٣) - بخطر الاستعدادات التى يبذلها العثمانيون للاستيلاء على عاصمته، فحاول أن يستجدى معونة الغرب ولكن دون جدوى، ذلك أن فرنسا وإنجلترا أنهكهما عندئذ الصراع الطويل الذى انتهى بضياع ممتلكات إنجلترا فى القارة، فى حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لا تستطيع الوقوف على قدميها إلا فى صعوبة، ممّا ترك الإمبراطور البيزنطى وحيدا دون معونة تذكر سوى مساعدة يسيرة من البنادقة والجنوية وغيرهما من ذوى المصالح التجارية فى الشرق، ولكن حتّى هذه المعونة التافهة لم تحل دون تحقيق المصير المحتوم فسقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣[٧٧].

وهكذا زالت الدولة البيزنطية، وحلّ سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان فى القسطنطينية، وهى المدينة التى بدأت أولى صفحات تاريخها بالإمبراطور قسطنطين الأول أو العظيم، واختتمت آخر صفحاتها فى العصور الوسطى بقسطنطين الحادى عشر[٧٨]، ومن الواضح أن أوربا المسيحية اهتزت كلها لسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين المسلمين، وهى المدينة التى ظلت بمثابة الدرع الواقى أو الحصن الشرقى الذى طالما حمى أوربا من الأخطار الآسيوية فى العصور الوسطى، ولكن الغرب الذى عجز عن مساعدة القسطنطينية فى محنتها قبل سقوطها، لم يستطع أن يفعل لها شيئا بعد أن استولى عليها العثمانيون[٧٩]، وسرعان ما تداعت بقية أجزاء العالم البيزنطى فسقطت أثينا فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٦، وفرّ حاكم المورة من وجههم سنة ١٤٦٠، كما استولوا على إمبراطورية طرابيزون سنة ١٤٦١، بل قام

---

(76) Atiya: op. cit. p. 467.

(77) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 695.

(78) Ostrogorsky: op. cit. pp. 507 - 508

(79) Vasilliev: op. cit. Tome 2, p. 350.

السلطان محمد الثانى بغزو الصرب سنة ١٤٥٩ وولاشيا والبوسنة سنة ١٤٦٣، فى الوقت الذى أخذ الأسطول العثمانى يستولى على جزر بحر إيجة واحدة بعد الأخرى[٨٠]، وعلى الرغم من أن البندقية حاولت وقف ذلك الخطر، إمّا عن طريق القوة أو عن طريق الاتفاق مع العثمانيين، إلا أن هذه الجهود لم تحل دون استيلاء العثمانيين على نجروبونت (الجبل الأسود) وغزو ألبانيا، ولاشك أن سقوط القسطنطينية وما أعقبه من توسع العثمانيين سريعا فى شرق أوربا ووسطها كان من العوامل الأساسية التى أسهمت فى تغيير الصورة التى كانت عليها أوربا فى العصور الوسطى.

* * *

والحمد لله رب العالمين

(80) Ostrogorsky: op. cit. p. 508

جدول (١)
قوائم البابوات والحكَّام

أولا: البابوات

ملحوظة: كتبت أسماء البابوات غير الشرعيين أو المضادين للبابوات الشرعيين Anti Popes بالخط الأسود ووضعت بين أقواس

السنوات	البابا
٣١٤ – ٣٣٥	سلفستر الأول
٣٣٦	مارك
٣٣٧ – ٣٥٢	جوليوس الأول
٣٥٢ – ٣٦٦	لبريوس
٣٥٥ – ٣٥٦	**(فيلكس الثانى)**
٣٦٦ – ٣٨٤	داماسوس الأول
٣٦٦ – ٣٦٧	**(أورسكبتوس)**
٣٨٤ – ٣٩٩	سيركيوس
٣٩٩ – ٤٠١	أنسطيوس الأول
٤٠٢ – ٤١٧	أنوسنت الأول
٤١٧ – ٤١٨	زوسيموس
٤١٨ – ٤٢٢	بونيفيس الأول
٤١٨ – ٤١٩	**(أبولاليوس)**
٤٢٢ – ٤٣٢	كلستين الأول
٤٣٢–٤٤٠	سكستوس الثالث
٤٤٠–٤٦١	ليو الأول العظيم
٤٦١–٤٦٨	هيلارى
٤٦٨–٤٨٣	سمبلكيوس
٤٨٣–٤٩٢	فيلكس الثالث
٤٩٢–٤٩٦	جلاسيوس الأول
٤٩٦–٤٩٨	أنسطسيوس الثانى
٤٩٨–٥١٤	سماخوس
٤٩٨–٥٠٥	**(لاور نتيوس)**
٥١٤–٥٢٣	هورميسداس
٥٢٣–٥٢٦	حنا الأول
٥٢٦ – ٥٣٠	فيلكس الرابع
٥٣٠–٥٣٢	بونيفيس الثانى
٥٣٠	**(ديوسكورس)**
٥٣٢–٥٣٥	حنا الثانى
٥٣٥–٥٣٦	أجابيتوس الأول
٥٣٦–٥٣٨	سلفريوس
٥٣٨–٥٥٥	فجليوس
٥٥٥–٥٦١	بلاجيوس الأول
٥٦١–٥٧٤	حنا الثالث
٥٧٥–٥٧٩	بندكت الأول
٥٧٩–٥٩٠	بلاجيوس الثانى
٥٩٠ – ٦٠٤	جريجورى الأول العظيم
٦٠٤ – ٦٠٦	سبنيان
٦٠٧	بونيفيس الثالث
٦٠٨ – ٦١٥	بونيفيس الرابع
٦١٥–٦١٨	ديوسدديت الأول
٦١٩–٦٢٥	بونيفيس الخامس
٦٢٥–٦٣٨	هنريوس الأول
٦٤٠	سفرينوس

٦٤٠-٦٤٢	حنا الرابع
٦٤٢-٦٤٩	ثيوردور الأول
٦٤٩-٦٥٥	مارتن الأول
٦٥٥-٦٥٧	أيوجنيوس الأول
٦٥٧-٦٧٢	فيتاليان
٦٧٢-٦٧٦	ديوسدديت الثانى
٦٧٦-٦٧٨	دونس
٦٧٨-٦٨١	أجاثون
٦٨٢-٦٨٣	ليو الثانى
٦٨٤-٦٨٥	بندكت الثانى
٦٨٥-٦٨٦	حنا الخامس
٦٨٦-٦٨٧-	كونون
٦٨٦-٦٨٧	(ثيودور)
٦٨٧-٧٠١	سرجيوس الأول
٦٨٧-٦٨٨	(باسكال)
٧٠١-٧٠٥	حنا السادس
٧٠٥-٧٠٧	حنا السابع
٧٠٨	سيسنيوس
٧٠٨-٧١٥	قسطنطين
٧١٥-٧٣١	جريجورى الثانى
٧٣١-٧٤١	جريجورى الثالث
٧٤١-٧٥٢	زكريا
٧٥٢	ستفن الثانى
٧٥٢-٧٥٧	ستفن الثالث (الثانى)
٧٥٧-٧٦٧	بولس الأول
٧٦٧-٧٦٨	(قسطنطين الثانى)
٧٦٨-٧٧٢	ستفن الرابع (الثالث)

٧٧٢-٧٩٥	أدريان الأول
٧٩٥-٨١٦	ليو الثالث
٨١٦-٨٨٧	ستفن الخامس (الرابع)
٨١٧-٨٢٤	باسكال الأول
٨٢٤-٨٢٧	أيوجنيوس الثانى
٨٢٧	فالنتين
٨٢٨-٨٤٤	جريجورى الرابع
٨٤٤-٨٤٧	سرجيوس الثانى
٨٤٧-٨٥٥	ليو الرابع
٨٥٥-٨٥٨	بندكت الثالث
٨٥٥	(أنسطسيوس)
٨٥٨-٨٦٧	نيقولا الأول
٧٦٧-٨٧٢	أدريان الثانى
٨٧٢-٨٨٢	حنا الثامن
٨٨٢-٨٨٤	مارينوس الأول
٨٨٤-٨٨٥	أدريان الثالث
٨٨٥-٨٩١	ستفن السادس (الخامس)
٨٩١-٨٩٦	فورموزس
٨٩٦	يونيفيس السادس
٨٩٦-٨٩٧	ستفن السابع (السادس)
٨٩٧	رومانوس
٨٩٧	ثيودور الثانى
٨٩٨ - ٩٠٠	حنا التاسع
٩٠٠-٩٠٣	بندكت الرابع
٩٠٣	ليو الخامس
٩٠٣	(كرستوفر)

٩٠٤-٩١١	سرجيوس الثالث
٩١١-٩١٣	أنسطسيوس الثالث
٩١٣-٩١٤	لاندو
٩١٤-٩٢٨	حنا العاشر
٩٢٨	ليو السادس
٩٢٩-٩٣١	ستفن الثامن (السابع)
٩٣١-٩٣٥	حنا الحادى عشر
٩٣٦-٩٣٩	ليو السابع
٩٣٩-٩٤٢	ستفن التاسع (الثامن)
٩٤٢-٩٤٦	مارينوس الثانى
٩٤٦-٩٥٥	أجابيتوس الثانى
٩٥٥-٩٦٤	حنا الثانى عشر
٩٦٣-٩٦٥	ليو الثامن
٩٦٤-٩٦٦	بندكت الخامس
٩٦٥-٩٧٢	حنا الثالث عشر
٩٧٣-٩٧٤	بندكت السادس
٩٧٤، ٩٨٤-٩٨٥	(بونيفيس السابع)
٩٧٤-٩٨٣	بندكت السابع
٩٨٢-٩٨٤	حنا الرابع عشر
٩٨٥-٩٩٦	حنا الخامس عشر
٩٩٦-٩٩٩	جريجورى الخامس
٩٩٧-٩٩٨	(حنا السادس عشر)
٩٩٩-١٠٠٣	سلفستر الثانى
١٠٠٣	حنا السابع عشر
١٠٠٤-١٠٠٩	الثامن عشر
١٠٠٩-١٠١٢	سرجيوس الرابع
١٠١٢-١٠٢٤	بندكت الثامن
١٠١٢	(جريجورى)
١٠٢٤-١٠٣٢	حنا التاسع عشر
١٠٣٢-١٠٤٤	بندكت التاسع
١٠٤٥	سلفستر الثالث
١٠٤٥	بندكت التاسع
١٠٤٥-١٠٤٦	جريجورى السادس
١٠٤٦-١٠٤٧	كلمنت الثانى
١٠٤٧-١٠٤٨	بندكت التاسع
١٠٤٨	داماسوس الثانى
١٠٤٨-١٠٥٤	ليو التاسع
١٠٥٤-١٠٥٧	فكتور الثانى
١٠٥٧-١٠٥٨	ستفن العاشر
١٠٥٨-١٠٥٩	(بندكت العاشر)
١٠٥٧-١٠٦١	نيقولا الثانى
١٠٦١-١٠٧٣	إسكندر الثانى
١٠٦١-١٠٧٣	(هنريوس الثانى)
١٠٧٣-١٠٨٥	جريجورى السابع
١٠٨٠-١١٠٠	(كلمنت الثالث)
١٠٨٧	فكتور الثالث
١٠٨٨-١٠٩٩	أوربان الثالث
١٠٩٩-١١١٨	باسكال الثانى
١١٠٠	(ثيودريك)
١١٠٢	(ألبرت)
١١٠٥-١١١١	(سلفستر الرابع)
١١١٨-١١١٩	جلاسيوس الثانى
١١١٨-١١٢١	-(جريجورى الثامن)
١١١٩-١١٢٤	كالكستس

١١٢٤-١١٣٠ هنريوس الثانى

١١٢٤ **(كلستين الثانى)**

١١٣٠-١١٤٣ أنوسنت الثانى

١١٣٠-١١٣٨ **(أناكليتوس الثانى)**

١١٣٨ **(فكتور الرابع)**

١١٤٣-١١٤٤ كلستين الثانى

١١٤٤-١١٤٥ لوكيوس الثانى

١١٤٥-١١٥٣ أيوجنيوس الثالث

١١٥٣-١١٥٤ أنسطسيوس الرابع

١١٤٥-١١٥٩ أدريان الرابع

١١٥٩-١١٨١ إسكندر الثالث

١١٥٩-١١٦٤ **(فكتور الرابع)**

١١٦٤-١١٦٨ **(باسكال الثالث)**

١١٦٨-١١٧٨ **(كالكستس الثالث)**

١١٧٩-١١٨٠ **(أنوسنت الثالث)**

١١٨١-١١٨٥ لوكيوس الثالث

١١٨٥-١١٨٧ أوربان الثالث

١١٨٧ جريجورى الثامن

١١٨٧-١١٩١ كلمنت الثالث

١١٩١-١١٩٨ كلستين الثالث

١١٩٨-١٢١٦ أنوسنت الثالث

١٢١٦-١٢٢٧ هنريوس الثالث

١٢٢٧-١٢٤١ جريجورى التاسع

١٢٤١ كلستين الرابع

١٢٤٣-١٢٥٤ أنوسنت الرابع

١٢٥٤-١٢٦١ إسكندر الرابع

١٢٦١-١٢٦٤ أوربان الرابع

١٢٦٥-١٢٦٨ كلمنت الرابع

١٢٧١-١٢٧٦ جريجورى العاشر

١٢٧٦ أنوسنت الخامس

١٢٧٦ أدريان الخامس

١٢٧٦-١٢٧٧ حنا الواحد والعشرون

١٢٧٧-١٢٨٠ نيقولا الثالث

١٢٨١-١٢٨٥ مارتن الرابع

١٢٨٥-١٢٨٧ هنريوس الرابع

١٢٨٨-١٢٩٢ نقولا الرابع

١٢٩٤ كلستين الخامس

١٢٩٤-١٣٠٣ بونيفيس الثامن

١٣٠٣-١٣٠٤ بندكت الحادى عشر

١٣٠٥-١٣١٤ كلمنت الخامس

١٣١٦-١٣٣٤ حنا الثانى والعشرون

١٣٢٨-١٣٣٠ **(نيقولا الخامس)**

١٣٣٤-١٣٤٢ بندكت الثانى عشر

١٣٤٢-١٣٥٢ كلمنت السادس

١٣٥٢-١٣٦٢ أنوسنت السادس

١٣٦٢-١٣٧٠ أوربان الخامس

١٣٧٠-١٣٧٨ جريجورى الحادى عشر

الانشقاق الدينى الأكبر

(أ) بابوات روما

١٣٧٨–١٣٨٩ أوربان السادس

١٣٨٩–١٤٠٤ يونيفيس التاسع

١٤٠٤–١٤٠٦ أنوسنت السابع

١٤٠٦–١٤١٥ جريجورى الثانى عشر

١٤١٧–١٤٣١ مارتن الخامس

١٤٣١–١٤٤٧ أيوجنيوس الرابع

١٤٤٧–١٤٥٥ نيقولا الخامس

١٤٥٥–١٤٥٨ كالكستس الثالث

١٤٥٨–١٤٦٤ بيوس الثانى

١٤٦٤–١٤٧١ بولس الثانى

١٤٧١–١٤٨٤ سكستوس الرابع

١٤٨٤–١٤٩٢ أنوسنت الثامن

١٤٩٢–١٥٠٣ إسكندر السادس

(ب) بابوات أفينون

١٣٧٨–١٣٩٤ كلمنت السابع

١٣٩٤–١٤٢٢ بندكت الثالث عشر

(جـ) بابوات مجمع بيزا

١٤٠٩–١٤١٠ إسكندر الخامس

١٤١٠–١٤١٥ حنا الثالث والعشرون

ثانيا : الأباطرة والحكام

١ - أباطرة الدولة البيزنطية

٣٩٥	أركاديوس
٤٠٨	تيودوسيس الثانى
٤٥٠	ماركيان
٤٥٧	ليو الأول
٤٧٤	زينون
٤٩١	أنسطسيوس الأول
٥١٨	جستين الأول
٥٢٧	جستنيان الأول
٥٦٥	جستين الثانى
٥٧٤	طبريوس الثانى
٥٨٢	موريس
٦٠٢	فوماس
٦١٠	هرقل
٦٤١	قسطنطين الثانى
٦٤٢	قنسطانز الثانى
٦٦٨	قسطنطين الثالث
٦٨٥	جستنيان الثانى
٦٩٥	ليونتيوس
٦٩٨	طبريوس الثالث
٧٠٥	جستنيان الثانى (مرة أخرى)
٧١١	فيلب
٧١٣	أنسطيوس الثانى
٧١٦	ثيودوسيوس الثالث
٧١٧	ليو الثالث الآيسورى
٧٤١	قسطنطين الخامس
٧٧٥	ليو الرابع
٧٨٠	قسطنطين السادس
٧٩٧	إيرين
٨٠٢	نقفور الأول
٨١١	ستوراكيوس
٨١١	ميخائيل الأول
٨١٣	ليو الخامس الأرمنى
٨٢٠	ميخائيل الثانى
٨٢٩	ثيوفيلوس
٨٤٢	ميخائيل الثالث
٨٦٧	باسل الأول المقدونى
٨٨٦	ليو السادس
٩١٢	إسكندر
٩١٣	(حتى ٩٥٩) قسطنطين السابع
٩١٩	(حتى ٩٤٤) رومانوس الأول
٩٥٩	رومانوس الثانى
٩٦٣	نقفور الثانى فوقاس
٩٦٩	حنا الأول شمشقيق
٩٧٦	باسل الثانى
١٠٢٥	قسطنطين الثامن
١٠٢٨	(حتى ١٠٥٠) زوى
١٠٢٨	رومانوس الثالث
١٠٣٤	ميخائيل الرابع
١٠٤١	ميخائيل الخامس

١٠٤٢ قسطنطين التاسع
١٠٥٤ ثيودورا
١٠٥٦ ميخائيل السادس
١٠٥٧ اسحق الأول كومنين
١٠٥٩ قسطنطين العاشر
١٠٦٧ رومانوس الرابع
١٠٧١ ميخائيل السابع
١٠٧٩ نقفور الثالث
١٠٨١ الكسيوس الأول كومنين
١١١٨ حنا الثانى
١١٤٣ مانويل الأول
١١٨٠ الكسيوس الثانى
١١٨٣ أندرونيق الأول
١١٨٥ إسحق الثانى أنجليوس
١١٩٥ الكسيوس الثالث
١٢٠٣ إسحق الثانى (مرة أخرى) ألكسيوس الرابع
١٢٠٤ ألكسيوس الخامس (الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية فى أيدى الغربيين).

أباطرة نيقية

١٢٠٤ تيودور الأول لاسكاريس
١٢٢٢ حنا الثالث
١٢٥٤ تيودور الثانى
١٢٥٨ حنا الرابع

عودة الأباطرة البيزنطيين إلى القسطنطينية

١٢٥٩ ميخائيل الثامن
١٢٨٢ أندرونيق الثانى
١٣٢٨ أندرونيق الثالث
١٣٤١ (حتى ١٣٧٦) حنا الخامس
١٣٧٦ أندرونيق الرابع
١٣٧٩ (حتى ١٣٩١) حنا الخامس مرة أخرى
١٣٩٠ حنا السابع
١٣٩١ مانويل الثانى
١٤٢٥ حنا الثامن
١٤٤٨ قسطنطين الحادى عشر
١٤٥٣ الفتح العثمانى ـ سقوط الإمبراطورية

أباطرة القسطنطينية الغربيون (اللاتين)

١٢٠٤ بلدوين الأول
١٢٠٦ هنرى الأول
١٢١٧ بطرس
١٢١٧ بولاند
١٢٢١ روبرت
١٢٢٨ بلدوين الثانى
١٢٢٩ حنا برين

٢ – أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وملوكها

٨٠٠-٨١٤ شارلمان

٨١٣-٨٤٠ لويس التقى

٨١٧-٨٥٥ لوثر الأول

٨٥٠ لويس الثانى

٨٧٥-٨٧٧ شارل الأصلع

٨٨١-٨٨٧ شارل الثالث (السمين)

٨٩١-٨٩٤ جويدو

٨٩٢-٨٩٨ لامبرت

٨٩٦-٨٩٩ أرنولوف

٩٠١-٩٢٨ لويس الثالث

٩١٥-٩٢٤ برنجار الأول

٩٦٢-٩٧٣ أوتو العظيم (الأول)

٩٧٣-٩٨٣ أوتو الثانى

٩٨٣-١٠٠٢ أوتو الثالث

١٠٠٢-١٠٢٤ هنرى الثانى

١٠٢٤-١٠٣٩ كونراد الثانى

١٠٣٩-١٠٥٦ هنرى الثالث

١٠٥٦-١١٠٥ هنرى الرابع

١١٠٥-١١٢٥ هنرى الخامس

١١٢٥-١١٣٨ لوثر الثانى

١١٣٨-١١٥٢ كونراد الثالث

١١٥٢-١١٩٠ فردريك الثانى (بربروسا)

١١٩٠-١١٩٧ هنرى السادس

١١٩٧-١٢٠٨ فيلب الثانى

١١٩٧-١٢١٨ أوتو الرابع

١٢١٢-١٢٥٠ فردريك الثانى

١٢٣٧-١٢٥٤ كونراد الرابع

١٢٤٧-١٢٥٦ وليم الهولندى

٠٠٠٠-٠٠٠٠ (فترة الشغور)

١٢٧٣-١٢٩١ رودلف الأول هابسبورج

١٢٩١-١٢٩٨ أدولف ناسو

١٢٩٨-١٣٠٨ ألبرت الأول

١٣٠٨-١٣١٤ هنرى السابع لكسمبرج

١٣١٤-١٣٤٧ لويس الرابع (البافارى)

١٣٤٧-١٣٧٨ شارل الرابع

١٣٧٨-١٤٠٠ ونسسلاس

١٤٠٠-١٤١٠ روبرت

١٤١١-١٤٣٧ سجسموند (الهنغارى)

١٤٣٨-١٤٣٩ ألبرت الثانى

١٤٣٩-١٤٩٣ فردريك الثالث

١٤٨٦-١٥١٩ مكسمليان الأول

٣ - ملوك فرنسا

٨٤٠-٨٧٧ شارل الأصلع
٨٧٧-٨٧٩ لويس المتأتئ
٨٧٩-٨٨٢ لويس الثالث
٨٧٩-٨٨٤ كارلومان
٨٨٤-٨٨٧ شارل السمين
٨٨٨-٨٨٩ أودو
٨٩٣-٩٢٣ شارل الثالث (البسيط)
٩٢٢-٩٢٣ روبرت الأول
٩٢٣-٩٣٦ راؤول البرجندى
٩٣٦-٩٥٤ لويس الرابع
٩٥٤-٩٨٦ لوثر
٩٨٦-٩٨٧ لويس الخامس
٩٨٧-٩٩٦ هيو الأول كابيه
٩٩٦-١٠٣١ روبرت الثانى
١٠٣١-١٠٦٠ هنرى الأول
١٠٦٠-١١٠٨ فيلب الأول
١١٠٨-١١٣٧ لويس السادس (السمين)
١١٣٧-١١٨٠ لويس السابع
١١٨٠-١٢٢٣ فيلب أوغسطس
١٢٢٣-١٢٢٦ لويس الثامن
١٢٢٦-١٢٧٠ لويس التاسع (القديس)
١٢٧٠-١٢٨٥ فيلب الثالث
١٢٨٥-١٣١٤ فيلب الرابع
١٣١٤-١٣١٦ لويس العاشر
١٣١٦ حنا الأول
١٣١٦-١٣٢٢ فيلب الخامس (الطويل)
١٣٢٢-١٣٢٨ شارل الرابع
١٣٢٨-١٣٥٠ فيلب السادس (فالوا)
١٣٥١-١٣٦٤ حنا الثانى (الطيب)
١٣٦٤-١٣٨٠ شارل الخامس
١٣٨٠-١٤٢٢ شارل السادس
١٤٢٢-١٤٦١ شارل السابع
١٤٦١-١٤٨٣ لويس الحادى عشر
١٤٨٣-١٤٩٨ شارل الثامن

٤ - ملوك ألمانيا

٨٤٠-٨٧٦ لويس الثانى (الألمانى)
٨٧٦-٨٨٠ كارلومان
٨٧٦-٨٨٢ لويس الصغير
٨٧٦-٨٨٧ شارل السمين
٨٨٧-٨٩٩ أرنولف
٨٨٩-٩١١ لويس الثالث (الطفل)
٩١١-٩١٨ كونراد الأول
٩١٩-٩٣٦ هنرى الأول الصياد
٩٣٦-٩٧٣ أوتو الأول العظيم

(انظر قائمة أباطرة الدولة الرومانية المقدسة)

٥ - ملوك إنجلترا بعد الفتح النورمانى

١٠٦٦-١٠٨٧ وليم الأول (الفاتح)
١٠٨٧-١١٠٠ وليم الثانى
١١٠٠-١١٣٥ هنرى الأول
١١٣٥-١١٥٤ ستفن
١١٥٤-١١٨٩ هنرى الثانى
١١٨٩-١١٩٩ ريتشارد الأول
١١٩٩-١٢١٦ حنا
١٢١٦-١٢٧٢ هنرى الثالث
١٢٧٢-١٣٠٧ إدوارد الأول
١٣٠٧-١٣٢٧ إدوارد الثانى
١٣٢٧-١٣٧٧ إدوارد الثالث
١٣٧٧-١٣٩٩ ريتشارد الثانى
١٣٩٩-١٤١٣ هنرى الرابع
١٤١٣-١٤٢٢ هنرى الخامس
١٤٢٢-١٤٦١ هنرى السادس
١٤٦١-١٤٨٣ إدوارد الرابع
١٤٨٣-١٤٨٥ ريتشارد الثالث
١٤٨٥-١٥٠٩ هنرى السابع (تيودور)

٦ - اللمبارديون فى إيطاليا

٥٦٨-٥٧٢ ألبوين
٥٧٢-٥٧٣ كليفو
٥٨٤-٥٩٠ أوثارى
٥٩٠-٦١٦ أجيلولف
٦١٦-٦٢٦ أدالولد
٦٢٦-٦٣٦ أريولد
٦٣٦-٦٥٢ روثارى
٦٥٢-٦٥٣ رودولد
٦٥٣-٦٦٢- أريبرت الأول
٦٦٢ جودبرت
٦٦٢-٦٧١ جريمولد
٦٧١-٦٨٨ برثاى (بركتاريت)
٦٨٨-٧٠٠ جونبرت
٧٠٠-٧٠١ ليوتبرت
٧٠١-٧١١ أريبرت الثانى
٧١٢ انسبراند
٧١٢-٧٤٣ ليتوبراند
٧٤٣-٧٤٤ هلد براند
٧٤٤-٧٤٩ راتشيس
٧٤٩-٧٥٦ استولف
٧٥٦-٧٧٤ دسدريوس

٧ - ملوك القوط الشرقيين فى إيطاليا

٤٩٣-٥٢٦ ثيودريك العظيم
٥٢٦ -٥٣٤ أثالريك
٥٣٤ -٥٣٦ ثيودهات
٥٣٦ -٥٤٠ وتيجيز
٥٤٠-٥٤١ هلدباد
٥٤١ أراريك
٥٤١-٥٥٢ توتيلا
٥٥٢-٥٥٣ تيا

٨ - ملوك القوط الغربيين فى إسبانيا

٤٦٦-٤٨٣	أيورك
٤٨٣-٥٠٦	ألرك الثانى
٥٠٦-٥٢٢	أمالرك وثيودرك
٥٢٢-٥٣١	أمالرك (بمفرده)
٥٣١-٥٤٨	ثيوديس
٥٤٨-٥٤٩	ثيوديجزل
٥٤٩-٥٥٤	أجيلا
٥٥٤-٥٦٧	أثانا جلد
٥٦٧-٥٧٢	ليوفا الأول
٥٧٠-٥٨٦	ليو فيجلد
٥٨٦-٦٠١	ركارد الأول
٦٠١-٦٠٣	ليوفا الثانى
٦٠٣-٦١٠	وتريخ
٦١٠-٦١٢	جوندمار
٦١٢-٦٢٠	سيسيبوت
٦٢٠-٦٢١	ركارد الثانى
٦٢٠-٦٣١	سونثيلا
٦٣١-٦٣٦	سيسيناند
٦٣٦-٦٤٠	جنزيلا
٦٤٠-٦٤١	تولجا
٦٤١-٦٥٢	خندازونث
٦٥٢-٦٧٢	ركونث
٦٧٢-٦٨٠	واميا
٦٨٠-٦٨٧	ارويج
٦٨٧-٧٠١	أجيكا
٧٠١-٧١٠	ونزا
٧١٠-٧١١	رودريك

٩ - الوندال فى أفريقية

٤٢٩-٤٧٧	جزريك
٤٧٧-٤٨٤	هونريك
٤٨٤-٤٩٦	جونثاموند
٤٩٦-٥٢٣	ثراساموند
٥٢٣-٥٣١	هلدريك
٥٣١-٥٣٤	جليمر

١٠ - الأمويون فى الأندلس

٧٥٥	عبد الرحمن الأول (الداخل)
٧٨٨	هشام الأول (الراضى)
٧٩٦	الحكم الأول (المنتصر)
٨٢٢	عبد الرحمن الثانى (الأوسط)
٨٥٢	محمد الأول
٨٦٦	المنذر بن محمد
٨٨٨	عبد الله بن محمد
٩١٢	عبد الرحمن الثالث (الناصر)
٩٦١	الحكم الثانى (المستنصر)
٩٧٦	هشام الثانى (المؤيد)
١٠٠٨	محمد الثانى (المهدى)
١٠٠٩	سليمان (المستعين)
١٠٠٩	محمد الثانى (للمرة الثانية)
١٠٠٩	هشام الثانى (للمرة الثانية)
١٠١٢-١٠١٦	سليمان (للمرة الثانية)
١٠١٦	على الناصر بن حمود

١٠١٧ عبد الرحمن الرابع (المرتضى)
١٠١٧ القاسم المأمون بن حمود
١٠٢١ يحيى المعتلى بن على بن حمود
١٠٢٢ القاسم (للمرة الثانية)
١٠٢٣ عبد الرحمن الخامس (المستظهر)
١٠٢٣ محمد الثالث (المستكفى)
١٠٢٥ يحيى بن على (للمرة الثانية)
١٠٢٧-١٠٣١ هشام الثالث (المعتد)

١١ - ملوك أرغونة

١١٠٤-١١٣٤ ألفونس الأول (المحارب)
١١٣٤-١١٣٧ راميرو
١١٣٧-١١٧٣ بترونيلا
١١٣٧-١١٦٢ ريموند برنجار
١١٦٢-١١٩٦ ألفونس الثانى
١١٩٦-١٢١٣ بطرس الثانى
١٢١٣-١٢٧٦ (جيمس الأول الفاتح)
١٢٧٦-١٢٨٥ (بطرس الثالث العظيم)
١٢٨٥-١٢٩١ ألفونس الثالث
١٢٩١-١٣٢٧ جيمس الثانى
١٣٢٧-١٣٣٦ ألفونس الرابع
١٣٣٦-١٣٨٧ بطرس الرابع
١٣٨٧-١٣٩٥ حنا الأول
١٣٩٥-١٤١٠ مارتن
١٤١٢-١٤١٦ فردناند الأول
١٤١٦-١٤٥٨ ألفونس الخامس
١٤٥٨-١٤٧٩ حنا الثانى
١٤٧٩-١٥١٦ فردناند الثانى (الكاثوليكى)

١٢ - ملوك قشتالة

١٠٣٣-١٠٦٥ فردناند الأول (العظيم)
١٠٦٥-١٠٧٢ سانشو (شانجة) الثانى
١٠٦٥-١١٠٩ ألفونس السادس
١١٠٩-١١٢٦ أوراكا
١١٠٩-١١٢٦ ألفونس السابع (الأرغونى)
١١٢٦-١١٥٧ ألفونس الثامن
١١٥٧-١١٥٨ سانشو (شانجة) الثالث
١١٥٨-١٢١٤ ألفونس التاسع
١٢١٤-١٢١٧ هنرى الأول
١٢١٧-١٢٥٢ فردناند الثالث (القديس)
١٢٥٢-١٢٨٤ ألفونس العاشر (الحكيم)
١٢٨٤-١٢٩٥ سانشو (شانجة) الرابع
١٢٩٥-١٣١٢ فردناند الرابع
١٣١٢-١٣٥٠ ألفونس الحادى عشر
١٣٥٠-١٣٦٩ بطرس (القاسى)
١٣٦٩-١٣٧٩ هنرى الثانى
١٣٧٩-١٣٩٠ حنا الأول
١٣٩٠-١٤٠٦ هنرى الثالث
١٤٠٦-١٤٥٤ حنا الثانى
١٤٥٤-١٤٧٤ هنرى الرابع
١٤٧٤-١٥٠٤ إيزابلا (الكاثوليكية)
١٤٧٤-١٥٠٤ فردناند الخامس الكاثوليكى

١٣ - مملكة بيت المقدس الصليبية

١٠٩٩-١١٠٠ جودفرى
١١٠٠-١١١٨ بلدوين الأول
١١١٨-١١٣٠ بلدوين الثانى
١١٣٠-١١٤٣ فولك الأنجوى
١١٤٣-١١٦٣ بلدوين الثالث
١١٦٣-١١٧٤ عمورى الأول
١١٧٣-١١٨٥ بلدوين الرابع
١١٨٥-١١٨٦ بلدوين الخامس
١١٨٦-١١٩٤ جاى لوزجنان
١١٩١-١١٩٢ (كونراد مونتفرات)
١١٩٢-١١٩٧ (هنرى شامبنى)
١١٩٧-١٢٠٥ عمورى الثانى لوزجنان
١٢٠٥-١٢٠٦ عمورى الثالث
١٢١٠-١٢٢٥ حنا برين
١٢٢٥-١٢٢٨ يولاند برين
١٢٢٨-١٢٥٠ فردريك الثانى
١٢٦٨-١٢٨٤ هيولوزجنان (ملك قبرص)

١٤ - حكّام جنوب إيطاليا وصقلية

(أ) دوقات أبوليا

١٠٥٩ روبرت جويسكارد
١٠٨٥-١١١١ روجر الأول
١١١١-١١٢٧ وليم
١١٢٧-١١٢٩ روجر الثانى (العظيم)
١١٩٧-١٢٥٠ فردريك الثانى (الإمبراطور)
١٢٥٠-١٢٥٤ كونراد الأول
١٢٥٤-١٢٥٨ كونراد الثانى
١٢٥٨-١٢٦٦ مانفرد
١٢٦٦-١٢٨٥ شارل الأول (الأنجوى)

(ب) كونتات صقلية

١٠٦١-١١٠١ روجر الأول
١١٠١-١١١٣ سيمون
١١١٣-١١٢٩ روجر الثانى (العظيم)

(جـ) ملوك صقلية

١١٢٩-١١٥٤ روجر الثانى (العظيم)
١١٥٦-١١٦٦ وليم الأول
١١٦٦-١١٨٤ وليم الثانى
١١٨٤-١١٩٤ تنكرد
١١٩٤ وليم الثالث
١١٩٤-١١٩٧ هنرى السادس (الإمبراطور)

(د) ملوك نابلى

١٢٦٦-١٢٨٥ شارل الأول
١٢٨٥-١٣٠٧ شارل الثانى (الأعرج)
١٣٠٧-١٣٤٣ روبرت
١٣٤٣-١٣٨٢ جوانا الأولى
١٣٨٢-١٣٨٦ شارل الثالث
١٣٨٦-١٤١٤ لادسلاوس
١٤١٤-١٤٣٥ جوانا الثانية

(هـ) ملوك صقلية من بيت أرغونة

١٤٠٩-١٤١٢ مارتن الثانى
١٤١٢-١٤١٦ فردناند الأول
١٤١٦-١٤٥٨ ألفونس (الخامس)
١٤٥٨-١٤٧٩ حنا (الثانى)
١٤٧٩-١٥١٦ فردناند الثانى (الكاثوليكى)

١٥ - السلاطين العثمانيون

١٢٩٩-١٣٢٦ عثمان
١٣٢٦-١٣٦٠ أورخان
١٣٦٠-١٣٨٩ مراد الأول
١٣٨٩-١٤٠٣ بايزيد الأول
١٤١٣-١٤٢١ محمد الأول
١٤٢١-١٤٥١ مراد الثانى
١٤٥١-١٤٨١ محمد الثانى (الفاتح)
١٤٨١-١٥١٢ بايزيد الثانى
١٥١٢-١٥٢٠ سليم الأول

١٦ - ملوك بوهيميا

١٢٥٣-١٢٧٨ أوتوكار الثانى
١٢٧٨-١٣٠٥ ونسسلاوس الثانى
١٣٠٥-١٣٠٦ ونسسلاوس الثالث
١٣٠٦-١٣٠٧ رودلف الأول هابسبورج
١٣٠٧-١٣١٠ هنرى الكارنثياوى
١٣١٠-١٣٤٦ حنا لكسمبرج
١٣٤٦-١٣٧٨ شارل (الإمبراطور)
١٣٧٨-١٤١٩ ونسسلاوس الرابع
١٤١٩-١٤٣٧ سجسموند
١٤٣٧-١٤٣٩ ألبرت النمساوى
١٤٣٩-١٤٥٧ لادسلاوس
١٤٥٧-١٤٧١ جورج
١٤٧١-١٥١٦ لادسلاس
١٥١٦-١٥٢٦ لويس

١٧ - ملوك هنغاريا

٩٩٧-١٠٣٨ القديس ستفن (الأول)

١٠٧٧-١٠٩٥ القديس لادسلاوس (الأول)

١٢٠٥-١٢٣٥ أندرو الثانى

١٣١٠-١٣٤٢ شارل الأول روبرت
١٣٤٢-١٣٨٢ لويس الأول (العظيم)
١٣٨٢-١٣٨٥ مارى
١٣٨٥-١٣٨٦ شارل الثانى
١٣٨٧-١٤٣٧ سجسموند
١٤٣٧-١٤٣٩ ألبرت النمساوى

١٤٤٠-١٤٤٤ لادسلاوس الأول البولندى
١٤٤٥-١٤٥٧ لادسلاوس الخامس
١٤٥٨-١٤٩٠ ماتياس كوفينيوس

١٤٩٠-١٥١٦ لادسلاوس الثانى
١٥١٦-١٥٢٦ لويس الثانى

١٨ - ملوك بولندا

٩٩٢-١٠٢٥ بولسلاس الأول

١٢٩٥-١٣٠٥ ونسلاوس الأول (البوهيمى)
١٣٠٥-١٣٠٦ ونسلاوس الثانى
١٣٢٠-١٣٣٣ لادسلاوس الأول

١٣٣٣-١٣٧٠ كازمير الثالث (العظيم)

١٣٧٠-١٣٨٢ لويس العظيم (الهنغارى)
١٣٨٢-١٣٨٦ هدويج
١٣٨٦-١٤٣٤ لادسلاوس الثانى
١٤٣٤-١٤٤٤ لادسلاوس الثالث
١٤٤٥-١٤٩٢ كازمير الرابع

جدول (٢)
تسنين أهم الحوادث التاريخية

٣١ ق.م. – ١٤م	أوغسطس ـ تنظيم الإمبراطورية الرومانية.
١٤ – ٣٧	الإمبراطور طبريوس ـ القيام بثلاث حملات ضدّ الجرمان.
٩٨ – ١١٧	الإمبراطور تراجان ـ غزو داشيا وأعالى بلاد النهرين
١١٧ – ١٣٨	الإمبراطور هادريان ـ ثورة اليهود فى فلسطين.
١٦٦ – ١٨٠	محاربة الماركونى والقواصى من قبائل الجرمان عند الدانوب
١٨٠ – ١٩٢	الإمبراطور كومودس ـ أول إمبراطور رومانى يدفع الجزية للجرمان.
٢١١ – ٢١٧	الإمبراطور كاراكلا ـ منح الجنسية الرومانية لجميع أهالى الولايات الأحرار.
٢١٤	القيام بحرب فاشلة ضدّ القوط ـ دفع الجزية لهم ـ ظهور اسم الألمانى.
٢٢٢ – ٢٣٥	الإمبراطور إسكندر سفروس ـ ازدياد ضغط الجرمان على حدود الإمبراطورية.
٢٢٦	تأسيس دولة بنى ساسان فى فارس.
٢٣١	الحرب بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الفارسية.
٢٥٠	أول اضطهاد رسمى للمسيحيين.
٢٥١	هزيمة القوط فى تراقيا ـ مقتل الامبراطور دكيوس (٢٤٩ – ٢٥١).
٢٥٩	الفرس يجتاحون الشام ـ ازدياد خطر القوط والألمانى.
٢٧٠ – ٢٧٥	أورليان يتخلى عن داشيا للقوط
٦٢٣	الفرنجة يغزون غاليا.
٢٧٥	تاكيتوس ينزل الهزيمة باللان فى آسيا الصغرى.
٢٧٥	ازدياد أعداد الجنود المرتزقة من الجرمان فى الجيش الرومانى.
٢٨٤ – ٣٠٥	دقلديانوس ـ إعادة تنظيم الحكومة على أسس شرقية ـ القيام بحرب ناجحة ضدّ الفرس ـ دفع خطر الجرمان عن غاليا.

٣٠٣	آخر وأعظم موجة اضطهاد يتعرض لها المسيحيون.
٣٠٥	الحرب الأهلية فى الإمبراطورية ـ ظهور قسطنطين.
٣١٢	انتصار قسطنطين فى موقعة جسر ملويان.
٣١٣	مرسوم ميلاد، الاعتراف بالمسيحية.
٣٢٥	مجمع نيقية المسكونى الأول.
٣٣٠	نقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية.
٣٣٧ – ٣٦١	تقسيم الإمبراطورية بين أبناء قسطنطين الثلاثة.
٣٦١ – ٣٦٣	جوليان ينتصر للوثنية ـ مقتله أثناء محاربة الفرس.
٣٧٥	غزو الهون لأوربا ـ القوط الغربيون ينفذون إلى مواشيا وتراقيا.
٣٧٨	موقعة أدريانوبل (أدرنة) ـ رجوح كفة الجرمان فى الإمبراطورية الرومانية
٣٧٩ – ٣٩٥	الإمبراطور ثيودسيوس العظيم ـ مسالمة القوط ـ إصلاح الإدارة.
٣٩٢	اضطهاد الوثنية ـ المسيحية تصبح الديانة الرسمية فى الإمبراطورية.
٣٩٥	تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية (أركاديوس) وغربية (هونريوس) ـ ظهور ألرك أول ملوك القوط الغربيين ـ القوط يجتاحون مقدونيا واليونان.
٤٠١ – ٤٠٦	محاولات الجرمان للنفاذ إلى إيطاليا ـ جهود ستليكو فى دفعهم.
٤٠٦	غزو الوندال والسويفى لغاليا.
٤٠٨	مقتل ستليكو فلرك ينجح فى غزو إيطاليا.
٤١٠ – ٤١٥	استقرار القوط الغربيين فى جنوب غاليا حول تولوز.
٤٢٩ – ٤٣٩	غزو الوندال لأفريقية
٤٣١	مجمع أفسوس.
٤٤٢	أتيلا يغزو مقدونيا وتراقيا.
٤٤٣	البرجنديون يقيمون مملكتهم فى أعالى الرون والساؤون.
٤٥١	أتيلا يغزو غاليا ـ موقعة شالون مجمع خلقدونية.

٤٥٢	أتيلا يغزو إيطاليا.
٤٥٣	وفاة أتيلا ـ تفكك إمبراطورية الهون
٤٥٥	الوندال يغيرون على روما وينهبونها.
٤٧٦	سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب على يد أوداكر.
٤٨١	كلوفس ملك الفرنجة الساليين (البحريين).
٤٨٩ – ٤٩٣	ثيودريك ملك القوط الشرقيين يقيم مملكته فى إيطاليا.
٤٩٦	كلوفس يهزم الألمانى ويعتنق المسيحية فى مذهبها الغربى.
٥٠٧	كلوفس يهزم القوط الغربيين فى فوليه ـ انسحاب القوط كلية إلى إسبانيا.
٥٢٧ – ٥٦٥	جستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية ـ صدور مجموعته القانونية ـ استرداد شمال إفريقيا وإيطاليا وجزء من أسبانيا للإمبراطورية ـ ازدياد خطر الفرس.
٥٣١ – ٥٧٩	كسرى الأول أنوشروان يحكم دولة الفرس.
٥٥٠ – ٥٥١	ظهور خطر الآفار والبلغار فى حوض الدانوب الأدنى.
٥٦٨	غزو اللمبارديين لإيطاليا.
٥٧٠	مولد محمد عليه الصلاة والسلام.
٥٧٢	تجدد الحرب بين الروم والفرس.
٥٩٠ – ٦٠٤	البابا جريجورى الأول العظيم
٥٩٦	بعثة القديس أوغسطين التبشيرية إلى إنجلترا.
٦٠٣ – ٦٢٠	غزوالفرس للشام وفلسطين ـ استيلاؤهم على بيت المقدس سنة ٦١٤.
٦١٠ – ٦٤١	هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية ـ استرداد الشام وفلسطين من الفرس.
٦١٦	الفرس يغزون مصر.
٦٢٢	هجرة الرسول (ﷺ) من مكة إلى المدينة.
٦٢٦	هجوم الفرس والآفار على القسطنطينية.
٦٣٢	غزو العرب لبلاد الشام ـ استيلاؤهم على دمشق سنة ٦٣٤.

٦٣٩ – ٦٤٠	فتح العرب لمصر
٦٤١	موقعة نهاوند ـ غزو العرب لفارس
٦٤٧ – ٧٠٩	المسلمون يحتلون شمال إفريقية.
٦٤٨	استيلاء المسلمين على قبرس.
٦٥٣	استيلاء المسلمين على رودس.
٦٥٤ – ٦٥٨	هجمات المسلمين على القسطنطينية.
٦٦١ – ٧٥٠	الخلافة الأموية فى دمشق.
٦٦٧	أول حصار شديد يفرضه المسلمون على القسطنطينية.
٦٧٢ – ٦٧٣	هجوم عظيم آخر يقوم به المسلمون على القسطنطينية.
٦٧٢ – ٦٨٠	تفكك دولة القوط الغربيين فى إسبانيا.
٧١١	المسلمون يفتحون إسبانيا.
٧١٧	أعظم هجوم يقوم به المسلمون على القسطنطينية.
	ليو الأيسورى يعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية . بداية الحركة اللاأيقونية.
٧١٨ – ٧٥٥	جهود القديس بونيفيس التبشيرية فى ألمانيا ـ تأسيس دير فولدا.
٧٢٣	استيلاء المسلمين على سردينيا.
٧٣٣	شارل مارتل ينزل هزيمة بالمسلمين فى جنوب غاليا (تور أو بواتبيه) موقعة بلاط الشهداء.
٧٥٠	قيام الخلافة العباسية فى بغداد.
٧٥٢ – ٧٥٣	بيبين القصير ـ ابن شارل مارتل ـ يعزل آخر الملوك الميروفنجيين ويؤسس الأسرة الكارولنجية.
٧٥٦	فرار عبد الرحمن الداخل إلى إسبانيا وتأسيس الدولة الأموية بالأندلس.
	إعطاء رافنا للبابوية ودعم النفوذ العلمانى للبابوية.
٧٧١	شارل العظيم يستأثر بحكم دولة الفرنجة.
٧٨٦ – ٨٠٩	عهد هارون الرشيد ـ وصول الخلافة العباسية إلى ذروتها.
٨٠٠	تتويج شارلمان إمبراطورا فى روما.

٨١٤	وفاة شارلمان ـ اعتلاء لويس التقى عرش الإمبراطورية.
٨٢٣	الغزو الإسلامى لجزيرة كريت.
٨٤٣	اتفاق فردون ـ تقسيم إمبراطورية شارلمان.
٨٤٥	أول هجوم للفيكنج على باريس.
٨٥٩	السويديون فى أوكرانيا
٨٦٢	السويديون يؤسسون نوفجرود.
٨٦٥	أول هجوم يقوم به الروس على القسطنطينية.
	المسلمون يغيرون على الأجزاء الجنوبية من إيطاليا.
٨٧٧	سقوط سيراكيوز (سراقوسة) عاصمة صقلية فى أيدى المسلمين.
٨٨٠	تأسيس مدينة كييف.
٨٨٦ – ٨٨٧	الهجوم الكبير الذى قام به الفيكنج على باريس.
٨٨٨	عزل شارل السمين
٨٩١	موقعة ديل.
٨٩٣ – ٩٢٧	سيمون يؤسس إمبراطورية البلغار الأولى.
٨٦٦	المجريون فى هنغاريا.
٩٠٤	المسلمون يغيرون على سالونيكا
٩٠٧	الهجوم الروسى الثانى على القسطنطينية.
٩٠٩	قيام الخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية
٩١٠	تأسيس دير كلونى
٩١١	انتهاء البيت الكارولنجى فى ألمانيا.
٩١٢	اتفاقية سانت كلير ـ تأسيس دوقية نورمنديا.
٩١٢ – ٩٦٠	الخليفة عبد الرحمن الناصر فى الأندلس ـ وصول الخلافة الأموية بالأندلس إلى ذروتها.
٩١٩	هنرى الصياد دوق سكسونيا يصبح ملكا على ألمانيا.
٩٣٣	هنرى الصياد ينزل هزيمة بالمجريين عند مرسبورج.
٩٣٦	أوتو الأول العظيم يعتلى عرش ألمانيا.
٩٤١	ثالث هجوم للروس على القسطنطينية.

٩٥٥	هزيمة المجريين عند أوجسبورج (ليخفيلد).
٩٦٢	أوتو الأول يتوج إمبراطورا رومانيا مقدسا
٩٦٢ – ٩٧٥	انتصارات نقفور وحنا شمشقيق على المسلمين.
٩٨٧	هيو كابيه يعتلى عرش فرنسا ـ انتهاء الأسرة الكارولنجية.
٩٨٨	فلاديمير أمير كييف يعتنق المسيحية فى مذهبها الشرقى.
١٠٠١ – ١٠٢٦	المسلمون يغزون الهند.
١٠١٦	بداية الغزو النورمانى لجنوب إيطاليا.
١٠١٨	السلاف يثيرون قلاقل فى ألمانيا.
١٠٣١	سقوط دولة بنى أمية بالأندلس.
١٠٣٧	اتحاد ليون وقشتالة فى إسبانيا.
١٠٣٨	الأتراك السلاجقة يغزون فارس.
١٠٤٣	رابع هجوم للروس على القسطنطينية.
١٠٤٦	مجمع سوترى.
١٠٥٣	النورمان فى إيطاليا يعلنون بيعتهم للبابوية.
١٠٥٨	طغرل بك سلطان السلاجقة يصبح سيد الموقف فى بغداد.
١٠٥٩	مجمع روما يقرر إعطاء الكرادلة وحدهم حق اختيار البابا.
١٠٦٠ – ١٠٩٠	النورمان يغزون صقلية.
١٠٦٦	الفتح النورمانى لإنجلترا.
١٠٧١	موقعة مانزكرت، هزيمة البيزنطيين أمام السلاجقة.
١٠٧٢ – ١١٠٩	حركة الاسترداد المسيحية الكبرى فى إسبانيا تحت زعامة ألفونس السادس ملك قشتالة ـ سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥.
١٠٧٣	جريجورى السابع يتولى منصب البابوية.
١٠٧٤ – ١٠٨٥	توسع الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ـ استيلاؤهم على دمشق سنة ١٠٧٥ وأنطاكية سنة ١٠٨٥.
١٠٧٥	بداية النزاع بين البابوية والإمبراطورية حول التقليد العلمانى.
١٠٧٧	الإمبراطور هنرى الرابع يمتثل للبابوية فى كانوسا.
١٠٨٤	النورمان تحت زعامة روبرت جويسكارد ينهبون روما.

١٠٨٥	وفاة جريجورى السابع فى سالرنو.
١٠٨٦ – ١٠٩٢	المرابطون يغزون إسبانيا فى شمال أفريقية.
١٠٩٠	إتمام الغزو النورمانى لجزيرة صقلية.
١٠٩٢	وفاة ملكشاه وانقسام إمبراطورية السلاجقة.
١٠٩٥	مجمع كلير مونت.
١٠٩٧ – ١٠٩٩	الحملة الصليبية الأولى ـ موقعة ضورليوم ـ قيام إمارة الرها.
١٠٩٨	استيلاء الصليبيين على أنطاكية.
	تأسيس هيئة السسترشيان.
١٠٩٩	استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ـ تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية.
١١٠٩	الصليبيون يستولون على طرابلس ليقيموا فيها إمارة صليبية.
١١١١	الاحتكاك بين هنرى الخامس والبابا باسكال الثانى.
١١١٥	وفاة ماتيلدا أميرة تسكانيا ـ واستيلاء هنرى الخامس فى العام التالى على تسكانيا.
١١١٨	تأسيس هيئة الفرسان الداوية.
١١٢٢	اتفاقية ورمز بين البابوية والإمبراطورية.
١١٢٤	استيلاء الصليبيين على صور.
١١٤٦ – ١١٤٧	الحملة الصليبية الثانية.
	ثورة أرنولد البريشى فى روما.
١١٤٦ – ١١٥٦	الموحدون يقضون على نفوذ المرابطين فى إسبانيا.
١١٥٢ – ١١٩٠	الإمبراطور فردريك الأول بربروسا.
١١٥٤	هنرى الثانى يعتلى عرش إنجلترا.
	نور الدين محمود يستولى على دمشق فى سبيل إقامة الجبهة الإسلامية المتحدة.
	فردريك الأول يقوم بحملته الأولى على إيطاليا.
١١٥٥	مؤتمر رونساجليا ـ الإمبراطور فردريك الأول يعقد هذا المؤتمر فى لمبارديا لتقرير حقوق الإمبراطور على المدن اللمباردية.

١١٥٧	مجمع بسانسون ـ تجدد الصراع بين البابوية والإمبراطورية.
١١٥٨	فردريك الأول يقوم بحملته الثانية على إيطاليا ـ محاصرة ميلان.
١١٥٩	فشل هنرى الثانى ملك إنجلترا فى الاستيلاء على تولوز.
١١٦٢	فردريك الأول يدمر ميلان.
١١٦٧	تكوين الحلف اللمباردى.
١١٧١	قوات نور الدين محمود تغزو مصر.
١١٧٦	قوات الحلف اللمباردى تنزل هزيمة ساحقة بالإمبراطور فردريك الأول عند ليناتو.
	تأسيس هيئة الكارثوسيان.
	سلطنة سلاجقة قونية تنزل هزيمة ساحقة بالجيوش البيزنطية.
١١٧٧	الهدنة بين فردريك الأول والمدن اللمباردية.
١١٧٨	استفحال خطر الهرطقة الألبيجنسية فى جنوب فرنسا.
١١٨٠ – ١٢٢٣	فيلب أوغسطس ملك فرنسا.
١١٨١	سقوط هنرى الأسد وتقسيم دوقية سكسونيا.
١١٨٣	اتفاقية كونستانس ـ الاعتراف بحرية المدن اللمباردية.
١١٨٥	النورمان يستولون على سالونيكا.
١١٨٦	ثورة بلغاريا ـ قيام الإمبراطورية البلغارية الثانية.
	زواج هنرى السادس من كونستانس وريثة صقلية.
١١٨٧	استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس بعد موقعة حطين.
١١٨٩ – ١١٩٢	الحملة الصليبية الثالثة ـ هلاك فردريك بربروسا ـ حصار عكا.
١١٩٠	تأسيس هيئة الفرسان التيتون.
١١٩٣	وفاة صلاح الدين.
	أسر ريتشارد قلب الأسد فى أوستريا (النمسا).
١١٩٥	موقعة الأرك فى إسبانيا ـ المسلمون ينزلون الهزيمة بألفونس التاسع.

١١٩٨ – ١٢١٦	البابا أنوسنت الثالث.
١٢٠٠	براءة الاعتراف بجامعة باريس.
١٢٠٢ – ١٢٠٤	الحملة الصليبية الرابعة ـ قيام إمبراطورية لاتينية فى القسطنطينية.
١٢٠٤	فيليب أوغسطس يغزو نورمنديا، وآجو، ومين وتورين.
١٢٠٥	البلغار ينزلون الهزيمة بإمبراطور القسطنطينية بلدوين الأول.
١٢٠٨	بداية الحملة الصليبية ضدّ الألبيجنسيين فى جنوب فرنسا.
١٢٠٩	تأسيس هيئة الفرانسيسكان.
١٢١٢	حملة الأطفال الصليبية.
	موقعة العقاب ، هزيمة ساحقة تحل بالمسلمين فى إسبانيا.
١٢١٤	موقعة بوفان.
١٢١٥	العهد الأعظم.
	المغول بزعامة جنكيزخان يغزون الصين ويستولون على بكين.
١٢١٧	تأسيس هيئة الدومنيكان.
١٢١٩	الحملة الصليبية الخامسة تستولى على دمياط.
١٢٢١	المغول يغزون فارس.
١٢٢٤	تأسيس جامعة نابلى.
١٢٢٦	إعادة تشكيل الحلف اللمباردى ضدّ فردريك الثانى.
١٢٢٦ – ١٢٧٠	لويس التاسع ملك فرنسا.
١٢٢٧	وفاة جنكيزخان.
١٢٢٨ – ١٢٢٩	الحملة الصليبية السادسة ـ فردريك الثانى يسترد بيت المقدس عن طريق اتفاقية مع السلطان الكامل.
	الفرسان التيتون فى بروسيا.
١٢٣٠	اتحاد ليون وقشتالة فى إسبانيا.
١٢٣١	فردريك الثانى يعطى براءة الحرية لبعض المقاطعات السويسرية.
١٢٣٦	غزوالمغول لروسيا.

١٢٣٧	فردريك الثانى ينتصر على مدن الحلف اللمباردى.
١٢٣٨	غزو أستونيا.
١٢٣٩	حرمان فون سالزا يصبح مقدم الفرسان التيتون.
	قيام دولة غرناطة الإسلامية بجنوب الأندلس.
١٢٤٠	فردريك الثانى يتوسع فى منح براءة الحرية لبعض المقاطعات السويسرية.
	البابا يدعو لحملة صليبية ضدّ فردريك الثانى.
١٢٤١	المغول يغزون بولندا وسيلزيا.
١٢٤٤	المسلمون (الخوارزمية) يستردون بيت المقدس من الصليبيين.
١٢٤٥	مجمع ليون.
١٢٤٨ - ١٢٤٩	الحملة الصليبية السابعة تحت زعامة لويس التاسع ملك فرنسا.
	ظهور محاكم التفتيش فى إسبانيا.
١٢٥٠	موقعة المنصورة ـ هزيمة لويس التاسع وأسره.
	قيام دولة المماليك فى مصر والشام.
	وفاة فردريك الثانى.
١٢٥٠ - ١٢٧٣	فترة الشغور فى التاريخ الألمانى.
١٢٥٣	أوتوكار الثانى ملك بوهيميا يستولى على أوستريا.
١٢٥٧	تأسيس مجمع (كلية) السوربون.
١٢٥٨	سقوط بغداد فى أيدى المغول.
١٢٦٠	موقعة عين جالوت ـ هزيمة المغول وارتدادهم عن الشام ومصر.
	مانفرد ـ ملك الصقليتين ـ يجتاح تسكانيا.
١٢٦١	سقوط الإمبراطورية اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية.
١٢٦٨	قيام المملكة الأنجوية فى نابلى وصقلية.
١٢٧٠	وفاة لويس التاسع فى تونس.
١٢٧٢ - ١٣٠٧	إدوارد الأول ملك إنجلترا.
١٢٧٣ - ١٢٩١	رودلف هابسبورج.

١٢٧٨	موقعة مارخفيلد ـ دعم نفوذ أسرة هابسبورج فى النمسا.
	تأليف الحلف السويسرى من بعض المقاطعات الكبرى ضدّ آل هابسبورج.
١٢٨٣	الفرسان التيتون يتمون فتح بروسيا.
١٢٩١	السلطان الأشرف خليل المماليكى يستولى على عكا آخر المعاقل الصليبية الكبرى بالشام.
١٢٩٣ – ١٢٩٨	الحرب بين إدوارد الأول ملك إنجلترا وفيليب الرابع ملك فرنسا.
١٢٩٤	سلطنة قونية تتفتت بعد مقتل سلطانها مسعود الثانى على أيدى المغول
١٣٠١	بداية النزاع بين البابا بونيفيس الثامن وفيليب الرابع ملك فرنسا.
١٣٠٢	موقعة كورتراى ـ الفلمنكيون يهزمون الجيوش الفرنسية.
	أول مجلس لطبقات الأمة فى فرنسا.
١٣٠٧ – ١٣١٤	القضاء على هيئة الفرسان الداوية.
١٣٠٨ – ١٣١٣	هنرى السابع لكسمبرج يصبح إمبراطورا.
١٣٠٩	انتقال البابوية إلى أفينون ـ بداية فترة الأسر البابلى.
١٣١٠	فرسان القديس حنا يغزون جزيرة رودس.
١٣١٢	فيليب الرابع يضم ليون إلى فرنسا.
١٣١٥	موقعة مورجارتن ـ انتصار سويسرا على ليوبولد النمساوى.
١٣٢٠	هزيمة الفلاحين فى فرنسا.
١٣٢٦	العثمانيون يستولون على بروسه.
١٣٢٨	انتهاء أسرة كابيه فى فرنسا ـ قيام فيليب السادس فالوا فى الحكم.
١٣٣٠	استيلاء العثمانيين على نيقية.
١٣٣١	ستفن دوشان يعلن نفسه إمبراطورا على الصرب.
١٣٣٣	كازمير العظيم يصبح ملكاً على بولندا.
١٣٣٧	إدوارد الثالث يطالب بالتاج الفرنسى.
١٣٣٩	إدوارد الثالث ينزل على رأس قواته فى فلاندرز.
١٣٤٠	موقعة سلوى ـ انتصار بحرى لإدوارد الثالث.

١٣٤١	العثمانيون يعبرون إلى الشاطئ الأوربى.
١٣٤٢ – ١٣٨٢	لويس العظيم فى هنغاريا ـ اتحاد هنغاريا وبولندا عن طريق زواج ابنة لويس من لادسلاس الثانى ملك بولندا.
١٣٤٤	استكشاف جزر ماديرا.
١٣٤٥	استكشاف جزر كانرى.
١٣٤٦	موقعة كريسى.
	الفرسان التيتون يغزون أستونيا.
١٣٤٧	الإنجليز يستولون على كاليه (حتّى سنة ١٥٥٨).
١٣٤٨	تأسيس جامعة براغ.
١٣٤٩	الوباء الأسود.
١٣٥٢	ملك دنقلة يعتنق الإسلام ـ انتشار الإسلام بسرعة على امتداد ساحل غانة.
١٣٥٥	تجدد الحرب بين إنجلترا وفرنسا.
١٣٥٦	موقعة بواتييه.
	المرسوم الذهبى الذى أصدره شارل الرابع.
	وكلف يواصل نقده للكنيسة.
١٣٥٧	استيلاء العثمانيين على غاليبولى.
١٣٥٨	ثورات داخلية فى فرنسا.
١٣٦١	فرنسا تستولى على برجنديا.
	العثمانيون يغزون أراضى (رومانيا) الحديثة ـ تأسيس فرقة الانكشارية.
١٣٦٤ – ١٣٨٠	شارل الخامس فى فرنسا.
١٣٦٤	جامعة كراكاو.
١٣٦٥	استيلاء العثمانيين على أدرنة.
	البرتغاليون يستكشفون ساحل غانة.
١٣٦٨	جامعة جنيف.
١٣٦٩ – ١٣٨٠	تجدد الحرب بين إنجلترا وفرنسا.

١٣٧٠ – ١٤٠٥	تيمورلنك يغزو فارس وأعالى الشام.
١٣٧١	انتصار العثمانيين عند المارتزا.
١٣٧٨	بداية الانشقاق الدينى الأكبر.
١٣٨٠	انتصار الروس على المغول.
١٣٨١	ثورة الفلاحين فى إنجلترا.
١٣٨٢	انتصار الفرنسيين على الفلمنكيين عند روزبك.
	وفاة لويس العظيم ملك هنغاريا ـ اتحاد هنغاريا وبولندا.
١٣٨٤	وفاة وكلف.
١٣٨٦	تيمورلنك يغزو فارس.
	السويسريون ينزلون الهزيمة بالهابسبورجيين عند سمباخ.
١٣٨٩	موقعة كاسوفا، العثمانيون ينزلون هزيمة كبرى بالصرب والبلغار والهنغاريين.
١٣٩٠	العثمانيون يحاصرون القسطنطينية لأول مرة.
١٣٩٣	سقوط إمبراطورية البلغار الثانية.
١٣٩٤	الهدنة بين إنجلترا وفرنسا.
١٣٩٥	تيمورلنك يغزو روسيا.
١٣٩٦	موقعة نيقوبوليس، العثمانيون ينزلون هزيمة ساحقة بالقوى الأوربية.
١٣٩٧	اتحاد كالمارا بين الدانمارك والسويد والنرويج.
١٣٩٨ – ١٣٩٩	تيمورلنك يغزو الهند ويستولى على دلهى.
١٤٠٢	تيمورلنك ينزل هزيمة كبرى بالسلطان بايزيد العثمانى فى موقعة أنقرة.
١٤٠٥	وفاة تيمورلنك.
١٤٠٩	مجمع بيزة يعزل البابوات المتنازعين.
١٤١٠	موقعة تاننبرج ـ البولنديون ينزلون هزيمة كبرى بالفرسان التيتون.
١٤١٣	افتتاح مجمع كونستانس الدينى.

١٤١٥	إحراق حنا هس بتهمة الهرطقة.
	عزل البابوات المتنازعين.
	موقعة أجينكورت (أزينكورت).
١٤١٨	استيلاء الإنجليز على باريس.
	هنرى الملاح يقوم بأولى رحلاته.
١٤١٩	ثورة الهسيين فى بوهيميا (حتى سنة ١٤٣٦).
١٤٢٠	معاهدة تروى فى فرنسا.
١٤٢٣	مجمع سينا.
١٤٢٤	مجمع سينا ينتقل إلى بازل.
	استيلاء العثمانيين على سالونيكا.
١٤٢٩	الإنجليز يحاصرون أورليان ـ ظهور جان دارك.
١٤٣١	محاكمة جان دارك وإعدامها.
١٤٣٦	الفرنسيون يستردون باريس.
١٤٣٨	مجمع سينا ـ فرار المعارضة مجمع بازل.
١٤٤٢	ألفونس ملك أرغونة يستولى على نابلى ـ توحيد نابلى وصقلية تحت حكم أرغونة والقضاء على سيطرة البيت الأنجوى.
١٤٤٤	العثمانيون يحرزون انتصارا كبيرا عند فارنا.
	البرتغاليون يشرعون فى مباشرة تجارة الرقيق.
	شارل السابع ملك فرنسا يشن حربا على سويسرا ويحاصر زيورخ.
١٤٤٨	الفرنسيون يستردون أنجو ومين.
١٤٤٩	الفرنسيون يغزون نورمنديا.
١٤٥١	الفرنسيون يستردون جاسكونى.
١٤٥٢ – ١٤٥٥	اختراع الطباعة.
١٤٥٣	هزيمة الإنجليز عند شاتيلون وضياع معظم ممتلكاتهم فى فرنسا ما عدا كاليه ـ نهاية حرب المائة عام.
	سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين.

١٤٥٥	بداية حرب الوردتين فى إنجلترا.
١٤٥٨ - ١٥٠٤	العثمانيون يجتاحون ولاشيا.
١٤٥٩	العثمانيون يغزون الصرب.
	تأسيس جامعة بازل.
١٤٦٠	استيلاء العثمانيين على طرابيزون
١٤٦٣	استيلاء العثمانيين على البوسنة.
١٤٦٦	خضوع الفرسان التيتون فى بروسيا لبولندا ـ صلح ثورون الثانى ـ ضمّ بروسيا الغربية إلى بولندا.
١٤٧٥	السويسريون يغزون برجنديا.
	جامعة بوردو.
١٤٨٠	نهاية نفوذ القبيلة الذهبية (المغول) فى روسيا.
١٤٨١	ضمّ بروفانس إلى فرنسا.
	العثمانيون يحاصرون رودس.
١٤٨٣	تحالف الولايات الإيطالية ضدّ البندقية.
	مولد روفائيل ومارتن لوثر.
١٤٨٥	هنرى السابع تيودور يعتلى عرش إنجلترا.
١٤٨٦	بارثلميوودياز يستكشف رأس الرجاء الصالح.
١٤٩١ - ١٤٩٢	سقوط دولة غرناطة الإسلامية فى إسبانيا.
	كولمبس يقوم بأولى رحلاته لاستكشاف أمريكا.
١٤٩٤	الفرنسيون يغزون إيطاليا ويحتلون نابلى لمدة قصيرة.
	سافونا رولا فى فلورنسا.
١٤٩٨	فاسكو دى جاما يصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.

نصوص ووثائق

١ - الشعوب الجرمانية كما وصفها تاكيتوس

تاكيتوس مؤرخ رومانى عاش فى النصف الأخير من القرن الأول وأوائل القرن الثانى للميلاد (٥٥ - ١٢٠م) تولى عدة مناصب فكان برايكتور سنة ٨٨ وقنصلا سنة ٩٧ وبروقنصل فى ولاية آسيا سنة ١١٢، كتب عدة كتابات وكتب تاريخية، منها كتابه عن الجرمان، الذى يعتبر من أهم المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن الشعوب الجرمانية فى الدور الأول من أدوار تاريخها، وفيما يلى بعض ما كتبه تاكيتوس عن الجرمان:

* * *

اعتاد الجرمان فى أوقات السلم أن يقضوا بعض وقتهم فى الصيد، ولكن الغالب هو أنهم كانوا يركنون إلى الكسل مستسلمين للنوم أو اللهو، حتّى أكثرهم شجاعة وأقواهم بأسا اعتادوا أن يقضوا وقت السلم فى خمول، تاركين شئون البيت والأرض للنساء والمسنين من الرجال، وغيرهم من فئات غير المحاربين. أمّا السادة منهم فيتسكعون إشباعا لنزعة عدم الثبات والاستقرار، وهى نزعة طبيعية تجعلهم دائما يكرهون السلم ويحبون الحركة والغزو. وقد جرت العادة فى دول الجرمان أن يكرموا زعماءهم بإهدائهم أنصبة متباينة من الماشية أو القمح، وهذه الهدايا كانت تكفى بأن يعيش عليها الزعماء فى قت السلم دون حاجة إلى العمل، على أن معظم الهدايا الثمينة كانت تقدم إلى أولئك الزعماء من القبائل المجاورة ـ حكومات وأفراداً، ومن هذه الهدايا الخيول والدروع المعدنية الفاخرة، والحراب، والسهام، والسلاسل المضفرة وغيرها، وقد استطعنا ـ نحن الرومان ـ أن نجعلهم الآن يقبلون النقود ويرتضونها مثلما يرتضون الهدايا السابقة.

ومن الحقائق المعروفة جيدا أن الجرمان لا يعيشون فى مدن مسورة، وأنهم يسكنون منازل غير متلاصقة، متباعدة عن بعضها البعض مبعثرة فى المروج أو الغابات حسبما يحلو لهم، وهم لا يعيشون مثلنا ـ نحن الرومان ـ فى قرى ذات بيوت متقاربة أو متلاصقة، وإنما تحيط بكل بيت من بيوتهم مساحة كبيرة من الفضاء، وربما كان سر هذه الظواهر هو تخوفهم من أن تلتهم النار بيوتهم جميعًا فى حالة تلاصقها، أو ربما يرجع السر إلى ضعف مهارتهم فى شئون التخطيط والبناء، هذا إلى

أنهم لايعرفون استخدام الحجر المصقول أو الآجر، بل يستخدمون فى بناء بيوتهم الأخشاب بطريقة تدل على الخشونة وعدم العناية بحسن المظهر، ثمّ أنهم يلطخون أجزاء بيتهم بالطمى ويحرصون على أن يتم ذلك بوضوح وعناية بحيث يبدو الطمى كنوع من الطلاء البراق فى شكل خطوط ملونة، هذا إلى أنهم دأبوا على حفر كهوف ومغارات تحت سطح الأرض ويغطون فتحاتها بأكوام كبيرة من السباخ والسماد؛ ليستخدموها مأوى فى الشتاء أو مخازن يخفون فيها حاصلاتهم الزراعية، حتّى إذا اجتاح عدو بلادهم فإنه ينهب الأشياء الظاهرة ولا تصل يده إلى المخبوءات فى تلك الكهوف.

واعتاد الجرمان على اختلاف طبقاتهم أن يرتدوا عباءة لا يستر أجسامهم غيرها ويكتفون بها وبالجلوس قرب النار للتدفئة طوال اليوم وربما امتاز الأغنياء بارتداء سروال داخلى فضفاض مثل الذى يرتديه السارماشيون أوالبارثيون، ولكنه ضيق محكم على الساقين، كذلك يرتدون جلود الحيوانات المفترسة، دون أن يعنى أفراد القبائل القريبين من حدودنا بتفاصيلها وأحكامها، فى حين يبذل أفراد القبائل البعيدة عنا جهدا كبيرا فى إحكام تفصيل ملابسهم المصنوعة من جلود الحيوانات نظرا لأنهم يعتمدون عليها اعتمادا شبه تام لعدم وصول أنواع أخرى من الملابس إليهم لذلك فإنهم يعنون باختيار الحيوانات التى ينزعون جلودها ويرقعونها بقطع من جلود الحيوانات البحرية التى يلقى بها المحيط الكبير إليهم، ولاتختلف ملابس النساء فى أسلوبها عن ملابس الرجال، اللهم سوى أن النساء يرتدين عادة ملابس كتانية يزركشنها بإطار أحمر اللون، ويرتدين من الداخل قمصانا دون أكمام، مع ترك الجزء العلوى من الصدر مكشوفا.

ويمتاز رباط الزوجية عند الجرمان بأنه رباط وثيق، حتّى أننا لا نجد ناحية جديرة بالإطراء فى عادات الجرمان أكثر من هذه الصفة، ذلك أن الجرمانى يقنع دون بقية طوائف البرابرة بزوجة واحدة، باستثناء عدد قليل جدا ممن ينحدرون من أصل نبيل، وهؤلاء بحكم أصلهم تلقوا عروضا عديدة للزواج فصار للواحد منهم أكثر من زوجة، والزوجة عند الجرمان لا تقدم لزوجها هدية زواج وإنما الزوج هو الذى يقدم هدية الزواج لزوجته، ويتم ذلك فى حضور الوالدين والأقارب، والأهل الذين يقومون بفحص تلك الهدايا وتقييمها، وهذه الهدايا لا تتناسب عادة وطبيعة المرأة، كما

أنهـا ليـست من النوع الذى يمكن أن تتـحلى به العروس، وإنما تتـألف من زوج من الثيران وحصان مطهم ودرع وحربة وسيف وفى مقابل هذه الهدايا يمكن للعريس أن يتسلم عروسه من أهلها وتقوم هى بدورها بتقديم بعض الهدايا من الأسلحة لزوجها.

ويعتبر الجرمان هذا الحفل بطقوسه الغامضة من أقدس روابطهم التى تباركها الآلهة، وفى ذلك الحفل الخاص بالزواج تذكر الزوجة بأنها شريكة لزوجها فى أفراحه وأتراحه، وأنها يجب عليها أن تشاركه فى تحمل المخاطر التى يتعرض لها، حتّى لاتظن أنها بعيدة عن دائرة الحرب والأخطار والمتاعب، وهذا هو المقصود من هدية زوج الثيران التى ترمز إلى السلم وفلاحة الأرض من ناحية والفرس المطهم والأسلحة التى ترمز إلى متاعب الحرب من ناحية أخرى، وعلى أساس هذه المفاهيم تعيش الزوجة مع زوجها وتموت إلى جانبه ، فهى منذ لحظة زواجها تسلمت أمانة عليها أن تسلمها بدورها كاملة غير منقوصة لأولادها وأحفادها.

وفى ظل إطار منيع من العفة والشرف يعيش الجرمان بعيدين عن حياة الخلاعة وإغراء المظاهر،ولا يعرف الزوج أو الزوجة عند الجرمان تبادل الخطابات السرية الغرامية، وحالات جرائم الزنا قليلة ونادرة جدا عند الجرمان، وإذا حدثت فإن العقوبة توقع فورا دون إبطاء فى نفس المكان الذى حدثت فيه الجريمة وبعد أخذ رأى الزوج الذى خانته زوجته، فيجمع أهل الزوجة ويحضر الزوج ليلقى أمامهم بزوجته الزانية وقد قصٌ شعرها ونزعت عنها ملابسها، وأمام الجمع الحاشد يلهب الزوج ظهر زوجته الخائنة بالسوط، ويستمر الزوج يطارد زوجته الخائنة والسوط بيده فى طول القرية وعرضها، والزوجة التى تقع فى جرم الخيانة لايمكن للمجتمع أن يغفر لها جرمها، فتظل بعد ذلك دون زوج مهما يبلغ جمالها وثراؤها وشبابها، ففى بلاد الجرمان لايبتسم أحد للرذيلة، ولا يطلقون اسم «متاع الدنيا» على الغواية والضلال[١].

وهذا المجتمع الجرمانى يعيش فى أحوال أفضل بكثير من التى نعيش ـ نحن معشر الرومان ـ فيها. ذلك أنه لا تتزوج عندهم إلا المرأة العذراء، فإذا تزوجت المرأة مرة فإنها الأولى والأخيرة بالنسبة لها، وبزوجها ارتبطت حياتها وآمالها إلى النهاية،

(١) نلاحظ فى كلام تاكيتوس مقارنة غير صريحة بين نقاوة المجتمع الجرمانى الذى كان لايزال عندئذ على بساطته، وبين ما صار إليه المجتمع الرومانى بعد أن أخذت تتسرب إليه عوامل الفساد تدريجيا.

فالمرأة لها زوج واحد، مثلما لها جسد واحد، وحياة واحدة، فلاتفكير فى أطماع أخرى ولا تطلعات إلى آمال جديدة وإنما هى تحب زوجها وتتفانى فى الإخلاص له لأنه يمثل حالة الزوجية ورباطها الأبدى المقدس.

وهكذا نجد العادات والتقاليد الحميدة فى المجتمع الجرمانى أجدى بكثير من القوانين الوضعية فى البلاد الأخرى.

٢ - مرسوم ميلان سنة ٣١٣
الذى أصدره قسطنطين وليكنيوس[١]

سبق أن قررنا أنه لا ينبغى منع حرية العبادة، وإنما تترك لكل فرد - حسبما يوجهه فكره وقلبه - حرية العبادة وفق الأسلوب الذى يروقه، بمعنى أن المسيحيين وغيرهم من أهل الطوائف الأخرى مسموح لهم بمباشرة العقائد واعتناق الأديان التى يختارونها. ولكن يبدو أن هذا القرار الذى سبق أن أصدرناه لم يراع تنفيذه بدقة نظرا لكثرة الحالات وتباين الأوضاع، ممّا يستدعى إصدار هذا المرسوم.

عندما وصلنا نحن قسطنطين أوغسطس وليكنيوس أوغسطس إلى ميلان محاطين بالرعاية والعناية، أخذنا نبحث جميع المسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا، ومن بين هذه المسائل التى تهم كثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العبادة؛ لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وجميع الطوائف الأخرى حرية اختيار ومباشرة العقيدة التى يرتضونها، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممّن يعيشون فى كنف سلطاننا، وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أى فرد كائنا من كان، من اختيار المسيحية ديانة له، ولكل فرد الحرية فى اختيار الديانة التى تناسبه، وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة التى تعودناها منه.

وقد رأينا أنه من المناسب أن نرسل أمرا إمبراطوريا بقرارنا هذا، وذلك لمحو الآثار التى ترتبت على خطابتنا وقراراتنا السابقة بخصوص المسيحيين ويصبح من الآن كل واحد من أولئك المسيحيين المغلوبين على أمرهم حرا فى مباشرة عقيدته دون أى عائق، وأول ما نحب أن نؤكده فى هذا المرسوم اختيار نوع العقيدة التى يرتضونها، وقد فعلنا هذا لكيلا نبدو فى صورة الراغبين من الحط من قيمة أية عقيدة أو أية عبادات بأى حال من الأحوال.

وزيادة على ذلك فإنه فيما يتعلق بالمسيحيين بوجه خاص فإننا عقدنا العزم على أن تعاد إليهم أماكنهم السابقة التى اعتادوا أن يجتمعوا فيها والتى سبق أن صودرت ،

---

(١) ليكنيوس هذا هو زوج أخت قسطنطين وشريكه فى حكم الإمبراطورية، دفعه الطمع إلى دخول حرب أهلية ضدّ قسطنطين انتهت سنة ٣٢٣ بهزيمته.

وإذا ثبت أن بعضها اشتراه أفراد من الخزانة العامة فإنها تسترد منهم دون إعطاء تعويض ما وتعاد إلى إصحابها المسيحيين، فإذا تصادف وكانت بعض هذه الأماكن أهديت إلى الغير، فإنها تسترد منهم فورا لتعاد إلى أصحابها المسيحيين، فإذا اعترض بعض أولئك الذين كانوا قد استحوذوا على تلك الأماكن عن طريق الشراء أو الإهداء وطالبوا بشيء من عطفنا، فعليهم أن يتقدموا بالتماسات إلى الوالى، ولكن بعد أن يسلموا ما يحوزتهم من ممتلكات إلى أصحابها المسيحيين دون أى إبطاء.

ولما كان أولئك المسيحيون لايمتلكون فقط تلك الأماكن والمبانى الخاصة بأفراد منهم، وإنما كانت الهيئة الخاصة بالمسيحيين (الكنيسة) تمتلك ممتلكات كثيرة سبق أن صودرت، فإننا نأمر بمقتضى هذا المرسوم أن تسترد الهيئة الخاصة بالمسيحيين كل ما صودر من ممتلكاتها ويستطيع الأفراد الذين استحوذوا على هذه الممتلكات أن يعتمدوا على كرمنا فى تعويضهم ولكن عليهم أن يسلموا ما معهم دون طلب تعويض ما من المسيحيين أنفسهم.

ولاشك فى أننا بقراراتنا هذه إنما نبذل قصارى جهدنا لا من أجل المسيحيين وهيئتهم الخاصة بهم فحسب، بل أيضًا من أجل السلام العام، وبهذه الطريقة سنظل نحظى بالعناية الإلهية مثلما لمسناها فى كثير من الشئون.

وهذا المرسوم الذى صدر من فيض كرمنا يجب أن يذاع على الجميع، ويجب أن يحاط الجميع به علما وينشر فى كل مكان حتى لا يفوت أحداً الأخذ به.

٣ - نظام القديس بندكت الديرى

أدى اختلال الحياة الديرية فى غرب أوربا إلى انتشار كثير من المفاسد فى الأديرة، ومن أشهر المصلحين الديريين الذى عملوا على إصلاح الحياة الديرية القديس بندكت الذى وضع قانونا ديريا ساد الحياة الديرية فى غرب أوربا مدى عدة قرون وترك أثرا بالغ الأهمية لا فى حياة آلاف الرهبان الذين ضمتهم الأديرة البندكية فحسب، بل أيضًا فى تطور الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى، وفيما يلى بعض فقرات من قانون القديس بندكت (حوالى سنة ٥٣٠م):

* * *

المادة ٢: الصفات الواجب توافرها فى مقدم الدير:

يجب على الفرد الجدير بأن يكون مقدما على دير من الأديرة أن يذكر دائما مدى أهمية مركزه، وخطورة مهمته وسمو وظيفته؛ لأنه يمثل المسيح فى الدير،ويستمد اسمه من قول الرسول: «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضًا للخوف، بل أخذتم روح التبنى الذى به نصرخ يا آبا الأب»[١]. كذلك يجب على مقدم الدير ألا يأمر أمرا أو يلقن شيئا منافيا لتعاليم الرب، وإنما يجب أن تكون جميع أوامره وتعاليمه متماشية مع قواعد العدل الإلهى...وعلى مقدم الدير أن يتبع أسلوبين فى تعليم المريدين والتلاميذ داخل الدير، فيلقن تعاليم الرب شفويا للمريد النابه الذى لديه الاستعداد للتعليم، أما المريد الضعيف أو العنيد فيكون تعليمه عن طريق العمل والقدوة. ولاينبغى أن يكون هناك تفاوت فى تقدير الأشخاص داخل الدير، فلا يختص مقدم الدير بمحبته راهبا دون راهب آخر إلا أن يبز الراهب المحبوب أقرانه فى العمل الطيب والطاعة، ولا يصح داخل الدير أن يميز الراهب الحر الأصل على الراهب الذى أصله غير حر، إلا إذا كان هناك سبب آخر وجيه يستدعى التفرقة؛ لأن الجميع ـ أحرارا كانوا أو رقيقا ـ سواء فى محبة المسيح، وعلى مقدم الدير أن يتبع دائما قول الرسول «وبخ، انتهر، عظ بكل أناة وتعليم»[٢] بمعنى أنه يجب على مقدم الدير أن يكيف

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (٨، ١٥) والمقصود هنا أن مقدم الدير واسمه Abbot اشتق اسمه كلمة آبا Abba التى وردت فى النص.

(٢) رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس(٤، ٢).

أسلوبه حسب الظروف، فيستخدم التهديد تارة والمديح والإطراء تارة أخرى، وحينا يظهر فى صورة الرئيس الحازم وحينا آخر يبدو فى صورة الأب الحنون... حسبما تقضى الظروف.

وقبل كل شيء يجب على مقدم الدير ألا يظهر تهالكا على متاع الدنيا الفانى وزينتها الزائلة، ممّا يجعله ينسى رعاية الأرواح الموكول إليه رعايتها، وعليه أن يذكر دائما أنه مسئول عن تقديم بيان بصلاح الأرواح المعهودة إليه.

المادة ٣: استشارة الإخوان داخل الدير:

إذا حدث شيء مهم داخل الدير وجب على مقدم الدير أن يعقد اجتماعا يضم جميع رهبان الدير ليستشيرهم فى الأمر، وبعد أن يستمع المقدم إلى آراء الإخوان يتخذ فى الموضوع ما يراه صالحا.

المادة ٤: أساليب العمل الصالح:

للعمل الصالح أساليب ووسائل عديدة أولها محبة الرب بكل ما أوتيه الإنسان من قلب وروح وقوة، وأن يحب الراهب لزميله ما يحب لنفسه، وأن لا يلجأ الإنسان إلى ارتكاب جرائم القتل أو الزنا أو السرقة، وألا يطمع ولا يشهد زورا، وأن يحترم جميع الناس، ولا يؤذى من لم يؤذه، وأن يقتدى الفرد بالمسيح فى نكران الذات وصيانة الجسد ومحاربة الشهوات والإعراض عن متاع الدنيا والصبر على الصيام، وأن يطعم الفقير ويكسو العريان ويعود المريض ويدفن الميت، ويساعد المكروب ويواسى الحزين، وأن يبتعد ما أمكن عن مغريات الدنيا، ولا يحب شيئا أكثر من محبته المسيح، ولايستسلم للغضب، ولا يحمل حقدا لأحد، ولا يخدع ولا يغش، ولايتظاهر بالود ويحمل فى قلبه الكراهية، ولايتردد فى طريق الإحسان والمعروف، ويجب عليه ألا يقسم لكيلا يحنث فى قسمه، وأن يقول الصدق من صميم قلبه، وألا يقابل الشر بالشر، ولا يأذى الغير، وإنما يتقبل الأذى ويتحمله فى صبر وهدوء وعليه أن يحب أعداءه ولا يقابل اللعنة بمثلها، وأن يصبر على الأذى فى سبيل الشرف والواجب ، ويجب عليه ألا يكون متكبرا أو سكيرا أو نهما فى الأكل، أو مستسلما للنوم والكسل، أو كثير الشكوى أو نمّاما، وعليه أن يضع ثقته فى الله فإذا رأى فى نفسه شيئا طيبا عزاه إلى الرب وإذا رأى شيئا غير طيب عزاه إلى نفسه،وعليه أن يخشى يوم الحساب ويعمل حسابا لعذاب النار.

المادة : ٥ : الطاعة:

والطاعة بلا تردد هى أولى درجات التواضع، وأولى الصفات التى يتحلى بها أتباع المسيح المخلصون؛ لذلك يجب على أى راهب يتلقى أمراً من رئيسه أن يطيعه فورا كما لو كان الأمر صادرا من الرب نفسه.

المادة ٦ : الهدوء:

ودعنا نتصرف كما يقول الرسول: «قلت أتحفظ لسبيلى من الخطأ بلسانى أحفظ لفمى كمامة فيما الشرير مقابلى، صمت صمتا سكت عن الخير فتحرك وجعى»[٣]. ومعنى هذا أنه إذا كان من الصواب عدم الكلام حتى فى الخير، فما بالنا وعدم الكلام فى الشر خوفا من الوقوع فى الإثم... لذلك نحن نمنع منعا باتا المزاح والكلام فيما لايعنى، ويحرم على الراهب حتى مجرد أن يفتح فمه للتفوه بمثل تلك الألفاظ.

المادة ٧ : التواضع:

جاء فى الكتاب المقدس «فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع»[٤] وعلى هذا يجب على الإخوة والرهبان إذا أرادوا أن يرتفعوا إلى أسمى درجات التشريف فى السماء أن يذكروا أن هذا التشريف لايتحقق إلا بالتواضع فى الدنيا، وإذا أردنا أن نرقى إلى السماء فليكن ذلك بواسطة سلم من أعمالنا مثل ذلك السلم الذى رآه يعقوب فى منامه وعليه ملائكة يصعدون وينزلون[٥].

المادة ٢١ : نواب مقدم الدير:

وإذ كان الدير يضم عددا كبيرا من الرهبان، فإن للمقدم أن يختار بعض الأعضاء المعروفين بالتقوى وحسن الخلق ليكونوا نوابا له ورؤساء على الشعب التى ينقسم إليها أفراد الدير.

المادة ٢٢ : طريقة نوم الرهبان:

---

(٣) سفر المزامير ٣٩، ١ – ٢.

(٤) إنجيل متى ٢٣، ١٢.

(٥) «ورأى (يعقوب) حلما، وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها تمس السماء، وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها» (سفر التكوين، الإصحاح الثامن والعشرون، ١٢).

يجب أن ينام الرهبان فى أسرّة منفصلة وفق النظام الذى يضعه لهم مقدم الدير بحيث تضاء شمعة فى قاعة النوم منذ المساء حتّى طلوع الفجر، وعلى الرهبان أن يكونوا دائما أبدا مستعدين فيتركون فراشهم مباشرة عند سماع إشارة الاستيقاظ، ويسرعون لإقامة الصلاة مع احتفاظهم بوقارهم واتزانهم . ويجب ألا تتجمع أسرة صغار السن من الرهبان فى مكان واحد وإنما توزع بين أسرة الكبار.

المادة ٣٩ : مقدار الطعام:

يكفى أن يتناول الراهب يوميا طبقين من الطعام المطهى إمّا فى الساعة السادسة أو التاسعة، وقد سمحنا بطبقين لاختلاف الأذواق حتى أن أياً لا يعجبه صنف من الطعام يمكنه أن يشبع جوعه بالطبق الآخر، فإذا أمكن للدير الحصول على بعض الفاكهة أو الخضراوات الطازجة، فعندئذ يكون ذلك بمثابة الطبق الثالث الذى يقدم للرهبان، ويكفى كل راهب رطل واحد من الخبز يوميا سواء كان يتناول وجبة واحدة أو وجبتين،. أما فى حالة الرهبان الذين يعهد إليهم بالنهوض بأعمال شاقة، فإن لمقدم الدير الحرية فى إعطائهم قدرا أكبر من الطعام، بشرط ألا يسمح للرهبان أبدا بإشباع شهواتهم عن طريق الإسراف فى الطعام أو الشراب.

المادة ٤٠ : مقدار الشراب:

ونرى أنه يكفى الراهب يوميا أن يتناول نصف كيل من النبيذ، باستثناء حالات المرض فإنه يمكن زيادة هذه الكمية، فإذا تطلبت حالة الجو أو طبيعة العمل الذى يقوم به الرهبان أو حرارة الصيف أو أى عوامل أخرى زيادة هذه الكمية فإن الحرية متروكة لمقدم الدير ليتصرف كما يرى، مع ملاحظة دائما عدم الإسراف حتى لايثمل الرهبان.

المادة ٤٨ : العمل اليومى للرهبان:

يشكل الكسل أكبر أعداء الروح؛ لذلك يجب أن يشغل الرهبان أنفسهم دائما إمّا بالعمل اليدوى أو بالقراءة الدينية، فإذا كانت ظروف المنطقة التى فيها الدير، أو إذا كانت احتياجات الدير نفسه تتطلب من الرهبان مزيدا من العمل والجهد ـ كما يحدث عادة فى وقت الحصاد ـ فإنه يجب على الرهبان، ألا يتذمروا؛ لأن الرهبان الحقيقيين يتعيشون من عرق جبينهم كما كان يفعل الرسل والآباء الأوائل. وفى أثناء الصوم

الكبير يجب أن يخصص الرهبان الوقت من شروق الشمس حتّى الساعة الثالثة للقراءة الدينية، وبعد ذلك ينصرف كل منهم لأداء العمل المنوط به حتّى الساعة العاشرة، وعند بداية الصوم الكبير، يصرف لكل راهب كتاب من مكتبة الدير، على أن يتم قراءة هذا الكتاب بأكمله خلال أيام الصوم، ويعهد إلى واحد أو اثنين من كبار الرهبان بالمرور خلال الدير أثناء الساعات المخصصة للقراءة للتأكد من أن أحد الرهبان لايقرأ وبذلك لا يتسبب في إضافة وقته فحسب، بل يزعج ويضايق زملاءه.

المادة ٥٤ : تحريم استلام رسائل أو شيء آخر من خارج الدير.

لايجوز لأى راهب أن يتلقى رسالة أو هدية أو أى شيء آخر سواء من أسرته أو من أى فرد آخر خارج الدير، كما أنه يحرم على الرهبان إرسال شيء إلى خارج الدير، إلا بإذن من المقدم.

٤ - البابا جريجورى الثالث

يطلب معونة الفرنجة ضدّ اللمبارديين سنة ٧٣٩

وجدت البابوية نفسها وحيدة دون قوة تسندها عندما هاجمها اللمباريون فى القرن الثامن، وكانت البابوية عندئذ فى عداء مع الإمبراطورية البيزنطية ومن ثمّ لم تنتظر أن يساعدها إمبراطور القسطنطينية ضدّ اللمبارديين، وهكذا تلفتت البابوية حولها بحثا عن معين فلم تجد سوى الفرنجة، ولكن شارل مارتل ربطته روابط صداقة باللمبارديين؛ ولذلك أبى أن يقدم المعونة المطلوبة للبابوية واختار لنفسه عدم التدخل فى شئون إيطاليا.

وفيما يلى نص الرسالة التى بعث بها البابا جريجورى الثالث إلى شارل مارتل طالبا مساعدته ضدّ اللمبارديين:

* * *

من البابا جريجورى إلى ابنه العظيم شارل

رأينا أنه من الضرورى - ونحن فى غمرة الأسى والألم - أن نكتب إليك مرة أخرى؛ لاعتقادنا فى إخلاصك للقديس بطرس أمير الرسل، والحواريين، وأنك بدافع الإخلاص والإجلال له ستستجيب لأوامرنا فى الدفاع عن كنيسة الله وشعبه المختار.

والواقع أننا الآن لا نستطيع أن نتحمل مزيدا من العنف والأذى على أيدى اللمبارديين، بعد أن سلبوا القديس بطرس كل ممتلكاته، حتّى التى منحتها أنت وآباؤك له. هؤلاء اللمبارديون يكرهوننا ويعتدون علينا لا لشىء سوى أننا نحتمى بك ونطلب معونتك، ولهذا السبب نفسه أيضًا تعرضوا لكنيسة القديس بطرس بالنهب والتخريب[١]، وسيحكى مبعوثنا لك كثيرا من الهموم والآلام والمتاعب التى نتعرض لها من جراء ذلك.

وتأكد يا ولدى أنك ستحظى بعطف القديس بطرس - الآن وفى الحياة الأخرى بين يدى الله - إذا أنت قدمت معونة عاجلة لنا وللكنيسة، وأن جميع الشعوب ستدين لك بالمحبة والتقدير والولاء اعترافا منها بجهودك فى الدفاع عنا وعن القديس بطرس وشعبه المختار؛ لأنك بهذا العمل ستضمن ذكرى أبدية فى الدنيا وخلودا دائما فى الآخرة.

---

(١) لاحظ كيف يحاول البابا استثارة مارتل ضد اللمبارديين عن طريق اختلاق أسباب وهمية للإيقاع بين الطرفين.

٥ - شارلمان

كما وصفه أينهارت (٧٧٠ - ٨٤٢)

ولد أينهارت حوالى ٧٧٠ وتلقى تعليمه فى مدرسة دير فولدا، وهناك فى الدير أظهر كفاية كبيرة جعلت مقدم الدير يرشحه لتولى إحدى الوظائف فى بلاط شارلمان حوالى ٧٩١، وهناك فى بلاط شارلمان حقق أينهارت لنفسه مكانة كبيرة؛ لأنه لم يكن مجرد رجل نظرى استوعب فى عقله بعض المعلومات التى جمعها من مكتبة الدير، ولكنه حصل خلال فترة إقامته بالدير على خبرة عملية وهندسية واسعة، وقد كتب عدة كتابات على جانب كبير من القيمة والأهمية، على رأسها كتابه «حياة شارلمان» الذى ضمنه كثيرا من الحقائق الفريدة، بحكم اتصاله المباشر بشارلمان من ناحية وإقامته على مقربة من القصر من ناحية أخرى، وفيما يلى بعض فقرات من هذا الكتاب.

* * *

يتصف شارلمان فى حديثه بالفصاحة وسرعة البديهة ، فضلا عن أنه يستطيع أن يعبر عما يريد بمنتهى الوضوح، هذا أنه لم يكتف بلغته القومية - وهى لغة الفرنجة - وإنما اختار أن يتحمل مشقة تعلم لغات أجنبية، فأجاد اللغة اللاتينية إلى درجة أنه يتحدث بها بالطلاقة نفسها التى يتحدث بها لغته القومية، أمّا اليونانية، فهو يفهمها أكثر ممّا يجيد نطقها، وقد بلغ من طلاقة لسانه أنه يبدو فى بعض الأحيان ثرثارا.

وقد أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالفنون الحرة[١]، وأظهر كثيرا من الاحترام والتقدير لمن يقومون بتدريسها، وكان يتلقى دروس النحو على يد رجل متقدم فى السن اسمه بطرس الشماس البيزى، فى حين كان يتلقى بقية العلوم على يد ألكوين، وهو شماس أيضاً ينحدر من أصل سكسونى، وفد من بريطانيا، ويعتبر أعظم علماء العصر.

واعتاد شارلمان أن يقضى كثيرا من وقته مع ألكوين يدرس على يديه البلاغة والبيان والجدل والمنطق، وخاصة الفلك، كذلك تعلم شارلمان علم الحساب وأخذ

---

(١) يقصد بالفنون الحرة النحو والبلاغة، والنطق - وكانت تسمى المجموعة الثلاثية، والحساب والهندسة والفلك والموسيقى - وكانت تسمى المجموعة الرباعية، (انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب).

يستعمله فى حساب حركات النجوم، وقد حاول أن يتعلم الكتابة ولهذا الغرض اعتاد أن يضع تحت وسادته ألواح الكتابة والقراطيس والأقلام ليتدرب على الكتابة فى أوقات فراغه؛ ولكن يبدو أنه لم يحاول تعلم الكتابة إلا فى سن متأخرة، ولذلك لم يحرز تقدما كبيرا فيها.

وكان شارلمان على جانب كبير من التقوى والإخلاص للديانة المسيحية، التى شبَّ عليها منذ طفولته، ويبدو هذا الشعور فى الكنيسة العظيمة الفائقة الحسن والجمال التى شيدها فى أكس لاشابل، والتى زينها بالذهب والفضة وأكثر فيها الشمعدانات والبوابات الكبيرة والصغيرة المصبوبة من النحاس الخاص. أمّا الرخام اللازم لتلك الكنيسة فقد جلبه من روما ورافنا؛ لأنه كان من المتعذر عليه أن يحضر أعمدة الرخام المطلوبة لها من أى مكان آخر. واعتاد شارلمان طيلة حياته أن يواظب على أداء الصلاة بتلك الكنيسة فى الصباح والمساء والليل، فضلا عن أوقات القداس، وقد عنى شارلمان عناية بالغة بأن تتم الصلوات فى الكنيسة على خير وجه وصورة، وكان دائما يحذر حراس الكنيسة وخدمها من السماح بوجود أية قاذورات داخل المبنى، وزود شارلمان تلك الكنيسة بمقدار ضخم من الأوانى الذهبية والفضية، ووضع فيها عددا كبيرا من ملابس رجال الدين الفاخرة؛ بحيث إن جميع رجال الدين - حتّى أقلهم درجة وهم حراس الأبواب - كانوا يرتدون الملابس الفاخرة التى أعدها لهم شارلمان فى أوقات الصلاة، هذا إلى أن شارلمان عدل طريقة التلاوة والترتيل بعد أن تعمق فى دراسة هاتين الناحيتين، وإن كان هو نفسه لايرتل بمفرده جهارا، وإنما يكون ترتيله بصوت منخفض وسط حشد المصلين.

وأظهر شارلمان حرصا شديدا على مساعدة الفقراء عن طريق المعونات الاختيارية التى يسميها البيزنطيون «صدقات» وبلغ من رغبة شارلمان فى مساعدة الفقراء أنه كان لا يقدم معونته لهم داخل بلاده ومملكته فقط. وإنما اعتاد أن يرسل الأموال عبر البحر إلى الشام، ومصر، وشمال أفريقية، وبيت المقدس، وإسكندرية، وقرطاجة لمساعدة فقراء المسيحيين الذين سمع بسوء أحوالهم فى تلك البلاد؛ ولهذا السبب بالذات حرص شارلمان على أن ينمى علاقات الصداقة بينه وبين ملوك تلك البلاد فيما وراء البحر حتّى يضمن حسن معاملة أولئك الملوك لرعاياهم من المسيحيين.

وإذا كان شارلمان يحب جميع الأماكن المقدسة ويحترمها، فإن محبته لمقام القديس بطرس في روما فاقت الوصف، الأمر الذي جعله يصب الذهب والفضة والأحجار الكريمة صبا في خزائن القديس بطرس بروما، واعتاد شارلمان أن يرسل هدايا لا تعد ولاتحصى إلى البابوية، ودأب طوال حكمه على النضال بكل قواه لتحقيق رغبة محببة إلى قلبه هي إعادة مجد روما ونفوذها القديم إليها ورعاية كنيسة القديس بطرس لا عن طريق حمايتها فحسب، بل أيضًا عن طريق تزيينها وإثرائها لتصبح بفضل أمواله التي أضفاها عليها في مستوى أسمى من غيرها من جميع الكنائس، ولكن على الرغم من مدى إجلاله وتقديره لروما فإنه طوال حكمه البالغ سبعا وأربعين سنة لم يتردد عليها سوى أربع مرات ليجدد أيمان الولاء ويؤدى الصلوات والدعوات.

على أن هذه لم تكن الأهداف الوحيدة من وراء آخر زياراته لروما. ذلك أن أهل روما كانوا قد ثاروا على البابا ليو وسملوا عينيه وقطعوا لسانه، فاضطر إلى الاستنجاد بالملك (شارلمان) طالبا حمايته، وكان أن قصد شارلمان روما ليعيد هيبة الكنيسة بعد أن جرحت جرحا بليغا. ولتحقيق ذلك قضى شارلمان الشتاء بأكمله في روما، وهذه هي المناسبة التي حصل شارلمان فيها على لقب إمبراطور وأوغسطس؛ وهو اللقب الذي كرهه كرها شديدا حتّى أنه أكد عدم دخوله كنيسة القديس بطرس في ذلك اليوم لو كان يعلم نية البابا في إضفاء هذا اللقب عليه، ولكنه عندما حصل على هذا اللقب من البابوية تحمل في هدوء العداء والحقد والسخط وغيرها من المشاعر التي أضمرها له الأباطرة الرومان[٢]. ولكن شارلمان استطاع بشهامته وسمو نفسه أن يتغلب على حقدهم وشعورهم الخبيث. فأخذ يرسل إليهم السفارات والبعثات الواحد تلو الأخرى، ويدعوهم بإخوته.

وبعد أن حصل شارلمان على اللقب الإمبراطوري، لاحظ وجود كثير من الثغرات والعيوب في النظام القضائي لرعاياه؛ لأن الفرنجة كانوا يخضعون لنظامين قضائيين مختلفين عن بعضهما في بعض النواحي اختلافا كبيرا؛ لذلك عزم شارلمان على استكمال الجوانب الناقصة في قوانين الفرنجة، والتوفيق بينها بإزالة المتناقضات فيها،

(٢) المقصود بالأباطرة الرومان هنا أباطرة الدولة البيزنطية الذين عزّ عليهم إحياء الامبراطورية في الغرب على يد شارلمان، ممّا أوجد امبراطورية أخرى جديدة منافسة للامبراطورية الشرقية أو البيزنطية.

وتعديل أى خطأ فيها أو فى تفسيرها، على أنه لم يستطع أن يكمل مشروعه، فاكتفى بإصدار بعض المراسيم التى لم تتم، هذا إلى أنه أصدر أوامره بجمع جميع القوانين الخاصة بالشعوب التابعة التى خضعت لحكمه؛ وذلك لتدوينها.

كذلك قام شارلمان بتدوين الأغانى القديمة الخاصة بشعوب البرابرة، التى تغنوا فيها بأعمال ملوكهم وحروبهم، وحفظها للذكرى والتاريخ، هذا فضلا عن أنه بدأ وضع قواعد النحو الخاصة بلغة الفرنجة.

٦ - مرسوم البابا نيقولا الثانى
لتحديد طريقة انتخاب البابوات

دأب هنرى الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة على التدخل فى شئون البابوية وعزل البابوات أو تعيينهم حسبما يحلو له، ولكن قيام حركة الإصلاح الكلونية أدى إلى ازدياد الرغبة فى صيانة مركز البابوية ووضع الضمانات الكفيلة باستقلالها وسلامتها، وكان أن عقد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ - ١٠٦١) مجمعا فى روما سنة ١٠٥٩ أصدر المرسوم التالى لتحديد طريقة اختيار البابا فى حالة شغور الكرسى البابوى:

* * *

بسم الإله الرب، مخلصنا يسوع المسيح، عقد هذا الاجتماع بقصر اللاتران المعروف باسم كنيسة قسطنطين فى روما فى شهر أبريل سنة ١٠٥٩ برئاسة البابا الرسولى المبارك نيقولا وبحضور جمع من رؤساء الأساقفة الأجلاء والأساقفة ومقدمى الأديرة والمشيخيين والشمامسة...

تعلمون أيها الإخوة الأعزاء - وهذا أمر لا يخفى حتّى على أصغركم درجة - كيف أنه حدث بعد وفاة سلفنا الطيب الذكر البابا ستفن (العاشر) أن تعرض هذا الكرسى الرسولى - الذى أشغله اليوم بإرادة الله - لكثير من المتاعب والآثام، وكيف أنه قاسى من هجمات أرباب المال من السيمونيين حتّى أخذ هذا العمود الكبير الذى يمثل إرادة الله يترنح ليقع، وأوشكت سفينة القديس بطرس أن تغرق بفعل الأمواج المتلاطمة؛ ولهذا اتخذنا القرارات الآتية - بإذن الله - لمنع أى خلل فى المستقبل والحيلولة دون انتشار تلك المساوئ ممّا يهدد مكانة الكنيسة وسلطانها:

أولا: إذا توفى البابا يجتمع كرادلة روما وضواحيها والسبع لانتخاب خليفة للبابا المتوفى، وبعد ذلك يجتمعون ببقية الكرادلة والأساقفة لإقرار الانتخاب ثمّ يعرض الأمر بعد ذلك على بقية القساوسة وعامة الناس للتعبير عن رأيهم.

ثانيا: وحتّى لانسمع بانتشار الفساد، رأينا أن كبار الكرادلة المعروفين بالتقوى والورع هم الذين يقومون وحدهم باختيار البابا الجديد، فى حين يقر بقية رجال الدين

ذلك الاختيار، ولاشك فى أن هذا النظام يمثل الوضع القانونى الصحيح الذى نادى به واتبعه آباء الكنيسة السابقون، وفى ذلك يقول القديس ليو (البابا ليو الأول ٤٤٠ – ٤٦١) «لايمكن أن نسمح بترسيم أسقف ما لم ينتخبه القساوسة ويقر انتخابهم عامة الناس من رعايا الأسقفية ثمّ يرسم بقية الأساقفة فى الإقليم بموافقة رئيس الأساقفة» ولكن لمّا كان الكرسى البابوى فى روما أسمى من جميع الكراسى الأسقفية الأخرى فى أنحاء الأرض، وبالتالى لايوجد رئيس فوق البابا، فإننا جعلنا لكبار الكرادلة فى روما سلطة رئيس الأساقفة، بمعنى أنهم هم الذين يقومون بانتخاب البابا ويرسمونه ويتوجونه.

ثالثا: يختار البابا الجديد من بين كنيسة روما ما دام يوجد فيها الشخص الصالح لتولى ذلك المنصب، فإذا لم يوجد جاز اختيار البابا من كنيسة أخرى غير كنيسة روما.

رابعا: يراعى عند عملية اختيار بابا جديد احترام الحقوق التى سبق أن منحناها ولدنا المحبوب الإمبراطور هنرى وخلفائه.

خامسا: إذا ما عكر صفو الجو فى مدينة روما بحيث انتشر الفساد وتعذر إجراء انتخاب حر لاختيار بابا جديد، فإنه يجوز للكرادلة ورجال الكنيسة وبعض العلمانيين الانتقال إلى أى مكان آخر يرونه مناسبا لإجراء عملية الانتخاب.

سادسا: إذا حدثت فتنة أو اضطرابات بعد الانتخابات بحيث تعذر على البابا الجديد المنتخب أن يتوج على كرسى البابوية، كما هو متبع، فإن البابا المنتخب له الحق على الرغم من ذلك ـ فى مباشرة جميع سلطاته بوصفه رئيسا للكنيسة الرومانية، كما يكون له الحق فى التصرف فى جميع دخلها، مثلما فعل البابا جريجورى قبل ترسيمه.

ولكن إذا حدث واختير أحد الأفراد أو رسم أو توج نتيجة لشغب أو ثورة، وبغير الطريق الشرعى السابق ذكره، فإنه يجب طرده من كنيسة الرب، هو وأعوانه ومستشاره ويظل ملعونا لعنة دائمة بوصفه عدو الرب وكنيسته ، ويتعرض للعقوبة نفسها كل من يعترف به بابا أو ينحاز إليه أو يستمع إليه أو يساعده بأية طريقة من الطرق.

وفى الوقت نفسه تحل اللعنة الأبدية ويعاقب بالحرمان من الكنيسة كل من يعارض مرسومنا هذا أو يعرقل تنفيذه أو يسبب ضررا للكنيسة الرومانية، إن مثل هذا الشخص يدخل في عداد الأشرار الذين لن تقوم لهم قائمة يوم الحساب، وينبغي أن يحس دائما بثقل غضب الإله الأب والابن والروح القدس، وأن يقاسى فى هذه الحياة الدنيا - والحياة الأخرى أيضًا - من غضب القديسين بطرس وبولس؛ لأنه آذى كنيستيهما، ولينطبق عليه ما جاء فى الكتاب المقدس «لتصر دارهم خراباً وفى خيامهم لا يكن ساكن»[1].

وأشهد أننى - أنا نيقولا أسقف الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة - وقعت هذا المرسوم الذى أصدرته بنفسى، كما سبق ذكره...

(١) سفر المزامير (٦٩، ٢٥).

٧ - قرار مجمع روما سنة ١٠٧٤
لتحريم السيمونية وزواج رجال الدين

عقد البابا جريجورى الرابع مجمعا دينيا سنة ١٠٧٤ حرّم شراء وبيع الوظائف الكنسية وأنزل اللعنة بكل من يتاجر فى وظيفة من وظائف الكنيسة كما حرّم على رجال الكنيسة الزواج ومنع الناس من الاستماع إلى رجال الدين المتزوجين ، وفيما يلى نص هذا القرار:

* * *

يُعتبر مفصولا من عمله ولا يجوز له أن يجرى طقوسا دينية كل من وصل إلى أية وظيفة أو منصب فى الكنيسة عن طريق السيمونية، وكذلك كل من حصل على أسقفية عن طريق دفع المال يحرم من رئاسة تلك الكنيسة، ومن الآن فصاعدا يحرم بيع وشراء جميع الوظائف والمناصب الكنسية.

أمّا رجال الكنيسة المتزوجون، فيحرم عليهم أن يلقوا قداسا أو موعظة أو ينهضوا بأى عمل دينى، فإذا عصوا هذا الأمر فإنه يحرم على الناس الاستماع إليهم، حتّى يشعروا بأنهم باؤوا بغضب من الرب وسخط من الناس؛ لأنهم لم يحترموا كرامة وظائفهم.

٨ - قرار الإمبراطور هنرى الرابع
بعزل البابا جريجورى السابع
٢٤ يناير ١٠٧٦

من هنرى - الذى لم يصبح ملكا عن طريق الاغتصاب وإنما عن طريق رسامة إلهية مقدسة - إلى هلدبراند الذى ليس بابا وإنما هو دعى من أدعياء الرهبان.

هذه هى التحية التى تستحقها لأنك لم تتول منصبا فى الكنيسة دون أن تجعل منه مصدرا للاضطراب، ولعنة على المسيحيين بدلا من أن يكون بركة وسندا لهم.

وسوف نكتفى بالحالات الواضحة - وهى قليل من كثير - فنقول إنك لم تجرؤ على المساس بمسيح الرب ورؤساء الأساقفة والأساقفة والقساوسة فحسب، ولكنك احتقرتهم وسببتهم كما لو كانوا أتباعا جهلاء غير جديرين بمعرفة ما يفعله سيدهم، وقد فعلت هذا لتكتسب محبة الدهماء من الناس، فأعلنت أن الأساقفة لا يعرفون شيئا وأنك تعرف كل شىء، ولكن إذا كنت قد أوتيت فعلا ذلك القدر من الذكاء فإنك تعمل على استغلاله فى الهدم وليس فى البناء، ولهذا نعتقد أن القديس جريجورى - الذى انتحلت اسمه - إنما كان يعنيك عندما قال «إن قلب الأسقف يتضخم ويكبر بكثرة الرعايا، فيظن نفسه أقوى من جميع الناس». وقد تحملنا كل هذا منك بسبب إجلالنا للوظيفة البابوية ولكنك أخطأت فاعتقدت أن تواضعنا خوف منك، وتجاسرت على مهاجمة نفوذها الملكى والإمبراطورى الذى تلقيناه من الرب مباشرة، بل لقد هددت بحرماننا من نفوذنا الإمبراطورى كما لو كنا قد تسلمنا ذلك السلطان منك وليس من الرب، وكما لو كانت الإمبراطورية والمملكة تحت تصرفك وملك إرادتك لا تصرف إرادة الرب، إن سيدنا يسوع المسيح دعانا لتولى حكم الإمبراطورية ولكنه لم يدعك مطلقا لحكم الكنيسة.

أمّا الطريق الذى سلكته أنت لتحقيق مكاسبك الكنسية فهو كما يلى: فأنت عن طريق الخداع حصلت على المال وعن طريق المال حصلت على الأتباع، وعن طريق الأتباع حققت قوة السيف، وعن طريق قوة السيف حققت وصولك وبقاءك فى الكرسى البابوى، وهو المفروض فيه أن يكون كرسى السلام ولكنك من كرسى السلام طردت السلام!!.

ذلك أنك حرضت الرعايا على التمرد ضدّ أساقفتهم وهم رؤساؤهم الشرعيون، وذلك بعد أن علمتهم كيف يحتقرون أساقفتهم وأعطيت العلمانيين سلطانا فوق قساوستهم ممّا جعل العلمانيين يسيئون إلى القساوسة ويعزلونهم بينما عين الأساقفة أولئك القساوسة فى مناصبهم ليرعوا الناس ويعلموهم. ثمّ إنك هاجمتنى ، وأنا الرجل المتواضع الذى باركه الرب ليحكم، ووفقا لتعاليم الآباء لايمتلك أحد سوى الرب سلطة محاكمتى، ولا يمكن أن أعزل من منصبى إلا لجريمة الخيانة والكفر، ذلك أن الآباء القديسين لم يجرؤوا على إصدار حكم العزل على الإمبراطور جوليان المرتد وتركوه ليحاسبه الرب، والقديس بطرس نفسه قال: «خافوا الله، اكرموا الملك»[١] .

ولكنك يا من لاتخشى الرب لم تكرمنى، أنا الذى عينه الرب. والقديس بولس الذى أنزل اللعنة حتّى بملاك من السماء مادام يأتى بتعاليم غير التعاليم الصحيحة، لم يستثن مثلك ليسمح لك بتلقين تعاليم خاطئة، ذلك أن القديس بولس يقول: «ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما»[٢] .

اترك إذا ذلك الكرسى الرسولى الذى توصلت إليه عن طريق العنف لأنك ملعون من القديس بولس بسبب مبادئك الكاذبة ونحن وأساقفتنا ندينك بسبب حكمك المليء بالشرور، وليحل محلك فى كرسى القديس بطرس رجل آخر، رجل لايستغل الدين ستارا للعنف وإنما يقوم بتلقين تعاليم بطرس، أمير الرسل، إننى ـ أنا هنرى الملك بفضل الله ـ ومعى جميع الأساقفة، أقولها لك «انزل، اترك منصبك، ملعونا إلى الأبد».

---

(١) رسالة بطرس الأولى (٢، ١٧).
(٢) رسالة بولس إلى أهل غلاطية (١، ٨).

٩ - الإرادة البابوية (حوالى سنة ١٠٩٠م)

كان المظنون حتّى وقت قريب أن البابا جريجورى السابع هو الذى كتب أو أملى ما يعرف باسم الأوامر البابوية أو الإرادة البابوية؛ وهى مجموعة آراء ونظريات قصد بها إظهار سمو البابوية وعظم مكانتها وسلطانها ، ولكن ثبت أخيرا أن ما تحتويه هذه الوثيقة من مواد لم يكتبها البابا جريجورى السابع بنفسه وإنما نسبت إليه، ومهما يكن من أمر فهى تعبر تعبيرا صادقا عن آراء ذلك البابا، بل أنها مستمدة من مبادئه وأقواله، وفيما يلى بعض فقرات مختارة من تلك الوثيقة المعروفة باسم الإرادة البابوية.

* * *

١ - الرب وحده هو الذى أسس الكنيسة الرومانية.

٢ - سلطة البابا وحده هى التى تسمى بحق «سلطة عالمية».

٣ - البابا وحده له الحق فى تعيين الأساقفة أو عزلهم.

٤ - يتولى مندوب البابا - حتّي ولو كانت مرتبته الكنسية صغيرة - رئاسة الأساقفة فى أى مجمع، وله سلطة إصدار الأحكام بعزلهم.

٥ - للبابا الحق فى إصدار أحكام غيابية بعزل الأساقفة.

٦ - لاينبغى لشخص أن يعاشر أو يجاور فى سكن واحد فردا أصدر البابا ضدّه قرار الحرمان.

٧ - للبابا وحده الحق فى إصدار قوانين جديدة وفقا لما تمليه الظروف وتتطلبه الضرورة، وله كذلك الحق فى إنشاء أسقفيات جديدة، وفى إنشاء دير، وإصدار قوانين كنسية، وله الحق فى تفتيت أسقفية كبيرة وتقسيمها إلى أكثر من واحدة، وبالعكس له الحق فى توحيد عدة أسقفيات صغيرة فقيرة ليجعل منها أسقفية غنية كبيرة.

٨ - للبابا وحده الحق فى استعمال الشعار الإمبراطورى.

٩ - جميع الأمراء والحكام العلمانيين عليهم أن يُقبلوا قدم البابا وحده.

١٠ - لايذكر فى الكنائس إلا اسم البابا وحده.

١١ - أن لقب البابوية خاص بالبابا وحده.

١٢ – البابا له السلطة فى عزل الأباطرة.

١٣ – للبابا الحق - فى حالة الضرورة - فى نقل الأساقفة من كرسى أسقفى إلى آخر.

١٤ – للبابا الحق فى ترسيم أى فرد فى أى قسم من أقسام الكنيسة ليجعل منه أسقفا.

١٥ – أى شخص يرسمه البابا أسقفا له الحق فى السيطرة على كنيسة أخرى دون أن يباشر عمله كقسيس فيها، ولايجوز لهذا الفرد أن يرقيه أسقف آخر إلى درجة أعلى.

١٦ – لايجوز الدعوة لعقد مجمع دينى عام دون إذن من البابا.

١٧ – لا تصبح قرارات أى مجمع دينى قانونية دون تصديق البابا عليها.

١٨ – القرارات التى يصدرها البابا لايمكن لأى فرد إلغاؤها، فى حين يستطيع البابا إلغاء القرارات التى يصدرها أى فرد آخر.

١٩ – لايستطيع أى إنسان أن يحاكم البابا.

٢٠ – لايجوز الاعتداء على أى فرد يحتمى بالكرسى البابوى.

٢١ – جميع القضايا المهمة الخاصة بأية كنيسة تُحول للكنيسة الرومانية ليفصل فيها البابا.

٢٢ – الكنيسة الرومانية لم تخطئ أبدا وذلك وفقا لما تثبته الأسفار المقدسة.

٢٣ – بعد أن يُرسم البابا ترسيما قانونيا تصبح له صفة مقدسة بوصفه خليفة القديس بطرس فى كنيسته.

٢٤ – للبابا أن يأذن لرعاياه أن يوجهوا الاتهامات لحكّامهم.

٢٥ – للبابا الحق فى عزل الأساقفة وإعادتهم إلى مناصبهم دون دعوة مجمع دينى لإقرار ذلك.

٢٦ – لايمكن اعتبار فرد ما كاثوليكيا إن لم يتفق فى آرائه ومبادئه مع الكنيسة الرومانية.

٢٧ – للبابا السلطة فى أن يجعل رعايا الحكام الفاسدين يتحللون من ولائهم لأولئك الحكام.

١٠ - البابا أنوسنت الثالث يأمر بعقاب الهراطقة

انتشرت الحركة الهرطقية فى أواخر القرن الحادى عشر فى جهات عديدة من أوربا وخاصة فى جنوب فرنسا، وفيما يلى رسالة أرسلها البابا أنوسنت الثالث سنة ١١٠٨ إلى أحد رؤساء أساقفة جاسكونى يأمره بمقاومة الهراطقة ومحاربتهم حرصاً على وحدة الكنيسة الغربية.

* * *

تتعرض سفينةالقديس بطرس الصغيرة لكثير من العواصف التى تتقاذفها فى عرض البحر، ولكن ما يثير حزننا وأسفنا حقا هو أن يظهر اليوم بين صفوف الكنيسة أفراد ينادون بآراء شيطانية هدّامة منافية لتعاليم الكنيسة والدين، ويحاولون بهذه الآراء تسميم البسطاء من الناس وإفساد نفوسهم.

ذلك أن أولئك الأفراد يحولون بما ينشرونه من بدع وخرافات دون فهم معانى الأسفار المقدسة على حقيقتها فضلاً عن أنهم بعملهم هذا يحطمون وحدة الكنيسة الكاثوليكية.

ولما كان قد بلغنا منك ومن كثيرين أن هذه الآراء الهدّامة تزداد نموا فى جاسكونى وفى الأقاليم المجاورة، فإننا نطلب منك ومن الأساقفة التابعين لك مقاومتها بكل ما أوتيتهم من قوة، حيث إنه يخشى من تسمم آراء وعقول المخلصين نتيجة لانتشارها.

وعلى هذا الأساس، فإننا نأمرك بمقتضى رسالتنا الرسولية هذه أن تعمل على تدمير هذه الحركات الهرطقية بكل ما تستطيع من وسائل وأن تطرد من دائرة نفوذك الدينى كل من يعتنقها، ولك أن تستغل سلطاتك الكنسية بكل عنف وصرامة ضدهم وضدّ كل من تشك فى انتمائه إليهم - وإذا استدعى الأمر - لك أن تطلب من الأمراء وعامة الناس إخضاعهم بالسيف.

١١ - بعثة القديس أوغسطين التبشيرية
إلى إنجلترا

عُرف البابا جريجورى الأول أو العظيم بنشاطه التبشيرى الواسع لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية، وكانت البعثة التى أرسلها البابا برئاسة القديس أوغسطين إلى إنجلترا سنة ٥٩٦ تقريبا من أهم الأحداث فى تاريخ إنجلترا وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية؛ لأن هذه البعثة نجحت فى جذب إنجلترا إلى داخل حظيرة الكنيسة الرومانية.

وقد كتب لنا هذا الوصف لبعثة القديس أوغسطين إلى إنجلترا القديس بدى (٦٧٣ - ٧٣٥) أحد المؤرخين الديرين وكان مقدما على دير جارو فى الشطر الأخير فى حياته.

* * *

قرر البابا جريجورى أن يرسل الفقير إلى الله أوغسطين ومعه مجموعة من الرهبان الورعين إلى إنجلترا للتبشير بكلمة الرب.

وهكذا وصل أوغسطين إلى بريطانيا ومعه مجموعة من خدام الرب، وفى ذلك الوقت كان أثلبرت ملكا على كنت. وهو ملك قوى استطاع أن يمد حدود مملكته حتّى نهر همبر، وهو النهر الذى يفصل بين الإنجليز فى الشمال والجنوب، وعلى الشاطئ الشرقى لمملكة كنت توجد جزيرة صغيرة تتسع لنحو ستمائة أسرة، وتعرف باسم جزيرة ثانت، وكان أن أرسى هناك أوغسطين ومعه أتباعه البالغ عددهم أربعين، فضلا عن بعض الفرنجة الذين أشار البابا باصطحابهم ليقوموا بدور المترجمين.

وما كاد أوغسطين ورفاقه يصلون إلى الشاطئ حتى أرسلوا رسالة إلى أثلبرت يذكرون فيها أنهم قادمون من روما يحملون رسالة طيبة سامية تضمن لمن يطيعهم سعادة أبدية فى السماء ومملكة لا حدود لها فى السماء إلى جوار الرب الحى القيوم، وكان أن ردّ عليهم الملك أثلبرت يأمرهم بالبقاء حيث هم، على أن يزودوا بالطعام حتى يقرر أمرا بشأنهم.

ذلك أن الملك أثلبرت كانت له دراية سابقة بالمسيحية وكانت زوجته برتا - وهى من البيت المالك فى دولة الفرنجة - مسيحية، وقد وافقت أسرتها على زواجها من

أثلبرت بشرط أن تبقى على ولائها لديانتها، ولضمان ذلك أرسلوا صحبتها أسقفا اسمه ليودهارد.

ومهما يكن من أمر، فقد حضر الملك إلى جزيرة ثانت بعد أيام، ليستدعى أوغسطين، ورفاقه لمقابلته، وكان أن أمرهم الملك بالجلوس بين يديه، حيث أخذ يستمع - ومعه رفاقه - إلى مواعظهم وأحاديثهم التبشيرية، وعند فراغهم من حديثهم، قال لهم الملك:

«إن كلامكم جميل حقا. وكذلك وعودكم، ولكن لما كانت آراؤكم جديدة لم يسبق تجربتها، فإننا لا أستطيع قبولها وترك المبادئ التى أعتنقها - أنا وجميع أبناء البلاد - أمدا طويلا. ولكن لما كنتم أغرابا، ووفدتم علينا من بلاد بعيدة، ولما كنت أرى أنكم تودون مشاركتنا تلك الحياة التى تعتقدون فى صلاحها وصدقها، فإننى لن أعارضكم أو أقف فى سبيلكم، بل على العكس سأشملكم بفيض كرمى وأمدكم بما يلزمكم من ضروريات الحياة، ولكم الحرية أيضًا فى مباشرة الوعظ والتبشير وتحويل كل من تستطيعون تحويله إلى دينكم».

ثمّ أنعم عليهم الملك أثلبرت بمأوى يكون مقرا لهم فى المدينة الرئيسية داخل مملكته، وهى كانتربورى.

١٢ - موقعة مانزكرت (٢٦ أغسطس ١٠٧١)

كان رومانوس الرابع ـ إمبراطور الدولة البيزنطية (١٠٦٧ - ١٠٧١) رجلا مخلصا نشيطا شجاعا، بذل جهودا كبيرة فى إصلاح الأوضاع الداخلية فى دولته، وفى تنظيم الجيش البيزنطى وفى الدفاع عن أراضى الإمبراطورية فى آسيا الصغرى، وهى الأراضى التى تعرضت فى القرن الحادى عشر لهجمات السلاجقة، ولكن شاءت الظروف أن يصاب الإمبراطور رومانوس بكارثة حربية عند اصطدامه بالسلاجقة تحت قيادة ألب أرسلان فى موقعة مانزكرت أو ملازكرد فى شرق آسيا الصغرى ـ شمالى بحيرة فان ـ سنة ١٠٧١ . وفى تلك الموقعة تحطم جيش الإمبراطور، ووقع رومانوس الرابع نفسه أسيرا فى قبضة السلاجقة الذين لم يطلقوا سراحه إلا بشروط قاسية .

وفى الوثيقة التالية يصف لنا ميخائيل بسلوس، وهو كاتب بيزنطى معاصر شهير، تولى مناصب كبيرة فى بلاط القسطنطينية، الكارثة التى حلت بالإمبراطور وجيشه، فى مانزكرت.

* * *

خرج الإمبراطور رومانوس الرابع للقيام بحملته الثالثة والأخيرة ضدّ البرابرة (السلاجقة) الذين اشتدّ عداؤهم للإمبراطورية، فغادر العاصمة تصحبه فرق مساعدة كثيرة من الحلفاء وغيرهم، أكثر ممّا كان فى المرات السابقة.

وكان أن أسرع الإمبراطور إلى قيصرية بطريقته المعهودة التى تنطوى على عدم الإصغاء إلى النصيحة والاستخفاف بأمر الناصحين، وعند وصوله إلى قيصرية أحجم عن التقدم وأخذ يتلمس المعاذير للعودة إلى القسطنطينية، وكان المفروض عندما خشى عاقبة التراجع أن يحاول الوصول إلى اتفاق مع السلاجقة ليضع حداً لإغاراتهم السنوية على أراضى الإمبراطورية، ولكنه بدلا من ذلك انساق وراء الغرور وتقدم لمهاجمة العدو دون أن يعمل حسابا لحماية مؤخرة جيشه، ولما رأى الأعداء اندفاعه، رسموا خطة لخديعته والإيقاع به فى شرك. وكان أن تقدم الأعداء تجاهه، ثمّ تظاهروا بالهزيمة والتراجع وأجروا هذه المناورة عدة مرات تمكنوا خلالها من أسر بعض قادة جيشنا.

وفى تلك الأثناء أخذ القلق ينتابنى، على الرغم من أن سلطان السلاجقة نفسه لم يكن على رأس جيش الأعداء، وإنما أحرز معظم تلك الانتصارات قادة جيشه، أمّا الإمبراطور رومانوس الرابع فقد رفض أن يستجيب للنصح، وكان فى قرارة نفسه لايجنح للسلم، وإنما ظنّ أنه يستطيع أن يقضى على جيش العدو فى سهولة ودون الالتحام منه فى معركة، وشاء سوء حظه وعدم درايته بفن الحرب أن يوزع قواته، فلم يحمل العبء سوى أقل من نصف القوة فى حين أحاطت بعض الفرق بشخصه أو تبعثرت فى الأماكن القريبة.

وعلى الرغم من أننى لا أستطيع أن أمتدح مسلك رومانوس الرابع فى الأدوار التالية، إلا أنه لايمكننى أن أذمه أو ألومه. فالحق يقال إنه تحمل بنفسه مرارة الصدمة وخطورتها، ويفسر سلوك رومانوس الرابع تفسيرين، وإن كانت وجهة نظرى تشير إلى رأى وسط بين هذين الرأيين، فإذا فسرنا سلوك رومانوس الرابع فى ضوء أنه بطل يواجه الأخطار فى شجاعة ويقاتل للتغلب عليها، فإنه يجب علينا امتداحه فى هذه الحالة، أمّا إذا تذكرنا أن قواعد الحرب تحتم على القائد إلا يلقى بنفسه فى الصفوف الأمامية وأن يظل بعيدا عن خط المعركة يوجه جنوده ويلاحظ سير المعركة، فإنه يجب فى هذه الحالة أن نلوم رومانوس الرابع؛ لأنه عرض نفسه للخطر دون إدراك لما يترتب على ذلك، أما أنا فأميل شخصيا إلى امتداح سلوك رومانوس أكثر من لومه.

ومهما يكن من أمر، فإن رومانوس الرابع ارتدى عدة الحرب كاملة مثلما يفعل أى جندى عادى، واستل سيفه لمنازلة الأعداء وقد بلغنى من أكثر من مصدر أنه استطاع أن يقتل كثيرا من الأعداء، كما حمل كثيرين على الفرار، ولكن حدث بعد ذلك أن أدرك أعداؤه حقيقة شخصه ، فأحاطوا به من جميع الجهات وكان ذلك مما أدى إلى جرحه وسقوطه عن فرسه، وكان أن قبضوا عليه وسيق إمبراطور الرومان أسيرا، فى حين تبعثر جيشه، ولم يستطع الفرار من جيش الإمبراطور سوى النذر اليسير، فى حين انتهى أمر غالبية الجيش إلى الأسر أو القتل، وبعد المعركة بأيام قليلة وصل أحد أولئك الذين استطاعوا الفرار يحمل إلى العاصمة أنباء تلك الكارثة، ثم تبعه ثان وثالث، وعندئذ تأكد الخبر، وقد ذكر بعضهم أن الإمبراطور رومانوس قُتل فى حين قال البعض الآخر إنه أُسر وأنهم رأوه بأعينهم يقاد مكبلا بالأغلال إلى معسكر العدو، وبناء على هذه الأخبار عقد مجلس فى القسطنطينية وبحثت الإمبراطورة

الخطوة التالية الواجب اتخاذها، فاستقر رأى المجلس على أنه بصرف النظر عن كون الإمبراطور قتيلا أو أسيرا، فإن الإمبراطورة أندوكيا عليها أن تنهض - هى وابنها - بشئون الحكم فى الإمبراطورية.

أمّا قائد جيش السلاجقة، فبدلا من أن يركن إلى الغرور ويبالغ فى الطرب والسرور لوقوع الإمبراطور الرومانى أسيرا فى قبضته غلب عليه التواضع واحتفل بانتصاره احتفالا يفوق كل ما كان متوقعا من ناحية الاعتدال، ولم يلبث قائد الأعداء أن واسى الإمبراطور الأسير، ودعاه إلى مشاركته الطعام، وعامله كضيف جدير بالتكريم، وخصص له هيئة تتولى حراسته وفك أغلال بعض رفاقه ممّن عينهم بالذات، وأخيرا فإن قائد السلاجقة أطلق سراح رومانوس نفسه، وبعد أن عقد معه معاهدة صداقة وأخذ منه أيمانا بالولاء له، حرره وسمح له بالعودة إلى بلاده محاطا بكل ما يطمع فيه أى إنسان من رعاية وحراسة.

١٣ - العهد الأعظم

العهد الأعظم هو العهد الذى أصدره الملك حنا سنة ١٢١٥ لمنح الشعب الإنجليزى مزيدا من الحقوق والحريات، وقد بالغ كثيرون فى أهمية العهد الأعظم، حتى لقد قال ستويز إن التطور الدستورى لإنجلترا اعتمد تماما على ذلك العهد. ولكن الآراء الحديثة تتجه إلى عدم اعتبار العهد الأعظم وثيقة جديدة فى موضوعها، وإذا كان هناك فارق بينه وبين العهود الأخرى التى منحها الملوك النورمان لشعب إنجلترا فإن هذا الفارق ليس فى النوع وإنما فى مقدار الحريات التى نص عليها. وفيما يلى أهم فقرات العهد الأعظم:

* * *

من حنا الذى هو بفضل الرب ملك إنجلترا وأمير أيرلندا ودوق نورمنديا واكويتين وكونت أنجو.. إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة والأمراء والبارونات والنواب والخبراء وغيرهم من رعاياه جميعا.. نحييكم ونصدر مرسومنا الآتى بإرادة الرب وبدافع السلامة لأرواحنا وأرواح أسلافنا وحلفائنا، ومن أجل الرب وتشريف الكنيسة المقدسة وتحسين أحوال مملكتنا، وبعد استشارة الآباء الأماجد ستفن رئيس أساقفة كانتربورى،، وهنرى رئيس أساقفة دبلن وغيرهم من رعايانا المخلصين:

١ - أولا: وقبل أى شيء آخر - نؤكد فى عهدنا هذا حرية الكنيسة الإنجليزية وعدم المساس بحقوقها أو التدخل فى شئونها.

٢ - إذا توفى أيرل أو بارون أو أى فرد آخر وكان فى حوزته إقطاع أخذه منا مقابل خدمة عسكرية، وكان له عند وفاته وريث بالغ، فإن من حق هذا الوريث أن يرثه فى إقطاعه مقابل دفع ضريبة الحلوان المستحقة عليه.

٣ - ولكن إذا كان الوريث السابق دون سن البلوغ وتحت الوصاية فإنه يتسلم تركته - عند بلوغه - دون دفع ضريبة ما.

٤ - فى الحالة السابقة يحرص الوصى على أراضى وممتلكات وحقوق الوريث القاصر على عدم المساس بها، ولا يأخذ عن مهمته أجرا سوى القدر المعقول..

٥ - يحافظ الوصى على ما فوق أرض الوريث حتّى بلوغه من متعلقات.

٦ - لوريث الإقطاعى أن يتزوج دون معارضة، وكل ما هنالك هو أنه قبل عقد القران يجب عليه أن يعلن زواجه لأقاربه الذين تربطهم به رابطة الدم.

٧ - الأرمل التى يموت زوجها تأخذ فورا صداقها وميراثها دون أى مقابل ودون أية صعوبة، ولها أن تظل فى منزل زوجها الراحل أربعين يوما يتم خلالها تسليمها حقوقها وهدية زواجها.

٨ - لاترغم أرمل على الزواج إذا اختارت حياة العزوبة، فإذا كان الإقطاع ممنوحا منّا فإننا نضمن لها عدم الزواج دون موافقتنا، أما إذا كان الإقطاع ممنوحا من سيد آخر فإننا نضمن لها عدم الزواج دون موافقة السيد الذى منح الإقطاع.

٩ - لن نستولى - نحن أو موظفونا - على إيراد فرد مدين طالما أن منقولات ذلك الفرد تكفى لسداد الدين، ولايجوز الحجز على الضامن طالما أن المدين لديه ما يكفى للوفاء بالدين، فإذا عجز المدين عن الوفاء بالدين، فإنه يجوز فى هذه الحالة مطالبة الضامن.

١٠ - إذا اقترض فرد مبلغا - كبيرا أو صغيرا - من المرابين اليهود، ومات قبل سداد الدين، فإن الدين لا تستحق عنه فائدة ما طالما كان وريث المدين قاصرا..

١١ - وإذا توفى شخص وفى ذمته دين للمرابين اليهود، فإن زوجة المتوفى لاتلتزم بسداد الدين وتأخذ صداقها من تركة المتوفى قبل سداد الدين.

١٢ - لا تفرض ضرائب جديدة فى مملكتنا إلا بموافقة المجلس العام للمملكة إلا بقصد فدائنا من الأسر أو تدشين أكبر أبنائنا فارسا أو بمناسبة زواج كبرى بناتنا، وفى هذه الحالات فقط تجمع ضرائب معقولة معتدلة، ومثل هذا يطبق على ما تختص بضرائب مدينة لندن.

١٣ - تتمتع مدينة لندن بجميع حرياتها وإعفاءاتها الجمركية القديمة سواء من ناحيتى البر والبحر، وكذلك الحال بالنسبة لبقية المدن والموانئ.

١٤ - يعقد المجلس العام للمملكة بقصد البت فى فرض ضريبة لغرض من الأغراض السابقة، ونتعهد بإرسال خطابات مختومة بخاتمنا إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ومقدمى الأديرة، والإيرالات وكبار البارونات لدعوتهم فى يوم معين

ومكان محدد، بحيث تتم الدعوة قبل موعد الاجتماع بأربعين يوما على الأقل.. ويحدد فى خطابات الدعوة الغرض من الاجتماع..

١٥ – لن يسمح منذ الآن فصاعدا لأى فرد بأن يجمع ضريبة من أتباعه الأحرار، إلا بقصد فداه من الأسر أو بمناسبة تدشين أكبر أبنائه فارسا أو زواج كبرى بناته.. وفى هذه الحالات تكون الضريبة المطلوبة عادلة ومعقولة.

١٦ – لايجبر فارس على تأدية قدر من الخدمات الإقطاعية أكثر من الأصول المقررة.

١٧ – لاتتقيد المحاكم العامة بالمحكمة الملكية، وإنما تعقد فى أماكن أخرى محددة.

١٨ – نقوم نحن ـ أو كبير قضاتنا فى حالة غيابنا خارج المملكة ـ بإرسال اثنين من القضاة إلى كل مديرية أو مقاطعة أربع مرات سنويا، وهناك يعقدون ـ بالاشتراك مع أربعة فرسان يختارهم أهل المقاطعة من أبنائها ـ محكمة استئناف بالمقاطعة، وفى اليوم نفسه، والمكان اللذين تعقد فيهما محكمة المقاطعة الابتدائية.

٢٠ – إذا أذنب رجل حر فإنه يعاقب بالغرامة عقوبة تتناسب مع ذنبه، بشرط عدم المساس ببيته أو بتجارته إذا كان تاجرا، وفى جميع الحالات لا توقع الغرامات السابقة إلا بعد سماع شهادة شهود مجاورين يعتد بقسمهم.

٢١ – أمّا النبلاء والبارونات فلا توقع عليهم عقوبات بالغرامة إلا عن طريق محاكم من أقرانهم.

٢٣ – لا تجبر مدينة ولا يجبر رجل على العمل عن طريق السخرة فى بناء جسر فوق نهر.

٢٧ – إذ توفى رجل حر دون وصية فإن منقولاته توزع بين أقاربه وأهله أو أصدقائه وفقا لما تراه الكنيسة، باستثناء أى شخص يكون دائنا للمتوفى فإنه يأخذ دينه أولا.

٢٨ – لايجوز لموظف عمومى من رجال الضبط والأمن، وغير ذلك، أن يستولى على غلال أو منقولات أى فرد دون مقابل أو ثمن أو على غير رغبة المالك.

٣٠ - لايجوز لموظف أو حاكم من موظفينا أن يستولى على حصان أو عربة من أى فرد حر لاستعمالها فى النقل دون رغبة صاحبها.

٣٩ - لايجوز القبض على رجل حر أو سجنه أو طرده من القانون أو نفيه أو إنزال أى أذى به أو استدعاؤه إلا بعد محاكمة قانونية من أنداده أو طبقا لقانون البلاد.

٤٠ - نتعهد بألا نبيع حقا من الحقوق المتعلقة بالعدالة أو نحرم أحدا منها أو نماطل فيها.

٤١ - جميع التجار لهم الحرية التامة فى دخول إنجلترا والخروج منها والتجول بين أنحائها فى أمن وسلام، وذلك بقصد البيع والشراء، مع إعفائهم من جميع الضرائب غير القانونية.

٤٥ - نتعهد بألا نعين فى وظائف قضاة أو حكام أو رجال شرطة وأمن أو نواب إلا من له معرفة ودراية بالقانون مع تنبيههم إلى مراعاة القانون دائماً.

٥٢ - إذا جرد شخص من ممتلكاته أو أبعد عن أرضه أو حصنه دون محاكمة قانونية أمام أقرانه، فإننا سنأمر فورا بإعادة أملاكه إليه..

٦٣ - ستكون الكنيسة حرة تماما، وسيتمتع رعايانا بجميع الحقوق السابقة المنصوص عليها.. وقد أقسمنا على ذلك كما أقسم البارونات..

١٤ - قرار الحرمان ضدّ فردريك الثانى

سنة ١٢٣٩

حدث أثناء النزاع بين الإمبراطور فردريك الثانى والمدن اللمباردية أن استطاع الإمبراطور إنزال الهزيمة بقوات الحلف اللمباردى قرب ميلان سنة ١٢٣٧، وقد فزعت البابوية نتيجة لما يترتب على ذلك من ازدياد نفوذ الإمبراطور فى شمال إيطاليا، ممّا يهدد البابوية ومصالحها تهديدا خطيرا؛ لذلك أصدر البابا جريجورى التاسع قرا ر الحرمان ضدّ الإمبراطور سنة ١٢٣٩، وفيما يلى نص القرار:

* * *

١ - باسم الآب والابن والروح القدس، والرسولين المباركين بطرس وبولس، وما خولناه نحن من سلطة ونفوذ، نصدر قرار الحرمان واللعنة على فردريك الذى يدعى إمبراطورا؛ لأنه أشعل الفتنة فى روما ضدّ كنيستها بقصد طرد البابا وإخوته الكرادلة من كرسى الرسول بطرس، وبذلك أضرّ بمكانة الكرسى الرسولى وهيبته، وأساء إلى حرية الكنيسة، وأخل باليمين التى أقسمها للكنيسة.

٢ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه أمر أتباعه بمنع أخينا الموقر أسقف برنست - مندوبنا الشرعى - من السفر فى مهمته إلى الألبيجنسيين(١)، وهى المهمة التى أوفدناه فيها من أجل صالح الكنيسة الكاثوليكية وبقائها.

٣ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون شغل الأسقفيات الشاغرة، وبذلك يعرض حرية الكنيسة للخطر ويدمر العقيدة الخالصة؛ لأنه فى غياب الراعى لايوجد من يوجه الناس لذكر الرب أو العناية بأرواحهم.

٤ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأن رجال الكنيسة فى مملكته يتعرضون للحبس والتجريد والذبح، كما تتعرض كنائس الرب للنهب والتدنيس والانتهاك.

٥ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه لم يسمح بإعادة بناء كنيسة سورانا.

٦ - ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه قبض على ابن أخ ملك تونس ولم يسمح له بالحضور إلى روما لينصر فى كنيستها.

---

(١) فريق من الهراطقة فى جنوب فرنسا.

٧ – ونوقع عليه قرارالحرمان واللعنة لأنه سجن بطرس ساراكينو، وهو نبيل رومانى أرسله ملك إنجلترا مبعوثاً إلينا.

٨ – نوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه استولى على أراضى كنائس فرارا وبيجوجنا وبونديوم، وأراضى أسقفيات فرارا وبونديوم ولوكا فضلا عن أراضى سردينية، وذلك خلافا لليمين التى أقسمها للكنيسة.

٩ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه احتل وأتلف أراضى بعض الأمراء فى مملكته، وكانت هذه الأراضى قد آلت إلى الكنيسة.

١٠ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه نهب كنائس مونريال وكفالو، وقطانيا، وسكويلاس، وأديرة ميليتو، وسانت ايوفميا، وتراجيور، وسان جيوفانى فى لاماى.

١١ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه نهب كثيرا من الأسقفيات والكنائس والأديرة فى مملكته وجردها من كل ما كان فيها من متاع وذلك بعد عمل محاكمات شكلية غير عادلة.

١٢ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه لم يعد إلى الداوية والاسبتارية الممتلكات التى نهبهم إياها ، بعد أن تعهد بذلك فى اتفاقية الصلح (صلح سان جرمانو ١٢٣٠).

١٣ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه جمع ضرائب وأموالاً من الكنائس والأديرة فى مملكته مخالفا بذلك اتفاقية الصلح.

١٤ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه فرض على رهبان ومقدمى أديرة السسترشيان ـ وغيرها من المنظمات الديرية ـ ضرائب شهرية يستغل حصيلتها فى بناء قلاع وحصون جديدة.

١٥ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه عامل بعض أتباع البابا وأنصاره كما لو كانوا ملعونين مشلوحين من الكنيسة، فصادر ممتلكاتهم ونفاهم وحبس زوجاتهم وأولادهم، مخالفا بذلك اتفاقية الصلح.

١٦ – ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون استرداد الأرض المقدسة وأرض الإمبراطورية الرومانية.

* * *

بناء على هذا كله، وتنفيذا لهذا القرار، نأمر جميع رعاياه من التحلل من يمين الولاء الذى أقسموه له ونمنعهم من طاعته طالما هو تحت عقوبة الحرمان، كما أننا نحذره وننصحه ليقلع عن إيذاء الأمراء، والنبلاء، والفقراء، والأرامل واليتامى فى مملكته.

ونحن نوقع ضده قرار الحرمان واللعنة بسبب كل ذنب من الذنوب السابقة التى عددناها، أمًا بخصوص اتهامه بالهرطقة - وهى التهمة المنسوبة إلى فردريك - فسنتخذ إجراء بشأنها فى المكان المناسب والزمان المناسب.

١٥ - براءة بابوية بإنشاء جامعة فى أفينون
سنة ١٣٠٣

ظلّ من المعتقد أمدا طويلا فى العصور الوسطى أنه من حق البابوية وحدها إنشاء جامعة، وفيما يلى براءة أصدرها البابا بونيفيس الثامن قبل الأسر البابلى بسنتين لإنشاء جامعة فى أفينون، وترجع أهمية هذه البراءة إلى ما تحويه من معلومات طريفة عن نظم الامتحانات فى الحياة الجامعية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، وخاصة منح درجة الأستاذية.

* * *

هناك عدة أسباب تجمعت لتضفى على مدينة أفينون مجدا وسموا ومكانة تهيئها لأن تصبح مقرا لجامعة ، ولما كنا نعتقد أن الصالح العام يتطلب جذب رجال العلم إلى هذه المدينة حتّى تثمر جهودهم فى المستقبل، فإننا نسمح بمقتضى هذه البراءة بإنشاء جامعة فى أفينون، يقوم فيها الأساتذة بالتدريس، ويتمتع طلاب العلم بحرية تامة فى اختيار الكليات والمحاضرات التى يرغبون فيها.

وعندما يصل الطلاب الدارسون إلى مستوى عال من المعرفة، ويطلبون الترخيص لهم بالتدريس، فإننا نرى أن يؤدوا امتحانا فى القانون الكنسى والقانون المدنى، والطب، والفنون الحرة، ومن يجتاز الامتحان المذكور يُكرم بمنحه لقب الأستاذية فى الكلية التى تخصص فيها من الكليات السابقة. وكل من يتأهل للحصول على هذه الدرجة عليه أن يتقدم لأسقف أفينون الذى يقوم بدعوة أساتذة الكلية المختصة، ويؤدى الطالب الامتحان دون دفع أى رسوم، لاكتشاف مقدرته فى العلم والفصاحة والإلقاء، وغيرها من فروع المعرفة المطلوب توافرها فيمن يرشح لدرجة أستاذ أو دكتور، وبعد أن يقوم أساتذة الكلية بامتحان الطالب، يسألهم الأسقف عن مستواه وعما إذا كان يستحق الحصول على الدرجة المطلوبة، وعندئذ يدلى الأساتذة برأيهم، ويظل هذا الرأى سريا لا يجوز للأسقف أن يبوح به، حتى لا يعرف الطالب من أجازه ومن امتنع عن إجازته من الأساتذة، وأخيرا يقوم الأسقف بالترخيص بالتدريس لمن يراه صالحا ولا يرخص لغير الصالحين ، دون أن يخشى لومة لائم، فإذا كانت أسقفية أفينون شاغرة، فإن نائب الأسقف أو كيل الأسقفية يقوم بما هو مطلوب من الأسقف القيام به.

وكل من يمتحن ويجتاز الامتحان فى أفينون ويتسلم إجازة التدريس يتمتع بحقه كاملا فى التدريس فى أى مكان آخر فى فرع التخصص الذى أجيز فيه دون أن يطالب بتأدية امتحان آخر فى الجهة التى يرغب فى التدريس فيها.

وحتّى يتسنى عقد هذه الامتحانات على الوجه الأكمل، فإننا نأمر بأن يؤدى الأساتذة الذين يرغبون فى التدريس فى جامعة أفينون، قسما عاما - وذلك قبل قيامهم بالعمل يتعهدون فيه بالحضور بأنفسهم إذا دعوا إلى هذه الامتحانات ، وأن يصدروا حكمهم على الطلبة المتقدمين للامتحان فى صراحة وأمانة تامة، حتى يجيز الأسقف الصالحين ولا يجيز غيرهم، وكل من يرفض من الأساتذة أداء ذلك القسم لا يسمح له بالتدريس فى الجامعة أو حضور امتحاناتها أو المشاركة فى مزايا الجامعة.

وحتى يتمكن الأساتذة والطلاب من الانصراف فى هدوء وطمأنينة لأداء واجباتهم، والتقدم بمستوى الدراسات التى يخصصون أنفسهم من أجلها، فإننا نقرر منح الأساتذة والطلاب جميع الحقوق والامتيازات والحريات والإعفاءات التى يتمتع بها نظراؤهم فى الجامعات الأخرى.

١٦ - المرسوم الذهبى الذى أصدره
شارل الرابع سنة ١٣٥٦

كان المرسوم الذهبى بمثابة دستور حاول فيه شارل الرابع بيان الحقوق والأوضاع الفعلية للأمراء، ولعله أدرك أن ألمانيا عندئذ لم تعد ملكية بقدر ما كانت تحالفا أو اتحادا بين الأمراء، وفيما يلى أهم الفقرات التى وردت فى هذا المرسوم:

* * *

الباب الثانى
طريقة انتخاب ملك الرومان (الإمبراطور)

١ - يقام قداس فى اليوم التالى لوصول الناخبين. ثمّ يؤدى رئيس أساقفة ميتز هذا القسم ليردده بعده بقية الناخبين.

٢ - «أقسم - أنا رئيس أساقفة ميتز - على الكتاب المقدس أمامى، وبحق إيمانى بالرب وولائى للإمبراطورية الرومانية، أن أدلى بصوتى فى هذا الانتخاب بمعونة الرب وبما يمليه ضميرى، لاختيار ملك الرومان وإمبراطور المستقبل، الذى أعتقد فى كونه الشخص الصالح لحكم الشعب المسيحى. وأتعهد بأن أدلى بصوتى حرا غير متأثر بأى حكم أو ثمن أورشوة أو وعد أو أى عامل آخر من هذا النوع مهما يكن اسمه. وعلى هذا الأساس أستمد العون من الرب ومن جميع القديسين».

٣ - وبعد أن يقسم الناخبون هذا القسم، يتقدمون للإدلاء بأصواتهم، بشرط ألا يبرحوا فرانكفورت إلا بعد أن يتم انتخاب ملك الرومان وإمبراطور المستقبل الذى يصبح حاكما على العالم وعلى الشعب المسيحى، فإذا لم يتوصلوا إلى اتفاق بشأن اختيار الملك فى مدى ثلاثين يوما من قسمهم السابق فإنهم لا يتناولون غذاء سوى الخبز والماء بحيث لا يبرحون المدينة دون انتخاب الملك المطلوب.

٤ - يكون هذا الانتخاب شرعيا ونهائيا كما لو كان جميع الأمراء قد أجمعوا على اختيار الشخص المنتخب، فإن عاق طارئ أحد الأمراء - أو ممثله - ووصل إلى مكان الانتخاب متأخرا ولكن قبل أن تتم عملية الانتخاب، فإنه يسمح له بمباشرة حقه فورا

فى المرحلة التى وصل عندها.

وبمجرد اختيار الملك يقوم وفقا للتقاليد القديمة السائدة بتأكيد جيع الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها الأمراء الناخبون ـ دينيين وعلمانيين ـ ، ويكون هذا التأكيد بمقتضى كتاب مختوم، على أن يجدد هذا التأكيد مرة أخرى بعد أن يتوج الملك إمبراطورا، ذلك أن من واجبه أن يقوم بذلك تلطفا وعن طيب خاطر وألا يحول بين الأمراء وبين التمتع بحقوقهم وامتيازاتهم.

٥ – فى حالة ما إذا ناب ثلاثة من الناخبين عن ناخب رابع غائب فإن صوته فى هذه الحالة يصبح شرعيا ونافذا، وذلك لحسم عملية الانتخاب.

الباب الرابع

مواضع مقاعد الأمراءالناخبين

١ – عند عقد مجلس الشورى أو أى اجتماع آخر يجتمع فيه ملك الرومان بالأمراء الناخبين، يكون ترتيب مقاعد الأمراء على الوجه التالى: على يمين الإمبراطور يجلس أولا رئيس أساقفة مينز أو كولونيا تبعا للإقليم الذى يعقد فيه الاجتماع، ثمّ يليه ملك بوهيميا لأنه أمير متوج، ثمّ كونت بلاتين الراين، وعلى يسار الإمبراطور يجلس رئيس أساقفة مينز أو كولونيا ثم دوق سكسونيا ثم أمير براندنبرج.

٢ – عندما يكون المنصب الإمبراطورى شاغرا، فإن رئيس أساقفة مينز يباشر سلطته القديمة فى دعوة بقية الناخبين لإجراء عملية الانتخاب ومن حقه أيضاً عند اجتماع الناخبين أن يجمع أصواتهم، فيأخذ صوت كل منهم على انفراد وفق الترتيب الموضح.

الباب التاسع

مناجم الذهب والفضة وغيرهما من المعادن

وقد رسمنا بمقتضى هذا المرسوم أن يتمتع ملك بوهيميا وبقية الأمراء الناخبين - دينيين وعلمانيين - بحق امتلاك واستغلال ما يكون فى أراضيهم وما يكتشف فيها مستقبلا من مناجم للذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص وغيرها من المعادن، فضلا عن الملح، هذا إلى أن لهم الحق فى فرض الضرائب على اليهود، وفى جمع الضرائب المقررة فعلا، وفى التمتع ببقية الحقوق التى تمتع بها أسلافهم أو المعترف بها اليوم.

الفصل العاشر

النقود

ونقر أيضاً أن يتمتع ملوك بوهيميا فى المستقبل بحق سك النقود الذهبية والفضية فى جميع أنحاء مملكتهم، وهو الحق الذى تمتع به ملوك بوهيميا السابقون من قبل.

٢ – كذلك نقر بأن يتمتع ملوك بوهيميا فى المستقبل بحق شراء وبيع الأراضى والقلاع وغيرها من الممتلكات أو الحصول عليها كهدايا من الأمراء.

٣ – ونقر أيضاً - بمقتضى هذا المرسوم - أن يمتد هذا الحق ليتمتع به بقية الأمراء الناخبين - دينيين وعلمانيين - ومن بعدهم ورثتهم الشرعيون بالشروط نفسها.

١٧ - قيام حلف الراين (١٢٥٤)

لمّا كانت التجارة - وهى الهدف الأول للمدن - لايمكن أن تنتعش إلا فى جو يسوده الأمن والسلام، فقد اتفقت مدن وادى الراين على إنشاء حلف فيما بينها بقصد حماية تجارتها، وذلك بعد أن ترك الإمبراطور فردريك الثانى ألمانيا وشأنها ووجه جهوده ونشاطه إلى ميدان إيطاليا وصقلية وفيما يلى، نص وثيقة قيام حلف الراين:

* * *

باسم الثالوث المقدس، اجتمع قضاة ومعاونو بلديات وجميع مواطنى مدن ميتز، وكولونيا، وورمز، وسبير، وستراسبورج، وبازل، وغيرها من المدن التى ارتبطت برباط حلف سلام مقدس، فى ظل ولائها للمسيح الذى نادى بالسلام والخلاص وتقرر ما يلى:

أولا: لوحظ أنه منذ أمد بعيد يتعرض عدد كبير من مواطنينا للأذى والضرر والهلاك بسبب ما يصادفونه من عنف وعدوان فى الطرق، الأمر الذى يعود بالخسارة والضرر لا عليهم فحسب بل أيضًا على غيرهم من الأبرياء دون ذنب جنوه؛ ولذلك نعتقد أن الوقت قد حان لتقرير وسيلة تضع حدا لذلك العنف وتعيد السلام إلى أراضينا جميعا بطرق سليمة عادلة.

ثانيا: لهذا نعلن على الملأ، أننا اتفقنا - بمعونة السيد المسيح - على القواعد الآتية لإقرار السلام والعدالة، فأقسمنا جميعا بالتعاون على إقرار السلام فيما بيننا لمدة عشر سنوات تبدأ من يوم ١٣ يوليو ١٩٥٤، وشاركنا فى هذا القسم رؤساء أساقفة ميتز وكولونيا وترير، وأساقفة ورمز وستراسبورج وميتز وبازل، فضلا عن كثير من كونتات ونبلاء البلاد التى شاركتنا فى هذا القسم، ووافقوا جميعا على إلغاء الضرائب غير العادلة التى كنا نفرضها على التجار المارين بالطرق البرية والنهرية، بحيث يتوقف جمع هذه الضرائب بعد ذلك.

ثالثا: ينفذ هذا العهد بحيث لا تستفيد منه القوى الكبيرة فحسب، وإنما تتمتع بالحماية أيضًا القوى الصغيرة فضلا عن الكبيرة، إلى جانب رجال الكنيسة والرهبان، والأهالى العلمانيين واليهود، بحيث يعيشون جميعا فى ظل سلام مقدس، فإذا أخلّ أحدهم بشروط هذا الاتفاق فإننا جميعا نقف ضده بكل قوانا حتى نضطره إلى الرجوع

عن موقفه وتقديم ترضية مناسبة.

رابعا: أمّا بخصوص المنازعات والخلافات القائمة اليوم بين بعض أعضاء هذا الحلف، أو التى ربما تنشأ بينهم فى المستقبل، فإنها تحل على الوجه الآتى: تختار كل مدينة أو كل حاكم أربعة من الرجال الموثوق فيهم، وتخولهم سلطة كاملة لحل الخلافات القائمة بطريقة سليمة أو قانونية.

١٨ - شروط السلم الذى أقرّه حلف الراين سنة ١٢٥٤

باسم الإله الآب، اجتمعت فى ٦ أكتوبر سنة ١٢٥٤ مدن حوض الراين المتحالفة من أجل حفظ السلام، وقد عقدنا هذا الاجتماع فى مدينة ورمز وناقشنا بعناية كل ما يمت بصلة للسلم العام، وكان أن دفعنا ولاؤنا للرب وللكنيسة المقدسة وللإمبراطورية المقدسة التى يحكمها الآن مولانا وليم (الهولندى) كما دفعنا الصالح العام للجميع - أغنياء وفقراء سواء - إلى وضع القوانين التالية، التى روعى فيها صالح الجميع: الفقراء والعظماء، الكنسيين والرهبان والعلمانيين واليهود، وفى سبيل تنفيذ هذه المبادئ من أجل الصالح العام لن نضن بأرواحنا أو ممتلكاتنا، ويشترك معنا فى ذلك الأُمراء والحكّام الذين شاركونا فى القسم:

١ - نقرر أننا لن نشن حملات حربية إلا ما تفرضه الضرورة القصوى وذلك بقرار من مجالس المدن، ونتعهد بأن نتبادل المساعدة ونساعد بعضنا بعضا بكل قوة من أجل إزالة المتاعب التى تعانيها.

٢ - يتعهد كل عضو من أعضاء الحلف - سواء كان مدينة أو حاكما، مسيحيا أو يهوديا - بعدم تقديم طعام أو سلاح أو معونة من أى نوع إلى من يعارضنا أو يهدد سلامنا، كائنا من كان.

٣ - كذلك لايجوز لأية مدينة من مدن الحلف أن تقدم قرضا لمن يعتدى على الحلف ويهدد أمنه.

٤ - لايجوز لمواطن فى أية مدينة تنتمى إلى هذا الحلف أن ينضم إلى المعتدى أو يقدم له مشورة أو معونة، فإذا فعل أحدهم ذلك وجب طرده من المدينة التى ينتمى إليها وعقابه عقوبة شديدة فى ممتلكاته بحيث يصبح عبرة لغيره.

٥ - إذا لجأ فارس أثناء مساعدته لسيده الإقطاعى الذى يحاربنا إلى مهاجمتنا أو التحرش بنا فى أى مكان خارج مدن سيده المسورة، فإنه يعتبر منتهكا للسلم، ولذا فإننا سنوقع عليه عقوبة صارمة فى نفسه وممتلكاته، أيًا كان شخصه، فإذا ألقى القبض عليه فى أية مدينة سيعتبر أسيرا ويسجن إلى أن يقدم ترضية مناسبة.

ونحن نرغب أيضاً فى حماية الفلاحين ، وسنقدم لهم الحماية ضد أى عدوان إذا عاونونا فى حفظ هذا السلم. ولكن إذا حاربونا، واستطعنا الظفر بهم فى أية مدينة، فإننا سنعاقبهم بوصفهم مجرمين آثمين.

٦ – نرى أن تحطم المدن جميع القوارب النهرية ما عدا تلك التى تعمل فى المنطقة المتاخمة لها مباشرة، وذلك حتى لا يجد أعداء الحلف وسيلة لعبور نهر الراين وتهديد المدن الأعضاء.

٧ – نقرر تعهدنا بتقديم كل معونة أو مساعدة ممكنة لحماية أى أمير أو فارس يساعدنا فى إقرار السلم، أما من يأبى أن يقسم ويتعهد بالمحافظة معنا على السلم، فإنه يستبعد تماما من القواعد العامة لهذا السلم.

٨ – إذا احتفظنا فى مدننا بشخص كرهينة، فإننا نتعهد بحمايته من أى عدوان ، وترك الحرية له فى دخول المدينة أو الخروج منها وفقما يشاء.

٩ – ولكن إذا حاول مثل هذا الشخص الهرب حانثا، بأيمانه، فإن المدينة تنذره ثلاث مرات، فإذا لم يعد فإن لصاحب الرهن أن يقيم عليه دعوى أمام القضاة لإعادته.

١٠ – وقبل أى اعتبار آخر، فإننا نحب أن نؤكد رغبتنا فى أن نعيش فى سلم مشترك مع الأمراء وجميع الأهالى فى إقليم الراين، ونرغب فى أن يتمتع الجميع بحقوقهم كاملة.

١١ – يحرم على أى مواطن أن يسب الحكام والأمراء - حتى ولو كانوا معادين لنا - وإلا تعرض للعقوبة، لأننا مع كوننا نرغب فى ردعهم، ومعاقبتهم على أعمال التهديد والعدوان التى يرتكبونها فى حقنا، إلا أننا نرغب دائما فى تحذيرهم أولا قبل أن نشن حربا عليهم.

١٢ – نقرر أن جميع الاتصالات الخاصة بهذا الموضوع يكون مركزها مدينة ميتز بين مدن حوض الراين الأدنى، ومدينة ورمز بين مدن أعلى الراين، ومن هاتين المدينتين تتم جميع اتصالاتنا ومراسلاتنا، وأية مدينة من مدن الحلف يلحق بها أذى أو ضرر عليها أن ترسل رسلها على نفقتها الخاصة إلى إحدى هاتين المدينتين للتبليغ عما تعرضت له.

١٣ – نعدُ جميع الأمراء والحكام والمدن بأنه فى حالة عقد مؤتمر فى أى مكان، فإننا نتعهد بإرسال أربعة ممثلين مزودين بجميع السلطات من مدنهم لبحث الأُمور المعلقة. وعلى هؤلاء المندوبين إخبار مدنهم بكل ما يتخذ فى ذلك الاجتماع من قرارات وكل من يصحب هؤلاء المندوبين إلى مكان الاجتماع يتمتع بحصانة ولايجوز الاعتداء عليه أو تنفيذ حكم عليه قسرا.

١٤ – لايجوز لمدينة أن تقبل كمواطنين أهالى غير مقيمين فيها من أولئك الناس الذين اعتادوا أن يعيشوا خارج أسوار المدن عيشة غير مستقرة.

١٥ – ونؤكد أنه إذا خرق عضو من أعضاء الحلف شروط السلم، فإننا سنتضامن ضده جميعا كما لو كان ليس عضوا فى الحلف، وذلك حتى نضطره إلى التوبة وتقديم الترضية الكافية.

١٦ – ونعد بأن يخبر بعضنا بعضا عن طريق المراسلات بحقيقة أعدائنا، ومن يتربصون بنا الدوائر، حتى يمكن عقد اجتماعات فى الوقت المناسب نقرر فيها ما يتخذ لحماية أنفسنا منهم.

١٧ – نقرر أنه لا يجوز لأحد أن يقتحم دير الرهبان أو الراهبات مهما تكن الهيئة أو المنظمة التى ينتمون إليها أو بفرض نفسه ضيفا عليهم أو يطلب منهم طعاما أو أية مساعدة رغم إرادتهم، فإذا فعل أحد ذلك، اعتبر خارقا لهذا السلم.

١٨ – تتعهد كل مدينة من مدن هذا الحلف بالعمل على إغراء المدن المجاورة لها لكى تقسم باحترام هذا السلم، فإذا رفضت ذلك فإنها تصبح خارجة عن دائرة هذا السلم، بمعنى أن أيا من يعتدى عليها فى الأرواح أو الممتلكات لا يعتبر خارقا لهذا السلم.

١٩ – على جميع أعضاء هذا الحلف ـ من المدن والحكّام وغيرهم ـ أن يسلحوا أنفسهم ويستعدوا للقتال استعدادا طيبا، بحيث يمكن الاعتماد عليهم فى ساعة الخطر.

٢٠ – كل مدينة من المدن الواقعة بين نهر الموزل وبازل عليها أن تعد مائة قارب مسلح، والمدن الواقعة وراء الموزل تعد خمسمائة قارب مزودة بالرماة المسلحين، فضلا عن أنه يجب على كل مدينة أن تجهز نفسها بأقصى ما تستطيع تجهيزه من أسلحة للفرسان والجنود المشاة.

١٩ - مراسيم العصبة الهانزية ١٢٦٠ - ١٢٦٤

١ - تتعهد كل مدينة من المدن المشتركة فى هذه العصبة بأن تبذل كل ما فى وسعها لتطهير البحر من القراصنة، حتّى يستطيع التجار أن يأمنوا على نقل بضائعهم عن طريق البحر.

٢ - أى فرد يطرد من مدينة من مدن العصبة بسبب جريمة اقترفها لا يصح أن تقبله وتأويه مدينة أخرى.

٣ - إذا خطف القراصنة أو اللصوص أحد المواطنين، فلا يجوز فداؤه وإنما يرسل حزامه وسيفه إليه ليكون ذلك نذيرا لمن اختطفوه.

٤ - وإذا افتداه أى تاجر من الأسر، فإن هذا التاجر يتعرض لمصادرة جميع ممتلكاته فى جميع المدن التى تتبع هذه المنظمة والتى تتبع قانون ليوبك.

٥ - أى فرد يدان فى مدينة بالسرقة ويطرد من حماية القانون، فإن جزاءه يكون كذلك فى جميع مدن العصبة.

٦ - إذا حاصر أحد الأمراء مدينة، فلا يجوز أن يساعد أحد ذلك الأمير فى عمله إلا إذا كان الأمير سيده الإقطاعى.

٧ - إذا نشبت حرب فى البلاد ، فلا يجوز لمدينة أن تنزل الأذى برعايا وتجار المدن الأخرى النازلين فيها - سواء فى أشخاصهم أو بضائعهم وإنما تقوم بحمايتهم.

٨ - إذا تزوج رجل امرأة فى مدينة ثمّ أتت امرأة من مدينة أخرى وأثبتت أن الرجل زوجها، فإنه يجب قطع رقبة الرجل فى هذه الحالة.

٩ - إذا زوج الرجل ابنته أو ابنة أخيه لرجل من مدينة أخرى، ثمّ ادعى فرد أن المرأة زوجته الشرعية، دون أن يستطيع إثبات صحة دعواه، تقطع رقبة المدعى.

المحتويات

مراجع الجزء الأول

اكتفى المؤلف فى القائمة الآتية بأسماء المراجع التى أمكنه الرجوع إليها عند وضع هذا الجزء والتى تردد ذكرها فعلا فى حواشيه.

- أرنولد (ت . و) : الدعوة إلى الإسلام.

ترجمه إلى العربية الأساتذة: الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوى. (القاهرة ١٩٤٧) .

- برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) .

ترجمه إلى العربية الدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٥٦) .

- برنارد لويس: العرب فى التاريخ.

تعريب الأساتذين نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد (بيروت ١٩٥٤) .

- توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية: نشأتها وتطورها (القاهرة، ١٩٦٠) .

- توفيق الطويل: أسس الفلسفة (القاهرة، ١٩٦٤) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية. الطبعة الرابعة (جزءان - القاهرة ١٩٨٦) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد أنيس: النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (القاهرة ١٩٥٦) .

- لين بول (ستانلى) . العرب فى إسبانيا.

نقله إلى العربية المرحوم الأستاذ على الجارم (القاهرة ١٩٤٤) .

- Adams (G. B.):

The History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066 - 1216) London: 1905.

- Atiya (A. S.):

The Crusade in the Later Middle Ages. London; 1938.

- Baring - Gould (S.):

Germany. London; 1886.

- Barker (B.) Clark (G.) Vaucher (P.):

The European Inheritance (3 Vols.) Oxford; 1945.

- Barraclough (G.):

The Origins of Modern Germany, Oxford; 1947.

- Baynes (N. H.):

Constantine the Great and the Christian Church. London 1929.

- Bloch (G.):

L'Empire Romain. Paris; 1931.

- Boyesen (H. H.):

A History of Norway. London: 1900.

- Bradley (R.):

The Goths. London; Fifth Edition.

- Bryce (J.):

The Holy Roman Empire, London; 1907.

- Bury (J. B.):

History of the Later Roman Empire (2 Vols) London, 1923.

- Cary (M.):

A History of Rome down to the Reign of Constantine. London 1954.

- Chapman (C. E.):

A History of Spain. New York; 1931.

- Chapot (V.):

Le Monde Romain. Paris 1927.

- Coulton (G. G.):

The Medieval Scene. Cambridge; 1931.

- Coulton (G. G.):

Life in the Middle Ages. Cambridge; 1928.

- Davis (H. W. C.):

Charlemagne. London; 1929.

- Dawson (C.):

The Making of Europe. London; 1935.

- Deanesly (M.):

A History of Early Medieval Europe. London: 1956.

- Diehl (C.):

History of the Byzantine Empire, Princeton, 1925.

- Diehl (C.) Marcais (G.):

Le Mond Oriental de 395 a 1081. (Hist. du Moyen Age Tome 3) Paris; 1936.

- Dill (S.):

Roman Society From Nero to Marcus Aurelius. London; 1925.

- Dill (S.):

Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. London. 1926.

- Doz (R.) Stokes (F. G):

Spanish Islam, London, 1931.

- Duchesne (L.):

Histoire Ancienne de L'Eglise (3 Vols.) Paris, 1923.

- Dudden (F. H.):

Gregory the Great: His Place in Hist. and Thought; (2 Vols) London, 1905.

- Eginhard: The Life of Charlemagne.

(Trans By A. J. Grant) London, 1926).

- Eyre (E.):

European Civilization (Vol, 3 The Middle Ages) London 1935.

- Fichenau (H.):
The Carolingian Empire. Oxford, 1957.
- Fliche (A.):
L'Europe Occidentale de 888 a 1125 (Hist. du Moyen Age. Tome 2) Paris, 1930.
- Fliche (A.):
La Chretienté Medlévale. paris, 1929.
- Gibb (H. A. R.):
The Damascus Chronicle of the Crusades . London, 1932.
- Gibbon (E.):
The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (7 Vols.) Oxford, 1929.
- Gibbons. (H. A.):
The Foundation of the Ottoman Empire. Oxford., 1916.
- Glover. (T. R.):
The Conflict of Religions in the Early Roman Empire London 1910.
- Grousset (R.):
History des Croisandes et du Royaume France de Jérusalem (3. Vols.) Paris, 1936.
- Cuizot (M.):
Histoire de La Civilisation en France. Paris, 1968.
- Halphen (L.):
Etudes Critiques sur L' Histoire de Charlemagne Paris. 1921.
- Hardy (E. G.).
Studies in Roman History (2 Vols.) London 1910.
- Haskins (C. H.):
The Normans in European History. Cambridge, 1915.

- Haskins (C. H.)

The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge 1928.

- Hayward (F.):

A History of the Popes. London, 1931.

- Hearnshaw (F. J. C.):

Some Great Political idealists of the Christian Era. London 1937.

- Hodgkin (T.):

The History of England from the the Earliest Times to the Norman Conquest. London, 1920.

- Hodgkin (T.):

Italy and Her Invaders (4 Vols.) Oxford, 1896.

- Hubert (H.):

Les Germains. Paris, 1952.

- Hug. (L.) Stead (R.):

Switzerland. London, 1898.

- Kantorowacz (E.):

Frederick the Second. London. 1931.

- Karsten (T. E.):

Les Anciens Germains. Paris, 1931.

- Katz (S.):

The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1955.

- Kleinclausz (A.):

Charlemagne. Paris, 1934.

- Lavisse (E.):

Histoire de France, Paris, 1911.

- Lodge (R.):

The Close of the Middle Ages. London, 1922.

- Lot (F.):

Les Invasions Germaniques, Paris, 1935.

-Lot (F.):

The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages. London, 1931.

- Lot (F.):

Les Invasions Barbares (2 Vols.) Pairs. 1942.

- Lot (F.): Pfister (C.) Ganshof (F.):

Les Destineen de I'Empire en Occidend 395 - 888 (Fin du Moyen Age). Tome, 1. Paris,1928.

- Mawer (A.):

The Vikings. Cambridge, 1930.

- Miller (W.):

The Balkans. London, 1908.

- Morfill (W. R.):

Russia, London, 1908.

- Morfill (W.R):

poland. London; 1863.

- Moss (H.S.):

The Birth of the Middle Age. Oxford, 1947.

- Oman (C.):

The Dark Ages, London, 1908.

- Oman (E.):

The History of England (1377 - 1485) London, 1920.

- Orton (C.W.P.):

outlines of Medieval History. Cambridge, 1924.

- Ostrogorsky (C.):
History of the Byzantine state. Oxford, 1956.
- Painter (S.):
A History of the Middle Ages, New York, 1954.
- Perroy (E.):
La Guerre de Cent Ans. Paris, 1954.
- Pirenne (H.):
Mohammed and Gharlemagne, London, 1924.
- Pirenne (H.): Renaudet (H.) Perroy (E.), Handelsman (M.) Haiphen (L.):
La Fin du Moyen Age (2 vols.), Zaris, 1931.
- Poole (R. L.):
Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning London, 1920.
- Rambaud (A.):
Histoire de la Russie Depuis fes Origines insqu'a l'annse 1877, Paris, 1878.
- Rogers (J.E.T.):
Holland, London, 1885.
- Rostovzeff (M.):
A History of the Ancient World (2 vols.) Oxford. 1928.
- Runciman (S.):
A History of the Crusade (3. vols.) Cambribge, 1951.
- Stephons (H. M.):
Portugal, London, 1891.
- Stephenson (C.):
Mediaval History, New York, 1943.

- Stevenson (W. B.):

The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

- Tacitus: Germania (Trans, by G. F. Stout).

- Taylor (O. H.):

The Mediaeval Mind (2 vols.) London, 1938.

- The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne (Transe. by A. J. Grant) London, 1926.

- Thompson (J. W.):

The Middle Ages (2 Vols.) London.

- Tout (T. F.):

The History of England (1219 - 1377) London, 1920.

- Tout (T. F.):

France and Rngland; Their Relations in the Middle Ages and Now. Manchester, 1922.

- Tout (T. F.):

The Empire and the Papacy, London, 1924.

- Ullmann (W.):

The Growth of Papal Government in the Middle Ages. London, 1955.

- Ullmann (W.)

Medieoal Papalism, London, 1948.

- Vasiliev (A. A.):

Histoire de l'Empire Byzantine (2 Vols) Paris, 1932.

- Wallace - Hadrill (J. M.):

The Barbarian West London, 1952.

- Watts (H. E.)

Spain, London, 1983.

- Winn (H. E.): Workman (H. B.):

Wiclif, Oxford, 1929.

- Workman (H. B.):

The Evolution of the Monastic Ideal, London, 1957.

- Zimmerman (H.):

The Hansa Towns, London, 1389.

- The Cambridge Medieval History (8 Vols.) Cambridge, 1963.

- The Cambridge Ancient History (Vol. 10) .

فهرس الخرائط

صفحة

١ – الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ....

٢ – الإمبراطورية الرومانية وجيرانها فى القرن الرابع ٨٧

٣ – الإمبراطورية الرومانية والممالك الجرمانية (حوالى ٥٠٠ م) ....

٤ – إيطاليا حوالى سنة ٥٩٠ .... ١٥٦

٥ – غاليا فى العصر الميروفنجى ١٩٢

٦ – إمبراطورية شارلمان ....

٧ – تقسيم فردان سنة ٨٤٣م ٢١٠

٨ – غرب أوربا فى القرن الثانى عشر ٣٦٣

٩ – الإمبراطورية الغربية فى القرن العاشر ٢٩٤

١٠ – النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا ٣١٧

١١ – الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى عصر أسرة الهوهنشتاوفن ٣٦٤

١٢ – الإمارات الصليبية فى القرن الثانى عشر ٤٢٢

١٣ – حوض البحر المتوسط عقب الحملة الصليبية الأولى ....

١٤ – حرب المائة عام ٤٦٥

١٥ – إسبانيا بين المسلمين والمسيحيين ٥١١

١٦ – مدن العصبة الهانزية والفرسان التيتون ٥٥٢

١٧ – شرق أوربا فى القرن الثاث عشر ٥٧٤

موضوعات الكتاب

مقدمة المؤلف ٥

الباب الأول: أصول التاريخ الأوربى ١١

الحضارة اليونانية ١٢

الاسكندر الأكبر ونشر الحضارة اليونانية ١٦

ظهور روما ١٨

اتساع الدولة الرومانية وأثره ٢٠

أحوال روما فى القرن الأخير من الجمهورى ٢٢

سقوط الجمهورية الرومانية وقيام الإمبراطورية الرومانية ٢٦

الباب الثانى: الإمبراطورية الرومانية ٢٩

الإمبراطور دقلديانوس ٣٨

الإمبراطور قسطنطين ٤٣

الإمبراطورية بعد قسطنطين ٤٧

الباب الثالث: الإمبراطورية والمسيحية ٥١

صحوة الوثنية ٦٣

نشأة البابوية ٦٩

الباب الرابع: البرابرة وسقوط الإمبراطورية فى الغرب ٧٥

الجرمان ٧٩

القوط الغربيون ٨٧

الوندال ٩٢

الهون ٩٣

البرجنديون ٩٥

سقوط الإمبراطورية الغربية ٩٦

الفرنجة ٩٨

القوط الشرقيون ١٠٣

الإنجلز وبريطانيا ١٠٧

الباب الخامس: الإمبراطورية البيزنطية ١١١
الإمبراطور جستنيان ١١٣
الإمبراطورية البيزنطية بعد جستنيان ١٢٢
هرقل ١٢٤
ليو الثالث الأيسورى ١٢٧
قسطنطين الخامس ١٣٢
نهاية البيت الأيسورى ١٣٥
الباب السادس: الإسلام ١٣٩
الباب السابع: إيطاليا بين ثلاث قوى ١٥٣
ازدياد نفوذ البابوية ١٥٩
التحالف بين البابوية والفرنجة ١٦٦
الباب الثامن: الرهبانية الديرية ١٧١
الديرية فى غرب أوربا ١٧٧
الديرية الأيرلندية ١٨٣
المبشرون الإنجلز فى غاليا وألمانيا ١٨٦
الباب التاسع: شارلمان وإمبراطورية الفرنجة ١٨٩
رؤساء البلاط فى دولة الفرنجة ١٨٩
حضارة الدولة الميروفنجية ١٩٤
الدولة الكارولنجية ١٩٦
تتويج شارل العظيم إمبراطورا ٢٠٠
إصلاحات شارلمان ٢٠٤
شارلمان والكنيسة ٢٠٧
تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية ٢٠٨
الباب العاشر: الفيكنج ٢١٣
إغارات الفيكنج على الإمبراطورية الكارولنجية ٢١٧
إغارات الفيكنج على إنجلترا ٢٢٥
غزوات الفيكنج لأيرلندا ٢٢٩

الفيكنج فى الجزر الشمالية ٢٣٣
توسع السويديين شرقًا ٢٣٣
نشاط الفيكنج فى حوض البحر المتوسط ٢٣٧
حضارة الفيكنج ٢٣٨
الباب الحادى عشر: أسرة كابيه فى فرنسا ٢٤١
آل كابيه الأوائل ٢٤٥
لويس السادس ٢٤٧
لويس السابع ٢٤٩
فيليب أوغسطس ٢٥٠
الحملة الألبيجنسية ١٥٦
إصلاحات فيليب أوغسطس ٢٦٠
لويس الثامن ٢٦٣
لويس التاسع ٢٦٣
فيليب الثالث الجرىء ٢٦٨
فيليب الرابع الوسيم ٢٦٩
نهاية أسرة كابيه ٢٧٦
الباب الثانى عشر: ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة ٢٧٩
أرنولف ٢٨٠
لويس الطفل ٢٨٣
كونراد الأول ٢٨٤
هنرى الأول الصياد ٢٨٥
أوتو الأول العظيم ٢٨٨
أوتو الثانى ٢٩٥
أوتو الثالث ٢٩٨
هنرى الثانى ٣٠٠
كونراد الثانى ٣٠٤
هنرى الثالث ٣٠٨

الباب الثالث عشر: إيطاليا والبابوية ٣١٣
قيام دولة النورمان فى جنوب إيطاليا ٣١٣
شمال إيطاليا ووسطها فى القرن الحادى عشر ٣١٩
البابوية والكنيسة الغربية ٣٢٠
حركة الإصلاح الكلونية ٣٢٥
البابا جريجورى السابع ٣٣١
الباب الرابع عشر: الإمبراطورية والبابوية ٣٣٥
الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية ٣٣٨
أحوال الإمبراطورية بعد اتفاقية ورمز ٣٥١
الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية ٣٥٩
الإمبراطورية عقب صلح البندقية ٣٦٧
الدورالثالث من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية ٣٧٦
الباب الخامس عشر: الدولة البيزنطية والسلاجقة ٣٨٧
الأسرة العمورية ٣٩١
الأسرة المقدونية ٣٩٥
السلاجقة ٤٠٦
الباب السادس عشر: الحروب الصليبية ٤١٣
طابع الحروب الصليبية وأهدافها ٤١٣
أسباب الحملة الصليبية عند الغربيين ٤١٦
الحملة الصليبية الأولى ٤١٨
أحوال الصليبيين فى الشرق ٤٢٤
قيام الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها ٤٢٦
الحملة الصليبية الثالثة ٤٢٨
الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر ٤٢٩
نهاية الحروب الصليبية ٤٣٣
نتائج الحروب الصليبية وأثرها فى غرب أوربا ٤٣٥

الباب السابع عشر: إنجلترا بعد الغزو النورمانى ٤٣٧
أثر الفتح النورمانى فى إنجلترا ٤٣٧
وليم الفاتح ٤٣٩
وليم الثانى وهنرى الأول ٤٤٠
هنرى الثانى ٤٤١
ريتشارد الأول ٤٤٤
الملك حنا والعهد الأعظم ٤٤٤
هنرى الثالث ٤٤٧
إدوارد الأول ٤٤٨
إدوارد الثانى ٤٥١
إدوارد الثالث وحركة وكلف ٤٥٢
ريتشارد الثانى ٤٥٣
هنرى الرابع ٤٥٤
هنرى الخامس ٤٥٥
هنرس السادس ٤٥٥
ريتشارد الثالث وقيام أسرة تيودور ٤٥٧
الباب الثامن عشر: حرب المائة عام ٤٥٩
الباب التاسع عشر: البابوية والحركات الدينية أواخر العصور الوسطى ٤٧٣
البابوية فى أوج عظمتها ٤٧٣
الأسر البابلى ٤٧٥
الانشقاق الدينى الأكبر ٤٧٩
الحركات الهرطقية ٤٨٥
الباب العشرون: إسبانيا بين المسلمين والمسيحيين ٤٩٣
إسبانيا بعد الفتح الإسلامى ٤٩٣
التوسع المسيحى فى الأندلس ٥٠٣
التطورات السياسية فى أيبريا أواخر العصور الوسطى ٥١٣

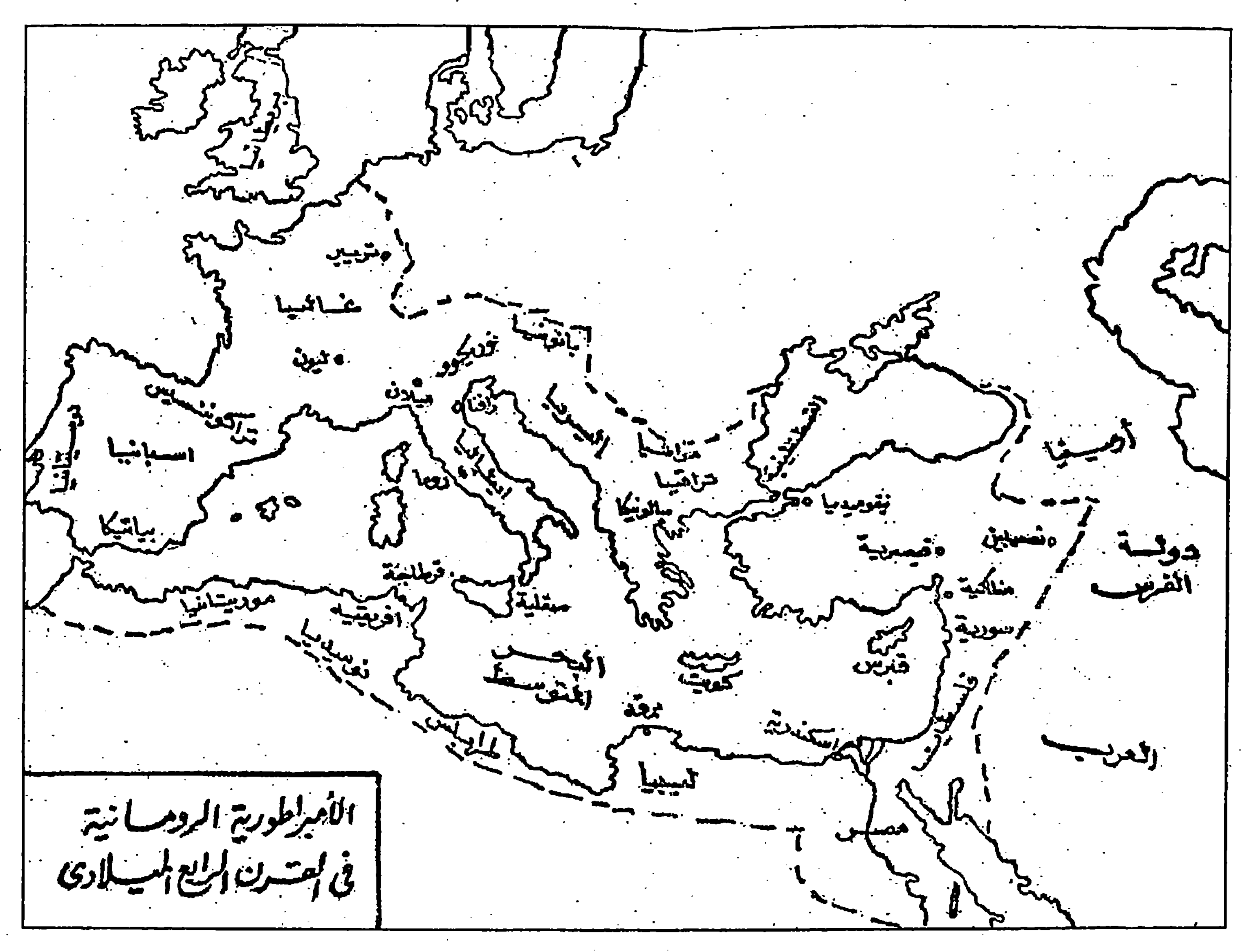
مملكة قشتالة ٥١٤
مملكة أرغونة ٥١٨
عصر فردناند وإيزابلا ٥٢٤
البرتغال وحركة الكشوف الجغرافية ٥٢٨
الباب الحادى والعشرون: ألمانيا وغرب أوربا أواخر العصور الوسطى ٥٣٣
قيام أسرة هابسبورج فى الحكم ٥٣٤
لودويج الرابع والبابوية ٥٤١
شارل الرابع، الوباء الأسود والمرسوم الذهبى ٥٤٥
ألمانيا فى القرن الخامس عشر ٥٤٧
العصبة الهانزية ٥٤٩
نشأة سويسرا ٥٥٣
نشأة دولة الأراضى المنخفضة ٥٥٦
الدول السكندناوية ٥٥٨
الباب الثانى والعشرون: شرق أوربا ٥٦٣
السلاف الجنوبيون والهنغاريون ٥٦٤
السلاف الغربيون ٥٦٦
السلاف الشرقيون ٥٦٨
المغول وأوربا ٥٦٩
الفرسان التيتون ٥٧٢
بولندا بعد الغزو المغولى ٥٨٠
روسيا والغزو المغولى ٥٨٤
الباب الثالث والعشرون: نهاية الدولة البيزنطية ٥٨٩
أسرة كومنين ٥٨٩
أسرة أنجيلوس ٥٩٣
الإمبراطورية اللاتينية فى الشرق البيزنطى ٥٩٤
لإمبراطورية البيزنطية والعثمانوين ٥٩٩

جدول (١) قوائم البابوات والحكام ٦٠٩
أولا ـ البابوات ٦٠٩
ثانيا: الأباطرة والحكام ٦١٤
١ – أباطرة الدولة البيزنطية ٦١٤
٢ – أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وملوكها ٦١٦
٣ – ملوك فرنسا ٦١٧
٤ – ملوك ألمانيا ٦١٧
٥ – ملوك إنجلترا بعد الفتح النورمانى ٦١٨
٦ – اللمبارديون فى إيطاليا ٦١٨
٧ – ملوك القوط الشرقيين فى إيطاليا ٦١٨
٨ – ملوك القوط الغربيين فى إسبانيا ٦١٩
٩ – الوندال فى أفريقية ٦١٩
١٠ – الأمويون فى الأندلس ٦١٩
١١ – ملوك أرغونة ٦٢٠
١٢ – ملوك قشتالة ٦٢٠
١٣ – مملكة بيت المقدس الصليبية ٦٢١
١٤ – حكام جنوب إيطاليا وصقلية ٦٢١
١٥ – السلاطين العثمانيون ٦٢٢
١٦ – ملوك بوهيميا ٦٢٢
١٧ – ملوك هنغاريا ٦٢٢
١٨ – ملوك بولندا ٦٢٣
جدول (٢) تسنين أهم الحوادث التاريخية ٦٢٥
نصوص ووثائق
١ – الشعوب الجرمانية كما وصفها تاكيتوس ٦٤٣
٢ – مرسوم ميلان سنة ٣١٣ الذى أصدره قسطنطين وليكنيوس ٦٤٧
٣ – نظام القديس بندكت الديرى ٦٤٩
٤ – البابا جريجورى الثالث يطلب معونة الفرنجة لرد اللمبارديين ٦٤٥

٥ – شارلمان كما وصفه إينهارت ٦٥٥
٦ – مرسوم البابا نيقولا الثانى لتحديد طريقة انتخاب البابوات ٦٥٩
٧ – قرار مجمع روما سنة ١٠٧٤ لتحريم السيمونية وزواج رجال
الدين ٦٦٢
٨ – قرار الإمبراطور هنرى الرابع للبابا جريجورى السابع ٦٦٣
٩ – الإرادة البابوية (حوالى سنة ١٠٩٠م) ٦٦٥
١٠ – البابا أنوسنت الثالث يأمر بعقاب الهراطقة ٦٦٧
١١ – بعثة القديس أوغسطين التبشيرية إلى انجلترا ٦٦٨
١٢ – موقعة مانزكرت (١٦ أغسطس ١٠٧١) ٦٧٠
١٣ – العهد الأعظم ٦٧٣
١٤ – قرار الحرمان ضد فردريك الثانى سنة ١٢٣٩ .... ٦٧٧
١٥ – براءة بابوية بإنشاء جامعة فى أفينون سنة ١٣٠٣ .... ٦٨٠
١٦ – المرسوم الذهبى الذى أصدره شارل الرابع سنة ١٣٥٦ .... ٦٨٢
١٧ – قيام حلف الراين (١٢٥٤) ٦٨٥
١٨ – شروط السلم الذى أقره حلف الراين (١٢٥٤) ٦٨٧
١٩ – مراسيم البعثة الهانزية ١٢٦٠ – ١٢٦٤ .... ٦٩٠
مراجع ٦٩٣
موضوعات الكتاب ٧٠٣

غرب أوربا
في
القرن الثاني عشر

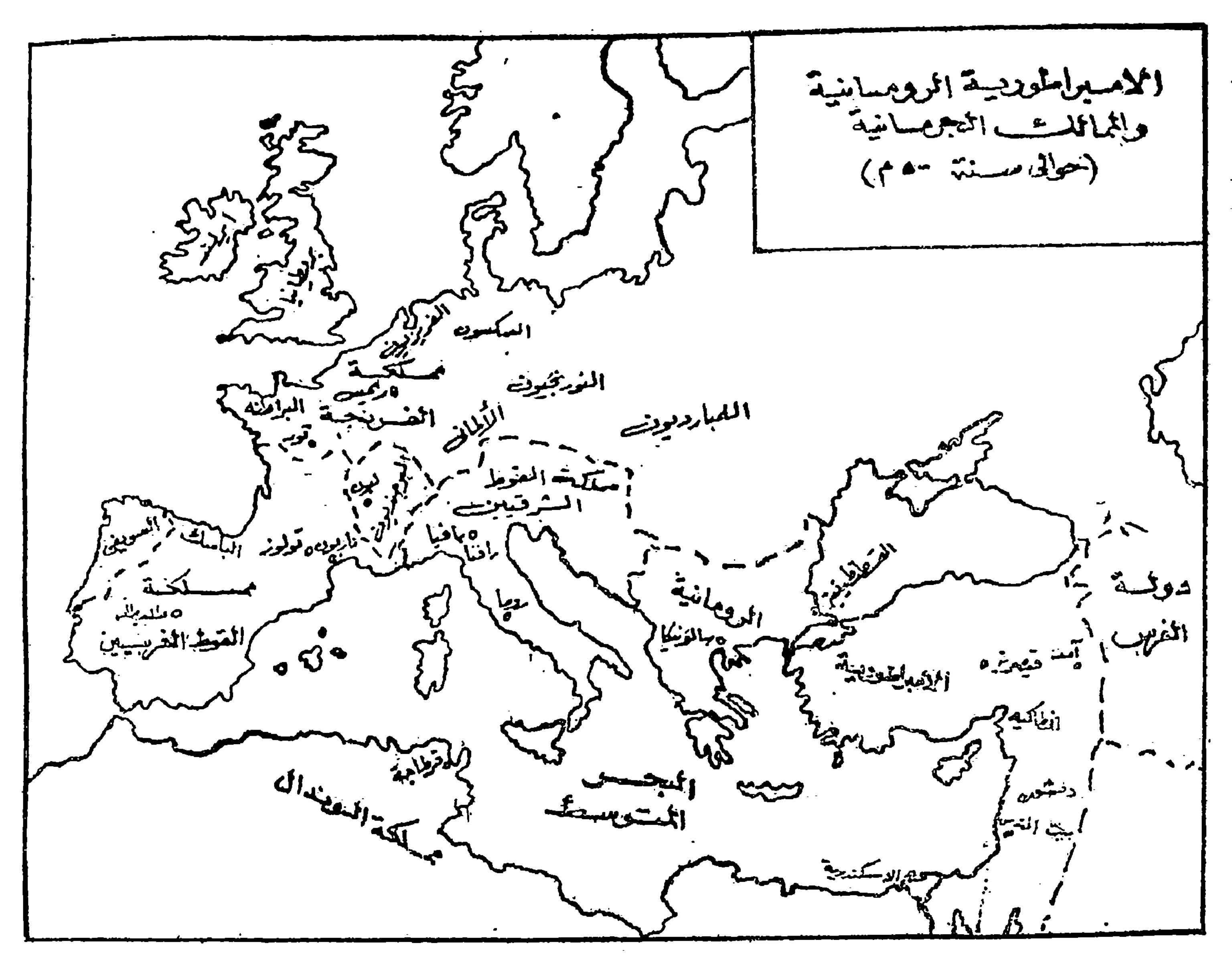
لنكولن
لندن
كانتربوري
سكسونيا
ثورنجيا
فرانكونيا
بوهيميا
مورافيا
الإمبراطورية
الرومانية
المقدسة
بافاريا
سوابيا
مملكة
هنغاريا
نورماندي
مملكة
فرنسا
مين
انجو
بواتو
شامبني
اوفرنيا
تولوز
بورجنديا
ميلان
بافيا
فيرونا
لمبارديا
بارما
جنوة
تسكانيا
مرسيليا
كورسيكا
سردينيا
روما
البابوية
مملكة
النورمان
برنديزي
باليرمو
صقلية
مملكة
ليون
مملكة
البرتغال
مملكة
قشتالة
طليطلة
نافار
مملكة
ارغونة
برشلونة
دولة المرابطين
قرطبة



الأمبراطورية الرومانية
في القرن الرابع الميلادي

امبراطورية شارلمان

سكسونيا
شعوب سلافية
أترخت
كولونيا
ثورنجيا
آخنه
فولدا
أوستراسيا
بينزه
نستريا
رعنين
باريس
ستراسبورج
رجنسبورج
البوهيميون
بريتاني
آل مانيا
بافاريا
اورليان
الآفار
تور
بورج
كارنثيا
برجنديا
أكويتين
ليون
مملكة
ميلان
البندقية
بافيا
اللمبارديين
الصرب
قاسكونيا
بروفانس
جنوة
الماركة الأسبانية
بروجياه
روماه



الامبراطورية الرومانية
والممالك الجرمانية
(حوالي سنة ٥٠٠ م)
السكسون
الفريزيون
مملكة
ريمس
الفرنجة
الثورنجيون
اللمبارديون
الألمان
مملكة القوط
الشرقيين
بافيا
رافنا
تولوز
ناربونة
الباسك
السويفي
مملكة
طليطلة
القوط الغربيين
روما
الرومانية
سالونيكا
القسطنطينية
آمد
قيصرية
انطاكيه
دمشق
بيت المقدس
الاسكندرية
البحر
المتوسط
قرطاجة
مملكة الوندال
دولة
الفرس

حوض البحر المتوسط
عقب الحملة الصليبية الأولى

فرنسا
الامبراطورية الرومانية المقدسة
هنغاريا
ليون
البرتغال
قشتالة
طليطلة
قرطبة
أرغونة
نافار
تولوزه
برشلونة
ليون
ميلان
البندقية
النورمان
القسطنطينية
الامبراطورية البيزنطية
سلاجقة الروم
قونية
أرمينيا الصغرى
الرها
انطاكية
قبرس
طرابلس
كريت
بيت المقدس
دمياط
الاسكندرية
الدولة الفاطمية
القاهرة

أوربا العصور الوسطى

الجزء الأول

التاريخ السياسى


ISBN 977-05-1510-8

مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
The World of Words & Thoughts
www.anglo-egyptian.com